مدارك التنزيل وحقائق التأويل

تفسير النسفي

جفري

للإمام

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

المتوفى سنة ٧١٠هـ رحمه الله تعالى

حققه وعلق عليه

الدكتور محمد محمد علي درويش

رئيس قسم الأحوال الشخصية

عضو هيئة التدريس في جامعة الإمام الشافعي بإندونيسيا

راجعه وقدم له

الدكتور أحمد محمد الفاضل

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم

عضو هيئة التدريس في كلية العلوم الإسلامية

جامعة السلطان محمد الفاتح في إسطنبول

المجلد الثالث

دار تحقيق الكتاب

للطباعة والنشر والتوزيع

دار تحقيق الكتاب

Title: Tafsir al Nasafi

Autor: Abd Allah b. Ahmed al-Nasafi

Editor: Dr.Mohamad al Darwish

Publisher: Dar Tahkik Al Kitab

Pages: 672

Year: 2018

Printed in : Lebanon

Edition: 1

الكتاب: مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)

المؤلف: عبد الله بن أحمد النسفي

تحقيق: محمد محمد علي درويش

الناشر: دار تحقيق الكتاب

عدد الصفحات: 672 (المجلد الثالث)

سنة الطباعة: 2018

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى (لونان، ورق شاموا)





DAR TAHKIK AL KITAB

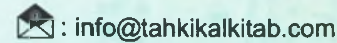


Büyük Reşit Paşa Caddesi Yümni İş Merkezi

No:16/B D:8 Vezneciler/Fatih/İstanbul/Turkey : +9 (0212)5190979

Merkez :1.Cadde No:66 MİDYAT/MARDİN : +9 (0482)4622775

www. tahkikalkitab.com



Dar Tahkik Al Kitab, Nursabah Yayıncılık
Matbaacılık Ltd.Şti'nin Tescilli Markasıdır
دار تحقيق الكتاب هي دار تابعة لمؤسسة دار نور الصباح


مدارك التنزيل وحقائق التأويل
تفسير النسفي
٣


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ....

سورة السجدة

مكيةٌ، وهي ثلاثون آيةً، وقيل: تسعٌ وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٢》 ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ على أنها اسمُ السورة: مبتدأٌ، وخبرُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وإن جعلتَها تعديداً للحروف.. ارتفع (تنزيل) بأنه خبرُ مبتدأ محذوف، أو: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أو: يرتفعُ بالابتداء، وخبرُه: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، و(لا ريب فيه): اعتراضٌ لا محلَّ له، والضميرُ في (فيه) راجعٌ إلى مضمون الجملة، كأنه قال: لا ريب في ذلك؛ أي: في كونه منزلاً من رب العالمين؛ لأنه معجزٌ للبشر، ومثلُه أَبْعَدُ شيء من الريب، ثم أَضرب عن ذلك إلى قوله:

《٣》 ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: اختلقَه محمدٌ؛ لأن (أم) هي المنقطعةُ الكائنةُ بمعنى: بلْ والهمزة؛ معناه: بل أيقولون افتراه؛ إنكاراً لقولهم، وتعجيباً منهم؛ لظهور أمره في عجزِ بُلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه، ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: ثم أضرب عن الإنكار إلى إثباتِ أنه الحقُّ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ولم يَفترِهِ محمدٌ ﷺ كما قالوا تعنتاً وجهلاً؛ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي: العربَ ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (ما): للنفي، والجملةُ: صفةٌ لـ(قوماً)، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ على الترجي من رسول الله ﷺ، كما كان ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤] على الترجي من موسى وهارون.

《٤》 ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: استولى عليه بإحداثِه، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾: من دون الله، ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: إذا جاوزتم رضاه.. لم تجدوا لأنفسكم وليّاً؛ أي: ناصراً ينصرُكم، ولا شفيعاً يشفع لكم، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾: تتعظون بمواعظِ اللهِ.

《٥》 ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمرَ الدنيا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى أن تقوم الساعةُ، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمرُ كلُّه؛ أي: يصيرُ إليه لِيحكمَ فيه، ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يومُ

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ ....

القيامة، ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ من أيام الدنيا، ولا تمسكَ للمشبهةِ بقوله: (إليه) في إثبات الجهة؛ لأن معناه: إلى حيثُ يرضاه، أو: أمْرِه، كما لا تشبثَ لهم بقوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات: ٩٩]، ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

《٦》 ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الموصوفُ بما مرَّ عالمُ ما غاب عن الخلق وما شاهدوه، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ أمرُه وتدبيرُه، ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾: البالغُ لطفُه وتيسيرُه.

《٧》 وقيل: لا وقفَ عليه؛ لأن: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفتُه، ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: حسَّنه؛ لأن كلَّ شيء مرتبٌ على ما اقتضته الحكمةُ، ﴿خَلَقَهُۥ﴾: كوفيٌّ ونافعٌ وسهلٌ؛ على الوصف؛ أي: كلُّ شيء خلقَه فقد أحسنَ خَلْقَه، غيرُهم: على البدل[1]؛ أي: أحسن خَلْقَ كلِّ شيء، ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾: آدمَ ﴿مِن طِينٍ ۝٧﴾.

《٨》 ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾: ذريتَه ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: من نطفةٍ ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أي: منيٍّ، وهو بدلٌ من (سلالة)، ﴿مَّهِينٍ ۝٨﴾: ضعيفٍ حقيرٍ.

《٩》 ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾: قوَّمه، كقوله: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ﴿وَنَفَخَ﴾ أدخل ﴿فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ الإضافةُ للاختصاص، كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتستمعوا وتُبصروا وتعقلُوا، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ أي: تشكرون قليلاً.

《١٠》 ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ القائلُ أُبيُّ بنُ خَلَفٍ، ولرضاهم بقوله.. أُسندَ إليهم، ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صِرنا تُراباً وذَهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نَتميزُ منه، كما يَضِلُّ الماءُ في اللَّبَنِ، أو غِبْنا في الأرض بالدفن فيها، وقرأ عليٌّ: ﴿ضَلِلْنا﴾: بكسر اللام[2]، يقال: ضلَّ يضِلُّ، وضلَّ يَضَلُّ[3]، وانتصب الظرفُ في (أئذا ضللنا) بما يدلُّ عليه: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ وهو: نُبعثُ، ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾: جاحدون، لما ذكر كفرَهم بالبعث.. أضربَ عنه إلى ما هو أبلغُ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالبعث وحدَه.

---

(١) أي: قرأ نافعٌ والكوفيون: (خَلَقَهُ)، والباقون: (خَلْقَهُ). انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٢).

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٠) وهي شاذة، ولم ينسبها لسيدنا علي رضي الله عنه.

(٣) من بابَيْ: ضَرَبَ وعَلِمَ.

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ....

«١١» ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بقبض أرواحِكم، ثم ترجعون إلى ربكم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء، وهذا معنى لِقاءِ اللهِ، والتَّوَفِّي: استيفاءُ النفْسِ، وهي: الروحُ؛ أي: يقبضُ أرواحَكم أجمعين؛ من قولك: توفيتُ حقي من فلان: إذا أخذتَه وافياً كمَلاً من غير نقصان، وعن مجاهد: حُوِيَتْ لملك الموتِ الأرضُ وجُعلت له مثلُ الطَّستِ يتناول منها حيث يشاء، وقيل: ملكُ الموتِ يدعو الأرواح فتجيبُه، ثم يأمرُ أعوانَه بقبضها، والله تعالى هو الآمرُ لذلك كلِّه، وهو الخالق لأفعال المخلوقات، وهذا وجه الجمع بين هذه الآية، وبين قولِه: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، وقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

«١٢» ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطابُ لرسول الله ﷺ، أو: لكلِّ أحدٍ، و(لو): امتناعيةٌ، والجوابُ محذوفٌ؛ أي: لرأيت أمراً عظيماً، ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: هم الذين قالوا: أئذا ضللنا في الأرض، و(لو) و(إذْ) للمُضِيِّ، وإنما جاز ذلك؛ لأن المترقَّبَ من الله بمنزله الموجود، ولا يُقَدَّرُ لـ(ترى) ما يتناولُه، كأنه قيل: ولو تكونُ منك الرؤيةُ، و(إذْ): ظرفٌ له، ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ من الذلِّ والحياءِ والندم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: عند حسابِ ربِّهم، ويوقفُ عليه لِحَقِّ الحذفِ؛ إذ التقدير: يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ صِدْقَ وعدِك ووعيدِك، ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديقَ رسلِك، أو: كنّا عُمياً وصُمّاً، فأبصرنا وسمعنا، ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي: الإيمانَ والطاعةَ، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ بالبعث والحساب الآن.

«١٣» ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ في الدنيا؛ أي: لو شئنا.. أعطينا كلَّ نفسٍ ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيارُ ذلك.. لاهتدَوا، لكن لم نُعطِهم ذلك اللطفَ؛ لمّا علمنا منهم اختيارَ الكفر وإيثارَه، وهو حجةٌ على المعتزلة، فإنَّ عندهم شاء الله أن يعطيَ كلَّ نفس ما به اهتدت، وقد أعطاها لكنها لم تهتدِ، وهم أوَّلُوا الآيةَ بمشيئة الجَبْرِ، وهو تأويلٌ فاسدٌ لما عرف في «تَبْصرَةِ الأدلةِ»، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾: ولكن وجب القولُ مني بما علمتُ أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنمَ، وهو ما عَلِمَ منهم أنهم يختارون الردَّ والتكذيب، وفي تخصيص الإنس والجن إشارةٌ إلى أنه عَصَمَ ملائكتَه عن عمل يستوجبون به جهنمَ.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ....

《١٤》 ﴿فَذُوقُوا﴾ العذابَ ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ﴾: بما تركتم عملَ لقاءِ ﴿يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وهو الإيمانُ به، ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾: تركناكم في العذاب كالمنسيِّ، ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: العذابَ الدائمَ الذي لا انقطاعَ له، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ من الكفر والمعاصي.

《١٥》 ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي: وُعِظُوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾: سجدوا لله تواضعاً وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: ونزَّهوا الله عمّا لا يليق به، وأثنَوا عليه حامدين له، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ عن الإيمان به والسجودِ له.

《١٦》 ﴿تَتَجَافَىٰ﴾: ترتفعُ وتتنحَّى ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾: عن الفُرُشِ ومواضعِ النوم، قال سهلٌ: وَهبَ لقومٍ هبةً، وهو أنْ أذن لهم في مناجاتِه، وجعلهم من أهل وسيلتِه، ثم مدحَهم عليه فقال: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، ﴿يَدْعُونَ﴾: داعين ﴿رَبَّهُمْ﴾ عابدين له ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: مفعولٌ له؛ أي: لأجل خوفِهم من سخطِه، وطمعِهم في رحمته، وهم المتهجِّدون، وعن النبي ﷺ في تفسيرها: «قيامُ العبد من الليل»[(١)]، وعن ابن عطاء: أبتْ جنوبُهم أن تسكنَ على بساط الغفلة، وطلبت بساطَ القُربة؛ يعني: صلاةَ الليلِ، وعن أنس: كان أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة، فنزلت فيهم[(٢)]، وقيل: هم الذين يصلون صلاة العَتَمَةِ لا ينامون عنها[(٣)]، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ في طاعة الله تعالى.

《١٧》 ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾ (ما) بمعنى: الذي، ﴿أُخْفِيْ﴾: على حكاية النفس: حمزةُ ويعقوبُ[(٤)]، ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: لا يعلم أحدٌ ما أُعِدَّ لهؤلاء من الكرامة، ﴿جَزَاءً﴾: مصدرٌ؛ أي: جُوزُوا جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ عن الحسن رضي الله عنه: أَخفَى القومُ أعمالاً في الدنيا، فأخفَى اللهُ لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، وفيه دليل على أن المراد الصلاةُ في جوف الليل؛ ليكون الجزاءُ وِفاقاً.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٤٢) عن سيدنا معاذ رضي الله عنه.

(٢) رواه بنحوه أبو داود (١٣٢١).

(٣) رواه الترمذي (٣١٩٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه. وصلاة العتمة: العشاء.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٣)، وقوله: (على حكاية النفس) أي: أن الفعل (أُخْفِيْ): مضارعٌ مسندٌ إلى ضمير المتكلم.

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

《١٨》 ثم بَيَّنَ أنَّ مَن كان في نور الطاعة والإيمان لا يستوي مع من هو في ظلمة الكفر والعِصيان بقوله:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: كافراً، وهما محمولان على لفظ (مَن)، وقولُه: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾: على المعنى؛ بدليل قوله:

《١٩》 ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾: هي نوعٌ من الجِنان تأوي إليها أرواحُ الشهداء، وقيل: هي عن يمين العرش، ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾: عطاءً بأعمالهم، والنُّزُلُ: عطاءُ النازل، ثم صار عامّاً.

《٢٠》 ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: ملجؤُهم ومنزلُهم، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: تقول لهم خزنةُ النارِ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وهذا دليلٌ على أن المراد بالفاسق: الكافرُ؛ إذ التكذيبُ يقابل الإيمان.

《٢١》 ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ أي: عذابِ الدنيا من الأسر وما مُحِنوا به من السَّنَةِ سبعَ سنين، ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: عذابِ الآخرةِ؛ أي: نذيقُهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة، وعن الداراني: العذابُ الأدنى: الخِذلانُ، والعذابُ الأكبرُ: الخلودُ في النيران، وقيل: العذابُ الأدنى: عذابُ القبر، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعل المعذَّبين بالعذاب الأدنى ﴿يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾: يتوبون عن الكفر.

《٢٢》 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾: وُعِظَ ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: القرآن، ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: فتولى عنها ولم يتدبر فيها، و(ثُمَّ): للاستبعاد؛ أي: أن الإعراض عن مثل هذه الآيات في وضوحها وإنارتها وإرشادِها إلى سواء السبيل، والفوزِ بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعَدٌ في العقل، كما تقول لصاحبك: وجدتَ مثلَ تلك الفرصةِ ثم لم تَنتهزْها؟ استبعاداً لتركه الانتهاز، ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: ولم يقل منه؛ لأنه إذا جعله أظلمَ كلِّ ظالم، ثم توعدَ المجرمين عامةً بالانتقام منهم.. فقد دلَّ على إصابةِ الأظلمِ النصيبَ الأوفرَ من الانتقام، ولو قال: بالضمير.. لم يفدْ هذه الفائدة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ....

«٢٣» ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراةَ، ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾: شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾: من لقاء موسى الكتاب، أو: من لقائك موسى ليلةَ المعراج، أو يومَ القيامةِ، أو: من لقاء موسى ربَّه في الآخرة، كذا عن النبي ﷺ[1]، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾: وجعلنا الكتابَ المنزلَ على موسى هدىً لقومه.

«٢٤» ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾: بهمزتين: كوفيٌّ وشاميٌّ[2]، ﴿يَهْدُونَ﴾ الناسَ، ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه، ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم بذلك، ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾: حين صبروا على الحقِّ بطاعة الله، أو عن المعاصي، ﴿لِمَا صَبَرُوا﴾: حمزةُ وعلي؛ أي: لصبرهم عن الدنيا، وفيه دليل على أن الصبر ثمرتُه إمامةُ الناس، ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: التوراةِ ﴿يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾: يعلمون علماً لا يُخالِجُه شكٌّ.

«٢٥» ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾: يقضي ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: بين الأنبياء وأممِهم، أو: بين المؤمنين والمشركين، ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فَيُظْهِرُ المحقَّ من المُبْطِلِ.

«٢٦» ﴿أَوَلَمْ﴾ الواوُ: للعطف على معطوف عليه منويٍّ من جنس المعطوف؛ أي: ألم يدعُ ولم ﴿يَهْدِ﴾: يبينْ، والفاعلُ: الله؛ بدليل قراءة زيدٍ عن يعقوب: ﴿نهد﴾[3]، ﴿لَهُمْ﴾: لأهل مكةَ، ﴿كَمْ﴾: لا يجوز أن يكون فاعلَ (يهد)؛ لأن (كم) للاستفهام[4]، فلا يعملُ فيه ما قبله، ومحلُّه: نصبٌ بقوله: ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ كعادٍ وثمودَ وقوم لوطٍ، ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: أهلُ مكةَ يمرُّون في متاجرهم على ديارهم وبلادِهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ المواعظَ فيتعظوا.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٦٠).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٣) وكذا القراءة الآتية.

(٣) انظر «تفسير النيسابوري» (٣/ ٢٩٠).

(٤) الأوضح أن تكون خبرية تكثيرية؛ ففي «الكشاف» (٣/ ٥٢٣): والفاعلُ ما دلَّ عليه (كَمْ أَهْلَكْنَا)... تقديرُه: أولم يهدِ لهم كثرةُ إهلاكِنا القرون. ونحوه في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٢٣).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

《٢٧》 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾: نُجري المطرَ والأنهارَ ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: الأرضِ التي جُرِزَ نباتُها؛ أي: قُطِعَ، إما لعدم الماء، أو لأنه رُعِيَ، ولا يقال للتي لا تُنبتُ كالسِّباخِ: جُرُزٌ؛ بدليل قولِه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾: بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾: من الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ من عَصْفِه، ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من حَبِّه، ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ بأعينهم فيستدلُّوا به على قدرته على إحياء الموتَى.

《٢٨》 ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾: النصرُ، أو الفصلُ بالحكومة؛ مِن قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وكان المسلمون يقولون: إن الله سيفتحُ لنا على المشركين، أو يفتحُ بيننا وبينهم، فإذا سمع المشركون ذلك.. قالوا: متى هذا الفتح؛ أي: في أيِّ وقتٍ يكون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ في أنه كائن.

《٢٩》 ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ أي: يومَ القيامة، وهو يومُ الفصل بين المؤمنين وأعدائِهم، ويومُ نصرهم عليهم، أو: يومُ بدر، أو: يومُ فتح مكةَ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا الكلامُ لم ينطبق جواباً على سؤالهم ظاهراً، ولكن لما كان غرضُهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء.. أُجيبوا على حَسَبِ ما عُرِفَ من غرضهم في سؤالهم، فقيل لهم: لا تستعجلوا به، ولا تستهزئوا، فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم، فلا ينفعُكم الإيمان، واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تُنظرُوا، ومَن فسَّره بيوم الفتح، أو بيوم بدر.. فهو يريد المقتولين منهم؛ فإنهم لا ينفعُهم إيمانُهم في حال القتل، كما لم ينفعْ فرعونَ إيمانُه عند الغَرَقِ.

《٣٠》 ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ﴾ النُّصرةَ عليهم وهلاكَهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الغَلَبَةَ عليكم وهلاكَكم، وكان عليه السلام لا ينام حتى يقرأَ (الم تنزيل السجدة)، و(تبارك الذي بيده الملك)[١]، وقال: «من قرأَ (الم تنزيل) في بيته.. لم يدخلْه الشيطانُ ثلاثةَ أيام»[٢]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سورة (الم تنزيل) هي المانعةُ؛ تمنعُ من عذاب القبر[٣].



(١) رواه الترمذي (٢٨٩٢) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) ورد هذا في قراءة (سورة البقرة)، رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧/٤) عن سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) ورد أنه قال هذا في فضل «سورة الملك» رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٩٨/٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ ....

سورة الأحزاب

مدنية، وهي ثلاثٌ وسبعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه لِزِرٍّ: كم تَعُدُّون (سورة الأحزاب)؟ قال: ثلاثاً وسبعين آيةً، قال: فوالذي يحلفُ به أُبَيٌّ إنْ كانت لتعدلُ (سورة البقرة) أو أَطْوَلَ، ولقد قرأنا منها آيةَ الرجم: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله، واللهُ عزيزٌ حكيمٌ»[(١)].

أرادَ أبيٌّ أن ذلك من جملة ما نُسخ من القرآن، وأما ما يُحكَى أن تلك الزيادة كانت في صحيفةٍ في بيت عائشة رضي الله عنها، فأكلتْها الداجنُ.. فمن تأليفات الملاحدةِ والروافض[(٢)].

《١》 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وبالهمز: نافعٌ[(٣)]؛ أي: يا أيها المخبِرُ عنّا، المأمونُ على أسرارنا، المبلغُ خطابَنا إلى أحبابنا، وإنما لم يقل: يا محمدُ، كما قال: ﴿يَا آدَمُ﴾ [البقرة: ٣٣] ﴿يَا مُوسَى﴾ [البقرة: ٥٥]؛ تشريفاً له وتنويهاً بفضله، وتصريحُه باسمه في قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] ونحوِه؛ لتعليم الناس بأنه رسولُ اللهِ، ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾: اثبُتْ على تقوى الله، ودُمْ عليه، وازدَدْ منه؛ فهو بابٌ لا يُدرَكُ مَداه، ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾: ولا تساعدْهم على شيء، واحترسْ منهم؛

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٧١١٢).

(٢) روى ابن ماجه (١٩٤٤) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: «لقد نزلت آية الرجم، ورضاعةُ الكبير عشراً، ولقد كان في صحيفةٍ تحت سريري، فلما مات رسول الله ﷺ وتشاغلنا بموته.. دخل داجن فأكلها». وقد بَيَّنَ الإمام الباقلاني في «الانتصار للقرآن» (١/ ٤١٢) أن هذه الرواية وأمثالها تُحمل على النسخ وقال: وليس على جديد الأرض أجهلُ ممن يظنُّ أن الرسول والصحابة كانوا جميعاً يُهملون أمرَ القرآن ويَعدِلون عن تَحفُّظه وإحرازه، ويُعَوِّلون على إثباته في رُقعة تُجعل تحت سريرِ عائشة وحدَها، وفي رِقاعٍ مُلقاةٍ مُمْتَهَنَةٍ حتى دخل داجنُ الحيِّ فأكلها... وما الذي كان تَرى يبعث رسولَ الله ﷺ على هذا التفريط والعجز والتواني وهو صاحب الشريعة والمأمورُ بحفظه وصيانته ونَصْبِ الكَتَبَةِ له... وقولها: (لقد كانت مكتوبة في ورقة تحت سريري) يدلُّ أيضاً على ذلك - أي: النسخ - لأنه دلالة على قلة الحفظ له والاحترازِ والاعتناءِ بِحِياطَتِه؛ لأن عادتهم في الثابت الباقي الرسم صيانتُه وجمعُه وحِراستُه دون طرحه في الظهور تحت الأَسِرَّةِ والرِّجل، وبحيث لا يُؤْمَنُ عليه، فأما إذا نُسِخَ وسقط فرضُه.. جاز تركُ حفظه والاعتناءِ به، وجعلُ ما يُكتب فيه ظُهوراً يُنتفع به ويثبتون فيها ما يريدون.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٣) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ....

فإنهم أعداءُ اللهِ والمؤمنين، وروي: أن أبا سفيان وعكرمةَ بنَ أبي جهلٍ، وأبا الأعور السُّلميَ قدموا المدينة بعد قتال أحدٍ، فنزلوا على عبد الله بن أبيٍّ، وأعطاهم النبيُّ الأمانَ على أن يُكلموه، فقالوا: ارفضْ ذكرَ آلهتنا، وقلْ: إنها تنفعُ وتشفعُ، وَوازَرهم المنافقون على ذلك، فَهَمَّ المسلمون بقتلهم فنزلت، أي: اتقِ اللهَ في نقض العهد، ولا تطع الكافرين من أهل مكةَ، والمنافقين من أهل المدينةِ فيما طلبُوا[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخبثِ أعمالِهم، ﴿حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ في تأخير الأمر بقتالهم.

《٢》 ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ في الثبات على التقوى، وتركِ طاعةِ الكافرين والمنافقين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي يُوحِي إليك ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ أي: لم يزل عالماً بأعمالهم وأعمالكم، وقيل: إنما جمع؛ لأن المراد بقوله: (اتبع) هو وأصحابُه، وبالياء: أبو عمرٍو؛ أي: بما يعمل الكافرون والمنافقون؛ مِن كيدهم لكم، ومكرِهم بكم.

《٣》 ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أَسْنِدْ أمرك إليه، وكِلْه إلى تدبيره، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾: حافظاً موكولاً إليه كلُّ أمر، وقال الزجاج: لفظُه وإن كان لفظَ الخبرِ.. فالمعنى: اكتفِ بالله وكيلاً[2].

《٤》 ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي: ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجيةً وأُمومةً في امرأة، ولا بُنوةً ودِعوةً في رجل؛ والمعنى: أنه تعالى كما لم يجعلْ لإنسان قلبين؛ لأنه لا يخلو: إما أن يفعل بأحدهما مثلَ ما يفعلُ بالآخر من أفعال القلوب، فأحدُهما فضلةٌ غيرُ محتاج إليه، وإما أن يفعلَ بهذا غيرَ ما يفعلُ بذاك، فذلك يؤدي إلى اتصافِ الجملةِ بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظانّاً، موقناً

---

(١) لم أجد من أسند هذه الرواية، وفي «تفسير الطبري» (٢٠/ ٢٠٢): (وَلا تُطِع الكافِرينَ) الذين يقولون لك: اطردْ عنك أتباعَكَ من ضعفاء المؤمنين بك حتى نجالسَك، (وَالمُنافِقِينَ) الذين يظهرون لك الإيمان بالله والنصيحة لك، وهم لا يألونك وأصحابَك ودينَك خَبالاً، فلا تقبل منهم رأياً، ولا تَستشِرهم مُستنصِحاً بهم؛ فإنهم لك أعداء.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٢١٣).

. . . .

شاذّاً، في حالة واحدة. . لم يحكم أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أُمّاً لرجلٍ زوجاً له؛ لأن الأم مخدومةٌ، والمرأةُ خادمةٌ، وبينهما منافاةٌ، وأن يكون الرجل الواحد دَعِيّاً لرجل وابناً له؛ لأن البنوة أصالةٌ في النسب، والدِّعوةُ إلصاقٌ عارضٌ بالتسمية لا غيرُ، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غيرَ أصيل، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة، وهو رجل من كَلْبٍ[1]، سُبِيَ صغيراً فاشتراه حكيمُ بنُ حِزامٍ لعمته خديجةَ، فلما تزوجها رسول الله ﷺ. . وَهَبَتْه له، فطلبه أبوه وعمُّه، فخُيِّرَ فاختار رسولَ الله ﷺ، فأعتقه وتبنّاه[2]، وكانوا يقولون: زيدُ ابنُ محمد[3]، فلمّا تزوج النبي ﷺ زينبَ وكانت تحت زيد. . قال المنافقون: تزوج محمدٌ امرأة ابنه وهو ينهى عنه، فأنزل الله هذه الآية، وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمدٍ قلبان: قلبٌ معكم، وقلبٌ مع أصحابه[4]، وقيل: كان أبو مَعمرٍ أحفظَ العرب، فقيل له: ذو القلبين، فأكذبَ اللهُ قولَهم، وضربَه مثلاً في الظهار والتبني. والتنكيرُ في (رجلٍ)، وإدخالُ (مِن) الاستغراقيةِ على (قلبين)، وذكرُ الجوف. . للتأكيد، ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾: بياءٍ بعد الهمزة حيث كان: كوفيٌّ وشاميٌّ، ﴿اللاءِ﴾: نافعٌ ويعقوبُ وسهلٌ[5]، وهي جمعُ: التي، ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾: عاصمٌ؛ من: ظاهرَ؛ أي: قال لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي، ﴿تَظَاهَرون﴾: عليٌّ وحمزةُ وخلفٌ، ﴿تَظَّاهَرون﴾: شاميٌّ؛ مِن اظّاهَرَ؛ بمعنى: تَظاهَر، غيرُهم: ﴿تَظَّهَّرون﴾[6]؛ من: اظَّهَّرَ؛ بمعنى: تَظَهَّرَ، وعُدِّيَ بـ(مِن) لتضمنه معنى البعد؛ لأنه كان طلاقاً في الجاهلية، ونظيرُه: آلى مِن امرأته، لمّا ضُمِّنَ معنى التباعد. . عُدِّيَ بـ(مِن)، وإلا فـ(آلى) في أصله الذي هو معنى: حلفَ وأقسمَ. . ليس هذا بحكمه، والدَّعِيُّ: (فعيل) بمعنى (مفعول)، وهو الذي يُدْعَى ولداً، وجُمِعَ على (أفعلاء) شاذّاً؛ لأن بابَه ما كان منه بمعنى (فاعل)، كتقي وأتقياء، وشقيٍّ وأشقياء، ولا يكون ذلك في نحو: رَمِيٍّ وسَمِيٍّ. . للتشبيهِ اللفظيِّ[7]، ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي: إن

---

(١) كَلْبٌ: قبيلةٌ عربيةٌ.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (ص ٢٢٧) دون ذكر إعتاقِه وتَبَنِّيْه.

(٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيدَ بنَ محمدٍ، حتى نزل القرآن، ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. رواه البخاري (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥).

(٤) رواه الترمذي (٣١٩٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٣).

(٦) انظر المرجع السابق (ص٢٥٤).

(٧) أي: جمع على (أدعياء) للتشبيه اللفظي.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ ....

قولكم للمزوجة: هي أمٌّ، وللدعيِّ: هو ابنٌ.. قولٌ تقولونه بألسنتكم لا حقيقةَ له؛ إذ الابنُ يكون بالولادة، وكذا الأمُّ، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ما هو حقٌّ ظاهرُه وباطنُه، ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ أي: سبيلَ الحقِّ، ثم قال: ما هو الحقُّ، وهَدَى إلى ما هو سبيلُ الحقِّ، وهو قولُه:

《٥》 ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ﴾: أعْدَلُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وبَيَّنَ أن دعاءهم لآبائهم هو أَدْخَلُ الأمرين في القِسْطِ والعدل، وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جَلَدُ الرجلِ.. ضمَّه إلى نفسه، وجعل له مثلَ نصيبِ الذكر من أولاده من ميراثه، وكان يُنْسَبُ إليه فيقال: فلانُ ابنُ فلانٍ، ثم انظر إلى فصاحة هذا الكلام؛ حيث وصلَ الجُمَلَ الطلبيةَ[1]، ثم فَصَلَ الخبريةَ عنها ووصلَ بينهما[2]، ثم فصل الاسميةَ عنها ووصل بينها[3]، ثم فصل بالطلبية[4]، ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾: فإن لم تعلموا لهم آباءَ تنسبُونَهم إليهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: فهم إخوانُكم في الدين وأولياؤُكم في الدين، فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي، ويا مولاي؛ يريد: الأخوةَ في الدين والولايةَ فيه، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: لا إثمَ عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي، ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: ولكنِ الإثمُ فيما تعمدتموه بعد النهي، أو: لا إثمَ عليكم إذا قلتم لولدِ غيرِكم: يا بنيَّ؛ على سبيل الخطأ وسبقِ اللسان، ولكن إذا قلتموه متعمدين، و(ما): في موضع الجرِّ؛ عطفٌ على (ما) الأولى، ويجوز أن يُرادَ العفوُ عن الخطأ دون العمد على سبيل العموم، ثم تناول لعمومه خطأَ التبني وعمدَه، وإذا وُجِدَ التبني.. فإن كان المتبنَّى مجهولَ النسب وأصغرَ سنّاً منه.. ثبت نسبُه منه، وعَتَقَ إن كان عبداً له، وإن كان أكبرَ سنّاً منه.. لم يثبتِ النسبُ، وعَتَقَ عند أبي حنيفة رضي الله عنه[5]، وأما المعروف النسبِ.. فلا يثبتُ نسبُه بالتبني، وعتقَ إن كان عبداً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾: لا يؤاخذُكم بالخطأ، ويقبلُ التوبة من المتعمد.

---

(١) وهي: (اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين)، (واتبع ما يوحى إليك من ربك)، (وتوكل على الله).

(٢) وهي: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم، وما جعل أدعياءكم أبناءكم).

(٣) وهي: (ذلكم قولكم بأفواهكم، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل).

(٤) وهي: (ادعوهم لآبائهم).
وفي «فتوح الغيب» (١٢/ ٣٧٦) كلامٌ طويلٌ حول لطائفِ هذا الفصل والوصل.

(٥) انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٤/ ٢٠).

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ....

«٦» ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أحقُّ بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمُه أَنْفَذُ عليهم من حكمها، فعليهم أن يبذلوها دونَه، ويجعلوها فداءَه، أو: هو أولى بهم؛ أي: أرأفُ بهم، وأعطفُ عليهم، وأنفعُ لهم، كقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وفي قراءة ابن مسعود: «النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم»[1]، وقال مجاهدٌ: كلُّ نبي أبو أمته، ولذلك صار المؤمنون إخوةً؛ لأن النبيَّ ﷺ أبوهم في الدين، ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾: في تحريم نكاحهن، ووجوب تعظيمِهن، وهنَّ فيما وراء ذلك كالإرث ونحوه كالأجنبيات، ولهذا لم يتعدَّ التحريمُ إلى بناتهن، ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾: وذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث، وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثم نُسخ ذلك وجُعل التوارث بحقِّ القرابة، ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾: في حكمه وقضائه، أو: في اللوح المحفوظ، أو: فيما فرض الله، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام؛ أي: الأقرباءُ من هؤلاء بعضُهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، وأن يكون لابتداء الغاية؛ أي: أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين؛ أي: الأنصارِ بحقِّ الولاية في الدين، ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة، ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ الاستثناءُ من خلاف الجنس؛ أي: لكن فعلُكم إلى أوليائكم معروفاً جائزٌ، وهو أن تُوصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء، فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث، وعُدِّيَ (تفعلوا) بـ(إلى) لأنه في معنى: تُسْدُوا؛ والمرادُ بالأولياء: المؤمنون والمهاجرون؛ للولاية في الدين، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ أي: التوارثُ بالأرحام كان مسطوراً في اللوح.

«٧» ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾: واذكر حين أخذنا من النبيين ميثاقَهم بتبليغ الرسالةِ، والدعاءِ إلى الدين القيِّم، ﴿وَمِنكَ﴾ خصوصاً، وقُدِّمَ رسولُ الله على نوح ومَن بعدَه؛ لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنهم أُولو العزم وأصحابُ الشرائع، فلما كان محمدٌ ﷺ أفضلَ هؤلاء.. قُدم عليهم، ولولا ذلك.. لقُدِّمَ مَن قُدِّمَ زمانُه، ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾: وثيقاً، وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٣/ ١٩٤).

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ . . . .

《٨》 وإنما فَعَلْنا ذلك ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ اللهُ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: الأنبياءَ ﴿عَن صِدْقِهِمْۚ﴾: عمّا قالوه لقومِهم، أو: ليسأل المصدِّقين للأنبياء عن تصديقِهم؛ لأن مَن قال للصادق: صدقتَ.. كان صادقاً في قوله، أو: ليسأل الأنبياءَ ما الذي أجابتْهم أممُهم، وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالرسل ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ وهو عطفٌ على (أخذنا)؛ لأن المعنى: أن الله أكدَ على الأنبياء الدعوةَ إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين، وأعد للكافرين عذاباً أليماً، أو: على ما دلَّ عليه (ليسأل الصادقين) كأنه قال: فأثاب المؤمنين وأعدَّ للكافرين.

《٩》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما أنعم الله به عليكم يوم الأحراب، وهو يومُ الخندق، وكان بعد حرب أُحُدٍ بِسَنَةٍ، ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي: الأحزابُ، وهم قريشٌ وغَطَفانُ وقُريظةُ والنَّضيرُ، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: الصَّبا، قال عليه السلام: «نُصرت بالصبا، وأُهلكت عادٌ بالدَّبُور»[1]، ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾: وهم الملائكةُ، وكانوا ألفاً، بَعثَ اللهُ عليهم صَبا باردةً في ليلة شاتية، فأَخْصَرَتْهم، وأَسْفَتِ الترابَ في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعَت الأوتادَ، وقطعت الأطنابَ[2]، وأطفأت النيرانَ، وأكفأت القدورَ، وماجت الخيلُ بعضُها في بعض، وقَذَفَ في قلوبهم الرعبَ، وكبَّرت الملائكةُ في جوانبِ عسكرِهم فانهزمُوا من غير قتال، وحين سمع رسولُ الله ﷺ بإقبالهم.. ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمانَ، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب مُعَسْكَرَه، والخندقُ بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنِّسوان فرُفِعوا في الآطام، واشتدَّ الخوفُ، وكانت قريشٌ قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش، وبني كِنانةَ، وأهلِ تِهامةَ، وقائدُهم أبو سفيان، وخرج غطفانُ في ألف ومن تابعهم من أهل نجدٍ، وقائدُهم عُيينةُ بنُ حِصن، وعامرُ بنُ الطُّفيل في هوازنَ، وضَامَّتْهُمُ اليهودُ من قريظة والنضِير، ومضى على الفريقين قريبٌ من شهر، لا حربَ بينهم إلا الترامي بالنَّبْلِ والحجارةِ، حتى أنزل اللهُ النصرَ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق، والثبات

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أَخْصَرَتْهم: أَبْرَدَتْهم، والخَصَرُ: البردُ. أَسْفَتِ الترابَ: نَقَلَتْهُ. الأطناب: جمع طُنُب، وهو الحبلُ تُشَدُّ به الخيمةُ ونحوُها.

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ....﴾

على معاونة النبي ﷺ ﴿بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ وبالياء: أبو عمرٍو[1]؛ أي: بما يعمل الكفارُ من البغْيِ والسعْيِ في إطفاء نور الله.

《١٠》 ﴿إِذْ جَاءُوكُم﴾: بدلٌ مِن (إذْ جاءتكم)، ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: مِن أعلى الوادي من قِبَلِ المشرقِ بنو غطفانَ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: مِن أسفلِ الوادي من قِبَلِ المغرب قريشٌ، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾: مالت عن سَنَنِها ومُستوَى نظرِها؛ حَيرةً، أو: عدلت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوِّها؛ لشدة الرَّوع، ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ الحَنْجَرَةُ: رأسُ الغَلْصمة، وهي منتهى الحلقوم، والحلقومُ: مَدخلُ الطعام والشراب، قالوا: إذا انتفخت الرئةُ من شدة الفزعِ أو الغضبِ.. رَبَتْ وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحَنْجَرةِ، وقيل: هو مَثَلٌ في اضطراب القلوب وإن لم تبلغ الحناجرَ حقيقةً، روي: أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: هل من شيء نقولُه فقد بلغت القلوبُ الحناجرَ؟ قال: «نعم، قولوا: اللهم استرْ عوراتِنا، وآمِن رَوعاتِنا»[2]، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾: خطابٌ للذين آمنوا، ومنهم الثُّبَّتُ القلوبِ والأقدام، والضعافُ القلوبِ الذين هم على حَرْفٍ، والمنافقون، فظنَّ الأولون بالله أنه يبتليهم، فخافُوا الزللَ وضعفَ الاحتمالِ، وأما الآخرون.. فظنُّوا بالله ما حكَى عنهم، قرأ أبو عمرٍو وحمزةُ: ﴿الظنونَ﴾: بغير ألفٍ في الوصل والوقف، وهو القياسُ، وبالألف فيهما: مدنيٌّ وشاميٌّ وأبو بكر؛ إجراءً للوصل مُجرى الوقف، وبالألف في الوقف: مكيٌّ وعليٌّ وحفصٌ[3]، ومثلُه: ﴿الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾، و﴿السَّبِيلَا﴾، زادوها في الفاصلة، كما زادها في القافية مَن قال[4]: [من: الوافر]

أقلِّي اللومَ عاذلَ والعتابا ....

وهنَّ كلُّهن في الإمام بالألف.

《١١》 ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: امتُحنوا بالصبر على الإيمان، ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾: وحُرِّكُوا بالخوف تحريكاً بليغاً.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٤).

(٤) هذا صدر بيت لجرير في «ديوانه» (ص٨١٣)، وعجزه:

وقولي إن أصبت لقد أصابا

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾

《١٢》 ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: عطفٌ على الأول، ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قيل: هو وصفُ المنافقين بالواو، كقوله[١]: [من: المتقارب]

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ ... ولَيثِ الكتيبةِ في المزدَحَمْ

وقيل: هم قومٌ لا بصيرةَ لهم في الدين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشُّبَهِ عليهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ روي: أن مُعتِّبَ بنَ قُشيرٍ حين رأى الأحزابَ قال: يعدُنا محمدٌ فتحَ فارسَ والرومِ وأحدُنا لا يقدرُ أن يَتَبرَّزَ؛ فَرَقاً، ما هذا إلا وعدُ غُرورٍ.

《١٣》 ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾: من المنافقين، وهم عبدُ الله بنُ أبيٍّ وأصحابُه: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾: هم أهل المدينة، ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ وبضم الميم: حفصٌ[٢]؛ أي: لا قَرارَ لكم ههنا، ولا مكان تقومون فيه، أو تُقيمون[٣]، ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى الكفر، أو: من عسكر رسول الله إلى المدينة، ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي: بنو حارثةَ، ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ذاتُ عورةٍ، ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ العَوْرَةُ: الخللُ، والعَوِرَةُ: ذاتُ العَورة، وهي قراءةُ ابنِ عباسٍ[٤]، يقال: عَوِرَ المكانُ عَوَراً: إذا بدا منه خللٌ يَخافُ منه العدوُّ والسارقُ، ويجوز أن يكون (عَوْرَة) تخفيفَ (عَوِرَة)، اعتذروا أن بيوتهم عُرضةٌ للعدوِّ والسارق؛ لأنها غيرُ محصَّنة، فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعُوا إليه، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفِرارَ من القتال.

《١٤》 ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ المدينةُ، أو بيوتُهم؛ مِن قولك: دخلتُ على فلان دارَه، ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: من جوانبِها؛ أي: ولو دَخلت هذه العساكرُ المتحزبةُ التي يفرُّون خوفاً منها مدينتَهم، أو بيوتَهم من نواحيها كلِّها وانثالت على أهاليهم وأولادِهم ناهبين سابين، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟﴾ عند ذلك الفَزَعِ ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: الردةَ والرجعةَ إلى الكفر ومقاتلةَ المسلمين ﴿لَءَاتَوْهَا﴾: لأعطَوها،

---

(١) القرم: السيدُ، الهُمامُ: العظيمُ الهمة، الكتيبة: جماعةٌ من الجيش، المزدحم: المعركة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٤).

(٣) يشير إلى أن (مَقام) فعلُه ثلاثيٌّ فقال: (تقومون)، و(مُقام) فعلُه رباعيٌّ فقال: (تُقيمون).

(٤) انظر «المحتسب» لابن جني (٢/ ١٧٦).

وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ....

﴿لأَتَوْها﴾: بلا مدٍّ: حجازيٌّ[1]؛ أي: لجاؤوها وفعلُوها، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾: بإجابتها ﴿إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ ريثما يكون السؤالُ والجوابُ مِن غير توقُّف، أو: ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيراً؛ فإن الله يهلكُهم؛ والمعنى: أنهم يتعلَّلون باعْوِرارِ بيوتهم؛ ليفرُّوا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وعن مُصافَّةِ الأحزاب الذين ملؤوهم هَوْلاً ورُعباً، وهؤلاء الأحزابُ كما هم لو كَبَسُوا عليهم أرضَهم وديارَهم، وعُرِضَ عليهم الكفرُ، وقيل لهم: كونوا على المسلمين.. لسارعوا إليه، وما تعلَّلُوا بشيء، وما ذلك إلا لمقتهم الإسلامَ وحبِّهم الكفرَ.

«١٥» ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بنو حارثة من قَبْلِ الخندق، أو: من قبل نظرِهم إلى الأحزاب، ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ منهزمين، ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾: مطلوباً مقتضىً حتى يُوَفَّى به.

«١٦» ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ أي: إن حضرَ أجلُكم.. لم ينفعْكم الفرارُ، وإن لم يحضرْ وفررْتم.. لم تُمتَّعوا في الدنيا إلا قليلاً، وهو مدةُ أعماركم، وذلك قليلٌ، وعن بعض المرْوانية أنه مرَّ بحائط مائلٍ فأسرع، فتليت له هذه الآية فقال: ذلكَ القليلَ نطلبُ.

«١٧» ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مما أراد الله إنزاله بكم، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ في أنفسكم مِن قتلٍ أو غيره، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: إطالةَ عُمرٍ في عافية وسلامة، أو: من يمنعُ اللهَ مِن أن يرحمكم إن أراد بكم رحمةً؛ لما في العصمة من معنى المنع، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾: ناصراً.

«١٨» ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: مَن يُعوِّقُ عن نصرة رسول الله ﷺ؛ أي: يمنع، وهم المنافقون، ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في الظاهر من المسلمين: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: قَرِّبُوا أنفسكم إلينا ودَعُوا محمداً، وهي لغة أهل الحجاز؛ فإنهم يُسوون فيه بين الواحد والجماعة، وأما تميم.. فيقولون: هلمَّ يا رجل، وهلمُّوا يا رجالُ، وهو صوتٌ سمي به فعلٌ متعدٍّ، نحو: احْضُرْ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٤).

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ....

وقرِّب، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي: الحربَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾: إلا إتياناً قليلاً؛ أي: يحضرون ساعةً رياءً، يقفون قليلاً مقدارَ ما يُرى شهودُهم ثم ينصرفون.

《١٩》 ﴿أَشِحَّةً﴾: جمعُ شحيح، وهو البخيل، نصبٌ على الحال من الضمير في (يأتون) أي: يأتون الحربَ بُخَلاءَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالظفر والغنيمة، ﴿فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ﴾ من قِبل العدوِّ، أو: منه عليه السلام ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في تلك الحالة، ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يميناً وشِمالاً، ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: كما ينظرُ المَغْشِيُّ عليه من معالجة سكرات الموت؛ حذراً وخوفاً ولِواذاً بك، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾: زال ذلك الخوفُ وأَمِنوا وحِيْزَتِ الغنائمُ ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: خاطبوكم مخاطبةً شديدةً وآذوكم بالكلام، خطيبٌ مِسْلَقٌ فصيحٌ، ورجلٌ مِسلاقٌ مبالِغٌ في الكلام؛ أي: يقولون، وفِّروا قِسمَتنا[1]؛ فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمكانِنا غَلبتم عدوَّكم، ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: خاطبوكم أشحةً على المال والغنيمة، و(أشحةً): حالٌ من فاعل (سلقوكم)، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة، ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أبْطَلَ بإضمارهم الكفرَ ما أظهروه من الأعمال، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾: إحباطُ أعمالهم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾: هيِّناً.

《٢٠》 ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي: لِجُبْنِهِم يظنون أن الأحزاب لم ينهزمُوا ولم ينصرفوا، مع أنهم قد انصرفُوا، ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرةً ثانيةً ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ البادون: جمعُ البادي؛ أي: يتمنَّى المنافقون لجُبْنِهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية، حاصلون بين الأعراب؛ ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا مما فيه الخوفُ من القتال، ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كلَّ قادم منهم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾: عن أخباركم وعمّا جرى عليكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ ولم يرجعُوا إلى المدينة وكان قتالٌ ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ رياءً وسمعةً.

---

(١) أي: أَتِمُّوها ولا تَنْقُصُوها.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

《٢١》 ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: بالضمِّ حيث كان: عاصمٌ؛ أي: قُدوةٌ، وهو المؤتَسَى به؛ أي: المقتدَى به، كما تقول في البيضة عشرون مَنّاً حديداً[1]؛ أي: هي في نفسها هذا المبلغُ من الحديد، أو: فيه خصلةٌ من حقّها أن يُؤتَسى بها؛ حيث قاتَلَ بنفسه، ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ أي: يخاف الله ويخاف اليوم الآخر، أو: يَأْمُلُ ثوابَ الله ونعيمَ اليومِ الآخِرِ، قالوا: (لمن). بدلٌ من (لكم)، وفيه ضعفٌ؛ لأنه لا يجوز البدلُ من ضمير المخاطب،

وقيل: (لمن): يتعلق بـ(حسنة) أي: أسوةٌ حسنةٌ كائنةٌ لمن كان.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أي: في الخوف والرجاء، والشدة والرخاء.

《٢٢》 ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤] إلى قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فلما جاء الأحزابُ واضطربوا ورُعِبوا الرعبَ الشديدَ ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وعلمُوا أن الجنة والنصرة قد وَجَبَت لهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «إن الأحزاب سائرون إليكم في آخر تسع ليال، أو عشر»، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد. قالوا ذلك[2]، و(هذا). إشارةٌ إلى الخَطْبِ والبلاء، ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأَوا من اجتماع الأحزاب عليهم ومجيئهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله وبمواعيدِه، ﴿وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ لقضاياه وأقداره.

《٢٣》 ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: فيما عاهدُوه عليه، فحُذِفَ الجارُّ كما في المثل: (صَدَقَني سِنَّ بَكْرِهِ)[3]، أي: صَدَقني في سِنِّ بَكْرِه؛ بطرح الجارِّ وإيصالِ الفعل، نذر رجالٌ من الصحابة أنهم إذا لَقُوا حرباً مع رسول الله ﷺ. ثَبَتُوا وقاتلُوا حتى يُستشهدوا، وهم عثمانُ بنُ عفانَ، وطلحةُ وسعدُ بنُ زيدٍ وحمزةُ ومُصعبٌ وغيرُهم، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: مات شهيداً كحمزةَ ومصعبٍ، وقضاءُ النحب: عبارةٌ عن الموت؛ لأن كل حيٍّ من

---

(١) البيضة: كرة من الحديد، أو ما يضعه المقاتل على رأسه في الحرب، والمَنُّ: من الأوزان القديمة.

(٢) لم أجده.

(٣) انظر «مجمع الأمثال» (١/ ٣٩٢)، البَكْرُ: الفَتِيُّ من الإبل

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ ....

المحدَثات لا بدَّ له أن يموت، فكأنه نذرٌ لازمٌ في رقبته، فإذا مات.. فقد قضَى نحبَه؛ أي: نذره، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الموتَ؛ أي: على الشهادة، كعثمانَ وطلحةَ، ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ العهدَ ﴿تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ ولا غيَّروه، لا المستشهِدُ، ولا مَن ينتظر الشهادة، وفيه تعريضٌ لمن بدلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾.

《٢٤》 ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾: بوفائِهم بالعهد، ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ إذا لم يتوبُوا، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابُوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ بقبول التوبة، ﴿رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ بعفوِ الحَوْبَةِ، جعل المنافقين كأنهم قصدُوا عاقبةَ السَّوء وأرادُوها بتدبيرهم وبتبديلهم، كما قصدَ الصادقون عاقبةَ الصدقِ بوفائهم؛ لأن كِلا الفريقين مسوقٌ إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبِها والسعْيِ في تحصيلها.

《٢٥》 ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: الأحزابَ ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾: حالٌ؛ أي: مَغِيظين، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾: ظَفراً؛ أي: لم يظفروا بالمسلمين؛ وسمّاه خيراً بزعمِهم، وهو حال؛ أي: غيرَ ظافرين، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾: قادراً غالباً.

《٢٦》 ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾: عاوَنُوا الأحزابَ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: من بني قريظةَ، ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾: من حصونهم، والصِّيْصِيَةُ: ما تُحُصِّنَ به، روي: أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ صبيحةَ الليلةِ التي انهزم فيها الأحزابُ ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعُوا سلاحَهم.. على فرسه الحَيزومِ، والغبارُ على وجه الفرس وعلى السرج، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: من متابعة قريش، فقال: يا رسول الله، إن الله يأمرُكَ بالسير إلى بني قريظة، وأنا عامدٌ إليهم، فإن الله داقُّهم دقَّ البيض على الصَّفا، وإنهم لكم طُعمةٌ، فأَذِّنْ في الناس أنَّ مَن كان سامعاً مطيعاً.. فلا يُصَلِّ العصرَ إلا في بني قريظة، فحاصَروهم خمساً وعشرين ليلةً، فقال رسول الله ﷺ: «تنزلون على حكمِي؟» فأبَوا، فقال: «على حكم سعدِ بنِ معاذٍ؟»، فرَضُوا به،

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ......﴾

فقال سعدٌ: حكمتُ فيهم أن تُقتلَ مقاتلتُهم، وتُسبى ذراريْهم ونساؤُهم، فكبَّرَ النبيُّ ﷺ وقال: لقد حكمتَ بحكم الله من فوقِ سبعةِ أَرْقِعَةٍ[1]، ثم استنزلهم، وخَنْدَقَ في سوق المدينة خندقاً، وقدَّمَهم فضرب أعناقَهم، وهم من ثمانِ مئةٍ إلى تسعِ مئةٍ، وقيل: كانوا ستَّ مئةِ مقاتلٍ، وسبعَ مئةِ أسيرٍ[2]، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾: الخوفَ، وبضم العين: شاميٌّ وعليٌّ[3]، ونُصِبَ ﴿فَرِيقًا﴾ بقوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وهم: الرجال، ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ وهم: النساء والذراري.

《٢٧》 ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي: المواشيَ والنقودَ والأمتعةَ، روي: أن رسول الله ﷺ جعل عَقارَهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال لهم: «إنَّكم في منازلكم»، ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بقصد القتال، وهي: مكةُ أو: فارسُ والرومُ، أو: خيبر، أو: كلُّ أرض تُفْتَحُ إلى يوم القيامة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾: قادراً.

《٢٨》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: السعادةَ في الدنيا وكثرةَ الأموال ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾: أصلُ تعالَ: أن يقولَه مَن في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطِي، ثم كثر حتى استوَى في استعماله الأمكنة، ومعنى (تعالَين): أقبلن بإرادتِكن واختيارِكن لأحد الأمرين، ولم يُرد نهوضهن إليه بأنفسهن، كقولك: قام يُهدِّدُني، ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾: أُعطِكنَّ مُتعةَ الطلاقِ، وتستحبُّ المُتعةُ لكل مطلقة إلا المفوّضةَ قبل الوطء[4]، ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾: وأطلقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾: لا ضِرارَ فيه، أرَدْنَ شيئاً من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة، وتَغايَرْنَ، فغَمَّ ذلك رسولَ الله ﷺ، فنزلت، فبدأ بعائشة رضي الله عنها، وكانت أحبهنَّ إليه، فخيَّرَها وقرأ عليها القرآن، فاختارت اللهَ ورسولَه والدار الآخرة، فرؤي الفرحُ في وجهه ﷺ، ثم اختار جميعُهن اختيارَها، وروي: أنه قال لعائشة: «إني ذاكرٌ لك أمراً و لا عليك أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك»، ثم قرأ عليها القرآن، فقالت: أفي هذا أستأمرُ أبويَّ؟ فإني أريد الله

---

(١) الرقيع: السماءُ، والجمعُ: أرقعة.

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٣٣)، وبعضُه في البخاري (٩٤٦)، (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، (١٧٧٠).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٥).

(٤) المفوَّضةُ: بكسر الواو: مَن فَوَّضت أمرَها لوليِّها وزَوَّجَها بلا مهر، وبفتحها: مَن فَوَّضَها وليُّها إلى الزوج بلا مهر. انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ١١٠).

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢﴾ ....

ورسولَه والدارَ الآخرة[١]، وحكمُ التخيير في الطلاق: أنه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترت نفسي.. أن تقع تطليقة بائنة، وإذا اختارت زوجَها.. لم يقع شيء[٢]، وعن علي رضي الله عنه: إذا اختارت زوجَها.. فواحدةٌ رجعيةٌ، وإن اختارت نفسَها.. فواحدةٌ بائنةٌ[٣].

《٢٩》 ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ (مِـــن): للبيان لا للتعيض، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾.

《٣٠》 ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾: سيئةٍ بليغةٍ في القبح، ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾: ظاهرٍ فُحْشُها؛ مِن: بَيَّنَ؛ بمعنى: تبيَّنَ، وبفتح الياء: مكيٌّ وأبو بكرٍ[٤]، قيل: هي عِصيانُهن رسول الله ﷺ، ونشوزُهن، وقيل: الزنا، والله عاصمٌ رسولَه من ذلك، ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ ﴿نُضَعِّفْ لها العذابَ﴾: مكيٌّ وشاميٌّ، ﴿يُضَعَّفْ﴾: أبو عمرٍو ويزيدُ ويعقوبُ، ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: ضِعْفَي عذابِ غيرِهن من النساء؛ لأن ما قبح من سائر النساء.. كان أقبحَ منهن، فزيادةُ قبح المعصية تتبعُ زيادة الفضل، وليس لأحد من النساء مثلُ فضل نساء النبيِّ ﷺ، ولذا كان الذمُّ للعاصي العالم أشدَّ من العاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبحُ، ولذا فضلَ حدُّ الأحرار على العبيد، ولا يُرجَمُ الكافرُ، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تضعيفُ العذاب عليهنَّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾: هيِّناً.

《٣١》 ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ القنوت: الطاعةُ، ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ﴾ وبالياء فيهما: حمزةُ وعليٌّ[٥]، ﴿أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾: مثلَي ثوابِ غيرِها، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١﴾: جليلَ القدر، وهو الجنة.

《٣٢》 ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لستنَّ كجماعة واحدة من جماعات

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٢٤٦٨) ومسلم (١٤٧٥).

(٢) انظر «العناية شرح الهداية» (٤/ ٧٨).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٨٨).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٥) وكذا القراءة الآتية.

(٥) انظر المرجع السابق (ص٢٥٦)

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ....﴾

النساء، إذا تُقُصِّيَتْ أمةُ النساء جماعةً جماعةً.. لم توجد منهن جماعةٌ واحدةٌ تُساويكن في الفضل، وأَحَدٌ في الأصل: وَحَدٌ، وهو الواحدُ، ثم وضعَ في النفي العامِّ مستوياً فيه المذكرُ والمؤنثُ، والواحدُ وما وراءه، ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾: إن أردتُنَّ التقوى، أو: إن كنتن مُتقياتٍ[1] ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: إذا كلمتُنَّ الرجال من وراء الحجاب.. فلا تَجِئن بقولِكن خاضعاً؛ أي: ليِّناً خَنِثاً مثلَ كلام المُرِيْباتِ، ﴿فَيَطْمَعَ﴾: بالنصب على جواب النهي ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: رِيبةٌ وفُجورٌ، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾: حسناً مع كونه خَشِناً.

《٣٣》 ﴿وَقَرْنَ﴾: مدنيٌّ وعاصمٌ غيرَ هُبيرةَ، وأصلُه: اقْرَرْنَ، فحذفت الراءُ تخفيفاً، وألقيت فتحتُها على ما قبلها، أو: مِن: قارَ يَقارُ: إذا اجتمع، والباقون: ﴿وَقِرْنَ﴾[2]؛ مِن: وَقَرَ يَقِرُ وَقاراً، أو مِن: قَرَّ يَقِرُّ، حذفت الأولى من راءَي: اقْرِرْنَ؛ فِراراً من التكرار، ونُقلت كسرتُها إلى القاف، ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾: بضم الباء: بصريٌّ ومدنيٌّ وحفصٌ، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: القديمة، والتبرجُ: التبخترُ في المشْيِ، أو إظهارُ الزينة، والتقديرُ: ولا تبرجن تبرجاً مثلَ تبرُّجِ النساء في الجاهلية الأولى، وهي الزمان الذي وُلِدَ فيه إبراهيم، أو: ما بين آدمَ ونوحٍ عليهما السلام، أو من داود وسليمانَ، والجاهليةُ الأخرى: ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام، أو: الجاهليةُ الأولى: جاهليةُ الكفر قبل الإسلام، والجاهليةُ الأخرى: جاهليةُ الفسوقِ والفجورِ في الإسلام، ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ خَصَّ الصلاةَ والزكاةَ بالأمر، ثم عمَّ بجميع الطاعات تفضيلاً لهما؛ لأن من واظب عليهما.. جرَّتاه إلى ما وراءَهما، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: نصبٌ على النداء، أو على المدح، وفيه دليلٌ على أن نساءَه من أهل بيته، وقال: (عنكم)؛ لأنه أريد الرجالُ والنساءُ من آله؛ بدلالة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ من نجاسة الآثام، ثم بيَّنَ أنه إنما نهاهنَّ وأمرهنَّ ووعظهنَّ؛ لئلا يُقارِفَ أهلُ بيت رسول الله ﷺ المآثمَ، وليتصوَّنوا عنها بالتقوى، واستعار للذنوب الرجسَ، وللتقوى الطهرَ؛ لأن عِرضَ المقترفِ للمقبَّحاتِ يتلوَّثُ بها، كما يتلوَّثُ بدنُه بالأرجاس، وأما المُحْسِناتُ.. فالعِرْضُ منها نَقِيٌّ كالثوب الطاهر، وفيه تنفيرٌ لأولي الألباب عن المناهي، وترغيبٌ لهم في الأوامر.

---

(١) في الأصل: (وإن كنتن مُتقياتٍ)، والمثبت من المطبوع (٣/ ٤٩٨) وهو أولى.

(٢) انظر «الدور الزاهرة» (ص٢٥٦) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ......﴾

《٣٤》 ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: القرآنِ، ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنةِ، أو: بيانِ معاني القرآن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾: عالماً بغوامضِ الأشياء، ﴿خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾: عالماً بحقائقِها؛ أي: هو عالم بأفعالكنَّ وأقوالكنَّ وأحوالكنَّ؛ فاحذرْنَ مخالفةَ أمرِه ونهيِه، ومعصيةَ رسولِه.

《٣٥》 ولما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل.. قال نساءُ المسلمين: فما نزل فينا شيء؟ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ المسلمُ: الداخلُ في السِّلْم بعد الحرب، المنقادُ الذي لا يعاندُ، أو: المفوِّضُ أمرَه إلى الله، المتوكِّلُ عليه، مِن: أسلم وجهه إلى الله، ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: المصدقين بالله ورسوله، وبما يجبُ أن يُصدَّقَ به، ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: القائمين بالطاعة، ﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في النياتِ والأقوالِ والأعمالِ، ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات، وعن السيئات، ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾: المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أو: الخائفين، ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ فرضاً ونفلاً، ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ فرضاً ونفلاً، وقيل: مَن تصدق في كل أسبوع بدرهم.. فهو من المتصدقين، ومن صام البِيضَ من كل شهر.. فهو من الصائمين، ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عمّا لا يَحِلُّ، ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءةِ القرآنِ، والاشتغالُ بالعلم من الذكر؛ والمعنى: والحافظاتِ فروجَهن، ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ اللهَ، فحُذف لدلالة ما تقدم عليه، والفرقُ بين عطفِ الإناث على الذكور، وعطفِ الزوجين على الزوجين: أن الأول نظير قولِه: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] في أنهما جنسان مختلفان واشتركا في حكم واحد، فلم يكن بُدٌّ من توسط العاطف بينهما، وأما الثاني.. فمِن عطفِ الصفة على الصفة بحرف الجمع؛ ومعناه: والجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ على طاعاتهم[1].

---

(١) أي: أن عطفَ الإناث على الذكور ضروريٌّ؛ لأنّ تغاير الذوات المشتركة في حكم يستلزم العطف ما لم يُقصد السردُ على طريق التعديد، أما عطفُ الزوجين.. فإنه لا يلزم، لكن عُطف هنا للدلالة على اجتماع الصفات، ولو ترك العطف.. جاز، والمراد بالزوجين: مجموعُ كلِّ مذكر ومؤنث، كعطف مجموع المؤمنين والمؤمنات على مجموع المسلمين، والمسلمات. انظر «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٧/ ١٧١).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ . . .﴾

《٣٦》 خطب رسول الله ﷺ زينبَ بنتَ جحشٍ بنتَ عمتِه أُميمةَ على مولاه زيدِ بنِ حارثةَ فأَبَتْ وأبى أخوها عبدُ الله، فنزلت[١]: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وما صحَّ لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي: رسولُ الله[٢] ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾: أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل من حقهم أن يجعلوا رأيَهم تبعاً لرأيه، واختيارَهم تِلْواً لاختياره، فقال: رضينا يا رسول الله، فأنكَحها إياه، وساق عنه إليها مهرَها، وإنما جُمع الضميرُ في (لهم) وإن كان من حقه أن يُوَحَّدَ؛ لأن المذكورَين وقعا تحت النفي، فعمّا كلَّ مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير إلى المعنى لا إلى اللفظ، و﴿يَكُونَ﴾: بالياء: كوفيٌّ[٣]، والخِيَرَةُ: ما يُتَخيرُ، ودلَّ ذلك على أن الأمر للوجوب، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ فإن كان العصيان عصيانَ رَدٍّ وامتناعٍ عن القبول. . فهو ضلال كفر، وإن كان عصيانَ فعلٍ مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب. . فهو ضلال خطأ وفسق.

《٣٧》 ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو أجلُّ النعم، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق والتبني، فهو متقلِّبٌ في نعمة الله، ونعمة رسوله، وهو زيدُ بنُ حارثةَ، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾: زينبَ بنتَ جحشٍ، وذلك أن رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه، فوقعت في نفسه فقال: «سبحان الله مقلبِ القلوب»[٤]، وذلك أن نفسَه كانت تجفُو عنها قبل ذلك لا تريدُها، وسمعت زينبُ بالتسبيحة فذكرتْها لزيدٍ، ففطن، وألقى الله في نفسه كراهةَ صحبتِها، والرغبةَ عنها لرسول الله، فقال لرسول الله ﷺ: إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: «ما لَك؟ أرابك منها شيء؟» قال: لا والله، ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم عليَّ لِشرفِها،

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٧١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٣٢): أي: قضى رسولُ اللهِ، وذكرُ اللهِ لتعظيم أمره، والإشعارِ بأن قضاءَه قضاءُ الله.
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٦).
(٤) رواه ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٤/ ٣٣٣) عن سليم مولى الشعبي عن الشعبي، وروَى عن النسائي أنه قال: سليمٌ مولى الشعبي ليس بثقة.
فلا يلتفت إلى هذه الرواية؛ لما فيها مما ينزه عنه جناب سيدنا المصطفى ﷺ.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

وتؤذيني، فقال له: (أمسك عليك زوجك) ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فلا تطلقْها، وهو نهيُ تنزيه؛ إذ الأَولى ألا يطلقَ، أو: واتقِ الله فلا تذمَّها بالنسبة إلى الكبرِ وأذى الزوج، ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تخفي في نفسك نكاحَها إن طلقها زيدٌ، وهو الذي أبداه الله، وقيل: الذي أخفَى في نفسه تعلقُ قلبه بها، ومودةُ مفارقةِ زيدٍ إياها[١]، والواوُ في (وتخفي في نفسك)، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: قَالةَ الناس: إنه نكح امرأة ابنه، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾: واوُ الحال[٢]؛ أي: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادةَ ألا يمسكَها، وتخفي خاشياً قالةَ الناس، وتخشى الناس حقيقاً في ذلك بأن تخشى الله، وعن عائشة رضي الله عنها: لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أوحي إليه.. لكتم هذه الآية[٣]، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الوطرُ: الحاجةُ، فإذا بلغ البالغُ حاجته من شيء له فيه هِمَّةٌ.. قيل: قضى منه وَطَرَهُ؛ والمعنى: فلما لم يبقَ لزيدٍ فيها حاجةٌ، وتقاصرت عنها همتُه، وطلقها وانقضت عدتُها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، روي: أنها لما اعتدت.. قال رسول الله ﷺ[٤]: «ما أجدُ أحداً أوثقَ في نفسي منك، اخْطُبْ عليَّ زينبَ» قال زيدٌ: فانطلقتُ وقلتُ: يا زينبُ أبشري؛ إن رسول الله ﷺ يخطبكِ، ففرحتْ، وتزوجَها رسول الله ﷺ ودخل بها، وما أَوْلَمَ على امرأة من نسائه ما أَوْلَمَ عليها؛ ذبح شاةً وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتدَّ النهارُ[٥]، ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ قيل: قضاءُ الوَطَرِ: إدراكُ الحاجة، وبلوغُ المرادِ منه، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي يريد أن يُكَوِّنَه ﴿مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾: مكوناً لا محالة، وهو مَثَلٌ لما أراد كونَه من تزويج رسول الله ﷺ زينبَ.

《٣٨》 ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾: أَحَلَّ له وأَمَرَه، وهو نكاحُ زينبَ امرأةِ زيدٍ، أو قَدَّرَ له من عدد النساء، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: اسمٌ موضوع موضعَ المصدر، كقولهم: تُرْباً

---

(١) روى الترمذي (٥/٢٠٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في شأن زينب بنت جحش، جاء زيد يشكو، فَهَمَّ بطلاقها، فاستأمر النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

(٢) فيقدر بعدها مبتدأ؛ أي: (وأنت تخفي) (وأنت تخشى) لأن المضارع المثبت لا تدخله واو الحال، والأولى أن تكون عاطفةً.

(٣) رواه مسلم (١٧٧).

(٤) أي: قال: لسيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه.

(٥) رواه بنحوه مسلم (١٤٢٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾ . . . .

وجَنْدَلاً[١]، مؤكدٌ لقوله: (ما كان على النبي من حرج)، كأنه قيل: سنَّ اللهُ ذلك سنةً في الأنبياء الماضين، وهو ألا يُحَرِّجَ عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيرِه، وقد كانت تحتهم المهائر والسراري[٢]، وكانت لداودَ مئةُ امرأةٍ وثلاثُ مئةِ سُرِّيَّةٍ، ولسليمان ثلاثُ مئةِ حرةٍ، وسبعُ مئةِ سُرِّيَّةٍ، ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾: في الأنبياء الذين مضوا من قبلِه، ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾﴾: قضاء مقضيّاً، وحكما مبتوتاً، ولا وقفَ عليه إن جعلت:

«٣٩» ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بدلاً من (الذين) الأولِ، وَقِفْ إن جعلته في محلِّ الرفع أو النصب على المدح؛ أي: هم الذين يبلغون، أو: أعني الذين يبلغون، ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ وصفُ الأنبياءِ بأنهم لا يخشون إلا الله تعريضٌ بعد التصريح في قوله: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾﴾: كافياً للمخاوف، أو: محاسباً على الصغيرة والكبيرة، فكان جديراً بأن تَخشَى منه.

«٤٠» ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ أي: لم يكن أبا رجلٍ منكم حقيقةً حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمةِ الصِّهْرِ والنكاح؛ والمرادُ من رجالكم البالغين، والحسنُ والحسينُ لم يكونا بالغين حينئذٍ[٣]، والطاهرُ والطيبُ والقاسمُ وإبراهيمُ تُوُفُّوا صِبياناً، ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكلُّ رسولٍ أبو أمتِه فيما يرجعُ إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوبِ الشفقة والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء، وزيدٌ: واحدٌ من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقةً، فكان حكمُه حكمَهم، والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غيرُ، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾: بفتح التاء: عاصمٌ؛ بمعنى الطابَعِ؛ أي: آخرَهم؛ يعني: لا يُنبأُ أحدٌ بعده، وعيسى ممن نُبِّئَ قبلَه، وحين ينزلُ.. ينزلُ عاملاً على شريعة محمد ﷺ كأنه بعضُ أمتِه، وغيرُه: بكسر التاء؛ بمعنى: الطابِع، وفاعلِ الختم، وتُقَوِّيْه قراءةُ ابنِ مسعودٍ: ﴿ولكن نبياً خَتمَ النبيين﴾[٤]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) أي: لا أصَاب خيراً، والتُّرْبُ: التُّرَاب، والجَنْدَلُ: الحِجَارَة.
فقولهم: ترباً وجندلاً: من أسماء الأعيان، وُضِعا موضع المصدر، فيعربُ كلٌّ منهما مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف وجوباً، وأكثرُ النحاة على أن (ترباً) مفعول به لفعل محذوف، و(جندلاً) معطوف عليه؛ أي: ألزمك تُرباً وجندلاً. انظر «همع الهوامع» (٢/ ١٢٨).

(٢) المهائر: الحرائرُ.

(٣) يمكن أن يقال: الآية لا تتناول ولد الولد.

(٤) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٨٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ ....

《٤١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾: أَثْنُوا عليه بضروب الثناء، وأكثروا ذلك.

《٤٢》 ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾: أولَ النهار، ﴿وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾: آخرَ النهار، وخُصّا بالذكر؛ لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما، وعن قتادة: قُولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والفِعلان؛ أي: اذكروا الله وسبحوه: مُوجّهان إلى البكرة والأصيل، كقولك: صُمْ وصَلِّ يوم الجمعة، والتسبيحُ من جملة الذكر، وإنما اختصَّ من بين أنواعه اختصاصَ جبريلَ وميكائيلَ من بين الملائكة؛ إبانة لفضله على سائر الأذكار؛ لأن معناه: تنزيهُ ذاته عمّا لا يجوز عليه من الصفات، وجاز أن يُرادَ بالذكر وإكثارِه: تكثيرُ الطاعات والعبادات؛ فإنها من جملة الذكر، ثم خَصَّ من ذلك التسبيحَ بكرةً، وهي: صلاة الفجر، وأصيلاً، وهي: صلاةُ الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أو: صلاةُ الفجر والعشاءين.

《٤٣》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ لما كان من شأن المصلي أن يَنْعَطِفَ في ركوعه وسجوده.. استعير لمن يَتَعَطَّفُ على غيره حُنُوّاً عليه، وتَرَؤُّفاً، كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأةِ في حُنُوِّها على ولدها، ثم كثرَ حتى استُعملَ في الرحمة والترؤُّفِ، ومنه قولهم: صلى الله عليك؛ أي: تَرَحَّمَ عليك وتَرَأَّفَ؛ والمراد بصلاة الملائكة: قولُهم: اللهم صلِّ على المؤمنين، جُعِلُوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة؛ والمعنى: هو الذي يترحم عليكم ويترأفُ حين يدعوكم إلى الخير، ويأمرُكم بإكثار الذكر، والتوفُّرِ على الصلاة والطاعة، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾: هو دليل على أن المراد بالصلاة: الرحمة، وروي: أنه لما نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ قال أبو بكر: ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أَشْرَكَنا فيه، فنزلت.

《٤٤》 ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾: من إضافة المصدر إلى المفعول؛ أي: تحيةُ الله لهم ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾: يَرَوْنَه ﴿سَلَٰمٌ﴾ يقولُ الله تبارك وتعالى: السلامُ عليكم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ يعني: الجنةَ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ....

《٤٥》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على من بُعثت إليهم، وعلى تكذيبهم وتصديقِهم؛ أي: مقبولاً قولُك عند الله لهم وعليهم، كما يُقبلُ قولُ الشاهد العدل في الحكم، وهو حالٌ مقدرةٌ، كما تقول: مررت برجل معه صقرٌ صائداً به غداً؛ أي: مقدِّراً به الصيدَ غداً، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ للكافرين بالنار.

《٤٦》 ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾: بأمره أو: بتيسيره، والكلُّ منصوبٌ على الحال، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ جلّى به الله ظلماتِ الشرك، واهتدى به الضالون، كما يُجلَّى ظلامُ الليل بالسراج المنير ويُهتدَى به، والجمهورُ على أنه القرآن، فيكون التقدير: وذا سراج منير، أو: وتالياً سراجاً منيراً، وَوُصِفَ بالإنارة؛ لأن من السُّرُجِ ما لا يُضيءُ إذا قلَّ سَلِيْطُهُ[1]، ودقَّتْ فتيلتُه، أو: شاهداً بوحدانيتنا، ومبشراً برحمتنا، ونذيراً بنقمتنا، وداعياً إلى عبادتنا، وسراجاً وحجةً ظاهرةً لحضرتِنا.

《٤٧》 ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾: ثواباً عظيماً.

《٤٨》 ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ المرادُ به: التهييجُ، أو الدوامُ والثباتُ على ما كان عليه، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ هو بمعنى: الإيذاء، فيحتمِل أن يكون مضافاً إلى الفاعل؛ أي: اجعل إيذاءَهم إياك في جانب، ولا تُبالِ بهم، ولا تَخف من إيذائهم، أو: إلى المفعول؛ أي: دعْ إيذاءك إياهم مكافأةً لهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه يكفيكهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾: وكفى به مفوَّضاً إليه، وقيل: إن الله تعالى وصفَهُ بخمسةِ أوصافٍ، وقابلَ كلاً منها بخطابٍ مناسبٍ له، قابلَ الشاهدَ بقوله: (وبشر المؤمنين) لأنه يكون شاهداً على أمته، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضل الكبير، والمبشِّرَ: بالإعراضِ عن الكافرين والمنافقين؛ لأنه إذا أعرض عنهم.. أقبل جميعَ إقبالِه على المؤمنين، وهو مناسبٌ للبشارة، والنذيرَ: بـ(دع أذاهم) لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر، والأذى لا بدَّ له من عقاب عاجلٍ أو آجلٍ.. كانوا منذَرين به في المستقبل، والداعيَ إلى الله بتيسيره بقوله: (وتوكل على الله) لأن مَن توكلَ على الله يَسَّرَ عليه كلَّ عسير، والسراجَ المنيرَ: بالاكتفاء به وكيلاً؛ لأن من أناره اللهُ برهاناً على جميع خلقه.. كان جديراً بأن يَكتفي به عن جميع خلقه.

---

(١) السليط: الزيتُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

《٤٩》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: تزوجتم، والنكاحُ هو: الوطءُ في الأصل، وتسميةُ العقد نكاحاً لملابستِه له من حيث إنه طريقٌ إليه، كتسمية الخمر إثماً؛ لأنها سببُه، وكقول الراجز:

أسنمةُ الآبالِ في سحابِه

سمى الماءَ بأسنمةِ الآبال؛ لأنه سببُ سِمَنِ الآبال، وارتفاعِ أسنِمَتِها، ولم يَرِدْ لفظُ النكاح في كتاب الله تعالى إلا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به، ومن آداب القرآن الكنايةُ عنه بلفظ الملامسةِ والمماسةِ والقِربانِ والتَّغَشِّي والإتيان، وفي تخصيص المؤمنات مع أن الكتابيات تُساوي المؤمناتِ في هذا الحكم إشارةٌ إلى أن الأَولى بالمؤمن أن يَنكِحَ مؤمنة، ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ والخلوةُ الصحيحةُ كالمسِّ، ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ فيه دليلٌ على أن العدة تجب على النساء للرجال؛ ومعنى (تعتدُّونها): تستوفون عَدَدَها، (تفتعلون)؛ مِن العدِّ، ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ والمُتْعَةُ: تجب للتي طلقَها قبل الدخول بها ولم يُسَمِّ لها مهراً، دون غيرها، ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: لا تُمسكوهن ضراراً، وأخرجوهن من منازلكم؛ إذْ لا عدةَ لكم عليهن.

《٥٠》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهن؛ إذ المهرُ أَجْرٌ على البُضعِ؛ ولهذا قال الكرخي: إن النكاح بلفظ الإجارة جائزٌ، وقلنا: التأبيدُ من شرط النكاح، والتأقيتُ مِن شرط الإجارة، وبينهما منافاة[1]، وإيتاؤُها إعطاؤُها عاجلاً، أو فَرْضُها وتسميتُها في العقد، ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ وهي صفيةُ وجُويريةُ، فأعتقَهما وتزوجَهما، ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ و(مع) ليس

---

(١) انظر «بدائع الصنائع» (٢/ ٢٣٠).

للقِران، بل لوجودِهما فحسبُ[1]، كقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٤٤]، وعن أم هانئٍ بنتِ أبي طالب: خَطَبني رسول الله ﷺ فاعتذرتُ إليه فعذَرني، فأنزل الله هذه الآية، فلم أَحِلَّ له؛ لأني لم أهاجرْ معه[2]، ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾: وأحللْنا لك من وَقَعَ لها أن تهبَ لك نفسَها ولا تطلبَ مهراً؛ من النساء المؤمنات، إن اتفق ذلك، ولذا نَكَّرَها، قال ابنُ عباس: هو بيان حكمٍ في المستقبل، ولم يكن عنده أحدٌ منهن بالهبة، وقيل: الواهبةُ نفسَها ميمونةُ بنتُ الحارث، أو زينبُ بنتُ خُزيمةَ، أو أمُّ شَريك بنتُ جابر، أو خولةُ بنتُ حكيم، وقرأ الحسن: ﴿أَنْ﴾: بالفتح على التعليل، بتقديرِ حذف اللام، وقرأ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه بغيرِ (إن)[3]، ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ استنكاحُها: طلبُ نكاحِها والرغبةُ فيه، وقيل: نَكَحَ واستنكح: بمعنىً، والشرطُ الثاني تقييدٌ للشرط الأول، شَرَطَ في الإحلال: هبتَها نفسَها، وفي الهبة: إرادةَ استنكاحِ رسول الله ﷺ، كأنه قال: أحللْناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريدُ أن تستنكحها؛ لأن إرادته هي قبولُ الهبة وما به تَتِمُّ، وفيه دليلُ جوازِ النكاح بلفظ الهبة؛ لأن رسول الله ﷺ وأُمَّتَه سواءٌ في الأحكام إلا فيما خصَّه الدليل[4]، ﴿خَالِصَةً﴾: بلا مهرٍ؛ حالٌ من الضمير في (وهبت)، أو مصدرٌ مؤكدٌ؛ أي: خَلَصَ لك إحلالُ ما أحللنا لك خالصةً؛ بمعنى: خُلوصاً، و(الفاعلة) في المصادر غيرُ عزيز، كالعافية والكاذبة، ﴿لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يجب المهرُ لغيرك وإن لم يسمِّه أو نفاه، عدلَ عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: (إن أراد النبي)، ثم رجع إلى الخطاب ليؤذنَ أن الاختصاص تَكرِمةٌ له؛ لأجل النبوة، وتكريرُه تفخيمٌ له[5]، ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: ما أوجبنا من المهور على أمتك في زوجاتهم، أو: ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك، وقولُه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾: ضيقٌ، متصلٌ بـ(خالصة لك من دون المؤمنين)، وقولُه: (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم): جملةٌ اعتراضيةٌ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾ بالتوسعة على عباده.

---

(١) أي: لِوُجُودِ هجرتِها وهجرتِه ﷺ وإن كانا في زمنين متفرقين.
وفي المطبوع (٣/ ٥٠٦): (لوجودها) فالمعنى: لوجود الهجرة منهما وإن لم يَصْطَحِبا.

(٢) رواه الترمذي (٣٢١٤).

(٣) انظر القراءتين في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٩٢).

(٤) انظر «بدائع الصنائع» (٢/ ٢٣٠).

(٥) أي: تكريرُ لفظ (النبي).

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ ....

《٥١》 ﴿تُرْجِى﴾: بلا همزٍ: مدنيٌّ وحمزةُ وعليٌّ وخلفٌ وحفصٌ، وبهمز: غيرُهم[١]، تؤخرُ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾: تضمُّ؛ بمعنى: تتركُ مضاجعةَ مَن تشاء منهن، وتُضاجِعُ مَن تشاء، أو: تُطَلِّقُ مَن تشاء وتُمْسِكُ مَن تشاء، أو: لا تَقْسِمُ لِأَيَّتِهن شئت وتَقْسِمُ لمن شئت، أو: تترك تَزَوُّجَ مَن شئت من نساء أمتك وتَتَزَوَّجُ مَن شئت، وهذه قسمةٌ جامعة لما هو الغَرَضُ؛ لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك، فإذا أمسك.. ضاجع أو ترك، وقسم أو لم يقسم، وإذا طلق وعزل.. فإما أن يُخَلِّيَ المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها، وروي: أنه أرجى منهن جويريةَ وسودةَ وصفيةَ وميمونةَ وأمَّ حبيبةَ، وكان يقسم لهن ما شاء كما شاء، وكانت ممن آوى إليه عائشةَ وحفصةَ وأمَّ سلمةَ وزينبَ[٢]، أرجى خمساً وآوى أربعاً، وروي: أنه كان يُسَوِّيْ مع ما أُطلقَ له وخُيِّرَ فيه، إلا سودةَ؛ فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلقني حتى أُحشرَ في زمرة نسائك[٣]، ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: ومَن دعوتَ إلى فراشك وطلبتَ صحبتَها ممن عزلتَ عن نفسك بالإرجاء.. فلا ضيقَ عليك في ذلك؛ أي: ليس إذا عزلتها.. لم يجزْ لك ردُّها إلى نفسك، و(مَن): رفعٌ بالابتداء، وخبرُه: (فلا جناح)، ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفويضُ إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: أقربُ إلى قرة عيونهن، وقلةِ حزنهن، ورضاهن جميعاً؛ لأنهن إذا علمنَ أن هذا التفويض من عند الله.. اطمأنت نفوسُهن، وذهب التغايرُ، وحصل الرضا، وقرت العيونُ، (كلُّهن): بالرفع، تأكيدٌ لنون (يرضين)، وقرئ: ﴿ويرضين كلهن بما آتيتهن﴾ على التقديم[٤]، وقرئ شاذّاً: ﴿كلَّهن﴾: بالنصب[٥]؛ تأكيداً لـ(هن) في (آتيتهن)، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾: فيه وعيدٌ لمن لم يرضَ منهن بما دَبَّرَ اللهُ من ذلك وفَوَّضَ إلى مشيئةِ رسولِه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور، ﴿حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾: لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يُتقى ويُحذر.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٧).

(٢) رواه بنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٥٠١).

(٣) روى الترمذي (٣٠٤٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه، قال: خشيت سودة أن يطلقها النبي ﷺ، فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي لعائشة، ففعل.

(٤) انظر «الكشاف» (٣/ ٥٦٢).

(٥) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٩٣).

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ ....

«٥٢» ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾: بالتاء: أبو عمرٍو ويعقوبُ، وغيرُهما: بالتذكير[1]؛ لأن تأنيث الجمع غيرُ حقيقي، وإذا جاز بغير فصلٍ في: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ﴾ [يوسف: ٣٠] فمع الفصل أجْوَزُ، ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾: من بعد التسع؛ لأن التسع نصابُ رسول الله ﷺ من الأزواج، كما أن الأربع نصابُ أمته، ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ بالطلاق؛ والمعنى: ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخرَ بِكُلِّهن أو بعضِهن؛ كرامةً لهن وجزاء على ما اخترنَ ورضينَ، فقُصِرَ رسولُ الله ﷺ عليهن، وهن التسعُ التي مات عنهن: عائشةُ، حفصةُ، أمُّ حبيبةَ، سودةُ، أمُّ سلمةَ، صفيةُ، ميمونةُ، زينبُ بنتُ جحش، جويريةُ، و(مِن) في (مِن أزواج) لتأكيدِ النفي، وفائدتُه: استغراقُ جنس الأزواج بالتحريم، ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾: في موضع الحال من الفاعل، وهو الضمير في (تَبَدَّلَ) أي: تتبدلَ، لا من المفعول الذي هو (من أزواج) لتوغله في التنكير[2]، وتقديرُه: مفروضاً إعجابُك بهن، وقيل: هي أسماءُ بنتُ عُميس امرأةُ جعفرِ بنِ أبي طالب؛ فإنها ممن أعجبه حسنُهن، وعن عائشةَ وأمِّ سلمةَ: ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحِلَّ له أن يتزوج من النساء ما شاء[3]؛ يعني: أن الآية نسخت، ونسخُها إما بالسنة، أو بقوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾، وترتيبُ النزول ليس على ترتيب المصحف، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾: استثنى ممن حُرِّمَ عليه.. الإماءَ، ومحلُّ (ما): رفعٌ بدلٌ من (النساء)، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾: حافظاً، وهو تحذيرٌ عن مجاوزة حدوده.

«٥٣» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ (أن يؤذن لكم): في موضع الحال؛ أي: لا تدخلوا إلا مأذوناً لكم، أو: في معنى

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٧).

(٢) يجوز أن تكون حالاً من (أزواج)؛ إذ يجوز مجيءُ الحال من النكرة إذا وقعت منفية؛ لأنها تستغرق فيزول إبهامُها. انظر «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٧/ ١٨٠).

(٣) رواه الترمذي (٣٢١٦) والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٥٦) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

....

الظرف، تقديرُه: وقتَ أن يؤذن لكم، و(غيرَ ناظرين): حالٌ مِن (لا تدخلوا)، وقع الاستثناءُ على الحال والوقت معاً، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي إلا وقتَ الإذن، ولا تدخلوها إلا غيرَ ناظرين؛ أي: غيرَ منتظرين، وهؤلاء قومٌ كانوا يَتحيَّنون طعامَ رسول الله ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه؛ ومعناه: لا تدخلوا يا هؤلاء المتحيِّنُون الطعامَ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غيرَ ناظرين إناه، وإِنَى الطعام: إدراكُه؛ يقال: أَنى الطعامُ إِنىً، كقولك: قَلاه قِلىً، وقيل: إِناهُ: وقتُه؛ أي: غيرَ ناظرين وقتَ الطعام وساعةَ أكلِه، وروي: أن النبي ﷺ أَوْلَمَ على زينبَ بتمرٍ وسَويق وشاة[1]، وأمر أنساً أن يدعوَ بالناس، فترادفُوا أفواجاً يأكلُ فوج فيخرج، ثم يدخل فوجٌ، إلى أن قال: يا رسول الله دعوتُ حتى ما أجدُ أحداً أدعوْه، فقال: ارفعوا طعامَكم، وتفرقَ الناس، وبقي ثلاثةُ نفر يتحدثون، فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ؛ ليخرجُوا، فطاف رسول الله ﷺ بالحجرات وسلم عليهن ودَعَوْنَ له ورجع، فإذا الثلاثةُ جلوسٌ يتحدثون، وكان رسول الله ﷺ شديدَ الحياء، فتولَّى، فلما رأوه مُتَولِّياً.. خرجُوا فرجع ونزلت[2]، ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾: فتفرقوا، ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾: هو مجرورٌ معطوفٌ على (ناظرين)، أو: منصوبٌ؛ أي: ولا تدخلوها مستأنسين، نُهوا عن أن يُطيلوا الجلوسَ يستأنسُ بعضُهم ببعض؛ لأجل حديثٍ يحدثُه به، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾: من إخراجِكم، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: أن إخراجَكم حقٌّ ما ينبغي أن يُستحيا منه، ولما كان الحياء مما يَمنع الحَيِيَّ من بعض الأفعال.. قيل: لا يستحي من الحق؛ أي: لا يمتنع منه ولا يتركه تركَ الحَيِيِّ منكم، وهذا أدبٌ أَدَّبَ اللهُ به الثقلاء، وعن عائشة رضي الله عنها: حسبُكَ في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملْهم، وقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضميرُ لنساء رسول الله ﷺ؛ لدلالة بيوت النبي؛ لأن فيها نساءَه، ﴿مَتَٰعًا﴾: عاريَّةً أو حاجةً ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ المتاعَ ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من خواطرِ الشيطانِ وعوارضِ الفتنِ، وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يَبرُزن للرجال، وكان عمر رضي الله عنه يُحب ضرب الحجاب عليهن، ويَوَدُّ أن ينزلَ فيه، وقال: يا رسول الله يدخلُ عليك البَرُّ والفاجرُ،

---

(١) السويق: طَعَامٌ يُصنع من دقيق القمح وَالشعِير.

(٢) روى نحوه البخاري (٤٧٩١) ومسلم (١٤٢٨) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ ....

فلو أَمرتَ أمهاتِ المؤمنين بالحجاب، فنزلت[1]، وذُكِرَ أن بعضهم قال: أَنُنهَى أن نكلم بناتِ عمِّنا إلا من وراء حجاب؟ لئن مات محمد لأتزوجنَّ فلانة، فنزل[2]: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾: أي: وما صحَّ لكم إيذاءُ رسول الله ﷺ، ولا نكاحُ أزواجه من بعد موته، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: ذنباً عظيماً.

《٥٤》 ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ من أذى النبي ﷺ، أو من نكاحهن ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم من ذلكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ فيعاقبُكم به.

《٥٥》 ولما نزلت آية الحجاب.. قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله، أَوَ نَحْنُ أيضاً نكلمُهن من وراء حجاب؟ فنزل: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: نساءِ المؤمناتِ، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: لا إثم عليهن في ألا يحتجبن من هؤلاء، ولم يَذكر العمَّ والخالَ؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين، وقد جاءت تسمية العمِّ أباً، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وإسماعيلُ عمُّ يعقوب، وعبيدُهن عند الجمهور كالأجانب، ثم نقلَ الكلامَ من الغيبة إلى الخطاب، وفي هذا النقل فضلُ تشديدٍ، كأنه قيل: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أُمِرْتُنَّ به من الاحتجاب، وأُنزل فيه الوحيُ من الاستتار، واحتطْنَ فيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾: عالماً، قال ابن عطاء: الشهيدُ الذي يعلم خطراتِ القلوب، كما يعلم حركاتِ الجوارح.

《٥٦》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ أي: قولوا: اللهم صل على محمد، أو صلى الله على محمد، ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: قولوا: اللهم سلم على محمد، أو: انقادوا لأمره وحكمِه انقياداً، وسئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «إن الله وَكَّلَ بي ملكين، فلا أُذكر عند عبد مسلم فيصليْ عليَّ إلا قال ذانِكَ الملكان: غفرَ اللهُ لك، وقال اللهُ وملائكتُه جواباً لذينك الملكين: آمين، ولا أذكرُ عند عبد مسلم فلا يصلي علي إلا قال ذانِك

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٣).

(٢) رواه ابن بشكوال في «غوامض الأسماء المبهمة» (٢/ ٧١٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

الملكان: لا غفرَ اللهُ لك، وقال الله وملائكتُه جواباً لذينك الملكين: آمين»[1]، ثم هي واجبة مرةً عند الطحاوي، وكلما ذُكِرَ اسمُه عند الكرخيِّ، وهو الاحتياط، وعليه الجمهور[2]، وإن صلَّى على غيره على سبيل التبع، كقوله: صلى الله على النبيِّ وآلِه.. فلا كلام فيه، وأما إذا أفردَ غيرَه من أهل البيت بالصلاة.. فمكروه، وهو من شعائر الروافض.

《٥٧》 ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يؤذون رسولَ اللهِ، وذِكرُ اسم الله للتشريف، أو: عُبِّرَ بإيذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يَرضى الله ورسولُه، كالكفر وإنكار النبوة.. مجازاً، وإنما جُعل مجازاً فيهما وحقيقةُ الإيذاء يُتصورُ في رسول الله لئلا يجتمع المجازُ والحقيقةُ في لفظ واحد، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: طردَهم الله عن رحمته في الدارين، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ في الآخرة.

《٥٨》 ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أطلقَ إيذاءَ اللهِ ورسولِه، وقيَّدَ إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن ذا يكون غيرَ حقٍّ أبداً، وأما هذا.. فمنه حقٌّ، كالحدِّ والتعزير، ومنه باطلٌ، قيل: نزلت في ناسٍ من المنافقين يؤذون عليّاً رضي الله عنه ويُسمعونه، وقيل: في زُناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهاتٌ، وعن الفضيل: لا يحلُّ لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حقٍّ، فكيف مؤمناً؟ ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾: تحملُوا ﴿بُهْتَانًا﴾: كذباً عظيماً، ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾: ظاهراً.

《٥٩》 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ الجلبابُ: ما يَستُرُ الكلَّ، مثلُ المِلْحَفَةِ، عن المبرد، ومعنى (يدنين عليهن من جلابيبهن): يرخينها عليهن، ويغطين بها وجوهَهن وأعطافهن، يقال إذا زال الثوبُ عن وجه المرأة: أَدْنِ ثوبَكِ على وجهِكِ، و(مِن): للتبعيض؛ أي: ترخي بعضَ جلبابها وفضلَه على وجهها، تتقنعُ حتى تتميز من الأمة، أو: المرادُ أن يَتَجَلْبَبْنَ ببعض ما لهن من الجلابيبِ، وألا تكون المرأة متبذلةً في درع وخمار

---

(١) رواه في الطبراني «المعجم الكبير» (٣/ ٨٩) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

(٢) في «بدائع الصنائع» للكاساني (١/ ٢١٣)، و«الهداية» للمرغيناني (١/ ٥٣) أن الكرخي يقول: إنها فريضة على كل بالغ عاقل في العمر مرة واحدة، وأن الطحاوي يقول: كلما ذكره، أو سمع اسمه.. تجب.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ....﴾

كالأمة، ولها جلبابان فصاعداً في بيتها، وذلك أن النساء في أول الإسلام على هِجِّيْراهُنَّ في الجاهلية[1]، متبذلاتٌ، تَبْرُزُ المرأة في درع وخمار، لا فضلَ بين الحرة والأمة، وكان الفتيان يتعرضون إذا خرجْنَ بالليل لقضاء حوائجِهن في النخل والغِيطانِ للإماء، وربما تعرضوا للحرة لحسبان الأمة، فأُمِرْنَ أن يخالفن بزِيِّهِنَّ عن زيِّ الإماء بِلُبْسِ الملاحفِ، وسَترِ الرؤوسِ والوجوه، فلا يطمعُ فيهن طامعٌ، وذلك قولُه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: أولى وأجدرُ بأن يُعرفن فلا يُتعرضَ لهن، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط، ﴿رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ بتعليمهن آدابَ المكارم.

《٦٠》 ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: فُجُورٌ، وهم الزناةُ، من قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هم: أُناسٌ كانوا يُرجفون بأخبار السوء عن سَرايا رسولِ الله ﷺ فيقولون: هُزِمُوا وقتلوا وجرى عليهم كيتَ وكيتَ، فيكسِرون بذلك قلوب المؤمنين، يقال: أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة؛ لكونه خبراً مُتزلزلاً غيرَ ثابتٍ؛ من الرجفة وهي: الزلزلةُ، ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: لنأمرنَّكَ بقتالهم، أو: لنسلطنك عليهم، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾: في المدينة، وهو عطف على (لنغرينك) لأنه يجوز أن يجابَ به القسمُ؛ لصحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يجاورونك، ولما كان الجلاءُ عن الوطن أعظمَ من جميع ما أُصيبوا به.. عُطِفَ بـ(ثم)؛ لِبُعْدِ حالِه عن حال المعطوف عليه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾: زماناً قليلاً؛ والمعنى: لئن لم ينتهِ المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقةُ عن فجورهم، والمرجفون عمّا يؤلفون من أخبار السوء.. لنأمرنَّكَ بأن تفعل بهم الأفعالَ التي تسوءُهم، ثم بأن تَضْطَرَّهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى ألا يساكنوك فيها إلا زماناً قليلاً رَيْثما يَرتحلون، فسمَّى ذلك إغراءً، وهو التحريشُ؛ على سبيل المجاز.

《٦١》 ﴿مَّلْعُونِينَ﴾: نصبٌ على الشتم، أو الحال؛ أي: لا يجاورونك إلا ملعونين، فالاستثناءُ دخل على الظرف والحال معاً كما مرَّ، ولا ينتصبُ عن ﴿أُخِذُوا۟﴾ لأن ما بعد حروف الشرط لا يعمل فيما قبلها، ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾: وُجِدُوا ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ والتشديدُ يدلُّ على التكثير.

---

(١) هِجِّيْراهُنَّ: عادتُهن.

سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ....

《٦٢》 ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: في موضع مصدر مؤكِّدٍ، أي: سن اللهُ في الذين ينافقون الأنبياءَ أن يُقتَّلُوا أيما وُجدوا، ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾: مَضوا ﴿مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: لا يُبدلُ اللهُ سنته، بل يُجريها مُجرى واحداً في الأمم.

《٦٣》 ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة؛ استعجالاً على سبيل الهُزْءِ، واليهودُ يسألونه امتحاناً؛ لأن الله تعالى عمّى وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأَمَرَ رسولَه بأن يجيبهم بأنه عِلْمٌ قد استأثر الله به، ثم بَيَّنَ لرسوله أنها قريبة الوقوع تهديداً للمستعجِلين، وإسكاتاً للممتحِنين بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾: شيئاً قريباً، أو: لأن الساعة في معنى الزمان[1].

《٦٤》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾: ناراً شديدةَ الاتّقاد.

《٦٥》 ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: هذا ردُّ مذهبَ الجهميةِ؛ لأنهم يَزعُمون أن الجنة والنار تفنيان، ولا وقف على ﴿سَعِيرًا﴾ لأن قوله: (خالدين فيها): حالٌ عن الضمير في (لهم)، ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ ناصراً يمنعهم.

《٦٦》 اذكُرْ ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾: تُصَرَّفُ في الجهات، كما تَرَى البَضعة تدورُ في القِدْرِ إذا غلتْ، وخُصصت الوجوهُ لأن الوجه أكرمُ موضع على الإنسان من جسده. أو يكون الوجهُ عبارة عن الجملة، ﴿يَقُولُونَ﴾. حالٌ: ﴿يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ فنَتخلصَ من هذا العذاب، فتمنَّوا حين لا ينفعُهم التمني.

《٦٧》 ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾: جمعُ سيد، ﴿ساداتنا﴾: شاميٌّ وسهلٌ ويعقوبُ[2]. جمعُ الجمع، والمرادُ رؤساءُ الكفرة الذين لقَّنُوهم الكفر وزينُوه لهم، ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾: ذوي الأسنان منّا، أو علماءَنا، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ يقال: ضلَّ السبيلَ وأضلَّه إياه، وزيادةُ الألف لإطلاق

---

(١) هذا توجيه للإخبار بالمذكر (قريباً) عن المؤنث وهو ضمير (تكون) العائد إلى (الساعة)، ويحتمل أن يكون (قريباً) منصوباً على الظرفية فلا إشكال. انظر «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٧/ ١٨٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٨) وكذا القراءة الآتية.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ ...... ﴾

الصوت، جُعلت فواصلُ الآي كقوافي الشعر، وفائدتُها: الوقفُ والدلالةُ على أن الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف.

《٦٨》 ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ للضلال والإضلال، ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾: بالباء: عاصمٌ؛ ليدلَّ على أشدِّ اللعن وأعظمِه، وغيرُه: بالثاء؛ تكثيراً لأعداد اللعائن.

《٦٩》 ونزل في شأن زيدٍ وزينبَ وما سَمِعَ فيه من قالةِ بعضِ الناسِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ (ما): مصدريةٌ أو موصولةٌ، وأيُّهما كان.. فالمرادُ البراءةُ عن مضمون القول ومؤدّاه، وهو الأمرُ المعيبُ، وأذى موسى عليه السلام هو حديثُ المُومسةِ التي أرادها قارونُ على قذفِه بنفسِها، أو اتهامُهم إياه بقتل هارونَ، فأحياه الله تعالى، فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام[1]، كما برَّأَ نبيَّنا عليه السلام بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾: ذا جاه ومنزلة، مستجابَ الدعوة، وقرأ ابنُ مسعود والأعمشُ: ﴿وكان عبداً لله وجيهاً﴾[2].

《٧٠》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾: صدقاً وصواباً، أو قاصداً إلى الحقِّ، والسَّدادُ: القصدُ إلى الحقِّ، والقولُ بالعدل، والمرادُ نَهيُهم عمّا خاضوا فيه من حديث زينبَ من غير قصدٍ وعدلٍ في القول، والبعثُ على أن يَسِدَّ قولُهم في كل باب؛ لأن حفظ اللسان وسَدادَ القول رأسُ الخير كلِّه، ولا تقفْ على (سديداً) لأن جواب الأمر قولُه:

---

(١) روى البخاري (٣٤٠٤) ومسلم (٣٣٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حَيِيّاً ستيراً، لا يُرى من جِلْدِهِ شيءٌ استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر، إلا من عيب بجلده: إما برصٌ وإما أُدْرَةٌ: وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجرُ، ثوبي حجرُ، حتى انتهى إلى ملإٍ من بني إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسنَ ما خلقَ الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لَندَباً من أثر ضربه، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾».

الأُدْرة: انتفاخُ الخُصْيَة.

(٢) انظر «تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٥٢) ولم ينسبها للأعمش.

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ....

«٧١» ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: يقبلْ طاعاتِكم، أو: يوفقْكم لصالح العمل، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: يمحُها؛ والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديدِ قولِكم، فإنكم إن فعلتم ذلك.. أعطاكم ما هو غايةُ الطِّلْبةِ؛ مِن تَقبُّلِ حسناتِكم، والإثابةِ عليها، ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرِها، وهذه الآية مقررةٌ للتي قبلها، بُنيت تلك على النهي عمّا يؤذي رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان؛ ليترادف عليهم النهيُ والأمرُ، مع إتباعِ النهيِ ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، وإتباعِ الأمرِ الوعدَ البليغَ، فيَقْوَى الصارفُ عن الأذى، والداعي إلى تركه، ولمّا علقَ بالطاعة الفوزَ العظيمَ بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ أتبعَه قولَه:

«٧٢» ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ وهو يريد بالأمانة: الطاعةَ لله، وبحمِلِ الأمانةِ: الخيانةَ؛ يُقال: فلانٌ حاملٌ للأمانة، ومحتمل لها؛ أي: لا يؤدِّيْها إلى صاحبها حتى تزولَ عن ذمته؛ إذِ الأمانةُ كأنها راكبةٌ للمؤتَمَنِ عليها، وهو حاملُها، ولهذا يقال: رَكِبَتْهُ الديون، ولي عليه حقٌّ، فإذا أدّاها.. لم تبقَ راكبةً له، ولا هو حاملاً لها؛ يعني: أن هذه الأجرامَ العِظامَ من السموات والأرض والجبال قد انقادتْ لأمر الله انقيادَ مثلِها، وهو ما يتأتّى من الجمادات، وأطاعت له الطاعةَ التي تليق بها؛ حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادتِه إيجاداً وتكويناً وتسويةً على هيئات مختلفة، وأشكالٍ متنوعة، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وأخبر أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابَّ يسجدون لله، وإن من الحجارة ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وأما الإنسانُ.. فلم تكن حالُه فيما يصحُّ منه من الطاعة، ويليقُ به من الانقياد لأوامر الله ونواهيْه وهو حيوانٌ عاقلٌ صالحٌ للتكليف مثلَ حال تلك الجمادات فيما يصحُّ منها ويليقُ بها من الانقياد وعدم الامتناع، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: أَبَيْنَ الخيانةَ فيها، وألا يؤدينها، ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾: وخِفْنَ من الخيانة فيها، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: خان فيها وأبى ألا يؤديَها؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لكونه تاركاً لأداء الأمانة، ﴿جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ لإخطائِه ما يُسعِدُه مع تمكنه منه، وهو أداؤُها، قال الزجاج: الكافرُ والمنافقُ حَمَلا الأمانةَ؛ أي: خانا ولم يُطيعا، ومن أطاع من

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

الأنبياء والمؤمنين.. فلا يُقال: كان ظلوماً جهولاً[١]، وقيل: معنى الآية: أن ما كُلِّفَه الإنسان بلغ من عِظَمِه أنه عُرِضَ على أعظمِ ما خلق الله من الأجرام وأقواه، فأبى حملَه وأشفقَ منه، وحَمَلَه الإنسانُ على ضعفه؛ إنه كان ظلوماً جهولاً؛ حيث حمل الأمانة، ثم لم يَفِ بها، وضَمِنَها ثم خان بضمانِه فيها، ونحوُ هذا من الكلام كثيرٌ في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم، من ذلك قولُهم: لو قيل للشحم: أين تذهب؟ لقال: أُسَوِّيْ العِوَجَ[٢].

《٧٣》 واللامُ في ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ للتعليل؛ لأن التعذيب هنا نظيرُ التأديب في قولك: ضربته للتأديب، فلا تقف على (جهولاً)، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وقرأ الأعمشُ: ﴿ويتوبُ اللهُ﴾[٣]؛ ليجعل العلةَ قاصرةً على فعل الحامل، ويبتدئُ: (ويتوبُ الله)، ومعنى المشهورة: ليعذبَ الله حاملَ الأمانة ويتوبَ على غيره ممن لم يحملْها؛ لأنه إذا تِيْبَ على الوافي.. كان نوعاً من عذاب الغادر، أو: للعاقبة؛ أي: حملَها الإنسانُ فآل الآمرُ إلى تعذيب الأشقياء، وقبول توبة السعداء، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للتائبين، ﴿رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ بعباده المؤمنين.



---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٢٣٨).

(٢) أي: أغطي العيوب، والشاهد: نسبةُ القول للشحم، والمرادُ: لسانُ حاله يتكلم.

(٣) انظر «تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٥٨) وقد نسبها للحسن.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) ....

سورة سبأ

مكيةٌ، وقيل: إلا ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾ الآيةَ، وآيُها خمسٌ وأربعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿الْحَمْدُ﴾: إن أُجري على المعهود.. فهو بما حمد به نفسه محمود، وإن أُجري على الاستغراق.. فله لكلِّ المحامد الاستحقاقُ. ﴿لِلَّهِ﴾: بلام التمليك، لأنه خالقُ ناطقَ الحمدِ أصلاً، فكان بملكه مالكَ الحمدِ للتحميد أهلاً، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وقهراً، فكان حقيقاً بأن يُحمدَ سرّاً وجهراً، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا؛ إذ النعم في الدارين من المولى، غيرَ أن الحمد هنا واجبٌ؛ لأن الدنيا دارُ تكليف، وثَمَّ لا؛ لعدم التكليف، وإنما يَحمَدُ أهل الجنة سروراً بالنعم، وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم، بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ بتدبير ما في السماء والأرض، ﴿الْخَبِيرُ (١)﴾ بضمير مَن يحمَدُه ليوم الجزاء والعرض.

《٢》 ﴿يَعْلَمُ﴾: مستأنف، ﴿مَا يَلِجُ﴾: ما يدخلُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من الأموات والدفائن، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: من النبات وجواهرِ المعادن، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار وأنواعِ البركاتِ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: يصعدُ إليها من الملائكة والدعوات، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بإنزال ما يحتاجون إليه، ﴿الْغَفُورُ (٢)﴾ لما يجترئُون عليه.

《٣》 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: منكرو البعث: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ نفيٌ للبعث وإنكارٌ لمجيء الساعة، ﴿قُلْ بَلَى﴾: أوجبَ ما بعد النفي، بـ(بلى) على معنى: أنْ ليس الأمر إلا إتيانَها، ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم أعيدَ إيجابُه مؤكَّداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيدُ باليمين بالله عزَّ وجلَّ، ثم أمدَّ التوكيد القسميَّ بما أُتبعَ المقسمُ به من الوصف بقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ لأن عظمة حالِ المقسَمِ به تُؤذنُ بقوة حالِ المقسَمِ عليه، وبشدة ثباته واستقامته؛ لأنه بمنزلة الاستشهاد على

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ ....

الأمر، وكلما كان المستشهَدُ به أرفعَ منزلةً. . كانت الشهادة أقوى وآكدَ، والمستشهَدُ عليه أثبتَ وأرسخَ، ولما كان قيامُ الساعة من مشاهيرِ الغيوب وأدخلِها في الخِفْيَةِ. . كان الوصف بما يرجع إلى علم الغيب أولى وأحقَّ، ﴿عالِمُ الغيبِ﴾: مدني وشامي؛ أي: هو عالم الغيب، ﴿علّام الغيبِ﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ على المبالغة[1]، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ وبكسر الزاي: عليٌّ؛ يقال: عَزَبَ يَعزُبُ ويَعْزِبُ: إذا غاب وبَعُدَ، ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: مقدارُ أصغرِ نَمْلَةٍ، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾: من مثقال ذرَّةٍ، ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ من مثقال ذرة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾: إلا في اللوح المحفوظ، (ولا أصغرُ) (ولا أكبرُ): بالرفع عطفٌ على (مثقال ذرة)، ويكونُ (إلا) بمعنى: لكن، أو: رُفِعَا بالابتداء، والخبرُ: (في كتاب).

《٤》 واللامُ في: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِمَا قَصَّرُوا فيه من مدارج الإيمان، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ لِما صَبَرُوا عليه من مناهج الإحسان: متعلقٌ بـ(لتأتينكم) تعليلاً له.

《٥》 ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾: جاهدوا في ردِّ القرآن ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مسابقين ظانِّين أنهم يَفوتوننا، ﴿مُعَجِّزِيْنَ﴾: مكيٌّ وأبو عمرو؛ أي: مثبطين الناس عن اتباعِها وتأملِها، أو: ناسبين الله إلى العجز، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾: برفع الميم: مكيٌّ وحفصٌ ويعقوبُ: صفةٌ لـ(عذابٌ) أي: عذابٌ أليمٌ من سيئِ العذاب، قال قتادة: الرجزُ: سوءُ العذاب، وغيرُهم: بالجر، صفةٌ لـ(رجز).

《٦》 ﴿وَيَرَى﴾: في موضع الرفع بالاستئناف؛ أي: ويعلمُ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني: أصحابَ رسولِ الله ﷺ، ومَن يطأُ أعقابَهم من أمته، أو: علماءَ أهل الكتاب الذين أسلموا، كعبد الله بنِ سلام وكعبِ الأخبار، والمفعولُ الأولُ لـ(يرى): ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: القرآنَ، ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الصدق، و(هو): فصلٌ، و(الحقَّ): مفعولٌ ثانٍ؛ أو: في موضع النصب[2]، معطوفٌ على لـ(يجزي) أي: وليعلمَ أولو العلم عند مجيءِ الساعة أنه الحقُّ علماً لا يُزادُ عليه في الإيقان، ﴿وَيَهْدِيٓ﴾ اللهُ، أو: الذي أنزل إليك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ وهو دينُ الله.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٨) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

(٢) أي: الفعل (يرى).

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ....

«٧» ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: قال قريشٌ بعضُهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون: محمداً ﷺ، وإنما نكَّرُوه مع أنه كان مشهوراً عَلَماً في قريش، وكان إنباؤُه بالبعث شائعاً عندهم؛ تجاهلاً به وبأمره، وبابُ التجاهل في البلاغة وَالِيْ سحرِها، ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ أي: يحدثُكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تُبعثون وتُنَشَّؤون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رُفاتاً وتُراباً، ويمزقَ أجسادَكم البِلى كلَّ ممزق؛ أي: يفرقُكم كلَّ تفريق، فالممزَّقُ: مصدرٌ بمعنى التمزيق، والعاملُ في (إذا): ما دلَّ عليه (إنكم لفي خلق جديد) أي: تُبعثون، والجديدُ: (فعيل) بمعنى (فاعل) عند البصريين؛ تقول: جدَّ فهو جديدٌ، ك: قلَّ فهو قليلٌ، ولا يجوز: أنكم: بالفتح؛ لِلّام في خبره[1].

«٨» ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: أهوَ مفترٍ على الله كذباً فيما يَنسُبُ إليه مِن ذلك؟ والهمزةُ للاستفهام، وهمزةُ الوصل حذفت استغناءً عنها، ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾: جُنونٌ يوهمه ذلك، ويُلقيه على لسانه، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ ثم قال سبحانه وتعالى: ليس محمدٌ من الافتراء والجنون في شيء، وهو مُبرَّأٌ منهما، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار، وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق، وهم غافلون عن ذلك، وذلك أَجَنُّ الجنون، جُعِلَ وقوعُهم في العذاب رَسِيلاً لوقوعهم في الضلال، كأنهما كائنان في وقت واحد[2]؛ لأن الضلال لما كان العقابُ من لوازمِه.. جُعلا كأنهما مقترنان، وَوَصْفُ الضلال بالبعيد من الإسناد المجازي؛ لأن البعيد صفة الضالِّ إذا بَعُدَ عن الجادة.

«٩» ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ وبالإدغام: عليٌّ[3]؛ للتقارب بين الفاء والباء، وضعَّفَه البعضُ لزيادة صوت الفاء على الباء[4]،

---

(١) لأن اللام المزحلقة لا تقع بعد أن المفتوحة.

(٢) رسيلاً: مُقارِناً.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٩).

(٤) هذه قراءة متواترة؛ فالاعتراض عليها مردود، قال أبو حيان في «البحر المحيط» (٧/ ٢٥١): والقراءة سنة متبعة، ويوجدُ فيها الفصيح والأفصحُ، وكلُّ ذلك من تيسيره تعالى القرآن للذكر.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ....

﴿ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾: الثلاثة بالياء: كوفيٌّ غيرَ عاصم[1]؛ لقوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، ﴿عَلَيْهِم كِسْفاً﴾ ﴿كِسَفًا﴾: حفصٌ، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانُوا، وأينما ساروا؛ أمامهم وخلفهم محيطتان بهم، لا يقدِرون أن ينفذُوا من أقطارهما، وأن يخرجوا عمّا هم فيه من ملكوت الله، ولم يخافوا أن يخسفَ اللهُ بهم، أو يسقطَ عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات، وكفرهم بالرسول وبما جاء به، كما فَعَلَ بقارونَ وأصحابِ الأيكةِ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النظرِ إلى السماء والأرض، والفكرِ فيهما، وما تدلان عليه من قدرة الله تعالى ﴿لَءَايَةً﴾: لدلالةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾: راجعٍ بقلبه إلى ربه، مطيعٍ له؛ إذ المنيبُ لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادرٌ على كلِّ شيء من البعث، ومن عقاب من يكفرُ به.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ﴾: بدلٌ من (فضلاً) أو من (آتينا) بتقدير: قولَنا: يا جبالُ، أو: قُلنا: يا جبالُ ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾: من التأويب، رَجِّعِي معه التسبيحَ، ومعنى تسبيح الجبال: أن الله يخلقُ فيها تسبيحاً فيُسمعُ منها، كما يُسمعُ من المسبِّح معجزةً لداودَ عليه السلام، ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: عطفٌ على محل الجبال، ﴿والطيرُ﴾: زيدٌ[2]؛ عطفٌ على لفظ الجبال، وفي هذا النظم من الفخامة التي لا تخفَى؛ حيث جُعلت الجبالُ بمنزلة العقلاء الذين إذا أَمَرَهم.. أطاعُوا، وإذا دعاهم.. أجابوا؛ إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقادٌ لمشيئة الله تعالى، ولو قال: آتينا داودَ منا فضلاً تأويبَ الجبال معه والطيرِ.. لم يكن فيه هذه الفخامةُ، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾: وجعلناه له ليِّناً كالطين والعجين، يصرفُه بيده كيف يشاءُ من غير نارٍ ولا ضربٍ بِمِطْرَقَةٍ، وقيل: لان الحديدُ في يده لِما أُوتيَ من شدة القوة.

﴿١١﴾ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ (أن) بمعنى: أيْ؛ أيْ: أَمَرْناه أن أعمل ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: دُرُوعاً واسعةً تامّةً؛ من السُّبُوغ، وهو أولُ مَن اتخذها، وكان يبيع الدِّرعَ بأربعة آلاف، فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدقُ على الفقراء، وقيل: كان يخرجُ متنكراً فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم: ما تقولون في داود فيثنون عليه، فقيضَ اللهُ له ملكاً في صورة آدمي فسأله على عادته فقال: نعم

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٩) وكذا القراءة الآتية.
(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٢٢).

وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ....

الرجلُ لولا خصلةٌ فيه، وهو أنه يطعم عياله من بيت المال، فسأل عند ذلك ربه أن يُسبب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلمه صنعة الدروع، ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾: لا تجعل المساميرَ دِقاقاً فيَقْلَق، ولا غِلاظاً فتُفْصَمَ الحَلَقُ، والسردُ: نسجُ الدروع.

﴿وَٱعۡمَلُواْ﴾ الضميرُ لداود وأهلِه ﴿صَٰلِحًاۖ﴾: خالصاً يصلُحُ للقبول، ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾﴾ فأجازيْكم عليه.

《١٢》 ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح، وهي الصَّبا، ورفعَ ﴿الريح﴾: أبو بكرٍ وحمادٌ والمفضلُ[1]؛ أي: ولسليمان الريحُ مسخرةً ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾: جريُها بالغداة مسيرةُ شهر، وجريُها بالعشي كذلك، وكان يغدو من دمشق فيَقيلُ بإِصْطَخْرَ فارسَ، وبينهما مسيرةُ شهر، ويروح من إِصْطَخْرَ فيبيتُ بكابُلَ وبينهما مسيرةُ شهر للراكب المسرع، وقيل: كان يتغدى بالرَّيِّ، ويتعشَّى بسَمَرْقَنْدَ، ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ أي: معدنَ النحاسِ، فالقِطْرُ: النحاسُ، وهو الصُّفْرُ، ولكنه أساله، وكان يسيل في الشهر ثلاثة أيام، كما يسيل الماء، وكان قبل سليمانَ لا يذوبُ، وسمّاه عينَ القِطرِ باسم ما آل إليه، ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ﴾ (مَن): في موضع نصب؛ أي: وسخرنا له من الجن من يعمل ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾: بأمر ربه، ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ﴾: ومَن يعدلْ ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمانَ ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾: عذابِ الآخرة، وقيل: كان معه مَلَكٌ بيده سوطٌ من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان عليه السلام.. ضربه ضربة أحرقتْه.

《١٣》 ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي: مساجدَ، أو: مساكنَ، ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي: صورِ السباعِ والطيورِ، ورُوي: أنهم عمِلوا له أسدين في أسفلِ كرسيِّه، ونسرين فوقَه، فإذا أراد أن يصعد.. بسط الأسدانِ له ذراعيْهما، وإذا قعد.. أظله النِّسران بأجنحتهما، وكان التصويرُ مباحاً حينئذ، ﴿وَجِفَانٖ﴾: جمعُ جفنةٍ، ﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾: جمعُ جابية، وهي: الحِياضُ الكِبارُ، قيل: كان يقعد على الجفنة ألفُ رجلٍ، ﴿كالجوابي﴾: في الوصل والوقف: مكيٌّ ويعقوبُ وسهلٌ، وافق

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٥٩) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ ....

أبو عمرٍو في الوصل، الباقون: بغير ياء؛ اكتفاءً بالكسرة[1]، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾: ثابتاتٍ على الأثافي لا تنزلُ عنها؛ لعظمها، وقيل: إنها باقية باليمن، وقلنا لهم: ﴿اعْمَلُوا﴾ يا ﴿آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ أي: ارحموا أهلَ البلاد، واسألوا ربكم العافية، عن الفضيل، و(شكراً): مفعول له، أو حالٌ؛ أي: شاكرين، أو: اشكروا شكراً؛ لأن (اعملوا) فيه معنى: اشكرُوا؛ من حيث إن العمل للمنعِم شكرٌ له، أو: مفعول به؛ يعني: إنا سخرنا لكم الجنَّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً، وسئل الجنيد عن الشكر فقال: بذل المجهود بين يدي المعبود، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيْ﴾: بسكون الياء: حمزةُ، وغيرُه: بفتحها، ﴿الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾: المتوفِّرُ على أداء الشكر، الباذل وُسعَه فيه، قد شغل به قلبَه ولسانَه وجوارحَه اعتقاداً واعترافاً وكَدحاً، وعن ابن عباس رضي الله عنه: من يشكرُ على أحواله كلِّها، وقيل: من يشكرُ على الشكر، أو: من يرى عجزَه عن الشكر، وعن داود عليه السلام أنه جزَّأَ ساعاتِ اليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسانٌ من آل داود قائمٌ يصلي.

«١٤» ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان، ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: الجنَّ وآلَ داود ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي: الأَرَضَةُ، وهي دُويبةٌ يقالُ لها: سُرْفَةُ، والأَرْضُ فعلُها، فأضيفت إليه، يقال: أُرِضَتِ الخشبةُ أَرْضاً: إذا أكلتْها الأَرَضَةُ، ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ والمنسأة: العصا؛ لأنه يُنسأُ بها؛ أي: يُطردُ، ﴿منساته﴾: بغير همزٍ: مدنيٌّ وأبو عمرٍو، ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾: سقط سليمانُ ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾: علمت الجنُّ كلُّهم علماً بيِّناً بعد التباسِ الأمرِ على عامتهم وضَعَفَتِهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا﴾ بعد موت سليمانَ ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ وروي: أن داود عليه السلام أَسَّسَ بناءَ بيتِ المقدس في موضع فُسطاطِ موسى عليه السلام، فمات قبل أن يُتمَّه، فوصَّى به إلى سليمانَ، فأمر الشياطين بإتمامه، فلما بقي من عمره سنةٌ.. سأل ربَّه أن يُعَمِّيَ عليهم موتَه حتى يَفرُغُوا منه، ولتبطلَ دعواهم علمَ الغيب، وكان عمرُ سليمانَ ثلاثاً وخمسين سنةً، ملكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، فبقي في ملكه أربعين سنةً، وابتدأَ بناءَ بيت المقدس لأربعٍ مَضين من ملكه، ورُوي: أن أَفْرِيدُونَ جاء ليصعدَ كرسيَّه، فلما دنا.. ضرب الأسدان ساقَه فكسراها، فلم يجسُرْ أحدٌ بعده أن يدنوَ منه.

---

(١) قرأ ورشٌ وأبو عمرو: بإثبات الياء وَصلاً، وابنُ كثير ويعقوبُ: بإثباتها في الحالين، والباقون: بحذفها كذلك.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ ....

《١٥》 ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾: بالصرف، بتأويل الحيِّ، وبعدمِه: أبو عمرٍو[1]، بتأويل القبيلة، ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾: حمزةُ وحفصٌ، ﴿مَسْكِنِهِم﴾: عليٌّ وخلفٌ، وهو موضعُ سكناهم، وهو بلدُهم وأرضُهم التي كانوا مقيمين فيها باليمن، أو: مسكنُ كلِّ واحدٍ منهم، غيرُهم: ﴿مساكِنِهِم﴾، ﴿ءَايَةٌ﴾: اسمُ (كان)، ﴿جَنَّتَانِ﴾: بدلٌ من (آية)، أو: خبرُ مبتدأ محذوف، تقديرُه: الآية جنتان؛ ومعنى كونهما آيةً: أن أهلَها لما أعرضوا عن شكر الله.. سَلَبَهم الله النعمة؛ ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفرِ وغَمْطِ النعم، أو: جعلهما آيةً؛ أي: علامة دالة على قدرة الله وإحسانِه ووجوبِ شكرِه، ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أرادَ: جماعتين من البساتين: جماعةً عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها، وكلٌّ واحدة من الجماعتين في تقاربها وتَضامِّها كأنها جنة واحدة، كما تكون بساتين البلاد العامرة، أو: أرادَ: بُستانَي كلِّ رجل منهم عن يمين مسكنه وشمالِه، ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: حكايةٌ لما قال لهم أنبياءُ الله المبعوثون إليهم، أو: لما قال لهم لسانُ الحال، أو: هم أحقاءُ بأن يقال لهم ذلك، ولما أمرهم بذلك.. أتبعه قولَه: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: هذه البلدة التي فيها رزقُكم بلدةٌ طيبةٌ، وربُّكم الذي رزقكم وطلب شكركم ربٌّ غفورٌ لمن شكره، قال ابنُ عباس: كانت سبأٌ على ثلاث فراسخَ من صنعاءَ، وكانت أخصبَ البلاد، تخرجُ المرأة وعلى رأسها المِكْتَلُ، فتعمل بيدها وتسيرُ بين تلك الشجر، فيمتلئُ المِكتَلُ مما يتساقطُ فيه من الثمرِ، وأَطْيَبِها؛ ليس فيها بعوضٌ ولا ذبابٌ ولا برغوثٌ ولا عقربٌ ولا حيةٌ، ومَن يَمُرُّ بها من الغرباء.. يموتُ قملُه؛ لطيب هوائِها.

《١٦》 ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن دعوة أنبيائهم، وكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله علينا نعمةً، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: المطرِ الشديدِ، أو: العَرِمُ: اسمُ الوادي، أو: هو الجُرْذُ الذي نقب عليهم السِّكْرَ[2]، قالوا: لما طَغوا.. سلطه الله عليهم فنقبَه من أسفلِه فغرَّقَهم، ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وتسميةُ البدل جنتين للمشاكلةِ وازدواجِ الكلامِ، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

---

(١) قرأ البزيُّ وأبو عمرٍو: بفتح الهمزة من غير تنوين، وقنبلٌ: بإسكانها، والباقون: بكسرها منونةً. انظر المرجع السابق (ص ٢٦٠) وكذا القراءة الآتية.

(٢) السِّكْرُ: ما يُسد به الماء.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ ....

مِّثْلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأُكُلُ: الثمرُ، يُثَقَّلُ ويُخففُ، وهو قراءةُ نافعٍ ومكيٍّ[١]، والخمطُ: شجرُ الأراكِ، وقيل: كلُّ شجرٍ ذي شوكٍ، ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ الأثلُ: شجرٌ يشبه الطَّرْفَاءَ، أعظمُ منه وأجودُ عُوداً، ووجهُ مَن نوَّنَ الأُكُلَ، وهو غيرُ أبي عمرٍو: أن أصلَه: ذواتَي أُكُلٍ أُكُلِ خَمْطٍ، فحُذِفَ المضافُ وأقيم المضافُ إليه مقامه، أو: وصف الأُكُلُ بالخَمطِ، كأنه قيل: ذواتَي أُكُلٍ بَشِعٍ، ووجهُ أبي عمرٍو: أن أُكُلَ الخَمطِ في معنى البَرِيْرِ[٢]، فكأنه قيل: ذواتي بَرير، والأَثْلُ والسِّدْرُ: معطوفان على أُكُلٍ، لا على خَمْطٍ؛ لأن الأَثْلَ لا أُكُلَ له، وعن الحسن: قَلَّلَ السدرَ لأنه أكرم ما بُدِّلُوا؛ لأنه يكون في الجِنانِ.

«١٧» ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ أي: جزيناهم ذلك بكفرهم، فهو مفعول ثانٍ مقدمٌ، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ، ﴿وهل يُجازَى إلا الكفورُ﴾: غيرُهم[٣]؛ يعني: وهل يجازى بمثل هذا الجزاءِ إلا من كفر النعمة ولم يشكرْها، أو كفر بالله، أو: هل يعاقب؛ لأن الجزاء وإن كان عامّاً يستعمل في معنى المعاقبة، وفي معنى الإثابة، لكن المراد الخاصُّ، وهو العقاب، وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد عليه السلام.

«١٨» ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: بين سبإٍ ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعة على أهلها في النعم والمياه، وهي قرى الشام، ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾: متواصلةٌ يُرى بعضُها من بعض لتقاربِها، فهي ظاهرةٌ لأعين الناظرين، أو ظاهرةٌ للسابلة لم تَبعُدْ عن مسالِكهم حتى تخفى عليهم، وهي أربعةُ آلافٍ وسبعُ مئةِ قريةٍ متصلة من سبإٍ إلى الشام، ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ﴾ أي: جعلنا هذه القرى على مقدارٍ معلوم، يقيل المسافرُ في قرية، ويَرُوحُ في أُخرى إلى أن يبلغ الشام، ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾: وقلنا لهم: سيروا، ولا قولَ ثمةَ، ولكنهم لما مُكِّنُوا من السير وسُوِّيَتْ لهم أسبابُه.. فكأنهم أُمِروا بذلك، ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: سِيروا فيها إن شئتم بالليل، وإن شئتم بالنهار، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات؛ أو: سِيروا فيها آمنين، لا تخافون عدوّاً ولا جوعاً ولا عطشاً وإن تطاولت مدةُ سفركم وامتدت أياماً ولياليَ.

---

(١) أي: ﴿أُكْلٍ﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٠) وكذا القراءة الآتية.

(٢) البَرِيْر: ثمرُ الأراك.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٠) وكذا القراءة الآتية.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ....

«١٩» ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا: يا ليتها كانت بعيدة فنسيرَ على نجائبنا ونربحَ في التجارات، ونفاخرَ في الدوابِّ والأسباب. بَطِرُوا النعمةَ ومَلُّوا العافية فطلبوا الكدَّ والتعبَ، ﴿بَعِّدْ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو، ﴿وَظَلَمُوٓاْ﴾ بما قالوا ﴿أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدثُ الناس بهم، ويتعجبون من أحوالهم، ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: وفرَّقناهم تفريقاً اتخذه الناس مثلاً مضروباً، يقولون: ذهبوا أيديَ سبا، وتفرقُوا أياديَ سبا[1]، فلحق غسانُ بالشام، وأنمارُ بيثربَ، وجُذامُ بتِهامةَ، والأَزْدُ بعُمانَ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي، ﴿شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ للنعم، أو: لكل مؤمن؛ لأن الإيمان نصفان: نصفُه شكر، ونصفُه صبرٌ.

«٢٠» ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾: بالتشديد كوفيٌّ؛ أي: حقق عليهم ظنه، أو وجدَه صادقاً، وبالتخفيف: غيرُهم[2]؛ أي: صدَق في ظنه، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ الضميرُ في (عليهم)، و(اتبعوه): لأهل سبإٍ، أو لبني آدم، وقللَ المؤمنين بقوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ لقلتِهم بالإضافة إلى الكفار، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

«٢١» ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾: لإبليسَ على الذين صار ظنُّه فيهم صدقاً ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: من تسليطٍ واستيلاءٍ بالوسوسة، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ موجوداً ما علمناه معدوماً، والتغيُّرُ على المعلوم لا على العلم، ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾: محافظٌ عليه، و(فعيل) و(مفاعل): متآخيان.

«٢٢» ﴿قُلِ﴾ لمشركي قومِكَ: ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: زعمتموهم آلهةً من دون الله، فالمفعولُ الأولُ: الضمير الراجع إلى الموصول، وحذفَ كما حذف في قوله: ﴿أَهَٰذَا

---

(١) أي: تفرقوا كتفرق أيادي سبا، والمراد بالأيادي: الأبناءُ والأُسرةُ؛ لأن التفرق بهم وقع، واستعيرُ لهم اسم الأيادي؛ لأنهم في التقوّي والبطشِ بهم بمنزلة الأيدي، وقيل: الأيادي: الأنفس مجازاً. انظر «شرح المفصل» لابن يعيش (٣/ ١٦٢)، و«حاشية الشهاب على البيضاوي» (٧/ ١٩٨).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٠).

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ....﴾

﴿ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ [الفرقان: ٤١] استخفافاً[1]؛ لطولِ الموصولِ بصلتِه، والمفعولُ الثاني: (آلهة) وحذف لأنه موصوفٌ، صفتُه (من دون الله)، والموصوفُ يجوزُ حذفُه وإقامةُ الصفة مُقامه إذا كان مفهوماً، فإذاً مفعولا (زعم) محذوفان بسببين مختلفين؛ والمعنى: ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه، والتَجِئُوا إليهم فيما يَعرُوكم كما تلتجئون إليه، وانتظِروا استجابتَهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته، ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شرٍّ، أو نفعٍ أو ضرٍّ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾: وما لهم في هذين الجنسين من شركةٍ في الخلق ولا في الملك، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ تعالى ﴿مِنْهُم﴾: من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾: من عَوِيْنٍ يُعينه على تدبير خلقه؛ يريدُ: أنهم على هذه الصفة من العجز، فكيف يصحُّ أن يُدْعَوا كما يُدعَى؟ ويُرجَوا كما يُرجَى؟

《٢٣》 ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: أذن له اللهُ؛ يعني إلا مَن وقع الإذن لشفيع لأجله، وهي اللامُ الثانيةُ في قولك: أَذِنَ لزيدٍ لعَمرٍو؛ أي: لأجله، وهذا تكذيب لقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿أُذِنَ له﴾: كوفيٌّ غيرَ عاصمٍ إلا الأعشى[2]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كُشِفَ الفزعُ عن قلوب الشافعين والمشفوعِ لهم بكلمةٍ يتكلم بها ربُّ العزة في إطلاق الإذن، و﴿فَزَّعَ﴾: شاميٌّ؛ أي: اللهُ تعالى، والتفزيعُ: إزالةُ الفَزَعِ، و(حتى): غايةٌ لما فُهِمَ من أن ثَمَّ انتظاراً للإذن وتوقُّفاً وفزعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء؛ هل يؤذنُ لهم أو لا يؤذن لهم؟ كأنه قيل: يتربصون ويتوقعون مَلِيّاً فَزِعِين، حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم ﴿قَالُوا۟﴾: سأل بعضُهم بعضاً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟﴾: قال ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: القولَ الحقَّ، وهو الإذنُ بالشفاعة لمن ارتضَى، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾: ذو العُلُوِّ والكبرياء، ليس لِمَلَكٍ ولا نبيٍّ أن يتكلم ذلك اليومَ إلا بإذنه، وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

《٢٤》 ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أَمَرَه بأن يقرِّرَهم بقوله: (من يرزقكم)، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرارَ عنهم بقوله: (يرزقكم الله)، وذلك للإشعار بأنهم

---

(١) أي: طلباً للخِفَّةِ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٠) وكذا القراءة الآتية.

﴿قُلْ لَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ....

مُقِرُّون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أَبوا أن يتكلموا به؛ لأنهم إن تفوَّهُوا بأن الله رازقُهم.. لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقُكم وتُؤثرون عليه مَنْ لا يَقْدِرُ على الرزق؟ وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزدْ على إقرارهم بألسنتهم.. لم يتقاصرْ عنه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ ومعناه: وإنَّ أحدَ الفريقين من الموحدين ومن المشركين لَعَلَى أحدِ الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المنصفِ الذي كلُّ من سمعه من مُوالٍ أو منافٍ.. قال لمن خوطب به: قد أنصفَكَ صاحبُك، وفي دَرْجِهِ بعد تَقْدِمَةِ ما قُدِّمَ من التقرير.. دلالةٌ غيرُ خفية على مَن هو مِن الفريقين على الهدى، ومَن هو في الضلال المبين، ولكن التعريضَ أَوْصَلُ بالمجادل إلى الغرض، ونحوُه: قولُك للكاذب: إنَّ أحدَنا لَكاذبٌ، وخُولِفَ بين حَرْفَي الجرِّ الداخلَين على الهدى والضلال؛ لأن صاحب الهدى كأنه مستعلٍ على فرسٍ جوادٍ يركضُه حيث شاء، والضالَّ كأنه ينغمسُ في ظلام لا يَدري أين يتوجهُ.

《٢٥》 ﴿قُلْ لَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ هذا أَدْخَلُ في الإنصاف من الأول؛ حيث أَسندَ الإجرام إلى المخاطِبين، وهو مزجور عنه محظور، والعملَ إلى المخاطَبين، وهو مأمور به مشكور.

《٢٦》 ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾: يحكمُ ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾: بلا جَوْرٍ ومَيلٍ، ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾: الحاكمُ، ﴿الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ بالحكم.

《٢٧》 ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِۦ﴾: بالله ﴿شُرَكَآءَ﴾ في العبادة معه، ومعنى قوله: (أروني) وكان يراهم: أن يُرِيَهم الخطأَ العظيمَ في إلحاق الشركاء بالله، وأن يُطلِعَهم على إحالة الإشراك به، ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ وتنبيهٌ؛ أي: ارتدعوا عن هذا القول، وتنبهوا عن ضلالكم، ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾: الغالبُ فلا يشاركُه أحدٌ، و(هو): ضميرُ الشأن، ﴿الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ في تدبيره.

《٢٨》 ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾: إلا إرسالةً عامةً لهم، محيطةً بهم؛ لأنها إذا شَمِلَتْهم.. فقد كَفَّتْهم أن يخرجَ منها أحدٌ منهم، وقال الزجاج: معنى الكافة في اللغة:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ ....

الإحاطةُ؛ والمعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ[١]، فجعله حالاً من الكاف، والتاءُ على هذا للمبالغة، كتاء الراوية والعلّامة، ﴿بَشِيرًا﴾ بالفضل لمن أقرَّ، ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعدل لمن أصرَّ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فيحملُهم جهلُهم على مخالفتك.

《٢٩》 ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: القيامةُ المشار إليها في قوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

《٣٠》 ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ الميعادُ: ظرفُ الوعدِ من مكان أو زمان، وهو هنا: الزمانُ؛ ويدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: ﴿ميعادٌ يومٌ﴾[٢]، فأُبدل منه اليومُ، وأما الإضافة.. فإضافةُ تبيين، كما تقول: بعيرُ سانيةٍ[٣]، ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: لا يمكنكم التأخرُ عنه بالاستمهال، ولا التقدمُ إليه بالاستعجال، ووجهُ انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أنهم سألوا عن ذلك وهم منكرون له تعنتاً لا استرشاداً، فجاء الجوابُ على طريق التهديد مطابقاً للسؤال على الإنكار والتعنت، وأنهم مُرصَدُون ليوم يُفاجئهم، فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه.

《٣١》 ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أبو جهل وذَوُوه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما نَزَلَ قبل القرآن من كتب الله، أو: القيامةِ والجنةِ والنارِ، حتى إنهم جَحدُوا أن يكون القرآن من الله، وأن يكون لِما دل عليه من الإعادة حقيقةٌ، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾: محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ﴾: يردُّ ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ في الجدال، أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسول الله ﷺ، أو للمخاطب: ولو ترى في الآخرة موقفَهم وهم يتجاذبون أطرافَ المحاورةِ، ويتراجعونها بينهم.. لرأيت العجبَ، فحُذف الجوابُ، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي: الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: للرؤوس والمقدَّمين: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾: لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر.. لكنا مؤمنين بالله ورسوله.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٢٥٤).

(٢) انظر «الكشاف» (٣/ ٥٩٣).

(٣) الإضافة البيانية هي: التي يقصد منها إيضاحُ المضافِ وبيانُه بالمضاف إليه.
فمعنى (ميعادُ يومٍ): ميعادٌ هو يوم، وبعيرُ سانيةٍ: بعيرٌ هو سانية، والسانية: الناقةُ يُسْقَى عليها.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ ....

«٣٢» ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ أَوْلَى الاسمَ؛ أي: (نحن) حرفَ الإنكارِ؛ لأن المراد إنكارُ أن يكونوا هم الصادِّين لهم عن الإيمان، وإثباتُ أنهم هم الذين صدُّوا بأنفسهم عنه، وأنهم أُتوا من قِبَلِ اختيارِهم، ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ إنما وقعت (إذْ) مضافاً إليها وإن كانت إذْ، وإذا: من الظروف اللازمةِ للظرفية؛ لأنه قد اتُّسعَ في الزمان مالم يُتَّسع في غيره، فأضيف إليهما الزمانُ، ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾: كافرين؛ لاختياركم وإيثاركم الضلالَ على الهدى، لا بقولنا وتسويلِنا.

«٣٣» ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لم يأت بالعاطف في ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، وأتى به في (وقال الذين استضعفوا) لأن الذين استضعفوا مرَّ أولاً كلامُهم، فَجِيءَ بالجواب محذوفَ العاطفِ على طريق الاستئناء، ثم جِيءَ بكلامٍ آخرَ للمستضعفين، فعُطف على كلامهم الأول، ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: بل مكرُكم بنا بالليل والنهار، فاتُّسع في الظرف بإجرائه مُجرى المفعول به، وإضافةِ المكرِ إليه، أو جُعِلَ ليلُهم ونهارُهم ماكِرَين على الإسناد المجازي؛ أي: الليلُ والنهارُ مَكَرا بطولِ السلامة فيهما، حتى ظننّا أنكم على الحقِّ، ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾: أشباهاً؛ والمعنى: أن المستكبرين لما أنكرُوا بقولهم: أنحن صددناكم أن يكونوا هم السببَ في كفر المستضعفين، وأثبتوا بقولهم: (بل كنتم مجرمين) أن ذلك بكسبهم واختيارهم.. كَرَّ عليهم المستضعَفون بقولهم: (بل مكر الليل والنهار)، فأبطلوا إضرابَهم بإضرابِهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجرامُ من جهتنا، بل من جهة مكرِكم لنا دائباً ليلاً ونهاراً، وحملُكم إيانا على الشرك واتخاذِ الأنداد، ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾: أضمرُوا، أو أظهروا، وهو من الأضداد، وهم الظالمون في قوله: (إذ الظالمون موقوفون)، يَندمُ المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم، والمستضعفون على ضلالهم واتّباعِهم المضلين ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: الجحيمَ، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في أعناقهم، فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقُّوا به الأغلال، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ في الدنيا.

«٣٤» ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾: نبيٍّ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾: متنعموها ورؤساؤُها: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ مما مُنِيَ به من قومه من التكذيب والكفر بما

وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ....

جاء به، وأنه لم يُرسَلْ قطُّ إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثلَ ما قال لرسول الله ﷺ أهلُ مكةَ وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد، كما قال:

«٣٥» ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أرادوا أنهم أكرمُ على الله من أن يعذبَهم نظراً إلى أحوالهم في الدنيا، وظنُّوا أنهم لو لم يَكْرُمُوا على الله.. لما رزقهم الله، ولولا أن المؤمنين هانُوا عليه.. لما حرمَهم، فأبطل الله ظنَّهم بأن الرزق فضل من الله يقسمُه كيف يشاء، فربما وَسَّعَ على العاصي، وضيَّقَ على المطيع، وربما عكس، وربما وَسَّعَ عليهما وضيق عليهما، فلا ينقاسُ عليهما أمرُ الثواب، وذلك بقوله:

«٣٦» ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ قَدْرُ الرزقِ تضييقُه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ذلك.

«٣٧» ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي: وما جماعةُ أموالِكم ولا جماعةُ أولادِكم بالتي، وذلك أن الجمع المُكَسَّرَ عقلاؤُه وغيرُ عقلائِه سواءٌ في حكم التأنيث، والزُّلفى والزُّلفةُ: كالقُربى والقُربة، ومحلُّها النصبُ على المصدر؛ أي: تُقربُكم قُربةً، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الاستثناءُ مِن (كُم) في (تقربكم) يعني: أن الأموال لا تُقربُ أحداً إلا المؤمنَ الصالحَ الذي ينفقها في سبيل الله، والأولادُ لا تقرب أحداً إلا من عَلَّمَهم الخيرَ وفقَّهَهم في الدين، ورشَّحَهم للصلاح والطاعة، وعن ابن عيسى: (إلا) بمعنى: لكن، و(مَن): شرطٌ، جوابُه: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أصلُه: فأولئك لهم أن يُجازَوُا الضعفَ، ثم جزاءُ الضعفِ[1]؛ ومعنى (جزاء الضعف): أن تُضاعف لهم حسناتُهم الواحدةُ عشراً، وقرأ يعقوبُ: ﴿جزاءً الضِّعْفُ﴾[2]؛ على: فأولئك لهم الضعفُ جزاءً ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾: بأعمالهم، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: غُرَفِ منازلِ الجنةِ، ﴿الغُرْفَةِ﴾: حمزةُ، ﴿ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ من كل هائلٍ وشاغلٍ.

---

(١) في «الكشاف» (٣/ ٥٩٦): فأولئك لهم أن يُجازَوا الضِّعفَ، ثم جزاءُ الضعفَ، ثم جزاءُ الضعفِ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦١) وكذا القراءة الآتية.

وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ ....

《٣٨》 ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾: في إبطالها ﴿مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

《٣٩》 ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾: يُوسِّعُ ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾ (ما): شرطيةٌ في موضع النصب، ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾: بيانُه، ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾: يُعَوِّضُه لا مُعَوِّضَ سواه؛ إما عاجلاً بالمال، أو آجلاً بالثواب، جوابُ الشرط، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾: المطعمين؛ لأن كل ما رَزَقَ غيرُه من سلطان أو سيدٍ أو غيرِهما.. فهو من رزق الله، أجراه على أيدي هؤلاء، وهو خالقُ الرزق، وخالقُ الأسباب التي بها ينتفعُ المرزوقُ بالرزق، وعن بعضهم: الحمدُ لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي، فكم من مُشتهٍ لا يجد، وواجدٍ لا يشتهي.

《٤٠》 ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وبالياء فيهما: حفصٌ ويعقوبُ، هذا خطابٌ للملائكة، وتقريعٌ للكفار، واردٌ على المثل السائر[1]: [من: الرجز]

إيـاكِ أعـنـي واسـمـعـي يـا جـاره

ونحوُه قولُه: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي...﴾ [المائدة: ١١٦] الآيةَ.

《٤١》 ﴿قَالُواْ﴾ أي: الملائكةُ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: تنزيهاً لك أن يُعبد معك غيرُك، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ الموالاةُ: خلافُ المعاداة، وهي (مفاعلة) من الوَلْي وهو القربُ، والوليُّ: يقعُ على المُوالي والموالَى جميعاً؛ والمعنى: أنت الذي نُوالِيْهِ ﴿مِن دُونِهِمۖ﴾ إذْ لا موالاةَ بيننا وبينهم، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتَهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ لأن مَن كان على هذه الصفة.. كانت حالُه منافيةً لذلك، ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ أي: الشياطينَ حيث أطاعوهم في عبادة غير الله، أو: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عُبدَتْ فيُعبَدون بعبادتها، أو: صَوَّرت لهم الشياطينُ صورةَ قومٍ من الجن وقالوا: هذه صُوَرُ الملائكة فاعبدُوها، ﴿أَكۡثَرُهُم﴾: أكثرُ الإنسِ أو الكفارِ ﴿بِهِم﴾: بالجن ﴿مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) أول من قاله: سهل بن مالك الفزاري. انظر «الفاخر» للمفضل بن سلمة (ص ١٥٨).

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ ....

《٤٢》 ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده، لا يملكُ فيه أحدٌ منفعةً ولا مضرةً لأحد؛ لأن الدار دارُ ثواب وعقاب، والمثيبُ والمعاقِبُ هو الله، فكانت حالُها خلافَ حالِ الدنيا التي هي دارُ تكليف، والناسُ فيها مُخلّىً بينهم يتضارُّون ويتنافعون؛ والمرادُ: أنه لا ضارَّ ولا نافعَ يومئذٍ إلا هو، ثم ذكر معاقبةَ الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: بوضع العبادة في غير موضعِها، معطوفاً على (لا يملك): ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في الدنيا.

《٤٣》 ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: إذا قرئ عليهم القرآنُ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: واضحاتٍ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المشركون: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي: محمدٌ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ أي: القرآنُ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وقالوا، والعدولُ عنه دليلُ إنكارٍ عظيمٍ وغضبٍ شديدٍ، ﴿لِلْحَقِّ﴾: للقرآن، أو لأمر النبوة كلِّه ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وعجزُوا عن الإتيان بمثله: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: الحقُّ ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ بَتُّوْهُ على أنه سحرٌ، ثم بَتُّوْهُ على أنه بَيِّنٌ ظاهرٌ، كلُّ عاقل تأمله سمّاه سحراً.

《٤٤》 ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أعطينا مشركي مكةَ كتباً يدرسونها فيها برهانٌ على صحة الشرك، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾: ولا أرسلنا إليهم نذيراً يُنذرهم بالعقاب إن لم يُشركوا، ثم توعدَهم على تكذيبهم بقوله:

《٤٥》 ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: وكذب الذين تقدمُوهم من الأمم الماضية، والقرون الخالية الرسلَ كما كذَّبوا، ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: وما بلغ أهلُ مكةَ عُشْرَ ما أوتي الأولون من طول الأعمارِ وقوة الأجرام وكثرة الأموالِ والأولاد، ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله، وبالياء في الوصل والوقف: يعقوبُ[1]؛ أي:

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦١).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ ....

فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يُغْنِ عنهم استظهارُهم بما هم مستظهِرون، فما بالُ هؤلاء؟ وإنما قال: (فكذبوا) وهو مستغنىً عنه بقوله: (وكذب الذين من قبلهم)؛ لأنه لما كان معنى قوله: (وكذب الذين من قبلهم): وفعل الذين من قبلهم التكذيبَ، وأقدموا عليه.. جعلَ تكذيبَ الرسل مسبباً عنه، وهو كقول القائل: أقدم فلانٌ على الكفر، فكفرَ بمحمد ﷺ.

《٤٦》 ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾: بخصلةٍ واحدةٍ، وقد فسَّرها بقوله: ﴿أَن تَقُومُوا۟﴾ على أنه عطفُ بيانٍ لها، وقيل: هو بدلٌ، وعلى هذين الوجهين: هو في محلِّ الجرِّ، وقيل: هو في محل الرفع على تقدير: وهي أن تقوموا، أو: النصبِ على تقدير: أعني، وأراد بقيامهم: القيامَ عن مجلس رسول الله ﷺ، وتفرقَهم عن مجتمعهم عنده، أو: قيامَ القصد إلى الشيء دون النهوض والانتصاب؛ والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتمُوها.. أصبتم الحقَّ وتخلصتُم، وهي أن تقوموا ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لوجه الله خالصاً لا لِحَمِيَّةٍ ولا عصبية، بل لطلب الحقِّ، ﴿مَثْنَىٰ﴾: اثنين اثنين، ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾: فرداً فرداً، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أما الاثنان.. فيتفكران ويَعرِضُ كل واحد منهما محصولَ فكرِه على صاحبه وينظران فيه نظرَ الصدقِ والإنصافِ حتى يؤديَهما النظرُ الصحيحُ إلى الحقِّ، وكذلك الفردُ يتفكرُ في نفسه بعدلٍ ونَصَفَةٍ، ويَعرض فكره على عقله، ومعنى تفرقِهم مثنى وفرادى: أن الاجتماع مما يُشوشُ الخواطر، ويُعمي البصائر، ويمنعُ من الرؤية، ويَقِلُّ فيه الإنصافُ، ويكثرُ الاعتسافُ، ويَثور عَجاجُ التعصب، ولا يَسمعُ إلا نصرةَ المذهب، و(تتفكروا): معطوفٌ على (تقوموا)، ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ يعني: محمداً ﷺ، ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾: جنونٍ؛ والمعنى: ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾: قدامَ عذابٍ شديدٍ، وهو عذاب الآخرة، وهو كقوله عليه السلام: «بعثت بين يدي الساعة»[1].

《٤٧》 ثم بيَّنَ أنه لا يَطلبُ أجراً على الإنذار بقوله:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إنذاري وتبليغي الرسالةَ ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾: جزاءُ الشرط، تقديرُه:

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢/ ٥٠) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ....

أيُّ شيء سألتُكم من أجر، كقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢]؛ ومعناه: نفيُ مسألةِ الأجرِ رأساً، نحوُ: ما لي في هذا.. فهو لك؛ أي: ليس لي فيه شيء، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو وحفصٌ، وبسكون الياء: غيرُهم[1]، ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ فيعلمُ أني لا أطلبُ الأجرَ على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه.

《٤٨》 ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾: بالوحْيِ، والقذفُ: تزجيهُ السهمِ ونحوِه بدفعٍ واعتمادٍ[2]، ويُستعارُ لمعنى الإلقاء، ومنه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ [طه: ٣٩]؛ ومعنى (يقذف بالحق): يُلقيه ويُنزلُه على أنبيائه، أو: يرمي به الباطلَ فيدمغُه ويُزهقُه، ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾: مرفوعٌ على البدل من الضمير في (يقذف)، أو على أنه خبر مبتدأٍ محذوفٍ.

《٤٩》 ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾: الإسلامُ أو: القرآنُ، ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: زال الباطلُ وهلك؛ لأن الإبداءَ والإعادةَ من صفات الحيِّ، فعدمُهما عبارةٌ عن الهلاك؛ والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل، كقوله: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: دخل النبي ﷺ مكةَ وحولَ الكعبةِ أصنامٌ، فجعل يَطْعُنُها بعودِ نَبْعةٍ ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»[3]، وقيل: الباطلُ: الأصنامُ، وقيل: إبليسُ لأنه صاحب الباطل، أو: لأنه هالك، كما قيل له: الشيطانُ، مِن: شاطَ: إذا هلك؛ أي: لا يخلقُ الشيطانُ ولا الصنمُ أحداً، ولا يبعثُه، فالمنشيءُ والباعث هو الله.

《٥٠》 ولما قالوا: قد ضللتَ بترك دينِ آبائِك.. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحقِّ ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ أي: إن ضللتُ.. فمنِّي وعليَّ، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: فبتسديده بالوحي إليَّ، وكان قياسُ التقابل أن يقال: وإن اهتديتُ.. فإنما أهتدي لها، كقوله: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]، ولكن هما متقابلان معنىً؛ لأن النفس كلُّ ما عليها وضارٌّ لها فهو بها وبسببها؛ لأنها الأمارةُ بالسوء، وما لها مما ينفعُها..

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٢).

(٢) تزجيهُ السهمِ: دَفْعُهُ.

(٣) رواه البخاري (٤٢٨٧) ومسلم (١٧٨١). والنبعة: شجرةٌ تُصنعُ منها القِسيّ.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ....

فبهداية ربِّها وتوفيقِه، وهذا حكمٌ عامٌّ لكل مكلف، وإنما أَمَرَ رسولَه أن يسنده إلى نفسه؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محلِّه وسدادِ طريقتِه.. كان غيرُه أولى به، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لما أقولُه لكم، ﴿قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ مني ومنكم يُجازيني ويجازيْكم.

《٥١》 ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جوابُه محذوفٌ؛ أي: لرأيت أمراً عظيماً، وحالاً هائلةً، ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند البعث، أو عند الموت، أو يومَ بدرٍ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾: فلا مَهرَبَ، أو: فلا يفوتون الله ولا يسبقونه، ﴿وَأُخِذُوا۟﴾: عطفٌ على (فَزِعُوا)؛ أي: فَزِعُوا وأُخِذُوا فلا فوتَ لهم، أو: على (لا فوتَ) على معنى: إذا فزعوا.. فلم يفوتوا وأُخِذُوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾: من الموقف إلى النار إذا بُعثوا، أو: من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتُوا، أو: من صحراءِ بدرٍ إلى القَليب.

《٥٢》 ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ حين عاينُوا العذابَ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: بمحمد عليه السلام؛ لِمُرور ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، أو: بالله، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ التناوشُ: التناولُ؛ أي: كيف يتناولون التوبةَ وقد بَعُدَتْ عنهم؛ يريدُ أن التوبةَ كانت تُقبلُ عنهم في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا وبَعُدَتْ عن الآخرة، وقيل: هذا تمثيلٌ لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما نفع المؤمنين إيمانُهم في الدنيا، مُثِّلَتْ حالُهم بحالِ مَن يريدُ أن يتناولَ الشيءَ من غَلْوَةٍ[1]، كما يتناولُه الآخرَ مِن قِيْسِ ذراع، ﴿التناؤش﴾: بالهمزة: أبو عمرٍو وكوفيٌّ غيرَ حفص[2]، هُمزت الواوُ؛ لأن كل واو مضمومة ضمتُها لازمةٌ إن شئت.. أبدلتَها همزة، وإن شئتَ.. لم تُبدِلْ، نحو قولك: أَدْوُرٌ، وتَقاوُمٌ، وإن شئتَ.. قلتَ: أَدْؤُرٌ وتَقاؤُمٌ، وعن ثعلب: التناؤُشُ بالهمزة: التناولُ من بعد، وبغير همزة: التناولُ من قرب.

《٥٣》 ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾: من قبل العذاب، أو في الدنيا، ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: معطوفٌ على (قد كفروا) على حكاية الحال الماضية؛ يعني: وكانوا يتكلمون بالغيب؛ أي: بالشيء الغائب، يقولون: لا بعثَ ولا حسابَ ولا جنةَ ولا نارَ، ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ عن الصدق، أو: عن الحقِّ والصواب، أو: هو قولُهم في رسول الله ﷺ: شاعرٌ ساحرٌ كذابٌ،

---

(١) الغلوة: من مقادير المسافات، وتسمى غلوة السهم، وهي: (١٨٤،٨متراً). انظر «الفقه الإسلامي وأدلته» د. وهبة الزحيلي (١/ ١٤٢).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٢).

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

وهذا تكلمٌ بالغيب والأمرِ الخفيِّ؛ لأنهم لم يُشاهدوا منه سحراً ولا شعراً ولا كذباً، وقد أَتَوا بهذا الغيب من جهة بعيدةٍ مِن حاله؛ لأن أَبْعَدَ شيء مما جاء به السحرُ والشعرُ، وأبعدَ شيءٍ من عادته التي عُرفت بينهم وجُرِّبت الكذبُ، ﴿ويُقذَفُون بالغيب﴾: عن أبي عمرٍو[1]؛ على البناء للمفعول؛ أي: تأتيهم به شياطينُهم، ويُلقنونهم إياه، وإن شئت.. فعلِّقْه بقوله: (وقالوا آمنا به) على أنه مثَّلَهم في طلبهم تحصيلَ ما عطَّلوا من الإيمان في الدنيا بقولهم: آمنا في الآخرة، وذلك مَطلبٌ مستبعدٌ.. بمن يَقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجالَ للظن في لُحوقِه؛ حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه بعيداً، ويجوز أن يكون الضمير في (آمنا به): للعذاب الشديد في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وكانوا يقولون: وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب، ونحن أكرمُ على الله من أن يعذبَنا، قائسين أمرَ الآخرة على أمر الدنيا، فهذا كان قذفَهم بالغيبِ، وهو غيبٌ ومقذوفٌ به من جهة بعيدة؛ لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف.

《٥٤》 ﴿وَحِيلَ﴾: وحُجِزَ ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾: من نفع الإيمان يومئذ، والنجاةِ به من النارِ والفوزِ بالجنةِ، أو: من الردِّ إلى الدنيا، كما حَكَى عنهم بقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، والأفعالُ التي هي (فَزِعوا) و(أُخِذوا) و(حِيل): كلُّها للمضيِّ؛ والمرادُ بها الاستقبالُ؛ لتحقق وقوعِه، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾: بأشباهِهم من الكفرة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من أمر الرسلِ والبعثِ ﴿مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾: مُوقع للريبة؛ مِن: أرابه: إذا أوقعه في الريبة، هذا ردٌّ على من زعمَ أن الله لا يُعذبُ على الشكِّ.



(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٢٣).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ ....

سورة الملائكة

مكيةٌ، وهي خمسٌ وأربعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ ذاتَه تعليماً وتعظيماً، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبتدئِها ومبتدعِها، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري ما معناه حتى اختصم إليَّ أعرابيان في بئر فقال أحدُهما: أنا فطرتُها؛ أي: ابتدأتُها[1]، ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى عباده ﴿أُو۟لِىٓ﴾: ذوي، اسمُ جمعٍ لـ: ذو، بدلٌ مِن (رسلاً)، أو نعتٌ له، ﴿أَجْنِحَةٍ﴾: جمعُ جَناح، ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: صفاتٌ لـ(أجنحة)، وإنما لم تنصرفْ؛ لتكرر العدل فيها، وذلك أنها عُدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أُخَرَ، كما عُدِلَ عمرُ عن عامر، وعن تكريرٍ إلى غيرِ تكريرٍ، وقيل: للعدل والوصف، والتعويلُ عليه؛ والمعنى: أن الملائكة طائفةٌ أجنحتُهم اثنان اثنان؛ أي: لكلِّ واحدٍ منهم جناحان، وطائفةٌ أجنحتُهم ثلاثةٌ ثلاثةٌ، ولعل الثالث يكون في وَسَطِ الظَّهر بين الجناحين، يُمدُّهما بقوة، وطائفةٌ أجنحتُهم أربعةٌ أربعةٌ، ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: يزيد في خلقِ الأجنحةِ وغيرِه ﴿مَا يَشَآءُ﴾، وقيل: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعرُ الحسنُ، والخطُّ الحسنُ، والملاحةُ في العينين، والآيةُ مطلقةٌ تتناول كلَّ زيادة في الخلق؛ مِن طول قامة، واعتدال صورة، وتمامٍ في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وذَلاقةٍ في اللسان، ومحبة في قلوب المؤمنين، وما أشبهَ ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾: قادر.

《٢》 ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾: نُكِّرَتِ الرحمةُ للإشاعة والإبهام، كأنه قال: مِن أيَّةِ رحمةٍ رزقٍ أو مطرٍ أو صحةٍ أو غيرِ ذلك ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾: فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسِها، واستعيرَ الفتح للإطلاق والإرسال، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾: يمنعْ ويحبسْ ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾: مُطْلِقَ له ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: مِن بعد إمساكِه، وأنَّثَ الضميرَ الراجعَ إلى الاسم

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢١٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤﴾ ....

المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة، ثم ذَكَّرَه حملاً على اللفظ المرجوعِ إليه؛ إذْ لا تأنيثَ فيه؛ لأن الأولَ فُسِّرَ بالرحمة فحسن إتباعُ الضميرِ التفسيرَ، ولم يُفسر الثاني، فتُرِكَ على أصل التذكير، وعن معاذ مرفوعاً: «لا تزالُ يدُ الله مبسوطة على هذه الأمةِ ما لم يَرفُقْ خيارُهم بشرارهم، ويعظِّمْ بَرُّهم فاجرَهم، وتُعِنْ قراؤهم أمراءَهم على معصية الله، فإذا فعلوا ذلك.. نزع الله يده عنهم»[1]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالبُ القادرُ على الإرسال والإمساك، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾: الذي يُرسلُ ويمسكُ ما تقتضي الحكمةُ إرساله وإمساكه.

《٣》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ﴾ باللسان والقلب ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهي التي تقدمت من بسطِ الأرضِ كالمهاد، ورفعِ السماء بلا عماد، وإرسالِ الرسل لبيان السبيل دعوةً إليه، وزلفةً لَدَيه، والزيادةِ في الخلق، وفتحِ أبواب الرزق، ثم نبه على رأس النعم وهو اتحادُ المنعم بقوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾: برفع (غيرُ) على الوصف؛ لأن (خالق): مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ؛ أي: لكم، وبالجرِّ: عليٌّ وحمزةُ[2]؛ على الوصف لفظاً، ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ يجوز أن يكون مستأنَفاً، ويجوز أن يكون صفةً لـ(خالق)، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بأنواع النبات، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: جملةٌ مفصولةٌ لا محلَّ لها، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾: فمن أيِّ وجهٍ تُصرفون عن التوحيد إلى الشرك؟

《٤》 ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ نَعى به على قريش سوءَ تلقيهم لآيات الله، وتكذيبهم بها، وسلَّى رسولَه بأن له في الأنبياء قبلَه أسوةً، ولهذا نَكَّرَ (رُسُلٌ) أي: رسلٌ ذوو عددٍ كثيرٍ، وأولو آياتٍ ونذرٍ، وأهلُ أعمارٍ طِوالٍ، وأصحابُ صبرٍ وعزمٍ؛ لأنه أسلى له، وتقديرُ الكلام: وإن يكذبوك.. فتأسَّ بتكذيب الرسل من قبلك؛ لأن الجزاء يتعقبُ الشرط، ولو أُجْرِيَ على الظاهر.. يكون سابقاً عليه، وَوُضِعَ (فقد كذبت رسل من قبلك) موضعَ (فتأسَّ) استغناءً بالسبب عن المسبب؛ أي: بالتكذيب عن التأسّي، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤﴾: كلامٌ يشتمل على الوعد والوعيد؛ مِن رجوع الأمور إلى حُكمِه ومجازاةِ المكذِّبِ والمكذَّبِ بما يستحقّانه، ﴿تَرْجِعُ﴾: بفتح التاء: شاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ ويعقوبُ وخلفٌ وسهلٌ.

---

(١) رواه أبو داود في الزهد (ص ١٧٩) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٢) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ....﴾

«٥» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾: كائنٌ، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: فلا تخدعنَّكم الدنيا، ولا يُذْهِلَنَّكم التمتعُ بها والتلذذُ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلبِ ما عند الله، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ أي: الشيطانُ؛ فإنه يُمَنِّيْكم الأمانيَّ الكاذبةَ ويقول: إن الله غنيٌّ عن عبادتك وعن تعذيبك.

«٦» ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾: ظاهرُ العداوة، فعلَ بأبيكم ما فعلَ وأنتم تعاملونه معاملةَ مَن لا علمَ له بأحواله، ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدِكم وأفعالِكم، ولا يُوجَدَنَّ منكم إلا ما يدلُّ على معاداته في سرِّكم وجهرِكم، ثم لَخَّصَ سِرَّ أمرِه وخطأَ مَن اتبعه بأن غرضَه الذي يَؤُمُّهُ في دعوة شيعته هو أن يُورِدَهم موردَ الهلاكِ بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

ثم كشف الغطاءَ فبنى الأمر كلَّه على الإيمانِ وتركِه فقال:

«٧» ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: فمن أجابه حين دعاه.. فله عذابٌ شديدٌ؛ لأنه صار من حزبِه أي: أتباعِه، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يجيبوه، ولم يَصيرُوا من حزبه بل عادَوه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ لِكِبَرِ جهادِهم، ولما ذكر الفريقين.. قال لنبيه عليه السلام:

«٨» ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ بتزيين الشيطان كمَنْ لم يُزَيَّنْ له، فكأن رسول الله ﷺ قال: لا، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ وذكر الزجاجُ أن المعنى: أفمن زين له سوءُ عملِه ذهبت نفسُك عليه حسرةً، فحُذِفَ الجوابُ لدلالة (فلا تذهب نفسُك عليه)، أو: أفمن زين له سوءُ عمله كمن هداه الله، فحُذف لدلالة (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) عليه، ﴿فلا تُذْهِبْ نفسَك﴾: يزيدُ؛ أي: لا تُهلكها، (حسرات): مفعولٌ له؛ يعني: فلا تُهلك نفسَك للحسرات، و(عليهم): صلةُ (تذهب)، كما تقول: هلك عليه حُبّاً، ومات عليه حزناً، ولا يجوز أن يتعلق بـ(حسرات) لأن المصدر لا تتقدم عليه صلتُه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾: وعيدٌ لهم بالعقاب على سوءِ صنيعِهم.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ ....

«٩» ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ ﴿الرِّيحَ﴾: مكيٌّ وحمزةُ وعليٌّ، ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: بالتشديد: مدنيٌّ وحمزةُ وعليٌّ وحفصٌ، بالتخفيف: غيرُهم، ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾: بالمطر؛ لتقدم ذكرِه ضِمناً، ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يُبْسِها، وإنما قال: (فتثيرُ) لتحكيَ الحالَ التي تقع فيها إثارةُ الرياح السحابَ، وتُستحضرَ تلك الصورةُ الدالةُ على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوعُ تميُّزٍ وخصوصيةٍ بحالٍ تُستغربُ، وكذلك سوقُ السحابِ إلى البلد الميت، وإحياءُ الأرض بالمطر بعد موتها، لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة.. قيل: (فسقنا) و(أحيينا) معدولاً بهما عن لفظ الغَيبةِ إلى ما هو أَدْخَلُ في الاختصاص، وأَدلُّ عليه، ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ الكافُ: في محل الرفع؛ أي: مثلُ إحياءِ المواتِ نُشورُ الأموات، قيل: يُحيي الله الخلقَ بماءٍ يُرسلُه من تحت العرش، تنبتُ منه أجسادُ الخلق.

«١٠» ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: العزةُ كلُّها مختصة بالله، عزةُ الدنيا وعزةُ الآخرة، وكان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأةِ قلوبِهم كانوا يتعززون بالمشركين، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] فبيَّنَ أنْ لا عزةَ إلا بالله؛ والمعنى: فليطلبْها عند الله، فوُضِعَ قولُه: (لله العزة جميعاً) موضعَه استغناءً عنه به؛ لدلالته عليه؛ لأن الشيء لا يُطلب إلا عند صاحبه ومالكه، ونظيرُه: قولُك: مَن أراد النصيحة.. فهي عند الأبرار؛ تريد: فليطلبْها عندهم، إلا أنك أقمتَ ما يدلُّ عليه مُقامه، وفي الحديث: «إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز، فمن أراد عزَّ الدارين.. فليطع العزيزَ»[1]، ثم عرَّفَ أن ما يُطلب به العزةُ هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ومعنى قولِه: (إليه): إلى محلِّ القبولِ والرضا، وكلُّ ما اتصف بالقبول.. وُصِفَ بالرفعة والصعود، أو: إلى حيثُ لا ينفذُ فيه إلا حكمُه، والكلمُ الطيبُ: كلماتُ التوحيد؛ أي: لا إله إلا الله، وكان القياسُ: الطيبة، ولكن كلُّ جمعٍ ليس بينه وبين واحده إلا التاءُ يُذكرُ ويؤنثُ، والعملُ الصالحُ: العبادةُ الخالصةُ؛ يعني: والعملُ الصالحُ يرفعُه الكلمُ الطيبُ، فالرافعُ: الكلمُ،

---

(١) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/٥٦٨).

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ ....

والمرفوعُ: العملُ؛ لأنه لا يُقبل عملٌ إلا من موحد، وقيل: الرافعُ: اللهُ، والمرفوعُ: العملُ؛ أي: العملُ الصالحُ يرفعُه اللهُ، وفيه إشارةٌ إلى أن العمل يتوقفُ على الرفع، والكلمُ الطيبُ يصعدُ بنفسه، وقيل: العملُ الصالحُ يرفعُ العاملَ ويشرفُه؛ أي: مَن أراد العزةَ.. فليعمل عملاً صالحاً، فإنه هو الذي يرفعُ العبدَ، ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: هي صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: المكراتِ السيئاتِ؛ لأن مَكَرَ: فعلٌ غيرُ متعدٍّ، لا يقال: مَكَرَ فلانٌ عملَه؛ والمراد: مَكْرُ قريشٍ به عليه السلام حين اجتمعوا في دار الندوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] الآيةَ، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة، ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأٌ، ﴿هُوَ﴾: فصلٌ ﴿يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾: خبرٌ؛ أي: ومكرُ أولئك الذين مكروا هو خاصةً يبورُ؛ أي: يفسدُ ويَبطُلُ دون مكرِ اللهِ بهم حين أخرجَهم من مكةَ وقتلَهم وأثبتَهم في قَلِيْبِ بدرٍ، فجمع عليهم مَكَراتِهم جميعاً، وحقَّقَ فيهم قولَه تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقولَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

«١١» ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ أنشأكم ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: أصنافاً، أو ذُكراناً وإناثاً، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾: هو في موضع الحال؛ أي: إلا معلومةً له، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: وما يُعمَّرُ من أحدٍ، وإنما سمّاه معمراً بما هو صائرٌ إليه، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني: اللوحَ، أو صحيفةَ الإنسانِ، ﴿وَلا يَنْقُصُ﴾: زيدٌ[1]، **فإن قلت**: الإنسانُ إما مُعَمَّرٌ؛ أي: طويلُ العمر، أو منقوصُ العمر؛ أي: قصيرُه، فأما أن يتعاقبَ عليه التعميرُ وخلافُه.. فمحالٌ، فكيف صحَّ قولُه: (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره)؟ **قلت**: هذا من الكلام المتسامَحِ فيه ثقةً في تأويله بأفهام السامعين، واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم، وأنه لا يلتبسُ عليهم إحالةُ الطول والقصر في عمرٍ واحدٍ، وعليه كلامُ الناس، يقولون: لا يُثيبُ الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحقٍّ، أو تأويلُ الآية: أنه يُكتب في الصحيفة عمرُه كذا كذا سنةً، ثم يُكتبُ في أسفلِ ذلك: ذهب يومٌ ذهب يومان حتى يأتي على آخره، فذلك نُقصانُ عُمرِه، وعن قتادة: المعمَّرُ: مَن يبلغ ستين سنةً، والمنقوصُ مِن عُمُرِه مَن يموت قبل ستين سنةً، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: إحصاءَه، أو زيادةَ العمرِ ونقصانَه، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾: سَهْلٌ.

---

(١) وهي قراءة يعقوب. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٣).

﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ ....

«١٢» ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا﴾ أي: أحدُهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾: شديدُ العُذوبةِ، وقيل: هو الذي يَكسرُ العطش، ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾: مريءٌ وسهلُ الانحدارِ لعذوبته، وبه يرتفعُ (شرابُه)، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾: شديدُ الملوحة، وقيل: هو الذي يُحْرِقُ بمُلُوحَتِه، ﴿وَمِن كُلٍّ﴾: ومن كلِّ واحدٍ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: وهو السمكُ، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: وهي اللؤلؤُ والمَرْجانُ، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾: في كُلٍّ ﴿مَوَاخِرَ﴾: شَواقَّ للماء بِجَرْيِها، يُقال: مَخَرتِ السفينةُ الماءَ؛ أي: شَقَّتْه، وهي ماخرةٌ، ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾: من فضل الله، ولم يَجْرِ له ذكرٌ في الآية، ولكن فيما قبلها، ولو لم يَجْرِ.. لم يُشكل؛ لدلالة المعنى عليه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ الله على ما آتاكم من فضله، ضرب البحرين: العذبَ والملحَ مَثَلَين للمؤمن والكافر، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرينِ وما عَلَّقَ بهما من نعمته وعطائه، ويحتمل غيرَ طريقةِ الاستطراد، وهو أن يُشَبِّهَ الجنسين بالبحرين، ثم يُفَضِّلَ البحرَ الأُجاجَ على الكافر، بأنه قد شارك العذب في منافعَ من السمك واللؤلؤ، وجَرْيِ الفلكِ فيه، والكافرُ خِلْوٌ من النفع، فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

«١٣» ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ﴾: يُدخلُ من ساعاتِ أحدهما في الآخر حتى يصيرَ الزائدُ منهما خمسَ عشرةَ ساعةً، والناقصُ تسعاً، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلَ أضوأَ صورةٍ لأسْوإِ سيرةٍ، ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يومَ القيامة ينقطعُ جَرْيُهُما، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: مبتدأٌ، ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾: أخبارٌ مترادفةٌ، أو: (الله ربكم): خبرُ إنَّ، و(له الملك): جملةٌ مبتدأةٌ واقعةٌ في قِرانِ قولِه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: الأصنامَ التي تعبدونَها من دون الله، ﴿يدعون﴾: قتيبةُ[1]، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾: هي القشرةُ الرقيقةُ الملتفةُ على النواة.

---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٢٣).

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ....

《١٤》 ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي: الأصنامَ ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جمادٌ، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيلِ الفرضِ ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يَدَّعون ما تَدَّعون لهم من الإلهية، ويتبرؤون منها، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: بإشراككم لهم، وعبادتكم إياهم، ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾: ولا ينبئُكَ أيُّها المفْتونُ بأسباب الغرور، كما ينبئك اللهُ الخبيرُ بخبايا الأمور، وتحقيقُه: ولا يخبرُك بالأمر مخبرٌ هو مثلُ خبيرٍ عالمٍ به؛ يريد أنَّ الخبير بالأمر وحدَه هو الذي يخبرُك بالحقيقة دون سائر المخبرين به؛ والمعنى: أن هذا الذي أخبرتُكم به من حال الأوثان هو الحقُّ؛ لأني خبيرٌ بما أخبرتُ به.

《١٥》 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ قال ذو النون: الخلقُ محتاجون إليه في كل نَفَسٍ وخَطْرَةٍ ولحظةٍ، وكيف لا؟ ووجودُهم به وبقاؤهُم به، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الأشياء أجمعَ، ﴿الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾: المحمودُ بكلِّ لسانٍ، ولم يسمِّهم بالفقراءِ للتحقير، بل للتعريض على الاستغناء، ولهذا وصفَ نفسَه بالغنيِّ الذي هو مُطعمُ الأغنياء، وذكرَ الحميدَ؛ ليدلَّ به على أنه الغنيُّ النافعُ بغناه خلقَه، والجوادُ المنعمُ عليهم؛ إذْ ليس كلُّ غنيٍّ نافعاً بغناه، إلا إذا كان الغنيُّ جواداً منعماً، وإذا جادَ وأنعمَ.. حَمِدَه المنعَمُ عليهم، قال سهل: لما خلق اللهُ الخلقَ.. حكم لنفسه بالغِنَى، ولهم بالفقر، فمن ادَّعَى الغنى.. حُجِبَ عن الله، ومن أظهر فقرَه.. أوصلَه فقرُه إليه، فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسِّرِّ إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه، حتى تكون عبوديتُه محضةً، فالعبوديةُ هي الذلُّ والخضوعُ، وعلامتُه ألا يسألَ مِن أحد[1]، وقال الواسطي: من استغنى بالله.. لا يفتقرْ، ومن تعزَّزَ بالله.. لا يَذِلَّ، وقال الحسينُ: على مقدار افتقار العبد إلى الله.. يكون غِناه بالله، وكلما ازداد افتقاراً.. ازداد غِنىً، وقال يحيى: الفقرُ خيرٌ للعبد من الغنى؛ لأن المذلة في الفقر، والكبر في الغنى، والرجوع إلى الله بالتواضع، والذلةُ خيرٌ من الرجوع إليه بتكثير الأعمال، وقيل: صفةُ الأولياء ثلاثةٌ: الثقةُ بالله في كل شيء، والفقرُ إليه في كل شيء، والرجوعُ إليه من كل شيء، وقال الشبلي: الفقرُ يجرُّ البلاءَ، وبلاؤه كلُّه عِزٌّ.

---

(١) في الأصل: (عن أحد) والمثبت من المطبوع (٣/ ٥٣٢) وهو الصواب.

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ....

«١٦» ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلُّكم إلى العدم، فإن غناه بذاته لا بِكُم في القِدَمِ، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ وهو بدون حمدِكم حميدٌ.

«١٧» ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾: الإنشاءُ والإفناءُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾: بممتنع، وعن ابن عباس: يخلق بعدَكم مَن يعبدُه لا يُشركُ به شيئاً.

«١٨» ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفسٍ أخرى، والوِزرُ والوِقر أَخَوان، ووَزَرَ الشيءَ: إذا حمله، والوَازِرَةُ: صفةٌ للنفس؛ والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحملُ إلا وِزرها الذي اقترفتْه، لا تُؤاخَذُ نفسٌ بذنب نفس، كما تأخذُ جبابرةُ الدنيا الوَلِيَّ بالوَلِيِّ، والجارَ بالجار، وإنما قيل: (وَازرةٌ) ولم يقل: ولا تَزِرُ نفسٌ وِزرَ أُخرى؛ لأن المعنى: أن النفوس الوازراتِ لا ترى منهن واحدةً إلا حاملةً وزرَها لا وِزْرَ غيرِها، وقولُه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] واردٌ في الضالّين المضلِّين؛ وإنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقالِ ضلالِهم، وذلك كلُّه أوزارُهم، ما فيها شيءٌ من وِزرِ غيرِهم، ألا ترى كيف كذبَهم الله تعالى في قولهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [العنكبوت: ١٢]، ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ مثقلةٌ بالذنوب أحداً، ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾: ثِقَلَها؛ أي: ذنوبَها؛ ليتحمل عنها بعضَ ذلك ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المدعوُّ، وهو مفهومٌ من قوله: (وإن تدعُ) ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾: ذا قرابةٍ قريبةٍ، كأبٍ أو ولدٍ أو أخٍ، والفرقُ بين معنى قوله: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ومعنى (وإن تدعُ مثقلةٌ إلى حملها.. لا يحملْ منه شيءٌ): أن الأول دالٌّ على عدل الله في حكمه، وألا يؤاخذَ نفساً بغير ذنبها، والثاني في بيان أنه لا غياثَ يومئذ لمن استغاث حتى إن نفساً قد أثقلتْها الأوزارُ لو دَعَتْ إلى أن يُخَفَّفَ بعضُ وِقْرِها لم تُجَبْ ولم تُغَثْ، وإن كان المدعوُّ بعضَ قرابتِها، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك هؤلاء ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: حالٌ من الفاعل أو المفعول؛ أي: يخشَون ربهم غائبين عن عذابه، أو يخشون عذابه غائباً عنهم، وقيل: (بالغيب): في السرِّ حيث لا اطلاعَ للغير عليه، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في مواقيتها، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾: تطهرَ بفعل الطاعات وترك المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾: وهو اعتراضٌ مؤكد لخشيتِهم وإقامتِهم الصلاةَ؛ لأنهما من جملة التزكِّي، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾: المرجعُ، وهو وعدٌ للمتزكي بالثواب.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ٢٥﴾ ....

«١٩» ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ١٩﴾: مثلٌ للكافر والمؤمن، أو: للجاهل والعالم.

«٢٠» ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾: مَثَلٌ للكفر، ﴿وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾: للإيمان.

«٢١» ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١﴾: الحقُّ والباطل، أو: الجنة والنار، والحَرُورُ: الريح الحارُّ، كالسَّموم، إلا أن السموم تكون بالنهار، والحَرور بالليل والنهار، عن الفراء.

«٢٢» ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾: مَثلُ الذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه، وزيادةُ (لا): لتأكيد معنى النفي، والفرقُ بين هذه الواوات: أن بعضها ضَمَّتْ شفعاً إلى شفع، وبعضَها وِتراً إلى وتر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ٢٢﴾ يعني: أنه قد علم مَن يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه، فيهدي من يشاء هدايتَه، وأما أنت.. فخَفِيَ عليك أمرُهم؛ فلذلك تحرصُ على إسلام قومٍ مخذولين، شَبَّهَ الكفار بالموتى؛ حيث لا ينتفعون بمسموعِهم.

«٢٣» ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾ أي: ما عليك إلا أن تُبلغ وتنذر، فإن كان المنذَرُ ممن يَسمع الإنذار.. نفع، وإن كان من المصرين.. فلا عليك.

«٢٤» ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: حال من أحد الضميرين؛ يعني: مُحقّاً أو مُحقين، أو: صفةٌ للمصدر؛ أي: إرسالاً مصحوباً بالحق، ﴿بَشِيرًا﴾ بالوعد، ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالوعيد، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾: وما من أمة قبلَ أمتِك، والأمةُ: الجماعةُ الكثيرة، ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [القصص: ٢٣]، ويقال لأهل كلِّ عصرٍ: أمةٌ؛ والمرادُ هنا: أهل العصر، وقد كانت آثارُ النِّذارة باقيةً فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام، فلم تَخْلُ تلك الأمم من نذير، وحين اندرست آثارُ نَذارةِ عيسى عليه السلام.. بُعث محمد عليه السلام، ﴿إِلَّا خَلَا﴾: مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾ يخوفُهم وَخامَةَ الطغيان، وسوءَ عاقبةِ الكفران، واكتفى بالنذير عن البشير في آخر الآية بعد ما ذكرهما؛ لأن النِّذارة مشفوعةٌ بالبشارة، فدلَّ ذكر النذارة على ذكر البشارة.

«٢٥» ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلَهم، ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾: حالٌ، وقَدْ: مضمرةٌ، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزات، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: وبالصحف، ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ٢٥﴾ أي:

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ ....

التوراة والإنجيل والزبور، ولما كانت هذه الأشياءُ في جنسهم.. أَسندَ المجيءَ بها إليهم إسناداً مطلقاً وإن كان بعضُها في جميعهم، وهي البينات، وبعضُها في بعضهم، وهي الزبر والكتاب، وفيه مَسلاةٌ لرسول الله ﷺ.

《٢٦》 ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾: عاقبتُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنواع العقوبة، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾: إنكاري عليهم وتعذيبي لهم.

《٢٧》 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾: بالماء، ﴿ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾: أجناسُها؛ من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرِها مما لا يُحصرُ، أو هيآتُها؛ من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوِها، ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾: طرقٌ مختلفةُ اللون، جمعُ جُدَّةٍ، كمُدَّةٍ ومُدَدٍ، ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾: جمعُ غِرْبيبٍ، وهو تأكيدٌ للأسود؛ يقال: أسودُ غِربيبٌ، وهو الذي أَبْعَدَ في السواد، وأغرب فيه، ومنه الغُرابُ، وكان من حق التأكيد أن يَتْبَعَ المؤكَّدَ، كقولك: أصفرُ فاقعٌ، إلا أنه أُضمرَ المؤكَّدُ قبلَه، والذي بعده تفسيرٌ للمضمَر[1]، وإنما يُفعل ذلك لزيادة التوكيد؛ حيث يُدل على المعنى الواحد من طريقَي الإظهارِ والإضمارِ جميعاً، ولا بدَّ من تقدير حذف المضاف في قوله: (ومن الجبال جُدد) أي: ومن الجبال ذو جُدَدٍ بيضٍ وحمرٍ وسودٍ[2]، حتى يَؤولَ إلى قولك: ومن الجبال مختلفٌ ألوانُه، كما قال: ﴿ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾.

《٢٨》 ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يعني: ومنهم بعضٌ مختلفٌ ألوانُه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمرات والجبال، ولما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، وعدَّدَ آياتِ اللهِ وأعلامَ قدرتِه وآثارَ صنعتِه وما خلق من الفِطَرِ المختلفة الأجناس، وما يُستدلُّ به عليه وعلى صفاته.. أتبعَ ذلك: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: العلماءُ به الذين علموه بصفاته فعظَّموه، ومن ازداد علماً به.. ازداد منه خوفاً، ومن كان علمُه به أقلَّ.. كان آمنَ،

---

(١) والتقدير: سودٌ غرابيبُ سودٌ.

(٢) إنما قدر: (ذو جُدَدٍ) لأن الجبالَ ليست نفسَ الطرائق. انظر «تفسير الآلوسي» (١١/ ٣٦١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ ....

وفي الحديث: «أعلمُكم بالله أشدُّكم له خشية»، وتقديمُ اسم الله تعالى وتأخيرُ العلماء يؤذنُ أن معناه: إن الذين يخشون من عباده العلماءُ دون غيرِهم، ولو عكس.. لكان المعنى: أنهم لا يخشون إلا الله، كقوله: ولا يخشون أحداً إلا الله، وبينهما تغايرٌ، ففي الأول بيانُ أن الخاشين هم العلماءُ، وفي الثاني بيانُ أن المخشيَّ منه هو الله تعالى، وقرأ أبو حنيفةَ وعمر بنُ عبد العزيز وابنُ سِيرين رضي الله عنهم: ﴿إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ﴾، والخشيةُ في هذه القراءة استعارةٌ؛ والمعنى: إنما يُعظِّمُ اللهُ من عباده العلماءَ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾: تعليلٌ لوجوب الخشية؛ لدلالته على عقوبة العصاة وقهرِهم، وإثابةِ أهلِ الطاعةِ والعفوِ عنهم، والمعاقِبُ والمثيبُ حقُّه أن يُخشَى.

《٢٩》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: يداومون على تلاوة القرآن، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أي: مُسرِّين النفل، ومعلنين الفرضَ؛ يعني: لا يقنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به، ﴿يَرۡجُونَ﴾: خبرُ (إنَّ) ﴿تِجَٰرَةٗ﴾ هي: طلبُ الثواب بالطاعة، ﴿لَّن تَبُورَ ٢٩﴾: لن تَكْسُدَ؛ يعني: تجارةً ينتفي عنها الكسادُ، وتَنْفُقُ عند الله.

《٣٠》 ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ﴾: متعلقٌ بـ(لن تبور) أي: ليوفيهم بنَفاقِها عنده ﴿أُجُورَهُمۡ﴾: ثوابَ أعمالِهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ بتفسيحِ القبور، أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم، أو بتضعيف حسناتهم، أو بتحقيق وعدِ لقائِه، أو: (يرجون): في موضع الحال؛ أي: راجين، واللامُ يتعلقُ بـ(يتلون) وما بعده؛ أي: فعلوا جميعَ ذلك؛ من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق لهذا الغرض، وخبرُ (إن): ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ﴾ لفَرَطاتِهم، ﴿شَكُورٞ ٣٠﴾ أي: غفور لهم، شكورٌ لأعمالهم؛ أي: يعطي الجزيل على العمل القليل.

《٣١》 ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: القرآنِ، و(مِن): للتبيين، ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا﴾: حالٌ مؤكدة؛ لأن الحق لا ينفكُّ عن هذا التصديق ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾: لما تقدمه من الكتب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ فعَلِمَكَ وأبصرَ أحوالَك ورآك أهلاً لأن يُوحِيَ إليك مثلَ هذا الكتاب المعجز الذي هو عيارٌ على سائر الكتب[1].

---

(١) العيارُ: ما يُعلم به صحةُ الشيء وفسادُه.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ ....

«٣٢» ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أوحينا إليك القرآن، ثم أورثناه من بعدك؛ أي: حكمنا بتوريثه ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾: وهم أمتُه من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ومَن بعدَهم إلى يوم القيامة؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمةً وَسَطاً ليكونوا شهداء على الناس، واختصَّهم بكرامة الانتماء إلى أفضلِ رسلِه، ثم رتَّبهم على مراتب فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: وهو المُرْجأُ لأمر الله، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: هو الذي خَلَطَ عملاً صالحاً وآخرَ سَيِّئاً، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهذا التأويل يوافق التنزيلَ؛ فإنه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ...﴾ [التوبة: ١٠٠] الآيةَ، وقال بعده: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ...﴾ [التوبة: ١٠٢] الآيةَ، وقال بعدَه: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ...﴾ [التوبة: ١٠٦] الآيةَ.. والحديثَ؛ فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآيةِ: قال رسول الله ﷺ: «سابِقُنا سابقٌ، ومقتصدُنا ناجٍ، وظالمُنا مغفورٌ له»[(١)] وعنه عليه السلام: «السابقُ يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصدُ يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، وأما الظالم لنفسِه.. فيُحبَسُ حتى يظنَّ أنه لا ينجو، ثم تنالُه الرحمةُ فيدخل الجنة» رواه أبو الدرداء[(٢)]، والأثرَ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما: السابقُ: المخلصُ، والمقتصدُ: المرائي، والظالمُ: الكافرُ بالنعمة غيرُ الجاحد لها؛ لأنه حَكَمَ للثلاثةِ بدخول الجنة.. وقولَ السلف؛ فقد قال الربيعُ بنُ أنس: الظالمُ: صاحبُ الكبائر، والمقتصدُ: صاحبُ الصغائر، والسابقُ: المجتنبُ لهما، وقال الحسن البصري: الظالمُ: مَن رَجَحَتْ سيئاتُه، والسابقُ: مَن رَجَحَتْ حسناتُه، والمقتصدُ: من استوت حسناتُه وسيئاتُه، وسئل أبو يوسُفَ رحمه الله عن هذه الآية فقال: كلُّهم مؤمنون، وأما صفةُ الكفار.. فبعدَ هذا، وهو قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، وأما الطبقاتُ الثلاثُ.. فهم الذين اصطفى من عباده؛ فإنه قال: (فمنهم) (ومنهم) (ومنهم)، والكلُّ راجعٌ إلى قوله: (الذين اصطفينا من عبادنا)، وهم أهل الإيمان، وعليه الجمهور، وإنما قَدَّمَ الظالم للإيذان بكثرتهم، وأن المقتصدِين قليلٌ بالإضافة إليهم، والسابقون أقلُّ من القليل، وقال ابنُ عطاءٍ: إنما قدم الظالم لئلا يَيْئسَ مِن

---

(١) رواه البيهقي في «البعث والنشور» (ص ٨٤).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٢٧) بلفظ: «السابق والمقتصد يدخلان الجنة بغير حساب، والظالم لنفسه يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخلُ الجنة».

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾ ....

فضله، وقيل: إنما قدَّمه.. ليُعَرِّفَه أن ذنبه لا يُبعدُه من ربِّه، وقيل: لأن أول الأحوال معصيةٌ ثم توبةٌ ثم استقامةٌ، وقال سهلٌ: السابقُ: العالمُ، والمقتصدُ: المتعلمُ، والظالمُ: الجاهلُ، وقال أيضاً: السابقُ: الذي اشتغل بِمَعادِه، والظالمُ: الذي اشتغل بِمَعاشِه عن مَعاده، والمقتصدُ: الذي اشتغل بهما، وقيل: الظالمُ: الذي يعبدُه على الغفلة والعادة، والمقتصدُ: الذي يعبدُه على الرغبة والرهبة، والسابقُ: الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق، وقيل: الظالمُ: مَن أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً، والمقتصدُ: مَن يجتهدُ ألا يأخذَها إلا من حلال، والسابقُ: من أعرض عنها جملةً، وقيل: الظالمُ: طالبُ الدنيا، والمقتصدُ: طالبُ العقبى، والسابقُ: طالبُ المولى، ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾: بأمره أو بعلمه أو بتوفيقه، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيراثُ الكتابِ ﴿هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

《٣٣》 ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾: خبرٌ ثانٍ لذلك، أو خبرُ مبتدأٍ محذوف، أو مبتدأٌ والخبرُ ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ أي: الفرقُ الثلاثةُ، ﴿يُدخَلونها﴾: أبو عمرٍو[١]، ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾: جمعُ أَسْوِرَةٍ: جمعُ سِوارٍ ﴿مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ أي: من ذهب مرصَّعٍ باللؤلؤ، و(لؤلؤاً): بالنصب والهمزة: نافعٌ وحفصٌ عطفاً على محلِّ (من أساورَ) أي: يُحلَّون أساورَ ولؤلؤاً، ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾﴾ لما فيه من اللذة والزينة.

《٣٤》 ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾: خوفَ النار، أو: خوفَ الموت، أو: همومَ الدنيا، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ﴾: يغفرُ الجناياتِ وإن كَثُرت، ﴿شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾: يقبل الطاعاتِ وإن قَلَّتْ.

《٣٥》 ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ أي: الإقامةِ لا نَبرحُ منها ولا نُفارقُها، يقال: أقمتُ إقامةً ومُقاماً ومُقامةً، ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾: من عطائه وإفضالِه، لا باستحقاقِنا، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ﴾: تَعَبٌ ومشقةٌ، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾: إعياءٌ من التعب وفترةٌ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿لَغوبٌ﴾: بفتح اللام[٢]، وهو شيءٌ يُلغبُ منه؛ أي: لا نتكلف عملاً يُلغِبُنا.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٣).

(٢) انظر «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» (٢/ ٢٠٠).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ ....

《٣٦》 ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾: جوابُ النفي، ونصبُه بإضمار أنْ؛ أي: لا يُقضى عليهم بموت ثانٍ فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾: من عذاب نار جهنم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الجزاءِ ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾، ﴿يُجزَى كلُّ كفورٍ﴾: أبو عمرٍو[1].

《٣٧》 ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾: يستغيثون فهو (يفتعلون) من الصراخ، وهو الصياحُ بجهد ومشقة، واستعمل في الاستغاثة لجَهْدِ المستغيثِ صوتَه: ﴿رَبَّنَا﴾: يقولون: ربنا ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: أخرجنا من النار ورُدَّنا إلى الدنيا نؤمنْ بدلَ الكفر، ونطعْ بعدَ المعصية، فيجابُون بعد قَدْرِ عُمُرِ الدنيا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ يجوز أن يكون (ما) نكرةً موصوفةً؛ أي: تعميراً يتذكر فيه مَن تذكر، وهو متناولٌ لكل عُمُرٍ تمكنَ منه المكلفُ من إصلاح شأنه وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظمُ، وقيل: هو ثماني عشرة سنةً، وقيل: أربعون، وقيل: ستون سنةً، ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾: الرسولُ عليه السلام، أو: الشيبُ، وهو عطفٌ على معنى (أو لم نعمركم)؛ لأن لفظه لفظُ استخبارٍ، ومعناه إخبارٌ، كأنه قيل: قد عمَّرْناكم وجاءكم النذير ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب، ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾: ناصرٍ يُعينُهم.

《٣٨》 ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ما غاب فيهما عنكم، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ كالتعليل؛ لأنه إذا عَلِمَ ما في الصدور وهو أخفى ما يكون.. فقد علمَ كلَّ غيب في العالم، و(ذات الصدور): مضمراتُها، وهي تأنيثُ: ذو، في نحو قول أبي بكر رضي الله عنه: ذو بطنِ خارجةَ جاريةٌ[2]؛ أي: ما في بطنها من الحَبَلِ؛ لأن الحَبَلَ يصحبُ البطنَ، وكذا المضمراتُ تصحب الصدور، وذو: موضوعٌ لمعنى الصحبة.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٣).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٤٠) بنحوه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ ....

《٣٩》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقال للمستخلَفِ: خليفةٌ، ويجمعُ على خلائف؛ والمعنى: أنه جعلكم خلفاء في أرضِه، قد ملَّككم مقاليدَ التصرف فيها، وسلطكم على ما فيها، وأباح منافعَها؛ لتشكروه بالتوحيد والطاعة، ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم وغَمَط مثلَ هذه النعمةِ السَّنيّةِ.. ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: فوبالُ كفرِه راجعٌ عليه، وهو مقتُ الله وخسارُ الآخرة، كما قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾: وهو أشدُّ البغض، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾: هلاكاً وخسراناً.

《٤٠》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾: آلهتكم التي أشركتموهم في العبادة ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (أروني): بدلٌ من (أرأيتم) لأن معنى (أرأيتم): أخبروني، كأنه قيل: أخبروني عن هؤلاء الشركاءِ وعمّا استحقُّوا به الشركة أروني أيَّ جزءٍ من أجزاء الأرض استبدُّوا بخلقه دون الله، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أم لهم مع الله شركةٌ في خلق السموات؟ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: معهم كتابٌ من عند الله ينطقُ بأنهم شركاؤه فهم على حجةٍ وبرهانٍ من ذلك الكتاب؟ ﴿بينات﴾: عليٌّ وابنُ عامرٍ ونافعٌ وأبو بكر[1]، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ﴾: ما يعدُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم﴾: بدلٌ من (الظالمون) وهم الرؤساءُ ﴿بَعْضًا﴾ أي: الأتباعَ، ﴿إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾: هو قولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

《٤١》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾: يمنعُهما من أن تزولا؛ لأن الإمساك منْعٌ، ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ على سبيل الفرضِ ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾: ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: من بعد إمساكه، و(من) الأولى: مزيدةٌ لتأكيد النفي، والثانيةُ: للابتداء، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾: غيرَ معاجِلٍ بالعقوبة؛ حيث يمسكُهما وكانتا جديرتين بأن تُهدّا هدّاً؛ لعظَم كلمة الشرك، كما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ...﴾ [مريم: ٩٠] الآية.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٣).

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ....﴾

«٤٢» ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: نصبٌ على المصدر؛ أي: إقساماً بليغاً، أو: على الحال؛ أي: جاهدين في أيمانهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ بلغَ قُريشاً قبل مبعث النبي ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلَهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسلُ فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسولٌ لنكونَنَّ أهدى من إحدى الأمم؛ أي: من الأمة التي يقال فيها: هي إحدى الأمم؛ تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة، كما يقال للداهية العظيمة: هي إحدى الدواهي، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾: فلما بُعِثَ رسولُ الله ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: ما زادهم مجيءُ الرسول ﷺ إلا تباعداً عن الحقِّ، وهو إسنادٌ مجازيٌّ.

«٤٣» ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: مفعولٌ له، وكذا ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾؛ والمعنى: وما زادهم إلا نفوراً للاستكبارِ ومكرِ السيئ، أو: حالٌ؛ يعني: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، وأصلُ قولِه: (ومكرَ السيئِ): وأنْ مكروا السيئَ؛ أي: المكرَ السيِّئَ، ثم: ومكراً السيِّئَ، ثم: ومكرَ السيئِ؛ والدليل عليه: قولُه: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾: يحيطُ وينزلُ ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولقد حاق بهم يومَ بدرٍ، وفي المثل: (مَن حفر لأخيه جُبّاً.. وقع فيه مُكِبّاً)، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: وهو إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلَهم؛ والمعنى: فهل ينظرون بعدَ تكذيبِك إلا أن ينزل بهم العذابُ مثلَ الذي نزل بمن قبلَهم من مكذبي الرسل، جعلَ استقبالَهم لذلك انتظاراً له منهم، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ بيَّنَ أن سنته التي هي الانتقامُ من مكذبي الرسل سنةٌ لا يبدلُها في ذاتها، ولا يحولُها عن أوقاتها، وأن ذلك مفعولٌ له لا محالةَ.

«٤٤» ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهدَ عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرِهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين وعلاماتِ هلاكِهم ودمارِهم، ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾: من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾: اقتداراً، فلم يتمكنوا من الفِرار، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾: ليسبقَه ويفوتَه ﴿مِن شَىْءٍ﴾: أيُّ شيءٍ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بهم، ﴿قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾: قادراً عليهم.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

《٤٥》 ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾: بما اقترفُوا من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾: على ظهر الأرض؛ لأنه جَرَى ذكرُ الأرض في قوله: ﴿لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: من نَسَمَةٍ تَدِبُّ عليها، ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى يوم القيامة، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ أي: لم تَخْفَ عليه حقيقةُ أمرهم، وحِكمةُ حكمِهم.



﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ ....

سورة يس

مكيةٌ، وهي ثلاثٌ وثمانون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿يسٓ ۝١﴾: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه: يا إنسانُ في لغة طيِّئٍ، وعن ابن الحنفية: يا محمدُ، وفي الحديث: «إن الله تعالى سمّاني في القرآن بسبعةِ أسماءٍ: محمدٌ وأحمدُ وطه ويس والمزملُ والمدثرُ وعبدُ الله»[(١)]، وقيل: يا سيدُ، ﴿يس﴾: بالإمالة: عليٌّ وحمزةُ وخلفٌ وحمادٌ ويحيى[(٢)].

《٢》 ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾: قسمٌ، ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾: ذي الحكمة، أو: لأنه دليلٌ ناطق بالحكمة، أو: لأنه كلامٌ حكيمٍ، فوُصف بصفة المتكلم به.

《٣》 ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾: جوابُ القسم، وهو ردٌّ على الكفار حين قالوا: لست مرسلاً.

《٤》 ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾: خبرٌ بعد خبر، أو: صلةٌ لـ(المرسلين) أي: الذين أُرسلوا على صراط مستقيم؛ أي: طريقةٍ مستقيمةٍ، وهو الإسلام.

《٥》 ﴿تَنزِيلَ﴾: بنصب اللام: شاميٌّ وكوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ؛ على اقرأ تنزيلَ، أو: على أنه مصدرٌ؛ أي: نُزِّلَ تنزيلَ، وغيرُهم: بالرفع؛ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو تنزيلُ، والمصدرُ بمعنى المفعول، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: الغالبُ بفصاحةِ نظمِ كتابِه أوهامَ ذوي العناد، ﴿ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾: الجاذب بلطافةِ معنى خطابِه أفهامَ أولي الرشاد.

《٦》 واللامُ في ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾: متصلٌ بمعنى المرسلين؛ أي: أُرسلتَ لتنذرَ ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ (ما): نافيةٌ عند الجمهور؛ أي: قوماً غيرَ مُنذَرٍ آباؤُهم، على الوصف؛ بدليل قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]، أو: موصولةٌ منصوبةٌ على المفعول الثاني؛ أي: العذابَ الذي أُنْذِرَه آباؤُهم، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ

---

(١) لم أجده مُسنداً.

(٢) انظر المرجع السابق (ص ٢٦٥) وكذا القراءتان الآتيتان.

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ....

عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]، أو: مصدريةٌ؛ أي: لتنذر قوماً إنذارَ آبائِهم؛ أي: مثلَ إنذار آبائهم، ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ إن جعلت (ما): نافيةً.. فهو متعلق بالنفي؛ أي: لم يُنذرُوا فهم غافلون، وإلا.. فهو متعلق بقوله: (إنك لمن المرسلين لتنذر)، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنه غافلٌ، أو فهو غافل.

《٧》 ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ يعني: قولَه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] أي: تعلقَ بهم هذا القولُ، وثبت عليهم، ووجب؛ لأنهم ممن عَلِمَ أنهم يموتون على الكفر، ثم مَثَّلَ تصميمَهم على الكفر، وأنه لا سبيلَ إلى ارعوائِهم.. بأن جعلهم كالمغلولين المقمَحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحقِّ، ولا يَعطِفون أعناقَهم نحوَه، ولا يُطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سَدَّين لا يُبصِرون ما قُدّامَهم، ولا ما خلفَهم؛ في أنْ لا تَأَمُّلَ لهم، ولا تبَصُّرَ، وأنهم متعامُون عن النظر في آيات الله بقوله:

《٨》 ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ معناه: فالأغلالُ واصلةٌ إلى الأذقان، ملزوزةٌ إليها، ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾: مرفوعةٌ رؤوسُهم، يقال: قَمَحَ البعيرُ، فهو قامِح: إذا رَوِيَ فرفع رأسه، وهذا لأن طَوْقَ الغِلِّ الذي في عنق المغلول يكون في مُلتقى طرفيه تحت الذَّقَنِ حلقةٌ فيها رأسُ العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن، فلا يُخَلِّيه يُطأطِئُ رأسَه، فلا يزالُ مُقْمَحاً.

《٩》 ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: بفتح السين: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ، وقيل: ما كان من عمل الناس.. فبالفتح، وما كان من خلق الله كالجبل ونحوِه.. فبالضمِّ، ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾: فأغشينا أبصارَهم؛ أي: غَطَّيناها وجعلنا عليها غِشاوةً، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ الحقَّ والرشادَ، وقيل: نزلت في بني مخزوم، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي.. ليرضخَنَّ رأسَه، فأتاه وهو يصلي ومعه حجرٌ ليدمغَه به، فلما رفع يده.. انْثنت إلى عنقه، ولَزِقَ الحجرُ بيده حتى فكُّوه عنها بِجَهْدٍ، فرجع إلى قومه فأخبرهم، فقال مخزوميٌّ آخرُ: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهبَ فأعمى اللهُ بصرَه.

《١٠》 ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: سواءٌ عليهم الإنذارُ وتركُه؛ والمعنى: مَن أضلَّه الله هذا الإضلالَ.. لم ينفعه الإنذارُ، وروي: أن عمر بن عبد العزيز قرأ

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

الآيةَ على غَيلانَ القدري، فقال: كأني لم أقرأْها، أُشهدُكَ أني تائب عن قولي في القدر، فقال عمر: اللهم إن صدق.. فتب عليه، وإن كذب.. فسلطْ عليه من لا يرحمُه، فأخذه هشامُ بنُ عبد الملك من عنده، فقطع يديه ورجليه وصلبَه على باب دمشقَ.

«١١» ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك مَن اتبعَ القرآنَ، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾: وخاف عقاب الله ولم يَرَهُ، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾: وهي العفوُ عن ذنوبه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ أي: الجنةِ.

«١٢» ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: نبعثهم بعد مماتهم، أو: نخرجُهم من الشرك إلى الإيمان، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾: ما أسلفُوا من الأعمال الصالحات وغيرِها، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾: ما هلكوا عنه من أثر حسنٍ، كعلم علَّموه، أو كتابٍ صنَّفوه، أو حَبِيْسٍ أَحْبَسُوه[1]، أو رِباطٍ أو مسجدٍ صنعوه. أو سَيِّئٍ، كوظيفة وظَّفَها بعضُ الظلمة، وكذلك كلُّ سنة حسنة أو سيئة يُستن بها، ونحوُه قولُه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] أي: قدمَ من عمله، وأخَّرَ من آثاره، وقيل: هي خُطاهم إلى الجمعة أو إلى الجماعة، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾: عَدَدْناه وبيَّناه ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ يعني: اللوحَ المحفوظَ؛ لأنه أصلُ الكتب ومقتداها.

«١٣» ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾: ومَثِّلْ لهم؛ مِن قولهم: عندي من هذا الضربِ كذا؛ أي: من هذا المثال، وهذه الأشياءُ على ضرب واحد؛ أي: على مثال واحد؛ والمعنى: واضربْ لهم مثلاً مثلَ أصحابِ القريةِ؛ أي: أنطاكيةَ؛ أي: اذكر لهم قصةً عجيبةً قصةَ أصحاب القرية، والمثلُ الثاني بيانٌ للأول، وانتصابُ ﴿إِذْ﴾ بأنه بدلٌ من أصحاب القرية، ﴿جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾: رسلُ عيسى عليه السلام، بعثهم دعاةً إلى الحقِّ، وكانوا عبدةَ أوثانٍ.

«١٤» ﴿إِذْ﴾: بدلٌ من (إذْ) الأولى، ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ أي: أَرسلَ عيسى بأمرنا ﴿ٱثْنَيْنِ﴾: صادقاً وصَدوقاً، فلما قَرُبا من المدينة.. رَأَيا شيخاً يَرعَى غُنيماتٍ له، وهو حبيب النجار، فسأل عن حالهما فقالا: نحن رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال:

---

(١) أي: وَقَفُوه.

قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ....

أَمَعَكما آيةٌ؟ فقالا: نشفي المريضَ ونُبرئُ الأكمهَ والأبرصَ، وكان له ابنٌ مريض مدةَ سنتين، فمسحاه فقام، فآمن حبيبٌ وفشا الخبر، فشُفي على أيديهما خلقٌ، فدعاهما الملك وقال لهما: أَلَنا إلهٌ سوى آلهتنا؟ قالا: نعم، مَن أوجدك وآلهتَك، فقال: حتى أنظرَ في أمركما، فتبعَهما الناسُ وضربوهما، وقيل: حُبسا، ثم بَعَثَ عيسى شمعونَ، فدخل متنكراً، وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبرَه إلى الملك، فَأَنِسَ به، فقال له ذات يوم: بَلَغني أنك حبستَ رجلين، فهل سمعت قولهما؟ قال: لا، فدعاهما، فقال شَمعونُ: من أرسلكما؟ قالا: اللهُ الذي خلق كل شيء، ورزق كل حي، وليس له شريك، فقال: صِفاه وأَوْجِزا، قالا: يفعل ما يشاءُ، ويحكم ما يريدُ، قال: وما آيتُكما؟ قالا: ما يتمنى الملك، فدعا بغلامٍ أكمهَ، فدعَوُا اللهَ فأبصر الغلامُ، فقال له شمعون: أرأيت لو سألتَ إلهك حتى يصنعَ مثل هذا فيكونَ لك وله الشرف؟ قال الملك: ليس لي عنك سرٌّ؛ إن إلَهنا لا يسمع ولا يبصر ولا يضرُّ ولا ينفع، ثم قال: إن قدرَ إلهكما على إحياء ميت.. آمنا به، فدعَوا بغلامٍ مات من سبعة أيام، فقام وقال: إني أُدخلت في سبعة أودية من النار؛ لِما مِتُّ عليه من الشرك، وأنا أحذركم ما أنتم فيه، فآمِنوا، وقال: فُتحت أبواب السماء فرأيتُ شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومن هم؟ قال: شمعونُ وهذان، فتعجب الملكُ، فلما رأى شمعونُ أن قوله قد أثَّر فيه.. نصحَه، فآمن وآمن قومٌ، ومن لم يؤمن.. صاح عليهم جبريلُ فهلكوا، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾: فكذب أصحاب القرية الرسولين، ﴿فَعَزَّزْنَا﴾: فقوَّيناهما، ﴿فَعَزَزْنا﴾: أبو بكرٍ[١]؛ مِن عَزَّهُ يَعُزُّه: إذا غلبه؛ أي: فَغَلَبْنا وقَهَرْنا ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو: شمعونُ، وتُرك ذكرُ المفعول به؛ لأن المراد ذكرُ المعزِّزِ به وهو شمعونُ، وما تلطف فيه من التدبير حتى عزَّ الحقُّ وذلَّ الباطلُ، وإذا كان الكلام منصبّاً إلى غرض من الأغراض.. جُعل سياقُه له وتوجهُه إليه، كأن ما سواه مرفوضٌ، ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: قال الثلاثة لأهل القرية.

《١٥》 ﴿قَالُوا۟﴾ أي: أصحابُ القرية: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ رُفعُ (بشرٌ) هنا، ونُصب في قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] لانتقاضِ النفي بـ(إلا) فلم يبقَ لـ (ما) شَبَهٌ بـ: ليس، وهو الموجِبُ لعملِه، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: وحياً، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾: ما أنتم إلا كَذَبَةٌ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٥) وكذا القراءات الست الآتية.

قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ....

«١٦» ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أُكد الثاني باللام دون الأول؛ لأن الأول ابتداءُ إخبار، والثاني جوابٌ عن إنكار، فيَحتاج إلى زيادة تأكيد، و(ربنا يعلم): جارٍ مَجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولُهم: (شهد الله) و(علم الله).

«١٧» ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ أي: التبليغُ الظاهرُ المكشوفُ بالآيات الشاهدة بصحته.

«١٨» ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾: تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينَهم، ونَفرت منه نفوسُهم، وعادةُ الجهال أن يَتيَمَّنوا بكل شيء مالوا إليه وقَبِلَتْه طباعُهم، ويتشاءَموا بما نفرُوا عنه وكرهوه، فإن أصابهم بلاءٌ أو نعمةٌ. . قالوا: بِشُؤم هذا، وبركةِ ذلك، وقيل: حُبس عنهم القطرُ فقالوا ذلك، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾: لنقتلنَّكم، أو: لنطردَنَّكم، أو: لنشتمنَّكم، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾: ولَيصيبنكم منا عذاب الحريق، وهو أشدُّ عذاب.

«١٩» ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي: سببُ شؤمِكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ وهو الكفر، ﴿أَئِن﴾: بهمزة الاستفهامِ وحرفِ الشرط: كوفيٌّ وشاميٌّ، ﴿ذُكِّرْتُم﴾: وُعظتم ودُعيتم إلى الإسلام، وجوابُ الشرط مضمرٌ، وتقديرُه: تطيرتم، ﴿آين﴾: بهمزة ممدودة بعدها ياءٌ مكسورةٌ: أبو عمرو، و﴿أَيِنْ﴾: بهمزة مقصورة بعدَها ياءٌ مكسورةٌ: مكيٌّ ونافعٌ، ﴿ذُكِرْتم﴾: بالتخفيف: يزيدُ، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾: مجاوزون الحدَّ في العصيان، فمِنْ ثَمَّ أتاكم الشؤمُ، لا من قِبَلِ رسلِ الله وتذكيرِهم، أو: بل أنتم مسرفون في ضلالكم وغَيِّكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبركُ به من رسلِ الله.

«٢٠» ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو: حبيبُ النجارُ، وكان في غارٍ من الجبل يعبدُ اللهَ، فلما بلغه خبرُ الرسل. . أتاهم وأظهر دينه وقال: أتسألون على ما جئتم به أجراً؟ قالوا: لا، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

«٢١» ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: الرسلُ، فقالوا: أو أنت على دين هؤلاء؟ فقال:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾

《٢٢》 ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾: خلقَني، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾: وإليه مرجعُكم، ﴿وما لي﴾: حمزة.

《٢٣》 ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾: بهمزتين: كوفيٌّ، ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يعني: الأصنامَ، ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾: شرطٌ جوابُه: ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ من مكروهٍ، ﴿ولا ينقذوني﴾ ﴿فاسمعوني﴾: في الحالين: يعقوبُ.

《٢٤》 ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي: إذا اتخذتُ ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾: ظاهرٍ بَيِّنٍ، ولما نصح قومَه.. أخذُوا يرجُمونه، فأسرع نحو الرسل قبلَ أن يُقتلَ فقال لهم:

《٢٥》 ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾ أي: اسمعُوا إيماني لتشهدوا لي به.

《٢٦ - ٢٧》 ولما قُتِلَ ﴿قِيلَ﴾ له: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وقبرُه في سوق أنطاكيةَ، ولم يقل: قيل له؛ لأن الكلام سِيْقَ لبيان المقولِ، لا لبيان المقول له، مع كونه معلوماً، وفيه دلالة أن الجنة مخلوقةٌ، وقال الحسن: لما أراد القومُ أن يقتلوه.. رفعه الله إليه وهو في الجنة، ولا يموت إلا بفناء السموات والأرض، فلما دخل الجنة ورأى نعيمها ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بمغفرة ربي لي، أو بالذي غفرَ لي، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ بالجنة.

《٢٨》 ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ (ما): نافيةٌ، ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾: قومِ حبيبٍ، ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: من بعد قتلِه أو رفعِه ﴿مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لتعذيبهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾: وما كان يَصحُّ في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاكَ كلِّ قوم على بعض الوجوه دون بعض لحكمة اقتضت ذلك.

《٢٩》 ﴿إِن كَانَتۡ﴾ الأخذةُ أو العقوبةُ ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صاح جبريل عليه السلام صيحةً واحدةً ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾: مَيِّتون، كما تَخْمُدُ النار.

والمعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم يُنزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدرٍ والخندقِ.

يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ....

《٣٠》 ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الحسرةُ: شدةُ الندم، وهذا نداءٌ للحسرة عليهم، كأنما قيل لها: تعالَي يا حسرةُ، فهذه من أحوالك التي حقُّك أن تحضري فيها، وهي حالُ استهزائهم بالرسل؛ والمعنى: أنهم أحقّاءُ بأن يَتحسرَ عليهم المتحسرون، ويَتلهفَ على حالهم المتلهفون، أو: هم مُتحسَّرٌ عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

《٣١》 ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾: ألم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ (كم): نصبٌ بـ(أهلكنا)، و(يَرَوا): معلقٌ عن العمل في (كَمْ)؛ لأن (كَمْ) لا يعمل فيها عاملٌ قبلها، كانت للاستفهام أو للخبر؛ لأن أصلها للاستفهام، إلا أن معناه نافذٌ في الجملة[1]، وقولُه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾: بدلٌ من (كَم أهلكنا) على المعنى لا على اللفظ، تقديرُه: ألم يروا كثرةَ إهلاكِنا القرون من قبلهم كونَهم غيرَ راجعين إليهم.

《٣٢》 ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (لمّا): بالتشديد: شاميٌّ وعاصمٌ وحمزةُ بمعنى إلا، و(إن): نافيةٌ، وغيرُهم: بالتخفيف[2]؛ على أن (ما): صلةٌ للتأكيد، و(إنْ): مخففةٌ من الثقيلة، وهي متلقاة باللام لا محالةَ، والتنوينُ في (كلٌّ): عوضٌ من المضاف إليه؛ والمعنى: إنْ كلَّهم محشورون مجموعون محضرون للحساب، أو معذَّبون، وإنما أَخبر عن (كل) بـ(جميع)؛ لأن (كلّاً) يفيد معنى الإحاطة، والجميعُ: (فعيلٌ) بمعنى (مفعول)، ومعناه: الاجتماعُ؛ يعني: أن المحشر يجمعُهم.

《٣٣》 ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ؛ أي: وعلامةٌ تدلُّ على أن الله يبعث الموتى حاصلةٌ لهم، وهي إحياءُ الأرض الميتة، ويجوزُ أن يرتفع (آية) بالابتداء، و(لهم): صفتُها، وخبرُها: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾: اليابسةُ، وبالتشديد: مدنيٌّ، ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بالمطر، وهو استئنافُ بيانٍ لكون الأرض الميتة آيةً، وكذلك ﴿نَسْلَخُ﴾، ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل؛ لأنه أريد بهما

---

(١) أي: جملة: (كم أهلكنا): في محل نصب سدت مسد مفعولَيْ (تَرَوا).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٦) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ....

جنسان مطلقان، لا أرضٌ وليلٌ بأعيانها، فعُومِلا معاملةَ النكرات في وصفهما بالأفعال، ونحوُه[١]: [من: الكامل]

ولقد أمر على اللئيم يسبني ....

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أريدَ به الجنسُ، ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قُدِّمَ الظرفُ ليدلَّ على أن الحَبَّ هو الشيءُ الذي يتعلق به معظمُ العيش، ويقوم بالارتزاق منه صلاحُ الإنس، وإذا قَلَّ.. جاء القحطُ ووقع الضرُّ، وإذا فقد.. حضر الهلاكُ ونزل البلاءُ.

《٣٤》 ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾: في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾: بساتينَ ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ (مِن): زائدةٌ عند الأخفش، وعند غيره المفعولُ محذوفٌ، تقديرُه: ما ينتفعون به.

《٣٥》 ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ والضمير لله تعالى؛ أي: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر، ﴿مِن ثُمُرِه﴾: حمزةُ وعليٌّ[٢]، ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ومما عملته أيديهم من الغرس والسقيِ والتلقيحِ وغيرِ ذلك من الأعمال إلى أن يبلغ الثمرُ منتهاه؛ يعني: أن الثمر في نفسِه فعلُ الله وخلقُه، وفيه آثارٌ من كدِّ بني آدمَ، وأصلُه: من ثمرنا، كما قال: (وجعلنا) (وفجرنا) فنُقِلَ الكلامُ من التكلم إلى الغَيبةِ على طريق الالتفات، ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل، وتُتركَ الأعنابُ غيرَ مرجوع إليها؛ لأنه عُلِمَ أنها في حكم النخيل مما عُلِّقَ به من أكل ثمره، ويجوز أن يُرادَ: من ثمر المذكور وهو الجنات، كما قال رؤبةُ[٣]: [من: الرجز]

فيها خطوطٌ من بياض وبَلَقْ كأنه في الجلد تَوليعُ البَهَقْ

فقيل له، فقال: أردت كأن ذاك، ﴿وما عَمِلَتْ﴾: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ[٤]، وهي في مصاحفِ أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحفِ أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير، وقيل (ما): نافيةٌ؛

---

(١) ذكر الأصمعي أن قائله: شَمَّرُ بنُ عمر الحنفي، وروايته هكذا:

ولقد مررتُ على اللئيم يسبني فمضيت ثُمتَ قلتُ لا يعنيني

انظر «الأصمعيات» (ص ١٢٦).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٦).

(٣) انظر «ديوانه» (ص١٠٤).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٦) وكذا القراءة الآتية.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ ....

على أن الثمر خلقُ الله، ولم تعملْه أيدي الناس، ولا يقدِرون عليه، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: استبطاءٌ وحثٌّ على شكر النعمة.

«٣٦» ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من النخيل والشجر والزرع والثمر، ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: الأولادَ ذكوراً وإناثاً، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾: ومن أزواجٍ لم يُطلعهم الله عليها، ولا توصلوا إلى معرفتها، ففي الأودية والبحار أشياءُ لا يعلمها الناسُ.

«٣٧» ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾: نُخرجُ منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار، أو نَنْزِعُ عنه الضوء نزعَ القميص الأبيضِ فيَعرى نفس الزمان، كشخص زِنْجِيٍّ أسودَ؛ لأن أصل ما بين السماء والأرض من الهواء الظلمةُ، فاكتسى بعضُه ضوءَ الشمس، كبيت مظلمٍ أُسرج فيه، فإذا غاب السراجُ.. أظلم، ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾: داخلون في الظلام.

«٣٨» ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾: وآيةٌ لهم الشمسُ تجري ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾: لِحَدٍّ لها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فَلَكِها في آخر السنة، شُبِّه بمستقرِّ المسافر إذا قطع مسيرَه، أو: لِحَدٍّ لها من مسيرها كلَّ يوم في مَرائي عيوننا وهو المغرب، أو: لانتهاء أمرِها عند انقضاء الدنيا، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجرْيُ على ذلك التقدير والحساب الدقيق ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾: الغالبِ بقدرته على كل مقدور، ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ بكلِّ معلوم.

«٣٩» ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾: نصبٌ بفعل يفسره: ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ وبالرفع: مكيٌّ ونافعٌ وأبو عمرٍو وسهلٌ؛ على الابتداءِ، والخبرُ: (قدرناه) أو على: وآيةٌ لهم القمرُ، ﴿مَنَازِلَ﴾: وهي ثمانيةٌ وعشرون منزلاً، ينزل القمرُ كلَّ ليلة في واحد منها، لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، على تقديرٍ مستوٍ، يسير فيها من ليلة المستهَلِّ إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلةً إذا نقص الشهرُ، ولا بدَّ في (قدرناه منازل) من تقدير مضاف؛ لأنه لا معنى لتقديرِ نفس القمر منازلَ؛ أي: قدرنا نورَه فيزيدُ وينقصُ، أو قدرنا مسيره منازلَ، فيكون ظرفاً، فإذا كان في آخر منازله.. دقَّ واستقوسَ، ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾: هو عودُ الشِّمْراخِ إذا يَبِسَ واعْوجَّ[1]، ووزنُه: (فُعْلُونُ) من الانعراج، وهو

---

(١) الشِّمراخُ: عُود على النخلة يكون عليه البُسْرُ.

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ....

الانعطاف ﴿ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾: العتيقِ المُحْوِلِ[1]، وإذا قَدُمَ.. دقَّ وانحنى واصفرَّ، فشبه القمرُ به من ثلاثة أوجه.

«٤٠» ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ أي: لا يَتَسَهَّلُ لها ولا يصحُّ ولا يستقيمُ ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فتجتمعَ معه في وقت واحدٍ وتداخلَه في سلطانه فتطمسَ نورَه؛ لأن لكلٍّ واحد من النَّيِّرَين سلطاناً على حياله، فسُلطانُ الشمس بالنهار، وسلطانُ القمر بالليل، ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾: ولا يسبقُ الليلُ النهار؛ أي: آيةُ الليل آيةَ النهار، وهما النَّيِّران، ولا يزالُ الأمرُ على هذا الترتيب إلى أن تقوم القيامة، فيجمعُ الله بين الشمس والقمر، وتطلعُ الشمسُ من مغربِها، ﴿وَكُلٌّ﴾: التنوينُ فيه عِوض عن المضاف إليه؛ أي: وكلُّهم، والضميرُ للشموس والأقمار، ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾: يسيرون.

«٤١» ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ﴿ذُرياتِهم﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ[2]، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾: المملوءِ، والمرادُ بالذرية: الأولادُ ومَن يَهُمُّهم حملُه، وكانوا يبعثونهم إلى التجارات في بَرٍّ أو بَحْرٍ، أو: الآباءُ؛ لأنها من الأضداد، والفلكُ على هذا: سفينةُ نوحٍ عليه السلام، وقيل: معنى حمل الله ذرياتِهم فيها: أنه حمل آباءَهم الأقدمين، وفي أصلابِهم هم وذرياتُهم، وإنما ذَكَرَ ذرياتِهم دونَهم؛ لأنه أبلغ في الامتنان عليهم.

«٤٢» ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: من مثل الفلكِ ﴿مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ من الإبل، وهي سفائن البرِّ.

«٤٣» ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾: فلا مغيث أو فلا إغاثةَ، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾: لا ينجُون.

«٤٤» ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ولا يُنقَذون إلا لرحمة منا، ولتمتيعٍ بالحياة إلى انقضاء الأجل، فهما منصوبان على المفعول له.

---

(١) أي: مرَّ عليه حَوْلٌ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٦).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

«٤٥» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: ما تقدَّم من ذنوبكم وما تأخر مما أنتم تعملون من بعدُ، أو: مِن مثل الوقائعِ التي ابْتُلِيَتْ بها الأممُ المكذبةُ بأنبيائها، وما خلفهم من أمر الساعة، أو: فتنة الدنيا وعقوبة الآخرة، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾: لتكونوا على رجاء رحمة الله، وجوابُ (إذا) مضمرٌ؛ أي: أعرضوا، وجاز حذفه؛ لأن قوله:

«٤٦» ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يدلُّ عليه، و(مِن) الأولى: لتأكيد النفي، والثانية: للتبعيض؛ أي: ودأبُهم الإعراضُ عند كل آية وموعظة.

«٤٧» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: لمشركي مكةَ: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تصدقوا على الفقراء ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بمكة زَنادقةٌ، فإذا أُمِروا بالصدقة على المساكين.. قالوا: لا والله، أَيُفْقِرُه اللهُ ونُطعمُه نحن؟ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾: قولُ الله لهم، أو: حكايةُ قول المؤمنين لهم، أو: هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

«٤٨» ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وعدُ البعث والقيامة، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فيما تقولون، خطابٌ للنبي وأصحابِه.

«٤٩» ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: هي النفخة الأولى، ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخْصِمُونَ﴾: حمزةُ: بسكون الخاء وتخفيف الصاد؛ مِن: خَصَمَه: إذا غلبَه في الخصومة، وشدَّدَ الباقون الصادَ؛ أي: ﴿يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾: بإدغام التاء في الصاد؛ لكنه مع فتح الخاء: مكيٌّ، بنقل حركة التاء المدغمة إليها، وبسكون الخاء: مدنيٌّ، وبكسر الياء والخاء: يحيى، فأتبعَ الياءَ الخاءَ في الكسر، وبفتح الياء وكسر الخاء: غيرُهم[1]؛ والمعنى: تأخذُهم وبعضُهم يخصم بعضاً في معاملاتهم.

«٥٠» ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾: فلا يستطيعون أن يُوصُوا في شيء من أمورهم توصيةً، ﴿وَلَآ

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٢٦٦)، و«إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٦٨).

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ....

﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾: ولا يقدروا على الرجوع إلى منازلهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

《٥١》 ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾: هي النفخة الثانية، والصورُ: القَرن، أو جمعُ صورة، ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾: يَعدُون، بكسر السين وضمها[1].

《٥٢》 ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾: مَن أَنْشَرَنا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ أي: مَضجَعِنا، وقفٌ لازمٌ عن حفص[2]، وعن مجاهد: للكفار هجعةٌ يجدون فيها طعمَ النوم، فإذا صِيح بأهل القبور.. قالوا: مَن بعثنا، ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾: كلامُ الملائكة، أو المتقين، أو الكافرين، يتذكرون ما سمعوه من الرسل، فيجيبون به أنفسَهم، أو بعضُهم بعضاً، و(ما): مصدريةٌ، ومعناه: هذا وعدُ الرحمن وصدقُ المرسلين، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق، أو: موصولةٌ، وتقديرُه: هذا الذي وعده الرحمن، والذي صدقَه المرسلون؛ أي: والذي صدق فيه المرسلون.

《٥٣》 ﴿إِن كَانَتْ﴾ النفخةُ الأخيرةُ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ للحساب.

《٥٤》 ثم ذكر ما يقال لهم في ذلك اليوم: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

《٥٥》 ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾: بضمتين: كوفيٌّ وشاميٌّ، وبضمةٍ وسكونٍ: مكيٌّ ونافعٌ وأبو عمرو؛ والمعنى: في أيِّ شُغُلٍ، وفي شغل لا يوصفُ، وهو افتضاض الأبكار على شطِّ الأنهار تحت الأشجار، أو: ضربُ الأوتار، أو: ضيافةُ الجبار، ﴿فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾: خبرٌ ثان، ﴿فَكِهُون﴾: يزيدُ، والفاكهُ والفَكِهُ: المتنعم المتلذذُ، ومنه الفاكهة؛ لأنها مما يُتلذَّذُ به، وكذا الفُكاهةُ[3].

---

(١) ضمُّ السين شاذّةٌ. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٢٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٦) وكذا القراءتان الآتيتان.

(٣) الفُكاهةُ: المزاحُ.

هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ....

《٥٦》 ﴿هُمْ﴾: مبتدأٌ، ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾: عطفٌ عليه، ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: حالٌ جمعُ ظِلٍّ، وهو الموضع الذي لا تقع عليه الشمس، كذئبٍ وذئابٍ، أو: جمعُ ظُلَّةٍ كبُرْمة وبِرام؛ دليلُه: قراءةُ حمزةَ وعليٍّ: ﴿ظُلَلٍ﴾[1]: جمع ظُلَّةٍ، وهي: ما سترك عن الشمس، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمعُ الأريكة، وهي: السرير في الحَجَلة، أو: الفراشُ فيها[2]، ﴿مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾: خبرٌ، أو: (في ظلال): خبرٌ، و(على الأرائك): مستأنفٌ.

《٥٧》 ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (يفتعلون) من الدعاء؛ أي: كلُّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم، أو: يتمنون؛ من قولهم: ادَّعِ عليَّ ما شئت؛ أي: تمنَّه علي، عن الفراء: هو من الدعوى، ولا يدَّعون ما لا يستحقون.

《٥٨》 ﴿سَلَٰمٌ﴾: بدلٌ من (ما يدعون)، كأنه قال: لهم سلام يقالُ لهم ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ والمعنى: أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة؛ تعظيماً لهم، وذلك مُتمنّاهم، ولهم ذلك، لا يُمنعونَه، قال ابن عباس: والملائكةُ يَدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين.

《٥٩》 ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾: وانفرِدُوا عن المؤمنين، وكونوا على حِدَةٍ، وذلك حين يُحشر المؤمنون، ويُسارُ بهم إلى الجنة، وعن الضحاك: لكلِّ كافرٍ بيتٌ من النار يكون فيه، لا يَرى ولا يُرى أبداً، ويقول لهم يوم القيامة:

《٦٠》 ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ العهدُ: الوصيةُ، وعَهِدَ إليه: إذا وصّاه، وعهدُ الله إليهم: ما رَكزه فيهم من أدلة العقل، وأنزل عليهم من دلائلِ السمعِ، وعبادةُ الشيطان طاعتُه فيما يُوسوِس به إليهم ويزينُه لهم.

《٦١》 ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾: وَحّدوني وأطيعوني، ﴿هَٰذَا﴾: إشارةٌ إلى ما عَهِدَ إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن، ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي: صراطٌ بليغ في استقامته، ولا صراطَ أقومُ منه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٦).

(٢) الحَجَلةُ: بيتٌ يزين بالثياب والسُّتور.

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ....

«٦٢» ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾: بكسر الجيم والباء والتشديدِ: مدنيٌّ وعاصمٌ وسهلٌ، ﴿جُبُلًّا﴾: بضم الجيم والباء والتشديد: يعقوبُ[١]، ﴿جُبْلاً﴾: مخففاً: شاميٌّ وأبو عمرٍو، و﴿جُبُلاً﴾: بضم الجيم والباءِ وتخفيف اللام: غيرُهم، وهذه لغاتٌ في معنى الخلق، ﴿كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ استفهامُ تقريعٍ على تركهم الانتفاعَ بالعقل.

«٦٣» ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بها.

«٦٤» ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾: ادخلُوها بكفركم وإنكاركم لها.

«٦٥» ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: نمنعُهم من الكلام، ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يُروَى: أنهم يَجحدون ويخاصِمون، فتشهدُ عليهم جيرانُهم وأهاليْهم وعشائرُهم، فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختمُ على أفواههم، وتكلِّمُ أيديهم وأرجلُهم، وفي الحديث: «يقول العبدُ يوم القيامة: إني لا أجيزُ عليَّ شاهداً إلا مِن نفسي، فيُختمُ على فِيه، ويُقال لأركانه: انْطِقي، فتنطِق بأعماله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وسحقاً؛ فعنكنَّ كنتُ أُناضل»[٢].

«٦٦» ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾: لأعميناهم وأذهبنا أبصارَهم، والطمسُ: تَعْفيَةُ شِقِّ العين حتى تعود ممسوحةً، ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ على حذف الجار وإيصال الفعل، والأصلُ: فاستبقوا إلى الصراط، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾: فكيف يبصرون حينئذ وقد طمسنا أعينهم؟

«٦٧» ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾: قردةً أو خنازيرَ أو حجارةً ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ ﴿على مكاناتهم﴾: أبو بكرٍ وحمادٌ[٣]، والمكانةُ والمكانُ واحدٌ، كالمُقامة والمُقام؛ أي: لمسخناهم في منازلهم حيث يجترحون المآثم، ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾: فلم يقدروا على ذهابٍ ولا مجيءٍ، أو: (مُضياً): أمامهم، (ولا يرجعون): خلفَهم.

---

(١) روح عن يعقوب. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٧) وكذا القراءة الآتية.

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٧) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ ....

《٦٨》 ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ﴾: عاصمٌ وحمزةُ، والتنكيسُ: جعل الشيء أعلاه أسفلَه، الباقون: ﴿نَنْكُسْه﴾ ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: نقلبُه فيه؛ بمعنى: مَن أطلْنا عمرَه.. نكسنا خلقَه فصار بدلَ القوةَ ضعفاً، وبدلَ الشباب هَرَماً، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده، وخُلُوٍّ من عقلٍ وعلمٍ، ثم جعلناه يتزايدُ إلى أن يبلغ أشدَّه، ويستكملَ قوتَه، ويعقِلَ ويعلمَ ما له وما عليه، فإذا انتهى.. نكسناه في الخلق، فجعلناه يتناقصُ حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبيِّ في ضعف جسده، وقلة عقله، وخلوِّه من العلم، كما يُنْكَسُ السهمُ فيجعل أعلاه أسفلَه، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠]، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أن مَن قدر على أن ينقلَهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوة إلى الضعف، ومن رَجاحة العقل إلى الخَرَفِ وقلةِ التمييزِ.. قادر على أن يطمسَ على أعينهم ويمسَخَهم على مكانتهم، ويبعثَهم بعد الموت؟ وبالتاء: مدنيٌّ ويعقوبُ وسهلٌ.

《٦٩》 وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعرٌ، فنزل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ أي: وما علمنا النبيَّ عليه السلام قولَ الشعراء، أو: وما علمناه بتعليم القرآن الشعرَ؛ على معنى أن القرآن ليس بشعر، فهو كلام موزون مقفّىً، يدلُّ على معنىً، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ فلا مناسبةَ بينه وبين الشعر إذا حَقَّقْتَه، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾: وما يصحُّ له ولا يليق بحاله، ولا يُتطلَّبُ لو طلبَه؛ أي: جعلناه بحيث لو أراد قرضَ الشعر.. لم يتأتَّ له، ولم يَتَسَهَّلْ، كما جعلناه أمياً لا يهتدي للخطِّ لتكون الحجة أثبتَ، والشبهةُ أدحضَ، وأما قولُه: «أنا النبيُّ لا كذبْ، أنا ابنُ عبد المطلب»[1] وقولُه: «هل أنتِ إلا أصبعٌ دَمِيْتِ، وفي سبيل الله ما لَقِيْتِ»[2] فما هو إلا من جنسِ كلامِه الذي كان يَرمِي به على السليقة من غير صنعةٍ فيه ولا تكلفٍ، إلا أنه اتفقَ من غير قصدٍ إلى ذلك، ولا التفاتٍ منه.. أن جاء موزوناً، كما يتفق في خطب الناس ورسائلِهم ومحاوراتِهم أشياءُ موزونةٌ، ولا يسميها أحدٌ شعراً؛ لأن صاحبه لم يقصدِ الوزن، ولا بدَّ منه، على أنه عليه السلام قال: (لقيت) بالسكون، وفتحِ الباءِ في (كذب)، وخفضِ الباء في (المطلب)، ولما نفَى أن يكون القرآنُ من جنس الشعر.. قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: المعلَّمُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ أي: ما

---

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) عن سيدنا البراءِ بن عازبٍ رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦) عن سيدنا جُندبِ بنِ سفيان رضي الله عنه.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ . . . .﴾

هو إلا ذكر من الله يوعظ به الإنس والجن، وما هو إلا قرآنٌ: كتابٌ سماويٌّ يقرأ في المحاريب، ويتلى في المتعبدّات، ويُنال بتلاوته والعمل به فوزُ الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين؟

«٧٠» ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآنُ أو الرسولُ؛ ﴿لتنذر﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وسهلٌ ويعقوبُ[1]، ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾: عاقلاً متأملاً؛ لأن الغافل كالميت، أو: حيّاً بالقلب، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾: وتجبَ كلمةُ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ الذين لا يتأملون، وهم في حكم الأموات.

«٧١» ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ أي: مما تولَّينا نحن إحداثَه ولم يَقدر على تولِّيه غيرُنا، ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملَّكناها إياهم، فهم متصرفون فيها تصرفَ المُلّاك، مختصون بالانتفاع بها، أو: فهم لها ضابطون قاهرون.

«٧٢» ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾: وصيَّرناها منقادةً لهم، وإلا.. فمن كان يقدرُ عليها لولا تذليلُه تعالى وتسخيرُه لها؟ ولهذا ألزم الله سبحانه الراكبَ أن يشكرَ هذه النعمة، ويسبحَ بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾: وهو ما يُركب، ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: سخرناها لهم؛ ليركبوا ظهرَها ويأكلوا لحمَها.

«٧٣» ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من الجلود والأوبار وغيرِ ذلك، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللبن، وهو جمع مَشْرَبٍ، وهو موضعُ الشُّربِ، أو الشُّربُ[2]، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ الله على إنعامِ الأنعام؟

«٧٤» ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: لعل أصنامَهم تنصرُهم إذا حَزَبهم أمرٌ.

«٧٥» ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: آلهتُهم ﴿نَصْرَهُمْ﴾: نصرَ عابديْهم، ﴿وَهُمْ لَهُمْ﴾ أي: الكفارُ للأصنام ﴿جُندٌ﴾: أعوانٌ وشيعةٌ ﴿مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يخدمونهم ويذبُّون عنهم، أو: اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم، والأمرُ على خلاف ما توهموا؛ حيث هم يوم القيامة جندٌ معدُّون لهم، محضرون لعذابهم، لأنهم يُجعَلون وقودَ النار.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٧).

(٢) أي: اسمُ مكان، أو مصدر.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ ....

《٧٦》 ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وبضم الياء وكسر الزاي: نافعٌ؛ مِن: حَزَنَه وأَحْزَنَه؛ يعني: فلا يُهِمَّكَ تكذيبُهم وأذاهم وجفاؤُهم، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من عداوتِهم، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾ وإنا مُجازوهم عليه، فَحَقُّ مثلِكَ أن يتسلى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورةَ حالِه وحالِهم في الآخرة، حتى ينقشعَ عنه الهمُّ ولا يرهقَه الحزنُ، ومن زعم أن مَن قرأ: (إنا نعلم) بالفتح فسدت صلاتُه، وإن اعتقد معناه؛ كفر.. فقد أخطأ؛ لأنه يمكن حملُه على حذف لام التعليل، وهو كثير في القرآن والشعر وفي كل كلام، وعليه تلبية رسول الله ﷺ: «أن الحمد والنعمة لك»[1] كسر أبو حنيفة وفتح الشافعيُّ رحمة الله عليهما[2]، وكلاهما تعليل.

فإن قلت: إن كان المفتوح بدلاً من (قولُهم)، كأنه قيل: فلا يحزنْك أنا نعلم ما يُسرُّون وما يعلنون.. ففسادُه ظاهر.. **قلت**: هذا المعنى قائمٌ مع المكسورة إذا جعلتَها مفعولةً للقول، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً وعدمَ تعلقِه لا يدوران على كسرِ إنَّ وفتحِها، وإنما يدوران على تقديرك، فَتَنْفَصِلُ إن فتحت بأن تقدرَ معنى التعليل، ولا تقدرَ معنى البدل، كما أنك تَنفَصِلُ بتقديرِ معنى التعليل إذا كسرتَ ولا تقدر معنى المفعولية[3]، ثم إن قدرتَه كاسراً أو فاتحاً على ما عظَّمَ فيه الخطبَ ذلك القائلُ.. فما فيه إلا نهيُ رسول الله ﷺ عن الحزنِ على علمِه تعالى بِسِرِّهم وعلانيتِهم، والنهيُ عن حزنه ليس إثباتاً لحزنه بذلك، كما في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

《٧٧》 ونزل في أبي بن خلف حين أخذ عظماً بالياً وجعل يفتُّه بيده ويقول: يا محمدُ أترى اللهَ يحيي هذا بعد ما رَمَّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، ويبعثُك ويدخلُك جهنم»[4]: ﴿أَوَلَمْ

---

(١) رواه البخاري (١٥٤٩) ومسلم (١١٨٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» (٨/٨٨): يُروَى بكسر الهمزة من (إنَّ) وفتحِها، وجهان مشهوران لأهل الحديث وأهل اللغة، قال الجمهور: الكسرُ أجودُ. وقال السرخسي في «المبسوط» (٤/٥): المختار عندنا الكسرُ، وهو المروي عن محمدٍ رحمه الله تعالى.

(٣) تنفصل: تتخلص من الإشكال.

(٤) روى الحاكم في «المستدرك» (٢/٤٣٠) عن سيدنا بن عباس رضي الله عنهما قال: (جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائلٍ ففتَّه فقال: يا محمد أيبعث الله هذا بعد ما أرمَّ؟ قال: «نعم، يبعث الله هذا، يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم» قال: فنزلت الآيات).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾: مَذِرةٍ خارجةٍ من الإحليل الذي هو قناة النجاسة، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾: بَيِّنُ الخصومة؛ أي: فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله يتصدَّى لمخاصمة ربِّه، وينكر قدرتَه على إحياء الميت بعد ما رمَّتْ عظامُه، ثم يكون خصامُه في ألزمِ وصفٍ له وألصقِه به، وهو كونه مُنشأً من مواتٍ، وهو ينكر إنشاءَه من موات، وهو غاية المكابرة.

«٧٨» ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ بفتِّه العظمَ ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ من المنيِّ، فهو أغرب من إحياء العظم، المصدرُ مضافٌ إلى المفعول؛ أي: خَلْقَنا إياه، ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ هو: اسمٌ لما بَلِيَ من العظام غيرُ صفة، كالرُّمَّةِ والرُّفات، ولهذا لم يؤنثْ، وقد وقع خبراً لمؤنث، ومن يثبتِ الحياةَ في العظام ويقول: إن عظام الميتة نجسة؛ لأن الموت يؤثر فيها من قِبَلِ أن الحياة تَحُلُّها. يتشبثُ بهذه الآية[1]، وهي عندنا طاهرةٌ، وكذا الشعرُ والعصبُ؛ لأن الحياة لا تَحُلُّها، فلا يؤثر فيها الموتُ[2]، والمراد بإحياء العظام في الآية ردُّها إلى ما كانت عليه غَضَّةً رطبةً في بدن حيٍّ حساسٍ.

«٧٩» ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾: خلقها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتداءً، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾: مخلوقٍ ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ لا تخفى عليه أجزاؤه وإن تفرقت في البرِّ والبحر، فيجمعُه ويعيدُه كما كان.

«٨٠» ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾: تقدحُون، ثم ذكر من بدائعِ خلقِه انقداحَ النار من الشجر الأخضر، مع مضادة النارِ الماءَ وانطفائِها به، وهي الزِّناد التي تُورِي بها الأعراب، وأكثرُها من المَرْخِ والعَفارِ، وفي أمثالهم: (وفي كل شجر نارٌ، واستمجد المرخُ والعَفارُ)[3]، يَقطعُ الرجل منهما غُصنين مثلَ السِّواكين وهما خَضراوان يقطرُ منهما الماء، فيسحقُ المرخَ وهو ذكرٌ على العَفار وهي أنثى، فتنقدحُ النار بإذن الله، وعن ابن

---

(١) عند الشافعية كل أجزاء الميتة نجسة إلا الآدمي. انظر «نهاية المحتاج» (١/ ٢٣٨).

(٢) انظر «بدائع الصنائع» (٥/ ١٤٢).

(٣) يُضرب مثلاً في تفضيل الرجال بعضهم على بعض؛ أي: لكل واحد من هؤلاء فضلٌ إلا أن فلاناً أفضل، يقال: أمجدت الدابة عَلَفاً: إذا أكثرت منه، والمرخ والعَفار: شجرتان تَكثُر نارُهما، فمعنى: استمجدا: عَظُمَتْ نارُهما. انظر «جمهرة الأمثال» (٢/ ٩٢).

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار، إلا العُنّابَ؛ لمصلحة الدقّ للثياب، فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر.. قدرَ على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر، وإجراءُ أحد الضدين على الآخر بالتعقيب.. أسهلُ في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب، والأخضرُ على اللفظ، وقرئ: ﴿الخضراء﴾[1] على المعنى، ثم بَيَّنَ أن مَن قدر على خلق السموات والأرض مع عظمِ شأنِهما.. فهو على خلق الأناسيّ أقدرُ بقوله:

《٨١》 ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصغر بالإضافة إلى السموات والأرض، أو: أن يُعِيْدَهم؛ لأن المَعاد مثلٌ للمبتدأ وليس به، ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قلْ: بلى، هو قادرٌ على ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾: الكثيرُ المخلوقات، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾: الكثيرُ المعلومات.

《٨٢》 ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾: شأنه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾: أن يُكَوِّنه ﴿فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾: فيحدثُ؛ أي: فهو كائن موجود لا محالَةَ، فالحاصلُ: أن المكوّناتِ بتخليقه وتكوينِه، ولكن عبَّرَ عن إيجادِه بقوله: (كن) من غير أن كان منه كافٌ ونونٌ، وإنما هو بيان لسرعةِ الإيجادِ، كأنه يقول: كما لا يثقلُ قولُ: كنْ عليكم، فكذا لا يثقلُ على الله ابتداءُ الخلق وإعادتُهم، ﴿فيكونَ﴾: شاميٌّ وعليٌّ[2]، عطفٌ على (يقولَ)، وأما الرفع.. فلأنها جملةٌ من مبتدأ وخبر؛ لأن تقديرها: فهو يكونُ، معطوفةٌ على مثلها، وهي: أمرُه أن يقول له: كن.

《٨٣》 ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾: تنزيهٌ مما وصفه به المشركون، وتعجيبٌ من أن يقولوا فيه ما قالوا، ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: ملكُ كلِّ شيءٍ، وزيادةُ الواو والتاء للمبالغة؛ يعني: هو مالك كل شيء، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾: تُعادون بعد الموت بلا فوتٍ، ﴿ترجعون﴾: يعقوبُ، قال عليه الصلاة والسلام: «إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس، من قرأ يس يريدُ بها وجه الله.. غفر الله له، وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة»[3]، وقال عليه السلام: «من

---

(١) انظر «الكشاف» (٤/ ٣٣).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٧).

(٣) رواه «الترمذي» (٢٨٨٧) بنحوه عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

....

قرأ يس أمام حاجته.. قُضيت له»[1]، وقال عليه السلام: «من قرأها؛ إن كان جائعاً.. أشبعه الله، وإن كان ظمآن.. أرواه الله، وإن كان عُرياناً.. ألبسه الله، وإن كان خائفاً.. أمَّنَه الله، وإن كان مستوحشاً.. آنسه الله، وإن كان فقيراً.. أغناه الله، وإن كان في السجن.. أخرجه الله، وإن كان أسيراً.. خلَّصه الله، وإن كان ضالّاً.. هداه الله، وإن كان مديوناً.. قضى الله دينَه من خزائنه»[2]، وتُدعَى الدافعةَ والقاضيةَ، تدفع عنه كلَّ سوء، وتقضِي له كلَّ حاجة.



---

(١) رواه المستغفري في «فضائل القرآن» (٢/ ٥٩٣).

(٢) لم أجده.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ ....

سورة الصافات

مكيةٌ، وهي مئةٌ وإحدى أو اثنتان وثمانون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٣》 ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ أقسم سبحانَه وتعالى بطوائفِ الملائكة، أو: بنفوسهم الصافاتِ أقدامَها في الصلاة، فالزاجراتِ السحابَ سَوقاً، أو: عن المعاصي بالإلهام، فالتالياتِ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرِها، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ ومجاهدٍ، أو: بنفوسِ العلماء العمّال الصافاتِ أقدامَها في التهجد وسائرِ الصلوات، فالزاجراتِ بالمواعظ والنصائح، فالتالياتِ آياتِ الله والدارساتِ شرائعَه، أو: بنفوس الغزاة في سبيل الله التي تَصُفُّ الصفوفَ، وتزجُرُ الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك، و(صفّاً): مصدر مؤكِّد، وكذلك (زجراً)، والفاءُ تدلُّ على ترتيب الصفات في التفاضل، فتفيد الفضلَ للصف، ثم للزجر، ثم للتلاوة، أو: على العكس، وجوابُ القسم:

《٤》 ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ قيل: هو جوابُ قولِهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥].

《٥》 ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خبرٌ بعد خبر، أو: خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: هو ربُّ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾ أي: مطالعِ الشمسِ، وهي ثلاثُ مئةٍ وستون مَشرِقاً، وكذلك المغاربُ، تُشرق كل يوم في مشرق منها، وتَغرُب في مغرب، ولا تطلُعُ ولا تغرُب في واحدٍ يومين، وأما ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] فإنه أراد مَشرِقَي الصيف والشتاء ومغربَيْهما، وأما ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] فإنه أراد به الجهة، فالمشرقُ جهةٌ، والمغربُ جهةٌ.

《٦》 ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾: القربى منكم، تأنيثُ الأدنى، ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾: حفصٌ وحمزةُ؛ على البدل من الزينة؛ والمعنى: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكبِ، ﴿بزينةٍ الكواكبَ﴾: أبو بكرٍ؛ على البدل من محلِّ (بزينة)، أو على إضمار: أعني، أو على إعمال المصدر منوناً في المفعول، ﴿بزينةِ الكواكبِ﴾: غيرُهم[1]؛ بإضافة المصدر إلى الفاعل؛ أي: بأن زانَتْها

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٨) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ ....

الكواكبُ، وأصلُه: بزينةٍ الكواكبُ، أو: على إضافته إلى المفعول؛ أي: بأن زان اللهُ الكواكبَ وحسَّنها؛ لأنها إنما زَيَّنتِ السماء لحسنِها في أنفسِها، وأصلُه: بزينةٍ الكواكبَ؛ لقراءة أبي بكر.

《٧》 ﴿وَحِفْظًا﴾: محمولٌ على المعنى؛ لأن المعنى: إنا خلقنا الكواكب زينةً للسماء وحفظاً من الشياطين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، أو الفعلُ المعلَّلُ مقدَّرٌ، كأنه قيل: وحفظاً من كل شيطان زيناها بالكواكب، أو: معناه: حفظناها حفظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾: خارجٍ من الطاعة.

《٨》 والضميرُ في ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾: لكلِّ شيطانٍ؛ لأنه في معنى الشياطين، ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكر[1]، وأصلُه: يتسمعون، والتسمُّعُ: تَطَلُّبُ السماع، يقال: تَسَمَّعَ فسمع، أو: فلم يسمع، وينبغي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأً؛ اقتصاصاً لما عليه حال المُسْتَرِقَةِ للسمع، وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة، أو يتسمَّعوا، وقيل: أصلُه: لئلا يسمعُوا، فحذفت اللامُ كما حذفت في: جئتك أن تكرمني، فبقي: أنْ لا يسمعوا، فحذفت: أن، وأُهْدِرَ عملُها، كما في قوله[2]: [من: الطويل]

ألا أيـهـذا الـزاجـري أحـضـرُ الـوغَـى ....

وفيه تعسفٌ يجب صونُ القرآن عن مثله، فإن كل واحد من الحذفين غيرُ مردود على انفرادِه، ولكن اجتماعَهما منكرٌ. والفرقُ بين سمعت فلاناً يتحدث، وسمعت إليه يتحدث، وسمعت حديثه، وإلى حديثه: أن المعدَّى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدَّى بـ: إلى يفيد الإصغاء مع الإدراك، ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الملائكة؛ لأنهم يسكنون السموات، والإنسُ والجنُّ هم الملأ الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض، ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾: يُرمَون بالشهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾: من جميع جوانب السماء من أيِّ جهةٍ صعدُوا للاستراق.

《٩》 ﴿دُحُورًا﴾: مفعولٌ له؛ أي: ويُقذفون للدحور، وهو: الطرد، أو: مدحورين على الحال، أو: لأن القذف والطرد متقاربان في المعنى، فكأنه قيل: يُدحرون أو: قذفاً، ﴿وَلَهُمْ

---

(١) والباقون: ﴿يَسْمَعُونَ﴾.

(٢) صدر بيت لطرفة بن العبد في «ديوانه» (ص٢٥)، وعجزه:

وأن أشـهـد الـلـذاتِ هـل أنـت مُـخـلـدي

إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ....

﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾: دائمٌ من الوصوب؛ أي: أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب وقد أُعِدَّ لهم في الآخرة نوعٌ من العذاب دائمٌ غيرُ منقطع.

《١٠》 و(مَن) في ﴿إِلَّا مَنْ﴾: في محلِّ الرفع، بدل من الواو في (لا يسمعون) أي: لا يسمعُ الشياطين إلا الشيطانُ الذي ﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي: سَلَبَ السلبةَ؛ يعني: أخذ شيئاً من كلامهم بسرعة، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾: لَحِقَه ﴿شِهَابٌ﴾ أي: نجمُ رجمٍ ﴿ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾: مضيءٌ.

《١١》 ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾: فاستخبرْ كفار مكةَ ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أقوى خلقاً؛ من قولهم: شديدُ الخلق، وفي خلقه شدةٌ، أو: أصعب خلقاً وأشقُّه؛ على معنى الردِّ لإنكارهم البعثَ، وأنَّ مَن هان عليه خلقُ هذه الخلائق العظيمة، ولم يصعب عليه اختراعُها.. كان خلقُ البشر عليه أهون، ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يريدُ ما ذُكر من خلائقه من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما، وجيء بـ (مَن) تغليباً للعقلاء على غيرهم، ويدلُّ عليه قراءةُ من قرأ: (أم من عددنا) بالتشديد والتخفيف[1]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾: لاصقٍ، أو لازمٍ، وقرئَ به[2]، وهذا شهادة عليهم بالضعف؛ لأن ما يصنعُ من الطين غيرُ موصوف بالصلابة والقوة، أو: احتجاجٌ عليهم بأن الطين اللازب الذي خُلقوا منه ترابٌ، فمن أين استنكروا أن يُخلقوا من تراب مثلِه؛ حيث قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ [الرعد: ٥]، وهذا المعنى يعضُدُه ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعثَ.

《١٢》 ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من تكذيبهم إياك، ﴿وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ هم منك ومن تعجبِك، أو: عجبتَ من إنكارهم البعثَ، وهم يسخرون من أمر البعث، ﴿بلْ عجبْتُ﴾: حمزةُ وعليٌّ[3]؛ أي: استعظمتُ، والعجبُ: روعةٌ تعتري الإنسان عند استعظام الشيء، فَجُرِّدَ لمعنى الاستعظام في حقه تعالى؛ لأنه لا يجوز عليه الروعةُ، أو: معناه: قلْ يا محمدُ: بل عجبتُ.

《١٣》 ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾: ودأبُهم: أنهم إذا وُعِظُوا بشيء.. لا يتعظون به.

《١٤》 ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾: معجزةً كانشقاق القمر ونحوِه ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾: يستدعي بعضُهم بعضاً أن يسخر منها، أو: يبالغون في السخرية.

---

(١) انظر «الكشاف» (٤/ ٤٠).

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٨) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ ....

《١٥》 ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ﴾: ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾: ظاهرٌ.

《١٦》 ﴿أَءِذَا﴾: استفهامُ إنكارٍ ﴿مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: أنبعثُ إذا كنا تراباً وعظاماً.

《١٧》 ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾: معطوفٌ على محلِّ (إنَّ) واسمها، أو على الضمير في ﴿مبعوثون﴾ والمعنى: أَيُبعث أيضاً آباؤُنا؛ على زيادة الاستبعاد؛ يعنون: أنهم أقدمُ، فبعثُهم أبعدُ وأَبْطَلُ، ﴿أَوْ آباؤُنا﴾: بسكون الواو: مدنيٌّ وشاميٌّ[1]؛ أي: أَيبعثُ واحدٌ منا؟ على المبالغة في الإنكار. ﴿ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾: الأقدمون.

《١٨》 ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون، ﴿نَعِمْ﴾: عليٌّ، وهما لغتان، ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾: صاغرون.

《١٩》 ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾: جوابُ شرط مقدرٍ، تقديرُه: إذا كان كذلك.. فما هي إلا ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ و(هي): لا ترجع إلى شيء[2]، إنما هي مبهمةٌ موضِّحُها خبرُها، ويجوز: فإنما البعثةُ زجرةٌ واحدةٌ، وهي النفخة الثانية، والزجرةُ: الصيحةُ؛ من قولك: زَجَرَ الراعي الإبلَ، أو الغنمَ إذا صاح عليهم، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياءٌ بُصَراءُ ﴿يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ إلى سوء أعمالهم، أو: ينتظرون ما يَحُلُّ بهم.

《٢٠》 ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا﴾ الويلُ: كلمةٌ يقولها القائلُ وقتَ الهَلَكَةِ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: اليومُ الذي نُدانُ فيه؛ أي: نُجازَى بأعمالنا.

《٢١》 ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾: يومُ القضاء والفرقِ بين فِرَقِ الهدى والضلال، ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ ثم يحتملُ أن يكون ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱحْشُرُواْ﴾ مِن كلام الكفرة بعضِهم مع بعضٍ، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ من كلام الكفرةِ، و(هذا يوم الفصل) من كلام الملائكة جواباً لهم.

---

(١) قالون وأبو جعفر وابن عامر: بإسكان الواو.

(٢) أي: لا ترجع إلى شيء قبلها، ولكنها تعود على ما بعدها، وهي (زجرة)، وهذا الضمير لا يعود إلا على متأخر لفظاً ورتبة، ونحوه قولهم: هي العربُ تقول ما شاءت. انظر «حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك» (١/ ١٦١).

﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ....﴾

《٢٢》 ﴿ٱحْشُرُوا۟﴾: خطابُ الله للملائكة ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: كفروا، ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: وأشباهَهم وقرناءَهم من الشياطين، أو: نساءَهم الكافراتِ، والواو بمعنى: مع، وقيل: للعطف، وقرئ: بالرفع؛ عطفاً على الضمير في (ظلموا)، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

《٢٣》 ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأصنامَ، ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾: دُلُّوهم، عن الأصمعي: هَدَيْتُه في الدين هُدىً، وفي الطريق هدايةً، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾: طريق النار.

《٢٤》 ﴿وَقِفُوهُمْ﴾: احبسُوهم، ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ عن أقوالهم وأفعالهم.

《٢٥》 ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا ينصرُ بعضُكم بعضاً، وهذا توبيخٌ لهم بالعجز عن التناصر، بعد ما كانوا متناصرين في الدنيا، وقيل: هو جوابٌ لأبي جهل حيث قال يوم بدر: نحن جميعٌ منتصر، وهو في موضع النصب على الحال؛ أي: ما لكم غيرَ متناصرين؟

《٢٦》 ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾: منقادون، أو: قد أسلمَ بعضُهم بعضاً وخذلَه عن عجز، فكلُّهم مستسلمٌ غيرُ منتصر.

《٢٧》 ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: التابعُ على المتبوع ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾: يتخاصمون.

《٢٨》 ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: الأتباع للمتبوعين: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾: عن القوة والقهر؛ إذ اليمين موصوفةٌ بالقوة، وبها يقع البطش؛ أي: أنكم تحملوننا على الضلال، وتَقْسِروننا عليه.

《٢٩》 ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الرؤساء: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر غيرَ مُلجَئين.

《٣٠》 ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾: تسلُّطٍ نَسلُبكم به تمكنَكم واختيارَكم، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾: بل كنتم قوماً مختارين الطغيان.

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ....

《٣١》 ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾: فلزِمَنا جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ يعني: وعيدَ الله بأنا ذائقون لعذابه لا محالةَ؛ لعلمه بحالنا، ولو حَكَى الوعيد كما هو.. لقال: إنكم لذائقون، ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم؛ لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم، ونحوُه قولُه[1]: [من: الوافر]

لـقـد زعـمـت هـوازنُ قـلَّ مـالـي ....

ولو حكى قولَها.. لقال: قلَّ مالُك.

《٣٢》 ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾: فدعوناكم إلى الغيِّ، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فأردنا إغواءَكم لتكونوا أمثالَنا.

《٣٣》 ﴿فَإِنَّهُمْ﴾: فإن الأتباع والمتبوعين جميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم القيامة ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ كما كانوا مشتركين في الغَواية.

《٣٤》 ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: بالمشركين، إنا مثلَ ذلك الفعلِ نفعلُ بكل مجرم.

《٣٥》 ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: إنهم كانوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد.. استكبروا وأبوا إلا الشرك.

《٣٦》 ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا﴾: بهمزتين: شاميٌّ وكوفيٌّ[2]، ﴿لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ يعنون محمداً عليه السلام.

《٣٧》 ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾: ردٌّ على المشركين، ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ كقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣].

《٣٨ - ٣٩》 ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بلا زيادة.

---

(١) ورد البيت في «الحماسة البصرية» (ص٨١١) غير منسوب لقائل هكذا:

تـسـائـلـنـي هـوازنُ أيـن مـالـي وهـل لـي غـيـرَ مـا أنـفـقـتُ مـالُ؟

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٩) وكذا القراءة الآتية.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ ....

«٤٠» ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾: بفتح اللام: كوفيٌّ ومدنيٌّ، وكذا ما بعده[١]؛ أي: لكن عبادُ الله؛ على الاستثناء المنقطع.

«٤١ - ٤٢» ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ﴾: فسر الرزق المعلوم بالفواكه، وهي كل ما يُتَلَذَّذُ به ولا يُتَقَوَّتُ لحفظ الصحة؛ يعني: أن رزقهم كلَّه فواكه؛ لأنهم مستغنُون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسادهم محكمةٌ مخلوقة للأبد، فما يأكلونه للتلذذ، ويجوز أن يراد رزقٌ معلومٌ منعوت بخصائصَ خُلق عليها؛ من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر، وقيل: معلومُ الوقت، كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، والنفسُ إليه أسكنُ، ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢﴾: معظَّمون.

«٤٣» ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣﴾: يجوز أن يكون ظرفاً، وأن يكون حالاً، وأن يكون خبراً بعد خبر، وكذا:

«٤٤» ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤﴾ التقابلُ أتمُّ للسرور وآنَس.

«٤٥» ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ﴾: بغير همزٍ: أبو عمرٍو، وحمزةُ في الوقف، وغيرُهما: بالهمزة[٢]، يقال للزجاجة فيها الخمر: كأسٌ، وتسمَّى الخمرُ نفسُها كأساً، وعن الأخفش: كل كأس في القرآن فهي الخمر، وكذا في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥﴾: من شراب معين، أو: من نهر معين، وهو الجاري على وجه الأرض، الظاهر للعيون، وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجري في الجنة في أنهارٍ كما يجري الماء، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

«٤٦» ﴿بَيْضَآءَ﴾: صفةٌ للكأس، ﴿لَذَّةٍ﴾: وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينُها، أو: ذاتُ لذة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦﴾.

«٤٧» ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تَغتال عقولَهم كخمور الدنيا، وهو من غالَه يغولُه غَولاً: إذا أهلكَه وأفسدَه، ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾: يَسكرون؛ من نَزفَ الشاربُ: إذا ذهب عقلُه،

---

(١) أي: كلمة (المخلصين) الآتية، وقد تكررت مراتٍ في هذه السورة.

(٢) السوسي عن أبي عمرو وصلاً ووقفاً، وحمزة وقفاً. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٧).

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ....

ويقال للسكران: نزيفٌ ومنزوفٌ، ﴿يُنزِفون﴾: عليٌّ وحمزةُ[1]؛ أي: لا يَسكَرون، أو: لا يَنْفَدُ شرابُهم؛ مِن: أَنزف الشاربُ: إذا ذهب عقلُه أو شرابُه.

《٤٨》 ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرْن أبصارَهن على أزواجهن، لا يَمْدُدْن طَرْفاً إلى غيرهم، ﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾: جمعُ عَيناء؛ أي: نجلاءُ واسعةُ العَين.

《٤٩》 ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾: مصونٌ، شَبَّهَهُنَّ ببيض النعام المكنون في الصفاء، وبها تُشبِّهُ العرب النساء، وتُسميهن بَيضاتِ الخدور.

《٥٠》 وعُطف ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ يعني: أهلَ الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾: على ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ والمعنى: يشربون ويتحادثون على الشراب، كعادة الشَّرْبِ[2]، قال[3]: [من الوافر]

وما بقيتْ من اللذات إلا ... أحاديثُ الكرام على المُدام

فيقبل بعضُهم على بعض يتساءلون عما جرى عليهم في الدنيا، إلا أنه جيء به ماضياً على ما عرف في أخباره تعالى[4].

《٥١ - ٥٢》 ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ﴾: بهمزتين: شاميٌّ وكوفيٌّ[5]، ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ بيوم الدين.

《٥٣》 ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾: لمجزيون؛ من الدِّين، وهو الجزاء.

《٥٤》 ﴿قَالَ﴾ ذلك القائلُ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرينَ، قيل: إن في الجنة كُوىً ينظر أهلُها منها إلى أهل النار، أو: قال الله تعالى لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون إلى النار فتعلموا أين منزلتُكم من منزلة أهل النار.

《٥٥》 ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ المسلمُ ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي: قرينَه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: في وَسَطِها.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٢٦٩).

(٢) الشَّرْبُ: جمع شارب.

(٣) البيت لعبدِ الله بن عَمْرو الْفَيَّاض، كما في «يتيمة الدهر» (١/ ١٣٢)، وروايتُه: (محادثة الْكِرَام).

(٤) أي: جاء بلفظ الماضي لتحقق وقوعه.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٦٩) وكذا القراءة الآتية.

قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ....

«٥٦» ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ (إن): مخففة من الثقيلة، وهي تدخل على كاد، كما تدخل على كان، واللامُ هي الفارقة بينها وبين النافية، والإرداء: الإهلاك، وبالياء في الحالين: يعقوبُ.

«٥٧» ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ وهي العصمةُ والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾: من الذين أُحضروا العذاب كما أُحضرتَه أنت وأمثالُك.

«٥٨ - ٥٩» ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ الفاءُ: للعطف على محذوف، تقديرُه: أنحن مخلَّدون منعَّمون، فما نحن بميتين ولا معذبين؛ والمعنى: أن هذه حالُ المؤمنين، وهو ألا يذوقوا إلا الموتة الأولى، بخلاف الكفار، فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كلَّ ساعة، وقيل لحكيم: ما شرٌّ من الموت؟ قال: الذي يُتمنَّى فيه الموتُ، وهذا قولٌ يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله بمسمعٍ من قرينه؛ ليكون توبيخاً له، وزيادةَ تعذيبٍ، و(موتَتنا): نصبٌ على المصدر، والاستثناءُ متصلٌ، تقديرُه: ولا نموت إلا مرةً، أو منقطع، وتقديرُه: لكن الموتة الأولى قد كانت في الدنيا، ثم قال لقرينه تقريعاً له:

«٦٠» ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الأمرَ الذي نحن فيه ﴿لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ ثم قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

«٦١» ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ وقيل: هو أيضاً من كلامه.

«٦٢» ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾: تمييزٌ، ﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ أي: نعيمُ الجنة وما فيها من اللذات والطعام والشراب خيرٌ نزلاً أم شجرةُ الزقوم خيرٌ نزلاً؟ والنُّزُلُ: ما يُقام للنازل بالمكان من الرزق، والزقومُ: شجرٌ مرٌّ يكون بتِهامةَ.

«٦٣» ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾: محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، أو: ابتلاءً لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرةٌ والنار تحرقُ الشجرَ؟ فكذبوا.

«٦٤» ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ قيل: مَنبِتُها في قعر جهنم، وأغصانُها ترتفع إلى دَرَكاتِها.

«٦٥» ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ الطلعُ للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾ ....

مِن حَمْلِها، وشُبِّهَ برؤوسِ الشياطينِ؛ للدلالة على تَناهيه في الكراهةِ وقُبح المنظر؛ لأن الشيطان مكروهٌ مستقبح في طباع الناس؛ لاعتقادهم أنه شرٌّ محض، وقيل: الشيطانُ: حيةٌ عَرفاءُ قبيحةُ المنظر هائلةٌ جداً[1].

«٦٦» ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾: من الشجرة؛ أي: من طلعها، ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦﴾: فمالئون بطونَهم لما يغلبهم من الجوع الشديد.

«٦٧» ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾: على أكلِها ﴿لَشَوْبًا﴾: لَخَلْطا ولَمِزاجاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧﴾: ماءٍ حارٍّ يشوي وجوهَهم، ويقطع أمعاءَهم، كما قال في صفة شراب أهل الجنة: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]؛ والمعنى: ثم إنهم يملؤون البطون من شجرة الزقوم، وهو حارٌّ يحرقُ بطونهم ويُعطِّشُهم، فلا يُسقون إلا بعد مَلِيٍّ[2]؛ تعذيباً لهم بذلك العطش، ثم يُسقَون ما هو أحرُّ، وهو الشراب المشُوبُ بالحميم.

«٦٨» ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ أي: أنهم يُذهبُ بهم عن مقارِّهم ومنازلهم في الجحيم، وهي الدركاتُ التي أُسكنوها إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يمتلئوا، ويُسقَون بعد ذلك، ثم يَرجعون إلى دركاتِهم؛ ومعنى التراخي في ذلك ظاهرٌ.

«٦٩ - ٧٠» ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ علَّلَ استحقاقَهم للوقوع في تلك الشدائدِ بتقليد الآباء في الدين، واتباعِهم إياهم في الضلال، وتركِ اتباعِ الدليل، والإهراعُ: الإسراعُ الشديد، كأنهم يُحثُّون حثّاً.

«٧١» ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾: قبل قومِك قريشٍ ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١﴾ يعني: الأممَ الخاليةَ بالتقليد وترك النظر والتأمل.

«٧٢» ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢﴾: أنبياءَ حذَّروهم العواقب.

«٧٣» ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾: الذين أُنذروا وحُذِّروا؛ أي: أُهلكوا جميعاً.

---

(١) عَرفاءُ: فِيهَا نُقَط بِيض وسودٌ.

(٢) مَلِيّ: زمان طويل.

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ....

《٧٤》 ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: إلا الذين آمنوا وأخلصوا لله دينهم، أو: أخلصهم الله لدينه؛ على القراءتين[1].

《٧٥》 ولما ذكر إرسالَ المنذِرين في الأمم الخالية وسوءَ عاقبة المنذَرين.. أتبعَ ذلك ذكرَ نوح ودعاءَه إياه حين أَيِسَ من قومه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾: دعانا لننجيه من الغرق، وقيل: أريد به قولُه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ اللامُ الداخلة على (نعم): جوابُ قسم محذوف، والمخصوصُ بالمدح محذوفٌ، تقديرُه: ولقد نادانا نوح فوالله لنعم المجيبون نحن، والجمعُ دليلُ العظمة والكبرياء؛ والمعنى: إنا أجبناه أحسنَ الإجابة، ونصرناه على أعدائه، وانتقمنا منهم بأبلغِ ما يكون.

《٧٦》 ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾: ومَن آمن به وأولادَه ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾: وهو الغَرَقُ.

《٧٧》 ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وقد فني غيرُهم، قال قتادة: الناس كلُّهم من ذرية نوح، وكان لنوح عليه السلام ثلاثةُ أولادٍ: سامٌ، وهو أبو العربِ وفارسَ والروم، وحامٌ، وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافثُ، وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج.

《٧٨》 ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ من الأمم هذه الكلمةَ، وهي:

《٧٩》 ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ يعني: يُسلِّمون عليه تسليماً، ويدعون له، وهو الكلام المحكيُّ، كقولك: قرأت: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١]، ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: ثَبَّتَ هذه التحيةَ فيهم جميعاً، ولا يخلو أحدٌ منهم منها، كأنه قيل: ثَبَّتَ اللهُ التسليمَ على نوح وأدامَه في الملائكة والثقلين، يسلمون عليه عن آخرهم.

《٨٠》 ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ عللَ مجازاتَه بتلك التَّكرِمَةِ السَّنِيَّةِ بأنه كان محسناً.

《٨١》 ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ ثم علل كونَه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً؛ لِيُرِيَكَ جلالةَ محلِّ الإيمان، وأنه القُصارى من صفات المدح والتعظيم.

---

(١) الكوفيون ونافع وأبو جعفر: (المخلَصين) إذا كان في أوله ألف ولام حيث وقع: بفتح اللام، والباقون: بكسرها. انظر «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص ٤١٣).

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ ....

《٨٢》 ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: الكافرين.

《٨٣》 ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: من شيعة نوح؛ أي: ممن شايَعه على أصول الدين، أو: شايَعه على التصلُّب في دين الله ومصابرة المكذبين، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستُّ مئةٍ وأربعون سنةً، وما كان بينهما إلا نبيان: هود وصالح.

《٨٤》 ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ (إذْ): تعلق بما في الشيعة من معنى المشايَعَةِ؛ يعني: وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ من الشرك، أو من آفات القلوب. . لَإبراهيمَ، أو بمحذوف، وهو: اذكر، ومعنى المجيءِ بقلبه ربَّه: أنه أخلص لله قلبَه، وعلم اللهُ ذلك منه، فضُرِبَ المجيءُ مثلاً لذلك.

《٨٥》 ﴿إِذْ﴾: بدلٌ من الأولى، ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

《٨٦》 ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ (أئفكاً): مفعولٌ له، تقديرُه: أتريدون آلهةً من دون الله إفكاً؟ وإنما قدمَ المفعولُ به على الفعل للعناية، وقَدَّمَ المفعولَ له على المفعول به؛ لأنه كان الأهمَّ عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم، ويجوز أن يكون (إفكاً): مفعولاً به؛ أي: أتريدون إفكاً؟ ثم فسرَ الإفكَ بقوله: آلهة دون الله؛ على أنها إفكٌ في نفسها، أو: حالاً؛ أي: أتريدون آلهة من دون الله آفكين؟

《٨٧》 ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾: أيُّ شيء ظنُّكم ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ وأنتم تعبدون غيرَه، و(ما): رفعٌ بالابتداء، والخبرُ: (ظنُّكم)، أو: فما ظنكم به: ماذا يفعل بكم؟ وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره، وعلمتم أنه المنعم على الحقيقة؟ فكان حقيقاً بالعبادة.

《٨٨》 ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: نظر في النجوم رامياً ببصره إلى السماء، متفكراً في نفسه كيف يحتال؟ أو: أراهم أنه ينظر في النجوم لاعتقادهم علمَ النجوم، فأوهمهم أنه استدلَّ بأمارة على أنه يسقم.

《٨٩》 ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أي: مُشارف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلبَ الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العَدْوى ليتفرقوا عنه، فهربُوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد، ففعل بالأصنام ما فعل، وقالوا: علمُ النجوم كان حقّاً ثم نسخ الاشتغالُ بمعرفته،

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ....

والكذبُ حرام إلا إذا عَرَّضَ، فالذي قاله إبراهيم عليه السلام مِعراضٌ من الكلام؛ أي: سأسقم، أو: مَن الموتُ في عنقه سقيمٌ، ومنه المثل: «كفى بالسلامة داءً»[1]، ومات رجل فَجأة فقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيحٌ مَن الموتُ في عنقه؟ أو: أراد: إني سقيمُ النفس لكفركم، كما يقال: أنا مريضُ القلب من كذا.

《٩٠》 ﴿فَتَوَلَّوْا﴾: فأعرضُوا ﴿عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾: مُوَلِّين الأدبارَ.

《٩١》 ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾: فمال إليهم سرّاً، ﴿فَقَالَ﴾ استهزاءً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ وكان عندها طعام.

《٩٢》 ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ والجمعُ بالواو والنون لِما أنه خاطبها خطابَ مَن يعقلُ.

《٩٣》 ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا﴾: فأقبل عليهم مُستخفياً كأنه قال: فضربهم ضرباً؛ لأن (راغ عليهم) بمعنى: ضربَهم، أو: فراغ عليهم يضربُهم ضرباً؛ أي: ضارباً ﴿بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ أي: ضرباً شديداً قَوِيّاً؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدُّهما، أو: بالقوة والمتانة، أو: بسبب الحلفِ الذي سبق منه، وهو قولُه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

《٩٤》 ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾: إلى إبراهيمَ ﴿يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾: يُسرعون؛ من الزفيف وهو: الإسراعُ، ﴿يُزِفُّون﴾: حمزةُ[2]؛ مِن: أَزَفَّ: إذا دخل في الزفيف إزفافاً، وكأنه قد رآه بعضُهم يكسِرها، وبعضُهم لم يره، فأقبل مَن رآه مسرعاً نحوَه، ثم جاء مَن لم يره يكسرها فقال لمن رآه: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، فأجابُوه على سبيل التعريض بقولهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، ثم قالوا بأجمعهم: نحن نعبدُها وأنت تكسرُها؟ فأجابهم بقوله:

《٩٥》 ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ بأيديكم.

《٩٦》 ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: وخلق ما تعملونه من الأصنام، أو: (ما): مصدريةٌ؛ أي: وخلق أعمالَكم، وهو دليلُنا في خلق الأفعال؛ أي: الله خالقُكم وخالقُ أعمالكم، فَلِمَ تعبدون غيره؟

---

(١) هذا حديث رواه الشهاب القضاعي في «مسنده» (٢/ ٣٠٢) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٠) وكذا القراءة الآتية.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ....﴾

《٩٧》 ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ﴾ أي: لأجله ﴿بُنْيَانًا﴾ من الحجر طولُه ثلاثون ذراعاً، وعرضُه عشرون ذراعاً، ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾: في النار الشديدة، وقيل: كلُّ نار بعضُها فوق بعض فهي جحيم.

《٩٨》 ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾: بإلقائه في النار، ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾: المقهورين عند الإلقاء.

《٩٩》 فخرج من النار ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾: إلى موضع أمرني بالذهاب إليه، ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾: سيرشدني إلى ما فيه صلاحِي في ديني، ويعصمُني ويوفقُني، ﴿سيهديني﴾ فيهما: يعقوبُ.

《١٠٠》 ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾: بعضَ الصالحين؛ يريدُ الولدَ؛ لأن لفظ الهبة غلب في الولد.

《١٠١》 ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾: انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلامٌ ذكرٌ، وأنه يبلغ أوان الحُلُم؛ لأن الصبي لا يوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً، وأيُّ حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ ثم استسلم لذلك.

《١٠٢》 ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾: بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه، و(معه): لا يتعلق بـ (بلغ) لاقتضائه بلوغَهما معاً حدَّ السعي، ولا بالسعي؛ لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه، فبقي أن يكون بياناً، كأنه لما قال: فلما بلغ السعي؛ أي: الحدَّ الذي يَقدِرُ فيه على السعي.. قيل: مع مَن؟ قال: مع أبيه[1]، وكان إذ ذاك ابنَ ثلاثَ عشرةَ سنةً، ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾: حفصٌ، والباقون: بكسر الياء[2]، ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ وبفتح الياء فيهما: حجازيٌّ وأبو عمرٍو، قيل له في المنام: اذبح ابنَك، ورؤيا الأنبياء وحيٌّ كالوحي في اليقظة، وإنما لم يقل: رأيت؛

---

(١) فالظرف (مع): متعلق بمحذوف يفسره (السعي). انظر «فتوح الغيب» (١٣/ ١٧٨).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٠) وكذا القراءة الآتية.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ . .﴾

لأنه رأى مرةً بعد مرة، فقد قيل: رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح. . رَوَّى في ذلك من الصباح إلى الرواح[1]؛ أَمِنَ الله هذا الحلمُ أم من الشيطان؟ فمن ثَمَّ سُمي يوم التروية، فلما أمسى. . رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، فمن ثَمَّ سُمِّيَ يومَ عرفةَ، ثم رأى مثلَه في الليلة الثالثة، فهمَّ بنحره، فسمِّيَ اليومُ يومَ النحر، ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾: من الرأي على وجه المشاورة، لا من رؤية العين، ولم يشاورْه ليرجع إلى رأيه ومَشُوْرَتِه، ولكن ليعلم أيجزعُ أم يصبرُ؟ ﴿تُرِيْ﴾: عليٌّ وحمزةُ[2]؛ أي: ماذا تبصرُ مِن رأيك وتبديه؟ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ما تؤمر به، وقرء به[3]، ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ على الذبح، روي: أن الذبيح قال لأبيه: يا أبت خذْ بناصيتي، واجلس بين كتفي حتى لا أوذيَك إذا أصابتني الشفرةُ، ولا تذبحْني وأنت تنظرُ في وجهي، عسى أن ترحمَني، واجعل وجهي إلى الأرض، ويُروى: اذبحني وأنا ساجد، واقرأ على أمي السلام، وإن رأيت أن تردَّ قميصي على أمي. . فافعل؛ فإنه عسى أن يكون أسهلَ لها.

《١٠٣》 ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾: انقادا لأمر الله وخَضَعا، وعن قتادة: أسلم هذا ابنَه، وهذا نفسَه، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾: صرعَه على جبينه، ووضع السكين على حلقِه فلم يعمل، ثم وضع السكين على قفاه، فانقلب السكين، ونودي: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، روي: أن ذلك المكان عند الصخرة التي بمنى.

《١٠٤ - ١٠٥》 وجوابُ (لما): محذوفٌ، تقديرُه: فلما أسلما وتله للجبين ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ أي: حققتَ ما أمرناك به في المنام؛ من تسليم الولد للذبح. . كان ما كان مما ينطق به الحال، ولا يحيط به الوصف؛ من استبشارهما، وحمدِهما لله، وشكرِهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله، أو الجواب: قبلْنا منه، و(ناديناه): معطوفٌ عليه، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾: تعليلٌ لتخويل ما خَوَّلَهما من الفرج بعد الشدة.

---

(١) رَوَّى: فكر.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٠).

(٣) انظر «الكشاف» (٤/٥٦).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ ....

《١٠٦》 ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾: الاختبارُ البَيِّنُ الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم، أو: المحنة البينة.

《١٠٧》 ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ﴾ هو: ما يُذبح، وعن ابن عباس: هو الكبش الذي قَرَّبَه هابيلُ فقبل منه، وكان يرعى في الجنة، حتى فُدي به إسماعيلُ، وعنه: لو تمت تلك الذبيحة.. لصارت سنةً، وذبح الناس أبناءَهم، ﴿عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾: ضخمِ الجثةِ سمينٍ، وهي السنة في الأضاحي، وروي: أنه هرب من إبراهيمَ عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتى أخذه، فبقيت سنةً في الرمي، وروي: أنه لما ذبحه.. قال جبريل: الله أكبر الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر ولله الحمد، فبقي سنةً، وقد استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده أنه يلزمه ذبحُ شاة[1]، والأظهرُ أن الذبيح إسماعيل، وهو قول أبي بكرٍ وابنِ عباسٍ وابنِ عمرَ وجماعةٍ من التابعين رضي الله عنهم؛ لقوله عليه السلام: «أنا ابن الذبيحين»[2]، فأحدُهما جدُّه إسماعيل، والآخرُ أبوه عبد الله، وذلك أن عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرةً.. أن يذبح آخرَ ولده تقرباً، وكان عبد الله آخراً، ففداه بمئةٍ من الإبل، ولأن قَرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيلَ إلى أن احترق البيتُ في زمن الحجاج وابن الزبير، وعن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعيُّ، أين عَزَبَ عنك عقلُك؟ ومتى كان إسحاقُ بمكة، وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحرُ بمكة، وعن علي وابن مسعود والعباس وجماعة من التابعين رضي الله عنهم: أنه إسحاق، ويدلُّ عليه كتابُ يعقوب إلى يوسف عليهما السلام: مِن يعقوب إسرائيلَ اللهِ بنِ إسحاقَ ذبيحِ اللهِ بنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ، وإنما قيل: (وفديناه) وإن كان الفادي إبراهيمَ عليه السلام، والله تعالى هو المفتدَى منه؛ لأنه الآمر بالذبح؛ لأنه تعالى وهبَ له الكبشَ ليفتدي به.

وههنا إشكال، وهو أنه لا يخلو: إما أن يكون ما أتى به إبراهيم عليه السلام من بطحِه على شِقِّه وإمرارِ الشفرةِ على حلقِه في حكمِ الذبح أم لا، فإن كان في حكم الذبح.. فما معنى الفداء؟ والفداءُ هو التخليص من الذبح ببدل، وإن لم يكن.. فما معنى قوله: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٥]، وإنما كان يُصدِّقُها لو صحَّ منه الذبح أصلاً أو بدلاً، ولم يصحّ.

---

(١) انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٤/ ٧٨).

(٢) روى الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٥٤) عن سيدنا معاوية رضي الله عنه أن أعرابياً قال لسيدنا رسول الله ﷺ: يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾ ....

والجوابُ: أنه عليه السلام قد بذل وُسْعَه، وفعل ما يفعلُ الذابح، ولكن الله تعالى جاء بما منعَ الشفرةَ أن تمضيَ فيه، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيمَ، ووهب الله له الكبشَ؛ ليقيمَ ذبحَه مُقامَ تلك الحقيقة في نفس إسماعيل بدلاً منه، وليس هذا بنسخٍ منه للحكم كما قال البعض، بل ذلك الحكم كان ثابتاً، إلا أن المحل الذي أضيف إليه الحكم لم يَحُلَّه الحكم؛ على طريق الفداء دون النسخ، وكان ذلك ابتلاءً، استقرَّ[1] حكم الأمر عند المخاطَبِ في آخِرِ الحال على أن المبتغَى منه في حق الولد أن يصيرَ قُرباناً بنسبة الحكم إليه مُكرّماً بالفداء الحاصل؛ لِمَعَرَّةِ الذبح؛ مُبتلىً بالصبر والمجاهدة إلى حال المكاشفة، وإنما النسخُ بعد استقرار المراد بالأمر لا قبلَه، وقد سُمِّيَ فداءً في الكتاب، لا نسخاً.

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)﴾ ولا وقفَ عليه؛ لأن ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾: مفعولُ (وتركنا).

﴿١١٠﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾ ولم يقل: إنا كذلك هنا كما في غيره؛ لأنه قد سبق في هذه القصة، فاسْتُخِفَّ بطرحه اكتفاء بذكره مرةً عن ذكره ثانيةً.

﴿١١١ - ١١٢﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾: حالٌ مقدَّرةٌ من (إسحاقَ)، ولا بدَّ من تقدير مضاف محذوف؛ أي: وبشرناه بوجود إسحاق نبيّاً؛ أي: بأن يوجد مقدرةً نبوتُه، فالعاملُ في الحال الوجودُ لا البشارةُ[2]، ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾: حالٌ ثانيةٌ، وورودُها على سبيل الثناء؛ لأن كل نبي لا بدَّ وأن يكون من الصالحين.

﴿١١٣﴾ ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أي: أفضْنا عليهما بركاتِ الدين والدنيا، وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده، وعلى إسحق بأن أخرجنا من صُلبه ألفَ نبي، أولُهم يعقوبُ، وآخرُهم عيسى عليهم السلام، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾: مؤمنٌ، ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾: كافرٌ، ﴿مُبِينٌ (١١٣)﴾:

---

(١) في المطبوع (٤/ ٢٥): (ليستقرَّ) وهو أولى.

(٢) ذكر في «الكشاف» (٤/ ٦٠): أن سبب تقدير المضاف أن المبشَّر به معدوم وقت البشارة، وعدمُ المبشَّر به أوجب عدمَ حالِه لا محالةَ؛ لأن الحال حِلية، والحِليةُ لا تقوم إلا بالمحلَّى، فكيف يجعلُ (نبيّاً) حالاً مقدرةً، والحالُ صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به، فلذا قدر: بوجودِ إسحاقَ نبيّاً.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ....

ظاهرٌ، أو محسنٌ إلى الناس وظالمٌ على نفسه بتعدّيه عن حدود الشرع، وفيه تنبيهٌ على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرُهما على العِرقِ والعُنصر، فقد يَلِدُ البرُّ الفاجرَ، والفاجرُ البرَّ، وهذا مما يَهدِمُ أمرَ الطبائع والعناصر، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يَعُدْ عليهما بعيب ولا نقيصةٍ، وأن المرء إنما يُعاب بسوء فعله، ويُعاقب على ما اجترحت يداه، لا على ما وُجد من أصله أو فرعِه.

《١١٤》 ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾: أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ بالنبوة.

《١١٥》 ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾: بني إسرائيلَ ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾: من الغرَقِ، أو من سلطان فرعون وقومِه وغَشْمِهم.

《١١٦》 ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ أي: موسى وهارون وقومَهما، ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ على فرعون وقومِه.

《١١٧》 ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾: البليغَ في بيانه، وهو التوراة.

《١١٨》 ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾: صراط أهل الإسلام، وهي صراطُ الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

《١١٩ - ١٢٣》 ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾: هو إلياسُ بن ياسينَ، من ولد هارونَ أخي موسى، وقيل: هو إدريسُ النبي عليه السلام، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وإنَّ إدريسَ﴾ في موضع (إلياس)[1].

《١٢٤》 ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾: ألا تخافون الله.

《١٢٥》 ﴿أَتَدْعُونَ﴾: أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾ هو: عَلَمٌ لصنم كان من ذهب، وكان طولُه عشرين

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨٤).

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ ....

ذراعاً، وله أربعةُ أوجهٍ، فُتنوا به وعظَّموه حتى أخدمُوه أربعَ مئة سادنٍ، وجعلوهم أنبياءَه، وكان موضعُه يقال له: بَكّ، فرُكِّبَ وصار بَعلبَكّ، وهو من بلاد الشأم، وقيل: إلياسُ وُكِّلَ بالفَيافي، كما وُكِّلَ الخضرُ بالبحار، والحسنُ يقول: قد هلك إلياسُ والخضرُ، ولا نقولُ كما يقول الناس: إنهما حيّان[1]، ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾: وتتركون عبادةَ الله الذي هو أحسن المقدِّرين.

«١٢٦» ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾: بنصبِ الكلِّ: عراقيٌّ غيرَ أبي بكر وأبي عمرٍو؛ على البدل من ﴿أَحْسَنَ﴾، وغيرُهم: بالرفع على الابتداء[2].

«١٢٧» ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ في النار.

«١٢٨» ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ من قومه.

«١٢٩ - ١٣٠» ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: إلياسَ وقومِه المؤمنين، كقولهم: الخُبيبون؛ يعني: أبا خبيبٍ عبدَ الله بنَ الزبير وقومَه، ﴿آلِ ياسين﴾: شاميٌّ ونافعٌ؛ لأن ياسين اسمُ أبي إلياسَ، فأضيف إليه الآلُ.

«١٣١ - ١٣٥» ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾: في الباقين.

«١٣٦» ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾: أهلكنا ﴿ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

«١٣٧» ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكةَ ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾: داخلين في الصباح.

---

(١) قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» (١٥/ ١٣٥): جمهور العلماء على أنه -الخضر- حيٌّ موجودٌ بين أظهُرنا، وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة، وحكاياتُهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثرُ من أن يحصر، وأشهرُ من أن يُستر، وقال الشيخ أبو عمر بن الصلاح: هو حيٌّ عند جماهير العلماء والصالحين، والعامةُ معهم في ذلك، قال: وإنما شذَّ بإنكاره بعض المحدثين.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٠) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ ....

《١٣٨》 ﴿وَبِٱلَّيۡلِۗ﴾ والوقف عليه مطلق[1]، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ يعني: تمرُّون على منازلهم في متاجركم إلى الشأم ليلاً ونهاراً، فما فيكم عقولٌ تعتبرون بها، وإنما لم يَختم قصة لوط ويونسَ بالسلام كما ختمَ قصةَ مَن قبلَهما؛ لأن الله تعالى قد سَلَّمَ على جميع المرسلين في آخر السورة، فاكتُفي بذلك عن ذكر كلِّ واحدٍ منفرداً بالسلام.

《١٣٩ - ١٤٠》 ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ﴾ الإباقُ: الهَرَبُ إلى حيث لا يَهتدي إليه الطلبُ، فسمَّى هربَه من قومه بغير إذن ربِّه إباقاً مجازاً، ﴿إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠﴾: المملوء، وكان عليه السلام وَعَدَ قومَه العذابَ، فلما تأخر العذابُ عنهم.. خرج كالمستور منهم، فقصد البحر وركب السفينة فوقفت، فقالوا: ههنا عبدٌ آبِقٌ من سيده، وفيما يزعم البحّارون أن السفينة إذا كان فيها آبقٌ.. لم تَجْرِ، فاقترعوا، فخرجت القُرعةُ على يونسَ، فقال: أنا الآبقُ وزجَّ بنفسه في الماء، فذلك قولُه:

《١٤١》 ﴿فَسَاهَمَ﴾: فقارعهم مرةً أو ثلاثاً بالسهام، والمساهمةُ: إلقاءُ السهام على جهة القرعة، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١﴾: المغلوبين بالقرعة.

《١٤٢》 ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾: فابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾: داخل في الملامَةِ.

《١٤٣》 ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾: من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، أو: من القائلين: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أو: من المصلين قبل ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كلُّ تسبيح في القرآن فهو صلاة، ويقال: إن العمل الصالح يرفع صاحبَه إذا عَثَرَ.

《١٤٤》 ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ الظاهرُ لُبثُه حيّاً إلى يوم البعث، وعن قتادة: لكان بطنُ الحوت له قبراً إلى يوم القيامة، وقد لبث في بطنه ثلاثةَ أيام، أو سبعة، أو أربعين يوماً، وعن الشعبي: التقمه ضحوةً ولفظَه عشيّةً.

---

(١) الوقف المطلق: ما يحسن الوقف عليه، والابتداء بما بعده، ويسمى التامَّ أيضاً. انظر «علل الوقوف» للسجستاني (١/ ١١٦) و«المكتفى» للداني (ص١٤٠).

﴿فَنَبَذْنَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ۝١٥٠﴾ ....

«١٤٥» ﴿فَنَبَذْنَهُ بِالْعَرَاءِ﴾: فألقيناه بالمكان الخالي الذي لا شجرَ فيه ولا نباتَ ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥﴾: عليلٌ مما ناله من التقام الحوت، وروي: أنه عاد بدنُه كبدن الصبيِّ حين يولد.

«١٤٦» ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾ أي: أنبتناها فوقه مُظِلَّةً له كما يُطَنَّبُ البيتُ على الإنسان(١)، ﴿مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦﴾ الجمهورُ على أنه القرعُ، وفائدتُه: أن الذباب لا يجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً، وقيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحبُّ القرعَ، قال: «أجلْ هي شجرة أخي يونس»(٢).

«١٤٧» ﴿وَأَرْسَلْنَهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ المرادُ به القومُ الذين بُعث إليهم قبل الالتقام، فتكون قدْ مضمرةً، ﴿أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ في مرأى الناظر؛ أي: إذا رآها الرائي.. قال: هي مئةُ ألفٍ أو أكثرُ، وقال الزجاج: قال غيرُ واحدٍ: معناه بل يزيدون، قال ذلك الفراءُ وأبو عبيدة(٣)، ونُقل عن ابن عباس كذلك.

«١٤٨» ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ به وبما أرسل به، ﴿فَمَتَّعْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾: إلى منتهى آجالِهم.

«١٤٩» ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩﴾: معطوفٌ على مثله في أول السورة؛ أي: على ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وإن تباعدت بينهما المسافة، أُمر رسولُ الله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً، ثم ساق الكلام موصولاً بعضُه ببعض، ثم أمره باستفتائِهم عن وجه القسمة الضِّيزى التي قَسموها؛ حيث جعلوا لله تعالى الإناثَ، ولأنفسهم الذكورَ، في قولهم: الملائكةُ بناتُ الله، مع كراهتهم الشديدة لهن، ووأدِهم واستنكافِهم من ذكرهنَّ.

«١٥٠» ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ۝١٥٠﴾: حاضرون، تخصيصُ علمهم بالمشاهدة استهزاءٌ بهم وتجهيلٌ لهم؛ لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدةً لم يعلموه بخلق الله عِلْمَهُ في قلوبهم، ولا بإخبارِ صادق، ولا بطريقِ استدلال ونظر، أو: معناه: أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس؛ لإفراط جهلهم، كأنهم شاهدوا خلقَهم.

---

(١) يُطَنَّب: يُشدُّ بالحبال.

(٢) لم أجده هكذا، ولكن روى ابن ماجه (٣٣٠٢) عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يحبُّ القَرْعَ.

(٣) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٣١٤)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٣).

أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ....

《١٥١ - ١٥٢》 ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ في قولهم.

《١٥٣》 ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾: بفتح الهمزة للاستفهام، وهو استفهام توبيخ، وحذفت همزةُ الوصل استغناءً عنها بهمزة الاستفهام.

《١٥٤》 ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ هذا الحكمَ الفاسدَ.

《١٥٥》 ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾: بالتخفيف: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ[1].

《١٥٦》 ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾: حجةٌ نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله.

《١٥٧》 ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ في دعواكم.

《١٥٨》 ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ﴾: بين الله ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾: الملائكةِ؛ لاستتارهم ﴿نَسَبًا﴾: وهو زعمُهم أنهم بناتُه، أو: قالوا: إن الله تزوج من الجن فوَلدت له الملائكةَ، ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾: ولقد علمت الملائكةُ إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون في النار.

《١٥٩》 ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾: نزَّهَ نفسَه عن الولد والصاحبة.

《١٦٠》 ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾: استثناءٌ منقطع من المحضَرين؛ معناه: ولكن المخلَصين ناجون من النار، و﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: اعتراضٌ بين الاستثناء وبين ما وقع منه، ويجوز أن يقع الاستثناء مِن واوِ ﴿يَصِفُونَ﴾ أي: يصفُه هؤلاء بذلك، ولكنَّ المخلَصين بَراءٌ من أن يصفوه به.

《١٦١》 ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكةَ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾: ومعبودِيكم.

《١٦٢》 ﴿مَآ أَنتُمْ﴾ وهم جميعاً ﴿عَلَيْهِ﴾: على الله ﴿بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾: بِمُضلِّين.

《١٦٣》 ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾: بكسر اللام؛ أي: لستم تُضلون أحداً إلا أصحابَ النار الذين سبق في علمه أنهم بسوء أعمالهم يستوجبون أن يَصْلَوْها؛ يقال: فتنَ فلانٌ على فلان امرأتَه، كما تقول: أفسدها عليه، وقال الحسن: فإنكم أيها القائلون بهذا القول، والذي تعبدونه

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧١).

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ ....﴾

من الأصنام ما أنتم على عبادة الأوثان بمضلين أحداً، إلا مَن قُدِّرَ عليه أن يَصلَى الجحيم؛ أي: يدخلَ النار، وقيل: ما أنتم بمضلين إلا من أوجبتُ عليه الضلالَ في السابقة، و﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أَنتُمۡ﴾: نافيةٌ، و(مَن): في موضع النصب بـ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾، وقرأ الحسنُ: ﴿صالُ الجحيمِ﴾: بضمِّ اللام[1]، ووجهُهُ أن يكون جمعاً فحذفت النون للإضافة، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين، هي واللامُ في (الجحيم)، و(مَن): مُوحَّدُ اللفظ مجموعُ المعنى، فحُمل (هو) على لفظه، والصالون على معناه.

《١٦٤》 ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ أحدٌ ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤﴾ في العبادة لا يتجاوزه، فحذف الموصوفُ وأُقيمت الصفةُ مُقامَه.

《١٦٥》 ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾: نَصُفُّ أقدامَنا في الصلاة، أو: نَصُفُّ حولَ العرش داعين للمؤمنين.

《١٦٦》 ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾: المنزهون، أو: المصلون، والوجهُ أن يكون هذا وما قبله من قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من كلام الملائكة حتى يتصلَ بذكرِهم في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ﴾ كأنه قيل: ولقد علم الملائكةُ وشهدُوا أن المشركين مُفترون عليهم في مناسَبَةِ ربِّ العزة، وقالوا: سبحان الله، فنزَّهوه عن ذلك، واستثنوا عبادَ الله المخلَصين، وبرَّؤُوهم منه، وقالوا للكفرة: فإذا صحَّ ذلك.. فإنكم وآلهتكم لا تقدِرون أن تفتِنُوا على الله أحداً من خلقه وتُضلُّوه إلا من كان من أهل النار، وكيف نكون مناسبين لربِّ العزةِ وما نحن إلا عبيدٌ أذلاءُ بين يديه، لكلٍّ منا مقامٌ معلوم من الطاعة لا يستطيع أن يَزِلَّ عنه ظُفُراً؛ خشوعاً لعظمته، ونحن الصافُّون أقدامَنا لعبادته، مسبِّحين ممجِّدين، كما يجبُ على العباد لربِّهم، وقيل: هو من قول رسول الله ﷺ؛ يعني: وما من المسلمين أحدٌ إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله؛ من قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، ثم ذكر أعمالَهم، وأنهم الذين يصطفُّون في الصلاة، ويسبحون الله وينزهونَه عمّا لا يجوز عليه.

《١٦٧》 ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧﴾ أي: مشركو قريش قبلَ مبعثِه عليه السلام:

---

(١) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٧٥).

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ....

«١٦٨- ١٦٩» ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾: لأخلصنا العبادة لله، ولما كذَّبْنا كما كذَّبوا، ولما خالفنا كما خالفوا، فجاءهم الذكر الذي هو سيدُ الأذكار، والكتابُ الذي هو معجز من بين الكتب.

«١٧٠» ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ مَغبَّة تكذيبِهم وما يَحُلُّ بهم من الانتقام، و﴿إِنْ﴾: مخففةٌ من الثقيلة، واللام هي الفارقة، وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكِّدين للقول، جادِّين فيه، فكم بين أول أمرِهم وآخرِه!

«١٧١» ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ الكلمةُ: قولُه:

«١٧٢- ١٧٣» ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وإنما سماها كلمةً وهي كلماتٌ؛ لأنها لما انتظمت في معنى واحد.. كانت في حكم كلمة مفردة؛ والمرادُ الوعدُ بعلوِّهم على عدوِّهم في مقام الحِجاجِ، وملاحم القتال في الدنيا، وعلوِّهم عليهم في الآخرة، وعن الحسن: ما غُلب نبيٌّ في حرب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن لم يُنصروا في الدنيا.. نُصروا في العُقبى، والحاصلُ: أن قاعدة أمرِهم وأساسَه والغالبَ منه الظفرُ والنصرةُ وإن وقع في تضاعيف ذلك شَوْبٌ من الابتلاء والمحنة، والعبرةُ للغالب.

«١٧٤» ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: فأعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾: إلى مدةٍ يسيرةٍ، وهي المدة التي أُمهلُوا فيها، أو إلى يوم بدر، أو إلى فتح مكة.

«١٧٥» ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي: أبصرْ ما ينالُهم يومئذ، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ ذلك، وهو للوعيد لا للتبعيد، أو: انظرْ إليهم إذا عُذبوا، فسوف يُبصرون ما أنكروا، أو: أَعلِمهم فسوف يعلمون.

«١٧٦» ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ قبلَ حينِه؟

«١٧٧» ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذابُ ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾: بفِنائهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ صباحُهم، واللامُ في (المنذَرين) مبهمٌ في جنس مَن أُنذروا؛ لأنَّ ساءَ وبئسَ: يقتضيان ذلك، وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكةَ، مَثَّلَ العذابَ النازل بهم بَعدَ ما أُنذروه فأنكرُوه.. بجيشٍ أنذر بهجومه قومَه بعضُ نُصّاحِهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره حتى أناخ بفنائِهم بغتةً، فشنَّ عليهم

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

الغارةَ، وكانت عادةُ مغاويرهم أن يُغيروا صباحاً، فسميت الغارةُ صباحاً وإن وقعت في وقت آخرَ.

《١٧٨- ١٧٩》 ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ وإنما ثَنَّى؛ ليكون تسليةً على تسلية، وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد، وفيه فائدةٌ زائدةٌ، وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، وأنه يُبصر وهم يُبصرون ما لا يحيط به الذكرُ من صنوف المسرةِ وأنواعِ المساءةِ، وقيل: أُريد بأحدهما عذابُ الدنيا، وبالآخرة عذابُ الآخرة.

《١٨٠》 ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أضيفَ الربُّ إلى العزة؛ لاختصاصه بها، كأنه قيل: ذو العزة، كما تقول: صاحبُ صدق؛ لاختصاصه بالصدق، ويجوز أن يرادَ أنه ما من عِزَّةٍ لأحد إلا وهو ربُّها ومالكُها، كقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾: من الولد والصاحبة والشريك.

《١٨١》 ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾: عمَّ الرسل بالسلام بعدَ ما خصَّ البعض في السورة؛ لأن في تخصيص كلٍّ بالذكر تطويلاً.

《١٨٢》 ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ على هلاك الأعداءِ ونصرة الأنبياءِ، اشتملت السورة على ذكرِ ما قاله المشركون في الله، ونسبوه إليه مما هو منزَّهٌ عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خُوِّلُوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامعِ ذلك مِن تنزيه ذاتِه عمّا وصفه به المشركون، والتسليمِ على المرسلين، والحمدِ لله ربِّ العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب؛ والمرادُ تعليمُ المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يُخِلُّوا به ولا يَغْفُلوا عن مُضَمَّنات كتابه الكريم، ومودَعاتِ قرآنِه المجيد، وعن علي رضي الله عنه: من أحب أن يَكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة.. فليكن آخرُ كلامه إذا قام من مجلسه: سبحان ربك رب العزة... إلى آخر السورة[1].



(١) رواه بنحوه عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٢٣٦).

﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ ....

سورة ص

مكيةٌ وهي ثمانٌ وثمانون آيةً: كوفيٌّ، وتسعٌ: بصريٌّ، وستٌّ: مدنيٌّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿صٓ﴾ ذكرَ هذا الحرفَ من حروفِ المعجمِ على سبيلِ التحدي والتنبيهِ على الإعجازِ، ثم أتبعَه القسمَ محذوفَ الجوابِ؛ لدلالةِ التحدي عليه، كأنه قال: ﴿وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ۝١﴾ أي: ذي الشرف إنه لَكلامٌ معجزٌ، ويجوز أن يكون ﷺ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ؛ على أنه اسمٌ للسورة، كأنه قال: هذه ص؛ أي: هذه السورةُ التي أعجزت العربَ والقرآنِ ذي الذكرِ، كما تقول: هذا حاتمٌ واللهِ؛ تريدُ: هذا هو المشهورُ بالسخاءِ واللهِ، وكذلك إذا أقسمَ بها كأنه قال: أقسمتُ بـ(ص والقرآن ذي الذكر) إنه لمعجزٌ، ثم قال:

《٢》 ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ﴾: تكبرٍ عن الإذعانِ لذلك والاعترافِ بالحقِّ، ﴿وَشِقَاقٍ ۝٢﴾: خلافٍ لله ولرسوله، والتنكيرُ في (عزة وشقاق) للدلالةِ على شدتِهما وتَفاقُمِهما، وقرئَ: ﴿في غِرَّةٍ﴾[1] أي: في غفلة عمّا يجبُ عليهم من النظرِ واتباعِ الحقِّ.

《٣》 ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾: وعيدٌ لذوي العزةِ والشقاقِ، ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: من قبلِ قومِك، ﴿مِّن قَرْنٍ﴾: من أمةٍ، ﴿فَنَادَوا﴾: فدعَوا واستغاثُوا حين رأوُا العذابَ، ﴿وَّلَاتَ﴾: هي (لا) المشبهةُ بـ(ليس)، زيدت عليها تاءُ التأنيثِ، كما زيدت على (ربَّ، وثُم) للتوكيد، وتَغيَّر بذلك حكمُها؛ حيث لم تدخل إلا على الأحيان، ولم يَبْرُزْ إلا أحدُ مُقْتَضَيَيْها؛ إما الاسمُ أو الخبرُ، وامتنع بُروزُهما جميعاً، وهذا مذهب الخليلِ وسيبويهِ، وعند الأخفش: أنها (لا) النافيةُ للجنس، زيدت عليها التاءُ، وخُصت بنفي الأحيان، وقولُه: ﴿حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾: منجىً: منصوبٌ بها، كأنك قلتَ: ولا حينَ مناص لهم، وعندهما: أن النصب على تقديرِ: ولاتَ الحينُ حينَ مناصٍ؛ أي: وليس الحينُ حينَ مناصٍ[2].

---

(١) هذه قراءة مكذوبة كما ذكر الشهاب الخفاجي في «حاشيته على تفسير البيضاوي» نقلاً عن ابن الأنباري (٧/ ٢٩٤).

(٢) انظر «الكتاب» لسيبويه (١/ ٥٧)، وقولُ الأخفشِ في «معاني القرآن» (٢/ ٤٩٢) موافق لسيبويه.

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ....﴾

《٤ - ٥》 ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم﴾: مِن أنْ جاءهم ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾: رسولٌ من أنفسِهم؛ يعني: استبعدُوا أن يكون النبيُّ من البشر، ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ ولم يقلْ: وقالوا؛ إظهاراً للغضب عليهم، ودلالةً على أن هذا القولَ لا يَجْسُرُ عليه إلا الكافرون المتوغِّلون في الكفر، المنهمِكون في الغيِّ؛ إذْ لا كفرَ أبلغُ من أن يُسمُّوا من صَدَّقَه اللهُ.. كاذباً ساحراً، ويتعجبُوا من التوحيد وهو الحقُّ الأبلجُ، ولا يتعجبُوا من الشرك وهو باطلٌ لَجْلَجٌ، روي: أن عمرَ رضي الله عنه لما أسلم.. فرحَ به المؤمنون، وشقَّ على قريشٍ، فاجتمع خمسةٌ وعشرون نفساً من صناديدِهم، ومشَوا إلى أبي طالبٍ وقالوا: أنت كبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاءُ، يريدون: الذين دخلُوا في الإسلامِ وجئناك لتقضيَ بينَنا وبين ابنِ أخيك، فاستحضرَ أبو طالبٍ رسولَ الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، هؤلاءِ قومُك يسألونك السواءَ[١]، فلا تَمِلْ كلَّ الميلِ على قومك، فقال عليه السلام: «ماذا يسألونني؟» قالوا: ارْفُضْنا وارفُضْ ذكرَ آلهتِنا وندعَك وإلهك، فقال عليه السلام: «أعطوني كلمةً واحدةً تملكُون بها العربَ، وتَدينُ لكم بها العجمُ؟» قالوا: نعم وعشراً؛ أي: نُعطيكَها وعشرَ كلماتٍ معها، فقال: قولوا: لا إله إلا الله، فقاموا وقالوا: (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) أي: أَصَيَّرَ؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ أي: بليغٌ في العجب، وقيل: العجيبُ: ما لَه مِثْلٌ، والعُجابُ: ما لا مثلَ له.

《٦》 ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾: وانطلقَ أشرافُ قريشٍ عن مجلسِ أبي طالبٍ بعدَ ما بَكَّتَهم رسولُ اللهِ ﷺ بالجوابِ العتيدِ قائلين بعضُهم لبعض: أن امشُوا[٢]، و(أنْ) بمعنى: أي؛ لأن المنطلقين عن مجلس التقاولِ لا بدَّ لهم أن يتكلمُوا ويتفاوضُوا فيما جَرَى لهم، فكان انطلاقُهم متضمناً معنى القول، ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ﴾ عبادةِ ﴿ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا﴾ الأمرَ ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ أي: يريدُه اللهُ تعالى ويحكمُ بإمضائِه، فلا مردَّ له، ولا ينفعُ فيه إلا الصبرُ، أو: إن هذا الأمرَ لشيءٌ من نوائبِ الدهرِ يُرادُ بنا، فلا انفكاكَ لنا منه[٣].

---

(١) في الأصل: (السؤال) وما أثبته من المطبوع (٤/ ٣٢) ولعله هو الصواب، والسواء: العدل.

(٢) بَكَّتهم: غلبهم بالحُجَّةِ، والعَتِيدُ: الحاضِرُ.

(٣) وفي «تفسير الآلوسي» (١٢/ ١٦١): (إن هذا لشيء عظيم يُرادُ من جهته ﷺ امضاؤه وتنفيذه لا محالةَ، من غير صارف يَلويه، ولا عاطف يَثْنيه، لا قولٌ يُقال من طرف اللسان، أو أمرٌ يُرجى فيه المسامحة بشفاعة إنسان، فاقطعُوا أطماعَكم عن استنزاله إلى إرادتِكم، واصبروا على عبادة آلهتكم).

مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ ....

《٧》 ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾: بالتوحيدِ ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: في ملةِ عيسى التي هي آخِرُ المِلَلِ؛ لأن النصارى مُثَلِّثةٌ غيرُ مُوحِّدةٍ، أو: في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءَنا، ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾: ما هذا ﴿إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾: كذبٌ اختلقَه محمدٌ مِن تلقاءِ نفسِه.

《٨》 ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾: القرآنُ ﴿مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾: أنكرُوا أن يُخْتصَّ بالشرفِ من بينِ أشرافِهم، وينزلَ عليه الكتابُ من بينهم حسداً، ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ﴾: من القرآنِ، ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾: بل لم يذوقوا عذابي بعدُ، فإذا ذاقُوه.. زال عنهم ما بهم من الشكِّ والحسدِ حينئذٍ؛ أي: أنهم لا يُصدقون به إلا أن يَمسَّهم العذاب فيُصدقون حينئذٍ.

《٩》 ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ يعني: ما هم بمالِكي خزائنِ الرحمةِ حتى يصيبُوا بها من شاؤوا، ويصرفُوها عمّن شاؤوا، ويتخيرُوا للنبوة بعضَ صناديدِهم[١]، ويترفَّعُوا بها عن محمدٍ، وإنما الذي يملكُ الرحمةَ وخزائنَها العزيزُ: القهّارُ على خلقِه، الوهاب: الكثيرُ المواهبِ، المصيبُ بها مواقعَها، الذي يقسمُها على ما تقتضيه حكمتُه، ثم رشَّح هذا المعنى فقال[٢]:

《١٠》 ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ﴾ حتى يتكلمُوا في الأمور الربانيةِ، والتدابيرِ الإلهيةِ التي يختصُّ بها ربُّ العزةِ والكبرياءِ؟ ثم تهكَّمَ بهم غاية التهكُّم فقال: فإن كانوا يصلُحون لتدبيرِ الخلائقِ والتصرفِ في قسمةِ الرحمةِ ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾: فليصعدُوا في المعارجِ والطرقِ التي يُتوصل بها إلى السماء حتى يُدبرُوا أمرَ العالمِ وملكوتَ اللهِ، ويُنزلوا الوحيَ إلى مَن يختارون، ثم وعدَ نبيَّه عليه السلام النصرةَ عليهم بقولِه:

《١١》 ﴿جُندٞ﴾: مبتدأٌ، ﴿مَّا﴾: صلةٌ مقويةٌ للنكرة المبتدأةِ، ﴿هُنَالِكَ﴾: إشارةٌ إلى بدرٍ ومصارعِهم، أو: إلى حيثُ وضعُوا فيه أنفسَهم من الانتدابِ لمثل ذلك القولِ العظيمِ[٣]، مِن

---

(١) الصِّنْديدُ: السيِّد الشُجاعُ.

(٢) المراد بالترشيح هنا: التقويةُ والتأكيدُ؛ فإن كونَ ملكِ السمواتِ والأرضِ وما بينهما لهم.. يقتضي أنّ خزائنَ الرحمةِ عندهم يقسمونها على من أرادوا. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي» (٧/ ٢٩٨).

(٣) يقالُ: ندبتُه فانتدب؛ أي: بعثتُه ودعوتُه فأجاب، ولعل معنى الانتداب هنا: التَّصدي للقيام بأمرٍ ما.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ ....

قولهم لمن يَنتدبُ لأمرٍ ليس من أهله: لست هنالك[1]، خبرُ المبتدأ: ﴿مَهْزُومٌ﴾: مكسورٌ، ﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾: متعلقٌ بـ(جند)، أو بـ(مهزوم)[2]؛ يريدُ: ما هم إلا جندٌ من الكفار المتحزِّبين على رسولِ اللهِ مهزومٌ عمّا قريبٌ، فلا تبالِ بما يقولون، ولا تكترثْ لما به يَهذُون.

《١٢》 ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾: قبلَ أهلِ مكةَ ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً، ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً، ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسى، ﴿ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ قيل: كانت له أوتادٌ وحبالٌ يُلْعَبُ بها بين يديه، وقيل: يُوتِدُ مَن يُعَذِّبُ بأربعةِ أوتادٍ في يديه ورجليه.

《١٣》 ﴿وَثَمُودُ﴾: وهم قومُ صالحٍ صالحاً، ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً، ﴿وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾: الغيضةِ[3] شعيباً، ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ أرادَ بهذه الإشارةِ الإعلامَ بأن الأحزابَ الذين جُعلَ الجندُ المهزومُ منهم هم هم، وأنهم الذين وُجدَ منهم التكذيبُ.

《١٤》 ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ ذكرَ تكذيبَهم أوّلاً في الجملةِ الخبريةِ على وجه الإبهام؛ حيثُ لم يبيِّنْ المكذَّبَ، ثم جاءَ بالجملةِ الاستثنائيةِ فأوضحَه فيها، وبيَّنَ المكذَّبَ وهم الرسلُ، وذكرَ أن كل واحد من الأحزاب كذبَ جميعَ الرسلِ؛ لأن في تكذيب الواحدِ منهم تكذيبَ الجميعِ؛ لاتحادِ دعوتِهم، وفي تكريرِ التكذيبِ وإيضاحِه بعدَ إبهامِه، والتنويعِ في تكريرِه بالجملةِ الخبريةِ أولاً، وبالاستثنائية ثانياً، وما في الاستثنائيةِ من الوضع على وجهِ التوكيدِ.. أنواعٌ من المبالغةِ المسجِّلةِ عليهم باستحقاقِ أشدِّ العقابِ وأبلغِه[4]، ثم قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ أي: فوجب لذلك أن أُعاقِبهم حقَّ عقابِهم، ﴿عذابي﴾ و﴿عقابي﴾: في الحالين: يعقوبُ[5].

《١٥》 ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ﴾: وما ينتظرُ أهلُ مكةَ[6]، ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: النفخةَ الأولى، وهي الفَزَعُ الأكبرُ، ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ وبالضمِّ: حمزةُ وعليٌّ[7]؛ أي: ما لها من

---

(١) وجُوِّزَ على هذا أن تكون (ما) نافيةً؛ أي: هم جند ليسوا حيثُ وضعوا أنفسهم. انظر «تفسير الآلوسي» (١٢/١٦٣).

(٢) أي: متعلق بصفة محذوفة لـ(جند)، أو لـ(مهزوم).

(٣) الغيضة: الشجرُ الملتفُّ.

(٤) سَجَّلَ عليه بكذا: شَهرَهُ.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧١).

(٦) في «الكشاف» (٤/٧٨): ويجوز أن يكون إشارةً إلى جميع الأحزاب.

(٧) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧١).

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ١٦ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ١٨﴾ ....

توقفٍ مقدارَ فَواقٍ، وهو: ما بين حَلْبَتَي الحالبِ وَرَضْعَتَي الراضع؛ أي: إذا جاء وقتُها.. لم تستأخِرْ هذا القدرَ من الزمانِ، وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: ما لها من رجوعٍ وتردادٍ[١]؛ مِن: أفاقَ المريضُ: إذا رجع إلى الصِّحةِ، وفُواقُ الناقةِ ساعةُ يَرجِعُ الدَّرُّ إلى ضَرعِها[٢]؛ يريد: أنها نفخةٌ واحدةٌ فحسبُ، لا تُثنَّى ولا تُرَدَّدُ.

《١٦》 ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾: حظَّنا من الجنة؛ لأنه عليه السلام ذكرَ وعدَ اللهِ المؤمنين الجنةَ فقالوا على سبيلِ الهُزءِ: عَجِّلْ لنا نصيبَنا منها، أو: نصيبَنا من العذاب الذي وعدتَه، كقولِه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، وأصلُ القِطِّ: القِسْطُ مِن الشيءِ؛ لأنه قطعةٌ منه، مِن: قَطَّهُ: إذا قطعَه، ويقال لصحيفةِ الجائزةِ: قِطٌّ؛ لأنها قطعةٌ من القِرطاس، ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ١٦﴾.

《١٧》 ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك وصُنْ نفسَك أن تَزِلَّ فيما كُلِّفْتَ من مصابرتِهم وتحملِ أذاهم، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ وكرامتَه على الله كيف زلَّ تلك الزلةَ اليسيرةَ فلقي من عتاب اللهِ ما لقيَ، ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾: ذا القوةِ في الدين، ومما يدلُّ على أن الأيدَ القوةُ في الدين قولُه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ أي: رَجّاعٌ إلى مرضاة الله تعالى، وهو تعليلٌ لذي الأيدِ، روي: أنه كان يصومُ يوماً ويُفطرُ يوماً[٣]، وهو أشدُّ الصومِ، ويقومُ نصفَ الليلِ.

《١٨》 ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾: ذَلَّلْنا ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ قيل: كان تسخيرُها أنها تسيرُ معه إذا أرادَ سيرَها إلى حيث يريد، ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في معنى: مسبحاتٍ، على الحال، واختار (يسبحن) على مسبحاتٍ؛ ليدلَّ على حدوث التسبيحِ من الجبال شيئاً بعدَ شيءٍ، وحالاً بعدَ حالٍ، ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ١٨﴾ أي: في طرفي النهارِ، والعَشيُّ: وقتُ العصرِ إلى الليل، والإشراقُ: وقتُ الإشراقِ، وهو حين تشرقُ الشمسُ؛ أي: تُضيءُ، وهو وقت الضحى، وأما شروقُها.. فطلوعُها، تقول: شَرَقَتِ الشمسُ ولمّا تُشرقْ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفتُ صلاةَ الضحى إلا بهذه الآيةِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٦١).

(٢) في «لسان العرب»: فُواقُ الناقة: رجوعُ اللبنِ في ضَرْعِها بعد حَلْبها. يقال: لا تنتظره فُواقَ ناقةٍ. جعلوه ظرفاً على السَّعَةِ. وفي «الصحاح» للجوهري: والفُواقُ والفَواقُ: ما بين الحلْبتين من الوقت؛ لأنها تُحلَبُ ثم تُترك سُويعة يرضعُها الفصيل لِتَدُرَّ ثم تُحلب.

(٣) رواه البخاريُّ (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ....﴾

《١٩》 ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾: وسخرنا الطيرَ مجموعةً من كلِّ ناحيةٍ، وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كان إذا سبَّحَ.. جاوَبَتْهُ الجبالُ بالتسبيح، واجتمعت إليه الطيرُ فسبحت، فذلك حشرُها، ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾: كلُّ واحدٍ من الجبالِ والطيرِ لأجلِ داودَ؛ أي: لأجلِ تسبيحِه مسبحٌ؛ لأنها كانت تسبحُ لتسبيحِه، ووضعَ الأوابُ موضعَ المسبح؛ لأنَّ الأوابَ وهو: التوابُ الكثيرُ الرجوعِ إلى الله وطلبِ مرضاتِه.. من عادته أن يُكثرَ ذكرَ اللهِ ويديمَ تسبيحَه وتقديسَه، وقيل: الضميرُ لله؛ أي: كلٌّ من داودَ والجبالِ والطيرِ لله أوابٌ؛ أي: مسبحٌ مرجِّعٌ للتسبيح.

《٢٠》 ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾: قوَّيناه، قيل: كان يبيتُ حولَ محرابِه ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجلٍ يحرُسُونه، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾: الزَّبورَ وعلمَ الشرائعِ، وقيل: كلُّ كلامٍ وافقَ الحقَّ فهو حكمةٌ، ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾: علمَ القضاءِ وقطعِ الخِصامِ والفَصلِ بين الحقِّ والباطلِ، والفصلُ هو: التمييزُ بين الشيئين، وقيل للكلام البيِّنِ: فصلٌ؛ بمعنى: المفصولِ، كضَرْبِ الأميرِ[(١)]، وفصلُ الخطابِ: البيِّنُ من الكلامِ، الملخَّصُ الذي يتبيَّنُه مَنْ يُخاطَبُ به لا يلتبس عليه، وجاز أن يكون الفصلُ بمعنى: الفاصل، كالصَّومِ والزَّور[(٢)]، والمرادُ بـ(فصل الخطاب): الفاصلُ من الخطاب، الذي يفصلُ بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، وهو كلامُه في القضايا والحكوماتِ وتدابيرِ الملكِ والمشْوُراتِ، وعن علي رضي الله عنه: هو الحكمُ بالبينة على المدَّعِي، واليمينِ على المدَّعَى عليه[(٣)]، وهو من الفصل بين الحق والباطل، وعن الشعبيِّ: هو قولُه: أما بعدُ[(٤)]، وهو أولُ من قال: أما بعدُ؛ فإن مَن تكلمَ في الأمرِ الذي له شأنٌ.. يفتتحُ بذكرِ اللهِ وتحميدِه، فإذا أراد أن يَخرجَ إلى الغرض المسُوقِ له.. فصلَ بينه وبين ذكرِ الله بقولِه: أما بعدُ.

《٢١》 ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ ظاهرُه الاستفهامُ، ومعناه: الدلالةُ على أنه من الأنباء العجيبةِ، والخصمُ: الخُصماءُ، وهو يقع على الواحد والجمع؛ لأنه مصدرٌ في الأصل، تقول: خَصَمَه خَصْماً، وانتصابُ ﴿إِذْ﴾: بمحذوفٍ، تقديرُه: وهل أتاك نبأُ تحاكمِ الخصمِ، أو:

---

(١) أي: مضروبه، وهو ما يَصُوغُه من الدراهم والدنانير.

(٢) بمعنى: الصائم والزائر.

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٨/ ٢٧٣) من قول شريح.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٥٤١) عن الشعبي عن زيادِ بنِ أبي سفيانَ.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ ....

بالخصمِ؛ لما فيه من معنى الفعل، ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾: تَصعَّدُوا سُوْرَه، ونزلُوا إليه، والسُّوْرُ: الحائطُ المرتفعُ، والمحرابُ: الغرفةُ، أو المسجدُ، أو صدرُ المسجدِ.

《٢٢》 ﴿إِذْ﴾: بدلٌ من الأولى، ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ روي: أن الله تعالى بعثَ إليه ملكين في صورة إنسانين، فطلبا أن يَدخُلا عليه، فوجداه في يومِ عبادتِه، فمنعَهما الحرسُ، فتسوَّرا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان، ففزعَ منهم؛ لأنهم دخلوا عليه المحرابَ في غيرِ يومِ القضاءِ؛ ولأنهم نزلُوا عليه من فوقُ، وفي يومِ الاحتجابِ، والحرسُ حولَه لا يتركُون من يدخلُ عليه، ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: نحن خصمانِ ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: تعدَّى وظلَمَ، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾: ولا تَجُرْ، مِن الشططِ، وهو: مجاوزةُ الحدِّ وتَخطِّي الحقِّ، ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾: وأرشِدْنا إلى وَسَطِ الطريقِ ومَحَجَّتِه؛ والمرادُ: عينُ الحقِّ ومحضُه، روي: أن أهلَ زمانِ داودَ عليه السلام كان يسألُ بعضُهم بعضاً أن يَنزلَ له عن امرأتِه فيتزوجَها إذا أعجبتْه، وكان لهم عادةٌ في المواساة بذلك، وكان الأنصارُ يُواسُون المهاجرين بمثلِ ذلك[1]، فاتفق أن داودَ عليه السلام وقعت عينُه على امرأةِ أُوْريا فأحبَّها، فسأله النزولَ له عنها فاستحَيى أن يردَّه ففعلَ فتزوجَها، وهي أمُّ سليمانَ، فقيل له: إنك مع عظمِ منزلتِك وكثرةِ نسائِك لم يكن ينبغي لك أن تسألَ رجلاً ليس له إلا امرأةٌ واحدةٌ النزولَ، بل كان الواجبُ عليك مغالبةَ هواك وقهرَ نفسِك والصبرَ على ما امتُحنتَ به[2]، وقيل: خطبَها أُوْريا، ثم خطبَها داودُ فآثره أهلُها، فكانت زلتُه أن خطب على خطبةِ أخيه المؤمن مع كثرةِ نسائِه، وما يُحكَى أنه بعثَ مرةً بعد مرةٍ أُوْريا إلى غزوةِ البلقاءِ، وأحبَّ أن يُقتلَ ليتزوجَها.. فلا يليق من المتَّسمين بالصلاحِ من أفناءِ الناس[3]، فضلاً عن بعضِ أعلامِ الأنبياءِ،

---

(١) هذا الأمر لم يرد أنه وقعَ من الأنصار، ولكن الذي ورد مُجَرَّدُ عَرْضِ ذلك.
روى الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أيْ أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطرَ مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيتُهما أعجب إليك حتى أطلقَها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك...

(٢) هذا لا يليق بسيدنا داود ﷺ.

(٣) أفناء: جماعات.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ....

وقال عليٌّ رضي اللهُ عنه: مَن حدَّثكم بحديثِ داودَ عليه السلام على ما يَرويه القُصاصُ.. جلدتُه مئةً وستين، وهو حدُّ الفِريةِ على الأنبياءِ، ورويَ: أنه حُدِّثَ بذلك عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وعندَه رجلٌ من أهل الحقِّ، فكذَّبَ المحدِّثَ به وقال: إن كانت القصةُ على ما في كتاب الله.. فما يَنبغي أن يُلْتَمَسَ خِلافُها، وأَعْظِمْ بأن يقالَ غيرُ ذلك، وإن كانت على ما ذكرتَ وكفَّ اللهُ عنها؛ سَتراً على نبيِّه.. فما ينبغي إظهارُها عليه، فقال عمرُ: لَسماعِي هذا الكلامَ أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمسُ.

والذي يدلُّ عليه المثلُ الذي ضربَه اللهُ لقصتِه عليه السلام ليس إلا طلبُه إلى زوجِ المرأةِ أن ينزلَ له عنها فحسبُ، وإنما جاءت على طريقِ التمثيلِ والتعريضِ دون التصريحِ لكونها أبلغَ في التوبيخ، مِن قِبَلِ أن التأملَ إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرَّضِ به.. كان أوقعَ في نفسِه، وأشدَّ تمكناً من قلبِه، وأعظمَ أثراً فيه، مع مراعاةِ حسنِ الأدبِ بتركِ المجاهرةِ[1].

《٢٣》 ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾: هو بدلٌ من (هذا)، أو: خبرٌ لـ(إنَّ)، والمرادُ أخوةُ الدين، أو أخوةُ الصداقةِ والألفةِ، أو أخوةُ الشركةِ والخِلطةِ؛ لقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ ﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيْ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ﴿وَلِىَ﴾: حفصٌ[2]، والنعجةُ: كنايةٌ عن المرأةِ[3]، ولمّا كان هذا تصويراً للمسألةِ وفرضاً لها.. لا يمتنعُ أن يفرِضَ الملائكةُ في أنفسهم، كما تقول: لي أربعون شاةً، ولك أربعون، فخلطناها. وما لَكُما من الأربعين أربعةٌ، ولا رُبُعُها، ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾: ملِّكْنيها، وحقيقتُه: اجعلْني أكفُلُها كما أكْفُلُ ما تحت يدي، وعن ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما: اجعلْها كِفْلِي؛ أي: نصيبي، ﴿وَعَزَّنِى﴾: وغلَبني، يقال: عَزَّهُ يَعُزُّهُ، ﴿فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾: في الخصومةِ؛ أي: كان أقدرَ على الاحتجاجِ مني، وأرادَ بالخطابِ مخاطبةَ المحاجِّ المجادِلِ، أو أراد: خطبتُ المرأةَ وخطبَها هو، فخاطبني خِطاباً؛ أي: غالبَني في الخِطبةِ فغلبَني حيث زُوِّجَها دوني، ووجهُ التمثيل: أن مُثِلت قصةُ أُورِيا مع داود بقصةِ رجلٍ له نعجةٌ واحدةٌ، ولخليطِه تسعٌ وتسعون، فأراد صاحبُه تتمةَ المئةِ، فطمع في نعجةِ خليطِه، وأراده على الخروجِ مِن مِلْكِها

---

(١) هذا مبني على صحة قصة سيدنا سليمان مع أوريا، وهي من الإسرائيليات التي لا يمكن إثبات صحتها، ولا حاجة إليها، فالأولى فَهم هذا النص القرآني بعيداً عن تلك القصة بكل رواياتها. انظر معنى هذه الآيات في «التفسير الوسيط» لمحمد سيد طنطاوي (١٢/ ١٤٥) فقد أجاد وأفاد.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٢).

(٣) الصوابُ حملُ النعجةِ على معناها الحقيقي المعروف؛ إذ لا ضرورة تدعو للمجاز.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ ....

إليه، وحاجَّه في ذلك محاجة حريصٍ على بلوغِ مرادِه، وإنما كان ذلك على وجهِ التحاكمِ إليه؛ ليحكمَ بما حكمَ به من قولِه:

《٢٤》 ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ حتى يكونَ محجوجاً بحكمِه، وهذا جوابُ قسمٍ محذوفٍ، وفي ذلك استنكارٌ لفعلِ خليطِه، والسؤالُ: مصدرٌ مضافٌ إلى المفعول، وقد ضُمِّنَ معنى الإضافة فعديَ تعديتَها، كأنه قيل: بإضافة نعجتِك إلى نعاجِه على وجهِ السؤالِ والطلبِ، وإنما ظَلَّمَ الآخر بعد ما اعترفَ به خصمُه، ولكنه لم يُحْكَ في القرآن لأنه معلومٌ، ويروى أنه قال: أنا أريدُ أن آخذَها منه وأُكْمِلَ نِعاجي مئةً، فقال داود: إن رُمْتَ ذلك.. ضربْنا منك هذا وهذا، وأشار إلى طَرَفِ الأنفِ والجبهةِ، فقال: يا داودُ أنت أحقُّ أن يُضربَ منك هذا وهذا، وأنت فعلتَ كيت وكيت[1]، ثم نظرَ داودُ فلم يَرَ أحداً، فعرفَ ما وقعَ فيه، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾: الشركاءِ والأصحابِ ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المستثنَى: منصوبٌ، وهو من الجنس، والمستثنى منه بعضُهم، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ما): للإبهام، و(هم): مبتدأٌ، و(قليل): خبرُه، ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي: عَلِمَ وأيقنَ، وإنما استعيرَ له؛ لأن الظنَّ الغالبَ يُداني العلمَ، ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: ابتليناه، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لزلتِه، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: سقطَ على وجهه ساجداً لله، وفيه دليلٌ على أن الركوع يقومُ مقامَ السجودِ في الصلاةِ إذا نُوِيَ؛ لأن المرادَ مجردُ ما يَصلُح تواضعاً عندَ هذه التلاوةِ، والركوعُ في الصلاة يعملُ هذا العملَ، بخلاف الركوع في غيرِ الصلاةِ[2]، ﴿وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾: ورجعَ إلى اللهِ بالتوبةِ، وقيل: إنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلةً لا يرفعُ رأسَه إلا لصلاةٍ مكتوبةٍ أو ما لا بدَّ منه، ولا يرقأُ دمعُه حتى نبتَ العُشبُ من دمعِه، ولم يشربْ ماءً إلا وثلثاه دمعٌ.

《٢٥》 ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: زلتَه، ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾: لقربةً، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾: مرجعٍ، وهو الجنةُ.

---

(١) يَجِبُ أن ينزه سيدنا سليمان ﷺ عن ذكر هذه الروايات التي لا تليق بأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام.

(٢) عند الحنفية: يجزئ عن سجود التلاوةِ ركوعُ الصلاةِ إن نوى أداءَها فيه، ويجزئ سجودُ الصلاةِ وإن لم ينوها إذا لم يقرأ أكثرَ من آيتين بعد آية التلاوةِ. انظر «نور الإيضاح» (ص ٩٩).

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ....

《٢٦》 ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الملك في الأرضِ، أو: جعلناك خليفةً ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحقِّ، وفيه دليلٌ على أن حاله بعد التوبةِ بقيت على ما كانت عليه لم تتغيرْ، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحكم اللهِ إن كنتَ خليفتَه، أو بالعدلِ، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفسِ في قضائك، ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينِه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: بنسيانهم يومَ الحسابِ.

《٢٧》 ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلقِ ﴿بَٰطِلًا ۚ﴾: خلقاً باطلاً لا لحكمةٍ بالغةٍ، أو: مبطلين عابثين، كقولِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وتقديرُه: ذوي باطلٍ، أو: عبثاً، فوُضِعَ (باطلاً) موضعَه؛ أي: ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعبِ، ولكن للحقِّ المبين، وهو أنا خلقْنا نفوساً أودعناها العقلَ، ومنحناها التمكُّنَ، وأزحْنا عِلَلَها[1]، ثم عَرَّضْناها للمنافعِ العظيمةِ بالتكليفِ، وأعددْنا لها عاقبةً وجزاءً على حسبِ أعمالِهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى خلقِها باطلاً، ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ الظنُّ بمعنى: المظنونِ؛ أي: خَلْقُها للعبث لا للحكمةِ هو مظنونُ الذين كفروا، وإنما جُعلوا ظانِّين أنه خلقَها للعبث لا للحكمةِ مع إقرارِهم بأنه خالقُ السموات والأرض وما بينهما بقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ٢٥]؛ لأنه لما كان إنكارُهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤدِّياً إلى أن خلقَها عبثٌ وباطلٌ.. جُعلُوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه؛ لأن الجزاء هو الذي سيقت إليه الحكمةُ في خلقِ العالمِ، فمن جحدَه.. فقد جحدَ الحكمةَ في خلقِ العالمِ، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾.

《٢٨》 ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ (أم): منقطعةٌ؛ ومعنى الاستفهامِ فيها: الإنكارُ؛ والمرادُ: أنه لو بطلَ الجزاءُ كما يقول الكفار..

---

(١) أي: قطعنا أعذارها بإرسال الرسل وإنزال الكتب وهدايتها إلى الحق، والعلة تأتي بمعنى العذر؛ ومنه المثل: (لا تَعْدِمُ خرقاءُ علةً) يقال لكل معتذر مقتدر. انظر «تاج العروس» (٣٠/٤٨)

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ ....

لاستوت أحوالُ مَن أصلحَ وأفسدَ، واتقى وفجرَ، ومن سوّى بينهم.. كان سفيهاً ولم يكن حكيماً.

《٢٩》 ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتابٌ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يعني: القرآنَ، ﴿مُبَٰرَكٞ﴾: صفةٌ أخرى، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وأصلُه: ﴿لِيتدبرُوا﴾، وقرئَ به[1]، ومعناه: ليتفكروا فيها فيقفُوا على ما فيه ويعملُوا به، وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآنَ عبيدٌ وصبيانٌ لا علمَ لهم بتأويلِه، حفظُوا حروفَه وضيعُوا حدودَه، ﴿لِتَدَبَّرُوا﴾: على الخطاب بحذف إحدى التاءين: يزيدُ[2]، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾: وليتعظَ بالقرآن أُولُو العقولِ.

《٣٠》 ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ أي: سليمانُ، وقيل: داودُ، وليس بالوجهِ[3]، فالمخصوصُ بالمدح محذوفٌ، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ وعللَ كونَه ممدوحاً بكونِه أواباً؛ أي: كثيرَ الرجوعِ إلى الله تعالى.

《٣١》 ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ﴾: على سليمانَ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: بعدَ الظهرِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾: الخيولُ القائمةُ على ثلاثِ قوائمَ وقد أقامت الأخرى على طَرَفِ حافرٍ، ﴿ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾: السِّراعُ، جمعُ جوادٍ؛ لأنه يجودُ بالركض، وَصَفَها بالصُّفونِ؛ لأنه لا يكون في الهجنِ، إنما هو في العِرابِ، وقيل: وَصَفَها بالصُّفونِ والجَودةِ؛ ليجمعَ لها بين الوصفين المحمودين واقفةً وجاريةً؛ يعني: إذا وقفت.. كانت ساكنةً مطمئنةً في مواقفِها، وإذا جرت.. كانت سِراعاً خِفافاً في جَرْيِها، وقيل: الجِيادُ: الطِّوالُ الأعناقِ؛ مِن الجِيْدِ[4]، وروي: أن سليمانَ عليه السلام غزا أهلَ دمشقَ ونَصِيبِينَ فأصابَ ألفَ فرسٍ، وقيل: وَرِثَها من أبيه، وأصابها أبوه من العَمالقةِ، وقيل: خرجت من البحرِ لها أجنحةٌ، فقعد يوماً بعد ما صلى الظهرَ على كرسيِّه واستعرضَها، فلم تزلْ تُعرضُ عليه حتى غربت الشمسُ وغَفَلَ عن العصرِ وكانت فرضاً عليه، فاغتمَّ لِما فاتَه، فاستردَّها وعقرَها تقرباً لله، وبقيَ مئةٌ، فما في أيدي الناسِ من الجيادِ.. فمِن نسلِها، وقيل: لما عقرها.. أبدلَه الله خيراً منها، وهي الريحُ تجري بأمره.

---

(١) انظر «الكشاف» (٤/ ٩١).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٢).

(٣) لأن سيدنا سليمان ﷺ هو المسوق للحديث عنه، فهو المخصوص بالمدح. انظر «الدر المصون» (٩/ ٣٧٤).

(٤) الجِيْدُ: العنق.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾ ....

《٣٢》 ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: آثرتُ حبَّ الخيلِ عن ذكرِ ربي، كذا عن الزجاجِ[١]، فـ(أحببت) بمعنى: آثرتُ، كقولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، و(عن) بمعنى: على، وسَمَّى الخيلَ خيراً كأنها نفسُ الخيرِ؛ لتعلقِ الخيرِ بها، كما قال عليه السلام: «الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[٢]، وقال أبو عليٍّ: (أحببت) بمعنى: جلستُ؛ مِن إحبابِ البعيرِ، وهو بُروكُه، و(حبَّ الخير) أي: المالِ: مفعولٌ له مضافٌ إلى المفعولِ، ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ الشمسُ ﴿بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ والذي دلَّ على أن الضميرَ للشمسِ مرورُ ذكرِ العشيِّ، ولا بدَّ للضمير من جَرْيِ ذكرٍ أو دليلِ ذكرٍ، أو الضميرُ للصافنات؛ أي: حتى توارت بحجابِ الليلِ؛ يعني: الظلامَ.

《٣٣》 ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ أي: قال للملائكة: ردُّوا الشمسَ عليَّ لأصليَ العصرَ، فرُدَّتِ الشمسُ له وصلَّى العصرَ، أو: رُدُّوا الصافناتِ، ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣﴾: فجعلَ يمسحُ مسحاً؛ أي: يمسحُ السيفَ بِسُوقِها، وهي جمعُ ساقٍ، كدارٍ ودُورٍ، وأعناقِها؛ يعني: يقطعُها؛ لأنها منعتْه عن الصلاةِ، تقول: مسحَ عِلاوته: إذا ضرب عنقَه[٣]، ومسح المُسَفِّرُ الكتابَ: إذا قطعَ أطرافَه بسيفِه[٤]، وقيل: إنما فعل ذلك كفارةً لها، أو شكراً لردِّ الشمسِ، وكانت الخيلُ مأكولةً في شريعتِه، فلم يكن إتلافاً، وقيل: مسحَها بيدِه استحساناً لها، وإعجاباً بها.

《٣٤》 ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾: ابتليناه، ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ﴾: سريرِ ملكِه ﴿جَسَدٗا﴾، ﴿ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾: رجعَ إلى الله، قيل: فُتِنَ سليمانُ بعد ما ملكَ عشرين سنةً، وملكَ بعدَ الفتنةِ عشرين سنةً، وكان من فِتْنَتِهِ أنه وُلِدَ له ابنٌ فقالت الشياطين: إن عاش.. لم ننفكَّ من السُّخرةِ، فسبيلُنا أن نقتلَه أو نَخْبِلَهُ، فعلمَ ذلك سليمانُ عليه السلام، فكان يغذُوه في السحابةِ خوفاً من مضرةِ الشياطين[٥]، فأُلقيَ ولدُه ميتاً على كرسيِّه، فتنبه على زلتِه في أنْ لم يتوكلْ فيه على ربِّه، ورويَ

---

(١) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٣٣٠).

(٢) رواه البخاري (٢٨٥٢)، ومسلم (١٨٧٣) عن سيدنا عروة البارقي رضي الله عنه.

(٣) العِلاوةُ: أعلى الرأسِ أو العنقِ.

(٤) المُسَفِّرُ: المُجَلِّدُ والوَرّاقُ.

(٥) يغذوه: يُربيه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ ....

عن النبيِّ ﷺ: «قال سليمانُ: لأطوفن الليلة على سبعين امرأةً، كلُّ واحدةٍ منهن تأتي بفارس يجاهدُ في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمِل إلا امرأةٌ واحدةٌ، جاءت بشِقِّ رجلٍ، فجِيءَ به على كرسيِّه، فوُضعَ في حِجْرِهِ، فو الذي نفسُ محمدٍ بيده لو قال: إن شاء الله.. لجاهدُوا في سبيل الله فُرساناً أجمعون»[1]، وأما ما يُروَى مِن حديثِ الخاتمِ والشيطانِ وعبادةِ الوثنِ في بيتِ سليمانَ عليه السلام.. فمن أباطيلِ اليهودِ.

«٣٥» ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾: قدمَ الاستغفارَ على استيهابِ الملكِ؛ جرياً على عادةِ الأنبياءِ عليهم السلامُ والصالحين في تقديم الاستغفارِ على السؤالِ، ﴿لَّا يَنۢبَغِي﴾: لا يَتَسَهَّلُ، ولا يكونُ ﴿لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ أي: دوني، وبفتحِ الياءِ: مدنيٌّ وأبو عمرو[2]، وإنما سألَ بهذه الصفةِ؛ ليكون معجزةً له، لا حسداً، وكان قبل ذلك لم يسخرْ له الريحُ والشياطينُ، فلما دعا بذلك.. سُخرت له الريحُ والشياطينُ، ولن يكون معجزةً حتى يَخْرِقَ العاداتِ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

«٣٦» ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ ﴿الرياحَ﴾: أبو جعفرٍ، ﴿تَجْرِي﴾: حالٌ من (الريح) ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: بأمر سليمانَ، ﴿رُخَآءً﴾: لينةً طيبةً لا تُزَعْزِعُ، وهو حالٌ من ضمير (تجري)، ﴿حَيْثُ﴾: ظرفُ (تجري)، ﴿أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾: قصدَ وأراد، والعربُ تقولُ: أصابَ الصوابَ فأخطأَ الجوابَ.

«٣٧» ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾: عطفٌ على (الريح) أي: سخرْنا له الشياطينَ ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾: بدلٌ من (الشياطين)، كانوا يَبنون له ما شاء من الأبنيةِ، ﴿وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾: ويغوصون له في البحر لإخراج اللُّؤلُؤِ، وهو أولُ من استخرجَ اللؤلؤَ من البحرِ؛ والمعنى: وسخرْنا له كلَّ بناءٍ وغوّاصٍ من الشياطين.

«٣٨» ﴿وَءَاخَرِينَ﴾: عطفٌ على ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ داخلٌ في حكمِ البدلِ، ﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ وكان يَقْرِنُ مردةَ الشياطين بعضَهم مع بعضٍ في القيود والسلاسلِ؛ للتأديبِ والكفِّ عن الفساد، والصَّفَدُ: القيدُ، وسُمِّيَ به العطاءُ؛ لأنه ارتباطٌ للمنعَم عليه، ومنه قولُ علي رضي الله عنه: مَن برَّكَ.. فقد أَسَرَكَ، ومَن جَفَاكَ.. فقد أطلقَكَ.

---

(١) رواه البخاري (٢٨١٩) ومسلم (١٦٥٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٢) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ ....

《٣٩》 ﴿هَٰذَا﴾ الذي أعطيناك من الملكِ والمالِ والبَسطةِ ﴿عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ﴾ : فأعْطِ منه ما شئتَ؛ مِن (المنةِ)، وهي: العطاءُ، ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ عن العطاءِ، وكان إذا أعطَى.. أُجِرَ، وإن مَنَعَ.. لم يأثمْ، بخلاف غيرِه، ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ : متعلقٌ بـ(عطاؤنا)، وقيل: هو حالٌ منه؛ أي: هذا عطاؤُنا جمّاً كثيراً لا يكادُ يُقدرُ على حصره، أو: هذا التسخيرُ عطاؤُنا، فامنُنْ على مَن شئت من الشياطين بالإطلاق، أو أمسكْ من شئتَ منهم في الوَثاق بغيرِ حسابٍ؛ أي: لا حسابَ عليك في ذلك.

《٤٠》 ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾ : (لزلفَى): اسمُ (إن)، والخبرُ: (له)، والعاملُ في (عند): الخبرُ.

《٤١》 ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ : هو بدلٌ من (عبدَنا)، أو: عطفُ بيانٍ، ﴿إِذۡ﴾ : بدلُ اشتمالٍ منه، ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ : دعاه، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ : بأني مسني، حكايةٌ لكلامِه الذي ناداه بسببِه، ولو لم يُحكَ.. لقالَ: بأنه مسَّه؛ لأنه غائب، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ﴾ : قراءةُ العامةِ، ﴿بِنُصُبٍ﴾ : يزيدُ: تثقيلُ (نُصْبٍ)، ﴿بِنَصَبٍ﴾ : كَرُشْدٍ ورَشَدٍ: يعقوبُ، ﴿بِنَصْبٍ﴾ على أصل المصدرِ: هبيرةُ[١]، والمعنى واحدٌ، وهو التعبُ والمشقةُ، ﴿وَعَذَابٍ ٤١﴾ يريدُ مرضَه وما كان يُقاسي فيه من أنواعِ الوَصَبِ[٢]، وقيل: أراد ما كان يُوسوِسُ به إليه في مرضِه مِن تعظيم ما نزل به من البلاءِ، ويُغريه على الكراهةِ والجزعِ، فالتجأ إلى اللهِ في أن يَكفيَه ذلك بكشفِ البلاءِ، أو بالتوفيقِ في دفعِه وردِّه بالصبر الجميل، وروي: أنه كان يعودُه ثلاثةٌ من المؤمنين، فارتدَّ أحدُهم، فسأل عنه، فقيل: ألقَى إليه الشيطانُ أن الله لا يبتلي الأنبياءَ والصالحين، وذُكرَ في سبب بلائِه أنه ذبحَ شاةً فأكلَها وجارُه جائعٌ، أو رأى منكراً فسكت عنه، أو ابتلاه اللهُ لرفعِ الدرجاتِ بلا زلةٍ سبقت منه.

《٤٢》 ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ : حكايةُ ما أجيبَ به أيوبُ عليه السلام؛ أي: أرسلْنا إليه جبريلَ عليه السلام فقال له: اركضْ برجلِك؛ أي: اضربْ برجلِك الأرضَ، وهي أرضُ الجابيةِ فضربَها، فنبعت عينٌ فقيل: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ أي: هذا ما تغتسلُ به وتشربُ منه، فيبرأُ باطنُك وظاهرُك، وقيل: نبعت له عينان، فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى، فذهب الداءُ من ظاهره وباطنِه بإذن اللهِ تعالى.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٤/٥٠٧)، وهي قراءة شاذة.

(٢) **الوَصَبُ**: المرض، ودوامُ الوجع.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ . . .

《٤٣》 ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قيل: أحياهم اللهُ تعالى بأعيانِهم وزادَه مثلَهم ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾: مفعولٌ لهما؛ أي: الهبةُ كانت للرحمة له ولتذكيرِ أولي الألباب؛ لأنهم إذا سمعُوا بما أنعمنا به عليه لصبرِه.. رَغَّبَهم في الصبر على البلاء.

《٤٤》 ﴿وَخُذْ﴾: معطوفٌ على ﴿ٱرْكُضْ﴾، ﴿بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾: حُزمةً صغيرةً من حشيشٍ أو رَيحانٍ أو غيرِ ذلك، وعن ابن عباس رضي اللهُ عنهما: قبضةً من الشجر، ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ وكان حلفَ في مرضه ليضربَنَّ امرأتَه مئةً إذا برأَ[1]، فحلَّلَ اللهُ يمينَه بأهونِ شيءٍ عليه وعليها؛ لحسنِ خدمتِها إياه، وهذه الرخصةُ باقيةٌ، ويجب أن يصيبَ المضروبَ كلُّ واحدةٍ من المئةِ، والسببُ في يمينه أنها أبطأَتْ عليه ذاهبةً في حاجةٍ فحَرِجَ صدرُه[2]، وقيل: باعت ذُؤابَتَيها برغيفين وكانتا مُتعلَّقَ أيوبَ عليه السلام إذا قام[3]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ﴾: علمناه ﴿صَابِرًا﴾ على البلاء، نَعَمْ قد شكا إلى الله ما به واسترحمَه، لكن الشكوى إلى الله لا تُسمَّى جَزَعاً، فقد قال يعقوبُ عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، على أنه عليه السلام كان يطلُب الشفاءَ خيفةً على قومِه من الفتنة، حيث كان الشيطانُ يوسوسُ إليهم أنه لو كان نبيّاً.. لما ابتليَ بمثلِ ما ابتُليَ به، وإرادةَ القوةِ على الطاعةِ، فقد بلغَ أمرُه إلى أنْ لم يبقَ منه إلا القلبُ واللسانُ، ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوبُ، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

《٤٥》 ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ ﴿عِبَٰدَنَآ﴾: مكيٌّ[4]، ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فمن جمع فـ(إبراهيم) ومَن بعده عطفُ بيانٍ على لعبادِنا، ومَن وَحَّدَ.. فـ(إبراهيم) وحدَه عطفُ بيان له، ثم عَطف ذريته على (عبدنا)، ولما كانت أكثرُ الأعمال تُباشَرُ بالأيدي.. غُلِّبَتْ فقيلَ في كلِّ عملٍ: هذا مما عملت أيديْهم وإن كان عملاً لا تَتأتَّى فيه المباشرةُ بالأيدي، أو كان العُمّالُ جُذْماً لا أيديَ لهم، وعلى هذا ورد قولُه: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: أُولي الأعمالِ الظاهرةِ، والفِكَرِ الباطنةِ، كأن الذين لا يعملون أعمالَ الآخرةِ، ولا يُجاهدون في الله، ولا يتفكرون أفكارَ

---

(١) في «مصنف عبد الرزاق الصنعاني» (٨/ ٥١٩) عن عطاء: قال: بلغنا أنه كان حلف ليجلدنَّها مئةَ سوط.

(٢) أي: ضاق.

(٣) الذُّؤابةُ: الضفيرة من الشعر إذا كانت مرسلة، والأولى عدم ذكر هذه الروايات التي لا تليق بتعظيم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٣).

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ....

ذوي الدياناتِ في حكمِ الزَّمْنَى الذين لا يَقدرون على إعمالِ جوارحِهم، والمسلوبي العقولِ الذين لا استبصارَ لهم، وفيه تعريضٌ بكلِّ مَن لم يكن من عُمّالِ الله، ولا من المستبصرين في دينِ اللهِ، وتوبيخٌ على تركهم المجاهدةَ والتأملَ مع كونِهم متمكنين منهما.

《٤٦》 ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾: جعلناهم لنا خالِصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾: بخَصْلَةٍ خالصةٍ لا شَوْبَ فيها، ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ (ذكرى): في محلِّ النصبِ أو الرفعِ؛ بإضمارِ (أعني)، أو (هي)، أو: الجرِّ على البدلِ مِن (خالصة)؛ والمعنى: إنا أخلصناهم بذكرى الدارِ، و(الدار) هنا: الدارُ الآخرةُ؛ يعني: جعلناهم لنا خالِصين؛ بأنْ جعلناهم يُذَكِّرُون الناسَ الدارَ الآخرةَ، ويُزهِّدُونهم في الدنيا، كما هو دَيدنُ الأنبياءِ عليهم السلام[1]، أو معناه: أنهم يُكثرون ذكرَ الآخرةِ والرجوعِ إلى الله، ويَنسَون ذكرَ الدنيا، ﴿بخالصةِ ذكرى الدارِ﴾: على الإضافةِ: مدنيٌّ[2]، وهي من إضافةِ الشيءِ إلى ما يُبينُه؛ لأن الخالصةَ تكون ذكرى وغيرَ ذكرى، و(ذكرى): مصدرٌ مضافٌ إلى المفعول؛ أي: بإخلاصِهم ذكرى الدار، وقيل: (خالصة) بمعنى: خُلوصٍ، فهي مضافةٌ إلى الفاعل؛ أي: بأن خَلُصت لهم ذكرى الدار، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهمٍّ آخرَ، إنما همُّهم ذكرى الدارِ لا غيرُ، وقيل: (ذكرى الدار): الثناءُ الجميلُ في الدنيا، وهذا شيءٌ قد أخلصَهم به، فليس يُذكرُ غيرُهم في الدنيا بمثلِ ما يُذكرون به، يُقوّيه قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

《٤٧》 ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾: المختارين من بينِ أبناءِ جنسِهم، ﴿ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾: جمعُ خَيِّرٍ، أو خَيْرٍ؛ على التخفيف، كأمواتٍ في جمعِ مَيِّتٍ، أو مَيْتٍ.

《٤٨》 ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ كأنَّ حرفَ التعريفِ دخلَ على يَسَع، ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ﴾ التنوينُ عوضٌ عن المضاف إليه؛ أي: وكلُّهم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

《٤٩》 ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ أي: هذا شرفٌ وذكرٌ جميلٌ يُذكرون به أبداً، وإن لهم مع ذلك لحسنَ مرجعٍ؛ يعني: يُذكرون في الدنيا بالجميلِ، ويَرجعون في الآخرة إلى مغفرةِ ربٍّ جليلٍ، ثم بيَّنَ كيفيةَ حسنِ ذلك المرجعِ فقال:

---

(١) ديدن: عادة.
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٣).

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾ ....

«٥٠» ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾: بدلٌ مِن ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾: حالٌ مِن (جنات)؛ لأنها معرفةٌ؛ لإضافتِها إلى (عدن)، وهو علمٌ، والعاملُ فيها: ما في ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ من معنى الفعل[١]، ﴿لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠﴾ ارتفاعُ (الأبواب): بأنها فاعلُ (مفتحة)، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: مفتحةً لهم الأبوابُ منها، فحذفَ، كما حذفَ في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٩] أي: لهم، أو: أبوابها، إلا أن الأولَ أجودُ[٢]، أو: هي بدلٌ من الضميرِ في (مفتحة)، وهو ضميرُ الجناتِ، تقديرُه: مفتحةٌ هي الأبوابُ، وهو مِن بدل الاشتمال.

«٥١» ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: حالٌ من المجرور في ﴿لَّهُمُ﴾، والعاملُ ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾، ﴿فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١﴾ أي: وشرابٍ كثيرٍ، فحُذفَ اكتفاءً بالأول.

«٥٢» ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي: قَصَرْنَ طرفَهن على أزواجهن، ﴿أَتۡرَابٌ ٥٢﴾: لِدَاتٌ[٣]، أسنانُهن كأسنانِهم؛ لأن التحابَّ بين الأقرانِ أثبتُ، وكأن اللِّدَاتِ سُمِّيْنَ أتراباً؛ لأن التُّراب مسَّهن في وقتٍ واحدٍ.

«٥٣» ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ وبالياءِ: مكيٌّ وأبو عمرٍو[٤]، ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٥٣﴾ أي: ليومٍ تُجزى كلُّ نفسٍ بما عملت.

«٥٤» ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾: من انقطاعٍ، والجملةُ: حالٌ من الرزق، والعاملُ: الإشارةُ.

---

(١) قوله سبحانه: (للمتقين): متعلق بخبر (إن) المحذوفِ، والتقدير: إن حسنَ مآب كائنٌ للمتقين، فلما حذف (كائن) ناب عنه الجار والمجرور وتضمن معناه، فكان هو العامل في الحال، ويمكن أن يجعل العامل في الحال الخبر المحذوف. انظر «تفسير الآلوسي» (١٢/ ٢٠٤).

(٢) قوله تعالى: (مفتحة): صفة مشبهة، ومعمولها لا يكون إلا سببياً؛ أي: فيه ضمير يعود على موصوفِها، ومعمولُها: (الأبواب) لا ضميرَ فيه، فإما أن يكون الضمير محذوفاً؛ أي: الأبواب منها، أو تكونَ (أل) نائبةً عن الضمير؛ أي: أبوابها.

(٣) لِدات: جمع لِدَةٍ، وهو: مَن وُلِدَ مَعَك فِي وَقت وَاحِد.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٧٣) وكذا القراءة الآتية.

هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ....

《٥٥》 ﴿هَٰذَاۚ﴾: خبرٌ، والمبتدأُ: محذوفٌ؛ أي: الأمرُ هذا، أو: هذا كما ذُكِر، ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾﴾: مرجعٍ.

《٥٦》 ﴿جَهَنَّمَ﴾: بدلٌ منه، ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾: يدخلونها، ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ شُبِّهَ ما تحتهم من النار بالمهادِ الذي يفترشُه النائمُ.

《٥٧》 ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾﴾ أي: هذا حميمٌ وغسّاقٌ فليذوقوه، فـ(هذا): مبتدأٌ، و(حميمٌ): خبرُه، و(غساق): عطفٌ على الخبر، (فليذوقوه): اعتراضٌ، أو: العذابُ هذا، فليذوقوه، ثم ابتدأ فقال: هو حميمٌ وغساقٌ، بالتشديد: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ، والغساقُ: بالتشديدِ والتخفيفِ: ما يَغْسِقُ مِن صديدِ أهلِ النارِ، يقال: غَسَقَتِ العينُ: إذا سال دمعُها، وقيل: الحميمُ يُحرق بِحَرِّهِ، والغساقُ يُحرق ببردِه.

《٥٨》 ﴿وَءَاخَرُ﴾ أي: وعذابٌ آخرُ، أو مَذُوقٌ آخرُ ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾: مِن مثلِ العذابِ المذكورِ، ﴿وأُخَرُ﴾: بصريٌّ؛ أي: ومذوقاتٌ أُخَرُ مِن شكلِ هذا المذوقِ في الشدةِ والفظاعةِ ﴿أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾: صفةٌ لـ(آخر) لأنه يجوزُ أن يكون ضُروباً.

《٥٩》 ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ هذا جمعٌ كثيفٌ قد اقتحمَ معكم النارَ؛ أي: دخلَ النار في صحبتِكم، والاقتحامُ: الدخولُ في الشيءِ بشدةٍ، والقُحمةُ: الشدةُ، وهذه حكايةُ كلامِ الطاغين بعضِهم مع بعضٍ؛ أي: يقولون هذا، والمرادُ بالفوج: أتباعُهم الذين اقتحمُوا معهم في الضلالةِ، فيقتحمون معهم العذابَ، ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾: دعاءٌ منهم على أتباعهم، تقول لمن تدعُو له: مرحباً؛ أي: أتيت رَحباً من البلاد لا ضيِّقاً، أو: رَحُبت بلادُك رُحباً، ثم تُدخلُ عليه (لا) في دعاءِ السُّوءِ، و(بهم): بيانٌ للمدعوِّ عليهم، ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ أي: داخلُوها، وهو تعليلٌ لاستيجابِهم الدعاءَ عليهم، وقيل: (هذا فوج مقتحم): كلامُ الخزنةِ لرؤساءِ الكفرةِ في أتباعِهم، و(لا مرحباً بهم إنهم صالوا النارِ): كلامُ الرؤساءِ، وقيل: هذا كلُّه كلامُ الخزنةِ.

《٦٠》 ﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباعُ: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ أي: الدعاءُ الذي دعوتم به علينا أنتم أحقُّ به، وعللوا ذلك بقوله: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ والضميرُ للعذاب، أو لصِلِيِّهم؛ أي: أنكم دعوتُمونا إليه فكفرنا باتباعِكم، ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: النارُ.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾

«٦١» ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الأتباعُ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفاً ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ ومعناه: ذا ضِعْفٍ، ونحوُه قولُه: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وهو أن يزيدَ على عذابِه مثلَه.

«٦٢» ﴿وَقَالُوا۟﴾ الضميرُ لرؤساءِ الكفرةِ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ يعنون: فقراءَ المسلمين، ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾: من الأرذالِ الذين لا خيرَ فيهم ولا جدْوى[1].

«٦٣» ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾: بلفظِ الإخبارِ: عراقيٌّ غيرَ عاصمٍ؛ على أنه صفةٌ لـ(رجالاً)، مثل: (كنا نعدهم من الأشرار)، وبهمزة الاستفهامِ: غيرُهم[2]؛ على أنه إنكارٌ على أنفسهم في الاستسخارِ منهم، ﴿سُخرِيّاً﴾: مدنيٌّ وحمزةُ وعليٌّ وخلفٌ والمفضلُ[3]، ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾: مالت ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾: هو متصلٌ بقوله:

(ما لَنا) أي: ما لنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسُوا فيها، بل أزاغت عنهم أبصارُنا، فلا نراهم وهم فيها، قسمُوا أمرَهم بين أن يكونوا من أهل الجنة، وبين أن يكونوا من أهل النار، إلا أنه خفيَ عليهم مكانُهم.

«٦٤» ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾: لصدقٌ كائنٌ لا محالةَ لا بدَّ أن يتكلمُوا به، ثم بيَّنَ ما هو فقال: هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾، ولما شَبَّهَ تقاوُلَهم وما يجري بينهم من السؤال والجوابِ بما يجري بين المتخاصمين.. سمّاه تخاصماً، ولأن قول الرؤساءِ: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ وقولَ أتباعِهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾.. من باب الخصومةِ، فَسُمِّيَ التقاولُ كلُّه تخاصماً؛ لاشتمالِه على ذلك.

«٦٥» ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ لمشركي مكةَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾: ما أنا إلا رسولٌ منذرٌ، أنذرُكم عذابَ اللهِ تعالى، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: وأقول لكم: إن دين الحقِّ توحيدُ اللهِ، وأن تعتقدُوا أنْ لا إله إلا الله ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ بلا نِدٍّ ولا شريكٍ، ﴿ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ لكلِّ شيءٍ.

---

(١) الأرذال: جمع رَذْلٍ، وهو: الدُّونُ الخَسِيسُ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٣).

(٣) انظر المرجع السابق (ص ٢٧٤) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ ....

《٦٦》 ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ له الملكُ والربوبيةُ في العالمِ كلِّه، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يُغلبُ إذا عاقب، ﴿ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ لذنوبِ مَن التجأ إليه.

《٦٧》 ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: هذا الذي أنبأتُكم به من كوني رسولاً منذراً، وأن الله واحد لا شريك له ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ لا يُعرِضُ عن مثله إلا غافلٌ شديدُ الغفلةِ، ثم:

《٦٨》 ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾: غافلون.

《٦٩》 ﴿مَا كَانَ لِىَ﴾: حفصٌ[1]، ﴿مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾: احتجَّ لصحةِ نبوتِه بأن ما يُنبِئُ به عن الملإِ الأعلى واختصامِهم أمرٌ ما كان له به من علم قطُّ، ثم علمَه، ولم يَسلُكِ الطريقَ الذي يسلُكه الناسُ في علمِ ما لم يعلموا، وهو الأخذُ من أهلِ العلمِ، وقراءةُ الكتبِ، فعُلِمَ أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحي من الله تعالى.

《٧٠》 ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي: لِأنما أنا نذير مبين؛ ومعناه: ما يُوحَى إليَّ إلا للإنذار، فحُذفَ اللامُ، وانتصبَ بإفضاءِ الفعلِ إليه، ويجوزُ أن يرتفع على معنى: ما يوحى إليَّ إلا هذا، وهو: أن أُنذرَ وأُبلغَ ولا أُفْرِطَ في ذلك؛ أي: ما أومرُ إلا بهذا الأمرِ وحده، وليس لي غيرُ ذلك، وبكسرِ (إنما): يزيدُ؛ على الحكايةِ؛ أي: إلا هذا القولَ، وهو أن أقولَ لكم: إنما أنا نذير مبين، ولا أدعي شيئاً آخرَ، وقيل: النبأُ العظيمُ: قصصُ آدمَ والأنبياءِ به من غير سماعٍ من أحدٍ، وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: القرآنُ، وعن الحسن: يومُ القيامةِ؛ والمرادُ بالملإِ الأعلى: أصحابُ القصةِ الملائكةُ وآدمُ وإبليسُ؛ لأنهم كانوا في السماءِ، وكان التقاوُلُ بينهم، و(إذ يختصمون): متعلقٌ بمحذوفٍ؛ إذ المعنى: ما كان ليَ من علمٍ بكلامِ الملإِ الأعلى وقتَ اختصامِهم.

《٧١》 ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾: بدلٌ من (إذ يختصمون) أي: في شأنِ آدمَ حين قال تعالى على لسانِ ملكٍ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

---

(١) غيرُ حفصٍ: بتسكين الياء.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ . . . .

《٧٢》 ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: فإذا أتممتُ خَلْقَهُ وعَدَّلْتُه، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ الذي خلقتُه، وأضافَه إليه تخصيصاً، كبيتِ اللهِ وناقةِ اللهِ؛ والمعنى: أحييتُه وجعلتُه حسّاساً مُتنفِّساً ﴿فَقَعُوا۟﴾: أَمْرٌ؛ مِن: وقع يقع؛ أي: اسقُطُوا على الأرض؛ والمعنى: اسجُدُوا ﴿لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ قيل: كان انحناءً يدلُّ على التواضع، وقيل: كان سجدةً لله، أو كان سجدةَ التحيةِ.

《٧٣》 ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (كلٌّ): للإحاطة، و(أجمعون): للاجتماع، فأفاد أنهم سجدُوا عن آخرهم جميعاً في وقت واحدٍ غيرَ متفرقين في أوقاتٍ[1].

《٧٤》 ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾: تَعَظَّمَ عن السجود، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾: وصار من الكافرين بإباءِ الأمرِ.

《٧٥》 ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾: ما منعك عن السجودِ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أي: بلا واسطةٍ؛ امتثالاً لأمري، وإعظاماً لخطابي، وقد مرَّ أن ذا اليدين يُباشرُ أكثرَ أعمالِه بيديه، فَغُلِّبَ العملُ باليدين على سائر الأعمال التي تُباشَرُ بغيرهما، حتى قيل في عمل القلب: هو ما عملت يداك، وحتى قيل لمن لا يَدَينِ له: (يداك أَوْكَتا، وفُوكَ نفخَ)[2]، وحتى لم يَبْقَ فرقٌ بين قولِك: هذا مما عملتَه، وهذا مما عملتْه يداك، ومنه قولُه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١]، و(لما خلقت بيدي)، ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾: استفهامُ إنكارٍ، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾: ممن علوتَ وفُقْتَ، وقيل: أستكبرت الآن أم لم تَزَلْ مذْ كنتَ من المستكبرين؟

《٧٦》 ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ يعني: لو كان مخلوقاً من نارٍ.. لما سجدتُ له؛ لأنه مخلوقٌ مثلي، فكيف أسجدُ لمن هو دوني؛ لأنه من طينٍ، والنارُ تغلِبُ

---

(١) في «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢١٠): أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص، وقيل: أكد بالكل للإحاطة، وبأجمعين للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعين دفعة، وفيه نظرٌ؛ إذ لو كان الأمر كذلك.. كان الثاني حالاً لا تأكيداً.

(٢) هذا مَثَلٌ يُضرب لمن جنى على نفسه، وقصتُه أنّ رجلاً نفخَ كيساً من جلدٍ ولم يُحكِم رِباطَه، وركبه ليعبُرَ نهراً، فلمّا توسّطه.. انحلّ الوكاءُ، وخرج الرّيح فجعل يغرقُ، فاستغاث بأحد أصحابه، فقال له هذا القولَ. انظر «أمثال العرب» للضبي (ص ٧٧).

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ ....

الطين وتأكلُه، وقد جرت الجملةُ الثانيةُ من الأولى، وهي: (خلقتني من نار) مجرى المعطوفِ عطفَ البيانِ والإيضاحِ.

《٧٧》 ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾: من الجنةِ، أو من السموات، أو من الخِلْقَةِ التي أنت فيها؛ لأنه كان يفتخرُ بخلقتِه، فغيَّرَ اللهُ خلقتَه واسودَّ بعد ما كان أبيضَ، وقَبُحَ بعد ما كان حسناً، وأظلمَ بعد ما كان نُورانيّاً، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾: مرجومٌ؛ أي: مطرودٌ، تكبَّرَ إبليسُ أن يسجدَ لمن خُلقَ مِن طينٍ، وزلَّ عنه أن الله أمرَ به ملائكتَه واتبعُوا أمرَه؛ إجلالاً لخطابِه، وتعظيماً لأمره، فصار مرجوماً ملعوناً بتركِ أمره.

《٧٨》 ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيَ﴾ بفتح الياءِ: مدنيٌّ[١]؛ أي: إبعادي من كلِّ الخيرِ، ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: يوم الجزاءِ، ولا يُظَنّ بأن لعنته غايتُها يومُ الدين ثم تنقطعُ؛ لأن معناه: أن عليه اللعنةَ في الدنيا وحدَها، فإذا كان يومُ الدين.. اقترن بها العذابُ، فينقطعُ الانفرادُ، أو: لما كان عليه اللعنةُ في أوان الرحمةِ.. فأولى أن تكون عليه في غيرِ أوانِها، وكيف تنقطعُ وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

《٧٩》 ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾: فأمهلني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

《٨٠ - ٨١》 ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ الوقتُ المعلومُ: الوقتُ الذي تقعُ فيه النفخةُ الأولى، ويومُه: اليومُ الذي وقتُ النفخةِ جزءٌ من أجزائِه؛ ومعنى (المعلوم): أنه معلومٌ عندَ الله معينٌ، لا يتقدمُ ولا يتأخرُ.

《٨٢》 ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾: أَقسمَ بعزةِ اللهِ، وهي سلطانُه وقهرُه.

《٨٣》 ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وبكسرِ اللامِ: مكيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[٢].

《٨٤》 ﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾: بالرفعِ: كوفيٌّ غيرَ عليٍّ؛ على الابتداء؛ أي: الحقُّ منِّي، أو: على الخبرِ؛ أي: أنا الحقُّ، وبالنصب: غيرُهم[٣]؛ على أنه مُقسمٌ به، كقولِه: اللهَ لأفعلن كذا؛

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٤).

(٢) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٧٩).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٤).

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

يعني: حُذفَ عنه الباءُ فانتصب، وجوابُه: (لأملأنَّ)، ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾: اعتراضٌ بين المقسَمِ به والمقسَمِ عليه، وهو منصوب بـ(أقول)؛ ومعناه: ولا أقولُ إلا الحقَّ؛ والمرادُ بالحقِّ: إما اسمُه عزَّ وجلَّ الذي في قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [النور: ٢٥]، أو: الحقُّ الذي هو نَقيضُ الباطل، عظَّمَه اللهُ بإقسامه به.

《٨٥》 ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾: من جنسِكَ وهم الشياطينُ، ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: من ذريةِ آدمَ ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: لأملأنَّ جهنمَ من المتبوعين والتابعين أجمعين، لا أتركُ منهم أحداً.

《٨٦》 ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الضميرُ للقرآنِ أو للوحيِ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾: من الذين يتصنَّعُون ويتحلَّون بما ليسُوا من أهله، وما عرفتموني قطُّ متصنعاً ولا مدعياً بما ليس عندي حتى أنتحلَ النبوةَ وأتقوَّلَ القرآنَ.

《٨٧》 ﴿إِنْ هُوَ﴾: ما القرآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾: للثقلين، أُوحيَ إليَّ فأنا أبلغُه.

وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلفِ ثلاثُ علامات: يُنازعُ مَن فوقَه، ويَتعاطَى ما لا يَنال، ويقول ما لا يَعلمُ»[١].

《٨٨》 ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾: نبأَ القرآنِ وما فيه من الوعدِ والوعيدِ وذكرِ البعثِ والنشورِ ﴿بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾: بعدَ الموتِ، أو يومَ بدرٍ، أو يومَ القيامةِ.

ختمَ السورةَ بالذكرِ كما افتتحَها بالذكرِ.



---

(١) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٨/ ٢١٨).

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ . . .

سورة الزمر

مكيةٌ وهي سبعون وخمسُ آياتٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآنِ: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: نزلَ من عندِ الله، أو: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والجارُّ صلةُ التنزيلِ، أو: غيرُ صلةٍ، بل هو خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: هذا تنزيلُ الكتابِ، هذا من الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في سلطانِه ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ في تدبيرِه.

《٢》 ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا ليس بتكرارٍ؛ لأن الأولَ كالعُنوانِ للكتابِ، والثاني لبيانِ ما في الكتابِ، ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا﴾: حالٌ، ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ أي: مُمَحِّضاً له الدينَ من الشركِ والرياءِ بالتوحيدِ وتصفيةِ السرِّ، فـ(الدينَ): منصوبٌ بـ(مخلصاً)، وقُرِئَ: (الدينُ): بالرفعِ، وحقُّ مَن رفعَه أن يَقرأَ مُخْلَصاً[1].

《٣》 ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي: هو الذي وجبَ اختصاصُه بأن تُخلصَ له الطاعةُ من كل شائبةِ كدرٍ؛ لاطِّلاعِه على الغيوبِ والأسرارِ، وعن قتادة: الدينُ الخالصُ: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله، وعن الحسن: الإسلامُ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهةً، وهو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ تقديرُه: والذين عبدوا الأصنام يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾: مصدرٌ؛ أي: تقريباً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾: بين المسلمين والمشركين ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: كان المسلمون إذا قالُوا لهم: مَن خلق السموات والأرضَ؟ قالُوا: اللهُ، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنامَ؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى؛ والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازِعين من الفريقين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ أي: لا يهدي من هو في علمِه أنه يختارُ الكفرَ؛ يعني: لا يوفقُه للهدى، ولا يُعينُه وقتَ

---

(١) قراءة شاذة، وتخريجُها: أن (الدينُ): فاعلُ (مخلصاً) على الإسناد المجازي، أو (له الدينُ): مبتدأ وخبر، فلا يلزمُ من رفع (الدينُ) أن يفتح لام (مخلِصاً). انظر «البحر المحيط» (٧/٣٩٨).

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ....﴾

اختيارِه الكفرَ، ولكنه يخذلُه، وكَذِبُهم: قولُهم في بعضِ مَن اتخذوا من دون الله أولياءَ: بناتُ الله، ولذا عقَّبَه محتجّاً عليهم بقولِه:

«٤» ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: لو جاز اتخاذُ الولدِ على ما تظنُّون.. لاختارَ مما يخلق ما يشاء، لا ما تختارون أنتم وتشاؤون، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: نزَّهَ ذاتَه عن أن يكون له أَخْذُ ما نسبوا إليه من الأولياءِ والأولادِ، ودل على ذلك بقولِه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ يعني: أنه واحدٌ متبرئٌ عن انضمام الأعدادِ، متعالٍ عن التجزؤِ والوِلادِ، قهارٌ غلّابٌ لكلِّ شيءٍ، ومن الأشياء آلهتُهم، فأنى يكونُ له أولياءُ وشركاءُ؟

ثم دلَّ بخلق السمواتِ والأرضِ، وتكويرِ كلِّ واحدٍ من المَلَوَيْنِ على الآخر، وتسخيرِ النَّيِّرَيْنِ[1]، وجريِهما لأجلٍ مسمىً، وبثِّ الناسِ على كثرةِ عددِهم من نفس واحدة، وخلقِ الأنعامِ.. على أنه واحدٌ لا يُشارَكُ، قهارٌ لا يُغالَبُ بقولِه:

«٥» ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ والتكويرُ: اللفُّ واللَّيُّ، يُقالُ: كارَ العِمامةَ على رأسه وكوَّرَها؛ والمعنى: أن كلَّ واحدٍ منهما يُغَيِّبُ الآخرَ إذا طرأَ عليه، فشُبِّهَ في تغييبه إياه بشيءٍ ظاهرٍ لُفَّ، عليه ما غَيَّبَه عن مطامحِ الأبصار[2]، وأن هذا يَكِرُّ على هذا كُروراً متتابعاً، فشُبه ذلك بتتابعِ أكوارِ العمامةِ بعضِها على أثرِ بعضٍ، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: القيامةِ، ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ القادرُ على عقابِ مَن لم يعتبر بتسخيرِ الشمسِ والقمرِ فلم يؤمن بمسخرِهما، ﴿ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ لمن فكرَ واعتبرَ فآمن بمدبِّرِهما.

«٦» ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: آدمَ عليه السلامُ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواءَ

---

(١) المَلَوَانِ: الليل والنهار، والنَّيِّرانِ: الشمسُ والقمرُ.

(٢) مطامح: جمع مَطْمَحٍ، وهو: مصدر أو اسم مكان من: طَمَحَ بصرُه إلى شيء؛ أي: ارتفع.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ ....

مِن قُصَيراه[1]، قيل: أخرجَ ذريةَ آدمَ من ظهره كالذرِّ، ثم خلقَ بعد ذلك حواءَ، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: جعلَ، عن الحسن، أو خلقَها في الجنة مع آدمَ عليه السلامُ، ثم أنزلها، أو: لأنها لا تعيش إلا بالنباتِ، والنباتُ لا يقوم إلا بالماء، وقد أنزل الماءَ فكأنه أنزلها، ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾: ذكرٍ وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمَعْز، كما بَيَّنَ في (سورة الأنعام)، والزوجُ: اسمٌ لواحدٍ معه آخرُ، فإذا انفرد.. فهو فردٌ ووِتْرٌ، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم إلى تمامِ الخلقِ، ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾: ظلمةِ البطنِ والرحم والمَشِيْمَةِ[2]، أو: ظلمةِ الصُّلْبِ والبطنِ والرحم، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه مفعولاتُه هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾: فكيف يُعدَلُ بكم عن عبادتِه إلى عبادةِ غيرِه؟ ثم بَيَّنَ أنه غنيٌّ عنهم بقولِه:

《٧》 ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾: عن إيمانِكم وأنتم محتاجون إليه؛ لتضرُّرِكم بالكفر وانتفاعِكم بالإيمان، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ لأن الكفر ليس بِرضا اللهِ تعالى وإن كان بإرادتِه، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ فتؤمنوا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضَ الشكرَ لكم؛ لأنه سببُ فوزِكم، فيثيبُكم عليه الجنةَ، ﴿يَرْضَهُۥ﴾: بضم الهاءِ والإشباع: مكيٌّ وعليٌّ، ﴿يَرْضَهُ﴾: بضمِّ الهاءِ بدون الإشباع: نافعٌ وهشامٌ وعاصمٌ غيرَ يحيى وحمادٍ، وغيرُهم: ﴿يَرْضَهْ﴾[3]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يُؤاخذُ أحدٌ بذنبِ آخرَ، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾: إلى جزاءِ ربِّكم رجوعُكم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فيخبرُكم بأعمالِكم ويجازيْكم عليها، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾: بخفياتِ القلوب.

《٨》 ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هو: أبو جهلٍ، أو: كلُّ كافرٍ ﴿ضُرٌّ﴾: بلاءٌ وشدةٌ، والمسُّ في الأعراضِ مجازٌ، ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾: راجعاً إلى الله بالدعاء لا يدعو غيرَه، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾:

---

(١) القُصَيْرَى: تصغير القُصْرَى، وهي الضِّلَعُ الأسفلُ التي هي أقصرُ الضلوع.

(٢) المشيمةُ: غشاء يحيط بالجنين.

(٣) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٨٠).

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ ....

أعطاهُ ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾: من الله عزَّ وجلَّ ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربه الذي كان يتضرعُ إليه، و(ما) بمعنى: (مَنْ)، كقولِه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]، أو: نَسِيَ الضُّرَّ الذي كان يدعو اللهَ إلى كشفِه، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: أمثالاً، ﴿لِّيُضِلَّ﴾ ﴿لِيَضِلَّ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو ويعقوبُ[1]، ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: الإسلامِ، ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ: ﴿تَمَتَّعْ﴾: أمرُ تهديدٍ ﴿بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾: من أهلِها.

《٩》 ﴿أَمَّنْ﴾ قرأ بالتخفيفِ: مكيٌّ ونافعٌ وحمزةُ؛ على إدخالِ همزةِ الاستفهام على (من)، وبالتشديد: غيرُهم؛ على إدخالِ (أم) عليه، و(مَن) مبتدأٌ، خبرُه محذوفٌ، تقديرُه: (أمن) ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾ كغيره؛ أي: أمن هو مطيعٌ كمن هو عاصٍ، والقانت: المطيعُ لله، وإنما حُذف لدلالةِ الكلامِ عليه، وهو جَرْيُ ذكرِ الكافرِ قبلَه، وقولُه بعدَه: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: ساعاته ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾: حالان من الضميرِ في (قانت)، ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: عذابَ الآخرةِ، ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي: الجنةَ، ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوفِ والرجاءِ، يرجو رحمتَه لا عملَه، ويحذرُ عقابَه لتقصيره في عملِه، ثم الرجاءُ إذا جاوز حدَّه.. يكون أمناً، والخوفُ إذا جاوزَ حدَّه.. يكون إياساً، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فيجبُ ألا يجاوزَ أحدُهما حدَّه، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون ويعملون به، كأنه جَعَلَ مَن لا يعملُ غيرَ عالمٍ، وفيه ازدراءٌ عظيمٌ بالذين يَقْتَنُون العلومَ ثم لا يَقْنُتُون[2]، ويَفْتَنُّون فيها ثم يُفْتَنُون بالدنيا[3]، فهم عند الله جَهَلَةٌ حيث جعلَ القانتين هم العلماءُ، أو: أُريدَ به التشبيهُ؛ أي: كما لا يَستوي العالمُ والجاهلُ.. كذلك لا يستوي المطيعُ والعاصي، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾: جمعُ لُبٍّ؛ أي: إنما يتعظُ بوعظِ اللهِ أُولو العقولِ.

《١٠》 ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: بلا ياءٍ عند الأكثر[4]، ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ بامتثال أوامرِه،

---

(١) فتحَ الياءَ: مكيٌّ، وبصريٌّ، ورُويسٌ عن يعقوب. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٥) وكذا القراءة الآتية.

(٢) الازدراء: الاحتقار والانتقاص والعيب.

(٣) يَفْتَنُّون: يتوسعون فيأخذون من كل فن.

(٤) إثبات الياء قراءة شاذة. انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٨١).

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ ....﴾

واجتنابِ نواهيْه، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: أطاعوا الله في الدنيا، و(في): يتعلقُ بـ(أحسَنوا) لا بحسنةٍ؛ معناه: الذين أحسَنُوا في هذه الدنيا.. فلهم حسنةٌ في الآخرة، وهي دخول الجنة؛ أي: حسنةٌ لا تُوصف، وقد علقَه السُّدِّيُّ بـ(حسنةٌ)، ففسرَ الحسنةَ بالصحةِ والعافيةِ؛ ومعنى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أنْ لا عذرَ للمفرِّطين في الإحسان البتةَ، حتى إن اعتلُّوا بأنهم لا يتمكنون في أوطانهم من التوفُّرِ على الإحسان[1].. قيل لهم: فإن أرضَ الله واسعة، وبلاده كثيرة، فتحوَّلُوا إلى بلادٍ أُخَرَ واقتدُوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتِهم إلى غيرِ بلادِهم؛ ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم، وطاعةً إلى طاعتهم، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على مفارقةِ أوطانِهم وعشائرِهم وعلى غيرِها من تجرُّعِ الغُصَصِ، واحتمالِ البلايا في طاعةِ اللهِ وازديادِ الخيرِ، ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يَهتدي إليه حسابُ الحُسّابِ ولا يُعرَف. وهو حالٌ من الأجر؛ أي: مُوَفَّراً.

«١١» ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾: بأن أعبدَ اللهَ ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ أي: أُمرتُ بإخلاصِ الدين.

«١٢» ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾: وأمرت بذلك لأجلِ أن أكونَ أولَ المسلمين؛ أي: مقدَّمَهم وسابقَهم في الدنيا والآخرة؛ والمعنى: أن الإخلاص له السَّبْقَةُ في الدنيا، فمن أخلصَ.. كان سابقاً، فالأولُ أمرٌ بالعبادة مع الإخلاص، والثاني بالسبقِ، فلاختلافِ جهتَيهما تَنَزَّلا منزلةَ المختلفَين، فصحَّ عطفُ أحدِهما على الآخر.

«١٣» ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ لِمَنْ دعاك بالرجوعِ إلى دين آبائِك، وذلك أن كفار قريش قالوا له عليه السلام: ألا تنظرُ إلى أبيك وجدِّك وساداتِ قومِك يعبدون اللاتَ والعُزَّى؟ فنزلت ردّاً عليهم.

«١٤» ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ فهذه الآيةُ إخبارٌ بأنه يَخصُّ اللهَ وحدَه بالعبادة مخلصاً له دينه دون غيره، والأُولى إخبارٌ بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص، فالكلامُ أوّلاً واقع في نفس الفعل وإثباتِه، وثانياً فيما يُفعل الفعلُ لأجله؛ ولذلك رَتَّبَ عليه قولَه:

---

(١) تَوَفَّرَ على الشَّيْءِ: صرف إِلَيْهِ همته.

﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ....﴾

《١٥》 ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وهذا أمرُ تهديدٍ، وقيل له عليه السلام: إن خالفتَ دينَ آبائِك.. فقد خسرتَ، فنزلت: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران، الجامعين لوجوهِهِ وأسبابه ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بإهلاكِها في النارِ، ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أي: وخسروا أهليْهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأنهم أضلُّوهم فصاروا إلى النار، ولقد وَصفَ خُسرانَهم بغايةِ الفظاعةِ في قوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ حيثُ صدَّرَ الجملةَ بحرف التنبيه، ووسَّطَ الفصلَ بين المبتدأِ والخبرِ، وعرَّفَ الخسرانَ ونعَته بالمبين، وذلك لأنهم استبدلُوا بالجنة ناراً، وبالدرجات دركاتٍ.

《١٦》 ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾: أطباقٌ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ﴾: أطباقٌ من النارِ، وهي ظللٌ لآخرين؛ أي: النارُ محيطةٌ بهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وُصفَ من العذابِ، أو: ذلك الظللُ ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ ليؤمنوا به ويجتنبوا عن مناهيه، ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ ولا تتعرضُوا لما يوجبُ سَخَطِي، خوَّفَهم بالنار ثم حذَّرَهم نفسَه.

《١٧》 ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الشياطين، (فَعَلُوت) من الطغيان، كالملكوت والرحموت، إلا أن فيها قلباً بتقديم اللامِ على العينِ[١]، أطلقت على الشيطان، أو الشياطين؛ لكون الطاغوتِ مصدراً، وفيها مبالغاتٌ، وهي التسميةُ بالمصدر، كأنَّ عينَ الشيطانِ طغيانٌ، وأن البناء بناءُ مبالغةٍ؛ فإن الرَّحَموتَ: الرحمةُ الواسعةُ، والملكوتَ: الملكُ المبسوطُ، والقلبُ، وهو للاختصاص؛ إذْ لا تطلق على غير الشيطان، والمرادُ بها ههنا: الجمعُ، وقرئَ: ﴿الطواغيت﴾[٢]، ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾: بدلُ الاشتمال من الطاغوت؛ أي: عبادتَها، ﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾: رجعُوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ﴾ هي: البشارةُ بالثوابِ، تتلقاهم الملائكةُ عند حضورِ الموتِ مبشِّرين، وحين يُحشَرون، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) أصلُه: طَغَيُوت، ثم قدمت الياء فصار: طَيَغُوت، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار: طاغوت. انظر «الإكليل» (٤/ ٣١٥).

(٢) قراءة شاذة. انظر «الكشاف» (١/ ٦٨٦).

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾ ....

«١٨» ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾: هم الذين اجتنبُوا وأنابُوا، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوَضَعَ الظاهرَ موضعَ الضميرِ، أراد أن يكونوا نُقّاداً في الدين، يميِّزون بين الحسنِ والأحسنِ، والفاضلِ والأفضلِ، فإذا اعترضَهم أمران: واجبٌ وندبٌ.. اختارُوا الواجبَ، وكذا المباحُ والندبُ؛ حرصاً على ما هو أقرب عند الله وأكثرُ ثواباً، أو: يستمعون القرآنَ وغيرَه فيتبعون القرآنَ، أو: يستمعون أوامرَ الله فيتبعون أحسنَها، نحوُ القصاصِ والعفْوِ، ونحوِ ذلك، أو: يستمعون الحديثَ مع القوم فيه محاسنُ ومساوٍ فيُحدثُ بأحسنِ ما سمعَ، ويَكُفُّ عمّا سواه، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ أي: المنتفعون بعقولِهم.

«١٩» ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ أصلُ الكلام: أمَن حقَّ عليه كلمةُ العذاب؛ أي: وجب، أفأنتَ تُنقذُه، جملةٌ شرطيةٌ دخلت عليها همزةُ الإنكار، والفاءُ فاءُ الجزاءِ، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوفٍ[1]، تقديرُه: أأنت مالكُ أمرِهم فَمن حقَّ عليه كلمةُ العذابِ.. فأنت تنقذُه؟ والهمزةُ الثانيةُ هي الأولى كُررت لتوكيدِ معنى الإنكارِ، ووُضِعَ (مَن في النارِ) موضعَ الضميرِ؛ أي: تنقذُه، فالآيةُ على هذا جملةٌ واحدةٌ، أو معناه: أفمن حق عليه كلمةُ العذاب.. ينجُو منه؟ أفأنت تنقذه؟ أي: لا يقدرُ أحدٌ أن ينقذَ مَن أضله الله وسبقَ في علمه أنه من أهل النار.

«٢٠» ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ أي: لهم منازلُ في الجنة رفيعةٌ، وفوقَها منازلُ أرفعُ منها؛ يعني: للكفار ظللٌ من النار، وللمتقين غرفٌ ﴿مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: من تحت منازلِها، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ (وعدَ الله): مصدرٌ مؤكِّد؛ لأن قولَه: (لهم غرف) في معنى: وعدَهم الله ذلك.

«٢١» ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: المطرَ، وقيل: كلُّ ماءٍ في الأرض فهو

---

(١) كون الفاء عاطفة على محذوف هو رأي الزمخشري، وأما غيرُه.. فيرى أن الأصل تقديمُ الفاء على الهمزة، وإنما أخرت لما تستحقه الهمزةُ من التصدير. انظر «الدر المصون» (٩/ ٤١٩).

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

من السماء ينزلُ منها إلى الصخرةِ ثم يقسمُه الله، ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: فأدخله ﴿يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: عيوناً ومسالكَ ومجاريَ كالعروق في الأجسادِ، و(ينابيعَ): نصبٌ على الحال، أو على الظرفِ، و(في الأرض): صفةٌ لـ(ينابيعَ)، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾: بالماءِ ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾: هيئاتُه من خضرةٍ وحمرةٍ وصفرةٍ وبياضٍ، أو: أصنافُه من بُرٍّ وشعيرٍ وسِمْسِمٍ وغيرِ ذلك، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: يَجِفُّ، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد نضارتِه وحسنِه، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا﴾: فُتاتاً متكسراً، فالحطامُ: ما تفتتَ وتكسرَ من النبتِ وغيرِه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: في إنزالِ الماءِ وإخراجِ الزرعِ ﴿لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾: لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بدَّ من صانعٍ حكيمٍ، وأن ذلك كائنٌ عن تقديرٍ وتدبيرٍ، لا عن إهمالٍ وتعطيلٍ.

《٢٢》 ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ أي: وسَّعَ صدرَه ﴿لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ فاهتدى، وسئل رسول الله ﷺ عن الشرح فقال: «إذا دخل النورُ القلبَ.. انشرحَ وانفسحَ»، فقيل: فهل لذلك من علامةٍ؟ قال: «نعم، الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبل نزول الموت»[(١)]، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: بيانٍ وبصيرةٍ؛ والمعنى: أفمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طبعَ على قلبِه فقسا قلبُه، فحذفَ؛ لأن قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ يدلُّ عليه ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من تركِ ذكرِ الله، أو: من أجلِ ذكرِ الله؛ أي: إذا ذُكرَ اللهُ عندهم أو آياتُه.. ازدادت قلوبُهم قساوةً، كقولِه: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾: غَوايةٍ ظاهرةٍ.

《٢٣》 ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ في إيقاعِ اسم الله مبتدأً، وبناءِ (نزَّلَ) عليه.. تفخيمٌ لأحسنِ الحديثِ، ﴿كِتَـٰبًا﴾: بدلٌ مِن (أحسنَ الحديثِ) أو: حالٌ منه، ﴿مُّتَشَـٰبِهًا﴾: يُشبهُ بعضُه بعضاً في الصدقِ والبيانِ والوعظِ والحكمةِ والإعجازِ وغيرِ ذلك، ﴿مَّثَانِىَ﴾: نعتُ (كتاباً) جمعُ مَثْنًى؛ بمعنى: مُرَدَّدٍ ومُكَرَّرٍ لما ثُنِّيَ من قَصَصِهِ وأنبائِه وأحكامِه وأوامرِه ونواهيه ووعدِه ووعيدِه ومواعظِه، فهو بيانٌ لكونه متشابهاً؛ لأن القصصَ المكررةَ وغيرَها لا تكون إلا متشابهةً، وقيل: لأنه يُثَنَّى في التلاوةِ فلا يُمَلُّ، وإنما جاز وصفُ الواحدِ بالجمعِ؛ لأن الكتاب جملةٌ ذاتُ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٧٦).

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ....

تفاصيلَ، وتفاصيلُ الشيءِ هي جملتُه، ألا تراك تقولُ: القرآنُ أسباعٌ وأخماسٌ وسورٌ وآياتٌ، فكذلك تقول: أقاصيصُ وأحكامٌ ومواعظُ مكرراتٌ، أو: منصوبٌ على التمييز من (متشابهاً)، كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائلَ؛ والمعنى: متشابهةٌ مثانيه، ﴿تَقْشَعِرُّ﴾: تضطربُ وتتحركُ ﴿مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يقال: اقشعرَّ الجلدُ: إذا تَقَبَّضَ تقبُّضاً شديداً؛ والمعنى: أنهم إذا سمعُوا بالقرآن وبآياتِ وعيدِه.. أصابتهم خشيةٌ تقشعرُّ منها جلودُهم، وفي الحديث: «إذا اقشعرَّ جلدُ المؤمنِ من خشيةِ اللهِ.. تحاتَّتْ عنه ذنوبُه كما يتحاتُّ عن الشجرةِ اليابسةِ ورقُها»[1]، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا ذكرتْ آياتُ الرحمةِ.. لانت جلودُهم وقلوبُهم، وزال عنها ما كان بها من الخشيةِ والقُشَعْرِيرَةِ، وعديَ بـ(إلى)؛ لتضمنِه معنى فعلٍ متعدٍ بـ(إلى)، كأنه قيل: اطمأنت إلى ذكر الله لينةً غيرَ منقبضةٍ، واقتصرَ على ذكرِ اللهِ من غير ذكرِ الرحمةِ؛ لأن رحمتَه سبقت غضبَه، فلأصالةِ رحمتِه؛ إذا ذُكرَ اللهُ.. لم يخطرْ بالبال إلا كونُه رؤوفاً رحيماً، وذُكرتِ الجلودُ وحدَها أوّلاً ثم قُرنت بها القلوبُ ثانياً؛ لأن محل الخشية القلبُ، فكان ذكرُها يتضمن ذكرَ القلوبِ، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى الكتاب، ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وهو مَن علم منهم اختيارَ الاهتداءِ، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: يخلق الضلالة فيه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ إلى الحقِّ.

《٢٤》 ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ كمَن أَمِنَ من العذاب؟ فحذف الخبرُ كما حذفَ في نظائره، وسوءُ العذابِ: شدتُه؛ ومعناه: أن الإنسان إذا لقيَ مَخُوفاً من المخاوفِ.. استقبله بيدِه، وطلبَ أن يقيَ بها وجهَه؛ لأنه أعزُّ أعضائِه عليه، والذي يُلقَى في النار.. يُلقَى مغلولةً يداه إلى عنقِه، فلا يتهيأُ له أن يتقيَ النارَ إلا بوجهِه الذي كان يتقي المخاوفَ بغيرِه وقايةً له ومحاماةً عليه.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: تقول لهم خزنةُ النارِ: ﴿ذُوقُوا۟﴾ وبالَ ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: كسبَكم.

《٢٥》 ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: من قبلِ قريشٍ ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾: من الجهةِ التي لا يحتسبون ولا يخطرُ ببالهم أن الشرَّ يأتيهم منها، بينما هم آمنون.. إذ فوجئُوا من مأمَنِهم.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٣٧) عن سيدنا العباس رضي الله عنه.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ....

《٢٦》 ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾: الذلَّ والصَّغار، كالمسخ والخسفِ والقتلِ والجَلاءِ ونحوِ ذلك من عذابِ اللهِ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذابِ الدنيا، ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ لآمنوا.

《٢٧》 ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾: ليتعظُوا.

《٢٨》 ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: حالٌ مؤكدةٌ، كما تقول: جاءَني زيدٌ رجلاً صالحاً، وإنساناً عاقلاً، فتذكرُ رجلاً أو إنساناً توكيداً، أو: نصبٌ على المدح، ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾: مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف، ولم يقل: مستقيماً؛ للإشعارِ بألا يكونَ فيه عوجٌ قطُّ، وقيل: المرادُ بالعوج: الشكُّ، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الكفرَ.

《٢٩》 ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾: بدلٌ، ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ﴾: متنازعون ومختلفون، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾: مصدرُ سَلِمَ؛ والمعنى: ذا سلامةٍ، ﴿لِّرَجُلٍ﴾ أي: ذا خُلوصٍ له من الشركة، ﴿سالماً﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو[1]؛ أي: خالصاً له، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: صفةً، وهو تمييزٌ؛ والمعنى: هل تستوي صفتاهما وحالاهما؟ وإنما اقتصرَ في التمييز على الواحد لبيانِ الجنسِ، وقرئَ: ﴿مثلين﴾[2]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي لا إله إلا هو، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فيشركون به غيرَه، مَثَّلَ الكافرَ ومعبودِيه بعبدٍ اشتركَ فيه شركاءُ، بينهم تنازعٌ واختلافٌ، وكلُّ واحدٍ منهم يدَّعي أنه عبدُه، فهم يتجاذبونه ويتعاورُونه في مِهَنٍ شتَّى، وهو متحيرٌ لا يدري أيَّهم يُرضي بخدمتِه، وعلى أيِّهم يعتمدُ في حاجاتِه، وممن يطلبُ رزقَه، وممن يلتمسُ رفقَه، فَهَمُّهُ شَعاعٌ، وقلبُه أوزاعٌ[3]، والمؤمنَ بعبدٍ له سيدٌ واحدٌ، فهمُّهُ واحدٌ، وقلبُه مجتمعٌ.

《٣٠》 ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: ستموت، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وبالتخفيفِ: مَن حلَّ به الموت، قال الخليلُ: أنشد أبو عمرٍو:[4] [من: الطويل]

وتسألني تفسيرَ ميْتٍ وميِّتٍ فدونَكَ قد فسرتُ إن كنتَ تعقلُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٥).

(٢) انظر «تفسير البحر المحيط» (٧/ ٤٠٨).

(٣) شَعاع، وأوزاع: متفرق.

(٤) أورد الزبيديُّ البيتين في «تاج العروس» (٥/ ١٠١) ثم ذكر أن هذه تفرقةُ جماعةٍ من الفقهاء والأدباء، وأن معناهما واحدٌ بالتشديد والتخفيف.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۝٣٢ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ ....

فمن كان ذا رُوحٍ فذلك ميِّتٌ ... وما الميْت إلا مَن إلى القبر يُحمل

كانوا يتربصون برسولِ اللهِ ﷺ موتَه، فأخبر أن الموت يعمُّهم فلا معنى للتربصِ وشماتةِ الباقي بالفاني[١]، وعن قتادة: نَعى إلى نبيه نفسَه، ونعى إليكم أنفسَكم؛ أي: إنك وإياهم في عِدادِ الموتى؛ لأن ما هو كائنٌ فكأنْ قد كان.

《٣١》 ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أي: إنك وإياهم، فغُلِّبَ ضميرُ المخاطب على ضميرِ الغيبِ، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ فتحتجَّ أنت عليهم بأنك بلغتَ فكذبُوا، واجتهدتَ في الدعوة فلجُّوا في العناد[٢]، ويعتذرون بما لا طائلَ تحتَه، تقول الأتباعُ: أطعْنا ساداتِنا وكبراءَنا، وتقول السادات: أغوتْنا الشياطينُ وآباؤُنا الأقدمون، قال الصحابةُ رضي الله عنهم أجمعين: ما خُصومتُنا ونحن إخوانٌ؟ فلما قتلَ عثمان رضي الله عنه.. قالُوا: هذه خصومتُنا[٣]، وعن أبي العاليةِ: نزلت في أهلِ القبلةِ، وذلك في الدماء والمظالمِ التي بينَهم، والوجهُ هو الأولُ؛ ألا تَرى إلى قولِه:

《٣٢》 ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ وقولِه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ وما هو إلا بيانٌ وتفسيرٌ للذين تكونُ بينهم الخصومةُ، (كذب على الله): افترى عليه بإضافةِ الولدِ والشريكِ إليهِ، ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾: بالأمر الذي هو الصدقُ بعينِه، وهو ما جاءَ به محمدٌ ﷺ، ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾: فاجأه بالتكذيب كما سمعَ به[٤]، من غيرِ وَقفةٍ لإعمالِ رويَّةٍ، أو اهتمام بتمييزِ بين حقٍّ وباطلٍ، كما يفعلُ أهلُ النَّصَفَةِ فيما يسمعون[٥]، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾ أي: لهؤلاء الذين كذبُوا على الله وكذَّبُوا بالصدق، واللامُ في (الكافرين): إشارةٌ إليهم.

《٣٣》 ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾: هو رسولُ اللهِ ﷺ، جاء بالحقِّ وآمن به، وأرادَ

---

(١) في المطبوع (٤/ ٥٨): (الفاني بالفاني) وهو أولى.

(٢) لجَّ في الأمرِ: لازمَ الشيءَ وواظبَه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٨٨) عن إبراهيم النخعي.

(٤) معنى الكاف في (كما): المبادرة، ومثلها: سَلِّمْ كما تدخل، وصَلِّ كما يدخل الوقت. انظر «مغني اللبيب» (ص ٢٣٧).

(٥) النصفة: الإنصاف وأعطاءُ الحق.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

به: إياه ومن تبعه، كما أراد بموسى: إياه وقومه في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩]، فلذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وقال الزجاج: روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: (والذي جاء بالصدق: محمدٌ رسولُ الله ﷺ، والذي صدق به: أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه)[1]، وروي: أن الذي جاء بالصدق: محمدٌ رسول الله ﷺ، والذي صدق به: المؤمنون، والكلُّ صحيحٌ، كذا قالوه، والوجهُ في العربية: أن يكون: (جاء) و(صدق) لفاعلٍ واحدٍ؛ لأن التغاير يستدعي إضمارَ (الذي)، وذا غيرُ جائزٍ، أو: إضمارَ الفاعلِ من غيرِ تقدمِ الذكرِ، وذا بعيدٌ.

《٣٤ - ٣٥》 ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إضافةُ (أسوأ) و(أحسن) مِن إضافةِ الشيءِ إلى ما هو بعضُه من غيرِ تفضيلٍ، كقولك: الأشجُّ أعدلُ بني مروانَ[2].

《٣٦》 ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾: أُدخلت همزةُ الإنكارِ على كلمةِ النفي، فأُفيدَ معنى إثباتِ الكفايةِ وتقريرِها، ﴿عَبْدَهُۥ﴾ أي: محمداً ﷺ، ﴿عباده﴾: حمزةُ وعليٌّ[3]؛ أي: الأنبياءَ والمؤمنين، وهو مثلُ ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: بالأوثان التي اتخذوها آلهةً من دونه، وذلك أن قريشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخافُ أن تَخبِلك آلهتُنا[4]، وإنا نخشى عليك مضرتَها؛ لعيبك إياها، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾.

《٣٧》 ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾: بغالبٍ منيعٍ ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٩٠).

(٢) جاء في «البداية والنهاية» (٦/ ٢٦٨): وكان الناس يقولون: الأشجُّ والناقصُ أعدلا بني مروان، فالأشجُّ هو: عمرُ بن عبد العزيز، والناقصُ هو: يزيد بن الوليد بن عبد الملك.
والمراد أنهما العادلان فقط، ولقبَ يزيدُ بالناقص؛ لأنه نَقَصَ ما كانوا يأخذونه من بيتِ المال، وردَّ المظالمَ على أهلِها، ولقب عمر بالأشجِّ؛ لشجَّةٍ كانت في رأسِه. انظر «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٧/ ٣٣٩).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٦).

(٤) الخَبَلُ: إفسادُ العقل.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ....

ينتقمُ من أعدائِه، وفيه وعيدٌ لقريش ووعدٌ للمؤمنين بأنه ينتقمُ لهم منهم، وينصرُهم عليهم، ثم أعلمَ بأنهم مع عبادتهم الأوثانَ مُقرون بأن الله تعالى خلقَ السموات والأرض بقولِه:

《٣٨》 ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ﴾: بفتح الياءِ سوى حمزة[1]، ﴿بِضُرٍّ﴾: مرضٍ أو فقرٍ أو غيرِ ذلك، ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾: دافعاتُ شدتِه عني، ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾: صحةٍ أو غنىً أو نحوِهما، ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ ﴿كاشفاتٌ ضُرَّه﴾ و﴿ممسكاتٌ رحمتَه﴾: بالتنوين على الأصلِ: بصريٌّ، وفَرَضَ المسألةَ في نفسه دونَهم؛ لأنهم خوَّفُوه معرةَ الأوثانِ وتخبيلَها، فأُمِرَ بأن يقررَهم أولاً بأن خالقَ العالمِ هو الله وحدَه، ثم يقول لهم بعد التقرير: فإن أرادني خالقُ العالمِ الذي أقررتم به بِضُرٍّ أو برحمةٍ هل يقدرون على خلافِ ذلك؟ فلما أفحمَهم.. قال الله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافياً لِمَعَرَّةِ أوثانِهم[2]، ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ يُروى: أن النبي ﷺ سألهم فسكتُوا، فنزل: (قل حسبي الله)، وإنما قال: (كاشفات) و(ممسكات) على التأنيث بعدَ قولِه: (ويخوفونك بالذين من دونه) لأنهن إناثٌ، وهنَّ اللاتُ والعزَّى ومناةُ، وفيه تهكمٌ بهم وبمعبودِيْهم.

《٣٩》 ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: على حالِكم التي أنتم عليها، وجهتِكم من العداوة التي تمكنتُم منها، والمكانةُ بمعنى المكان، فاستعيرت عن العينِ للمعنى، كما يُستعارُ (هنا وحيث) للزمانِ وهما للمكان، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: على مكانتي، وحذفَ للاختصار، ولما فيه من زيادةِ الوعيدِ، والإيذانِ بأن حالتَه تزدادُ كلَّ يومٍ قوةً؛ لأن الله تعالى ناصرُه ومعينُه؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

《٤٠》 ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ كيفَ توعَّدَهم بكونه منصوراً عليهم، غالباً عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم إذا أتاهم الخزيُ والعذابُ.. فذاك عِزُّهُ وغَلَبَتُه؛ من حيثُ إن الغلبةَ تتمُّ له بعزِّ عزيزٍ من أوليائِه، وبذلِّ ذليلٍ من أعدائِه، و(يُخزيه): صفةٌ للعذاب،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص: ٢٧٦) وكذا القراءة الآتية.

(٢) المعرة: المساءةُ.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ....﴾

كمقيم؛ أي: عذابٌ مُخزٍ لَهُ، وهو يومُ بدرٍ، وعذابٌ دائمٌ وهو عذابُ النارِ، ﴿مكاناتِكم﴾: أبو بكرٍ وحمادٌ[١].

«٤١» ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآنَ ﴿لِلنَّاسِ﴾: لأجلِهم ولأجلِ حاجتِهم إليه لِيُبشِّرُوا ويُنْذِرُوا، فتقْوَى دواعيْهم إلى اختيارِ الطاعةِ على المعصيةِ، ﴿بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾: فمن اختار الهدى.. فقد نفعَ نفسَه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾: ومن اختار الضلالةَ.. فقد ضرَّها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾: بحفيظٍ.

ثم أخبر بأنه الحفيظ القديرُ عليهم بقوله:

«٤٢» ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الأنفسُ: الجُمَلُ كما هي[٢]، وتَوَفِّيْها: إماتتُها، وهو أن يَسلُبَ ما هي به حيَّةٌ حسّاسةٌ درّاكةٌ، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾: ويتوفَّى الأنفسَ التي لم تمت في منامِها؛ أي: يَتوفّاها حين تنامُ؛ تشبيهاً للنائمين بالموتى، حيث لا يُميِّزون ولا يُبصِرون ولا يتصرَّفون، كما أن الموتى كذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الأنفسَ ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ﴾ ﴿قُضِيَ﴾: حمزةُ وعليٌّ[٣]، ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ الحقيقيَّ؛ أي: لا يردُّها في وقتها حيةً، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾: النائمةَ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى وقتٍ ضربَه لموتِها، وقيل: (يتوفى الأنفس): يستوفيها ويقبِضُها، وهي الأنفسُ التي تكونُ معها الحياةُ والحركةُ، ويتوفى الأنفسَ التي لم تمتْ في منامِها، وهي أنفسُ التمييزِ، قالوا: فالتي تُتَوَفَّى في المنام هي نفسُ التمييزِ لا نفسُ الحياةِ؛ لأن نفسَ الحياةِ إذا زالت.. زالَ معها النَّفَسُ، والنائمُ يَتنفسُ، ولكلِّ إنسانٍ نفسانِ، إحداهما: نفسُ الحياةِ، وهي التي تفارقُ عند الموت، والأخرى: نفسُ التمييزِ، وهي التي تفارقُه إذا نام، ورويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما: في ابنِ آدمَ نفسٌ وروحٌ، بينهما مثلُ شعاعِ الشمس، فالنفسُ: التي بها العقلُ والتمييزُ، والروحُ: التي بها النَّفَسُ والتحركُ، فإذا نام العبدُ.. قبضَ اللهُ نفسَه ولم يقبِضْ روحَه. وعن علي

---

(١) انظر قراءة أبي بكر في «البدور الزاهرة» (ص ١١٠).

(٢) الجُمَلُ: الأرواح والأبدان.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٦).

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ....

رضي الله عنه قال: تخرجُ الروحُ عند النوم ويبقَى شُعاعُها في الجسدِ، فبذلك يَرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم.. عاد الروحُ إلى جسده بأسرعَ من لحظةٍ، وعنه: ما رأت نفسُ النائم في السماء.. فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت بعد الإرسال فيلقنُها الشيطانُ.. فهي كاذبة، وعن سعيدِ بنِ جُبيرٍ: أن أرواحَ الأحياءِ وأرواحَ الأمواتِ تلتقي في المنام، فيتعارفُ منها ما شاء اللهُ أن يتعارفَ، فيُمْسِكُ التي قضى عليها الموتَ ويرسلُ الأخرى إلى أجسادها إلى انقضاءِ مدةِ حياتِها، وروي: أن أرواح المؤمنين تَعرُجُ عند النوم في السماء، فمن كان منهم طاهراً.. أُذِنَ له في السجودِ، ومن لم يكن منهم طاهراً.. لم يُؤذن له فيه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: إن في توفي الأنفسِ مائتةً ونائمةً وإمساكِها وإرسالِها إلى أجلٍ ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ على قدرةِ اللهِ وعلمِه ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾: يُجيلون فيه أفكارَهم ويعتبرون.

《٤٣》 ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾: بل أَتَّخذَ قريشٌ؟ والهمزةُ للإنكار، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من دون إذنِه ﴿شُفَعَآءَ﴾ حين قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، ولا يشفعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ معناه: أيشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئاً قطُّ ولا عقلَ لهم.

《٤٤》 ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ أي: هو مالكُها فلا يستطيعُ أحدٌ شفاعةً إلا بإذنه، وانتصب (جميعاً) على الحال، ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾: تقريرٌ لقوله: (لله الشفاعة جميعاً)؛ لأنه إذا كان له الملكُ كلُّه - والشفاعةُ من الملك - كان مالكاً لها، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾: متصلٌ بما يليه؛ معناه: له ملك السموات والأرض اليومَ، ثم إليه ترجعون يوم القيامة، فلا يكونُ الملك في ذلك اليوم إلا له، فله ملكُ الدنيا والآخرة.

《٤٥》 ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ مدارُ المعنى على قوله: (وحده) أي: إذا أُفردَ اللهُ بالذكر ولم تذكرْ معه آلهتُهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ أي: نَفَرَتْ وانقبضتْ ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني: آلهتَهم، ذُكِرَ اللهُ معهم أو لم يُذكرْ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ لافتتانِهم بها، وإذا قيل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. نفرُوا؛ لأن فيه نفياً لآلهتهم، ولقد تقابلَ الاستبشارُ والاشمئزازُ؛ إذ كلُّ واحدٍ منهما غايةٌ في بابه، فالاستبشارُ: أن يمتلئَ قلبُه سروراً حتى

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ....

تَنْبَسِطَ له بشرةُ وجهه ويتهلل، والاشمئزازُ: أن يمتلئ غمّاً وغيظاً حتى يظهرَ الانقباضُ في أديمِ وجهِه، والعاملُ في (إذا ذكر) هو العاملُ في (إذا) المفاجأةِ، تقديرُه: وقتَ ذكرِ الذين من دونه فاجؤُوا وقتَ الاستبشارِ.

《٤٦》 ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا فاطر، وليس بوصف، كما يقولُه المبردُ والفراءُ[1]، ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: السرِّ والعلانيةِ، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾: تقضِي ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ من الهدى والضلالةِ، وقيل: هذه محاكمةٌ من النبي للمشركين إلى الله، وعن ابن المسيب: لا أعرفُ آيةً قُرئت فدُعي عندها إلا أجيبَ.. سواها. وعن الربيعِ بنِ خيثم وكان قليلَ الكلام أنه أُخبرَ بقتلِ الحسين رضي الله عنه وقالوا: الآنَ يتكلمُ، فما زاد على أن قال: آهٍ، أَوَقد فعلُوا؟ وقرأ هذه الآية، وروي: أنه قال على أثَرِه: قُتِلَ مَن كان ﷺ يُجلسُه في حِجْرِه ويضع فاه على فِيه.

《٤٧》 ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ الهاءُ تعودُ إلى (ما) ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾: شدتِه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾: وظهرَ لهم من سخطِ اللهِ وعذابِه ما لم يكن قطُّ في حِسابهم، ولا يُحَدِّثُون به نفوسَهم، وقيل: عملُوا أعمالاً حسِبوها حسناتٍ، فإذا هي سيئاتٌ، وعن سفيانَ الثوريِّ أنه قرأها فقال: ويلٌ لأهلِ الرياءِ، ويلٌ لأهلِ الرياءِ، وجَزِعَ محمدُ بنُ المنكدرِ عند موته فقيل له، فقال: أخشى آيةً من كتاب الله، وتلاها، فأنا أخشى أن يبدوَ لي من الله ما لم أحتسبْه.

《٤٨》 ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: سيئاتُ أعمالِهم التي كَسَبُوها، أو سيئاتُ كسبِهم حين تُعرضُ صحائفُهم وكانت خافيةً عليهم، أو: عقابُ ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: ونزلَ بهم وأحاطَ ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾: جزاءُ هُزْئِهم.

---

(١) مذهب سيبويه أن (اللهم) لا يجوز أن يوصف؛ لأنه ملازم للنداء، وخالفه جماعة منهم المبرد فأجاز نعته. انظر «الكتاب» لسيبويه (٢/ ١٩٦)، و«المقتضب» للمبرد (٤/ ٢٣٩)، و«شرح شذور الذهب» لابن هشام (ص ٥٨٥).

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ....

«٤٩» ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ﴾ أي: أعطيناه تفضلاً، يقال: خوَّلني: إذا أعطاك على غيرِ جزاءٍ، ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ ولا تقفْ عليه؛ لأن جواب (إذا): ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ مني أني سأُعطاه؛ لما فيَّ مِن فضلٍ واستحقاقٍ، أو: على علم مني بوجوهِ الكسبِ، كما قال قارونُ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وإنما ذكَّرَ الضمير في (أوتيته) وهو للنعمةِ؛ نظراً إلى المعنى؛ لأن قوله: (نعمة منا) شيئاً من النعمة وقِسماً منها، وقيل: (ما) في (إنما): موصولةٌ لا كافةٌ، فيرجعُ الضميرُ إليها؛ أي: إن الذي أوتيتُه على علمٍ، ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾: إنكارٌ له، كأنه قال: ما خوَّلْناك من النعمة لِما تقولُ، بل هي فتنةٌ؛ أي: ابتلاءٌ وامتحانٌ لك؛ أتشكرُ أم تكفرُ؟ ولما كان الخبرُ مؤنثاً؛ أعني: (فتنةً) ساغَ تأنيثُ المبتدأِ لأجله، وقرئَ: (بل هو فتنة)[1]؛ على وَفْقِ (إنما أوتيتُه)، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أنها فتنةٌ.

والسببُ في عطفِ هذه الآيةِ بالفاءِ، وعطفِ مثلِها في أول السورة بالواو: أن هذه وقعت مُسبَّبةً عن قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسَّ أحدَهم ضرٌّ.. دعا مَن اشمأزَّ بذكره دون من استبشرَ بذكره، وما بينهما من الآي اعتراضٌ[2].

فإن قلتَ: حقُّ الاعتراض أن يؤكِّدَ المعترَضَ بينه وبينه[3].

قلت: ما في الاعتراضِ من دعاء الرسولِ ﷺ ربَّه بأمرٍ من الله، وقولِه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾، ثم ما عقَّبه من الوعيدِ العظيمِ.. تأكيدٌ لإنكارِ اشمئزازِهم واستبشارِهم ورجوعِهم إلى الله في الشدائدِ دون آلهتِهم، كأنه قيل: قلْ: يا ربِّ لا يحكُمُ بيني وبين هؤلاء الذين يجترؤون عليك مثلَ هذه الجَراءةِ إلا أنت.

وقولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ متناولٌ لهم ولكلِّ ظالمٍ إن جُعِلَ عامّاً، أو: إياهم خاصة إن عَنَيْتَهُم به، كأنه قيل: ولو أن لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعاً ومثلَه معه.. لافتدَوا به، حين أحكُم عليهم بسوءِ العذابِ.

---

(١) انظر «الكشاف» (٤/ ١٣٦).

(٢) الآيات المعترِضةُ هي من قوله: (قُلِ اللَّهُمَّ) إلى قوله: (يَسْتَهْزِئُونَ).

(٣) أي: ما قبل الاعتراض وما بعده.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ ....

وأما الآيةُ الأولى.. فلمْ تقعْ مُسَبَّبَةً، وما هي إلا جملةٌ ناسبت جملةً قبلَها فعُطِفت عليها بالواو، نحوُ: قامَ زيدٌ وقعدَ عمرٌو.

وبيانُ وقوعِها مسبَّبةً: أنك تقولُ: زيدٌ يؤمن بالله، فإذا مسَّه ضرٌّ.. التجأَ إليه، فهذا تسبيبٌ ظاهرٌ، ثم تقول: زيد كافر بالله، فإذا مسه ضرٌّ.. التجأَ إليه، فتجيءُ بالفاء مجيئَكَ بها ثَمَّةَ، كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجاءَ المؤمنِ إليه مقيمٌ كفرَه مُقامَ الإيمان في جعله سبباً في الالتجاءِ.

«٥٠» ﴿قَدْ قَالَهَا﴾: هذه المقالةَ، وهي قولُه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قارونُ وقومُه؛ حيث قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقومُه راضون بها، فكأنهم قالُوها، ويجوزُ أن يكون في الأمم الخاليةِ آخرون قائلون مثلَها، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ من متاعِ الدنيا ويجمعون منها.

«٥١» ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: جزاءُ سيئات كسبِهم، أو: سمَّى جزاءَ السيئةِ سيئةً للازدواج، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: كفروا ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: مِن مشركي قومِك ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: سيصيبُهم مثلُ ما أصاب أولئك، فقُتِلَ صناديدُهم ببدرٍ، وحُبِسَ عنهم الرزقُ فقُحِطُوا سبعَ سنينَ، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾: بفائتين من عذابِ اللهِ، ثم بُسِطَ لهم فمُطِروا سبعَ سنين، فقيل لهم:

«٥٢» ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾: ويُضيِّقُ، وقيل: يجعلُه على قدرِ القُوتِ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بأنه لا قابضَ ولا باسطَ إلا اللهُ عزَّ وجلَّ.

«٥٣» ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ﴾ وبسكون الياءِ: بصريٌّ وحمزةُ وعليٌّ[١]، ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: جَنَوا عليها بالإسرافِ في المعاصي والغلوِّ فيها، ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾: لا تيئسُوا، وبكسر النونِ: عليٌّ وبصريٌّ، ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بالعفوِ عنها إلا الشركَ، وفي قراءةِ النبي عليه السلام: ﴿يغفرُ الذنوبَ جميعاً ولا يُبالي﴾[٢]، ونظيرُ نفيِ المبالاةِ نفيُ الخوفِ في قوله: ﴿وَلَا

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٧) وكذا القراءة الآتية.

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣٧)، وهي قراءة شاذة.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ....

يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]، قيل: نزلت في وحشيٍّ قاتلِ حمزةَ رضي الله عنه، وعن رسول الله ﷺ: «ما أحبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية»[١]، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ بسترِ عظائمِ الذنوب، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ بكشفِ فظائعِ الكروبِ.

《٥٤》 ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾: وتوبوا إليه، ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾: وأخلصوا له العملَ ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ إن لم تتوبوا قبلَ نزولِ العقاب.

《٥٥》 ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾: مثلُ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: يَفْجَؤُكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تخشون شيئاً لفرطِ غفلتِكم.

《٥٦》 ﴿أَن تَقُولَ﴾: لئلا تقولَ ﴿نَفۡسٌ﴾ إنما نُكِّرَتْ؛ لأن المراد بها بعضُ الأنفسِ، وهي نفسُ الكافر، ويجوزُ أن يراد نفسٌ متميزةٌ من الأنفس؛ إما بِلَجاجٍ في الكفر شديدٍ[٢]، أو بعذاب عظيم، ويجوز أن يراد التكثيرُ، ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ الألفُ بدلٌ من ياء المتكلم، وقرئ: ﴿يا حسرتي﴾[٣]؛ على الأصل، و﴿يا حسرتايَ﴾[٤]؛ على الجمع بين العِوضِ والمعوَّضِ منه، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾: قصرتُ، و(ما): مصدريةٌ مثلُها في ﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: في أمر الله، أو: في طاعة الله، أو: في ذاته، وفي حرف عبدِ الله: ﴿في ذكر الله﴾[٥]، والجنبُ: الجانبُ، يقال: أنا في جنبِ فلانٍ وجانبِه وناحيتِه، وفلانٌ لينُ الجانبِ والجنبِ، ثم قالوا: فَرَّطَ في جنبه وفي جانبِه؛ يريدون: في حقِّه، وهذا من باب الكناية؛ لأنك إذا أثبتَّ الأمرَ في مكان الرجل وحيِّزِه.. فقد أثبتَّه فيه، ومنه الحديث: «من الشرك الخفيِّ أن يُصليَ الرجلُ لمكانِ الرجل»[٦] أي: لأجله، وقال الزجاج: معناه: فَرَّطَ في طريقِ اللهِ، وهو توحيدُه والإقرارُ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٠٩).

(٢) اللَّجاجُ في الكفر: التمادي عليه.

(٣) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٨٢)، وهي قراءة شاذة.

(٤) بسكون الياء وفتحها. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٧).

(٥) انظر «الكشاف» (٤/ ١٤٠).

(٦) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٢٩) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ: «الشرك الخفي أن يعمل الرجل لمكان الرجل».

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ ....

بنبوةِ محمد ﷺ[١]، ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ۝٥٦﴾: المستهزئين، قال قتادة: لم يكفِه أن ضَيَّعَ طاعةَ اللهِ حتى سَخِرَ مِن أهلها. ومحلُّ: (وإن كنتُ): النصبُ على الحال، كأنه قال: فرطتُ وأنا ساخرٌ؛ أي: فرطتُ في حال سُخريتي.

«٥٧» ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي: أعطاني الهداية ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧﴾: من الذين يتقون الشركَ، قال الشيخ الإمامُ أبو منصور رحمه الله تعالى: هذا الكافرُ أعرفُ بالهداية من المعتزلةِ، وكذا أولئك الكفرةُ الذين قالوا لأتباعهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] يقولون: لو وفَّقَنا اللهُ للهداية وأعطانا الهدى.. لدعوناكم إليه، ولكن علمَ منا اختيارَ الضلالةِ والغوايةِ فخذَلَنا ولم يوفِّقْنا، والمعتزلةُ يقولون: بل هداهم وأعطاهم التوفيق لكنهم لم يهتدُوا، والحاصلُ: أن عندَ الله لُطفاً مَن أُعْطِيَ ذلك.. اهتدى، وهو التوفيقُ والعصمةُ، ومن لم يُعْطَه.. ضلَّ وغوى، وكان استيجابُه العذابَ وتضييعُه الحقَّ بعد ما مُكِّنَ من تحصيلِه لذلك[٢].

«٥٨» ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾: رجعةً إلى الدنيا، ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾: من الموحِّدين.

«٥٩» ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٥٩﴾: (بلى): ردٌّ من الله، كأنه يقول: بلى قد جاءتكَ آياتي وبينتُ لك الهدايةَ من الغَوايةِ، وسبيلَ الحقِّ من الباطل، ومكنتُك من اختيار الهداية على الغَواية، واختيارِ الحقِّ على الباطل، ولكن تركتَ ذلك وضَيَّعْتَه، واستكبرتَ عن قبولِه، وآثرت الضلالةَ على الهدى، واشتغلتَ بضدِّ ما أمرتَ، به، فإنما جاء التضييعُ من قِبَلِكَ، فلا عذرَ لك، و(بلى): جوابٌ لنفيٍ تقديريٍّ؛ لأن معنى (لو أن الله هداني): ما هُدِيْتُ، وإنما لم يُقرَنِ الجوابُ به؛ لأنه لا بدَّ من حكايةِ أقوالِ النفسِ على ترتيبِها، ثم الجواب من بينِها عمّا اقتضى الجوابَ[٣].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٥٩).

(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٣١٨).

(٣) قوله: (من بينها) متعلق بحال من (ما) في عمّا، أي: بعد حكاية الأقوال يجاب عما يطلب الجواب منها.

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ . .

«٦٠» ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾: وصفُوه بما لا يجوزُ عليه من إضافةِ الشريكِ والولدِ إليه ونفيِ الصفاتِ عنه، ﴿وُجُوهُهُم﴾: مبتدأٌ، ﴿مُّسْوَدَّةٌ﴾: خبرٌ، والجملةُ في محلِّ النصبِ على الحال إن كان (ترى) من رؤيةِ البصرِ، وإن كان من رؤيةِ القلبِ.. فمفعولٌ ثانٍ، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾: منزلٌ ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾: هو إشارةٌ إلى قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾.

«٦١» ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ ﴿وَيُـنْـجِـي﴾: رَوْحٌ[1]، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ عن الشركِ ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: بفلاحِهم، يقال: فازَ بكذا: إذا أفلح به وظفرَ بمراده منه، وتفسيرُ المفازة: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾: النارُ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ كأنه قيل: وما مفازتُهم؟ فقيل: لا يمسُّهم السوءُ؛ أي: يُنجيهم بنفيِ السوءِ والحزنِ عنهم؛ أي: لا يمسُّ أبدانَهم أذىً، ولا قلوبَهم حُزْنٌ، أو: بسبب منجاتِهم؛ من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي: بمنجاةٍ منه؛ لأن النجاة من أعظم الفلاح، وسببُ منجاتِهم العملُ الصالحُ؛ ولهذا فسر ابنُ عباس رضي الله عنهما المفازةَ بالأعمال الحسنةِ، ويجوزُ: بسبب فلاحِهم؛ لأن العمل الصالح سببُ الفلاحِ، وهو دخول الجنةِ، ويجوز أن يُسمَّى العملُ الصالحُ في نفسه مفازةً؛ لأنه سببُها، ولا محل لـ(لا يمسُّهم) على التفسير الأول؛ لأنه كلام مستأنَفٌ، ومحلُّه النصبُ على الحال على الثاني، ﴿بمفازاتهم﴾: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ.

«٦٢» ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: ردٌّ على المعتزلة والثنويةِ[2]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾: حافظٌ.

«٦٣» ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو مالكُ أمرِها وحافظُها، وهو من باب الكنايةِ؛ لأن حافظَ الخزائنِ ومديرُ أمرِها هو الذي يملكُ مقاليدَها، ومنه قولُهم: فلان أُلقيت إليه مقاليدُ الملكِ، وهي المفاتيح، واحدُها: مِقليدُ، وقيل: لا واحدَ لها من لفظِها، والكلمةُ أصلُها فارسيةٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾: هو متصلٌ بقوله: (وينجي الله

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٧) وكذا القراءة الآتية.

(٢) الثنوية: كفارٌ يعتقدون أن النُّور إله الخيرات والمنافعِ، والظلمة إلَهُ الشرورِ والمضارِّ. انظر «الفرق بين الفرق» (ص ٢٦٩).

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ ....

الذين اتقوا) أي: ينجي الله المتقين بمفازاتِهم، والذين كفروا هم الخاسرون، واعتَرَضَ بينهما بأنه خالقُ كلِّ شيء، فهو مهيمنٌ عليه، فلا يخفَى عليه شيءٌ من أعمال المكلفين منها، وما يُجزون عليها، أو: بما يليه؛ على أن كلَّ شيءٍ في السموات والأرضِ فاللهُ خالقُه، وفاتحُ بابِه، والذين كفروا وجحدُوا أن يكون الأمرُ كذلك أولئك هم الخاسرون، وقيل: سألَ عثمانُ رسولَ اللهِ ﷺ عن تفسيرِ قوله: (له مقاليد السموات والأرض) فقال: «يا عثمانُ ما سألني عنها أحدٌ قبلَكَ؛ تفسيرُها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخرُ، والظاهر والباطنُ، بيده الخيرُ، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير»[1]، وتأويلُه على هذا: أن لله هذه الكلماتِ، يُوحَّدُ بها ويُمجَّدُ، وهي مفاتيحُ خيرِ السمواتِ والأرضِ، مَن تكلم بها من المتقين.. أصابَه، والذين كفروا بآيات الله وكلماتِ توحيدِه وتمجيدِه.. أولئك هم الخاسرون.

«٦٤» ﴿قُلْ﴾ لمن دعاك إلى دينِ آبائِك: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ ﴿تأمرونِّيَ﴾: مكيٌّ، ﴿تأمرونَنِيْ﴾ على الأصل: شاميٌّ، ﴿تأمرونِيَ﴾: مدني[2]، وانتصب: (أفغيرَ اللهِ) بـ(أعبدُ)، و(تأمروني): اعتراضٌ؛ ومعناه: أفغيرَ اللهِ أعبدُ بأمركم بعدَ هذا البيانِ؟ ﴿أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ بتوحيدِ اللهِ.

«٦٥» ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء عليهم السلام ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ وإنما قال: (لئن أشركتَ) على التوحيدِ والموحَى إليهم جماعةٌ؛ لأن معناه: أُوحيَ إليك لئن أشركتَ ليحبطن عملُك وإلى الذين من قبلك مثلُه، واللامُ الأولى موطئةٌ للقسم المحذوفِ، والثانيةُ لامُ الجواب، وهذا الجوابُ سادٌّ مسدَّ الجوابين؛ أعني: جوابَ القسمِ والشرطِ[3]، وإنما صحَّ هذا الكلامُ مع علمِه تعالى بأن رسلَه لا يُشركون؛ لأن الخطاب للنبي عليه السلام والمرادُ به غيرُه، ولأنه على سبيل الفرضِ، والمحالاتُ يصحُّ فَرْضُها، وقيل: لئن طالعتَ غيري في السرِّ.. ليحبطنَّ ما بيني وبينك من السرِّ.

---

(١) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص ٦٨).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٧).
(٣) جواب الشرط محذوف؛ لدلالة جواب القسم عليه، وهو جملةُ (ليحبطن).

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ....

«٦٦» ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾: ردٌّ لما أمروه به من عبادةِ آلهتِهم، كأنه قال: لا تعبدْ ما أمروك بعبادتِه، بل إن عبدتَ.. فاعبدِ اللهَ، فحذف الشرطُ، وجعلَ تقديمُ المفعول عوضاً عنه، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ على ما أنعم به عليك بأن جعلك سيدَ ولدِ آدم.

«٦٧» ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾: وما عظَّموه حقَّ عظمتِه؛ إذ دَعَوك إلى عبادة غيره، ولما كان العظيمُ من الأشياء إذا عرفه الإنسان حقَّ معرفته، وقدَّره في نفسه حقَّ تقديره؛ عظمَه حقَّ تعظيمِه.. قيل: وما قدروا اللهَ حقَّ قدرِه، ثم نبههم على عظمتِه وجلالةِ شأنِه على طريقة التخييل[1]، فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ والمرادُ بهذا الكلام إذا أخذتَه كما هو بجملتِه ومجموعِه: تصويرُ عظمتِه، والتوقيفُ على كنْهِ جلالِه لا غيرُ، من غير ذهابٍ بالقبضةِ ولا باليمينِ إلى جهةٍ حقيقةٍ، أو جهةِ مجازٍ؛ والمرادُ بالأرض: الأرضونَ السبعُ، يشهدُ لذلك قولُه: (جميعاً)، وقولُه: (والسمواتُ)، ولأن الموضعَ موضعُ تعظيم، فهو مقتضٍ للمبالغة، و(الأرضُ): مبتدأٌ، و(قبضتُه): الخبرُ، و(جميعاً): منصوبٌ على الحال؛ أي: والأرضُ إذا كانت مجتمعةً قبضتُه يوم القيامة، والقَبضةُ: المرةُ من القبضِ، والقُبضةُ: المقدارُ المقبوضُ بالكفِّ، ويقال: أعطِني قَبضةً من كذا؛ تريد: معنى القُبضةِ؛ تسميةً بالمصدر، وكلا المعنيين محتمَلٌ؛ والمعنى: والأرضون جميعاً قبضتُه؛ أي: ذواتُ قبضتِه، يقبضُهن قبضةً واحدةً؛ يعني: أن الأرضين مع عظمِهن وبسطِهن لا يبلغن إلا قبضةً واحدةً من قبضاتِه، كأنه يقبضُها قبضةً بكفٍّ واحدةٍ، كما تقول: الجزورُ أُكْلَةُ لقمانٍ[2]؛ أي: لا يَفي بأكلةٍ فذَّةٍ من أكَلاتِه، وإذا أريد معنى القُبضةِ.. فظاهرٌ؛ لأن المعنى: أن الأرضين بجملتِها مقدارُ ما يقبضُه بكفٍّ واحدةٍ، والمطوياتُ: من الطيِّ الذي هو ضد النشرِ، كما قال: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وعادةُ طاوي السجلِّ أن يطويَه بيمينه، وقيل: (قَبْضتُه): مُلكُه بلا مدافعٍ ولا منازعٍ، و(بيمينِه): بقدرتِه، وقيل: (مطويات بيمينه): مُفنياتٌ بقسمِه؛ لأنه أقسمَ أن يُفنيَها، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾: ما أبعدَ مَن هذه قدرتُه وعظمتُه! وما أعلاه عمّا يُضاف إليه من الشركاء!

---

(١) التخييل: تصويرُ خيالِ الشيءِ في النفس.

(٢) هو لقمان بن عاد، وكان أُكُولاً كما زعموا. انظر «فتوح الغيب» (١٣/ ٤٣٥).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ....

«٦٨» ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ﴾: مات ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ، وقيل: هم حملةُ العرشِ، أو: رِضوانُ والحورُ العينُ ومالكٌ والزبانيةُ، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾: هي في محلِّ الرفع؛ لأن المعنى: ونفخ في الصور نفخةٌ واحدةٌ، ثم نفخ فيه نفخةٌ أخرى، وإنما حُذِفَتْ لدلالةِ أُخرى عليها؛ ولكونِها معلومةً بذكرها في غير مكانٍ، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾: يُقلِّبون أبصارَهم في الجهات نظرَ المبهوتِ إذا فاجأه خطبٌ، أو: ينتظرون أمرَ اللهِ فيهم، ودلت الآيةُ على أن النفخةَ اثنتان؛ الأولى للموت، والثانيةُ للبعث، والجمهورُ على أنها ثلاثٌ؛ الأولى للفزع، كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل: ٨٧]، والثانيةُ للموت، والثالثةُ للإعادة.

«٦٩» ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: أضاءتْ ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: بعدلِه؛ بطريقِ الاستعارةِ، يقال للملك العادل: أشرقت الآفاقُ بعدلِك، وأضاءت الدنيا بقسطِك، كما يقال: أظلمت البلادُ بِجَور فلان، وقال عليه الصلاة والسلام: «الظلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ»[1]، وإضافةُ اسمِه إلى الأرض؛ لأنه يُزينُها حيث ينشرُ فيها عدلَه، ويَنْصِبُ فيها موازينَ قِسطِه، ويحكمُ بالحقِّ بين أهلِها، ولا ترى أَزْيَنَ للبِقاع من العدل، ولا أعمرَ لها منه، وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: يجوزُ أن يخلق الله نوراً فينوِّرَ به أرض الموقف[2]، وإضافتُه إليه تعالى للتخصيص، كبيت الله، وناقة الله، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: صحائفُ الأعمال، ولكنه اكتفَى باسم الجنس، أو: اللوحُ المحفوظُ، ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليسألهم ربُّهم عن تبليغ الرسالة وما أجابهم قومُهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: الحفظةُ، وقيل: هم الأبرارُ في كل زمان، يشهدون على أهل ذلك الزمان، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾: بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ختم الآية بنفي الظلم، كما افتتحَها بإثبات العدل.

«٧٠» ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاءَه، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ من غيرِ كتاب ولا شاهدٍ، وقيل: هذه الآيةُ تفسيرُ قولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ووفيت كلُّ نفس ما عملت من خير وشر، لا يُزادُ في شرٍّ، ولا يُنقص من خير.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٣٢٤).

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ....

«٧١» ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقاً عنيفاً، كما يُفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سِيقُوا إلى حبس أو قتل، ﴿زُمَرًا﴾: حالٌ؛ أي: أفواجاً متفرقة بعضُها في إثر بعض، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ﴾: بالتخفيف فيهما: كوفيٌّ[1]، ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ وهي سبعةٌ، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ أي: حفظةُ جهنم، وهم الملائكة الموكَّلون بتعذيب أهلِها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾: من بني آدمَ، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وقتِكم هذا، وهو وقتُ دخولهم النارَ، لا يومُ القيامة، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أتونا وتَلَوا علينا، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي: ولكن وجبت علينا كلمةُ الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣] بسوء أعمالنا، كما قالوا: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] فذكروا عملَهم الموجِبَ لكلمة العذاب، وهو الكفرُ والضلال.

«٧٢» ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: حالٌ مقدرة؛ أي: مقدِّرين الخلودَ، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ اللامُ فيه للجنس؛ لأن (مثوى المتكبرين) فاعلُ (بئس)، وبئس: فاعلُها اسمٌ معرف بلام الجنس، أو مضافٌ إلى مثله، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ، تقديرُه: فبئس مثوى المتكبرين جهنمُ.

«٧٣» ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ المرادُ: سَوْقُ مراكبِهم؛ لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين إلى دار الكرامة والرضوان، كما يُفعل بمن يُكْرَمُ ويُشَرَّفُ من الوافدين على بعض الملوك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾: هي التي تُحكى بعدها الجملُ، والجملةُ المحكية بعدها هي الشرطية، إلا أن جزاءَها محذوفٌ، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة، فدُلَّ بحذفه على أنه شيءٌ لا يُحيطُ به الوصف، وقال الزجاج: تقديرُه: حتى اذا جاؤوها ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ دَخَلُوها، فحُذف دَخَلُوها؛ لأن في الكلام دليلاً عليه[2]،

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٧).
(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٣٦٤).

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

وقال قوم: حتى إذا جاؤوها.. جاؤوها وفتحت أبوابُها، فعندهم جاؤوها: محذوفٌ؛ والمعنى: حتى اذا جاؤوها.. وقع مجيئُهم مع فتح أبوابِها، وقيل: أبوابُ جهنم لا تفتحُ إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة.. فمتقدِّمٌ فتحُها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] فلذلك جيءَ بالواو، وكأنه قال: حتى اذا جاؤوها وقد فتحت أبوابُها.. طبتُم من دنس المعاصي، وطهُرتم من خبث الخطايا، وقال الزجاج: أي: كنتم طيبين في الدنيا، ولم تكونوا خبيثين؛ أي: لم تكونوا أصحابَ خبائث، وقال ابن عباس: طاب لكم المقامُ، وجُعِلَ دخولُ الجنة مُسبَّباً عن الطيبِ والطهارةِ؛ لأنها دار الطيبين، ومثوى الطاهرين، قد طهَّرها الله من كل دنس، وطيَّبها من كل قَذَرٍ، فلا يدخلُها الا مناسبٌ لها، موصوف بصفتها.

《٧٤》 ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾: أنجزنا ما وعدنا في الدنيا من نعيم العُقبى، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾: أرضَ الجنة، وقد أُورثوها؛ أي: مُلِّكُوها، وجُعلُوا مُلوكَها، وأُطلق تصرفُهم فيها كما يشاؤون؛ تشبيهاً بحال الوارث وتصرفِه فيما يرثُه واتساعِه فيه، ﴿نَتَبَوَّأُ﴾: حالٌ، ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: يكون لكلٍّ واحد منهم جنةٌ لا تُوصف سَعَةً وزيادةً على الحاجة، فيتبوأُ؛ أي: فيتخذُ مُتبوّأً ومَقرّاً من جنته حيث يشاء، ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ في الدنيا الجنةُ.

《٧٥》 ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾: حالٌ من (الملائكة)، ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مُحْدِقِين مِن حولِه، و(من): لابتداء الغاية؛ أي: ابتداءُ حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله، ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: حالٌ من الضمير في (حافين)، ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يقولون: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أو: سبوحٌ قدوسٌ رب الملائكة والروح، وذلك للتلذذ دون التعبد؛ لزوال التكليف، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾: بين الأنبياء والأمم، أو: بين أهل الجنة والنار ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالعدل، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: يقول أهل الجنة شكراً حين دخولها وتمَّ وعدُ الله لهم، كما قال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وكان رسولُ الله ﷺ يقرأ كلَّ ليلة بني إسرائيل والزمرَ[١]، عن ابن عباس رضي الله عنهما: الحواميمُ كلُّها مكياتٌ.



(١) رواه الترمذي (٣٤٠٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٨٠) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ ....

سورة المؤمن

مكيةٌ، وهي خمسٌ وثمانون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١» ﴿حمٓ ۝١﴾ وما بعده بالإمالة: حمزةُ وعليٌّ وخلفٌ ويحيى وحمادٌ، وبين الفتح والكسر: مدنيٌّ، وغيرُهم: بالتفخيم[١]، وعن ابن عباس: أنه اسم الله الأعظم.

«٢» ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب، ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: المنيعِ بسلطانه عن أن يَتَقَوَّلَ عليه مُتَقَوِّلٌ، ﴿ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ بمن صَدَّقَ به وكَذَّبَ، فهو تهديدٌ للمشركين، وبشارةٌ للمؤمنين.

«٣» ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: ساترِ ذنبِ المذنبين، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: قابلِ توبةِ الراجعين، ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ على المخالفين، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾: ذي الفضل على العارفين، أو: ذي الغنى عن الكلِّ، وعن ابن عباس: غافرُ الذنب وقابلُ التوب لمن قال: لا إله إلا الله، شديدُ العقاب لمن لا يقول: لا إله إلا الله. والتوبُ والثَّوب والأَوبُ أخواتٌ في معنى الرجوع، والطولُ: الغنى والفضل، **فإن قلت**: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً، والموصوفُ معرفةٌ؟ **قلت**: أما (غافر الذنب) و(قابل التوب).. فمعرفتان؛ لأنه لم يُرَدْ بهما حدوثُ الفعلين حتى يكونا في تقدير الانفصال، فتكونَ إضافتهما غيرَ حقيقية، وإنما أريد ثبوتُ ذلك ودوامُه، وأما (شديد العقاب).. فهو في تقدير: شديدٍ عقابُه، فتكون نكرةً[٢]، فقيل: هو بدلٌ، وقيل: لما وجدت هذه النكرة بين هذه المعارف.. آذنت بأن كلَّها أبدالٌ غيرُ أوصاف، وإدخالُ الواو في (وقابل التوب) لنكتة، وهي إفادةُ الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يَقبلَ توبتَه فيكتبَها له طاعةً من الطاعات، وبين أن يجعلها محّاءة للذنوب كأن لم يذنبْ، كأنه قال: جامع المغفرةِ والقبولِ، وروي: أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب،

---

(١) في «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٩): (أمال حا: ابنُ ذكوان وشعبةُ والأخوان وخلفٌ، وقلَّلهما: ورشٌ وأبو عمرٍو).

(٢) لأنه صفة مشبهة، وهي لا تتعرف بالإضافة.

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ....

فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمرَ إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد إليك اللهَ الذي لا إله إلا هو، ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾، وختم الكتاب، وقال لرسوله: لا تدفعْه إليه حتى تجدَه صاحياً، ثم أمر مَن عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة.. جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفرَ لي، وحذَّرني عقابَه، فلم يبرحْ يردِّدُها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النُّزوع، وحسنت توبته، فلما بلغ عمرَ أمرُه.. قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم قد زلَّ زلةً.. فسدِّدُوه وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه[1]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾: صفةٌ أيضاً لـ(ذي الطول)، ويجوز أن يكون مستأنفاً، ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾: المرجع.

《٤》 ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: ما يخاصم فيها بالتكذيب بها، والإنكار لها، وقد دلَّ على ذلك في قوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾، فأما الجدالُ فيها لإيضاح مُلتبِسها، وحلِّ مشكلِها، واستنباطِ معانيها، وردِّ أهل الزيغ بها.. فأعظمُ جهاد في سبيل الله، ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ بالتجارات النافقة، والمكاسب المُرْبِحَةِ سالمين غانمين، فإن عاقبة أمرهم إلى العذاب، ثم بيَّنَ كيف ذلك، فأعلم أن الأمم الذين كذبت قبلَهم أُهلكت فقال:

《٥》 ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ نوحاً، ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ﴾ أي: الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم، وهم عاد وثمود وقوم لوط وغيرُهم، ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: من بعد قوم نوح، ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ﴾ من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزابُ ﴿بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾: ليتمكنوا منه فيقتلُوه، والأخيذُ: الأسيرُ، ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: بالكفر؛ ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾: ليبطلوا به الإيمان، ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾: مُظهرٌ: مكيٌّ وحفصٌ[2]؛ يعني: أنهم قصدوا أخذَه فجعلتُ جزاءَهم على إرادة أخذ الرسل أنْ أخذتُهم فعاقبتُهم، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ وبالياء: يعقوبُ[3]؛ أي: فإنكم تمرُّون على بلادهم، فتعاينُون أثر ذلك، وهذا تقريرٌ فيه معنى التعجب.

---

(١) رواه بنحوه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٩٧).

(٢) مظهر: دون إدغام الذال في التاء. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٩).

(٣) انظر المرجع السابق (ص ٢٧٨) وكذا القراءة الآتية.

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ....

«٦» ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ﴿كلمات ربك﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ، ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾: في محل الرفع بدلٌ من (كلمة ربك) أي: مثلُ ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونُهم من أصحاب النار؛ ومعناه: كما وجب إهلاكُهم في الدنيا بالعذاب المستأصِلِ كذلك وجب إهلاكُهم بعذاب النار في الآخرة، أو: في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصالِ الفعل، و(الذين كفروا): قريشٌ؛ ومعناه: كما وجب إهلاك أولئك الأمم كذلك وجب إهلاكُ هؤلاء؛ لأن علة واحدة تجمعُهم أنهم من أصحاب النار، ويلزمُ الوقفُ على النار؛ لأنه لو وصل.. لصار:

«٧» ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ يعني: حاملِي العرشِ والحافِّين حولَه، وهم الكَروبِيون[1]، سادةُ الملائكةِ.. صفةً لـ(أصحاب النار)، وفسادُه ظاهر، روي: أنَّ حملة العرش أرجلُهم في الأرض السفلى، ورؤوسُهم قد خرقت العرش[2]، وهم خشوعٌ لا يرفعون طرفهم، وفي الحديث: «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدُوا ويروحُوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»[3]، وقيل: حول العرش سبعون ألفَ صفٍّ من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيامٌ يهللون ويكبرون، ومن ورائهم مئةُ ألفِ صفٍّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يسبحُ بما لا يسبح به الآخرُ، ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: خبرُ المبتدأ، وهو (الذين) ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: مع حمده؛ إذ الباءُ تدلُّ على أن تسبيحهم بالحمدِ له، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وفائدتُه مع علمنا بأن حملة العرش ومن حولَه من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون: إظهارُ شرف الإيمان وفضلِه، والترغيبُ فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع بالصلاح؛ لذلك، وكما عَقَّبَ أعمال الخير بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧] فأبان بذلك فضلَ الإيمان، وقد رُوعي التناسب في قوله: (ويؤمنون به)، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كأنه قيل: ويؤمنون به ويستغفرون لمن في مثلِ حالِهم، وفيه دليلٌ على أن الاشتراك في

---

(١) الكَروبِيون؛ أي: المقربون، مِن: كَرَبَ؛ بمعنى: قَرُبَ.

(٢) في «سنن أبي داود» (٤٧٢٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أُذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام».

(٣) لم أجده.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ....

الإيمان يجب أن يكون أدعَى شيءٍ إلى النصيحة والشفقة وإن تباعدت الأماكنُ، ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ربَّنا، وهذا المحذوف: حالٌ، ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ والرحمةُ والعلمُ هما اللذان وسعا كلَّ شيء في المعنى؛ إذ الأصلُ: وسع كلَّ شيء رحمتُك وعلمُك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، وأُخرجا منصوبين على التمييز مبالغةً في وصفه بالرحمة والعلم، ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي: للذين علمت منهم التوبة؛ لِتُناسِبَ ذكرَ الرحمةِ والعلمِ[1]، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي: طريقَ الهدى الذي دعوتَ إليه، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾.

《٨》 ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ (مَن): في موضع نصبٍ عطفٌ على (هم) في (وأدخلهم) أو: في (وعدتهم) والمعنى: وعدتَهم ووعدتَ مَن صلح من آبائهم ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ أي: الملك الذي لا يُغلب، وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً خالياً عن الحكمة، وموجَبُ حكمتك أن تفيَ بوعدك.

《٩》 ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: جزاءَ السيئات، وهو عذاب النار، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ﴾ أي: دفعُ العذاب ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

《١٠》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ أي: يومَ القيامة إذا دخلُوا النار ومَقَتوا أنفسَهم، فيناديْهم خزنةُ النار: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لمقتُ اللهِ أنفسَكم أكبرُ من مقتكم أنفسَكم، فاستغنى بذكرها مرة، والمقتُ: أشدُّ البغض، وانتصابُ ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ بالمقت الأول عند الزمخشري[2]؛ والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقُتُ أنفسَكم الأمارة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبَون قبولَه، وتختارون

---

(١) أي: أن ما بعد الفاء في (فاغفر) تفصيل لما قبلها، وقد ذُكِرَ قبلَها شيئان: الرحمة والعلم، وذُكِرَ بعدَها المغفرة فقط، وهي تناسب الرحمة، فلذا قدر بعدها: (علمت منهم التوبة) لِيُناسِبَ ذكرَ العلمِ قبلَها. انظر «فتوح الغيب» (١٣/ ٤٦٧).

(٢) انظر «الكشاف» (٤/ ١٥٨).

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ ....

عليه الكفرَ أشدَّ مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار؛ إذْ أوقعنكم فيها باتباعِكم هواهنَّ، وقيل: معناه: لمقتُ الله إياكم الآنَ أكبرُ من مقت بعضكم لبعض، كقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥][1]، و(إذ تدعون): تعليلٌ، وقال «جامعُ العلومِ» وغيرُه: إذْ منصوب بفعل مضمر دلَّ عليه (لمقتُ الله) أي: يمقُتُهم الله حين دُعُوا إلى الإيمان فكفرُوا، ولا ينتصب بالمقت الأول؛ لأن قوله: (لمقت الله): مبتدأ، وهو مصدرٌ، وخبرُه: (أكبر من مقتكم أنفسكم) فلا يعملُ في (إذ تدعون)؛ لأن المصدر إذا أُخبر عنه.. لم يجزْ أن يتعلق به شيءٌ يكون في صلته؛ لأن الإخبار عنه يؤذن بتمامِه، وما يتعلق به يؤذن بنقصانِه، ولا بالثاني؛ لاختلاف الزمانين، وهذا لأنهم مقتوا أنفسَهم في النار، وقد دُعُوا إلى الإيمان في الدنيا، ﴿فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾: فتُصرُّون على الكفر.

«١١» ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: إماتَتين وإحياءَتين، أو: موتتين وحياتَين[2]، وأراد بالإماتتين: خلقَهم أمواتاً أولاً، وإماتَتهم عند انقضاء آجالهم، وصحَّ أن يُسمَّى خلقُهم أمواتاً إماتةً كما صحَّ أن يُقال: سبحان من صغَّرَ جسم البعوضة، وكبَّر جسمَ الفيل، وليس ثَمةَ نقلٌ من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر، والسببُ فيه: أن الصغر والكبر جائزان على المصنوع الواحد، فإذا اختار الصانعُ أحد الجائزين.. فقد صرف المصنوعَ عن الجائز الآخر، فجُعل صرفُه عنه كنقله منه، وبالإحياءَتين: الإحياءَة الأولى، وإحياءَةَ البعث، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقيل: الموتةُ الأولى في الدنيا، والثانيةُ في القبر بعد الإحياء للسؤال، والإحياءُ الأول: إحياؤه في القبر بعد موته للسؤال، والثاني للبعث، ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ لما رأوُا الإماتةَ والإحياءَ قد تكرَّرا عليهم.. علموا أن الله قادر على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من النار؛ أي: إلى نوعٍ من الخروج سريعٍ أو بطيءٍ؛ لنتخلصَ ﴿مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ قطُّ؟ أم اليأسُ واقعٌ دون ذلك، فلا خروجَ ولا سبيلَ

---

(١) وقعَ خطأٌ في الآيةِ في الأصل هكذا: (ويَوْمَ الْقِيَامَةِ).

(٢) أي: أن (اثنتين) في الموضعين: صفتان لمصدرَي الفعلين، والتقديرُ: أمتنا إماتتين اثنتين، وأحييتنا إحياءتين اثنتين، ويجوز كون المصدرين مَوتتين وحياتين، وهما إمّا مصدران للفعلين المذكورين أيضاً بحذف الزوائد، أو مصدران لفعلين آخرين يدلُّ عليهما المذكوران، فإن الإماتة والإحياء يُنبئان عن الموت والحياة حتماً، فكأنه قيل: أمتَّنا فمتنا موتتين اثنتين، وأحييتنا فَحَيِينا حياتين اثنتين. انظر «تفسير الآلوسي» (١٢/ ٣٠٤).

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ ....

إليه؟ وهذا كلامُ مَن غلب عليه اليأس، وإنما يقولون ذلك تَحَيُّراً، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قولُه:

«١٢» ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ أي: ذلكم الذي أنتم فيه وأنْ لا سبيلَ لكم إلى خروجٍ قطُّ بسبب كفركم بتوحيد الله، وإيمانِكم بالإشراك به، ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السَّرْمَد، ﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾ شأنُه، فلا يُردُّ قضاؤُه، ﴿ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾: العظيمُ سلطانُه، فلا يُحدُّ جزاؤُه، وقيل: كان الحرورية أخذوا قولَهم: لا حكمَ إلا لله، مِن هذا، وقال قتادة: لما خرج أهلُ حَرُوراء، قال علي رضي الله عنه: مَن هؤلاء؟ قيل: المحكِّمون؛ أي: يقولون: لا حكمَ إلا لله، فقال علي رضي الله عنه: كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ[1].

«١٣» ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوِها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: وبالتخفيف: مكيٌّ وبصريٌّ[2]، ﴿رِزۡقٗاۚ﴾: مطراً؛ لأنه سبب الرزق، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾: وما يتعظُ وما يعتبر بآيات الله إلا مَن يتوب من الشرك ويرجعُ إلى الله؛ فإن المعاند لا يتذكر ولا يتعظ، ثم قال للمُنيبين:

«١٤» ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾: فاعبدوه ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾: وإن غاظ ذلك أعداءَكم ممن ليس على دينكم.

«١٥» ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾: ثلاثةُ أخبار لقوله: ﴿هُوَ﴾، مترتبةٌ على قوله: ﴿ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ﴾، أو: أخبارُ مبتدأ محذوف؛ ومعنى (رفيع الدرجات): رافعُ السموات بعضِها فوق بعض، أو: رافعُ درجات عباده في الدنيا بالمنزلة، أو: رافعُ منازلهم في الجنة، و(ذو العرش): مالكُ عرشه الذي فوق السموات، خَلَقَه مَطافاً للملائكة؛ إظهاراً لعظمته مع استغنائِه في مملكتِه، و(الروح): جبريلُ عليه السلام، أو: الوحيُ الذي تحيا به القلوب، ﴿مِنۡ

---

(١) رواه بنحوه مسلم (١٠٦٦) عن سيدنا عبيد الله بن أبي رافع رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٨).

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ ....

﴿أَمْرِهِ﴾: من أجلِ أمرِه، أو بأمره، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ﴾ أي: الله، أو الملقَى عليه، وهو النبي عليه السلام، ويدل عليه قراءةُ يعقوبَ: ﴿لتنذر﴾[1]، ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾: يوم القيامة؛ لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والأولون والآخرون، ﴿التلاقي﴾: مكيٌّ ويعقوبُ[2].

《١٦》 ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾: ظاهرون لا يسترُهم شيءٌ من جبل أو أكَمَةٍ أو بناء، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: من أعمالهم وأحوالهم، ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك حين لا أحدَ يجيبه، ثم يجيب نفسه بقوله: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ أي: الذي قهر الخلق بالموت، وينتصب (اليوم) بمدلول (لمن) أي: لمن يثبتُ الملك في هذا اليوم؟ وقيل: ينادي منادٍ فيقول: لمن الملكُ في هذا اليوم؟ فيجيبُه أهلُ المحشر: (لله الواحد القهار).

《١٧》 ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ لما قرَّر أن الملك لله وحدَه في ذلك اليوم.. عدد نتائج ذلك، وهي أن كل نفس تُجزى بما كسبت: عملت في الدنيا من خير وشرٍّ، وأن الظلم مأمون؛ لأنه ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يُبطئُ؛ لأنه لا يَشغله حساب عن حساب، فيحاسب الخلق كلَّه في وقت واحد، وهو أسرع الحاسبين.

《١٨》 ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي: القيامة؛ سميت بها لِأُزوفها؛ أي: لقربها، ويبدل من (يوم الآزفة): ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أي: التراقي؛ يعني: ترتفع قلوبُهم عن مقارِّها، فتلصَقُ بحناجرهم، فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروَّحُوا، ﴿كَاظِمِينَ﴾: ممسكين بحناجرهم؛ من: كَظَمَ القِربةَ: شدَّ رأسَها، وهو حالٌ من (القلوب) محمولٌ على أصحابها، وإنما جَمع الكاظمَ جمعَ السلامة؛ لأنه وصفَها بالكظمِ الذي هو من أفعال العقلاء، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾: للكافرين ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾: محبٌّ مشفقٌ، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ أي: يشفع، وهو مجاز؛ لأن الطاعة حقيقةً لا تكون إلا لمن فوقك، والمراد: نفي الشفاعة والطاعة، كما

---

(١) انظر «معاني القراءات» للأزهري (٢/ ٣٤٣)، ونسبها في «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٨٤) للحسن.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٨).

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ٢٠ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٢١﴾

في قوله[1]: [من: السريع]

.... ولا تـرى الـضـبَّ بـهـا يَـنْـجَـحِـرْ

يريدُ به نفيَ الضبِّ وانجحارَه، وإن احتمل اللفظ انتفاءَ الطاعة دون الشفاعة، فعن الحسن: والله ما يكون لهم شفيعٌ البتة.

《١٩》 ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾: مصدرٌ بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة؛ والمرادُ: استراقُ النظر إلى ما لا يَحِلُّ، ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾: وما تسرُّه من أمانة وخيانة، وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوةٍ مسارقةً، ثم يتفكر بقلبه في جمالَها، ولا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرته، والله يعلم ذلك كلَّه، و(يعلم خائنة الأعين): خبرٌ من أخبار (هو) في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مثلُ ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ ولكن ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ قد عُلِّلَ بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ ثم استطرد ذكرَ أحوالِ يومِ التلاق، إلى قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فبَعُدَ لذلك عن أخواتِه.

《٢٠》 ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي: والذي هذه صفاتُه لا يحكم إلا بالعدل، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ وآلهتُهم لا يقضون بشيء، وهذا تهكُّمٌ بهم؛ لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يُقال فيه: يقضي أو لا يقضي، ﴿تَدْعُونَ﴾: نافعٌ[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ٢٠﴾: تقريرٌ لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾، ووعيدٌ لهم بأنه يسمع ما يقولون، ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعريضٌ بما يدْعون من دون الله، وأنها لا تسمع ولا تبصر.

《٢١》 ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: آخِـرُ أمـرِ الذين كذبوا الرسل من قبلهم، ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (هم): فصلٌ، وحقُّه أن يقع بين

---

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن أحمر في وصف فلاة، وصدرُه:

لا تُـــفْـــزِعُ الأرنـــبَ أهـــوالُـــهـــا

لم يُرِدْ أن بها أرانبَ لا تُفزعُها أهوالُها، ولا ضِباباً غيرَ مُنجحرة، ولكنه أراد وصفَ هذه المفازة بكثرة الأهوال؛ بحيث لا يمكن أن يسكنها حيوانٌ، والانجحارُ: الدخولُ في الجُحر، وهو حُفرةٌ في الأرض. انظر «خزانة الأدب» (١٠/ ١٩٢).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٩) وكذا القراءة الآتية.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ ....

معرفتين، إلا أن (أشد منهم) ضارعَ المعرفة في أنه لا تدخلُه الألف واللام، فأجري مُجراه، ﴿منكم﴾: شاميٌّ، ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: حصوناً وقصوراً، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: عاقبَهم بسبب ذنوبهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾: ولم يكن لهم شيء يَقيهم من عذاب الله.

《٢٢》 ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: الأخذُ بسبب أنهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾: قادرٌ على كل شيء، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ إذا عاقب.

《٢٣》 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسعِ، ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾: وحجةٍ ظاهرةٍ.

《٢٤》 ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟﴾: هو ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ فسمَّوا السلطانَ المبينَ سحراً وكذباً.

《٢٥》 ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: بالنبوة ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً، ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ للخدمة، ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾: ضياع؛ يعني: أنهم باشَرُوا قتلَهم أولاً، فما أغنى عنهم، ونفذ قضاءُ الله بإظهار مَن خافُوه، فما يُغني عنهم هذا القتلُ الثاني، وكان فرعونُ قد كفَّ عن قتل الولدان، فلما بُعثَ موسى عليه السلام وأحسَّ بأنه قد وقع.. أعاده عليهم غيظاً، وظنّاً منه أنه يصدُّهم بذلك عن مظاهرة موسى عليه السلام، وما علم أن كيده ضائعٌ في الكرتين جميعاً.

《٢٦》 ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِمَلَئِه: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كان إذا همَّ بقتله.. كَفُّوه بقولهم: ليس بالذي تخافُه، وهو أقلُّ من ذلك، وما هو إلا ساحر، وإذا قتلتَه.. أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهرُ: أن فرعون قد استيقن أنه نبيٌّ، وأن ما جاء به آياتٌ، وما هو بسحر، ولكن كان فيه خِبٌّ[1]، وكان قتّالاً سفّاكاً للدماء في أهونِ شيءٍ، فكيف لا يَقتلُ مَن أحسَّ بأنه هو الذي يَهدِمُ ملكه؟ ولكن كان يخاف إن همَّ بقتله.. أن يُعاجلَ

---

(١) الخِبُّ: الخِداعُ والخُبْثُ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ ....

بالهلاك، وقولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾: شاهدُ صدق على فَرْطِ خوفِه منه، ومن دعوتِه ربَّه، وكان قولُه: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفُّونه، وما كان يكفُّه إلا ما في نفسه من هولِ الفَزَعِ، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتلْه ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾: أن يُغَيِّرَ ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾ موسى ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾: بضم الياء ونصب الدال: مدنيٌّ وبصريٌّ وحفصٌ، وغيرُهم: بفتح الياء ورفع الدال[1]، والأولُ أولى؛ لموافقة (يبدل)، والفسادُ في الأرض: التقاتلُ والتهايُجُ الذي يذهب معه الأمنُ، وتتعطل المزارعُ والمكاسبُ والمعايِشُ، ويُهْلِكُ الناسَ قتلاً وضياعاً، كأنه قال: إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو يفسدَ عليكم دنياكم بما يَظهرُ من الفتن بسببِه، وقرأ غيرُ أهل الكوفة: ﴿وأن﴾؛ ومعناه: إني أخاف فسادَ دينكم ودنياكم معاً.

《٢٧》 ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لما سمع بما أجراه فرعونُ من حديث قتلِه لقومه: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ وفي قولِه: (وربكم): بعثٌ لهم على أن يقتدوا به فيعوَّذوا بالله عياذَه، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامَه، وقال: (من كل متكبر) لتشمل استعاذتُه فرعونَ وغيرَه من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض، فيكون أبلغَ، وأراد بالتكبر الاستكبارَ عن الإذعان للحق، وهو أقبحُ استكبار، وأدلُّه على دناءة صاحبِه، وعلى فَرْطِ ظلمِه، وقال: (لا يؤمن بيوم الحساب) لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبُّرُ والتكذيبُ بالجزاء وقلةُ المبالاة بالعاقبة.. فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعبادِه، ولم يترك عظيمةً إلا ارتكبها، وعُذْتُ ولُذْتُ: أخوان، و﴿عذت﴾: بالإدغام: أبو عمرٍو وحمزةُ وعليٌّ[2].

《٢٨》 ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قيل: كان قِبطيّاً ابنَ عمٍّ لفرعون، آمن بموسى سِرّاً، و(من آل فرعون): صفةٌ لـ(رجل)، وقيل: كان إسرائيليّاً، و(من آل فرعون): صلةٌ لـ(يكتم) أي: يكتم إيمانه من آل فرعون، واسمُه سِمعان، أو حبيب، أو خِرْبِيْلُ، أو حزبيل،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧٩) وكذا القراءة الآتية.

(٢) انظر المرجع السابق (ص ٢٨٠).

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾

والظاهرُ: الأول، ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ﴾: لأن يقول، وهذا إنكار منه عظيم، كأنه قيل: أترتكبون الفَعْلَةَ الشنعاءَ التي هي قتلُ نفس محرمة وما لَكم علةٌ في ارتكابها إلا كلمةُ الحقِّ، وهي قولُه: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وهو ربُّكم أيضاً لا ربُّه وحدَه، ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم﴾ الجملةُ: حالٌ، ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ يعني: أنه لم يُحضِر لتصحيح قولِه بينةً واحدة ولكن بيناتٍ من عند من نَسَبَ إليه الربوبية، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به، ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ احتجَّ عليهم بطريق التقسيم؛ فإنه لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، فإن يك كاذباً.. فعليه وبالُ كذبِه ولا يتخطّاه، وإن يك صادقاً.. يصبْكم بعضُ ما يعدُكم من العذاب، ولم يقل: كلُّ الذي يعدكم، مع أنه وعدٌ من نبيٍّ صادقِ القولِ؛ مداراةً لهم، وسلوكاً لطريق الإنصاف، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمِهم له، وليس فيه نفيُ إصابة الكلِّ، فكأنه قال لهم: أقلُّ ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعضُ ما يعدُكم، وهو العذاب العاجل، وفي ذلك هلاكُكم، وكان وعدَهم عذاب الدنيا والآخرة، وتقديمُ الكاذب على الصادق من هذا القبيل أيضاً، وتفسيرُ البعض بالكل مُزَيَّفٌ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾: مجاوزٌ للحدِّ، ﴿كَذَّابٞ ٢٨﴾ في ادعائه، وهذا أيضاً من باب المجاملة؛ والمعنى: أنه إذا كان مسرفاً كذاباً.. خذله الله وأهلكه فتتخلصون منه، أو: لو كان مسرفاً كذاباً.. لما هداه الله بالنبوة، ولما عضَدَه بالبينات، وقيل: أَوْهَمَ أنه عنَى بالمسرف موسى، وهو يعني به فرعون.

«٢٩» ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾: عالين، وهو حالٌ من (كم) في (لكم) ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: في أرض مصرَ، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ يعني: أن لكم ملكَ مصرَ وقد علوتم الناس وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله؛ أي: عذابِه؛ فإنه لا طاقة لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحدٌ، وقال: (ينصرنا) و(جاءنا) لأنه منهم في القرابة، وليُعلمَهم بأن الذي ينصحُهم به هو مُساهِمٌ لهم فيه، ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أشير عليكم برأيٍ إلا بما أرى من قتله؛ يعني: لا أستصوبُ إلا قتلَه، وهذا الذي تقولونه غيرُ صواب، ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾: طريقَ الصوابِ والصلاح، وما أعلمُكم إلا ما أعلم من الصواب، ولا أدخر منه شيئاً، ولا أُسِرُّ عنكم خلاف ما أظهر؛ يعني: أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب، فقد كان مستشعراً للخوف

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ....

الشديد من جهة موسى عليه السلام، ولكنه كان يتجلدُ، ولولا استشعارُه.. لم يستشر أحداً، ولم يَقِفِ الأمرَ على الإشارة.

«٣٠» ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مثل أيامهم؛ لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسَّرهم بقوله:

«٣١» ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾ ولم يُلبَسْ أنَّ كل حزب منهم كان له يومُ دمارٍ . اقتصر على الواحد من الجمع، ودأبُ هؤلاء دُؤوبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، وكونُ ذلك دائباً دائماً منهم لا يفترون عنه، ولا بدَّ من حذف مضاف؛ أي: مثلَ جزاءِ دأبهم، وانتصابُ (مثل) الثاني بأنه عطف بيان لـ(مثل) الأول، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ أي: وما يريد الله أن يظلم عبادَه فيعذبَهم بغير ذنب، أو يزيدَ على قدر ما يستحقون من العذاب؛ يعني: أن تدميرهم كان عدلاً؛ لأنهم استحقُّوه بأعمالِهم، وهو أبلغ من قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] حيث جعل المنفيَّ إرادةَ ظلم مُنَكَّرٍ، ومَن بَعُدَ عن إرادة ظلم ما لعباده.. كان عن الظلم أبعدَ وأبعدَ، وتفسيرُ المعتزلة أنه لا يريد لهم أن يَظلِموا.. بعيدٌ؛ لأن أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: لا أريد ظلماً لك.. معناه: لا أريد أن أظلمَكَ، وهذا تخويف بعذاب الدنيا، ثم خوَّفهم من عذاب الآخرة بقوله:

«٣٢» ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: يومَ القيامة، ﴿التنادي﴾: مكيٌّ ويعقوبُ: في الحالين[1]، وإثباتُ الياء هو الأصل، وحذفُها حسنٌ؛ لأن الكسرة تدل على الياء، وأواخرُ هذه الآي على الدال، وهو ما حكى الله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨]، وقيل: ينادي منادٍ: ألا إن فلاناً سعد سعادةً لا يشقَى بعدها أبداً، ألا إن فلاناً شقيَ شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

«٣٣» ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾: منصرفين عن موقف الحساب إلى النار، ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: من عذاب الله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾: مانعٍ ودافعٍ، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾: مرشدٍ.

(١) انظر المرجع السابق (ص ٢٧٩) وكذا القراءة الآتية.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ . . . .

《٣٤》 ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هو: يوسفُ بنُ يعقوبَ، وقيل: يوسفُ ابنُ إبراهيمَ بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ، أقام فيهم نبياً عشرين سنةً، وقيل: إن فرعون موسى هو فرعونُ يوسفَ، عُمِّرَ إلى زمنه، وقيل: هو فرعونُ آخرُ، وبَّخهم بأن يوسف أتاكم من قبلِ موسى بالمعجزات، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾: فشككتم فيها، ولم تزالوا شاكّين، ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ حُكماً من عند أنفسكم من غير برهان؛ أي: أقمتم على كفركم وظننتُم أنه لا يُجدد عليكم إيجابَ الحجةِ، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: مثلَ هذا الإضلالِ يضلُّ اللهُ كلَّ مسرف في عصيانه، مرتابٍ: شاكٍّ في دينه.

《٣٥》 ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾: بدلٌ من ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، وجاز إبدالُه منه وهو جمع؛ لأنه لا يريد مسرفاً واحداً، بل كلَّ مسرف، ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾: في دفعها وإبطالها، ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾: حجةٍ، ﴿أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي: عَظُمَ بغضاً، وفاعلُ (كبر): ضمير ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، وهو جمع معنىً، وموحدٌ لفظاً، فحمل البدل على معناه، والضمير الراجع إليه على لفظه، ويجوز أن يُرفع (الذين) على الابتداء، ولا بدَّ في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في (كبر)، تقديرُه: جدالُ الذين يجادلون كبُر مقتاً، ﴿عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ ﴿قلبٍ﴾: بالتنوين: أبو عمرٍو[1]، وإنما وُصف القلبُ بالتكبر والتجبر؛ لأنه منبعُهما، كما تقول: سمعتِ الأذنُ، وهو كقوله: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وإن كان الآثم هو الجملة.

《٣٦》 ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ تمويهاً على قومه، أو جهلاً منه: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ أي: قصراً، وقيل: الصرحُ: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعدَ، ومنه يقال: صَرَّحَ الشيءُ: إذا ظهر، ﴿لَّعَلِّيَ﴾ وبفتح الياء: حجازيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو[2]، ﴿أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾﴾ ثم أبدل منها تفخيماً لشأنها، وإبانةً أنه يقصد أمراً عظيماً.

---

(١) وابنُ ذكوان.

(٢) انظر المرجع السابق (ص ٢٨٠) وكذا القراءات الخمس الآتية.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ......

«٣٧» ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: طرقَها وأبوابَها وما يؤدِّي إليها، وكلُّ ما أداك إلى شيء.. فهو سبب إليه، كالرِّشاءِ ونحوِه، ﴿فَأَطَّلِعَ﴾: بالنصب: حفصٌ؛ على جواب الترجِّي؛ تشبيهاً للترجي بالتمني، وغيرُه: بالرفع؛ عطفاً على (أبلغ)، ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ والمعنى: فأنظرَ إليه، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ في قوله: له إلهٌ غيري، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك التزيينِ وذلك الصدِّ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ المستقيم، وبفتح الصاد: غيرُ كوفيٍّ ويعقوب؛ أي: غيرَه صَدّاً، أو: هو بنفسه صُدوداً، والمزينُ الشيطانُ بوسوسته، كقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]، أو: اللهُ تعالى، ومثلُه: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾: خسرانٍ وهلاكٍ.

«٣٨» ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ ﴿اتبعوني﴾: في الحالين: مكيٌّ ويعقوبُ وسهلٌ، ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ وهو: نقيضُ الغيِّ، وفيه تعريضٌ شبيه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومُه سبيلُ الغيِّ، أَجْمَلَ أوّلاً ثم فسَّرَ، فافتتح بذمِّ الدنيا وتصغيرِ شأنِها بقوله:

«٣٩» ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾: تمتعٌ يسيرٌ، فالإخلادُ إليها أصلُ الشرِّ، ومنبعُ الفتن، وثنّى بتعظيم الآخرة، وبيَّنَ أنها هي الوطن والمستقرُّ بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ ثم ذكر الأعمال سيئَها وحسنَها وعاقبةَ كلٍّ منهما؛ لِيُثَبِّطَ عما يُتلف، ويُنَشِّطَ لما يُزلِف بقوله:

«٤٠» ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ ﴿يُدْخَلُون﴾: مكيٌّ وبصريٌّ ويزيدُ وأبو بكر، ثم وازن بين الدعوتين: دعوتِه إلى دين الله الذي ثَمرتُه النجاةُ، ودعوتِهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبتُه النارُ بقوله:

«٤١» ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ﴾ وبفتح الياء: حجازيٌّ وأبو عمرٍو، ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي: الجنةِ، ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ....﴾

《٤٢》 ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾: هو بدلٌ من (تدعونني) الأول؛ يقال: دعاه إلى كذا، ودعاه له، كما يقال: هداه إلى الطريق وهداه له، ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بربوبيته؛ والمراد بنفي العلم: نفيُ المعلوم، كأنه قال: وأشركَ به ما ليس بإلهٍ، وما ليس بإلهٍ كيف يصحُّ أن يُعلمَ إلهاً؟ ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾: وهو الله سبحانه وتعالى، وتكريرُ النداء لزيادة التنبيه لهم، والإيقاظِ عن سِنَةِ الغفلة، وفيه أنهم قومُه، وأنه من آل فرعون، وجِيءَ بالواو في النداء الثالث دون الثاني؛ لأن الثاني داخل في الأول على كلام هو بيان للمجمل وتفسيرٌ له، بخلاف الثالث.

《٤٣》 ﴿لَا جَرَمَ﴾ عند البصريين: (لا): ردٌّ لما دعاه إليه قومُه، و(جرم): فعلٌ بمعنى: حقَّ، و(أنْ) مع ما في حيِّزه: فاعلُه؛ أي: حقَّ ووجبَ بطلانُ دعوتِه[1]، ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ معناه: أن ما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ إلى نفسه قطُّ؛ أي: مِن حقِّ المعبود بالحقِّ أن يدعوَ العباد إلى طاعته، وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، ولا يدَّعي الربوبية، أو معناه: ليس له استجابةُ دعوةٍ في الدنيا، ولا في الآخرة، أو: دعوةٌ مستجابةٌ، جُعلت الدعوةُ التي لا استجابةَ لها ولا منفعةَ كَلَا دعوةٍ، أو: سُمِّيَتِ الاستجابةُ باسم الدعوة، كما سُمي الفعلُ المجازَى عليه بالجزاء في قوله: (كما تدين تُدانُ)[2]، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: وأن رجوعَنا إليه، ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: المشركين ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾.

《٤٤》 ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: من النصيحة عند نزول العذاب، ﴿وَأُفَوِّضُ﴾: وأُسلمُ ﴿أَمْرِيٓ﴾ وبفتح الياء: مدنيٌّ وأبو عمرو[3]، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأنهم تَوَعَّدوه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾: بأعمالهم ومآلِهم.

---

(١) وعند الفراء: (لا): نافية للجنس، و(جرم): اسمها، وهي بمعنى: لا بدَّ مِن كذا، أو لا محالةَ في كذا، فحذف بعدها حرف الجر. انظر «معني اللبيب» (ص ٣١٤).

(٢) هذا جزء من حديث رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ١٩٧) مرسلاً، ومعناه: كما تَعملُ تُجازَى.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٠) وكذا القراءة الآتية.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ ....

《٤٥》 ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾: شدائدَ مكرِهم، وما همُّوا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم، وقيل: إنه خرج من عندهم هارباً إلى جبل، فبَعث قريباً من ألف في طلبه، فمنهم مَن أكلته السباع، ومَن رجع منهم.. صَلَبَه فرعونُ، ﴿وَحَاقَ﴾: ونزل ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾.

《٤٦》 ﴿ٱلنَّارُ﴾: بدلٌ من (سوء العذاب)، أو: خبرُ مبتدأ محذوف، كأنه قيل: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار، أو: مبتدأٌ خبرُه: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وعَرْضُهم عليها: إحراقُهم بها، يُقال: عرض الإمامُ الأَسارى على السيف: إذا قتلَهم به، ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: في هذين الوقتين يُعذَّبون بالنار، وفيما بين ذلك: إما أن يعذَّبوا بجنس آخرَ، أو يُنفَّسَ عنهم، ويجوز أن يكون (غُدُوّاً وعشيّاً) عبارةً عن الدوام، هذا في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال لخزنةِ جهنمَ: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: من الإدخال: مدنيٌّ وحمزةُ وعليٌّ وحفصٌ وخلفٌ ويعقوبُ، وغيرُهم: ﴿ادخُلُوا﴾: يُقال لهم: ادخلُوا يا آل فرعون ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ أي: عذابَ جهنمَ، وهذه الآية دليلٌ على عذاب القبر.

《٤٧》 ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾: واذكر وقتَ تخاصُمِهم ﴿فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ يعني: الرؤساءَ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: تُبّاعاً، كخدم في جمع خادم، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾: دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾: جزءاً ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾.

《٤٨》 ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ التنوينُ عوضٌ من المضاف إليه؛ أي: إنا كلّنا فيها، لا يغني أحدٌ عن أحد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾: قضى بينهم؛ بأن أدخل أهل الجنة الجنة، وأهلَ النار النار.

《٤٩》 ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾: للقُوّام بتعذيب أهلها، وإنما لم يقل: لخزنتها؛ لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً، ويحتمل أن جهنم هي أبعدُ النار قعراً؛ من قولهم: بئر جِهِنّامٌ، بعيدةُ القعر، وفيها أعتَى الكفار وأطغاهم، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ....

أجْوَبُ دعوةً لزيادة قربهم من الله تعالى، فلهذا تَعَمَّدَهم أهلُ النار بطلب الدعوة منهم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا﴾ بقدر يوم من الدنيا ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾.

«٥٠» ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الخزنةُ توبيخاً لهم بعد مدة طويلة: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ﴾ أي: أو لم تكُ قصةٌ[1]، وقولُه: ﴿تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾: تفسيرٌ للقصة، ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزات، ﴿قَالُواْ﴾ أي: الكفارُ: ﴿بَلَىٰۚ قَالُواْ﴾ أي: الخزنةُ تهكُّماً بهم: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ أنتم ولا استجابةَ لدعائكم، ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾: بطلانٍ، وهو من قول الله تعالى، ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة.

«٥١» ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ أي: في الدنيا والآخرة؛ يعني: أنه يُغَلِّبُهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفَر على مخالفيهم، وإن غُلِبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله.. فالعاقبةُ لهم، ويُتيح اللهُ من يقتصُّ مِن أعدائهم ولو بعد حين، و(يوم): نصبٌ محمولٌ على موضع الجار والمجرور، كما تقول: جئتك في أمسِ واليومَ، والأشهادُ: جمعُ شاهد، كصاحب وأصحاب؛ يريد: الأنبياءَ والحفظةَ، فالأنبياءُ يشهدون عند ربِّ العزة على الكفرة بالتكذيب، والحفظةُ يشهدون على بني آدم بما عملُوا من الأعمال، ﴿تقوم﴾: الرازي عن هشام[2].

«٥٢» ﴿يَوْمَ لَا تَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾: هذا بدلٌ من (يوم يقوم) أي: لا يُقبل عذرُهم، ﴿لَا يَنفَعُ﴾: كوفيٌّ ونافعٌ[3]، ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾: البعدُ من رحمة الله، ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: سوءُ دار الآخرة، وهو عذابُها.

«٥٣» ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ يريدُ به جميعَ ما آتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع، ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: التوراةَ والإنجيلَ والزَّبورَ؛ لأن الكتاب جنسٌ.

---

(١) أي: أن اسم (تك) ضمير القصة، والتقدير: أولم تك هي. وهو المسمَّى ضميرَ الشأن إذا كان مذكراً.

(٢) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٦٤): قرأ الأعرج وأبو عمرو بخلافٍ: بالتاء.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨١) وكذا القراءة الآتية.

هُدًى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ....

《٥٤》 ﴿هُدًى وَذِكۡرَىٰ﴾: إرشاداً وتذكرةً، وانتصابُهما على المفعول له، أو على الحال، ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾: لذوي العقول.

《٥٥》 ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على ما يُجرِّعُك قومُك من الغُصَصِ؛ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ يعني: أن ما سبق به وعدي مِن نُصرتِكَ وإعلاءِ كلمتِكَ حقٌّ، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: لذنبِ أمتِكَ، ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: دُمْ على عبادة ربك والثناء عليه، وقيل: هما صلاتا الفجر والعصر، وقيل: سبحان الله وبحمده.

《٥٦》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾: لا وقفَ عليه؛ لأن خبرَ (إنَّ): ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾: تَعَظُّمٌ، وهو إرادةُ التقدم والرياسة، وألا يكون أحدٌ فوقَهم، فلذلك عادَوك ودفعَوا آياتِكَ خيفةَ أن تتقدمَهم ويكونوا تحتَ يدك وأمرك ونهيك؛ لأن النبوة تحتَها كلُّ ملك ورياسة، أو: إرادةُ أن تكون لهم النبوة دونك حسداً وبغياً، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١]، أو: إرادةُ دفعِ الآيات بالجدال، ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾: ببالغِي موجَبِ الكبرِ ومُقتضيْه، وهو متعلَّقُ إرادتهم من الرياسة أو النبوة، أو دفعُ الآيات، ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾: فالتجئْ إليه من كيد من يحسدُك ويَبغي عليك، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقولُ ويقولون، ﴿ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ بما تعملُ ويعملون، فهو ناصرك عليهم، وعاصمُك من شرِّهم.

《٥٧》 ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ لما كانت مجادلتُهم في آيات الله مشتملةً على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارُها.. حُجُّوا بخلق السموات والأرض؛ لأنهم كانوا مقرِّين بأن الله خالقُهما؛ فإن مَن قَدَرَ على خلقها مع عظمِها.. كان على خلق الإنسان مع مَهانتِه أقدرَ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ لأنهم لا يتأملون؛ لغلبة الغفلة عليهم.

《٥٨》 ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ (لا): زائدةٌ، ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾: تتعظون، بتاءين: كوفيٌّ، وبياء وتاء: غيرُهم، و(قليلاً): صفةُ مصدر محذوف؛ أي: تذكراً قليلاً يتذكرون، و(ما): صلةٌ زائدةٌ.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ....

«٥٩» ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾: لا بدَّ من مجيئها، وليس بمُرتاب فيها؛ لأنه لا بدَّ من جزاءٍ لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصةً، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾: لا يُصدقون بها.

«٦٠» ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾: اعبدُوني، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: أُثبْكم، فالدعاءُ بمعنى العبادة كثيرٌ في القرآن، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ وقال عليه السلام: «الدعاء هو العبادة»، وقرأ الآية ﷺ[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وحِّدوني أغفرْ لكم، وهذا تفسيرٌ للدعاء بالعبادة، ثم للعبادة بالتوحيد، وقيل: سلُوني أُعطِكم، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ ﴿سَيُدْخَلُونَ﴾: مكيٌّ وأبو عمرو[2]، ﴿دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾: صاغرين.

«٦١» ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: هو من الإسناد المجازي؛ أي: مُبصَراً فيه؛ لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار، وقُرِنَ الليلُ بالمفعول له، والنهارُ بالحال، ولم يكونا حالين أو مفعولاً لهما؛ رعايةً لِحَقِّ المقابلة؛ لأنهما متقابلان معنىً؛ لأن كلَّ واحد منهما يُؤدّي مؤدَّى الآخر، ولأنه لو قيل: لِتُبْصِرُوا فيه.. فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً.. لم تتميز الحقيقةُ من المجاز؛ إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة؛ ألا ترى إلى قولهم: ليلٌ ساجٍ؛ أي: ساكن لا ريح فيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: لَمُفْضِلٌ، أو لَمُتَفَضِّلٌ؛ لأن المراد تكثيرُ الفضل، وأن يُجعل فضلاً لا يوازيه فضلٌ، وذلك إنما يكون بالإضافة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ ولم يقل: ولكن أكثرهم؛ حتى لا يتكررَ ذكرُ الناس؛ لأن في هذا التكرير تخصيصاً لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونَه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

«٦٢» ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق لكم الليلَ والنهار ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨١) وكذا القراءة الآتية.

كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿هُوَ﴾: أخبارٌ مترادفة؛ أي: هو الجامع لهذه الأوصاف؛ من الربوبية والإلهية وخلقِ كلِّ شيء والوحدانية، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾: فكيف ومِن أيِّ وجهٍ تُصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟

《٦٣》 ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: كلُّ مَن جحد بآيات الله ولم يتأملْها ولم يطلب الحقَّ.. أُفِكَ كما أُفِكوا.

《٦٤》 ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾: مُستقرّاً، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: سقفاً فوقَكم، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ قيل: لم يَخلُق حيواناً أحسنَ صورةً من الإنسان، وقيل: لم يخلقْهم منكوسين كالبهائم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾: اللذيذات، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

《٦٥》 ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ﴾: فاعبدُوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعةَ من الشرك والرياء قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مَن قال: لا إله إلا الله.. فليقلْ على أثرها: الحمد لله رب العالمين.

《٦٦》 ولما طلب الكفار منه عليه السلام عبادة الأوثان.. نزل: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى﴾ هي: القرآن، وقيل: العقل والوحيُ، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾: أستقيمَ وأنقادَ ﴿لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

《٦٧》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ أي: أصْلَكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾: اقتصر على الواحد؛ لأن المراد بيانُ الجنس، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾: متعلقٌ بمحذوف تقديرُه: ثم يُبقيكم لتبلغوا، وكذلك: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ وبكسر الشين: مكيٌّ وحمزةُ وعليٌّ وحمادٌ ويحيى والأعشى[1]، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بلوغ الأَشُدِّ، أو: من قبل

(١) كسر الشين: المكي وابن ذكوان وشعبة والأخوان.

هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِىٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ....

الشيخوخة، ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ معناه: ويفعلُ ذلك لتبلغوا أجلاً مسمّىً، وهو وقت الموت، أو يوم القيامة، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ما في ذلك من العِبرِ والحُجَجِ.

《٦٨》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ أي: فإنما يُكَوِّنُه سريعاً من غير كُلفة.

《٦٩》 ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ذُكِرَ الجدالُ في هذه السورة في ثلاثة مواضع، فجاز أن يكون في ثلاثة أقوام، أو ثلاثة أصناف، أو للتأكيد.

《٧٠》 ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾: بالقرآن، ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من الكتب ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

《٧١ - ٧٢》 ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِىٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ (إذ): ظرفُ زمانٍ ماضٍ؛ والمرادُ به هنا: الاستقبالُ، كقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، وهذا لأن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى مقطوعاً بها.. عُبِّرَ عنها بلفظِ ما كان ووجد؛ والمعنى على الاستقبال، ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾: عطفٌ على الأغلال، والخبرُ: (في أعناقهم) والمعنى: إذ الأغلالُ والسلاسلُ في أعناقهم، ﴿يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلۡحَمِيمِ﴾: يُجرُّون في الماء الحارِّ، ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾: مِن سَجَرَ التنورَ: إذا ملأه بالوَقود؛ ومعناه: أنهم في النار، فهي محيطة بهم، وهم مسجورون بالنار، مملوءةٌ بها أجوافُهم.

《٧٣ - ٧٤》 ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ﴾ أي: تقول لهم الخزنةُ: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنامَ التي تعبدونها، ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾: غابوا عن عيوننا، فلا نراهم ولا نتتفع بهم، ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـًٔا﴾ أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً، وما كنا نعبدُ بعبادتهم شيئاً، كما تقول: حَسِبتُ أن فلاناً شيءٌ، فإذا هو ليس بشيء، إذا خَبَرْتَه فلم تَرَ عنده خيراً، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾: مثلَ ضلالِ آلهتهم عنهم يُضلُّهم عن آلهتهم، حتى لو طلبوا الآلهة، أو طلبتهم الآلهة.. لم يتصادفُوا، أو كما أضل هؤلاء المجادلين يُضلُّ سائرَ الكافرين الذين علمَ منهم اختيارَ الضلالة على الدين.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

«٧٥» ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذابُ الذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾: بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحقِّ، وهو الشركُ وعبادةُ الأوثان، فيقال لهم:

«٧٦» ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ السبعةَ المقسومةَ لكم، قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: مقدِّرين الخلودَ، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ عن الحقِّ جهنمُ.

«٧٧» ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمدُ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بإهلاك الكفار ﴿حَقٌّ﴾: كائنٌ، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ اصلُه: فإنْ نُرِكَ، و(ما): مزيدةٌ لتوكيد معنى الشرط، ولذلك أُلحقت النون بالفعل؛ ألا تراك لا تقولُ: إن تكرِمَنِّي أُكرمْك، ولكن: إما تكرمَنِّي أكرمْك، ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ هذا الجزاءُ متعلقٌ بـ(نتوفينك)، وجزاءُ (نرينك) محذوفٌ، وتقديرُه: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب، وهو القتل يومَ بدر.. فذاك، أو نتوفينَّكَ قبل يوم بدر.. فإلينا يرجعون يوم القيامة، فننتقمُ منهم أشدَّ الانتقام.

«٧٨» ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أممهم، ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قيل: بَعَثَ الله ثمانيةَ آلافِ نبيٍّ، أربعةَ آلاف من بني إسرائيلَ، وأربعةَ آلاف من سائر الناس، وعن علي رضي الله عنه: إن الله تعالى بعث نبياً أسودَ، فهو ممن لم تذكر قصتُه في القرآن[1]، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: وهذا جوابُ اقتراحِهم الآياتِ عناداً؛ يعني: إنا قد أرسلنا كثيراً من الرسل، وما كان لواحد منهم أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فمن أين لي بأن آتي بآية مما تقترحونه؟ إلا أن يشاءَ الله ويأذنَ في الإتيان بها، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: القيامةُ، وهو وعيد وردَ عَقِيْبَ اقتراحِ الآياتِ ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾: المعاندون الذين اقترحوا الآياتِ.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٣١٩).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ....

«٧٩» ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾: خلق ﴿لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾: الإبل ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: لتركبوا بعضَها وتأكلوا بعضَها.

«٨٠» ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي: الألبانُ والأوبارُ، ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: لتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور، ﴿وَعَلَيْهَا﴾: وعلى الأنعام، ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: على الأنعام وحدَها لا تُحملون، ولكن عليها وعلى الفلك في البرِّ والبحرِ.

«٨١» ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ أنها ليست من عند الله، و(أيَّ): نصبٌ بـ(تنكرون)، وقد جاءت على اللغة المستفيضة، وقولُك: فأيةَ آياتِ الله.. قليلٌ؛ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غيرِ الصفاتِ نحوُ: حمارٍ وحمارةٍ غريبٌ، وهي في أيٍّ أغربُ؛ لإبهامِه.

«٨٢» ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً، ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾: بَدَناً، ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: قُصوراً ومصانعَ، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ (ما): نافيةٌ، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

«٨٣» ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ يريدُ: علمَهم بأمور الدنيا ومعرفتَهم بتدبيرها، كما قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] فلما جاءتهم الرسلُ بعلوم الديانات، وهي أبعد شيء من علمِهم؛ لِبعثها على رفضِ الدنيا، والظَّلْفِ عن الملاذِّ والشهوات[١].. لم يلتفتوا إليها، وصغَّروها، واستهزؤوا بها، واعتقدُوا أنه لا علم أنفعُ وأجلبُ للفوائد من علمهم، ففرحوا به، أو: علمَ الفلاسفةِ والدهريين؛ فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله.. دفعوه، وصغَّروا علم الأنبياء إلى علمهم، وعن سقراط أنه سمع بموسى عليه السلام وقيل له: لو هاجرتَ إليه، فقال: نحن قوم مهذَّبون؛ فلا حاجةَ بنا إلى من يهذبُنا،

---

(١) الظَّلْفُ: المنعُ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أو المرادُ: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرحَ ضحكٍ منه واستهزاءٍ به، كأنه قال: استهزَؤوا بالبينات وبما جاؤوا به من علم الوحي فرحين مَرِحين، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أو: الفرحُ للرسل؛ أي: الرسلُ لما رأوا جهلَهم واستهزاءَهم بالحقِّ وعلمُوا سوءَ عاقبتِهم وما يلحقُهم من العقوبة على جهلهم واستهزائِهم.. فرحُوا بما أوتُوا من العلم، وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاءُ جهلهم واستهزائِهم.

《٨٤》 ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾: شدةَ عذابِنا ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

《٨٥》 ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: فلم يصحَّ ولم يستقمْ أن ينفعهم إيمانُهم، ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾: بمنزلة: وَعْدَ اللهِ ونحوِه من المصادر المؤكدة، ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أن الإيمان عند نزول العذاب لا ينفعُ، وأن العذاب نازلٌ بمكذبِي الرسل، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (هنالك): مكانٌ مستعارٌ للزمان، والكافرون خاسرون في كلِّ أوانٍ، ولكن يتبين خُسرانُهم إذا عاينوا العذاب، وفائدةُ ترادفِ الفاءاتِ في هذه الآياتِ: أنَّ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ نتيجةُ قولِه: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ و﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ كالبيان والتفسير لقولِه: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، كقولِك: رُزِقَ زيدٌ المال، فمَنعَ المعروفَ، فلم يُحسن إلى الفقراء، و﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾: تابعٌ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُم﴾ كأنه قال: فكفروا، فلمّا رأوا بأسَنا.. آمنوا، وكذلك ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ تابعٌ لإيمانِهم لمارأَوا بأسَ الله.



﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ ....

سورة فصلت

ثلاثٌ وخمسون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٣》 ﴿حمٓ﴾: إن جعلتَه اسماً للسورة.. كان مبتدأ، ﴿تَنزِيلٌ﴾: خبرُه، وإن جعلتَه تعديداً للحروف.. كان (تنزيل) خبراً لمبتدأ محذوف، و(كتاب): بدلٌ من (تنزيل) أو: خبرٌ بعد خبر، أو: خبرُ مبتدأ محذوف، أو: (تنزيل): مبتدأٌ، ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾: صفتُه، ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبرُه، ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: مُيِّزَتْ وجُعلت تفاصيلَ في معانٍ مختلفةٍ؛ من أحكام وأمثالٍ ومواعظَ ووعدٍ ووعيدٍ، وغيرِ ذلك، ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾: نصبٌ على الاختصاص والمدح؛ أي: أريدُ بهذا الكتاب المفصلِ قرآناً من صفته كيتَ وكيتَ، أو: على الحال؛ أي: فُصلت آياتُه في حال كونه قرآناً عربياً، ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ أي: لقوم عربٍ يعلمون ما نُزِّلَ عليهم من الآيات المفصَّلَةِ المبيَّنَةِ بلسانهم العربيِّ، و(لقوم) يتعلق بـ(تنزيل)، أو بـ(فصلت) أي: تنزيلٌ من الله لأجلهم، أو فُصلت آياتُه لهم، والأظهرُ أن يكون صفةً مثلَ ما قبلَه وما بعدَه؛ أي: قرآناً عربيّاً كائناً لقوم عرب.

《٤》 ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: صفتان لـ(قرآناً)، ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾ أي: لا يقبلون؛ مِن قولِك: تشفعتُ إلى فلان فلم يسمعْ قولي، ولقد سمعَه ولكنه لما لم يقبلْه ولم يعمل بمقتضاه.. فكأنه لم يسمعْه.

《٥》 ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾: أغطيةٍ، جمعُ كِنانٍ، وهو: الغِطاءُ، ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ من التوحيد، ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ﴾: ثِقَلٌ يمنع من استماع قولِك، ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾: سَتْرٌ، وهذه تمثيلاتٌ لِنُبُوِّ قلوبِهم عن تَقَبُّلِ الحقِّ واعتقادِه، كأنها في غُلُفٍ وأغطيةٍ تمنع من نفوذه فيها، ومَجِّ أسماعِهم له كأن بها صَمماً عنه، ولِتباعدِ المذهبين والدِّينين كأن بينهم وما هم عليه وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجاباً ساتراً، وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوِه، فلا تلاقيَ ولا ترائيَ، ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ على دينك، ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ على ديننا، أو: فاعمل في إبطال أمرِنا، إننا عاملون

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾ . .

في إبطال أمرك، وفائدةُ زيادة (مِن): أن الحجابَ ابتدأ مِنّا وابتدأ منك، فالمسألة المتوسطةُ لجهتنا وجهتك مستوعَبةٌ بالحجاب، لا فراغَ فيها، ولو قيل: بيننا وبينك حجابٌ. . لكان المعنى أن حجاباً حاصلٌ وسط الجهتين.

《٦》 ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: هذا جوابٌ لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾، ووجهُه: أنه قال لهم: إني لست بملَكٍ، وإنما أنا بشر مثلُكم، وقد أوحي إليّ دونكم، فصحَّت نبوتي بالوحي إليَّ وأنا بشر، وإذا صحَّت نبوتي. . وجب عليكم اتباعي، وفيما يوحى إليَّ أن إلهكم إله واحدٌ، ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: فاستوُوا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غيرَ ذاهبين يميناً ولا شِمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يُسوِّلُ لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾.

《٧》 ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: لا يؤمنون بوجوب الزكاة ولا يعطونها، أو: لا يفعلون ما يكونون به أزكياءَ وهو الإيمانُ، ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: بالبعث والثواب والعقاب ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ وإنما جعلَ منعَ الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؛ لأن أحب شيء إلى الإنسان مالُه، وهو شقيقُ روحِه، فإذا بذلَه في سبيل الله. . فذلك أقوى دليل على استقامته وصدق نيتِه ونُصوع طَويَّتِه، وما خُدِعَ المؤلفةُ قلوبُهم إلا بلُمْظَةٍ من الدنيا[1]، فقرَّتْ عصبيتُهم، ولَانَتْ شكيمتُهم، وما ارتدَّتْ بنو حنيفة إلا بمنع الزكاة، وفيه بعثٌ للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويفٌ شديدٌ مِن منعها.

《٨》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾: مقطوعٍ، قيل: نزلت في المرضَى والزمنى والهرمَى، إذا عجزُوا عن الطاعة. . كُتِبَ لهم الأجرُ كأصحِّ ما كانوا يعملون.

《٩》 ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾: الأحدِ والاثنينِ؛ تعليماً للأناة، ولو أراد أن يخلقَها في لحظة. . لفعل، ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾: شركاءَ وأشباهاً، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق ما سبقَ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾: خالقُ جميع الموجودات، وسيدُها ومُربِّيها.

---

(١) استعمالُه لفظ الخداع تبع فيه الزمخشري، وهو غيرُ لائق؛ لأنه عليه الصلاة والسلام تألَّفَهم على الإيمان من قبيل الملاطفة، ودفع السيئة بالحسنة. انظر «الانتصاف من الكشاف» (٥/ ٣٦٩)، واللُّمظة: الشيء القليل.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ ....

《١٠》 ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾: في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾: جبالاً ثوابتَ، ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ إنما اختار إرساءَها فوقَ الأرض؛ لتكون منافعُ الجبال ظاهرةً لِطالبيها؛ ولِيُبْصَرَ أن الأرض والجبال أثقالٌ على أثقالٍ، كلُّها مفتقرة الى ممسك وهو الله عزَّ وجلَّ، ﴿وَبَٰرَكَ﴾ بالماء والزرع والشجر والثمر، ﴿فِيهَا﴾: في الأرض، وقيل: بارك فيها: وأكثرَ خيرَها، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾: أرزاقَ أهلِها ومَعايِشَهم وما يُصلحهم، وقرأ ابنُ مسعود رضي الله عنه: ﴿وقسم فيها أقواتَها﴾[1]، ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾: في تتمة أربعة أيام؛ يريدُ بالتتمة: اليومين، تقول: سِرْتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة، وإلى الكوفة في خمسةَ عشرَ؛ أي: تتمة خمسةَ عشرَ، ولا بدَّ من هذا التقدير؛ لأنه لو أُجريَ على الظاهر.. لكانت ثمانيةَ أيامٍ؛ لأنه قال: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، ثم قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فيكون خلافَ قولِه: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨] في موضع آخرَ، وفي الحديث: «إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق يومَ الأربعاء الشجرَ والماءَ والعُمران والخراب، فتلك أربعةُ أيام، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكةَ، وخلق آدمَ عليه السلام في آخرِ ساعةٍ من يوم الجمعة»[2]، قيل: هي الساعة التي تقوم فيها القيامة، ﴿سَواءٍ﴾: يعقوبُ صفةٌ للأيام؛ أي: في أربعة أيام مستوياتٍ تامّاتٍ، ﴿سواءٌ﴾: بالرفع: يزيدُ؛ أي: هي سواءٌ، غيرُهما: ﴿سَوَآءً﴾؛ على المصدر؛ أي: استوت سواءً؛ أي: استواءً، أو: على الحال، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾: متعلقٌ بـ(قدَّر) أي: قدَّر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها والمحتاجين إليها؛ لأن كلاً يطلبُ القوت ويسألُه، أو: بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصرُ لأجل من سأل في كم خُلقت الأرضُ وما فيها؟

《١١》 ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾: هو مجازٌ عن إيجاد الله تعالى السماء على ما أراد؛ تقول العرب: فعل فلان كذا، ثم استوى إلى عمل كذا؛ يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثاني، ويُفْهَمُ منه أن خلق السماء بعد خلق

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/٦).

(٢) رواه بنحوه الحاكم في «المستدرك» (٢/٥٤٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ ....

الأرض، وبه قال ابنُ عباس رضي الله عنهما، وعنه أنه قال: أولُ ما خلق الله تعالى جوهرةٌ طولُها وعرضُها مسيرةُ ألفِ سنةٍ في مسيرة عشرة آلاف سنة، فنظر إليها بالهَيبة فذابت واضطربت، ثم ثار منها دخان بتسليط النار عليها، فارتفع واجتمع زَبَدٌ، فقام فوق الماء، فجُعلَ الزبدُ أرضاً، والدخانُ سماءً.

ومعنى أَمْرِ السماء والأرض بالإتيان وامتثالِهما: أنه أراد أن يُكَوِّنَهما فلم يمتنعا عليه، وَوُجِدَتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعلُ الآمر المطاع، وإنما ذكر الأرض مع السماء في الأمر بالإتيانِ والأرضُ مخلوقةٌ قبل السماء بيومين؛ لأنه قد خلق جِرْمَ الأرض أَوّلاً غيرَ مَدحوَّةٍ، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٣٠]، فالمعنى: اِئْتِيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، اِئْتي يا أرضُ مدحوةً قراراً ومِهاداً لأهلك، وائتي يا سماءُ مُقبيةً سقفاً لهم، ومعنى الإتيان: الحصولُ والوقوعُ، كما تقول: أتى عملُه مَرضيّاً، وقولُه: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ لبيان تأثير قدرته فيهما، وأن امتناعَهما من تأثير قدرتِه محالٌ، كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلن هذا شئتَ أو أَبَيْتَ، ولتفعلنَّه طوعاً أو كرهاً، وانتصابُهما على الحال؛ بمعنى: طائعتين أو مكرَهتين، وإنما لم يقل: طائعتين على اللفظ، أو طائعات على المعنى؛ لأنهما سمواتٌ وأرضون؛ لأنهن لما جُعلن مخاطباتٍ ومجيباتٍ، وَوُصِفْنَ بالطَّوع والكَره.. قيل: (طائعين) في موضع: طائعات، كقوله: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

《١٢》 ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾: فأحكمَ خلقَهن، قال[1]: [من: الكامل]

وعليهما مَسرودَتان قضاهما ....

والضميرُ يرجع إلى السماء؛ لأن السماء للجنس، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسّراً

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وتتمته:

داودُ أو صَنَعُ السوابِغِ تُبَّعُ

انظر «سر صناعة الإعراب» (٢/ ٣٨٥)، و«شرح المفصل» لابن يعيش (٢/ ٢٥٠)، المسرودة: الدرعُ المنسوجةُ، داود هو: النبي عليه الصلاة والسلام، عرف عنه إحكامه نسجَ الدروع، الصَّنَع: الذي يحسن الصنع بيديه، السوابغ: الواسعةُ، تُبَّعٌ: لقبُ ملكِ اليمنِ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ . . . .

بقوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ والفرقُ بين النَّصبين في (سبع سموات): أن الأول على الحال، والثاني على التمييز، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾: في الخميس والجمعة، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾: ما أَمَرَ به فيها ودَبَّره من خلق الملائكة والنيران وغيرِ ذلك، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾: من الأرض ﴿بِمَصَابِيحَ﴾: بكواكبَ، ﴿وَحِفْظًا﴾: وحفظناها من المسترقةِ بالكواكب حفظاً، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾: الغالبِ غيرِ المغلوب، ﴿الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ بمواقعِ الأمور.

《١٣》 ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعدَ هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾: خوَّفْتُكم ﴿صَاعِقَةً﴾: عذاباً شديدَ الوَقْعِ كأنه صاعقةٌ، وأصلُها: رعدٌ معه نارٌ، ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.

《١٤》 ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: أتَوْهم من كل جانب، وأعملوا فيهم كلَّ حيلة، فلم يَرَوا منهم إلا الإعراض، وعن الحسن: أنذَروهم من وقائعِ الله فيمن قبلهم من الأمم، وعذابِ الآخرة، (أن) بمعنى: أيْ، أو: مخففةٌ من الثقيلة، أصلُه: بأنه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا﴾ أي: القومُ: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسالَ الرسلِ، فمفعولُ (شاء) محذوفٌ[1]، ﴿لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ معناه: فإذاً أنتم بشرٌ ولستم بملائكة، فإنا لا نؤمنُ بكم وبما جئتم به، وقولُه: (أرسلتم به) ليس بإقرارٍ بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه تهكُّمٌ كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وقولُهم: ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾: خطابٌ منهم لهودٍ وصالحٍ ولسائر الأنبياء الذين دُعُوا إلى الإيمان بهم.

روي: أن قريشاً بعثُوا عتبةَ بنَ ربيعةَ وكان أحسنَهم حديثاً؛ ليكلم رسول الله ﷺ وينظرَ ما يردُّ، فأتاه وهو في الحطيمِ فلم يَسألْ شيئاً إلا أجابه، ثم قرأ عليه السلام السورةَ إلى قوله: ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فناشده بالرحم، وأمسك على فيه، ووثبَ مخافةَ أن يُصبَّ عليهم العذاب، فأخبرهم به وقال: لقد عرفت السحرَ والشعرَ، فو الله ما هو بساحر ولا شاعر، فقالوا: لقد

---

(١) الشائعُ تقديرُ مفعول المشيئة بعد لو الشرطية من مضمون جواب الشرط؛ فيكون التقدير: ولو شاء ربنا إنزالَ ملائكة. . لأنزل ملائكة، ولكنه قدرَ (إرسالَ الرسلِ)؛ لأن الكفار أرادوا نفيَ إرسال اللهِ الرسلَ عامّةً، لا نفيَ إنزال الملائكة فقط. انظر «تفسير الآلوسي» (١٢/ ٣٦٢).

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ ....

صبأت، أما فهمتَ منه كلمة؟ فقال: لا، ولم أهتدِ إلى جوابِه، فقال عثمانُ بنُ مظعون: ذلك والله لِتعلموا أنه من رب العالمين[١]، ثم بَيَّنَ ما ذكر من صاعقة عاد وثمود فقال:

《١٥》 ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تعظَّموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظيم، وهو القوةُ وعِظَمُ الأجرام، أو استولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾: كانوا ذوي أجسام طِوالٍ، وخَلْقٍ عظيم، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾: أو لم يعلموا علماً يقوم مَقامَ العِيانِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: أوسعُ منهم قدرةً؛ لأنه قادر على كل شيء، وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره، ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾: معطوفٌ على (فاستكبروا) أي: كانوا يعرفون أنها حقٌّ ولكنهم جحدُوها كما يجحدُ المودَعُ الوديعةَ.

《١٦》 ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾: عاصفةً تُصرصِرُ؛ أي: تُصوِّتُ في هبوبها؛ من الصرير، أو: باردةً تُحرق بشدة بردها، تكريرٌ لبناءِ الصرِّ، وهو البردُ، قيل: إنها الدَّبور، ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾: مشؤوماتٍ عليهم، ﴿نَحْساتٍ﴾: مكيٌّ وبصريٌّ ونافعٌ[٢]، ونَحِسَ نَحْساً: نقيضُ سَعِدَ سعداً، وهو نَحِسٌ، وأما نَحْسٌ.. فإما مخففُ نَحِسٍ، أو صفةٌ على (فَعْلٍ)، أو وصفٌ بمصدر، وكانت من الأربعاء في آخر شوالٍ إلى الأربعاء، وما عُذِّبَ قومٌ إلا في الأربعاء[٣]، ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أضاف العذابَ إلى الخزي، وهو الذلُّ؛ على أنه وصفٌ للعذاب، كأنه قال: عذابٌ خزٍ[٤]، كما تقول: فعلُ السوء؛ تريد: الفعلَ السيِّئَ، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، وهو من الإسناد المجازي، ووصفُ العذاب بالخزي أبلغُ من

---

(١) رواه بنحوه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٥٤) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٣).

(٣) في «التفسير الوسيط» لسيد طنطاوي (١٢/ ٣٤٠): الحقُّ أن ما ذكروه في هذا الشأن لا دليل عليه، ولا يلتفت إليه، وأن ما أصاب هؤلاء إنما كان بشؤم كفرهم ومعاصيهم. وهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه، لأن أغلبها ضعيف، وما صح منها.. فالمراد بنحسه شؤمُه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم.

(٤) أي: عذابٌ ذليلٌ.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ....

وصفهم به؛ فشتان ما بين قوليك: هو شاعرٌ، وله شعرٌ شاعرٌ، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ من الأصنام التي عبدُوها، على رجاء النصرِ لهم.

《١٧》 ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾: بالرفع على الابتداء، وهو الفصيح؛ لوقوعه بعد حرف الابتداء، والخبرُ: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، وبالنصب: المفضَّلُ[1]؛ بإضمار فعل يفسرُه: (فهديناهم) أي: بينّا لهم الرشدَ، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: فاختاروا الكفر على الإيمان، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾: داهيةُ العذاب ﴿ٱلْهُونِ﴾: الهوان، وَصَفَ به العذابَ مبالغةً، أو أبدلَه منه، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾: بكسبِهم، وهو شركُهم ومعاصيهم، وقال الشيخ أبو منصور: يحتمل ما ذكر من الهدايةِ التبيينَ كما بيّنا، ويحتملُ خلق الاهتداء فيهم، فصاروا مهتدين، ثم كفروا بعد ذلك وعقروا الناقة[2]؛ لأن الهدى المضاف إلى الخالق يكون بمعنى البيانِ والتوفيقِ وخلقِ فعلِ الاهتداء، وأما الهُدى المضافُ إلى الخلق يكون بمعنى البيان لا غيرُ، وقال صاحب «الكشاف» فيه: **فإن قلت**: أليس معنى قولك: هديتُه: حَصّلتُ فيه الهدى؟ والدليلُ عليه قولُك: هديتُه فاهتدى؛ بمعنى تحصيلِ البُغيةِ وحصولِها، كما تقول: ردعتُه فارتدع، فكيف ساغ استعمالُه في الدلالة المجردة؟ قلتُ: الدلالةُ على أنه مكنَّهم فأزاح عِلَلَهم، ولم يَبق لهم عذرٌ، فكأنَّه حَصَّلَ البُغيةَ فيهم بتحصيلِ ما يوجبُها ويقتضيها[3]. وإنما تَمَحَّلَ بهذا؛ لأنه لا يتمكن من أن يفسره بخلقِ الاهتداء؛ لأنه يخالف مذهبه الفاسد.

《١٨》 ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: اختاروا الهدى على العمَى من تلك الصاعقة، ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ اختيار العمَى على الهدى.

《١٩》 ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: الكفارُ من الأولين والآخرين، ﴿نَحشُرُ أعداءَ﴾: نافعٌ ويعقوبُ[4]، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ بحبسِ أولِهم على آخرهم؛ أي: يُستوقفُ سوابقُهم حتى يلحقَ بهم تواليْهم، وهي عبارة عن كثرةِ أهلِ النارِ، وأصلُه مِن: وَزَعْتُه؛ أي: كففتُه.

---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٣٢).

(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٣٧٢).

(٣) «الكشاف» (٤/ ١٩٩).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٣) وكذا القراءة الآتية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ ....

《٢٠》 ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾: صاروا بحضرتِها، و(ما) مزيدة للتأكيد؛ ومعنى التأكيد: أن وقتَ مجيئِهم النارَ لا محالةَ أن يكون وقتَ الشهادة عليهم، ولا وجهَ لِأن يخلوَ منها، ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾ شهادةُ الجلود بملامسةِ الحرامِ، وقيل: هي كناية عن الفروج.

《٢١》 ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ لِما تعاظمَهم من شهادتِها عليهم، ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ من الحيوان؛ والمعنى: أن نطقَنا ليس بعجبٍ من قدرة الله الذي قَدَر على إنطاق كلِّ حيوان، ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾: وهو قادر على إنشائكم أول مرة، وعلى إعادتكم ورجعِكم إلى جزائِه.

《٢٢》 ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ أي: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحُجُبِ عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفةَ أن يشهدَ عليكم جوارحُكم؛ لأنكم كنتم غيرَ عالمين بشهادتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً، ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢﴾: ولكنكم إنما استترتُم لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما كنتم تعملون، وهو الخفياتُ من أعمالِكم.

《٢٣》 ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ وذلك الظنُّ هو الذي أهلكَكم، و(ذلكم): مبتدأ، و﴿ظَنُّكُمُ﴾: خبر، و﴿ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾: صفتُه، و(أرداكم): خبرٌ ثانٍ، أو: (ظنُّكم): بدلٌ من (ذلكم)، و(أرداكم): الخبرُ، ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾.

《٢٤》 ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ أي: فإن يصبروا.. لم ينفعْهم الصبرُ ولم ينفكُّوا به من الثَّواء في النار، ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾: وإن يطلُبوا الرضا.. فما هم من المرضيين، أو: إن يسألوا العُتبَى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه.. لم يُعتَبوا: لم يُعطَوُا العتبى، ولم يُجابُوا إليها.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ....﴾

《٢٥》 ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدَّرْنا لمشركي مكةَ، يقال: هذان ثوبان قَيْضانِ؛ أي: مِثلانِ، والمقايَضةُ: المعاوضةُ، وقيل: سلَّطْنا عليهم ﴿قُرَنَاءَ﴾: أخداناً من الشياطين، جمعُ قرين، كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمُون عليها، أو: ما بين أيديهم من أمر الدنيا واتباعِ الشهواتِ، وما خلفهم من أمر العاقبة، وأنْ لا بعثَ ولا حسابَ، ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: كلمةُ العذاب ﴿فِي أُمَمٍ﴾: في جملةِ أمم، ومحلُّه النصبُ على الحال من الضمير في (عليهم) أي: حقَّ عليهم القولُ كائنين في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾: قبلِ أهلِ مكةَ، ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾: هو تعليل لاستحقاقهم العذابَ، والضميرُ لهم وللأمم.

《٢٦》 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ إذا قُـــرِئَ، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾: وعارِضُوه بكلام غير مفهوم حتى تُشوِّشُوا عليه وتغلبوا على قراءته، واللغْوُ: الساقط من الكلام الذي لا طائلَ تحتَه.

《٢٧》 ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا: هؤلاءِ اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصةً، ولكن ذكرَ الذين كفروا عامةً لينطووا تحت ذكرهم، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: أعظمَ عقوبةٍ على أسوأِ أعمالِهم، وهو الكفر.

《٢٨》 ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ (ذلك): إشارةٌ إلى الأسوأ، ويجب أن يكون التقدير: أسوأَ جزاءِ الذي كانوا يعملون؛ حتى تستقيم هذه الإشارة، ﴿النَّارُ﴾: عطفُ بيان للجزاء، أو: خبرُ مبتدأٍ محذوف، ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: النار في نفسها دارُ الخلد، كما تقول: لك في هذه الدار دارُ السرور، وأنت تعني الدارَ بعينِها، ﴿جَزَاءً﴾ أي: جُوزوا بذلك جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

《٢٩》 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا﴾ وبسكون الراء؛ لثقل الكسرة، كما قالوا في فَخِذٍ: فَخْذٌ: مكيٌّ وشاميٌّ وأبو بكر، وبالاختلاس: أبو عمرٍو، ﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ أي: الشيطانين اللذين

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ....

أضلانا ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ لأن الشيطان على ضربين: جنيٌّ وإنسيٌّ، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ في النار جزاءَ إضلالِهم إيانا.

«٣٠» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: نطقُوا بالتوحيد، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾: ثم ثَبَتُوا على الإقرار ومقتضياتِه، وعن الصديق رضي الله عنه: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً، وعنه أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا، قال: حَمَلْتُمُ الأمرَ على أَشَدِّهِ، قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان، وعن عمرَ رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة ولم يَرُوغُوا رَوَغانَ الثعالب[١]؛ أي: لم يُنافقوا، وعن عثمان رضي الله عنه: أخلصُوا العمل، وعن علي رضي الله عنه: أَدُّوا الفرائض، وعن الفضيل: زَهِدُوا في الفانية، ورغبُوا في الباقية، وقيل: حقيقةُ الاستقامة: القَرارُ بعد الإقرار، لا الفِرارُ بعد الإقرار[٢]، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت، ﴿أَنْ﴾ بمعنى: أيْ، أو: مخففةٌ من الثقيلة، وأصلُه: بأنه ﴿لَا تَخَافُوا۟﴾، والهاءُ ضميرُ الشأن؛ أي: لا تخافوا ما تَقْدُمون عليه، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خَلَّفْتُم، فالخوفُ: غَمٌّ يلحق الإنسانَ لِتَوَقُّعِ المكروه، والحزنُ: غَمٌّ يلحق لوقوعِه من فواتِ نافعٍ، أو حصولِ ضارٍّ؛ والمعنى: أن الله كتب لكم الأمن من كل غَمٍّ، فلن تذوقوه، ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ في الدنيا، وقال محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ: تتنزل عليهم ملائكةُ الرحمن، عند مفارقة الأرواح الأبدانَ، أن لا تخافوا سلبَ الإيمان، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي كنتم توعدون في سالف الزمان.

«٣١» ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما أن الشياطين قُرناءُ العصاةِ وإخوانُهم، فكذلك الملائكةُ أولياء المتقين وأحباؤُهم في الدارين، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من النعيم، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾: تتمنون.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٦٥).

(٢) أي: أن الاستقامة هي: الثبات على الطاعة بعد الإقرار والاعتراف بربوبية الله، وليست هي الفرار من الطاعات.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ....﴾

《٣٢》 ﴿نُزُلًا﴾: هو رِزْقُ النَّزيلِ وهو: الضيفُ، وانتصابُه على الحال من الهاء المحذوفة، أو مِن (ما)، ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾: نعتٌ له.

《٣٣》 ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: هو رسول الله، دعا إلى التوحيد، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: خالصاً، ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ تفاخراً بالإسلام، ومعتقداً له، أو: أصحابُه عليه السلام، أو: المؤذنون، أو: جميعُ الهداة والدعاة إلى الله.

《٣٤》 ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني: أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسِهما، فخُذْ بالحسنة التي هي أحسنُ من أختها إذا اعترضتْك حسنتان، فادفع بها السيئةَ التي تردُ عليك من بعض أعدائِك، كما لو أساء إليك رجلٌ إساءةً.. فالحسنةُ أن تعفوَ عنه، والتي هي أحسنُ أن تحسنَ إليه مكان إساءتِه إليك، مثلُ أن يذمَّكَ فتمدحُه، أو يقتلَ ولدَك فتفتدي ولده من يد عدوِّه، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ فإنك إذا فعلت ذلك.. انقلب عدوُّك المشاقُّ مثلَ الولي الحميم مُصافاةً لك، ثم قال:

《٣٥》 ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: وما يُلقَّى هذه الخصلةَ التي هي مقابَلَةُ الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾: إلا أهلُ الصبر، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾: إلا رجلٌ خَيِّرٌ وُفِّقَ لِحَظٍّ عظيمٍ من الخير، وإنما لم يقل: فادفع بالتي هي أحسن؛ لأنه تقديرُ قائلٍ قال: فكيف أصنع؟ فقيل: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقيل: (لا): مزيدةٌ للتأكيد؛ والمعنى: لا تستوي الحسنة والسيئةُ، وكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنةٌ، ولكن وُضِعَ ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ موضعَ الحسنة؛ ليكون أبلغَ في الدفع بالحسنة؛ لأن مَن دفع بالحُسنى.. هان عليه الدفعُ بما دونها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: الصبرُ عند الغضب، والحلمُ عند الجهل، والعفوُ عند الإساءة، وفُسِّرَ الحظُّ بالثواب، وعن الحسن: والله ما عَظُمَ حظٌّ دون الجنة، وقيل: نزلت في أبي سفيانَ بنِ حربٍ وكان عدوّاً مؤذياً للنبي ﷺ، فصار وليّاً مُصافياً.

《٣٦》 ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النزغُ: شِبهُ النخس، والشيطانُ يَنْزَغُ الإنسانَ كأنه ينخَسه، يبعثُه على ما لا ينبغي، وجُعل النزغُ نازغاً كما قيل: جَدَّ جِدُّه، أو أريد: وإما ينزغنك

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ ....

نازغٌ وصفاً للشيطان بالمصدر، أو لتسويلِه؛ والمعنى: وإن صرفكَ الشيطانُ عمّا وُصيتَ به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرِّهِ، وامضِ على حلمِك، ولا تُطعْه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ بنزغ الشيطان.

《٣٧》 ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالةِ على وَحدانيته: ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ في تعاقبِهما على حدٍّ معلوم، وتناوبِهما على قدر مقسوم، ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في اختصاصهما بسيرٍ مقدَّرٍ، ونورٍ مقرَّرٍ، ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مخلوقان وإن كثرت منافعُهما، ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الضميرُ في (خلقهن) للآيات، أو الليل والنهار، والشمسِ والقمرِ؛ لأن حكم جماعة ما لا يعقلُ حكمُ الأنثى أو الإناث، تقول: الأقلامُ بريتُها وبريتُهن، ولعلَّ ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعُمون أنهم يقصِدون بالسجود لهما السجودَ لله تعالى، فنُهُوا عن هذه الواسطة، وأُمِروا أن يَقصِدوا بسجودهم وجهَ الله خالصاً إن كانوا إياه يعبدون، وكانوا موحدين غيرَ مشركين، فإنَّ مَن عبدَ مع الله غيرَه لا يكون عابداً لله.

《٣٨》 ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: الملائكةُ، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾: لا يَمَلُّون؛ والمعنى: فإن استكبروا ولم يمتثلوا ما أُمِروا به وأَبَوا إلا الواسطةَ.. فدعْهم وشأنَهم؛ فإن الله تعالى لا يَعْدِمُ عابداً وساجداً بالإخلاص، وله العبادُ المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد، و(عند ربك): عبارةٌ عن الزُّلفى والمكانة والكرامة، وموضعُ السجدة عندنا: (لا يسئمون)[١]، وعند الشافعي رحمه الله: عند ﴿تَعْبُدُونَ﴾[٢]، والأولُ أحوط[٣].

《٣٩》 ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾: يابسةً مُغْبَرَّةً، والخشوعُ: التذللُ، فاستعير

---

(١) انظر «حاشية ابن عابدين» (٢/ ١٠٤).

(٢) المعتمد عند الشافعية أن السجدة عند (لا يسئمون). انظر «نهاية المحتاج» (٢/ ٩٢).

(٣) لأن تأخير السجود عن موضعه لا يضرُّ، أما إن قدم.. فلا يُعتدُّ به. انظر «الإكليل» (٦/ ٤٢١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ ....

لحال الأرض إذا كانت قَحِطةً لا نباتَ فيها، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾: المطرَ ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: تحركت بالنبات، ﴿وَرَبَتْ﴾: انتفختْ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فيكونُ قادراً على البعث ضرورةً.

«٤٠» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: يميلون عن الحقِّ في أدلتنا بالطعن، يقال: أَلْحَدَ الحافرُ ولَحَدَ: إذا مال عن الاستقامة فحفرَ في شِقٍّ، فاستعير لانحرافٍ في تأويل آياتِ القرآنِ عن جهة الصحة والاستقامة، ﴿يَلْحَدُون﴾: حمزةُ[1]، ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾: وعيدٌ لهم على التحريف، ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: هذا تمثيلٌ للكافر والمؤمن، ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾: هذا نهايةٌ في التهديد، ومبالغةٌ في الوعيد، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ فيجازيكم عليه.

«٤١» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾: بالقرآن؛ لأنهم لِكفرهم به طعنُوا فيه وحرَّفُوا تأويلَه، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾: حين جاءهم، وخبرُ (إنَّ) محذوفٌ؛ أي: يُعذَّبون، أو: هالكون، أو: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وما بينها اعتراضٌ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: منيعٌ محميٌّ بحماية الله.

«٤٢» ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾: التبديلُ أو التناقضُ ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: بوجهٍ من الوجوه، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾: مستحقٍّ للحمد.

«٤٣» ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾: ما يقول لك كفارُ قومِك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾: إلا مثلَ ما قال للرسلِ كفارُ قومِهم من الكلمات المؤذيةِ، والمطاعنِ في الكتب المنزلة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمةٍ لأنبيائه، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ لأعدائهم، ويجوز أن يكون: ما يقولُ لك اللهُ إلا مثلَ ما قال للرسل من قبلك، والمقولُ هو قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

«٤٤» ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الذكرَ ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة العجم، كانوا لتعنتهم يقولون:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٤).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ ....

هلّا نزل القرآن بلغة العجم، فقيل: لو كان كما يقترحون ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيِّنَتْ بلسان العرب حتى نفهمَها تعنتاً، ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾: بهمزتين: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ، والهمزةُ للإنكار؛ يعني: لأنكرُوا وقالوا: أَقُرآنٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ؟ أو: مرسلٌ إليه عربيٌّ؟ الباقون: بهمزةٍ واحدةٍ ممدودة مُستفهَمَةٍ، والأعجميُّ: الذي يُفصحُ ولا يُفهمُ كلامُه، سواءٌ كان من العجم أو العرب، والعجميُّ منسوبٌ إلى أمة العجم، فصيحاً كان أو غيرَ فصيح؛ والمعنى: أن آيات الله على أيِّ طريقةٍ جاءتهم وجدُوا فيها مُتعنَّتاً؛ لأنهم غيرُ طالبين للحقِّ، وإنما يتبعون أهواءَهم، وفيه إشارةٌ إلى أنه لو أنزله بلسان العجم.. لكان قرآناً، فيكون دليلاً لأبي حنيفة رضي الله عنه في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسية(١)، ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: القرآنُ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾: إرشادٌ إلى الحقِّ، ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في الصدور من الشك؛ إذ الشكُّ مرضٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾: في موضع الجرِّ لكونه معطوفاً على (الذين آمنوا) أي: هو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ، وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ؛ أي: صَمَمٌ، إلا أن فيه عطفاً على عاملين(٢)، وهو جائزٌ عند الأخفش، أو: الرفعُ، وتقديرُه: والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقرٌ؛ على حذف المبتدأ، أو: في آذانهم منه وقرٌ، ﴿وَهُوَ﴾ أي: القرآنُ ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى﴾: ظُلْمةٌ وشُبهةٌ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ يعني: أنهم لعدم قبولهم وانتفاعِهم كأنهم ينادَون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون؛ لبعد المسافة، وقيل: يُنادَون في القيامة من مكان بعيد بأقبحِ الأسماء.

《٤٥》 ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فقال بعضُهم: هو حقٌّ، وقال بعضُهم: هو باطلٌ، كما اختلف قومُك في كتابك، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: لأهلكهم إهلاكَ استئصالٍ، وقيل: الكلمةُ السابقةُ هي العِدَةُ بالقيامة، وأن الخصومات تُفْصَلُ في ذلك اليوم، ولولا ذلك.. لقضي بينهم في الدنيا، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: وإن الكفار ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾: مُوقِعٍ في للريبة.

---

(١) هذا إن كان عاجزاً عن العربية. انظر «حاشية ابن عابدين» (١/ ٤٨٥).

(٢) أي: على معمولي عاملين، والعاملان هما لام الجر في (للذين)، والمبتدأ (هو) على القول بأن المبتدأ هو رافع الخبر، وقد عطفت الواو (الذين) الثانية على الأولى، و(وقر) على (هدىً).

مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ ....

《٤٦》 ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾: فنفسَه نفعَ، ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾: فنفسَه ضَرَّ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ فيعذبَ غيرَ المسيءِ.

《٤٧》 ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي: علمُ قيامِها يردُّ إليه؛ أي: يجب على المسؤول أن يقول: الله يعلم ذلك، ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وحفصٌ، وغيرُهم: بغير ألف[1]، ﴿مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾: أوعيتِها قبلَ أن تنشقَّ، جمعُ كِمٍّ، ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ حملَها، ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ أي: ما يحدثُ شيءٌ من خروجِ ثمرة، ولا حملِ حامل، ولا وضعِ واضع إلا وهو عالمٌ به، يعلم عدد أيام الحمل وساعاتِه وأحوالَه؛ من الخِداج والتمام، والذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، وغيرِ ذلك، ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ أضافهم إلى نفسه على زعمِهم، وبيانُه في قوله: أين شركائي الذين زعمتم[2]، وفيه تهكُّمٌ وتقريعٌ، ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾: أعلمناك، وقيل: أخبرناك، وهو الأظهر؛ إذ الله تعالى كان عالماً بذلك، وإعلامُ العالمِ محالٌ، أما الإخبارُ للعالم بالشيء.. يتحققُ بما عَلِمَ به[3]، إلا أن يكون المعنى: إنك علمتَ من قلوبنا الآنَ أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلةَ؛ لأنه إذا علمَه من نفوسهم.. فكأنهم أعلموه، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ما منّا أحدٌ اليوم يشهدُ بأن لك شريكاً، وما منا إلا من هو موحِّدٌ لك، أو: ما منّا مِن أحدٍ يشاهدُهم؛ لأنهم ضلُّوا عنهم، وضلَّت عنهم آلهتُهم، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ، وقيل: هو كلام الشركاء؛ أي: ما منّا من شهيد يشهدُ بما أضافوا إلينا من الشركة.

《٤٨》 ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ﴾: يعبُدون ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ في الدنيا، ﴿وَظَنُّواْ﴾: وأيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾﴾: مَهْرَب.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٤).

(٢) ليس في القرآن آيةٌ بهذا اللفظ، فلعل المراد: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، أو: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ [الكهف: ٥٢].

(٣) الأولى: (فيتحقق) إذْ يقلُّ حذف الفاء في جواب أمّا في مثل هذا التركيب. انظر «توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك» (٣/ ١٣٠٦).

لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ....

«٤٩» ﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾: لا يَمَلُّ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: الكافر؛ بدليل قولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾: من طلب السعة في المال والنعمة، والتقديرُ: من دعائه الخيرَ، فحذف الفاعلُ، وأضيف إلى المفعول، ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: الفقرُ ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من الخير، ﴿قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ من الرحمة، بُولغ فيه من طريقين: من طريق بناءِ (فعول)، ومن طريق التكرير، والقُنوطُ: أن يظهر عليه أثرُ اليأس فيتضاءلَ وينكسرَ؛ أي: يقطعَ الرجاءَ من فضل الله ورَوْحِه، وهذا صفة الكافر؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

«٥٠» ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾: وإذا فَرَّجْنا عنه بصحة بعد مرض، أو سَعَةٍ بعد ضيق.. قال: هذا لي؛ أي: هذا حقِّي وَصَلَ إليَّ؛ لأني استوجبتُه بما عندي من خير وفضل وأعمالِ برٍّ، أو: هذا لي لا يزولُ عني، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: ما أظنُّها تكون قائمةً، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ كما يقول المسلمون ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ﴾: عند الله ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنةَ أو: الحالةَ الحُسنى من الكرامة والنعمة؛ قائساً أمرَ الآخرة على أمر الدنيا، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾: فلنخبرنَّهم بحقيقةِ ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾: شديدٍ لا يفترُ عنهم.

«٥١» ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ﴾: هذا ضربٌ آخرُ من طغيان الإنسان، إذا أصابه الله بنعمة.. أَبْطَرَتْهُ النعمة فنسيَ المنعمَ وأعرضَ عن شكره، ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: وتباعد عن ذِكْرِ اللهِ ودعائِه، أو: ذهب بنفسه وتكبر وتعظم، وتحقيقُه أن يُوْضَعَ: جانبه موضعَ: نفسِه؛ لأن مكان الشيء وجهتَه ينزلُ منزلة نفسه، ومنه قول الكُتّاب: كتبتُ إلى جهته وإلى جانبه العزيز؛ يريدون نفسَه وذاتَه، فكأنه قال: ونأى بنفسه، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: الضُّرُّ والفقرُ ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾: كثيرٍ؛ أي: أقبل على دوام الدعاء، وأخذ في الابتهال والتضرع، وقد استعير العَرْضُ لكثرة الدعاء ودوامِه، وهو من صفة الأجرام، كما استعير الغِلَظُ لشدة العذاب، ولا منافاة بين قوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ وبين قوله: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾؛ لأن الأول في قوم، والثاني في قوم، أو: قَنُوْطٌ في البَرِّ، ذو دعاء عريض في البحر، أو: قنوطٌ بالقلب، ذو دعاء عريض باللسان، أو: قنوطٌ من الصنم، ذو دعاء لله تعالى.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

《٥٢》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾: أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾: ثم جحدتم أنه من عند الله ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ منكم، إلا أنه وُضِعَ قولُه: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ موضعَ: منكم؛ بياناً لحالهم وصفتِهم.

《٥٣》 ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾: من فتح البلاد شرقاً وغرباً، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: فتحُ مكةَ، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآنُ أو الإسلامُ، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ موضعُ (بربك): الرفعُ على أنه فاعلٌ، والمفعولُ محذوفٌ، وقولُه: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾: بدلٌ منه، تقديرُه: أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيدٌ؛ أي: أولم تكفهم شهادةُ ربك على كل شيء؛ ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سَيَرَوْنَه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيلُ عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد.

《٥٤》 ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾: شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾: عالمٌ بِجُمَلِ الأشياءِ وتفاصيلِها، وظواهرِها وبواطنِها، فلا تخفى عليه خافيةٌ، فيجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم.



﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ ....

سورة الشورى

ثلاثٌ وخمسون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٢》 فُصِلَ ﴿حمٓ﴾ مِن ﴿عٓسٓقٓ ٢﴾ كتابةً مخالفاً لـ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] تلفيقاً بأخواتِها[1]، ولأنه آيتان، و(كهيعص): آيةٌ واحدةٌ.

《٣》 ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الوحي، أو مثلَ ذلك الكتاب يوحي إليك، ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾: وإلى الرسل من قبلك ﴿ٱللَّهُ﴾ يعني: أن ما تضمنتْه هذه السورة من المعاني قد أوْحَى الله إليك مثلَه في غيرها من السور، وأوحاه إلى مَن قبلَكَ؛ يعني: إلى رسلِه؛ والمعنى: أن الله كرَّرَ هذه المعانيَ في القرآن وفي جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ، واللطف العظيم لعبادِه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من نبيٍّ صاحبِ كتابٍ إلا أوحيَ إليه بـ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢﴾، ﴿يُوحَىٰ﴾: بفتح الحاء: مكيٌّ[2]، ورافعُ اسمِ اللهِ على هذه القراءة: ما دلَّ عليه (يوحى) كأن قائلاً قال: مَن الموحي؟ فقيل: الله، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ بقهره، ﴿ٱلْحَكِيمُ ٣﴾: المصيبُ في فعلِه وقولِه.

《٤》 ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكاً ومِلكاً، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ شأنُه، ﴿ٱلْعَظِيمُ ٤﴾ برهانُه.

《٥》 ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وبالياء: نافعٌ وعلي، ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾: يتشققنَ، ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾: بصريٌّ وأبو بكر؛ ومعناه: يَكَدْنَ ينفطرنَ من عُلُوِّ شانِ الله وعظمتِه، يدلُّ عليه مجيئُه بعد قوله: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ٤﴾، وقيل: من دعائهم له ولداً، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] ومعنى ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئُ الانفطارُ من جهتهن الفَوقانيةِ، وكان القياس أن

---

(١) في «تفسير البيضاوي» (٥/ ٧٦): الفصلُ ليطابقَ سائرَ الحواميم.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٥) وكذا القراءتان الآتيتان.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ ....

يقال: يَتفطرن من تحتهن، من الجهة التي جاءت منها كلمةُ الكفر؛ لأنها جاءت من الذين تحت السموات، ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرةً في جهة الفوق، كأنه قيل: يَكَدْنَ يتفطرن من الجهة التي فوقَهن، دَعِ الجهةَ التي تحتهن، وقيل: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾: من فوق الأرض، فالكنايةُ راجعةٌ إلى الأرض؛ لأنه بمعنى الأرضين، وقيل: يتشققن لكثرة ما على السموات من الملائكة، قال عليه السلام: «أَطَّتِ السماءُ أطّاً وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ قدم إلا وعليه ملك قائمٌ أو راكعٌ أو ساجدٌ»[١]، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خضوعاً لما يَرَوْنَ من عظمته، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: للمؤمنين منهم، كقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧] خوفاً عليهم من سَطَواتِه، أو: يوحدون الله وينزهونه عمّا لا يجوز عليه من الصفات، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه، متعجبين مما رَأَوا من تعرضهم لسخط الله تعالى، ويستغفرون لمؤمني أهل الارض الذين تبرؤوا من تلك الكلمة، أو: يطلبون إلى ربهم أن يَحْلُمَ عن أهل الأرض ولا يعاجلَهم بالعقاب، ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ لهم.

«٦» ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: جعلوا له شركاءَ وأنداداً ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾: رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم لا يفوتُه منها شيءٌ، فيجازيْهم عليها، ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾: بموكَّلٍ عليهم، ولا مفوَّضٍ إليك أمرُهم، إنما أنت منذر فَحَسْبُ.

«٧» ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ و(ذلك): إشارةٌ إلى معنى الآية التي قبلَها من أن الله رقيب عليهم لا أنت، بل أنت منذر؛ لأن هذا المعنى كرَّرَه الله في كتابه، فالكافُ مفعولٌ به لـ(أوحينا) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: حالٌ من المفعول به؛ أي: أوحيناه إليك وهو قرآن عربيٌّ بَيِّنٌ، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أي: مكةَ؛ لأن الأرض دُحِيَتْ من تحتها، أو: لأنها أشرف البقاع؛ والمرادُ: أهلُ أمِّ القرى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾: يومَ القيامة؛ لأن الخلائق تجتمعُ فيه، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: اعتراضٌ لا محلَّ له، يقال: أنذرتُه كذا، وأنذرتُه بكذا، وقد عُدِّيَ ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ إلى المفعول الأول، و﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ إلى المفعول الثاني، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ أي: منهم فريقٌ، ومنهم فريقٌ، والضميرُ للمجموعِين؛ لأن المعنى: يومَ جمعِ الخلائق.

---

(١) رواه بنحوه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ . . .

《٨》 ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: مؤمنين كلَّهم، ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يُكرم من يشاء بالإسلام، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾: والكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾: شافعٍ، ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾: دافعٍ.

《٩》 ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الفاءُ لجواب شرطٍ مقدرٍ، كأنه قيل بعدَ إنكارِ كلِّ وليٍّ سواه: إن أرادوا أولياء بحقٍّ.. فاللهُ هو الولي بالحق، وهو الذي يجبُ أن يُتولَّى وحدَه، لا وليَّ سواه، ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ فهو الحقيقُ بأن يُتخذَ وليّاً دون من لا يقدر على شيء.

《١٠》 ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾: حكايةُ قولِ رسول الله ﷺ للمؤمنين؛ أي: ما خالفتْكم فيه الكفارُ من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمرٍ من أمور الدين ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ أي: حكمُ ذلك المختلَفِ فيه مُفوَّضٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو إثابةُ المحقِّين فيه من المؤمنين، ومعاقبةُ المبطلين، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكمُ بينكم ﴿ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في ردِّ كيدِ أعداءِ الدين، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾: أرجعُ في كفاية شرِّهم، وقيل: وما وقع بينكم الخلافُ فيه من العلوم التي لا تتصلُ بتكليفكم، ولا طريقَ لكم إلى علمه.. فقولوا: اللهُ أعلمُ، كمعرفة الرُّوح وغيرِه.

《١١》 ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ارتفاعُه على أنه أحدُ أخبار ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أو: خبرُ مبتدأ محذوف، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: خلق لكم من جنسِكم من الناس ﴿أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً، ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: يُكثِّرُكم؛ يقال: ذرأ اللهُ الخلق: بثَّهم وكثَّرَهم ﴿فِيهِ﴾: في هذا التدبير، وهو أنْ جعل الناسَ والأنعامَ أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالدُ والتناسلُ، واختير (فيه) على: به؛ لأنه جعلَ هذا التدبيرَ كالمنبَعِ والمعْدِنِ للبَثِّ والتكثيرِ، والضميرُ في (يذرؤكم) يرجعُ إلى المخاطَبين والأنعام، مُغَلِّباً فيه المخاطَبون العقلاءُ على الغُيَّبِ مما لا يعقل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ قيل: إن كلمة التشبيه كُرِّرَت لتأكيد نفي التماثل، وتقديرُه: ليس مثلَه شيءٌ، وقيل: المثلُ: زيادةٌ، وتقديرُه: ليس كهو شيءٌ، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧] وهذا لأن المراد نفيُ المثلية، وإذا لم

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ....

تُجْعَلِ الكافُ أو المثلُ زيادةً.. كان إثباتَ المثلِ، وقيل: المراد: ليس كذاته شيءٌ؛ لأنهم يقولون: مثلُك لا يَبخل؛ يريدون به نفيَ البخلِ عن ذاته، ويقصِدون المبالغةَ في ذلك بسلوك طريق الكناية؛ لأنهم إذا نَفَوه عمن يَسُدُّ مسدَّه.. فقد نَفَوْه عنه، فإذا عُلِمَ أنه من باب الكناية.. لم يقع فرقٌ بين قوله: ليس كالله شيء، وبين قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ إلا ما تُعْطِيْهِ الكنايةُ من فائدتها، وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنىً واحدٍ، وهو نفي المماثلة عن ذاته، ونحوُه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فمعناه: بل هو جَوَادٌ من غير تصوُّرِ يدٍ ولا بسطٍ لها؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود، حتى إنهم استعملوها فيمن لا يدَ له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثلٌ ومَن لا مثلَ له، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات بلا أُذُنٍ، ﴿ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ لجميع المرئيات بلا حَدَقةٍ، وكأنه ذكرهما لئلا يُتوهمَ أنه لا صفةَ له، كما لا مثلَ له.

《١٢》 ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مرَّ في (الزمر)، ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي: يُضيِّقُ ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾.

《١٣》 ﴿شَرَعَ﴾: بيَّنَ وأظهرَ ﴿لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ أي: شرع لكم من الدين دينَ نوحٍ ومحمدٍ وما بينهما من الأنبياء عليهم السلام، ثم فسَّرَ المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلامُ من رسله فيه بقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ والمرادُ: إقامةُ دينِ الإسلامِ الذي هو توحيدُ الله وطاعتُه، والإيمانُ برسله وكتبه، وبيوم الجزاء، وسائرِ ما يكون المرءُ بإقامته مسلماً، ولم يُرِدْ به الشرائعَ؛ فإنها مختلفةٌ، قال الله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨] ومحلُّ (أن أقيموا): نصبٌ بدلٌ من مفعول (شرع) والمعطوفين عليه، أو: رفعٌ على الاستئناف، كأنه قيل: وما ذلك المشروعُ؟ فقيل: هو إقامة الدين، ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾: ولا تختلفوا في الدين، قال عليٌّ رضي الله عنه: لا تتفرقوا؛ فالجماعةُ رحمة، والفُرقةُ عذابٌ، ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: عظمَ عليهم وشقَّ عليهم ﴿مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ من إقامة دين الله والتوحيد، ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ﴾: يجلُبُ ويجمعُ ﴿إِلَيۡهِ﴾: إلى الدين بالتوفيق والتسديد ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾: يقبلُ على طاعته.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ ....

«١٤» ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ أي: أهلُ الكتاب بعد أنبيائِهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾: إلا من بعد أن علموا أن الفُرْقَةَ ضلالٌ، وأمرٌ مُتوعَّدٌ عليه على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾: حسداً وطلباً للرياسة والاستطالة بغير حقٍّ، ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وهي: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ [القمر: ٤٦] ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾: لأهلكوا حين افترقُوا؛ لعظمِ ما اقترفُوا، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: همْ أهلُ الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾: من كتابهم، لا يؤمنون به حقَّ الإيمان، ﴿مُرِيبٖ ١٤﴾: مُدخلٍ في الرِّيبةِ، وقيل: ما تفرق أهلُ الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلمُ بمبعث رسول الله ﷺ، كقولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: هم المشركون، أُورثُوا القرآن من بعد ما أُورِثَ أهل الكتاب التوراةَ والإنجيل.

«١٥» ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾: فلأجل ذلك التفرقِ، ولما حدث بسببه من تشعُّبِ الكفرِ شُعَباً ﴿فَٱدۡعُۖ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملةِ الحنيفيةِ القويةِ، ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها ﴿كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾: كما أمرك اللهُ، ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ المختلفةَ الباطلةَ، ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾: بأيِّ كتابٍ صحَّ أن الله تعالى أنزلَه؛ يعني: الإيمانَ بجميع الكتب المنزلة؛ لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥١]، ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ في الحكم إذا تخاصمتُم فتحاكمتم إليَّ، ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾ أي: كلُّنا عبيدُه، ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾: هو كقوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ويجوز أن يكون معناه: إنا لا نؤاخذ بأعمالِكم، وأنتم لا تُؤاخذون بأعمالنا، ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ أي: لا خصومة؛ لأن الحقَّ قد ظهر وصرتُم محجوجين به، فلا حاجة إلى المحاجة، ومعناه: لا إيرادَ حجةٍ بيننا؛ لأن المتحاجّين يُوردُ هذا حجتَه وهذا حجتَه، ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يوم القيامة، ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾: المرجعُ لفصلِ القضاء، فيفصلُ بيننا، وينتقمُ لنا منكم.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ....

《١٦》 ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾: يخاصمون في دينه، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾: من بعد ما استجابَ له الناس ودخلوا في الإسلام؛ ليردُّوهم إلى دين الجاهلية، كقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابُنا قبل كتابكم، ونبيُّنا قبل نبيِّكم، فنحن خيرٌ منكم، وأولى بالحق، وقيل: مِن بعد ما استجيب لمحمد عليه السلام دعاؤُه على المشركين يومَ بدرٍ، ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾: باطلةٌ، وسمّاها حجةً وإن كانت شبهةً لزعمهم أنها حجةٌ، ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ بكفرهم، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ في الآخرة.

《١٧》 ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتابِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: بالصدق، أو ملتبساً به، ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾: والعدلَ والسويَّةَ، ومعنى إنزالِ العدلِ: أنه أنزلَه في كتبه المنزلة، وقيل: هو عين الميزان، أُنزلَ في زمن نوح عليه السلام، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾﴾ أي: لعل الساعة قريبٌ منك وأنت لا تدري؛ والمرادُ مجيءُ الساعة، أو: الساعةُ في تأويل البعث، ووجهُ مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان: أن الساعة يوم الحسابِ ووضعِ الموازين بالقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والسَّوِيَّةِ والعمل بالشرائع، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يومُ حسابِكم ووزنِ أعمالكم.

《١٨》 ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ استهزاءً، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾: خائفون منها وَجِلُون لِهَولِها، ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾: الكائنُ لا محالةَ، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ المماراةُ: المُلاَجَّةُ؛ لأن كل واحدٍ منهما يَمْري ما عند صاحبه[1]، ﴿لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ عن الحق؛ لأن قيام الساعة غيرُ مستبعَدٍ من قدرة الله تعالى، وقد دلَّ الكتاب والسنة على وقوعِها، والعقولُ تشهدُ على أنه لا بدَّ مِن دار جزاء.

《١٩》 ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ في إيصال المنافعِ وصرفِ البلاء من وجهٍ يَلْطُفُ إدراكُه، أو: بَرٌّ بليغُ البِرِّ بِهِمْ، قد تَوَصَّلَ بِرُّه إلى جميعهم، وقيل: هو من لَطُفَ بالغوامض علمُه، وعظم عن

(١) يَمْرِي: يستخرج.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ....

الجرائم حلمُه، أو: مَن ينشرُ المناقب ويسترُ المثالب، أو: مَن يعفو عمَّن يهفو، أو: يعطي العبد فوق الكفاية، ويكلفه الطاعة دون الطاقة، وعن الجنيد: لَطَفَ بأوليائه فعرفوه، ولو لطف بأعدائه.. ما جحدُوه، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحتَه فيه، في الحديث: «إن من عبادي المؤمنين مَن لا يُصْلِحُ إيمانَه إلا الغِنى، ولو أفقرتُه.. لأفسدَه ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانَه إلا الفقرُ، ولو أغنيتُه.. لأفسده ذلك»[1]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾: الباهرُ القدرةِ الغالبُ على كل شيء، ﴿ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾: المنيعُ الذي لا يُغْلَبُ.

《٢٠》 ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾: سُمِّيَ ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثاً مجازاً ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ بالتوفيق في عمله، أو التضعيف في حسناته، أو بأن ينال به الدنيا والآخرة، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مَن كان عملُه للدنيا ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: شيئاً منها؛ لأنَّ مِنْ: للتبعيض، وهو رزقُه الذي قُسم له، لا ما يريده ويبتغيه، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾: وما له نصيبٌ قطُّ في الآخرة، ولم يَذكر في عامل الآخرة أن رزقَه المقسومَ يصلُ إليه؛ للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده مِن زَكاءِ عملِه وفوزِه في المآب.

《٢١》 ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ قيل: هي (أم) المنقطعةُ، وتقديرُه: بل أَلَهُم شركاءُ؟ وقيل هي المعادلة لألفِ الاستفهام، وفي الكلام إضمارٌ تقديرُه: أيقبلون ما شرع الله من الدِّين أم لهم آلهة ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: لم يأمرْ به، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاءِ السابقِ بتأجيل الجزاء؛ أي: ولولا العِدَةُ بأن الفصل يكون يومَ القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: بين الكافرين والمؤمنين، أو: لَعُجِّلَت لهم العقوبةُ، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾: وإن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة وإن أُخِّرَ عنهم في دار الدنيا.

《٢٢》 ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: المشركين في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾: من جزاءِ كفرِهم، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾: نازلٌ بهم لا محالةَ، أشفقُوا أو لم يشفقُوا، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/٣٠٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ ....

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ﴾ كأنَّ روضة جنة المؤمن أطيبُ بقعةٍ فيها وأنْزَهُها، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ﴾ (عند): نصبٌ بالظرف لا بـ(يشاؤون)، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ على العمل القليل.

《٢٣》 ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الفضلُ الكبيرُ ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ ﴿يَبْشُرُ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو وحمزةُ وعليٌّ[١]، ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ﴾ أي: به عباده، فحُذف الجارُّ، كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثم حذف الراجعُ إلى الموصول[٢]، كقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، ولما قال المشركون: أيبتغي على تبليغ الرسالة أجراً.. نزل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: على التبليغ ﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾ يجوزُ أن يكون استثناءً متصلاً؛ أي: لا أسألكم أجراً إلا هذا، وهو أن تَوَدُّوا أهل قرابتي، ويجوز أن يكون منقطعاً؛ أي: لا أسألكم أجراً قطُّ لكني أسألكم أن تَوَدُّوا قرابتي الذين هم قرابتُكم ولا تؤذُوهم، ولم يقلْ: إلا مودةَ القربى، أو: المودة للقربى؛ لأنهم جُعلوا مكاناً للمودة ومقرّاً لها، كقولك: لي في آل فلان مَوَدَّةٌ، ولي فيهم حبٌّ شديدٌ؛ تريدُ: أُحِبُّهم وهم مكانُ حُبّي ومحلُّه، وليست (في) بِصِلَةٍ للمودة، كاللام إذا قلت: إلا المودةَ للقربى، إنما هي متعلقةٌ بمحذوفٍ تَعَلُّقَ الظرفِ به في قولك: المالُ في الكيس[٣]، وتقديرُه: إلا المودةَ ثابتةً في القربى، ومتمكنةً فيها، والقربى: مصدرٌ، كالزُّلْفى والبُشرى؛ بمعنى القرابة، والمرادُ: في أهل القربى، وروي: أنه لما نزلت.. قيل: يا رسول الله من قرابتُك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتُهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وابناهما»[٤]، وقيل: معناه: إلا أن تَوَدُّوني لقرابتي فيكم، ولا تُؤذوني، ولا تَهِيْجُوا عليَّ؛ إذْ لم يكن بطن من بطون قريش إلا بين رسول الله ﷺ وبينهم قرابةٌ، وقيل: القربى: التقربُ إلى الله تعالى؛ أي: إلا أن تُحبُّوا الله ورسولَه في تقرُّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح، ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾: يكتسبْ طاعةً، عن السدي: أنها المودةُ في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، ومودتِه فيهم، والظاهرُ العمومُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٦).

(٢) لِحذف العائدِ المجرور شروطٌ لم تتحقق هنا؛ فلذا قَرَّرَ أنَّ الجارَّ حذف أولاً فصار (يُبَشِّرُهُ) ثم حذف الضمير المنصوب.

(٣) لكن (في القربى): متعلقٌ بحال محذوف، و(في الكيس): متعلقٌ بخبر محذوف.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٤٤٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

في أيِّ حسنةٍ كانت، إلا أنها تتناول المودةَ تناولاً أوَّليّاً؛ لذكرِها عقيبَ ذكرِ المودةِ في القربى، ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ﴾ أي: نضاعفْها، كقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقرئ: ﴿حُسْنَى﴾[١]، وهو مصدرٌ كالبشرى، والضمير يعودُ إلى الحسنة، أو إلى الجنة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنب بِطَوْلِه[٢]، ﴿شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ لمن أطاع بفضلِه، وقيل: قابلٌ للتوبة حاملٌ عليها، وقيل: الشكورُ في صفة الله تعالى: عبارةٌ عن الاعتداد بالطاعة، وتوفيةِ ثوابِها، والتفضلِ عن المثاب.

《٢٤》 ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ﴾ (أم): منقطعةٌ؛ ومعنى الهمزة فيه: التوبيخُ، كأنه قيل: أَيَتمالَكُون أن ينسُبُوا مثلَه إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظمُ الفِرَى وأفحشُها؟ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ قال مجاهد: أي: يَربطْ على قلبك بالصبر على أذاهم[٣]، وعلى قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لئلا تدخلَه مشقةٌ بتكذيبهم، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: الشرك، وهو كلامٌ مبتدأٌ غيرُ معطوف على (يختم) لأن مَحْوَ الباطلِ غيرُ متعلق بالشرط، بل هو وعدٌ مطلقٌ؛ دليلُه: تكرارُ اسم الله تعالى، ورفعُ (ويُحِقُّ)، وإنما سقطت الواوُ في الخط، كما سقطت في ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ﴾ [الإسراء: ١١]، و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، على أنها مُثبتةٌ في مصحف نافع[٤]، ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾: ويظهرُ الإسلامَ ويثبتُه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾: بما أنزل من كتابه على لسان نبيِّه محمدٍ ﷺ، وقد فعل الله ذلك فَمَحَا باطلَهم، وأظهرَ الإسلام، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: عليمٌ بما في صدرك وصدورِهم، فيُجري الأمرَ على حَسَبِ ذلك.

---

(١) انظر «الكشاف» (٤/ ٢٢٦).

(٢) الطَّولُ: الفَضْلُ.

(٣) في «تفسير الآلوسي» (١٣/ ٣٤): هذا الأسلوبُ مُؤدّاهُ استبعادُ الافتراء من مثله عليه الصلاة والسلام، وأنه في البُعد مثلُ الشركِ بالله سبحانه والدخولِ في جملة المختوم على قلوبهم، فكأنه قيل: فإن يشأ الله سبحانه يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتريَ عليه الكذبَ؛ فإنه لا يجترىءُ على افتراء الكذب على الله تعالى إلا مَن كان في مثل حالهم، وهو في معنى: فإن يشأْ يجعلْك منهم؛ لأنهم هم المفترون الذين شرعُوا من الدين ما لم يأذن به الله تعالى، وما أحسن هذا التعريضَ بأنهم المفترون.

(٤) في «عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل» (ص ٨٩): حذف منه الواو علامة على سرعة المحو وقبول الباطل له بسرعة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ ....

《٢٥》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يقال: قبلتُ منه الشيءَ؛ أي: أخذتُه منه وجعلته مبدأَ قَبولي، ويقال: قبلتُه عنه؛ أي: عزلتُه عنه وأَبَنْتُه عنه، والتوبةُ: أن يرجع عن القبيح والإخلالِ بالواجبِ بالندم عليهما، والعزمِ على ألا يُعاوِدَ، وإن كان لعبد فيه حقٌّ.. لم يكن بُدٌّ من التَّفَصِّي على طريقِه[1]، وقال علي رضي الله عنه: هو اسمٌ يقع على ستة معانٍ: على الماضي من الذنوب: الندامةُ، ولتضييع الفرائض: الإعادةُ، وردُّ المظالم، وإذابةُ النفس في الطاعةِ كما ربَّيْتَها في المعصية، وإذاقةُ النفس مرارةَ الطاعة كما أذقتَها حلاوةَ المعصية، والبكاءُ بدلَ كلِّ ضَحِكٍ ضحكتَه، وعن السريِّ: هو صدقُ العزيمة على ترك الذنوب، والإنابةُ بالقلب إلى عَلّام الغيوب، وعن غيره: هو ألا يجدَ حلاوةَ الذنب في القلب عند ذكره، وعن سهل: هو الانتقال عن الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة، وعن الجنيد: هو الإعراضُ عمّا دون الله، ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: وهو ما دون الشرك، يعفو لمن يشاء بلا توبةٍ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾: بالتاء: كوفيٌّ غيرَ أبي بكر؛ أي: من التوبة والمعصية، ولا وقفَ عليه؛ للعطف عليه، واتصالِ المعنى.

《٢٦》 ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: إذا دَعَوه.. استجاب دعاءَهم، وأعطاهم ما طلبوا، وزادهم على مطلوبهم، واستجاب وأجاب: بمعنىً، والسينُ في مثله لتوكيد الفعل، كقولك: تعظَّمَ واستعظم، والتقديرُ: ويجيبُ اللهُ الذين آمنوا، وقيل: معناه: ويستجيب للذين آمنوا، فحذفَ اللامُ، مَنَّ عليهم بأن يقبلَ توبتَهم إذا تابُوا، ويعفو عن سيآتهم، ويستجيب لهم إذا دَعَوه، ويزيدُهم على ما سألوه، وعن إبراهيمَ بنِ أدهمَ أنه قيل له: ما بالُنا ندعو فلا نجابُ؟ قال: لأنه دعاكم فلم تُجيبوه، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ في الآخرة.

《٢٧》 ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: لو أغناهم جميعاً ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: من البغْي: الظلم؛ أي: لبغَى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأن الغِنى مَبطرةٌ مَأْشرةٌ، وكفى بحالِ قارونَ وفرعونَ عبرةً، أو: من البغْيِ: الكبرِ؛ أي: لَتَكَبَّرُوا في الأرض، ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيف:

---

(١) التفصي: التخلص من البلية، أي: لا بدَّ من التخلص من هذا الحق بطريق شرعي؛ كأن يؤديَ الحقَّ، أو يعفوَ عنه صاحبه، ونحوِ ذلك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ....﴾

مكيٌّ وأبو عمرٍو[1]، ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾: بتقديرٍ، يقال: قَدَرَه قَدْراً وقَدَراً، ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ يعلمُ أحوالَهم فيقدِّرُ لهم ما تقتضيه حكمتُه، فيُفقِرُ ويُغني، ويمنع ويُعطي، ويَقبِضُ ويبسُطُ، ولو أغناهم جميعاً.. لَبَغَوا، ولو أفقرَهم.. لهلكُوا، وما ترى من البَسطِ على من يَبغي، ومن البغْيِ بدون البسط.. فهو قليل، ولا شكَّ أن البغيَ مع الفقر أقلُّ، ومع البسط أكثرُ وأغلبُ.

《٢٨》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾: بالتشديد: مدنيٌّ وشاميٌّ وعاصمٌ، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ وقرئَ: ﴿قَنِطُوا﴾[2]، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: بركاتِ الغيثِ ومنافعَه وما يحصلُ به من الخِصْبِ، وقيل لعمر رضي الله عنه: اشتدَّ القحطُ وقنط الناس، فقال: مُطِروا إذنْ؛ أرادَ هذه الآية، أو: أراد: رحمتَه في كل شيء، ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾: الذي يتولَّى عبادَه بإحسانه، ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾: المحمودُ على ذلك، يحمدُه أهلُ طاعته.

《٢٩》 ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: ومن علاماتِ قدرتِه ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع عظمِها، ﴿وَمَا بَثَّ﴾: فَرَّقَ، و(ما): يجوزُ أن يكون مرفوعاً ومجروراً؛ حملاً على المضافِ أو المضافِ إليه، ﴿فِيهِمَا﴾: من السموات والأرض، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ الدوابُّ تكون في الأرض وحدَها، لكن يجوز أن يُنسب الشيءُ إلى جميع المذكور وإن كان مُتلبساً ببعضه، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعرٌ مُجِيْدٌ، وإنما هو في فَخِذٍ من أفخاذهم، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرجُ من المِلْحِ، ولا يبعدُ أن يخلقَ في السموات حيواناتٍ يمشون فيها مشيَ الأناسيِّ على الأرض، أو يكونَ للملائكة مشيٌ مع الطيران، فوُصِفُوا بالدَّبيب، كما وُصِف به الأناسيُّ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يوم القيامة، ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ (إذا) تدخلُ على المضارعِ كما تدخل على الماضي، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

《٣٠》 ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾: غمٌّ وألمٌ ومكروهٍ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بجنايةٍ كسبتُموها عقوبةً عليه، ﴿بما كسبت﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ، على أن (ما) مبتدأٌ، و(بما كسبت): خبرُه

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٧) وكذا القراءة الآتية.
(٢) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٩٢).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝٣١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ۝٣٣ ....﴾

من غير تضمين معنى الشرط، ومَن أثبتَ الفاءَ.. فعلى تضمين معنى الشرط، وتَعَلَّقَ بهذه الآية من يقول بالتناسُخِ، وقال: لو لم يكن للأطفال حالةٌ كانوا عليها قبل هذه الحالة.. لما تألَّموا، وقلنا: الآيةُ مخصوصةٌ بالمكلفين، بالسِّباق والسياق[1]، وهو: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ أي: من الذنوب، فلا يعاقبُ عليه، أو عن كثير من الناس فلا يعاجلُهم بالعقوبة، وقال ابنُ عطاء: مَن لم يعلم أنَّ ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابِه، وأن ما عفا عنه مولاه أكثرُ.. كان قليل النظر في إحسان ربِّه إليه، وقال محمد بنُ حامد: العبدُ ملازمٌ للجنايات في كل أوان، وجناياتُه في طاعته أكثرُ من جناياته في معاصيه، لأن جنايةَ المعصية من وجهٍ، وجناية الطاعة من وجوه، والله يطهرُ عبده من جناياتِه بأنواعٍ من المصائب؛ ليخففَ عنه أثقالَه في القيامة، ولولا عفوُه ورحمتُه.. لهلك في أول خطوة، وعن علي رضي الله عنه: هذه أرجى آيةٍ للمؤمنين في القرآن؛ لأن الكريم إذا عاقب مرةً.. لا يعاقِبُ ثانياً، وإذا عفا.. لا يعود.

«٣١» ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: بفائتين ما قضى عليكم من المصائب، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾: مُتَوَلٍّ بالرحمة، ﴿وَلَا نَصِيرٖ ۝٣١﴾: ناصرٍ يدفعُ عنكم العذاب إذا حلَّ بكم.

«٣٢» ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ﴾: جمعُ جاريةٍ وهي السفينةُ، ﴿الجواري﴾: في الحالين: مكيٌّ وسهلٌ ويعقوبُ، وافقَ مدنيٌّ وأبو عمرٍو في الوصل[2]، ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝٣٢﴾: كالجبال.

«٣٣» ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ ﴿الرياح﴾: مدنيٌّ، ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ﴾: ثوابتَ لا تجري ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾: على ظهر البحر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على بلائِه، ﴿شَكُورٍ ۝٣٣﴾ لنعمائِه؛ أي: لكلِّ مؤمنٍ مخلصٍ، فالإيمان نصفان: نصفٌ شكرٌ، ونصفٌ صبرٌ، أو: صبارٌ على طاعته، شكورٌ لنعمته.

---

(١) قرينة السياق: ما يؤخذ من لاحق الكلام الدال على خصوص المقصود أو سابقه. وقرينة السباق: دلالةُ التركيب على معنى يسبق إلى الفهم منه مع احتمال إرادة غيره. انظر «حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع» (١/ ٣٠).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٧) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ....

《٣٤》 ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾: يهلكهنَّ، فهو عطف على (يُسْكِنْ)؛ والمعنى: إن يشأْ يسكنِ الريحَ فيرُكُدْنَ، أو يَعصفْها فيَغْرَقْنَ بِعَصْفِها، ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ منها فلا يجازي عليها، وإنما أُدخل العفْوُ في حكم الإيباق حيث جزم جزمَه؛ لأن المعنى: أو إن يشأ يهلك ناساً وينجِ ناساً على طريق العفو عنهم.

《٣٥》 ﴿وَيَعْلَمَ﴾: بالنصب عطفٌ على تعليل محذوف تقديرُه: لِينتقمَ منهم ويعلمَ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: في إبطالِها ودفعِها، ﴿ويعلمُ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ على الاستئناف، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾: مهربٍ من عذابه.

《٣٦》 ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (ما) الأولى ضُمنت معنى الشرط، فجاءت الفاءُ في جوابها، بخلاف الثانية، نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق بجميع ماله فلَامَه الناسُ.

《٣٧》 ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾: عطفٌ على ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكذا ما بعدَه، ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ أي: الكبائرَ من هذا الجنس، ﴿كبير الإثم﴾: عليٌّ وحمزةُ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كبيرُ الإثم هو: الشركُ، ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ قيل: ما عظم قبحُه فهو فاحشةٌ كالزنا، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ من أمور دنياهم ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: هم الأَخِصَّاءُ بالغفران في حال الغضب، والمجيءُ بـ(هُمْ) وإيقاعُه مبتدأً، وإسنادُ (يغفرون) إليه.. لهذه الفائدةِ، ومثلُه: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

《٣٨》 ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾: نزلت في الأنصار، دعاهم اللهُ عزَّ وجلَّ للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعُوه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: وأتمُّوا الصلواتِ الخمسَ، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شورى، لا يتفردون برأيٍ حتى يجتمعوا عليه، وعن الحسن: ما تشاور قومٌ إلا هُدُوا لأرشدِ أمرِهم، والشورى: مصدرٌ كالفتيا؛ بمعنى: التشاور، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾: يتصدقون.

《٣٩》 ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾: الظلمُ ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾: ينتقمون ممن ظلمهم؛ أي: يقتصرون في الانتصار على ما جعلَه الله تعالى لهم، ولا يعتدون، وكانوا يكرهون أن يُذِلُّوا

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ ....

أنفسَهم فيجترئَ عليهم الفُسّاقُ، وإنما حُمِدُوا على الانتصار؛ لأن من انتصر وأخذ حقَّه ولم يجاوزْ في ذلك حَدَّ الله فلم يسرفْ في القتل إن كان وليَّ دمٍ.. فهو مطيعٌ لله، وكلُّ مطيع محمود، ثم بَيَّنَ حدَّ الانتصار فقال:

《٤٠》 ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ فالأولى سيئةٌ حقيقةً، والثانيةُ لا، وإنما سميت سيئةً؛ لأنها مجازاةٌ بسوءٍ، أو لأنها تَسُوءُ مَن تنزلُ به، ولأنه لو لم تكن الأولى.. لكانت الثانية سيئةً؛ لأنها إضرار، وإنما صارت حسنةً لغيرها، أو في تسميةِ الثانية سيئةً إشارةٌ إلى أن العفو مندوب إليه؛ والمعنى: أنه يجب إذا قُوبلت الإساءةُ أن تُقابَلَ بمثلها من غير زيادة، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: عِدَةٌ مبهمةٌ لا يقاس أمرُها في العِظَمِ، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الذين يبدؤون بالظلم، أو: الذين يُجاوزون حدَّ الانتصار، في الحديث: «ينادي منادٍ يوم القيامة: مَن كان له أجرٌ على الله.. فليقمْ، فلا يقومُ إلا من عَفا»[1].

《٤١》 ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي: أخذَ حقَّه بعد ما ظُلِمَ؛ على إضافة المصدر إلى المفعول ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارةٌ إلى معنى (مَن) دون لفظِه، ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ للمعاقِبِ ولا للمعاتِبِ والعائِبِ.

《٤٢》 ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾: يبتدؤونَهم بالظلم، ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: يتكبرون فيها ويَعْلُون ويُفسدون ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾﴾ وفُسِّرَ السبيلُ بالتبعة والحجة.

《٤٣》 ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى، ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصرْ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الصبرَ والغفرانَ منه ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: مِن الأمور التي نُدِبَ إليها، أو مما ينبغي أن يُوجبَه العاقلُ على نفسه، ولا يترخصَ في تركه، وحُذِفَ الراجعُ؛ أي: منه؛ لأنه مفهوم، كما حُذِفَ من قولهم: السمن منوان بدرهم، وقال أبو سعيد القرشيُّ: الصبرُ على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروه يصيبُه ولم يجزعْ.. أورثه الله تعالى حالَ الرضا، وهو أجلُّ الأحوال، ومن جَزِعَ من المصيبات وشكا.. وَكَلَه اللهُ تعالى إلى نفسه، ثم لم تنفعْه شكواه.

---

(١) رواه بنحوه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٤٤٧) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ....

《٤٤》 ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾: فما له من أحدٍ يلي هدايته من بعد إضلالِ اللهِ إياه، ويمنعُه من عذابه، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: حين يرون العذاب، واختير لفظُ الماضي للتحقيق ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾: يسألون ربَّهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا به.

《٤٥》 ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾: على النار؛ إذ العذابُ يدلُّ عليها، ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾: متضائلين متقاصرين مما يلحقُهم من الذلِّ ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى النار، ﴿مِن طَرْفٍ خَفِىٍّۗ﴾: ضعيف بمسارقةٍ، كما ترى المصبورَ ينظرُ إلى السيف[1]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ (يوم): متعلقٌ بـ(خسروا)، وقولُ المؤمنين واقعٌ في الدنيا، أو: بـ(قال)؛ أي: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾: دائم.

《٤٦》 ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾: من دون عذابِه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ إلى النجاة.

《٤٧》 ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ أي: يومُ القيامة ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ (مِن): يتصل بـ(لا مردَّ) أي: لا يردُّه الله بعد ما حكم به، أو بـ(يأتي) أي: من قبل أن يأتي مِن الله يومٌ لا يقدر أحدٌ على ردِّه، ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ليس لكم مَخْلَصٌ من العذاب، ولا تَقدرون أن تُنكروا شيئاً مما اقترفتموه ودُوِّنَ في صحائفِ أعمالِكم، والنكيرُ: الإنكارُ.

---

(١) المصبور: المحبوسُ على القتل.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ ....

《٤٨》 ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾: رقيباً، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: ما عليك إلا تبليغُ الرسالة وقد فعلتَ، ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ المرادُ: الجمعُ لا الواحدُ، ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾: نعمةً وسَعَةً وأمناً وصِحَّةً ﴿فَرِحَ بِهَا﴾: بَطِرَ لأجلها، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: بلاءٌ كالمرض والفقر ونحوِهما، وتوحيدُ (فَرِحَ) باعتبار اللفظ، والجمعُ في (إن تصبهم) باعتبار المعنى، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: بسبب معاصيهم ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ ولم يقلْ: فإنه كفورٌ؛ ليسجل على أن هذا الجنس موسومٌ بكفران النعم، كما قال: إن الإنسان لظلومٌ كفارٌ، والكفورُ: البليغُ الكُفران؛ والمعنى: أنه يذكرُ البلاء وينسى النعم ويَغْمِطُها، قيل: أريدَ به كفرانُ النعمة، وقيل: أريدَ به الكفرُ بالله تعالى.

《٤٩ - ٥٠》 ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يَقْرِنُهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لما ذكرَ إذاقة الإنسانِ الرحمةَ وإصابتَه بضدِّها.. أتبعَ ذلك أن له تعالى الملكَ، وأنه يَقسم النعمةَ والبلاءَ كيف أراد، ويهبُ لعباده من الأولاد ما يشاء، فيخصُّ بعضاً بالإناث، وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويجعلُ البعض عقيماً، والعقيمُ التي لا تَلِدُ، وكذلك: رجلٌ عقيمٌ إذا كان لا يولد له، وقدَّمَ الإناثَ أوّلاً على الذكور؛ لأن سياق الكلام أنه فاعلٌ لما يشاؤه، لا ما يشاؤُه الإنسانُ، فكان ذكرُ الإناثِ اللاتي من جملة ما لا يشاؤُه الإنسانُ أهمَّ، والأهمُّ واجبُ التقديم، ولِيَلِيَ الجنسُ الذي كانت العرب تَعُدُّهُ بلاءً ذكرَ البلاء، ولما أَخَّرَ الذكور وهم أَحِقَّاءُ بالتقديم.. تدارك تأخيرَهم بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويهٌ وتشهيرٌ، ثم أَعطى بعد ذلك كِلا الجنسين حقَّه من التقديم والتأخير، وعُرِفَ أن تقديمَهن لم يكن لتقدُّمِهنَّ، ولكن لمقتضٍ آخرَ فقال: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾، وقيل: نزلت في الأنبياء عليهم السلام، حيث وَهَبَ لِلوطٍ وشعيبٍ إناثاً، ولإبراهيمَ ذكوراً، ولمحمدٍ ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجَعل يحيى وعيسى عليهما السلام عقيمين، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ ﴿قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾: قادرٌ على كل شيء.

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ....

《٥١》 ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾: وما صحَّ لأحدٍ من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إلهاماً، كما روي: «نَفَثَ في رُوعي»[١]، أو رؤيا في المنام، لقوله عليه السلام: «رؤيا الأنبياء وحيٌ»[٢]، وهو كأمر إبراهيمَ عليه السلام بذبح الولد، ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ أي: يَسمعُ كلاماً من الله كما سمع موسى عليه السلام، من غير أن يُبصرَ السامعُ مَن يكلمُه، وليس المرادُ به حجابَ الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب، ولكن المراد به أن السامع محجوب عن الرؤية في الدنيا، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: يرسلَ مَلَكاً ﴿فَيُوحِيَ﴾ أي: الملكُ إليه، وقيل: (وحياً): كما أَوْحَى إلى الرسل بواسطة الملائكة، (أو يرسل رسولاً) أي: نبيّاً، كما كلَّم أُمَمَ الأنبياءِ على ألسنتِهم، و(وحياً) وأن يرسل: مصدران واقعان موقع الحال؛ لأنَّ أنْ يرسلَ: في معنى: إرسالاً، و(مِن وراء حجاب): ظرفٌ واقعٌ موقع الحال، كقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] والتقديرُ: وما صحَّ أن يكلم أحداً إلا مُوحياً، أو مُسمِعاً من وراء حجاب، أو مُرسلاً، ويجوز أن يكون المعنى: وما كان لبشر أن يكلمه اللهُ إلا بأن يوحيَ، أو أن يُسمعَ مِن وراء حجاب، أو أن يرسل رسولاً، وهو اختيارُ الخليل[٣]، ﴿أو يرسلُ رسولاً فيوحيْ﴾: بالرفع: نافعٌ[٤]؛ على تقدير: أو هو يرسل، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بإذن الله، ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من الوحْي ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾: قاهرٌ فلا يُمانَعُ، ﴿حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾: مُصيبٌ في أقواله وأفعاله فلا يُعارَضُ.

《٥٢》 ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أوحينا إلى الرسل قبلك، أو كما وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إيحاءً كذلك ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يريدُ: ما أُوحيَ إليه؛ لأن الخلق يَحْيَوْنَ به في دينهم كما يَحيا الجسدُ بالروح، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ الجملةُ: حالٌ من الكاف في (إليك)، ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾: القرآنُ، ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: شرائعُه، أو: ولا الإيمانُ بالكتاب؛ لأنه إذا كان لا يعلم بأن الكتاب ينزل عليه.. لم يكن عالماً بذلك الكتاب، وقيل: الإيمانُ يتناول أشياءَ بعضُها الطريقُ إليه العقلُ، وبعضُها الطريقُ إليه السمعُ، فعنَى به ما الطريقُ إليه السمعُ دون العقل، وذاك ما كان له فيه علمٌ

---

(١) جزء من حديث رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٧٩) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٣٢) من قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٤٩)، فعلى هذا الوجه الثاني لا يكون المصدر واقعاً موقع حال.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٨).

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

حتى كَسَبَهُ بالوحْيِ، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ﴾: لَتَدْعُو، وقرئَ به[1]، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾: الإسلام.

《٥٣》 ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾: بدلٌ، ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾: مِلكاً ومُلكاً، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾: هو وعيدٌ بالجحيم، ووعدٌ بالنعيم.



(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤).

﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾ . .

سورة الزخرف

تسع وثمانون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١ - ٢» ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ أقسمَ بالكتاب المبين، وهو القرآنُ، وجُعِلَ قولُه:

«٣» ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ﴾: صيَّرْناه ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾: جواباً للقسم، وهو من الأيمان الحسنةِ البديعة؛ لِتَناسُبِ القسمِ والمقسَمِ عليه، و(المبين): البَيِّنُ للذين أنزل عليهم؛ لأنه بِلُغَتِهم وأساليبِهم، أو: الواضحُ للمتدبِّرين، أو: الذي أبان طرقَ الهدى من طرق الضلالة، وأبان كلَّ ما تحتاج إليه الأمةُ في أبواب الديانة، ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾: لكي تفهموا معانِيَهُ.

«٤» ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾: وإن القرآن مثبتٌ عند الله في اللوح المحفوظ؛ دليلُه قولُه: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] وسميَ أمَّ الكتاب؛ لأنه الأصل الذي أُثْبِتَتْ فيه الكتبُ، منه تُنقلُ وتُستنسخُ، ﴿إِمِّ الكتابِ﴾: بكسر الألف: عليٌّ وحمزةُ[1]، ﴿لَعَلِيٌّ﴾: خبرُ (إنَّ) أي: في أعلى طبقات البلاغة، أو: رفيعُ الشأن في الكتب؛ لكونه معجزاً من بينها، ﴿حَكِيمٌ ٤﴾: ذو حكمةٍ بالغةٍ.

«٥» ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾: أَفَنُنَحِّي عنكم الذكر ونذودُه عنكم؛ على سبيل المجاز؛ من قولهم: ضَرَبَ الغرائبَ عن الحوض[2]، والفاءُ: للعطف على محذوف، تقديرُه: أَنُهْمِلُكُم فنضربُ عنكم الذكر؛ إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قَدَّمَ من إنزاله الكتابَ، وجَعْلِهِ قرآناً عربيّاً؛ ليعقلوه وليعملوا بمواجبه، ﴿صَفۡحًا﴾: مصدرٌ؛ مِن: صفحَ عنه: إذا أعرض، منتصبٌ على أنه مفعولٌ له، على معنى: أفنعزلُ عنكم إنزالَ القرآنِ وإلزامَ الحجةِ به إعراضاً عنكم؟ ويجوز أن يكون مصدراً على خلاف الصدر؛ لأنه يقال: ضربتُ عنه؛ أي: أعرضتُ عنه، كذا

(١) بكسر الهمزة في الوصل. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٨).

(٢) أي: طَرَدَ النُّوْقَ الغريبةَ التي دخلت في جماعة الإبل وليست منها.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾ ....

قاله الفراء[١]، ﴿أَن كُنتُمْ﴾: لأن كنتم، ﴿إن كنتم﴾: مدنيٌّ وحمزةُ وعليّ[٢]، وهو من الشرط الذي يَصْدُرُ عن المُدِلِّ بصحةِ الأمر المتحققِ لِثبوته[٣]، كما يقول الأجيرُ: إن كنتُ عملتُ لك فوفِّني حقِّي، وهو عالم بذلك، ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾: مُفْرِطِين في الجهالة، مجاوزين الحدَّ في الضلالة.

《٦》 ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ أي: كثيراً من الرسل أرسلنا إلى من تقدمَك.

《٧》 ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾: هي حكاية حال ماضية مستمرة؛ أي: كانوا على ذلك، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

《٨》 ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾: تمييزٌ، والضمير للمسرفين؛ لأنه صَرَفَ الخطابَ عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبِرُه عنهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ أي: سلف في القرآن في غير موضع منه ذكرُ قصتِهم وحالِهم العجيبة التي حقُّها أن تسير مسيرَ المثل، وهذا وعدٌ لرسول الله ﷺ ووعيدٌ لهم.

《٩》 ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: المشركين: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

《١٠》 ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾: كوفيٌّ، وغيرُهم: ﴿مهاداً﴾ أي: موضعَ قرارٍ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: طُرُقاً، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾: لكي تهتدوا في أسفاركم.

《١١》 ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾: بمقدارٍ تسلمُ معه العباد، ويَحتاج إليه البلادُ، ﴿فَأَنشَرْنَا﴾: فأحيينا: عدولٌ من المُغَايَبَةِ إلى الإخبار؛ لعلم المخاطبِ بالمراد، ﴿بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يزيد: ﴿مَيِّتاً﴾[٤]، ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾ من قبوركم أحياءً، ﴿تَخْرُجُون﴾: حمزةُ وعليٌّ،

---

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٨).

(٢) في «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٨): كسر الهمزة: المدنيان والأخوان وخلف، وفتحها غيرُهم.

(٣) المدل: الواثق.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٨) وكذا القراءة الآتية.

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ....

ولا وقفَ على ﴿الْعَلِيمُ﴾؛ لأن (الذي) صفتُه، وقد وقف عليه أبو حاتم؛ على تقدير: هو الذي؛ لأن هذه الأوصاف ليست من مقول الكفار؛ لأنهم ينكرون الإخراج من القبور، فكيف يقولون: كذلك تخرجون؟ بل الآيةُ حجةٌ عليهم في إنكار البعث.

《١٢》 ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾: الأصناف، ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: تركبونه، يقال: ركبوا في الفلك، وركبوا الأنعام، فغُلِّبَ المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة فقيل: تركبونه.

《١٣》 ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾: على ظهور ما تركبون، وهو الفلكُ والأنعامُ، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا﴾ بألسنتكم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾: ذَلَّلَ لنا هذا المركوبَ، ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾: مطيقين، يقال: أقرنَ الشيءَ: إذا أطاقَه، وحقيقةُ أَقْرَنَه: وَجَدَه قرينتَه؛ لأن الصعب لا يكون قرينةً للضعيف.

《١٤》 ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾: لراجعون، قيل: يذكرون عند ركوبهم مراكبَ الدنيا آخرَ مركبهم منها، وهو الجنازة، وعن النبي ﷺ: أنه كان إذا وَضَعَ رجله في الركاب.. قال: «بسم الله» فإذا استوى على الدابة.. قال: «الحمد لله على كل حال، سبحان الذي سخر لنا هذا» إلى قوله: ﴿لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، وكبَّرَ ثلاثاً، وهلَّلَ ثلاثاً[1]، وقالوا: إذا ركب في السفينة.. قال: بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم، وحكي: أن قوماً ركبوا وقالوا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا...﴾ الآيةَ، وفيهم رجلٌ على ناقة لا تتحرك هُزالاً، فقال: إني مُقْرِنٌ لهذه، فسقط منها لِوَثْبَتِها واندَقَّتْ عنقُه، وينبغي ألا يكونَ ركوبُ العاقل للتنزه والتلذذ، بل للاعتبار، ويتأمل عندَه أنه هالك لا محالةَ، ومنقلبٌ إلى الله غيرُ منفلتٍ من قضائه.

《١٥》 ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾: متصلٌ بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض.. ليعترفُنَّ به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً؛ أي: قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً منه، كما يكون الولد جزءاً لوالده،

---

(١) رواه بنحوه أبو داود (٢٦٠٢) والترمذي (٣٤٤٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٤٨) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ....﴾

﴿جُزُؤًا﴾: أبو بكر وحماد[1]، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾: لَجَحودٌ للنعمة، ظاهرٌ جحودُه؛ لأن نسبة الولد إليه كفر، والكفرُ أصلُ الكفران كلِّه.

«١٦» ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: بل أَتَّخذَ؟ والهمزةُ للإنكار تجهيلاً وتعجباً من شأنهم؛ حيث ادَّعَوا أنه اختار لنفسه المنزلة الأدنى، ولهم الأعلى.

«١٧» ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً؛ أي: شَبَهاً؛ لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً لله وبعضاً منه.. فقد جعله من جنسه ومماثلاً له؛ لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنسَ ومِن حالهم أن أحدهم إذا قيل له: قد وُلدت لك بنتٌ.. اغتمَّ وارْبَدَّ وجهُه غيظاً وتأسفاً، وهو مملوءٌ من الكرب، والظُّلول بمعنى الصيرورة.

«١٨» ﴿أَوَمَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: أَوَيَجعل للرحمن من الولد مَن هذه الصفةُ المذمومةُ صفتُه، وهو أنه يَنْشَأُ في الحلية؛ أي: يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج الى مُجاثاة الخصوم[2]، ومجاراة الرجال.. كان غيرَ مبينٍ، ليس عنده بيانٌ، ولا يأتي ببرهان، وذلك لضعف عقولِهنَّ، قال مقاتل: لا تتكلمُ المرأة إلا وتأتي بالحجة عليها، وفيه أنه جعل النشأة في الزينة من المعايب، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك، ويتزين بلباس التقوى، و(مَنْ): منصوبُ المحلِّ؛ والمعنى: أَوَ جعلوا مَن ينشأ في الحلية؛ يعني: البناتِ لله عزَّ وجلَّ؟ ﴿يُنَشَّؤُا﴾: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ؛ أي: يُرَبَّى، قد جمعوا في كفرهم ثلاثَ كَفَرَاتٍ، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخسَّ النوعين، وجعلوه من الملائكة المكرمين فاستخفُّوا بهم.

«١٩» ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ أي: سَمَّوا وقالوا: إنهم إناثٌ، ﴿عند الرحمن﴾: مكيٌّ ومدنيٌّ وشاميٌّ[3]؛ أي: عنديةُ منزلةٍ ومكانةٍ، لا منزلٍ ومكانٍ، والعبادُ جمعُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٨).

(٢) جَاثَى الرجلُ خصمَه: إذا جثا كلُّ واحد منهما على ركبتيه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٨).

وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ....

عبد، وهو أَلْزَمُ في الحِجاج مع أهل العناد؛ لِتضادِّ بين العبودية والوِلاد، ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ وهذا تَهَكُّمٌ بهم؛ يعني: أنهم يقولون ذلك من غيرِ أن يستند قولُهم إلى علم، فإن الله لم يَضْطَرَّهم إلى علمِ ذلك، ولا تطرقُوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خَبَرٍ يوجب العلم، ولم يشاهدوا خلقَهم حتى يخبروا عن المشاهدة، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ التي شهدُوا بها على الملائكة من أنوثتِهم، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ عنها، وهذا وعيدٌ.

《٢٠》 ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ أي: الملائكةَ، تعلقت المعتزلةُ بظاهرِ هذه الآية في أن الله تعالى لم يشأِ الكفرَ من الكافر، وإنما شاء الإيمان، فإن الكفار ادَّعَوا أن الله شاء منهم الكفر، وما شاء منهم تركَ عبادة الأصنام، حيث قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ أي: لو شاء منّا أن نترك عبادة الأصنام.. لَمَنَعَنا عن عبادتها، ولكن شاء منّا عبادة الأصنام، واللهُ تعالى ردَّ عليهم قولَهم واعتقادَهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ القولِ ﴿مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يكذبون؛ ومعنى الآية عندنا: أنهم أرادوا بالمشيئة الرضا، وقالوا: لو لم يرضَ بذلك.. لعجَّلَ عقوبتَنا، أو لمنعنا عن عبادتها منعَ قهرٍ واضطرارٍ، وإذْ لم يفعل ذلك.. فقد رضي بذلك، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ﴾ الآيةَ، أو: قالوا هذا القولَ استهزاءً لا جِدًّا واعتقاداً، فأكذبهم الله تعالى فيه وجهَّلَهم؛ حيث لم يقولوا عن اعتقاد، كما قال مخبراً عنهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، وهذا حقٌّ في الأصل، ولكن لما قالوا ذلك استهزاءً.. كذَّبهم اللهُ بقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧]، وكذلك قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ [المنافقون: ١] ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] لأنهم لم يقولوه عن اعتقاد، وجعلوا المشيئة حجةً لهم فيما فعلوا باختيارهم، وظنوا أن الله لا يعاقبهم على شيء فعلوه بمشيئته، وجعلُوا أنفسَهم معذورين في ذلك، فردَّ الله تعالى عليهم.

《٢١》 ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾: من قبل القرآن، أو: من قبلِ قولِهم هذا، ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾: آخذون عاملون، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديرُه: أَشَهِدُوا خلقَهم أم آتيناهم كتاباً فيه أن الملائكة إناثٌ؟

《٢٢》 ﴿بَلْ قَالُوٓاْ﴾: بل لا حجةَ لهم يتمسكون بها، لا من حيث العِيانِ، ولا من حيث العقلُ، ولا من حيث السمعُ، إلا قولَهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: على دينٍ فقلدناهم،

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ .....

وهي من الأَمِّ وهو القصدُ، والأمةُ: الطريقةُ التي تُؤَمُّ؛ أي: تُقصد، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الظرفُ صلةٌ لـ(مهتدون)، أو: هما خبران.

《٢٣》 ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾: نبيٍّ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي: مُتَنَعِّمُوها، وهم الذين أَتْرَفَتْهُمُ النعمةُ؛ أي: أَبْطَرَتْهم، فلا يحبون إلا الشهواتِ والملاهي، ويَعَافُون مشاقَّ الدينِ وتكاليفَه[1]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وهذا تسلية للنبي ﷺ، وبيانٌ أن تقليد الآباء داءٌ قديم.

《٢٤》 ﴿قَٰلَ﴾: شاميٌّ وحفصٌ؛ أي: النذيرُ، ﴿قُلْ﴾: غيرُهما؛ أي: قيل للنذير: قل: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: أتتبعون آباءَكم ولو جئتُكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إنا ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

《٢٥》 ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فعاقبناهم بما استحقُّوه على إصرارهم، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

《٢٦》 ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكرْ إذْ قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ أي: بريءٌ، وهو مصدرٌ يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، والمذكر والمؤنث، كما تقول: رجلٌ عدلٌ، وامرأة عدلٌ، وقوم عدل؛ والمعنى: ذُو وذاتُ عدلٍ، ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

《٢٧》 ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: استثناءٌ منقطعٌ، كأنه قال: لكن الذي فطرني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾: يثبتني على الهداية.

《٢٨》 ﴿وَجَعَلَهَا﴾: وجعل إبراهيمُ عليه السلام كلمةَ التوحيد التي تكلم بها، وهي قولُه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾: في ذريته، فلا يزالُ فيهم من يُوَحِّدُ الله ويدعو إلى توحيده، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾: لعلَّ مَن أشرك منهم يرجعُ بدعاءِ مَن وَحَّدَ منهم، والترجِّيْ لإبراهيم.

---

(١) يَعافُون: يكرهون.

بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ....

《٢٩》 ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ يعني: أهلَ مكةَ، وهم مِن عَقِبِ إبراهيمَ، بالمدِّ في العمر والنعمة، فاغترُّوا بالمهلة، وشُغلوا بالتنعم واتباعِ الشهواتِ وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد، ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآنُ، ﴿وَرَسُولٌ﴾: محمدٌ عليه السلام، ﴿مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾: واضحُ الرسالة بما معه من الآيات البينة.

《٣٠》 ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: القرآنُ ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

《٣١》 ﴿وَقَالُوا۟﴾ فيه مُتَحَكِّمين بالباطل[1]: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾: فيه استهانةٌ به ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: رجلٍ عظيمٍ من إحدى القريتين، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدهما، والقريتان: مكةُ والطائفُ، وعَنَوا بعظيم مكةَ الوليدَ بنَ المغيرةِ، وبعظيم الطائف عروةَ بنَ مسعودٍ الثقفيَّ، وأرادوا بالعظيم مَن كان ذا مال وذا جاه، ولم يعرفوا أن العظيم مَن كان عند الله عظيماً.

《٣٢》 ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: النبوةَ، والهمزةُ للإنكار المستقلِّ بالتجهيل والتعجيب من تحكمهم في اختيار مَن يصلحُ للنبوة، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾: ما يعيشون به، وهو أرزاقُهم، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لم نجعل قسمةَ الأَدْوَنِ إليهم وهو الرزقُ، فكيف النبوةُ؟ أو: كما فَضَّلْتُ البعضَ على البعض في الرزق.. فكذا أَخُصُّ بالنبوة مَن أشاء، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: جعلنا البعض أقوياءَ وأغنياءَ ومواليَ، والبعضَ ضعفاءَ وفقراءَ وخَدَماً، ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾: لِيُصَرِّفَ بعضُهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مِهَنِهم، ويَتَسَخَّرُوهم في أشغالهم، حتى يتعايشوا ويصلوا إلى منافعهم، هذا بمالِه، وهذا بأعمالِه، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: النبوةُ، أو دينُ الله وما يتبعه من الفوز في المآب ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾: مما يجمع هؤلاءِ من حطامِ الدنيا، ولما قَلَّلَ أمرَ الدنيا وصغَّرها.. أردفَه بما يقرِّرُ قلة الدنيا عنده فقال:

---

(١) التحكُّمُ: هو الحكم بلا حجة.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ......

«٣٣» ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: ولولا كراهةُ أن يجتمعوا على الكفر ويُطبقُوا عليه ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لِحقارةِ الدنيا عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

«٣٤ - ٣٥» ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ أي: لجعلنا للكفار سقوفاً ومصاعدَ وأبواباً وسرراً كلُّها من فضة، وجعلنا لهم زُخرفاً؛ أي: زينةً من كل شيء، والزُّخْرُفُ: الذهبُ والزينةُ، ويجوز أن يكون الأصل سقفاً من فضةٍ وزخرفٍ؛ أي: بعضُها من فضة وبعضُها من ذهب، فنُصِبَ عطفاً على محلِّ ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾: بدلُ اشتمال مِن ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ ﴿سَقْفاً﴾: على الجنس: مكيٌّ وأبو عمرٍو ويزيدُ[1]، والمعارجُ: جمع مَعْرَج، وهي المصاعدُ إلى العَلالي، ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾: على المعارج يظهرون السطوح؛ أي: يَعْلُونها، ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (إن): نافيةٌ، و(لما) بمعنى إلا؛ أي: وما كلُّ ذلك إلا متاعُ الحياة الدنيا، وقد قرئ به، وقرأ ﴿لَمَا﴾: غيرُ عاصمٍ وحمزةَ؛ على أن اللام هي الفارقة بين إنِ المخففةِ والنافية، و(ما): صلةٌ؛ أي: وإنْ كلُّ ذلك لَمتاعُ الحياة الدنيا، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ أي: ثوابُ الآخرةِ ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾: لمن يتقي الشرك.

«٣٦» ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ وقرئ: ﴿وَمَنْ يَعْشَ﴾[2]، والفرقُ بينهما: أنه إذا حصلت الآفةُ في بصره.. قيل: عَشِيَ يَعْشَى، وإذا نظرَ نَظَرَ العُشْيِ ولا آفةَ به.. قيل: عَشا يعشُو؛ ومعنى القراءة بالفتح: ومَن يَعْمَ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن، كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] ومعنى القراءة بالضم: ومن يتعامَ عن ذكره؛ أي: يعرفْ أنه الحق وهو يتجاهلُ، كقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: نُسلطْه عليه فهو معه في الدنيا والآخرة، يحملُه على المعاصي، وفيه إشارة إلى أن مَن داومَ عليه.. لم يَقرِنْه الشيطانَ[3].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٩) وكذا القراءة الآتية.

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٥).

(٣) كذا في الأصل، والأولى أن يقال: لم يقرنه بالشيطانِ، ولعله نصب الشيطانَ بنزع الخافض؛ لأنه يقال: قَرنت الشيءَ بالشيء.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ....﴾

《٣٧》 ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطينَ ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾: ليمنعون العاشِين ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: عن سبيل الهدى، ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشُون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وإنما جُمِعَ ضميرُ (من) وضمير الشيطان؛ لأن (من) مبهمٌ في جنس العاشي، وقد قُيض له شيطانٌ مبهم في جنسه، فجاز أن يرجعَ الضمير إليهما مجموعاً.

《٣٨》 ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾: على الواحد: عراقيٌّ غيرَ أبي بكر؛ أي: العاشي، ﴿جاءانا﴾: غيرُهم[1]؛ أي: العاشي وقرينُه ﴿قَالَ﴾ لشيطانِه: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يريدُ: المشرقَ والمغربَ، فغَلَّبَ، كما قيل: العُمران والقَمَران، والمرادُ: بُعْدُ المشرق من المغرب، والمغربِ من المشرق، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ أنت.

《٣٩》 ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾: إذْ صحَّ ظلمُكم؛ أي: كفرُكم، وتبينَ، ولم يَبْقَ لكم ولا لأحد شبهةٌ في أنكم كنتم ظالمين، و(إذْ): بدلٌ من اليوم، ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (أنكم): في محل الرفع على الفاعلية؛ أي: ولن ينفعكم اشتراكُكُم في العذاب، أو كونُكم مشتركين في العذاب، كما كان عمومُ البلوى يُطَيِّبُ القلبَ في الدنيا، كقول الخنساء[2]: [من: الوافر]

ولولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ولا يبكون مثلَ أخي ولكن ... أعزي النفسَ عنه بالتأسِّي

أمّا هؤلاء.. فلا يُؤَسِّيهم اشتراكُهم، ولا يُرَوِّحُهم؛ لِعِظَم ما هم فيه، وقيل: الفاعلُ مضمرٌ؛ أي: ولن ينفعكم هذا التمني أو الاعتذار؛ لأنكم في العذاب مشتركون؛ لاشتراككم في سببه، وهو الكفر، ويؤيدُه قراءةُ مَن قرأ بالكسر.

《٤٠》 ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي: مَن فَقَدَ سَمْعَ القَبولِ، ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ أي: مَنْ فَقَدَ البصائرَ، ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾: ومن كان في علمِ اللهِ أنه يموت على الضلالة.

《٤١》 ﴿فَإِمَّا﴾ دخلت (ما) على (إنْ) توكيداً للشرط، وكذا النونُ الثقيلةُ في ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: نتوفينك قبل أن ننصرك عليهم ونشفيَ صدور المؤمنين منهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أشدَّ الانتقام في الآخرة.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٠).

(٢) البيتان في «ديوانها» (ص ٢٥٢).

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ....

«٤٢» ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ قبلَ أن نتوفينك؛ يعني: يومَ بدرٍ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾: قادرون، وصفَهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ...﴾ الآيةَ، ثم أوعدهم بعذاب الدنيا والآخرة بقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ...﴾ الآيتين.

«٤٣» ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾: فتمسَّكْ ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾: وهو القرآنُ، واعمَل به، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي: على الدِّين الذي لا عِوَجَ له.

«٤٤» ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإن الذي أُوحي إليك ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾: لشرفٌ لك، ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾: ولأمتك، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ عنه يوم القيامةِ، وعن قيامِكم بحقِّه، وعن تعظيمِكم له، وعن شكرِكم هذه النعمةَ.

«٤٥» ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ليس المرادُ بسؤالِ الرسل حقيقةَ السؤال، ولكنه مجازٌ عن النظر في أديانهم، والفحصِ عن مِلَلِهم، هل جاءت عبادةُ الأوثان قطُّ في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظراً وفحصاً نظرُه في كتاب الله المعجز، المصدِّقِ لما بين يديه، وإخبارُ الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، فهذه الآيةُ في نفسها كافيةٌ لا حاجةَ إلى غيرها، وقيل: إنه عليه السلام جُمِعَ له الأنبياءُ ليلة الإسراء فأمَّهم، وقيل له: سَلْهُم، فلم يَشْكُكْ ولم يسألْ، وقيل: معناه: سلْ أُمَمَ مَن أرسلنا، وهم أهل الكتابين؛ أي: التوراة والإنجيل، وإنما يُخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم.. فكأنه سأل الأنبياء؛ ومعنى هذا السؤال: لتقريرُ لعبدةِ الأوثان أنهم على الباطل، ﴿وَسَلْ﴾: بلا همزةٍ: مكيٌّ وعليٌّ[1]، ﴿رُسْلَنا﴾: أبو عمرٍو، ثم سلّى رسولَه ﷺ بقوله:

«٤٦» ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ما أجابُوه به عند قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ محذوفٌ دلَّ عليه قولُه:

«٤٧» ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهو مطالبتُهم إياه بإحضار البينة على دعواه، وإبرازِ الآيةِ ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾: يَسخرون منها، ويهزؤون بها، ويسمونها سحراً، و(إذا) للمفاجأة، وهو جوابُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨٩) وكذا القراءة الآتية.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ . . .

(فلمّا) لأن فعل المفاجأة معها مقدرٌ، وهو عاملُ النصبِ في محل (إذا)، كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا.. فاجؤوا وقتَ ضحكِهم.

《٤٨》 ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾: قرينتِها وصاحبتِها التي كانت قبلَها في نقض العادة، وظاهرُ النظم يدلُّ على أن اللاحقة أعظم من السابقة، وليس كذلك، بل المرادُ بهذا الكلام: أنهن موصوفاتٌ بالكِبَرِ، ولا يَكَدْن يتفاوتن فيه، وعليه كلام الناس، يقال: هما أخوان، كلُّ واحد منهما أكرمُ من الآخر[1]، ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾: وهو ما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] الآيةَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عن الكفر إلى الإيمان.

《٤٩》 ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحرٌ لتعظيمهم علمَ السحرِ، ﴿يا أيُّهُ الساحرُ﴾: بضمِّ الهاء بلا ألفٍ: شاميٌّ[2]، ووجهُهُ: أنها كانت مفتوحةً لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت لالتقاء الساكنين.. أُتْبِعَتْ حركتُها حركةَ ما قبلَها، ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: بعهدِه عندك مِن أن دعوتك مستجابةٌ، أو: بعهده عندك وهو النبوة، أو: بما عهد عندك من كشف العذاب عمَّن اهتدى، ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾: مؤمنون به.

《٥٠》 ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾: ينقضون العهد بالإيمان، ولا يَفُون به.

《٥١》 ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾: نادى بنفسه عظماء القِبْطِ، أو: أمر منادياً فنادى، كقولك: قطع الأمير اللصَّ: إذا أمر بقطعه، ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ جعلهم محلّاً لندائه، ومَوْقِعاً له، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهارُ النيل، ومعظمُها أربعةٌ، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾: من تحت قصري، وقيل: بين يديَّ في جِناني، والواوُ: عاطفةٌ لـ(الأنهار) على (ملك مصر)، و(تجري): نصبٌ على الحال منها، أو: الواوُ: للحال، واسمُ الإشارة: مبتدأٌ، و(الأنهارُ): صفةٌ لاسم

---

(١) في «تفسير البيضاوي» (٥/ ٩٢): إلا هي بالغةٌ أقصى درجاتِ الإعجازِ بحيث يحسَبُ الناظرُ فيها أنها أكبرُ مما يُقاس إليها من الآيات.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٠).

أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ....

الإشارة، و(تجري): خبرٌ للمبتدأ، وعن الرشيد أنه لما قرأها.. قال: لَأُوَلِّيَنَّها أخسَّ عبيدي، فولّاها الخصيبَ، وكان خادمَه على وضوئِه، وعن عبد الله بنِ طاهرٍ أنه وُلِّيها، فخرج إليها، فلما شارفها ووقعَ عليها بصرُه.. قال: أهي القريةُ التي افتخر بها فرعونُ حتى قال: أليس لي ملك مصر، والله لهي أقلُّ عندي من أن أدخلَها، فثنَى عِنانَه، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ قُوَّتِي وضعفَ موسى، وغنايَ وفقرَه؟

《٥٢》 ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ (أم): منقطعةٌ بمعنى: بل والهمزة، كأنه قال: أثبتَ عندكم واستقرَّ أني أنا خيرٌ وهذه حالي؟ ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾: ضعيفٌ حقيرٌ، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ الكلامَ لما كان به من الرُّتَّةِ[1].

《٥٣》 ﴿فَلَوْلَآ﴾: فهلّا ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾: حفصٌ ويعقوبُ وسهلٌ، جمعُ سِوارٍ، غيرُهم: ﴿أساورةٌ﴾: جمعُ أَسْوِرَةٍ، وأساويرُ: جمعُ إسْوارٍ، وهو: السِّوارُ، حُذِفَ الياءُ من أساويرَ، وعُوِّضَ منها التاءُ، ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ أرادَ بإلقاءِ الأَسْوِرَةِ عليه إلقاءَ مقاليدِ الملكِ إليه؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويدَ الرجل.. سَوَّرُوه بسوارٍ، وطَوَّقُوه بطوقٍ من ذهب، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾: يمشون معه يقترنُ بعضُهم ببعضٍ ليكونوا أعضادَه وأنصارَه وأعوانَه.

《٥٤》 ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾: استفزَّهم بالقول، واستزلَّهم، وعمل فيهم كلامُه، وقيل: طلب منهم الخفةَ في الطاعةِ، وهي الإسراع، ﴿فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾: خارجين عن دين الله.

《٥٥》 ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ آسَفَ: منقولٌ مِن: أَسِفَ أَسَفاً: إذا اشتدَّ غضبُه؛ ومعناه: أنهم أَفْرَطُوا في المعاصي فاستوجبوا أن يُعَجِّلَ لهم عذابُنا وانتقامُنا، وألا نَحْلُمَ عنهم.

《٥٦》 ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾: جمعُ سالفٍ، كخادمٍ وخَدَمٍ، ﴿سُلُفاً﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]: جمعُ سليفٍ؛ أي: فريقٍ قد سلف، ﴿وَمَثَلًا﴾: وحديثاً عجيبَ الشأن سائراً مسيرَ المثل، يُضربُ بهم

---

(١) الرُّتَّة: العُجْمة في الكلام، وعدم الوضوح فيه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٠) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾ ....

الأمثالُ، ويقال: مثلُكم مثلُ قوم فرعون، ﴿لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾: لمن يجيء بعدَهم؛ ومعناه: فجعلناهم قدوةً للآخِرين من الكفار، يقتدون بهم في استحقاقِ مثلِ عقابِهم، ونزولِه بهم؛ لإتيانهم بمثل أفعالهم، ومثلاً يُحَدَّثُون به.

《٥٧》 ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾: لما قرأ رسولُ الله ﷺ على قريش: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] غضبوا، فقال ابنُ الزِّبَعْرَى: يا محمدُ أخاصةٌ لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم؟ فقال: ألست تَزْعُمُ أن عيسى بنَ مريمَ نبيٌّ وتُثني عليه وعلى أمِّه خيراً؟ وقد علمتَ أن النصارى يعبدونهما، وعُزيرٌ يُعبدُ، والملائكة يُعبدون، فإن كان هؤلاء في النار.. فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتُنا معهم، ففرحوا وضحكُوا، وسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت هذه الآيةُ؛ والمعنى: ولما ضرَبَ ابنُ الزِّبَعْرَى عيسى ابنَ مريمَ مثلاً لآلهتهم، وجادل رسولَ الله ﷺ بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوۡمُكَ﴾: قُريشٌ ﴿مِنۡهُ﴾: من هذا المثلِ ﴿يَصِدُّونَ ٥٧﴾: يرتفع لهم جَلَبَةٌ وضَجيجٌ فرحاً وضحكاً بما سمعوا منه إسكاتَ النبيِّ ﷺ بجَدَلِه، ﴿يَصُدُّونَ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وعليٌّ والأعشى؛ من الصُّدود؛ أي: من أجل هذا المثلِ يصُدُّون عن الحق ويعرضون عنه، وقيل: من الصديد، وهو الجَلَبَةُ، وأنهما لغتان، نحوُ: يعكِفُ ويعكُفُ.

《٥٨》 ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخيرٍ من عيسى، فإذا كان عيسى مِن حَصَبِ النار.. كان أمرُ آلهتِنا هيِّناً، ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي: ما ضربوا هذا المثلَ ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾: إلا لأجل الجدلِ والغلبةِ في القول، لا لطلب المَيْزِ بين الحقِّ والباطلِ، ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾: لُدٌّ، شِدادُ الخصومة، دأبُهم اللَّجاجُ، وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لم يُرِدْ به إلا الأصنامُ؛ لأن (ما) لغير العقلاء، إلا أن ابن الزِّبَعْرَى بِخِداعه لمّا رأى كلام الله مُحتمِلاً لفظُه وجهَ العموم مع علمه بأن المراد به أصنامُهم لا غيرُ.. وجد للحيلة مَساغاً، فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكلِّ معبود غيرِ الله على طريق اللَّجاج والجدالِ وحبِّ المغالبةِ والمكابرةِ، وتَوَقَّحَ في ذلك، فتوقَّرَ رسولُ الله ﷺ حتى أجاب عنه ربُّه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ ....

《٥٩》 ﴿إِنْ هُوَ﴾: ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العبيد، ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾: وصيَّرْناه عِبرةً عجيبةً، كالمثل السائر لبني إسرائيل.

《٦٠》 ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بدلاً منكم، كذا قاله الزجاجُ[١]، وقال «جامعُ العلوم»: لجعلنا بدلكم، و(مِن) بمعنى البدل، ﴿يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾: يخلفونكم في الأرض، أو يخلفُ الملائكةُ بعضُهم بعضاً، وقيل: لو نشاء لِقدرتِنا على عجائبِ الأمور.. لجعلنا منكم: لَوَلَّدْنا منكم يا رجالُ ملائكةً يخلُفونكم في الأرض كما يخلُفكم أولادُكم، كما وَلَّدْنا عيسى من أنثى من غير فحلٍ؛ لتعرفُوا تَميُّزَنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة أجسامٌ لا تتولدُ إلا من أجسام، والقديمُ متعالٍ عن ذلك.

《٦١》 ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: وإن عيسى مما يُعلمُ به مجيءُ الساعة، وقرأ ابن عباس: ﴿لَعَلَمٌ للساعة﴾[٢]، وهو العلامةُ، أي: وإن نزوله عَلَمٌ للساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: فلا تَشُكُّنَّ فيها؛ من المرية وهو: الشكُّ، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ وبالياء فيهما: سهلٌ ويعقوبُ[٣]؛ أي: واتبعوا هدايَ وشرعي، أو رسولي، أو: هو أمرٌ لرسولِ الله ﷺ أن يقوله، ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي: هذا الذي أدعوكم إليه.

《٦٢》 ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن الإيمان بالساعة، أو عن الاتباع، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾: ظاهرُ العداوة؛ إذ أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور.

《٦٣》 ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالمعجزات، أو: بآيات الإنجيل والشرائع، البيناتُ: الواضحاتُ ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: بالإنجيل والشرائع، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو أمرُ الدين، لا أمرُ الدنيا، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٤١٧).

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٦١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩١) وكذا القراءتان الآتيتان.

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ....

«٦٤» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾: هذا تمامُ كلام عيسى عليه السلام.

«٦٥» ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾: الفِرَقُ المتحزبةُ بعد عيسى، وهم اليعقوبيةُ والنِّسطوريةُ والمَلْكانيةُ والشمعونيةُ، ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾: من بين النصارى، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ حيث قالوا في عيسى ما كفروا به، ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾: وهو يوم القيامة.

«٦٦» ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الضميرُ لقوم عيسى، أو للكفار، ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾: بدلٌ من الساعة؛ أي: هل ينظرون إلا إتيانَ الساعة، ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: وهم غافلون؛ لاشتغالهم بأمر دنياهم، كقوله: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

«٦٧» ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾: جمعُ خليل، ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾: يوم القيامة، ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: المؤمنين، انتصابُ (يومئذ) بـ(عدوٌّ) أي: تتقطعُ في ذلك اليوم كلُّ خُلَّةٍ بين المتخالِّين في غير ذات الله، وتنقلب عداوةً ومقتاً، إلا خلةَ المتصادقين في الله، فإنها الخُلَّةُ الباقية.

«٦٨» ﴿يا عِبادِيْ﴾: بالياءِ في الوصل والوقف: مدنيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو، وبفتح الياء: أبو بكر، الباقون: بحذف الياء، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾: هو حكايةٌ لما ينادَى به المتقون المتحابُّون في الله يومَئذٍ.

«٦٩» ﴿ٱلَّذِينَ﴾: منصوبُ المحلِّ صفةٌ لـ(عبادي) لأنه منادى مضاف، ﴿ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: صدقوا بآياتنا، ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ لله منقادين له.

«٧٠» ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ المؤمناتُ في الدنيا، ﴿تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾: تُسرُّون سُروراً يَظهرُ حُبارُه؛ أي: أثرُه على وجوههم.

«٧١» ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾: جمعُ صَحْفَةٍ، ﴿مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: من ذهب أيضاً،

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧)﴾ ....

والكوبُ: الكوزُ لا عُرْوَةَ له، ﴿وَفِيهَا﴾: وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وحفصٌ؛ بإثبات الهاء العائدة إلى الموصول، وحَذَفَها غيرُهم؛ لطول الموصول بالفعلِ والفاعلِ والمفعولِ، ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وهذا حصرٌ لأنواع النعم؛ لأنها إما مشتهيات في القلوب، أو مستلذة في العيون، ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)﴾.

《٧٢》 ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾ (تلك): إشارةٌ إلى الجنة المذكورة، وهي مبتدأٌ، والجنةُ خبرٌ، و(التي أورثتموها): صفةُ الجنة، أو: الجنةُ: صفةٌ للمبتدأ الذي هو اسمُ الإشارة، و(التي أورثتموها): خبرُ المبتدأ، أو: (التي أورثتموها): صفةُ المبتدأ، و(بما كنتم تعملون): الخبرُ، والباءُ: تتعلقُ بمحذوف؛ أي: حاصلةٌ أو كائنةٌ، كما في الظروف التي تقع أخباراً، وفي الوجه الأول: تتعلق بـ(أورثتموها)، وشُبِّهَتْ في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة.

《٧٣》 ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾ (من): للتبعيض؛ أي: لا تأكلون إلا بعضَها، وأعقابُها باقيةٌ في شجرها، فهي مُزَيَّنَةٌ بالثمار أبداً، وفي الحديث: «لا يَنْزِعُ رجلٌ في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانَها مِثلاها»[1].

《٧٤》 ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤)﴾: خبرٌ بعدَ خبرٍ.

《٧٥》 ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾: خبرٌ آخرُ؛ أي: لا يُخففُ ولا يُنقصُ، ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾: في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ (٧٥)﴾: آيِسُون من الفرَجِ مُتحيرون.

《٧٦》 ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦)﴾ (هم): فَصْلٌ.

《٧٧》 ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ لمّا أَيِسُوا من فتور العذاب.. نادوا: يا مالكُ، وهو خازن النار، وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: ﴿يا مالِ﴾[2] فقال: ما أشغلَ أهلَ النارِ عن الترخيم[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ١٨٥) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

(٢) انظر القراءة في «المحرر الوجيز» (٥/ ٦٤).

(٣) وجه ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٥٧) هذه القراءة الشاذةَ بأنهم لِعِظَمِ ما هم عليه ضعفت قُواهم، وذلت أنفسهم، وصغر كلامهم؛ فكان هذا من مواضع الاختصار ضرورة عليه، ووقوفاً دون تجاوزه إلى ما يستعمله المالك لقوله، القادرُ على التصرف في مَنْطِقِهِ.

لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ....

﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: لِيُمِتْنا؛ مِن: قضى عليه: إذا أماته، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] والمعنى: سَلْ ربك أن يقضيَ علينا، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾: لابِثون في العذاب لا تتخلصون عنه بموتٍ ولا فُتور.

《٧٨》 ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾: كلامُ الله تعالى، ويجب أن يكون في (قال) ضميرُ الله، لما سألوا مالكاً أن يسألَ اللهَ القضاءَ عليهم.. أجابهم اللهُ بذلك، وقيل: هو متصل بكلام مالك، والمرادُ بقوله: (جئناكم): الملائكةُ؛ إذ هم رسلُ الله، وهو منهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾: لا تقبلونه، وتنفُرون منه؛ لأن معَ الباطلِ الدَّعَةَ، ومع الحقِّ التعبَ.

《٧٩》 ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾: أم أحكمَ مُشركُو مكةَ أمراً مِن كيدهم ومكرهم بمحمد ﷺ، ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ كيدَنا كما أبرموا كيدَهم، وكانوا يتنادَون فيتناجَون في أمر رسول الله ﷺ في دار الندوة.

《٨٠》 ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾: حديثَ أنفسِهم، ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾: ما يتحدثون فيما بينهم ويُخفونه عن غيرِهم، ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعُها ونطلعُ عليها، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي: الحفظةُ ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾: عندهم يكتبون ذلك، وعن يحيى بن معاذ: مَن ستر من الناس ذنوبَه وأبداها لمن لا تخفى عليا خافيةٌ.. فقد جعله أهونَ الناظرين إليه، وهو من أمارات النفاق.

《٨١》 ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ وصحَّ ذلك ببرهان ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾: فأنا أولُ من يعظمُ ذلك الولدَ، وأسبِقكم إلى طاعته والانقيادِ له، كما يُعظمُ الرجلُ ولدَ المَلِكِ لتعظيم أبيه، وهذا كلام وارد على سبيل الفَرْضِ، والمرادُ نفيُ الولد، وذلك أنه عَلَّقَ العبادةَ بكينونة الولد، وهي مُحالٌ في نفسها، فكان المعلَّقُ بها محالاً مثلَها، ونظيرُه: قولُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ للحَجاج حين قال له: والله لَأُبْدِلَنَّكَ بالدنيا ناراً تلظَّى: لو عرفتُ أن ذلك إليك.. ما عبدتُ إلهاً غيرَك، وقيل: إن كان للرحمن ولدٌ في زعمكم.. فأنا أول العابدين؛ أي: الموحدين لله، المكذبين قولَكم بإضافة الولد إليه، وقيل: إن كان للرحمن ولدٌ في زعمكم.. فأنا أول الآنِفين من أن يكون له ولدٌ؛ مِن: عَبِدَ يَعْبَدُ: إذا اشتدَّ أَنَفُه، فهو عَبِدٌ وعابدٌ، وقرئ: ﴿العَبِدِينَ﴾[1]، وقيل: هي (إن) النافيةُ؛ أي: ما كان للرحمن ولدٌ، فأنا أول مَن قال بذلك وعَبَدَ وَوَحَّدَ، وروي: أن النضر قال:

---

(١) انظر «المحتسب» (٢/٢٥٧).

سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ....

إنَّ الملائكةَ بناتُ الله فنزلت، فقال النضر: ألا تَرَوْنَ أنه صَدَّقني؟ فقال له الوليدُ: ما صدَّقَك ولكن قال: ما كان للرحمن ولدٌ، فأنا أول الموحِّدين من أهل مكة أنْ لا ولدَ له، ﴿وُلْدٌ﴾: حمزةُ وعليٌّ[١]، ثم نَزَّهَ ذاتَه عن اتخاذ الولد فقال:

《٨٢》 ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: هو ربُّ السموات والأرض والعرش، فلا يكون جسماً؛ إذْ لو كان جسماً.. لم يقدرْ على خلقِها، وإذا لم يكنْ جسماً.. لا يكون له ولدٌ؛ لأن التولُّدَ من صفة الأجسام.

《٨٣》 ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ﴾ في باطلهم، ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ في دنياهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: القيامةَ، وهذا دليلٌ على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب.

《٨٤》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٌۚ﴾ ضُمِّنَ اسمُه تعالى معنى وصفٍ فلذلك عُلِّقَ به الظرفُ في قوله (في السماء) و(في الأرض) كما تقول: هو حاتِمٌ في طَيٍّ، وحاتِمٌ في تغلبَ، على تضمين معنى الجَوادِ الذي شُهِرَ به، كأنك قلت: هو جوادٌ في طَيٍّ، جوادٌ في تغلبَ، وقرئَ: ﴿وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله﴾[٢]، ومثلُه قولُه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الأنعام: ٣]، فكأنه ضُمِّنَ معنى المعبود، والراجعُ إلى الموصول محذوفٌ؛ لطول الكلام، كقولهم: ما أنا بالذي قائلٌ لك شيئاً، والتقديرُ: وهو الذي هو في السماء إله، و(إلهٌ): يرتفع على أنه خبر مبتدأ مضمر، ولا يرتفعُ (إلهٌ) بالابتداء، وخبرُه: (في السماء) لخلوِّ الصلةِ حينئذ من عائدٍ يعود إلى الموصول، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، ﴿ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ بما كان ويكون.

《٨٥》 ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علمُ قيامِها، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ﴿يُرجَعون﴾: مكيٌّ وحمزةُ وعليٌّ[٣].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩١).

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٣٤).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩١) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

《٨٦》 ﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ آلهتُهم ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾: من دون الله ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤُهم عند الله، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ولكن من شهد بالحقِّ بكلمة التوحيد، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أن الله ربُّهم حقّاً، ويعتقدون ذلك، هو الذي يملك الشفاعة، وهو استثناءٌ منقطع، أو متصلٌ؛ لأن في جملة الذين يدعون من دون الله الملائكةَ.

《٨٧》 ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لا الأصنامُ والملائكةُ، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾: فكيف، أو: من أين يُصْرَفُون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟

《٨٨》 ﴿وَقِيلِهِۦ﴾: بالجرِّ: عاصمٌ وحمزةُ؛ أي: وعنده علمُ الساعةِ وعلمُ قيلِه: ﴿يَٰرَبِّ﴾ والهاءُ يعودُ إلى محمد ﷺ؛ لتقدم ذكرِه في قولِه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾، وبالنصب: الباقون؛ عطفاً على محلِّ الساعة؛ أي: يعلم الساعةَ ويعلمُ قيلَه؛ أي: قيلَ محمدٍ: يا ربِّ، والقِيلُ والقولُ والقالُ والمقالُ واحدٌ، ويجوزُ أن يكون الجرُّ والنصبُ على إضمار حرفِ القسمِ وحذفِه، وجوابُ القسم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ كأنه قيل: وأُقسمُ بقيلِه: يا ربِّ إن هؤلاء لا يؤمنون، وإقسامُ الله بقيلِه رفعٌ منه، وتعظيمٌ لدعائه والتجائِه إليه.

《٨٩》 ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾: فأعرض عن دعوتِهم يائساً عن إيمانهم، وَوَدِّعْهم وتارِكْهم، ﴿وَقُلْ﴾ لهم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: تسلُّمٌ منكم ومتاركةٌ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾: وعيدٌ من الله لهم، وتسليةٌ لرسول الله ﷺ، وبالتاء: مدنيٌّ وشاميٌّ.



﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ ....

سورة الدخان

تسعٌ وخمسون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

في الخبر: «من قرأها ليلة جمعة. . أصبح مغفوراً له»[١].

《١ - ٢》 ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ أي: القرآنِ، الواوُ في (والكتاب): واوُ القسم إن جعلت (حم) تعديداً للحروف، أو اسماً للسورة مرفوعاً على خبر الابتداء المحذوف، وواوُ العطف إن كانت (حم) مقسماً بها، وجوابُ القسم:

《٣》 ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: ليلةِ القدرِ، أو ليلةِ النصف من شعبانَ، وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلةً، والجمهورُ على الأول؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]، وقولِه: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وليلةُ القدر في أكثرِ الأقاويلِ في شهر رمضانَ، ثم قالوا: أنزلَه جملةً من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزلَ به في وقت وقوع الحاجة إلى نبيه محمدٍ ﷺ[٢]، وقيل: ابتداءُ نزوله في ليلة القدر، والمباركةُ: الكثيرةُ الخير؛ لما ينزل فيها من الخير والبركة، ويستجابُ من الدعاء، ولو لم يوجد فيها إلا إنزالُ القرآن وحدَه. . لكفى به بركةً، ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

《٤》 ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان[٣]، فُسِّرَ بهما جوابُ القسم، كأنه قيل: أنزلناه؛ لأن من شأننا الإنذارَ والتحذيرَ من العقاب، وكان إنزالُنا إياه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمةِ، وهذه الليلةُ مَفْرَقُ كلِّ أمر حكيم، ومعنى

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روى النسائي السنن الكبرى (٧/ ٢٤٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه قال: «فُصِلَ القرآنُ من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعلَ جبريلُ عليه السلام ينزلُ على النبي ﷺ يرتله ترتيلاً».

(٣) أي: قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ لُفَّ فيه معنيان: إنزال القرآن، واختصاصه بليلة مباركة، ثم علل المعنى الأول بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾، والمعنى الثاني بقوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ فالتعليلُ نَشْرٌ بعد اللفِّ. انظر «فتوح الغيب» (١٤/ ١٩٣)، وفي «الإكليل» (٦/ ٥٠٧): ملفوفتان: مقرونتان مجموعتان مسرودتان كلتاهما لتعليل جملة واحدة.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ ......

(يُفرق): يُفصلُ ويُكتبُ كلُّ أمر من أرزاق العباد وآجالِهم وجميعِ أمورِهم من هذه الليلة إلى ليلة القدر التي تجيءُ في السنة المقبلة، ﴿حَكِيمٍ ۝٤﴾: ذي حكمةٍ؛ أي: مفعولٍ على ما تقتضيه الحكمةُ، وهو من الإسناد المجازي؛ لأن الحكيم صفةُ صاحب الأمر على الحقيقة، ووصفَ الأمرُ به مجازاً.

《٥》 ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾: نصبٌ على الاختصاص، جَعَلَ كلَّ أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالةً وفخامةً بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، كما اقتضاه علمُنا وتدبيرُنا، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾: بدلٌ من ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

《٦》 ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: مفعولٌ له؛ على معنى: إنا أنزلنا القرآن؛ لأن من شأننا إرسالَ الرسل بالكتب إلى عبادنا؛ لأجل الرحمة عليهم، أو تعليلٌ[1] لقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، و(رحمة): مفعولٌ به[2]، وقد وَصَفَ الرحمة بالإرسال، كما وصفها به في قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، والأصلُ: إنا كنا مرسلين رحمةً منا، فوُضِعَ الظاهرُ موضع الضمير؛ إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم، ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ بأحوالهم.

《٧》 ﴿رَبِّ﴾: كوفيٌّ بدلٌ من (ربك)، وغيرُهم: بالرفع[3]؛ أي: هو ربُّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾ ومعنى الشرط: أنهم كانوا يُقرُّون بأن للسموات والأرض رباً وخالقاً، فقيل لهم: إن إرسال الرسل، وإنزال الكتب رحمةٌ من الربِّ، ثم قيل: إن هذا الربَّ هو السميع العليمُ الذي أنتم مُقرُّون به ومعترفون بأنه ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كان إقرارُكم عن علم وإيقان، كما تقول: إن هذا إنعامُ زيدٍ الذي تسامع الناس بكرمِهِ إن بلغك حديثُه وحُدِّثْتَ بقصتِه.

《٨》 ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو ربُّكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾: عطفٌ عليه، ثم ردَّ أن يكونوا موقنين بقوله:

---

(١) أي: قوله: (إنا كنا مرسلين) تعليل.

(٢) وناصبه: (مرسلين).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩١).

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾ ....

《٩》 ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾: وإن إقرارهم غيرُ صادر عن علم وتيقُّنٍ، بل قولٌ مخلوطٌ بهزؤ ولعب.

《١٠》 ومفعولُ ﴿فَارْتَقِبْ﴾: فانتظرْ: ﴿يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ يأتي من السماء قبلَ يومِ القيامةِ، يدخلُ في أسماع الكَفَرَةِ حتى يكون رأسُ الواحد كالرأس الحنيذ، ويعتري المؤمنَ منه كهيئة الزُّكام، وتكون الأرض كلُّها كبيتٍ أُوقد فيه، ليس فيه خَصاصٌ[١]، وقيل: إن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ.. دعا عليهم فقال: «اللهم اشدُدْ وطأتَك على مُضرَ، واجعلها عليهم سنينَ كَسِنِيْ يوسفَ»، فأصابهم الجَهدُ حتى أكلوا الجِيَفَ والعِلْهِزَ[٢]، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخانَ، وكان يحدث الرجلَ فيسمع كلامَه ولا يراه من الدخان[٣]، ﴿مُّبِينٍ ۝١٠﴾: ظاهرٌ حالُه لا يَشُكُّ أحدٌ في أنه دخان.

《١١ - ١٢》 ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾: يَشملُهم ويَلْبَسُهم، وهو في محلِّ الجرِّ صفةٌ لـ(دخان)، وقولُه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ أي: سنؤمنُ إن تكشف عنا العذاب.. منصوبُ المحل بفعلٍ مضمرٍ، وهو يقولون، ويقولون: منصوبُ المحلِّ على الحال؛ أي: قائلين ذلك.

《١٣ - ١٤》 ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾: كيف يذكرون ويتعظون ويَفُون بما وَعَدُوه من الإيمان عند كشف العذاب، ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾ أي: وقد جاءهم ما هو أعظمُ وأَدْخَلُ في وجوب الادِّكارِ من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات والبينات؛ من الكتاب المعجز وغيره، فلم يَذَّكَّرُوا وتولوا عنه وبَهَتُوه بأن عدّاساً غلاماً أعجميّاً لبعض ثَقيفٍ هو الذي عَلَّمَه، ونسبوه إلى الجنون.

《١٥》 ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾: زماناً قليلاً، أو كشفاً قليلاً، ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾ إلى الكفر الذي كنتُم فيه، أو إلى العذاب.

---

(١) الخَصاصُ: الفُرَجُ والخُروق.

(٢) العلهز: طَعامٌ من الدَّم والوَبَر.

(٣) روى نحوه الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/٦٠٦) عن مسروقٍ، والمرفوعُ منه رواه البخاري (٨٠٤) ومسلم (٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ ....

《١٦》 ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾: هي يومُ القيامة أو يومُ بدرٍ، ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: ننتقمُ منهم في ذلك اليوم، وانتصابُ (يوم نبطش) بـ: اذكر، أو بما دل عليه: (إنا منتقمون)، وهو: ننتقم، لا بـ(منتقمون) لأن ما بعد (إنَّ) لا يعمل فيما قبلَها.

《١٧》 ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾: قبل هؤلاء المشركين؛ أي: فعلنا بهم فعلَ المختبِرِ؛ ليظهرَ منهم ما كان باطناً ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين، أو: كريم في نفسه، حسيبٌ نسيبٌ؛ لأن الله تعالى لم يبعث نبيّاً إلا من سَراةِ قومِه وكِرامِهم.

《١٨》 ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ﴾ هي (أن) المفسرةُ؛ لأن مجيء الرسول إلى مَن بُعِثَ إليهم متضمنٌ لمعنى القول؛ لأنه لا يَجيئُهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله، أو مخففةٌ من الثقيلة؛ ومعناه: وجاءهم بأنَّ الشأنَ والحديثَ أدُّوا إليَّ: سَلِّمُوا إليَّ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾: هو مفعولٌ به، وهم بنو إسرائيلَ، يقول: أدُّوهم إليَّ وأرسلُوهم معي، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، ويجوز أن يكون نداءً لهم على معنى: أدوا إليَّ عبادَ الله، وما هو واجبٌ لي عليكم من الإيمان لي، وقبول دعوتي، واتباع سبيلي، وعلَّلَ ذلك بقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: على رسالتي غيرُ متَّهم.

《١٩》 ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (أنْ) هذه مثلُ الأولى في وَجْهَيْها؛ أي: لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووَحْيِه، أو: لا تستكبروا على نبيِّ الله، ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾: بحجةٍ واضحةٍ تدلُّ على أني نبيٌّ.

《٢٠》 ﴿وَإِنِّى عُذْتُ﴾ ﴿عُدتُّ﴾: مدغمٌ: أبو عمرٍو وحمزةُ وعليٌّ[1]، ﴿بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾: أن تقتلوني رجماً؛ ومعناه: أنه عائذٌ بربه، متكلٌ على أنه يعصِمُه منهم ومن كيدِهم، فهو غيرُ مبالٍ بما كانوا يتوعدونه من الرجم والقتل.

《٢١》 ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ أي: إن لم تؤمنوا لي.. فلا موالاةَ بيني وبينَ مَن لا يُؤمنُ، فتنحَّوا عني، أو: فخلوني كَفافاً لا لي ولا عليَّ، ولا تتعرضُوا لي بِشَرِّكُم، وأذاكُم،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٣).

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ....

فليس جزاءُ مَن دعاكم إلى ما فيه فلاحُكُم ذلك، ﴿ترجموني﴾ ﴿فاعتزلوني﴾: في الحالتين: يعقوبُ[(١)].

《٢٢》 ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ شاكياً قومَه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: بأن هؤلاء؛ أي: دعا ربَّه بذلك، قيل: كان دعاؤُه: اللهمَّ عَجِّلْ لهم ما يستحقونه بإجرامِهم، وقيل: هو قولُه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]، وقرئ: ﴿إنَّ هؤلاءِ﴾: بالكسر[(٢)]؛ على إضمار القول؛ أي: فدعا ربَّه فقال: إن هؤلاء.

《٢٣》 ﴿فَأَسْرِ﴾: مِن: أسرى، ﴿فَاسْرِ﴾: بالوصل: حجازيٌّ[(٣)]؛ من: سرى، والقولُ مضمرٌ بعد الفاء؛ أي: فقال: أَسْرِ ﴿بِعِبَادِى﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: دَبَّرَ اللهُ أن تتقدمُوا ويتبعكم فرعونُ وجنودُه، فينجِّيْ المتقدمين، ويُغرقُ التابعين.

《٢٤》 ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾: ساكناً، أراد موسى عليه السلام لما جاوزَ البحرَ أن يضربَه بعصاه فينطبقَ، فأُمِرَ بأن يتركه ساكناً على هيئته قارّاً على حاله من انتصاب الماء، وكونِ الطريقِ يَبَساً، لا يضربُه بعصاه، ولا يُغيِّرُ منه شيئاً؛ ليدخله القِبْطُ، فإذا حَصَلُوا فيه.. أطبقه الله عليهم، وقيل: الرَّهْوُ: الفَجوةُ الواسعةُ؛ أي: اتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً، ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ بعد خروجكم من البحر، وقرئَ بالفتح؛ أي: لأنهم.

《٢٥ - ٢٦》 ﴿كَمْ﴾: عبارةُ عن الكثرة، منصوبٌ بقوله: ﴿تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ هو: ما كان لهم من المنازل الحسنة، وقيل: المنابر.

《٢٧》 ﴿وَنَعْمَةٍ﴾: تَنَعُّم ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾: متنعمين.

《٢٨》 ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ كذلك، فالكاف في موضع الرفع، على أنه خبرُ مبتدأ مضمر، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾: ليسوا منهم في شيء من قرابةٍ، ولا دينٍ، ولا ولاءٍ، وهم بنو إسرائيل.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٢٩٢).

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٤٠١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٢).

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ....

《٢٩》 ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لأنهم ماتوا كفاراً، والمؤمنُ إذا مات.. تبكي عليه السماء والأرض، فيبكي على المؤمن مِن الأرض مُصلّاه، ومن السماء مَصْعَدُ عَمَلِه، وعن الحسن: أهلُ السماء والأرض، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لم يُنظروا إلى وقت آخرَ، ولم يُمهَلوا.

《٣٠》 ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: الاستخدامِ والاستعبادِ وقتلِ الأولاد.

《٣١》 ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾: بدلٌ مِن (من العذاب المهين) بإعادة الجارِّ، كأنه نفسُه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيبهم وإهانتِهم، أو: خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: ذلك من فرعون، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾: متكبراً، ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾: خبرٌ ثانٍ؛ أي: كان متكبراً مسرفاً.

《٣٢》 ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: حالٌ من ضمير الفاعل؛ أي: عالِمين بمكان الخِيَرَة، وبأنهم أحقّاءُ بأن يُختارُوا، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾: على عالَمِي زمانِهم.

《٣٣》 ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفَلْقِ البحرِ، وتظليل الغمام، وإنزالِ المنِّ والسلوى، وغيرِ ذلك، ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾: نعمةٌ ظاهرة، أو: اختبارٌ ظاهر لِنَنْظُرَ كيف تعملون.

《٣٤》 ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفارَ قريشٍ ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

《٣٥》 ﴿إِنْ هِىَ﴾: ما الموتةُ ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ والإشكالُ: أن الكلام وقعَ في الحياة الثانية، لا في الموت، فهلّا قيل: إن هي إلا حياتُنا الدنيا، وما معنى ذكرِ الأُولى؟ كأنهم وُعِدُوا موتةً أخرى حتى جحدُوها وأَثْبَتُوا الأولى، والجوابُ أنه قيل لهم: إنكم تموتون موتةً تتعقبُها حياةٌ، كما تقدمتْكم موتةٌ قد تَعَقَّبَتْها حياةٌ، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى؛ يريدون: ما الموتةُ التي من شأنها أن يتعقبَها حياةٌ إلا الموتةُ الأولى، فلا فرقَ إذاً بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] في المعنى، ويحتملُ أن يكون هذا إنكاراً لما في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾: بمبعوثين، يُقال: أنشر اللهُ الموتى ونَشَرَهم: إذا بَعَثَهم.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ ....

«٣٦» ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾: خطابٌ للذين كانوا يَعِدُونَهم النشورَ من رسول الله ﷺ والمؤمنين، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: إن صَدَقْتُم فيما تقولون.. فعَجِّلُوا لنا إحياءَ من مات من آبائنا بسؤالِكم ربَّكم ذلك حتى يكون دليلاً على أن ما تَعِدُونَه من قيام الساعة وبعثِ الموتى حقٌّ.

«٣٧» ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمَنَعَةِ ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾: هو تُبَّعٌ الحميريُّ، كان مؤمناً وقومه كافرين، وقيل: كان نَبيّاً، وفي الحديث: «ما أدري أكان تُبَّعٌ نبيّاً أو غيرَ نبي»[1]، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: مرفوعٌ بالعطف على (قوم تبع)، ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾: كافرين منكرين للبعث.

«٣٨» ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وما بين الجنسين، ﴿لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾: حالٌ، ولو لم يكن بعثٌ ولا حسابٌ ولا ثوابٌ.. كان خلقُ الخلقِ للفناء خاصةً، فيكون لعباً.

«٣٩» ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: بالجدِّ: ضدُّ اللعب، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أنه خلق لذلك.

«٤٠» ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل، وهو يومُ القيامةِ ﴿مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾: وقتُ موعِدِهم كلِّهم.

«٤١» ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾: أيُّ وليٍّ كان، عن أيِّ وليٍّ كان.. شيئاً من إغناءٍ؛ أي: قليلاً منه، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ الضميرُ للمولى؛ لأنهم في المعنى كثيرٌ؛ لتناول اللفظ على الإبهام والشياعِ كلَّ مولىً.

«٤٢» ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ﴾: في محلِّ الرفع على البدل من الواو في (ينصرون) أي: لا يُمنعُ من العذاب إلا من رَحِمَهُ الله، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ على أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ لأوليائه.

«٤٣» ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾: هي على صورة شجر الدنيا، لكنها في النار، والزَّقُّومُ: ثمرُها، وهو كلُّ طعامٍ ثقيلٍ.

---

(١) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٨/ ٣٥٤).

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ ....

《٤٤》 ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾: هو الفاجرُ الكثيرُ الآثام، وعن أبي الدرداء أنه كان يُقرئُ رجلاً فكان يقول: طعامُ اليتيم[1]، فقال: قلْ: طعامُ الفاجرِ يا هذا، وبهذا يُستدلُّ على أن إبدالَ الكلمةِ مكانَ الكلمةِ جائزٌ إذا كانت مؤدِّيةً معناها[2]، ومنه أجاز أبو حنيفة رضي الله عنه القراءةَ بالفارسيةِ بشرطِ أن يؤديَ القارئُ المعانيَ على كمالها من غير أن يَخْرِمَ منها شيئاً، قالوا: وهذه الشريطةُ تشهد أنها إجازةٌ كَلَا إجازةٍ؛ لأن في كلام العرب؛ خصوصاً في القرآنِ الذي هو معجزٌ بفصاحته وغرابة نظمِه وأساليبه.. من لطائف المعاني والدقائقِ ما لا يستقلُّ بأدائه لسانٌ من فارسية وغيرِها، ويُروَى رجوعُه إلى قولهما، وعليه الاعتمادُ[3].

《٤٥》 ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ هو: دُرْدِيُّ الزيت، والكافُ: رفعٌ خبرٌ بعد خبر، ﴿تَغْلِيْ في البطونِ﴾ وبالياء: مكيٌّ وحفصٌ[4]، فالتاءُ للشجرة، والياءُ للطعام.

《٤٦》 ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ أي: الماءُ الحارُّ الذي انتهى غَلَيانُه؛ ومعناه: غَلْياً كَغَلْيِ الحميم، فالكافُ منصوبُ المحل، ثم يقال للزبانية:

《٤٧》 ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الأثيمَ، ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾: فقُودُوه بعنفٍ وغِلْظَةٍ، ﴿فاعتُلُوه﴾: مكيٌّ ونافعٌ وشاميٌّ وسهلٌ ويعقوبُ، ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾: إلى وَسَطِها ومُعظمِها.

《٤٨》 ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ المصبوبُ هو الحميمُ لا عذابُه، إلا أنه إذا صُبَّ عليه الحميمُ.. فقد صُبَّ عليه عذابُه وشدَّتُه، وصَبُّ العذابِ استعارةٌ[5]، ويقال له:

---

(١) في «الكشاف» (٤/ ٢٨٤): (طعامُ اليثيم).

(٢) هذا الاستدلال غير صحيح، وقول أبي الدرداء إن صحَّ محمولٌ على إيضاح المعنى؛ ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوناً له على أن يأتيَ بالقراءة كما أنزلت، ويحرم إبدال كلمة بغيرها؛ للإجماع على تحريم نقلِ القرآنِ بالمعنى. انظر «حاشية الانتصار على الكشاف» (٥/ ٤٧٦) و«مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٢/ ٧٣١).

(٣) الأصحُّ رجوعُ أبي حنيفة إلى قول صاحبيه أبي يوسف ومحمد رحمهم الله أن القراءة بالفارسيةَ إنما تجوز للعاجز عن العربية. انظر «حاشية ابن عابدين» (١/ ٤٨٥).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٢) وكذا القراءة الآتية.

(٥) حيث شبه العذابُ بشيءٍ يُصَبُّ كالماء، وحذف المشبهُ به، ورُمِزَ له بشيء من لوازمه وهو الصبُّ، فهي استعارة تصريحية تبعية.

ﱡذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ....

《٤٩》 ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾: على سبيل الهزءِ والتَّهكم، ﴿أَنَّكَ﴾ أي: لأنك: عليٌّ[1].

《٥٠》 ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: العذابَ، أو هذا الأمرَ هو ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾أي: تَشُكُّون.

《٥١》 ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾: بالفتح، وهو موضِعُ القيام، والمرادُ: المكانُ، وهو من الخاصِّ الذي وقع مستعملاً في معنى العموم[2]، وبالضمِّ: مدنيٌّ وشاميٌّ[3]، وهو موضعُ الإقامة، ﴿أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾: مِن أَمِنَ الرجلُ أمانةً فهو أمينٌ، وهو ضدُّ الخائن، فوُصِفَ به المكانُ استعارةً؛ لأن المكان المُخِيْفَ كأنما يُخوِّفُ صاحبَه بما يَلقَى فيه من المكاره.

《٥٢》 ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾: بدلٌ من (مقام أمين).

《٥٣》 ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾: ما رَقَّ من الديباج، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: ما غَلُظَ، وهو تعريبُ إستبر، واللفظُ إذا عُرِّبَ.. خرج مِن أن يكون أعجميّاً؛ لأن معنى التعريب أن يُجعلَ عربيّاً بالتصرف فيه، وتغييرِه عن منهاجه، وإجرائِه على أَوْجُهِ الإعرابِ، فساغ أن يقع في القرآنِ العربيِّ[4]، ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ في مجالسهم، وهو أتمُّ للأُنس.

《٥٤》 ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ: مرفوعةٌ؛ أي: الأمرُ كذلك، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾: وقَرَنّاهم، ولهذا عُدِّيَ بالباء، ﴿بِحُورٍ﴾: جمعُ حَوراءَ، وهي الشديدةُ سوادِ العين، والشديدةُ بياضِها، ﴿عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾: جمعُ عَيناءَ، وهي الواسعة العينِ.

《٥٥》 ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾: يطلُبون في الجنة، ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ من الزوالِ والانقطاعِ وتولدِ الضررِ من الإكثار.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٢).

(٢) أي: الأصل أن المَقام: موضع القيام فقط، ثم استعمل في مطلق المكان، فيقال لموضع القعود والاضطجاع: مَقام. انظر «الإكليل» (٦/ ٥١٩).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٢).

(٤) قال الإمام الغزالي في «المستصفى» (ص ٨٥): اشتمالُ جميع القرآن على كلمتين أو ثلاث أصلُها عَجَمِيٌّ وقد استعملتها العربُ ووقعت في ألسنتهم.. لا يُخرجُ القرآن عن كونه عربيّاً وعن إطلاقِ هذا الاسمِ عليه.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

《٥٦》 ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿الْمَوْتَ﴾ ألبتة، ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ أي: سوى الموتةِ الأولى التي ذاقُوها في الدنيا، وقيل: لكنَّ الموتةَ قد ذاقُوها في الدنيا، ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

《٥٧》 ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: للفضل، فهو مفعولٌ له، أو مصدرٌ مؤكِّدٌ لما قبله؛ لأن قوله: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ تفضُّلٌ منه لهم؛ لأن العبد لا يستحقُّ على الله شيئاً، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: صرفُ العذاب ودخولُ الجنة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

《٥٨》 ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أي: الكتابَ، وقد جرى ذكرُه في أول السورة، ﴿بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾: يتعظُون.

《٥٩》 ﴿فَارْتَقِبْ﴾: فانتظر ما يحِلُّ بهم، ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾: منتظرون ما يَحِلُّ بك من الدوائر.



﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ ....

سورة الجاثية

سبع وثلاثون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿حمٓ ۝١﴾: إن جعلتَها اسماً للسورة.. فهي مرفوعةٌ بالابتداءِ، والخبرُ:

《٢》 ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ صلةٌ للتنزيل، وإن جعلتَها تعديداً للحروف.. كان (تنزيل الكتاب) مبتدأً، والظرفُ خبراً، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في انتقامِه، ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ في تدبيرِه.

《٣》 ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾: لدلالاتٍ على وحدانيته، ويجوز أن يكون المعنى: إن في خلق السموات والأرض لآياتٍ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ دليلُه: قولُه:

《٤》 ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾، ويُعطَفُ ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ على الخلقِ المضافِ؛ لأن المضاف إليه ضميرٌ مجرورٌ متصلٌ يقبحُ العطف عليه، ﴿آياتٍ﴾: حمزةُ وعليٌّ: بالنصب، وغيرُهما: بالرفع[1]، مثلُ قولك: إن زيداً في الدار وعمراً في السوق، أو: وعمرٌو في السوق، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

《٥》 ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي: مطرٍ، وسُمِّيَ به؛ لأنه سبب الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ ﴿الريح﴾: حمزةُ وعليٌّ، ﴿آياتٍ لقوم يعقلون﴾: بالنصب، :عليٌّ وحمزةُ، وغيرُهما: بالرفع، وهذا من العطف على عاملين[2]، سواءٌ نصبتَ او رفعتَ، فالعاملان إذا نصبتَ: (إنَّ) و(في)، أُقيمت الواوُ مُقامَهما فعملت الجرَّ في (واختلاف الليل والنهار)، والنصبَ في (آياتٍ)، وإذا رفعتَ.. فالعاملان: الابتداءُ وحرفُ (في)، عملت الواوُ الرفعَ في (آياتٍ)، والجرَّ في (واختلافِ)[3]، هذا مذهبُ الأخفش؛ لأنه يُجوِّزُ العطف على عاملين، وأما سيبويه.. فإنه لا يُجيزُه، وتخريجُ الآية عنده أن يكون على إضمار: في، والذي حسَّنَه تقدُّمُ ذكر (في) في الآيتين قبل هذه الآيةِ؛ ويؤيدُه: قراءةُ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: ﴿وفي

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٣) وكذا القراءتان الآتيتان.

(٢) أي: على معمولي عاملين.

(٣) في «البحر المحيط» (٨/ ٤٣): الصحيح من المذاهب أن حرف العطف لا يعمل.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ ....

اختلاف الليل والنهار﴾[1]، ويجوزُ أن ينتصب (آياتٍ) على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله[2]، أو: على التكرير توكيداً لـ(آياتٍ) الأولى، كأنه قيل: آياتٍ آياتٍ، ورفعُها بإضمار: هي؛ والمعنى في تقديم الإيمان على الإيقانِ وتوسيطِه وتأخيرِ الآخر: أن المنصفِين من العباد إذا نظرُوا في السموات والأرض نظراً صحيحاً.. علمُوا أنها مصنوعةٌ، وأنه لا بدَّ لها من صانع، فآمَنُوا بالله، فإذا نظروا في خلق أنفسِهم وتنقلِها مِن حال إلى حال، وفي خلقِ ما على ظهرِ الأرضِ من صُنوف الحيوان.. ازدادوا إيماناً وأيقنُوا، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجددُ في كل وقت، كاختلاف الليل والنهار، ونزولِ الأمطار، وحياةِ الأرض بها بعد موتها، وتصريفِ الرياح جَنوباً وشَمالاً وقَبولاً ودَبوراً.. عقلُوا، واستحكم علمُهم، وخَلُصَ يقينُهم.

《٦》 ﴿تِلْكَ﴾: إشارةٌ إلى الآيات المتقدمة؛ أي: تلك الآياتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾، وقولُه: ﴿نَتْلُوهَا﴾: في محلِّ الحال؛ أي: متلوةً ﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ والعاملُ: ما دلَّ عليه (تلك) من معنى الإشارة، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: بعد آيات الله، كقولهم: أعجبني زيدٌ وكرمُه؛ يريدون: أعجبني كرمُ زيدٍ، ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾: حجازيٌّ وأبو عمرٍو وسهلٌ وحفصٌ، وبالتاء: غيرُهم[3]؛ على تقدير: قل يا محمدُ.

《٧》 ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾: كذّابٍ، ﴿أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾: مُبالغٍ في اقتراف الآثام.

《٨》 ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: في موضع جرٍّ صفةٌ، ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾: حالٌ من (آيات الله)، ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾: يُقبلُ على كفره، ويُقيمُ عليه، ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآياتِ والإذعانِ لما تنطِقُ به من الحقِّ، مُزدَرياً لها، مُعجَباً بما عنده، قيل: نزلت في النضرِ بن الحارث، وما كان يشتري من أحاديثِ العجَمِ، ويَشْغَلُ بها الناسَ عن استماع القرآن، والآيةُ عامّةٌ في كلِّ مَن كان مُضارّاً لدين الله، وجِيءَ بـ(ثم) لأن الإصرار على الضلالةِ، والاستكبارَ عن الإيمان عند سماع آيات القرآن مستبعدٌ في العقول، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ (كأنْ): مخففةٌ، والأصلُ: كأنَّه لم يسمعها، والضميرُ ضميرُ الشأن، ومحلُّ الجملةِ: النصبُ على الحال؛ أي: يُصِرُّ مثلَ غيرِ السامع، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾: فأخبرْه خبراً يَظهر أثرُه على البشرة.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٨٠).

(٢) أي: (واختلافِ): معطوف على (السماوات)، وأما (آياتٍ) فهو منصوب بفعل محذوف؛ أي: أعني آياتٍ.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٣).

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ....

《٩》 ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾: وإذا بلغه شيءٌ من آياتنا، وعلم أنه منها ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾: اتخذ الآياتِ ﴿هُزُوًا﴾ ولم يقلْ: اتخذه؛ للإشعار بأنه إذا أحسَّ بشيءٍ من الكلام انه من جملة الآياتِ.. خاض في الاستهزاءِ بجميعِ الآياتِ، ولم يقتصرْ على الاستهزاء بما بلغه، ويجوز أن يرجع الضميرُ إلى شيء؛ لأنه في معنى الآية، كقول أبي العتاهية[1]: [من: البسيط]

نفسي بشيءٍ من الدنيا معلقةٌ ... اللهُ والقائمُ المهديُّ يكفيها

حيث أراد: عُتْبَةَ[2]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: إشارةٌ إلى ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٢] لشموله الأفّاكين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾: مُخزٍ.

《١٠》 ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾: مِن قُدّامِهم، الوراءُ: اسمٌ للجهة التي يُواريها الشخصُ من خلف، أو قدام، ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ من الأموال ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟﴾ (ما) فيهما: مصدريةٌ أو موصولةٌ، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثانِ ﴿أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ في جهنم.

《١١》 ﴿هَٰذَا هُدًى﴾: إشارةٌ إلى القرآن، يدلُّ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لأن آياتِ ربهم هي القرآنُ؛ أي: هذا القرآنُ كاملٌ في الهداية، كما تقول: زيدٌ رجلٌ؛ أي: كاملٌ في الرجولية، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾: هو أشدُّ العذاب، ﴿أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾: بالرفع: مكيٌّ ويعقوبُ وحفصٌ، صفةٌ لـ(عذاب)، وغيرُهم: بالجرِّ، صفةٌ لـ(رجز)[3].

《١٢》 ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾: بإذنه، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة، أو بالغَوصِ على اللؤلؤ والمرجان، واستخراجِ اللحمِ الطريِّ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

《١٣》 ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: هو تأكيدُ (ما في السموات) وهو

---

(١) انظر «الكامل» للمبرد (٢/ ٢٢٣).

(٢) أي: أرد بقوله: (بشيء) جاريةَ المهدي، واسمُها عُتبةُ؛ فلذا أَنثَ الضميرَ، والأولى عود الضمير على (نفسي) فالتأنيث ظاهر.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٩٣) وكذا القراءة الآتية.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ ....

مفعولُ (سخر)، وقيل: (جميعاً): نصبٌ على الحال، ﴿مِّنْهُ﴾: حال؛ أي: سخَّرَ هذه الأشياءَ كائنةً منه، حاصلةً من عنده، أو: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هذه النعمُ كلُّها منه، أو: صفةٌ للمصدر؛ أي: تسخيراً منه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

《١٤》 ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ أي: قل لهم: اغفِروا يغفروا، فحذف المقول؛ لأن الجواب يدلُّ عليه؛ ومعنى (يغفروا): يعفوا ويصفحوا، وقيل: مجزومٌ بلام مضمرة، تقديرُه: لِيغفروا، فهو أمرٌ مستأنَفٌ، وجاز حذفُ اللام؛ للدلالة على الأمر، ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: لا يتوقعون وقائعَ الله بأعدائه؛ مِن قولهم لوقائع العربِ: أيامُ العرب، وقيلَ: لا يُؤَمِّلُون الأوقاتَ التي وقَّتَها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدَهم الفوزَ فيها، قيل: نزلت في عمر رضي الله عنه حين شتَمَه رجلٌ من المشركين من بني غِفارٍ، فَهَمَّ أن يَبْطِشَ به، ﴿لِيَجْزِىَ﴾: تعليلٌ للأمر بالمغفرة؛ أي: إنما أُمِرُوا بأن يغفروا؛ لِيوفيَهم جزاءَ مغفرتِهم يوم القيامة، وتنكيرُ ﴿قَوْمًۢا﴾ على المدح لهم، كأنه قيل: ليجزيَ أيَّما قومٍ، وقوماً مخصوصين بصبرِهم على أذى أعدائِهم، ﴿لِنَجْزِيَ﴾: شاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ، ﴿لِيُجْزَى قوماً﴾: يزيدُ؛ أي: لِيُجزَى الخيرُ قوماً، فأُضمر الخيرُ؛ لدلالة الكلام عليه، كما أُضمر الشمسُ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] لأن قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ﴾ [ص: ٣١] دليلٌ على تواري الشمس، وليس التقديرُ: لِيُجزَى الجزاءُ قوماً؛ لأن المصدر لا يقوم مَقام الفاعل ومعك مفعولٌ صحيحٌ، أما إقامةُ المفعول الثاني مُقامَ الفاعل.. فجائزٌ، وأنت تقول: جزاك الله خيراً، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ من الإحسان.

《١٥》 ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ أي: لها الثوابُ، وعليها العقابُ، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: إلى جزائه.

《١٦》 ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراةَ، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾: والحكمةَ والفقهَ، أو: فصلَ الخصوماتِ بين الناس؛ لأن الملك كان فيهم، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: خصَّها بالذكر؛ لكثرة الأنبياء عليهم السلام فيهم، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: مما أحلَّ اللهُ لهم وأطابَ من الأرزاق، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾: على عالَمي زمانِهم.

وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ....

《١٧》 ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ﴾: آياتٍ ومعجزاتٍ ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾: من أمرِ الدين، ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾: فما وقع الخلافُ بينهم في الدين ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: إلا مِن بعدِ ما جاءهم ما هو مُوجِبٌ لزوال الخلاف وهو العلم، وإنما اختلفوا لبغيٍ حدث بينهم؛ أي: لعداوةٍ وحسدٍ بينهم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ قيل: المرادُ: اختلافُهم في أوامر الله ونواهيه في التوراة حسداً وطلباً وجلباً للرياسة، لا عن جهل يكون الإنسان به معذوراً.

《١٨》 ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾ بعد اختلافِ أهلِ الكتابِ ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾: على طريقةٍ ومنهاجٍ ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾: من أمر الدين، ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾: فاتبعْ شريعتك الثابتة بالحججِ والدلائلِ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾: ولا تتبعْ ما لا حجةَ عليه من أهواء الجهالِ ودينِهم المبنيِّ على هوىً وبدعة، وهم رؤساء قريشٍ حين قالوا: ارجعْ إلى دين آبائك.

《١٩》 ﴿إِنَّهُمْ﴾: إن هؤلاءِ الكافرين ﴿لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾: وهم مُوالُوه، وما أَبْيَنَ الفضلَ بين الولايتين.

《٢٠》 ﴿هَٰذَا﴾: القرآنُ ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾: جعلَ ما فيه من معالم الدين والشرائعِ بمنزلة البصائرِ في القلوب، كما جُعِلَ رُوحاً وحياةً، ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾: لمن آمن وأيقنَ بالبعث.

《٢١》 ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ (أم): منقطعةٌ؛ ومعنى الهمزة فيها: إنكار الحِسبان، ﴿ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: اكتسبوا المعاصيَ والكفرَ، ومنه الجوارحُ، وفلانٌ جارحةُ أهلِه؛ أي: كاسبُهم، ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾: أن نُصيِّرَهم، وهو مِن: جعلَ المعتدي إلى مفعولين، فأولُهما: الضميرُ، والثاني: الكافُ في ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والجملةُ التي هي: ﴿سَوَاءٌ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾: بدلٌ من الكاف؛ لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً، فكانت في حكم المفرد، ﴿سَوَآءً﴾: عليٌّ وحمزةُ

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ....

وحفصٌ[1]، بالنصب على الحال من الضمير في (نجعلهم)، ويرتفعُ ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بـ(سواءً)، وقرأ الأعمش: ﴿ومماتَهم﴾: بالنصب[2]، جعل (محياهم ومماتهم) ظرفين، كمَقْدَمِ الحاجِّ؛ أي: سواءً في محياهم وفي مماتِهم؛ والمعنى: إنكارُ أن يستويَ المسيؤون والمحسنون مَحْياً، وأن يستووا مماتاً؛ لافتراقِ أحوالِهم أحياءً، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على اقتراف السيئات، ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والكرامة، وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة، وقيل: معناه: إنكارُ أن يستوُوا في الممات كما استوَوا في الحياة في الرزق والصحة، وعن تميم الداري رضي الله عنه: أنه كان يصلي ذاتَ ليلةٍ عند المقام، فبلغ هذه الآيةَ، فجعل يبكي ويُردِّدُها إلى الصباح، وعن الفضيل أنه بلغَها، فجعل يُردِّدُها ويبكي، ويقول: يا فضيلُ ليت شعري مِن أيِّ الفريقين أنت، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾: بئس ما يَقضُون إذا حَسِبوا أنهم كالمؤمنين، فليس مَن أُقعِدَ على بساط الموافقة كمن أُقعِدَ في مَقام المخالفة، بل نُفرقُ بينهم، فنُعلي المؤمنين ونُخزي الكافرين.

《٢٢》 ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ليدلَّ على قدرتِه، ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾: معطوفٌ على هذا المعلَّلِ المحذوف، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

《٢٣》 ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: هو مِطواعٌ لهوى النفس، يتبعُ ما تدعوه إليه، فكأنه يعبُدُه كما يعبدُ الرجلُ إلهه، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منه باختياره الضلال، أو: أنشأ فيه فعلَ الضلال على علم منه بذلك[3]، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلا يَقبلُ وعظاً، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يعتقدُ حقّاً، ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا يُبصرُ عِبرةً، ﴿غَشْوَةً﴾: حمزةُ وعليٌّ[4]، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾: من بعد إضلالِ اللهِ إياه، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: بالتخفيف: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ، وغيرُهم: بالتشديد، فأصلُ الشرِّ متابعةُ الهوى، والخيرُ كلُّه في مخالفته، فنعم ما قال[5]: [من: الطويل]

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٢٩٤).

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٨٥).

(٣) يشير إلى أنَّ قولَه تعالى: (على علم) متعلقٌ بحالٍ من اسم الجلالة، أو: من الضمير المنصوب في (أضله).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٤) وكذا القراءة الآتية.

(٥) انظر البيتين في «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي (ص ٤٥٣)، وفيه: (إذا طالبتك).

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ....

إذا طلبتك النفسُ يوماً بشهوة ... وكان إليها للخلافِ طريقُ

فدعها وخالف ما هَوِيْتَ فإنما ... هواك عدوٌّ والخلافُ صديقُ

《٢٤》 ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ﴾ أي: ما الحياة؛ لأنهم وُعِدُوا حياةً ثانيةً، ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: نموتُ نحن، ويحيا أولادنا، أو: يموتُ بعضٌ ويحيا بعضٌ، أو: نكون مَواتاً نُطفاً في الأصلاب[1]، ونحيا بعد ذلك، أو: يُصيبنا الأمران: الموتُ والحياةُ؛ يريدون: الحياةَ في الدنيا والموتَ بعدَها، وليس وراءَ ذلك حياةٌ، وقيل: هذا كلامُ مَن يقول بالتناسخ؛ أي: يموت الرجل ثم تجعلُ روحُه في مَواتٍ فيحيا به[2]، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ كانوا يزعُمون أن مرورَ الأيام والليالي هو المؤثرُ في هلاك الأنفس، ويُنكرون مَلَكَ الموتِ وقبضَه الأرواحَ بأمر الله، وكانوا يُضيفون كلَّ حادثة تحدثُ إلى الدهر والزمان، وترى أشعارَهم ناطقةً بشكوى الزمان، ومنه قولُه عليه السلام: «لا تسبُّوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»[3] أي: فإن الله هو الآتي بالحوادثِ لا الدهرُ، ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾: وما يقولون ذلك من علمٍ ويقين، ولكن مِن ظنٍّ وتخمين.

《٢٥》 ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآنُ؛ يعني ما فيه ذكرُ البعث، ﴿بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ وسمَّى قولَهم حجةً وإن لم يكن حجةً؛ لأنه في زعمهم حجةٌ، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ أي: أحيُوهم، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ في دعوى البعث، و(حجتَهم): خبرُ كان، واسمُها: (أن قالوا) والمعنى: ما كان حجتَهم الا مقالتُهم: ائتوا بآياتنا، وقرئَ: ﴿حجتُهم﴾: بالرفع؛ على أنها اسمُ كان، و(أن قالوا): الخبر.

《٢٦》 ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها عند انتهاءِ أعمارِكم، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يبعثكم يوم القيامة جميعاً، ومَن كان قادراً على ذلك. . كان قادراً على الإتيان

---

(١) المَواتُ: كلُّ ما لا روحَ فيه.

(٢) وهذا من عقائدِ الكفرِ، ومما يدلُّ على بطلانه: عذابُ القبر الثابتُ بالأدلة الكثيرة الصحيحة، فكيف يعذب الميتُ وقد حلت روحُه جسداً آخر!.

(٣) رواه مسلم (٢٢٤٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ....

بآبائكم ضرورةً، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في يوم الجمع، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ قدرةَ الله على البعث؛ لإعراضِهم عن التفكر في الدلائل.

《٢٧》 ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ عاملُ النصب في (يومَ تقوم): (يخسر)، و(يومئذٍ): بدلٌ من (يوم تقوم).

《٢٨》 ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾: جالسةً على الركب، يُقال: جثا فلانٌ يجثو: إذا جلس على ركبتيه، وقيل: جاثية: مجتمعةٌ، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾: بالرفع على الابتداء، ﴿كلَّ﴾: يعقوبُ[1]؛ على الإبدال من (كلَّ أمة) ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾: إلى صحائفِ أعمالِها، فاكتفِيَ باسم الجنس، فيقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ في الدنيا.

《٢٩》 ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أضيف الكتابُ إليهم؛ لملابسته إياهم؛ لأن أعمالهم مُثبتةٌ فيه، وإلى الله تعالى؛ لأنه مالكُه والآمرُ ملائكتَه أن يكتبوا فيه أعمال عبادِه، ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾: يشهدُ عليكم بما عملتُم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ من غير زيادة ولا نقصان، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾: نستكتبُ الملائكةَ أعمالَكم، وقيل: نسختُ واستنسختُ: بمعنىً، وليس ذلك بنقلٍ من كتابٍ، بل معناه: نُثبتُ.

《٣٠》 ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: جنتِه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

《٣١》 ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والمعنى: ألم يأتكم رسلِي فلم تكن آياتي تتلى عليكم، فحُذفَ المعطوفُ عليه، ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾: كافرين.

《٣٢》 ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالجزاءِ ﴿حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ﴾: بالرفعِ عطفٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، ﴿والساعةَ﴾: حمزةُ عطفٌ على (وعدَ الله)، ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيُّ شيءٍ الساعةُ،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٤) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصلُه: نظنُّ ظنّاً؛ ومعناه: إثباتُ الظنِّ فحسبُ، فأُدخلَ حرفُ النفيِ والاستثناءِ ليُفادَ إثباتُ الظنِّ مع نفيِ ما سواه، وزِيْدَ نفيُ ما سوى الظنِّ توكيداً بقوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

《٣٣》 ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾: وظهر لهؤلاء الكفارِ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾: قبائحُ أعمالِهم، أو: عقوباتُ أعمالِهم السيئاتِ، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾: ونزلَ بهم جزاءُ استهزائِهم.

《٣٤》 ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: نترككُم في العذاب كما تركتُم عُدَّةَ لقاءِ يومِكم، وهي الطاعةُ، وإضافةُ اللقاء إلى اليوم كإضافة المكرِ في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: نسيتم لقاءَ الله تعالى في يومكم هذا، ولقاءَ جزائِه، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: منزلُكم، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

《٣٥》 ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذابُ ﴿بِأَنَّكُمُ﴾: بسببِ أنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ ﴿لا يَخرُجون﴾: حمزةُ وعليٌّ، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾: ولا يُطلبُ منهم أن يُعْتِبُوا ربَّهم؛ أي: يُرضُوه.

《٣٦》 ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: فاحمَدُوا الله الذي هو ربُّكم وربُّ كلِّ شيءٍ من السموات والأرض والعالمين؛ فإن مثلَ هذه الربوبيةِ العامةِ توجبُ الحمدَ والثناء على كلِّ مربوب.

《٣٧》 ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وكبِّرُوه، فقد ظهرت آثارُ كبريائِه وعظمتِه في السموات والأرض، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامِه، ﴿الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ في أحكامِه.



﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦ ....

سورة الأحقاف

وهي خمس وثلاثون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١ - ٣» ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾: ملتبساً بالحقِّ، ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: وبتقديرِ أجلٍ مسمىً ينتهي إليه وهو يومُ القيامةِ، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾: عمّا أُنذروه من هول ذلك اليومِ الذي لا بُدَّ لكلِّ مخلوقٍ من انتهائه إليه ﴿مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾: لا يؤمنون به، ولا يهتمُّون بالاستعداد له، ويجوز أن تكون (ما) مصدريةً؛ أي: عن إنذارهم ذلك اليومَ.

«٤» ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم﴾: أخبرُوني ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: تعبدونه من الأصنام، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: أيَّ شيءٍ خلقُوا مما في الأرض إن كانوا آلهةً، ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: شركةٌ مع الله في خلق السموات، ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ أي: مِن قبلِ هذا الكتابِ وهو القرآنُ؛ يعني: أن هذا الكتاب ناطقٌ بالتوحيد وإبطالِ الشركِ، وما من كتاب أُنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطقٌ بمثل ذلك، فائتوا بكتابٍ واحدٍ منزلٍ من قبله شاهدٍ بصحةِ ما أنتم عليه من عبادة غيرِ الله، ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾: أو بقيةٍ من علمٍ بقيتْ عليكم من علوم الأولينَ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾ أن الله أمركم بعبادة الأوثان.

«٥» ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ أي: أبداً.

«٦» ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ أي: الأصنامُ لِعَبَدَتِها، ﴿وَكَانُواْ﴾ أي: الأصنامُ ﴿بِعِبَادَتِهِمۡ﴾: بعبادةِ عبدَتِهم ﴿كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ يقولون: ما دعوناهم إلى عبادتنا، ومعنى الاستفهام في (من أضل): إنكارُ أن يكون في الضُّلَّالِ كلِّهم أبلغُ ضلالةً من عبدة الأوثان؛ حيث يتركون

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

دعاءَ السميعِ المجيبِ القادرِ على كلِّ شيءٍ، ويدعون مِن دونه جماداً لا يستجيبُ لهم، ولا قدرةَ له على استجابة أحدٍ منهم ما دامت الدنيا، وإلى أن تقوم القيامة، وإذا قامت القيامةُ وحشر الناسُ.. كانوا لهم أعداءً، وكانوا عليهم ضِدّاً، فليسوا في الدارين إلا على نَكدٍ ومضرةٍ، لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة، وفي الآخرة تُعادِيْهم وتجحدُ عِبادتَهم، ولما أسندَ إليهم ما يُسنَدُ إلى أولي العلمِ من الاستجابة والغفلة.. قيل: (مَن) و(هم) ووصفُهم بترك الاستجابةِ والغفلةِ طريقُه طريقُ التهكم بها وبعبدتِها، ونحوُه: قولُه تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

《٧》 ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾: جمعُ بينةٍ، وهي الحجةُ والشاهدُ، أو: واضحاتٍ مبيَّناتٍ، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ المرادُ بـ(الحقِّ): الآياتُ، وبـ(الذين كفروا): المتلوُّ عليهم، فوُضِعَ الظاهران موضعَ الضميرين للتسجيلِ عليهم بالكفرِ، وللمتلوِّ بالحقِّ، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: بادؤوه بالجحود ساعةَ أتاهم، وأولَ ما سمعوه من غيرِ إجالةِ فكرٍ، ولا إعادةِ نظرٍ، ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾: ظاهرٌ أمرُه في البطلان لا شبهةَ فيه.

《٨》 ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: إضرابٌ عن ذكر تسميتهم الآياتِ سحراً، إلى ذكر قولهم: إن محمداً عليه السلام افتراه؛ أي: اختلقه وأضافه إلى الله كذباً، والضميرُ للحقِّ، والمرادُ به: الآياتُ، ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: إن افتريتُه على سبيل الفَرْضِ.. عاجَلَني اللهُ بعقوبةِ الافتراءِ عليه، فلا تقدِرون على كفِّه عن معاجلتي، ولا تُطيقون دفعَ شيءٍ من عقابِه، فكيف أفتريه وأتَعَرَّضُ لعقابه، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تَندفعون فيه من القَدْحِ في وَحْيِ اللهِ، والطعنِ في آياته، وتسميته سحراً تارةً، وفِريةً أُخرى، ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهدُ لي بالصدق والبلاغ، ويشهدُ عليكم بالجحود والإنكار؛ ومعنى ذكرِ العلمِ والشهادةِ: وعيدٌ بجزاءِ إفاضتِهم، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾: موعدةٌ بالغُفران والرحمة إن تابوا عن الكفر وآمنوا.

《٩》 ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بديعاً، كالخِفِّ بمعنى الخفيف؛ والمعنى: إني لست بأول مرسل فتنكروا نبوتي، ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ما يفعلُ اللهُ بي وبكم فيما

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ ....

يُستقبلُ من الزمان، وعن الكلبي: قال له أصحابُه وقد ضَجِروا من أذى المشركين: حتى متى نكونُ على هذا؟ فقال: «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم، أأُترَكُ بمكةَ، أم أُومرُ بالخروج إلى أرضٍ قد رُفعت لي ورأيتُها - يعني في منامه - ذاتَ نخيلٍ وشجرٍ»[1]، و(ما) في (ما يفعل) يجوزُ أن تكون موصولةً منصوبةً، وأن تكون استفهاميةً مرفوعةً، وإنما دخل (لا) في قوله: (ولا بكم) مع أن (يُفعلُ) مثبتٌ غيرُ منفيٍّ؛ لتناول النفي في (ما أدري) (ما) وما في حيِّزه، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾.

《١٠》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: هو عبد الله بنُ سلام عند الجمهور، ولهذا قيل: إن هذه الآية مدنيةٌ؛ لأن إسلامَ ابنِ سلام بالمدينة، روي: أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة.. نظر إلى وجهِه فعلمَ أنه ليس بوجه كذّابٍ، وقال: إني سائلُك عن ثلاثٍ لا يعلمُهن إلا نبيٌّ: ما أولُ أشراط الساعة؟ وما أولُ طعام يأكلُه أهلُ الجنة؟ وما بالُ الولد يَنزِعُ إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أمّا أولُ أشراط الساعة.. فنارٌ تحشرُهم من المشرق إلى المغرب، وأما أولُ طعام يأكلُه أهل الجنة.. فزيادةُ كبد حوت، وأما الولدُ.. فإذا سبق ماءُ الرجل.. نزعَه، وإن سبق ماءُ المرأة.. نزعتْه»، فقال: أشهدُ أنك رسولُ الله حقّاً[2]، ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ الضميرُ للقرآن؛ أي: مثلِه في المعنى، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقةِ لمعاني القرآن؛ من التوحيد والوعد والوعيد وغيرِ ذلك، ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهدٌ على نحو ذلك؛ يعني كونَه من عند الله، ﴿فَـَٔامَنَ﴾ الشاهدُ ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به، وجوابُ الشرط محذوفٌ، تقديرُه: إن كان القرآن من عند الله وكفرتُم به ألستم ظالمين؟ ويدلُّ على هذا المحذوف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ والواوُ الأولى عاطفةٌ لـ(كفرتم) على فعل الشرط، وكذلك الواوُ الأخيرةُ عاطفةٌ لـ(استكبرتم) على (شهد شاهد)، وأما الواوُ في (وشهد).. فقد عَطفَتْ جملةَ قولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على جملة قولِه: كان من عند الله وكفرتم به؛ والمعنى: قلْ: أخبروني إن اجتمع كونُ القرآن من عند الله

---

(١) روى البخاري (٣٩٠٥) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «إني أُريتُ دارَ هجرتكم، ذاتَ نخل بين لابَتَين».

(٢) رواه بنحوه البخاري (٣٩٣٨)، وروى بعضَه الترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجه (١٣٣٤).

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ....

مع كفرِكم به، واجتمع شهادةُ أعلمِ بني إسرائيلَ على نزول مثلِه، فإيمانُه به، مع استكبارِكم عنه وعن الإيمان به.. ألستم أضلَّ الناسِ وأظلمَهم؟

《١١》 ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: لأجلهم، وهو كلامُ كفارِ مكةَ، قالوا: عامة مَن يتبعُ محمداً السُّقَّاطُ؛ يعنون: الفقراءَ، مثلَ عمارٍ وصهيبٍ وابنِ مسعود، ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾: لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً.. ما سبقنا إليه هؤلاء، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ العاملُ في (إذْ): محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، تقديرُه: وإذْ لم يهتدوا به.. ظهر عنادُهم، وقولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾: مسببٌ عنه، وقولُهم: (إفك قديم) أي: كذبٌ متقادمٌ، كقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

《١٢》 ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: القرآنِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: التوراةُ، وهو مبتدأٌ، و(من قبله): ظرفٌ واقعٌ خبراً مقدماً عليه، وهو ناصبُ ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، نحو: في الدار زيدٌ قائماً، ومعنى (إماماً): قدوةً يُؤتَمُّ به في دين الله وشرائعِه، كما يُؤتَمُّ بالإمام، ﴿وَرَحْمَةًۚ﴾ لمن آمن به وعملَ بما فيه، ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآنُ ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى، أو لما بين يديه وتَقَدَّمَه من جميع الكتب، ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾: حالٌ من ضمير الكتاب في (مصدّق)، والعاملُ فيه: (مصدق)، أو (من كتاب) لتخصصه بالصفة، ويعملُ فيه معنى الإشارة، وجُوِّزَ أن يكون مفعولاً لـ(مصدّق) أي: يُصدق ذا لسانٍ عربيٍّ، وهو الرسول؛ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي: الكتابُ، ﴿لتنذرَ﴾: حجازيٌّ وشاميٌّ[1]، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: كفروا، ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: في محلِّ النصبِ معطوفٌ على محلِّ (لينذر)؛ لأنه مفعول له، ﴿لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾: للمؤمنين المطيعين.

《١٣》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على توحيد الله وشريعةِ نبيِّه محمدٍ ﷺ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في يوم القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ عند الموت.

《١٤》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: حالٌ من أصحاب الجنة، والعاملُ فيه: معنى

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٤).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ ....

الإشارة الذي دلَّ عليه (أولئك)، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ (جزاءً): مصدرٌ لفعل دلَّ عليه الكلام؛ أي: جُوْزُوا جزاءً.

《١٥》 ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾: كوفيٌّ؛ أي: وصيناه بأن يحسن بوالديه إحساناً، ﴿حُسْناً﴾: غيرُهم[1]؛ أي: وصيناه بوالديه أمراً ذا حُسْنٍ، أو بأمر ذي حُسْنٍ، فهو في موضع البدل من قوله: (بوالديه)، وهو من بدل الاشتمال، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وبفتح الكافَين: حجازيٌّ وأبو عمرٍو، وهما لغتان في معنى المشقة، وانتصابُه على الحال؛ أي: ذاتَ كُرهٍ، أو على أنه صفةٌ للمصدر؛ أي: حملاً ذا كُرهٍ، ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾: ومدةُ حملِه وفطامِه ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وفيه دليلٌ على أن أقلَّ مدةِ الحملِ ستةُ أشهرٍ؛ لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين؛ لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بقيتْ للحمل ستةُ أشهرٍ، وبه قال أبو يوسفَ ومحمدٍ رحمهما الله، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: المرادُ به الحملُ بالأكفِّ[2]، ﴿وفصله﴾ يعقوبُ[3]، والفصلُ والفِصالُ: كالفَطم والفِطام بناءً ومعنىً، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هو: جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، وكان سيبويه يقول: واحدُه: شِدَّةٌ، وبلوغُ الأَشُدِّ: أن يكتهلَ ويستوفيَ السنَّ التي فيها قوتُه وعقلُه، وذلك إذا أناف على الثلاثين، وناطحَ الأربعين، وعن قتادة: ثلاثٌ وثلاثون سنةً، ووجهُه أن يكون ذلك أولَ الأشدِّ، وغايتُه الأربعون، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾: أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ المرادُ: نعمةُ التوحيد والإسلام، وجمعَ بين شُكرَيِ النعمةِ عليه وعلى والديه؛ لأن النعمة عليهما نعمةٌ عليه، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾: قيل: هي الصلواتُ الخمس، ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: اجعل ذريتي مَوقِعاً للصلاح ومَظِنَّةً له، ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من كلِّ ذنبٍ، ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾: من المخلِصين.

《١٦》 ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ،

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٢٩٥) وكذا القراءة الآتية.

(٢) عند أبي حنيفة رحمه الله: مدةُ الرضاع ثلاثون شهراً، واتفق مع صاحبيه رضي الله عنهم على أن أقلَّ الحمل ستة أشهر. انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٣/ ١١٨).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ ....

﴿يُتقبلُ﴾ ﴿ويُتجاوزُ﴾ ﴿أحسنُ﴾: غيرُهم، ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾: هو كقولك: أكرمني الأميرُ في ناسٍ من أصحابه؛ تريد: أكرمني في جملةِ مَن أكرم منهم، ونَظَمَني في عِدادِهم، ومحلُّه النصبُ على الحال على معنى: كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم، ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ لأن قوله: (نتقبل) و(نتجاوز) وعدٌ من الله لهم بالتقبُّل والتجاوز، قيل: نزلت في أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه، وفي أبيه أبي قحافةَ، وأمِّه أمِّ الخير، وفي أولادِه، واستجابةِ دعائِه فيهم؛ فإنه آمن بالنبي ﷺ وهو ابنُ ثمانٍ وثلاثين سنةً، ودعا لهما وهو ابن أربعين سنةً، ولم يكن أحدٌ من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلمَ هو ووالداه وبنوه وبناتُه غيرَ أبي بكر رضي الله عنه، ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ في الدنيا.

《١٧》 ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، والمرادُ بـ(الذي قال): الجنسُ القائلُ ذلك القولَ؛ ولذلك وقع الخبرُ مجموعاً، وعن الحسن: هو في الكافر العاقِّ لوالديه، المكذبِ بالبعثِ، وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قبل إسلامه، ويشهدُ لبطلانه: كتابُ معاويةَ إلى مروانَ ليأمر الناس بالبيعة ليزيدَ، فقال عبدُ الرحمن بنُ أبي بكر: لقد جئتُم بها هِرَقْلِيَّةً، أتُبايعون لأبنائكم؟ فقال مروانُ: يا أيها الناسُ هذا الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾، فسمعت عائشةُ رضي الله عنها فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئتُ أن أسميه.. لسميتُه، ولكن الله تعالى لعن أباك وأنت في صلبِه، فأنت فَضَضٌ مِن لعنةِ الله[1]، ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾: مدنيٌّ وحفصٌ، ﴿أُفَّ﴾: مكيٌّ وشاميٌّ، ﴿أُفِّ﴾: غيرُهم[2]، وهو صوتٌ إذا صَوَّتَ به الإنسانُ.. عُلِمَ أنه متضجرٌ، كما إذا قال: حَسِّ.. عُلِمَ أنه متوجعٌ، واللامُ للبيان؛ أي: هذا التأفيفُ لكما خاصةً ولأجلِكما دون غيرِكما، ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾: أن أُبعث وأُخرج من الأرض ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ ولم يُبعث منهم أحدٌ، ﴿وَهُمَا﴾: أبواه ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾: يقولان: الغياثُ بالله منك ومن قولِك، وهو استعظامٌ لقولِه، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ﴾: دعاءٌ عليه بالثبور؛ والمرادُ به الحثُّ والتحريضُ على الإيمان، لا حقيقةُ الهلاك، ﴿آمِنْ﴾ بالله وبالبعث، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾: صِدقٌ، ﴿فَيَقُولُ﴾ لهما: ﴿مَا هَٰذَا﴾ القولُ ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٢٧). فَضَضٌ: قطعةٌ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝١٩ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ۝٢٠ ۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٢١﴾ ....

《١٨》 ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾: قد مضت ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٨﴾.

《١٩》 ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من الجنسين المذكورين الأبرارِ والفجارِ ﴿دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ أي: منازلُ ومراتبُ من جزاءِ ما عملوا من الخير والشرِّ، أو: مِن أجلِ ما عملوا منها، وقيل: (درجاتٌ)، وقد جاء: الجنةُ درجاتٌ، والنارُ دركاتٌ. . على وجه التغليب، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: بالياء: مكيٌّ وبصريٌّ وعاصمٌ، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝١٩﴾ أي: وليوفيهم أعمالَهم ولا يظلمَهم حقوقَهم قدَّرَ جزاءَهم على مقادير أعمالِهم، فجعل الثوابَ درجاتٍ، والعقابَ دركات، فاللامُ: متعلقةٌ بمحذوف[1].

《٢٠》 ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عرضُهم على النار تعذيبُهم بها، من قولهم: عُرِض بنو فلان على السيف: إذا قُتلوا به، وقيل: المرادُ: عرضُ النار عليهم؛ مِن قولِهم: عرضتُ الناقةَ على الحوض؛ يريدون: عَرَضَ الحوضَ عليها فقلَبُوا، ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾ أي: يقال لهم: أذهبتُم، وهو ناصبُ الظرف، ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ما كُتِبَ لكم حظٌّ من الطيباتِ إلا ما قد أصبتُموه في دنياكم، وقد ذهبتُم به وأخذتُموه، فلم يَبْقَ لكم بعد استيفاءِ حظِّكم شيءٌ منها، وعن عمر رضي الله عنه: لو شئتُ. . لكنتُ أطيبَكم طعاماً، وأحسنَكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي، ﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾: بالطيبات، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ أي: الهوانِ، وقرئ به، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: تتكبرون ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ۝٢٠﴾ أي: باستكباركم وفِسْقِكم.

《٢١》 ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ أي: هُوداً، ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾: جمعُ حِقْفٍ، وهو رمل مستطيلٌ مرتفعٌ فيه انحناءٌ؛ من: احقوقفَ الشيءُ: إذا اعْوَجَّ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو وادٍ بين عُمانَ ومَهْرَةَ، ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾: جمعُ نذير؛ بمعنى المنذر، أو الإنذار، ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾: مِن قَبْلِ هودٍ، ومن خلفِ هودٍ، وقولُه: (وقد خلت النذر من بين يديه ومن

---

(١) أي: قَدَّرَ جزاءَهم ليوفيَهم.

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ....

خلفه) وقع اعتراضاً بين (أنذر قومه) وبين: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾﴾ والمعنى: واذكرْ إنذارَ هودٍ قومَه عاقبةَ الشركِ والعذابِ العظيمِ، وقد أَنْذَرَ مَن تَقَدَّمَه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك.

﴿٢٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قومُ هودٍ: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾: لتصرفنا، فالأَفْكُ: الصَّرْفُ، يُقال: أَفَكَهُ عن رأيه، ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾: عن عبادتِها ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من معاجلةِ العذابِ على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ في وعيدِك.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ بوقتِ مجيءِ العذابِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ولا علمَ لي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبُكم، ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ وبالتخفيف: أبو عمرٍو[١]؛ أي: الذي هو شأني أن أبلغَكم ما أرسلتُ به من الإنذارِ والتخويفِ، ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ولكنكم جاهلون لا تعلمون أن الرسلَ بُعثوا منذرين، لا مقترحين ولا سائلين غيرَ ما أُذن لهم فيه.

﴿٢٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ الضميرُ يرجعُ إلى ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أو: هو مبهمٌ وَضَّحَ أمرَه بقوله: ﴿عَارِضًا﴾: إما تمييزاً أو حالاً، والعارضُ: السحابُ الذي يَعرِضُ في أفقٍ من السماء، ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ روي: أن المطر قد احتبس عنهم، فرأَوا سحابةً استقبلت أوديتَهم، فقالوا: هذا سحابٌ يأتينا بالمطر، وأظهروا من ذلك فرحاً، وإضافةُ (مستقبل) و(ممطر) مجازيةٌ غيرُ مُعَرِّفَةٍ؛ بدليل وقوعِهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة، ﴿بَلۡ هُوَ﴾ أي: قال: هودٌ: (بل هو)؛ ويدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: ﴿قال هودٌ بل هو﴾[٢]، ﴿مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ من العذاب، ثم فسَّرَه فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾: تُهلكُ مِن نفوس عادٍ وأموالِهم الجمَّ الكثيرَ، فعبَّرَ عن الكثرة بالكلية، ﴿بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾: ربِّ الريح، ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾: عاصمٌ وحمزةُ وخلفٌ؛ أي: لا يُرى شيءٌ إلا مساكنُهم، غيرُهم: ﴿لا تَرى إلا مساكنَهم﴾[٣]، والخطابُ للرائي مَن كان،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٩٦).

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/١٠٢).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٦).

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ....

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: مثلَ ذلك نجزي من أجرمَ مثلَ جُرمِهم، وهو تحذيرٌ لمشركي العربِ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: اعتزل هودٌ عليه السلام ومن معه في حظيرةٍ ما يُصيبهم من الريح إلا ما تَلَذُّهُ الأنفسُ، وإنها لتمرُّ مِن عادٍ بالظُّعُنِ بين السماء والأرض، وتدمغُهم بالحجارة.

《٢٦》 ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ (إنْ): نافيةٌ؛ أي: فيما ما مكنّاكم فيه، إلا أنَّ (إنْ) أحسنُ في اللفظ؛ لما في مجامعةِ (ما) مثلَها من التكرير المستبشع؛ ألا ترى أن الأصلَ في مهما: ماما، فلبشاعة التكريرِ قَلَبُوا الألفَ هاءً، وقد جُعلتْ (إنْ) صلةً، وتُؤوِّلُ بأنا مكنّاهم في مثلِ ما مكناكم فيه، والوجهُ هو الأول، لقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤]، ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾ [غافر: ٨٢]، و(ما) بمعنى الذي، أو نكرةٌ موصوفةٌ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أي: آلاتِ الدَّرْكِ والفهمِ، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: مِن شيء من الإغناء، وهو القليلُ منه، ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (إذ): نصبٌ بقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾، وجَرى مَجرى التعليل؛ لاستواءِ مؤدَّى التعليل والظرف في قولك: ضربتُه لإساءته، وضربته إذْ أساء؛ لأنك إذا ضربته في وقت إساءته.. فإنما ضربتَه فيه لوجود إساءتِه فيه، إلا أنَّ إذْ وحيثُ غَلَبَتا دون سائرِ الظروفِ في ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: ونزلَ بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾: جزاءُ استهزائِهم، وهذا تهديدٌ لكفار مكة، ثم زادَهم تهديداً بقوله:

《٢٧》 ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهلَ مكةَ، ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ نحوُ حِجْرِ ثمودَ، وقُرى قومِ لوطٍ؛ والمرادُ: أهلُ القرى، ولذلك قال: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كَرَّرْنا عليهم الحججَ وأنواعَ العِبرِ؛ لعلهم يرجعون عن الطغيان إلى الإيمان، فلم يرجعوا.

《٢٨》 ﴿فَلَوْلَا﴾: فهلا ﴿نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ القُربان: ما تُقُرِّبَ به إلى الله تعالى؛ أي: اتخذوهم شفعاءَ متقرَّباً بهم إلى الله تعالى؛ حيث قالوا: هؤلاءِ شفعاؤُنا عند الله، وأحدُ مفعولي (اتخذ) الراجعُ إلى (الذين) محذوفٌ؛ أي: اتخذوهم، والثاني: (آلهة) و(قرباناً): حالٌ، ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾: غابوا عن نُصرتِهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

و(ذلك): إشارةٌ إلى امتناعِ نصرةِ آلهتِهم لهم وضلالِهم عنهم؛ أي: وذلك أَثَرُ إفكِهم الذي هو اتخاذُهم إياها آلهةً، وثمرةُ شركِهم وافترائِهم على اللهِ الكذبَ.

《٢٩》 ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا﴾: أمَلْناهم إليك، وأقبلْنا بهم نحوَكَ، والنفرُ: دون العشرة، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: جنِّ نَصيبين، ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ منه عليه الصلاة والسلام، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: الرسولَ ﷺ، أو: القرآنَ؛ أي: كانوا منه بحيث يسمعون ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قال بعضُهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا۟﴾: اسكتُوا مستمعين، روي: أن الجنَّ كانت تسترقُ السمعَ، فلما حُرست السماءُ ورُجِموا بالشهب.. قالوا: ما هذا إلا لنبأٍ حدث، فنهض سبعةُ نفر، أو تسعةٌ من أشراف جنِّ نَصيبين، أو نِينَوَى، منهم زَوْبَعَةُ، فضربُوا حتى بلغوا تِهامةَ، ثم اندفعوا إلى وادي نخلةَ، فوافَوا رسول الله ﷺ وهو قائمٌ في جوفِ الليلِ يصلي، أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءتِه[1]، وعن سعيد بن جبير: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنِّ ولا رآهم، وإنما كان يتلو في صلاته فمرُّوا به، فوقفُوا مستمعين وهو لا يشعرُ، فأنبأه الله باستماعِهم، وقيل: بل الله أمر رسولَه أن ينذر الجنَّ ويقرأً عليهم، فصرفَ إليه نفراً منهم، فقال: إني أُمرتُ أن أقرأ على الجنِّ الليلةَ، فمن يتبعُني؟ قالها ثلاثاً فأطرقُوا، إلا عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: لم يحضرْه ليلةَ الجنِّ أحدٌ غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكةَ في شِعْبِ الحَجون، فخَطَّ لي خَطّاً وقال: لا تخرج منه حتى أعودَ إليك، ثم افتتح القرآن، وسمعتُ لَغطاً شديداً، فقال لي رسول الله ﷺ: هل رأيت شيئاً؟ قلت: نعمْ رِجالاً سُوداً، فقال: أولئك جِنُّ نَصيبين، وكانوا اثني عشر ألفاً[2]، والسورةُ

---

(١) روى الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٥٧) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه.. قالوا: أنصِتُوا، قالوا: صه، وكانوا تسعةً أحدُهم زَوْبَعَةُ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ الآيةَ إلى ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٣٦) عن قتادة في هذه الآية قال: ذُكِرَ لنا أنهم صرفُوا إليه من نِينَوَى، قال: فإن نبيَّ الله ﷺ، قال: «إني أمرت أن أقرأ القرآن على الجنّ، فأيُّكم يتبعني؟»... فاتَّبعه عبد الله بن مسعود، فدخل رسول الله ﷺ شِعباً يقال له شِعب الحَجون، قال: وخط نبي الله ﷺ على عبد الله خطّاً ليثبته به، قال: فجعلت تَهوِي بي وأرى أمثالَ النُّسور تمشي في دُفوفها، وسمعت لَغطاً شديداً، حتى خِفت على نبيّ الله ﷺ، ثم تلا القرآن، فلما رجع نبيّ الله.. قلت: يا نبيّ الله ما اللغطُ الذي سمعتُ؟ قال: اجتمعوا إليَّ في قتيلٍ كان بينهم، فقُضي بينهم بالحقّ.

﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ ....

التي قرأها عليهم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي: فرغَ النبيُّ ﷺ من القراءة ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إياهم.

«٣٠» ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وإنما قالوا: مِن بعد موسى؛ لأنهم كانوا على اليهودية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الجنَّ لم تكن سمعت بأمرِ عيسى عليه السلام، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: إلى الله تعالى، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

«٣١» ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أي: محمداً ﷺ، ﴿وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ قال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا ثوابَ لهم إلا النجاةُ من النار؛ لهذه الآية، وقال مالكٌ وابنُ أبي ليلى وأبو يوسفَ ومحمدٌ رحمهم الله: لهم الثوابُ والعقابُ، وعن الضحاك أنهم يدخلون الجنة، ويأكلون ويشربون؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤].

«٣٢» ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يُنجِي منه مَهربٌ، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

«٣٣» ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾: هو كقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، ويقال: عَيِيْتُ بالأمر: إذا لم تعرفْ وجهَه، ﴿بِقَٰدِرٍ﴾: محلُّه الرفعُ؛ لأنه خبر (أنَّ)، يدلُّ عليه قراءةُ عبد الله: ﴿قادرٌ﴾، وإنما دخلت الباءُ لاشتمالِ النفي في أولِ الآيةِ على (أنَّ) وما في حيِّزها، وقال الزجاج: لو قلتَ: ما ظننتُ أن زيداً بقائم.. جاز، كأنه قيل: أليس الله بقادر؟ ألا ترى إلى وقوعِ (بلى) مقرِّرَةً للقدرة على كل شيء من البعث وغيره لا لرؤيتِهم، ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾: هو جوابُ النفي، ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

《٣٤》 ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: يُقالُ لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ وناصبُ الظرفِ: القولُ المضمر، وهذا إشارةٌ إلى العذاب، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾: بكفركم في الدنيا.

《٣٥》 ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾: أولو الجِدِّ والثباتِ والصبرِ ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (مِن): للتبعيض؛ والمرادُ بأولي العزم: ما ذُكر في (الأحزاب): ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، ويونسُ ليس منهم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وكذا آدمُ؛ لقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، أو: للبيان، فيكون أولو العزم صفةَ الرسلِ كلِّهم، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾: لكفار قريش بالعذاب؛ أي: لا تَدْعُ لهم بتعجيله؛ فإنه نازلٌ بهم لا محالةَ وإن تأخرَ، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أي: أنهم يستقصرون حينئذ مدةَ لُبثِهم في الدنيا، حتى يَحسَبُوها ساعةً من نهار، ﴿بَلَٰغٌ﴾: هذا بلاغٌ؛ أي: هذا الذي وُعِظْتُم به كفايةٌ في الموعظة، أو: هذا تبليغٌ من الرسول، ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ هلاكَ عذابٍ؛ والمعنى: فلن يُهلَكَ بعذاب الله ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: المشركون الخارجون عن الاتِّعاظِ به والعملِ بِمُواجِبِهِ.



﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ ....

سورة محمد ﷺ

وقيل: سورة القتال، مدنيةٌ، أو: مكيةٌ، وهي ثمانٌ وثلاثون آيةً، أو تسعٌ وثلاثون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرَضُوا وامتنعُوا عن الدخول في الإسلام، أو صدُّوا غيرَهم عنه، قال الجوهريُّ: صدَّ عنه يَصُدُّ صُدوداً: أعرض، وصدَّه عن الأمر صدّاً: منعَه وصرفَه عنه[1]، وهم المطعمون يومَ بدرٍ، أو أهلُ الكتاب، أو عامٌّ في كلِّ مَن كفرَ وصدَّ، ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾: أبطلَها وأحبطَها، وحقيقتُه: جعلها ضالّةً ضائعةً ليس لها مَن يَتقبَّلُها ويُثِيبُ عليها، كالضالَّة من الإبل، وأعمالُهم: ما عملوه في كفرهم؛ مِن صلة الأرحام، وإطعام الطعام، وعمارة المسجد الحرام، أو: ما عملُوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصدِّ عن سبيل الله.

《٢》 ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هم ناسٌ من قريش، أو من الأنصار، أو من أهل الكتاب، أو عامٌّ، ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾: وهو القرآنُ، وتخصيصُ الإيمان بالمُنزَّلِ على رسوله من بين ما يجبُ الإيمانُ به؛ لتعظيم شأنِه، وأُكِّدَ ذلك بالجملة الاعتراضية وهي قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: القرآن، وقيل: إن دينَ محمدٍ هو الحقُّ إذْ لا يردُ عليه النسخُ، وهو ناسخٌ لغيره، ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: سَتَرَ بإيمانِهم وعملِهم الصالحِ ما كان منهم من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها وتوبتِهم، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ أي: حالَهم وشأنَهم بالتوفيق في أمور الدين، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

《٣》 ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ (ذلك): مبتدأٌ، وما بعده خبرُه؛ أي: ذلك الأمرُ، وهو إضلالُ أعمالِ أحدِ الفريقين، وتكفيرُ سيئات الثاني، والإصلاحُ.. كائنٌ بسبب اتباعِ هؤلاء الباطلَ وهو الشيطانُ، وهؤلاءِ الحقَّ وهو القرآنُ، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الضربِ ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُبيِّنُ اللهُ ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ والضميرُ راجعٌ

(١) «الصحاح» (٢/ ٤٩٥).

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

إلى الناس، أو إلى المذكورين من الفريقين؛ على معنى أنه يَضربُ أمثالَهم لأجل الناس ليعتبروا بهم، وقد جَعلَ اتباعَ الباطل مثلاً لعمل الكافرين، واتباعَ الحقِّ مثلاً لعمل المؤمنين، أو جعلَ الإضلالَ مثلاً لخيبة الكفار، وتكفيرَ السيئاتِ مثلاً لفوز الأبرار.

《٤》 ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اللقاء وهو الحربُ ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصلُه: فاضربوا الرقابَ ضرباً، فحُذِفَ الفعلُ وقُدِّمَ المصدرُ فأُنِيبَ مُنابَه مضافاً إلى المفعول، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنك تذكرُ المصدر وتدلُّ على الفعل بالنصبةِ التي فيه، و(ضربَ الرقابِ): عبارةٌ عن القتل، لا أن الواجب أن تُضرب الرقابُ خاصةً دون غيرها من الأعضاء[١]، ولأن قتل الإنسان أكثرُ ما يكون بضرب رقبتِه، فوقع عبارةً عن القتل وإنْ ضُرِبَ غيرُ رقبتِه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾: أكثرتُم فيهم القتلَ ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾: فأْسِرُوهم، والوَثاقُ بالفتح والكسر: اسمُ ما يُوثقُ به؛ والمعنى: فشدُّوا وَثاقَ الأسارى حتى لا يُفلِتُوا منكم، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ أي: بعدَ أن تأسِروهم، ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ (مَنّاً) و(فِداءً): منصوبان بفعليهما مُضمَرين؛ أي: فإما تمنُّون مَنّاً وإما تَفدُون فِداءً؛ والمعنى: التخييرُ بين الأمرين بعد الأسر: بين أن يَمُنُّوا عليهم فيُطلقُوهم، وبين أن يُفادُوهم، وحكمُ أسارى المشركين عندنا: القتلُ أو الاسترقاقُ، والمنُّ والفداءُ المذكوران في الآية منسوخانِ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] لأن سورةَ براءةَ مِن آخرِ ما نزل[٢]، عن مجاهدٍ: ليس اليومَ مَنٌّ ولا فداءٌ، أو: المرادُ بالمنِّ: أن يَمُنَّ عليهم بترك القتل، ويُسترقُّوا، أو يُمَنَّ عليهم فيُخلَّوا لقبولهم الجزيةَ، وبالفداء أن يُفادَى بأساراهم أسارى المسلمين، وقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة رحمه الله، وهو قولُهما[٣]، والمشهورُ أنه لا يَرى فداءَهم، لا بمالٍ ولا بغيره؛ لئلا يعودُوا حرباً علينا، وعند الشافعي رحمه الله تعالى: للإمام أن يختار أحدَ الأمور الأربعة: القتلِ والاسترقاقِ والفداءِ بأسارى المسلمين والمنِّ[٤]، ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: أثقالَها

---

(١) في الأصل: (لأن الواجب...)، وما أثبته من المطبوع (٤/ ١٤٣) وهو الصواب؛ ففي «البحر المحيط» (٨/ ٧٤): ولما كان القتل للإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته.. عُبِّر بذلك عن القتل، ولا يراد خصوصية الرقاب، فإنه لا يكاد تتأتى حالةَ الحرب أن تُضرب الرقابُ، وإنما يتأتى القتال في أيِّ موضعٍ كان من الأعضاء.

(٢) انظر «حاشية ابن عابدين» (٤/ ١٣٩).

(٣) انظر «البناية شرح الهداية» (٧/ ١٣٥).

(٤) انظر «مغني المحتاج» (٦/ ٣٨).

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ .

وآلاتِها التي لا تقوم إلا بها، كالسلاح والكُراع[١]، وقيل: أوزارُها: آثامُها؛ يعني: حتى تترك أهلُ الحرب وهم المشركون شركَهم بأن يُسلموا، و(حتى) لا يخلو من أن يتعلق بالضربِ والشدِّ، أو بالمنِّ والفداءِ؛ فالمعنى على كلا المتعلَّقين عند الشافعي رحمه الله: أنهم لا يَزالون على ذلك أبداً إلى ألا يكون حربٌ مع المشركين، وذلك إذا لم يبقَ لهم شوكةٌ، وقيل: إذا نزل عيسى عليه السلام، وعند أبي حنيفة رحمه الله: إذا عُلِّقَ بالضرب والشدِّ. . فالمعنى أنهم يُقتلون ويُؤسَرون حتى تضع جنسُ الحرب الأوزار، وذلك حين لا تبقى شوكةٌ للمشركين، وإذا عُلق بالمن والفداء. . فالمعنى أنه يُمَنُّ عليهم ويُفادَون حتى تضع حربُ بدرٍ أوزارَها، إلا أن يُتأَوَّلَ المنُّ والفداءُ بما ذكرنا من التأويل، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ ذلك، فهو مبتدأٌ وخبرٌ، أو: افعلوا بهم ذلك، فهو في محلِّ النصب، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾: لانتقمَ منهم بغير قتالٍ، ببعض أسباب الهلاك، كالخسف أو الرجفة أو غير ذلك، ﴿وَلَٰكِن﴾ أمرَكم بالقتالِ؛ ﴿لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: المؤمنين بالكافرين تمحيصاً للمؤمنين، وتمحيقاً للكافرين، ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾: بصريٌّ وحفصٌ، ﴿قاتلوا﴾: غيرُهم[٢]، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤﴾.

《٥》 ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى طريق الجنة، أو إلى الصواب في جواب منكرٍ ونكيرٍ، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾: يُرضي خصماءَهم ويقبل أعمالَهم.

《٦》 ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ عن مجاهد: عرَّفَهم مساكنَهم فيها حتى لا يحتاجون أن يُسألوا، أو طيَّبَها لهم؛ من العَرْفِ وهو طيبُ الرائحة.

《٧》 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: دينَ اللهِ ورسولِه ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوِّكم ويفتحْ لكم، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ في مواطن الحرب، أو: على مَحَجَّةِ الإسلام.

《٨》 ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في موضع رفعٍ بالابتداء، والخبرُ: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، وعُطف قولُه: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨﴾ على الفعل الذي نَصَبَ (تعساً) لأن المعنى: فقال: تعساً لهم، والتعسُ: العُثورُ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد: في الدنيا القتلَ، وفي الآخرة التردِّيَ في النار.

《٩》 ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التعسُ والضلالُ ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: القرآنَ، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾.

---

(١) الكُراعُ: اسمٌ جامعٌ للخيل وعُدَّتِها وعُدَّة فُرسانِها.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٥).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ ....

«١٠» ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: كفارَ أمتك، ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: أهلكَهم هلاكَ استئصالٍ، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾: مُشركي قريش ﴿أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾: أمثالُ تلك الهَلَكَةِ؛ لأن التدميرَ يدلُّ عليها.

«١١» ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نصرُ المؤمنين، وسوءُ عاقبة الكافرين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾: وليُّهم وناصرُهم، ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ أي: لا ناصرَ لهم، فالله مولى العباد جميعاً من جهة الاختراعِ وملكِ التصرفِ فيهم، ومولى المؤمنين خاصةً من جهة النصرة.

«١٢» ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾: ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياماً قلائلَ، ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين غيرَ متفكرين في العاقبة، ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ في معالِفِها ومسارحِها غافلةً عمّا هي بصدده من النحر والذبح، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾: مَنزلٌ ومَقام.

«١٣» ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكم من قريةٍ، فهي للتكثير، وأراد بالقرية: أهلَها؛ ولذلك قال: (أهلكناهم) ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: وكمْ من قوم هم أشدُّ قوةً من قومك الذين أخرجوك؛ أي: كانوا سببَ خروجِك، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ أي: فلم يكن لهم من ينصرُهم ويدفعُ العذاب عنهم.

«١٤» ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: على حجةٍ من عنده وبرهانٍ، وهو القرآنُ المعجزُ وسائرُ المعجزات؛ يعني: رسولَ الله ﷺ، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾: هم أهل مكة الذين زَيَّنَ لهم الشيطان شركَهم وعداوتَهم لله ورسولِه، وقال: ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾ للحملِ على لفظ (مَن) ومعناه.

«١٥» ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾: صفةُ الجنةِ العجيبةِ الشأنِ ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك ﴿فِيهَا

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ....

﴿أَنْهَٰرٌ﴾: داخلٌ في حكم الصلة كالتكرير لها؛ ألا ترى إلى صحة قولك: التي فيها أنهار، أو: حال؛ أي: مستقرةً فيها أنهارٌ، ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: غيرِ متغيرِ اللون والريح والطعم، يقال: أَسِنَ الماءُ: إذا تغَيَّرَ طَعمُه وريحُه، ﴿أَسِنٍ﴾: مكيٌّ[1]، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما تتغيرُ ألبانُ الدنيا إلى الحموضة وغيرِها، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ﴾: تأنيثُ لَذٍّ، وهو اللذيذُ ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: ما هو إلا التلذذُ الخالصُ، ليس معه ذهابُ عقلٍ ولا خُمَارٌ ولا صُداعٌ ولا آفةٌ من آفات الخمر، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾: لم يخرجْ من بطون النحل فيخالطَه الشمعُ وغيرُه، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (مَثَلُ): مبتدأٌ، خبرُه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾: حارّاً في النهاية، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ والتقديرُ: أَمَثَلُ الجنة كمثل جزاءِ مَن هو خالدٌ في النار؟ وهو كلامٌ في صورة الإثبات، ومعناه النفيُ؛ لانطوائِه تحت حكم كلام مُصَدَّرٍ بحرف الإنكار، ودخولِه في حيِّزِه، وهو قولُه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، وفائدةُ حذفِ حرفِ الإنكارِ: زيادةُ تصويرٍ لمكابرةِ من يُسَوِّيْ بين التمسك بالبينة والتابعِ لهواه، وأنه بمنزلة مَن يثبتُ التسويةَ بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهارُ، وبين النار التي يُسقى أهلُها الحميمَ.

《١٦》 ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾: هم المنافقون، كانوا يَحضُرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامَه ولا يَعُونَه، ولا يُلقون له بالاً؛ تهاوناً منهم، فإذا خرجُوا. . قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال الساعة؟ على جهة الاستهزاء، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

《١٧》 ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ بالإيمان واستماعِ القرآنِ ﴿زَادَهُمْ﴾ اللهُ ﴿هُدًى﴾: علماً وبصيرةً، أو: شَرْحَ صدرٍ، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾: أعانَهم عليها، أو: آتاهم جزاءَ تقواهم، أو: بَيَّنَ لهم ما يتقون.

《١٨》 ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: ينتظرون ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ أي: إتيانَها، فهو بدلُ اشتمالٍ من الساعة، ﴿بَغْتَةً﴾: فَجأةً، ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾: علاماتُها، وهو مبعث محمد ﷺ، وانشقاقُ

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٢٩٧).

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ ....

القمر والدخان، وقيل: قطعُ الأرحام، وقلةُ الكرام، وكثرةُ اللئام، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ قال الأخفش: التقديرُ: فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم[1].

《١٩》 ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ﴾: أنَّ الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والمعنى: فاثبتْ على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله؛ وعلى التواضعِ وهضمِ النفسِ باستغفار ذنبك وذنوبِ مَن على دينك، وفي «شرح التأويلات»: جاز أن يكون له ذنبٌ يأمره بالاستغفار له، ولكنا لا نعلمُه، غيرَ أن ذنب الأنبياء تركُ الأفضل دون مباشرةِ القبيح، وذنوبُنا مباشرةُ القبائحِ من الصغائر والكبائر[2]، وقيل: الفاءاتُ في هذه الآيات لعطف جملةٍ على جملةٍ بينهما اتصالٌ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في معايِشِكم ومتاجِرِكم، ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾: ويعلم حيث تستقرون من منازِلِكم، أو: متقلبَكم في حياتِكم، ومثواكم في القبور، أو: متقلبَكم في أعمالكم، ومثواكم في الجنة والنار، ومثلُه حقيقٌ بأن يُتَّقَى ويُخشَى، وأن يُستغفرَ، وسُئل سفيانُ بنُ عيينةَ عن فضل العلمِ فقال: ألم تسمعْ قولَه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؟ فأمرَ بالعمل بعدَ العلم.

《٢٠》 ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكرُ الجهاد، ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾: مُبيَّنةٌ غيرُ متشابهةٍ، لا تحتمل وجهاً إلا وجوبَ القتال، وعن قتادة: كلُّ سورةٍ فيها ذكرُ القتال.. فهي محكمةٌ؛ لأن النسخ لا يَرِدُ عليها؛ مِن قِبَلِ أن القتال نسخَ ما كان من الصفح والمهادنة، وهو غيرُ منسوخ إلى يوم القيامة، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: أُمِرَ فيها بالجهادِ ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: نِفاقٌ؛ أي: رأيت المنافقين فيما بينهم يَضجَرُون منها، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: تَشخصُ أبصارُهم جُبناً وجَزَعاً، كما ينظرُ مَن أصابته الغَشْيَةُ عند الموت، ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾: وعيدٌ بمعنى: فويلٌ لهم، وهو (أَفْعَلُ) مِن الوَلْيِ، وهو: القربُ، ومعناه: الدعاءُ عليهم بأن يليَهم المكروهُ.

---

(١) «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٢٠).
(٢) تأويلات أهل السنة (٤/ ٥٠٧).

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ....

«٢١» ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: كلامٌ مُستأنفٌ؛ أي: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ خيرٌ لهم، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾: فإذا جَدَّ الأمرُ ولزمَهم فرضُ القتالِ ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدقُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ من كراهةِ الجهاد، ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب بضربٍ من التوبيخ والإرهابِ فقال:

«٢٢» ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ أي: فلعلَّكم إن أعرضتُم عن دين رسول الله ﷺ وسنتِه أن ترجعُوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية؛ من الإفساد في الأرض بالتغاوُرِ والتناهبِ وقطعِ الأرحامِ بمقاتلةِ بعضِ الأقاربِ بعضاً، ووأدِ البناتِ، وخبرُ (عسى): (أن تُفسدوا)، والشرطُ: اعتراضٌ بين الاسم والخبر، والتقديرُ: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض وتُقطعوا أرحامكم إن توليتم.

«٢٣» ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: إشارةٌ إلى المذكورين ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: أبعدَهم عن رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الموعظة، ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ عن إبصارهم طريق الهدى.

«٢٤» ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيعرفُوا ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لا يَجْسُرُوا على المعاصي، و(أم) في ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ بمعنى: بلْ وهمزةِ التقرير؛ للتسجيل عليهم بأن قلوبَهم مقفلةٌ لا يَتَوَصَّلُ إليها ذكرٌ، ونُكِّرَتِ القلوبُ؛ لأن المراد على قلوبٍ قاسيةٍ مبهمٍ أمرُها في ذلك؛ والمرادُ: بعضُ القلوب، وهي قلوبُ المنافقين، وأضيفت الأقفالُ إلى القلوب؛ لأن المراد الأقفالُ المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت، فلا تنفتح، نحوُ الرَّين والختمِ والطبعِ.

«٢٥» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ أي: المنافقون رجعُوا إلى الكفر سِرّاً بعد وضوحِ الحقِّ لهم، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ﴾: زينَ ﴿لَهُمْ﴾: جملةٌ من مبتدأ وخبر، وقعت خبراً لـ(إن) نحوُ: إن زيداً عمرٌو مرَّ به، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾: ومدَّ لهم في الآمال والأمانيّ، ﴿وأُمْلِيَ﴾: أبو عمرٍو؛ أي: أُمهِلوا ومُدَّ في عمرهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ....

《٢٦》 ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي: المنافقون قالوا لليهود: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: عداوةِ محمدٍ ﷺ والقعودِ عن نصرته، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾: على المصدر؛ مِن: أَسَرَّ: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ، ﴿أسرارهم﴾: غيرُهم[1]، جمعُ سِرٍّ.

《٢٧》 ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: فكيف يعملون وما حيلتُهم حينئذٍ؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يُتوفَّى أحدٌ على معصية إلا يُضْرَبُ من الملائكة في وجهه ودُبُرِهِ.

《٢٨》 ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى التوفِّي الموصوفِ، ﴿بِأَنَّهُمُ﴾: بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من معاونة الكافرين، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ من نصرة المؤمنين، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

《٢٩》 ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾: أحقادَهم؛ والمعنى: أَظَنَّ المنافقون أن الله تعالى لا يُبْرِزُ بُغضَهم وعداوتَهم للمؤمنين؟

《٣٠》 ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾: لَعَرَّفْناكهم ودَلَلْناك عليهم، ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾: بعلامتِهم، وهو أن يَسِمَهم اللهُ بعلامةٍ يُعلَمون بها، وعن أنسٍ رضي الله عنه: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآيةِ أحدٌ من المنافقين، كان يعرفُهم بسيماهم[2]، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: في نَحْوِهِ وأسلوبه، الحسنُ: مِن فحوى كلامِهم؛ لأنهم لا يَقدِرون على كتمان ما في أنفسهم، واللامُ في (فلعرفتهم): داخلةٌ في جواب (لو)، كالتي في لأريناكهم، كُرِّرَتْ في المعطوف، وأما اللامُ في (ولتعرفنهم) فواقعةٌ مع النون في جواب قسم محذوف، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ فيميزُ خيرَها من شرِّها.

《٣١》 ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالقتال إعلاماً لا استعلاماً، أو نعاملُكم معاملةَ المختبرِ؛ ليكون أبلغ في

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٨) وكذا القراءتان الآتيتان.
(٢) ذُكِرَ بلا إسنادٍ في «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٧).

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾ ....

إظهار العدل، ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الجهاد؛ أي: نعلمَ كائناً ما علمناه أنه سيكون، ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾: أسرارَكم، ﴿وليبلونّكم حتى يعلمَ﴾ ﴿ويبلوَا﴾: أبو بكرٍ، وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها.. بكى وقال: اللهمَّ لا تَبْلُنا؛ فإنك إن بَلَوْتَنا.. فضحتنا وهتكتَ أستارَنا وعذبتَنا.

«٣٢» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾: وعادَوه؛ يعني: المطعِمين يوم بدر، وقد مرَّ، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾: من بعدِ ما ظهر لهم أنه الحقُّ وعرفُوا الرسول، ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ التي عملوها في مُشاقّة الرسول؛ أي: سيبطلُها فلا يَصِلُون منها إلى أغراضِهم.

«٣٣» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾ بالنفاق أو بالرياء.

«٣٤» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾﴾ قيل: هم أصحابُ القليب، والظاهرُ العمومُ.

«٣٥» ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾: فلا تضعُفوا ولا تَذِلُّوا للعدوِّ ﴿وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ وبالكسرِ: حمزةُ وأبو بكرٍ، وهما المسالمةُ؛ أي: ولا تدعُوا الكفارَ إلى الصلح ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ أي: الأغلبون، و(تدعوا): مجزومٌ لدخوله في حكم النهي، ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ بالنصرة؛ أي: ناصرُكم، ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾﴾: ولن يُنقصَكم أجرَ أعمالِكم.

«٣٦» ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ تنقطعُ في أسرعِ مدةٍ، ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾ بالله ورسوله، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الشركَ ﴿يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾: ثوابَ إيمانِكم وتقواكم، ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾﴾ أي: لا يسألْكم جميعَها، بل رُبُعَ العُشْرِ، والفاعلُ: اللهُ، أو الرسولُ، وقال سفيانُ بنُ عيينةَ: غَيضاً مِن فَيضٍ.

«٣٧» ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ﴾ أي: يُجهِدْكم ويَطْلُبْه كلَّه، والإحفاءُ: المبالغةُ وبلوغُ الغايةِ في كل شيء، يقال: أحفاه في المسألة: إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربَه: إذا استأصله، ﴿تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ﴾ أي: اللهُ، أو البخل، ﴿أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾﴾ عند الامتناع، أو عند سؤال الجميع؛ لأن عندَ مسألةِ المالِ تظهرُ العداوة والحقد.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

《٣٨》 ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾: (ها) للتنبيه، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: موصولٌ بمعنى: الذين، صلتُه: ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي: أنتم الذين تدعون[١]، ﴿لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هي النفقةُ في الغزو، أو الزكاةُ، كأنه قال: الدليل على أنه لو أحفاكم.. لبخلتُم وكرهتُم العطاء: أنكم تُدعون إلى أداء ربع العشر ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾: بالرفعِ؛ لأن (مَن) هذه ليست للشرط؛ أي: فمنكم ناسٌ يَبخلون به، ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: يبخلُ عن داعِي نفسِه، لا عن داعي ربه، وقيل: يبخلُ على نفسه؛ يقال: بَخِلْتُ عليه وعنه، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي: أنه لا يَأمرُ بذلك لحاجته إليه؛ لأنه غنيٌّ عن الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقرِكم إلى الثواب، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾: وإن تُعرضوا أيُّها العربُ عن طاعته وطاعة رسوله والإنفاق في سبيله، وهو معطوفٌ على ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: يخلقْ قوماً خيراً منكم وأطوعَ، وهم فارسُ، وسئل رسولُ الله ﷺ عن القوم وكان سلمانُ إلى جنبه، فضرب على فخذه وقال: «هذا وقومُه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريّا.. لتناوله رجالٌ من فارسَ»[٢]، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ أي: ثم لا يكونوا في الطاعة أمثالَكم، بل أَطْوَعَ منكم.



---

(١) هذا عند الكوفيين، وأما البصريون فعندهم (هؤلاء) لا تكون اسماً موصولاً بل اسم إشارة. انظر «تفسير الآلوسي» (١٣/٢٣٦).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٦١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ ....

سورة الفتح

مدنيةٌ، وهي تسعٌ وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الفتحُ: الظفرُ بالبلدة عَنوةً أو صلحاً بحرب أو بغير حرب؛ لأنه مُغلَقٌ ما لم يُظْفَرْ به، فإذا ظُفِرَ به.. فقد فُتِحَ، ثم قيل: هو فتح مكةَ، وقد نزلت مرجعَ رسولِ الله ﷺ عن مكةَ عامَ الحديبية عِدَةً له بالفتح، وجيءَ به على لفظِ الماضي؛ لأنها في تحقُّقِها بمنزلة الكائنةِ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علوِّ شأنِ المخبَرِ عنه[١]، ما لا يخفى، وقيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتالٌ شديدٌ، ولكن تَـرامٍ بين القوم بسهامٍ وحجارةٍ، فرمَوُا المشركين حتى أدخلُوهم ديارَهم، وسألوا الصلح، فكان فتحاً مبيناً، وقال الزجاج: كان في فتح الحديبية آيةٌ عظيمةٌ، وذلك أنه نُزح ماؤُها ولم يبقَ فيها قطرةٌ، فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم مَجَّه في البئر، فدرَّتْ بالماء حتى شرب جميعُ الناس[٢]، وقيل: هو فتحُ خيبرَ، وقيل: معناه: قضينا لك قضاءً بيّناً على أهل مكةَ أن تدخلَها أنت وأصحابُك من قابلٍ؛ لتطوفوا بالبيت؛ مِن الفُتاحةِ، وهي: الحكومة.

《٢》 ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ قيل: الفتحُ ليس بسببٍ للمغفرة، والتقدير: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً فاستغفر ليغفرَ لك الله، ومثلُه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣]، ويجوز أن يكون فتحُ مكة من حيث إنه جهادٌ للعدوِّ سبباً للغفران، وقيل: الفتحُ لم يكن ليغفرَ له، بل لإتمام النعمةِ، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، ولكنه لما عدَّ عليه هذه النعمَ.. وصلَها بما هو أعظمُ النعم، كأنه قيل: يسرْنا لك فتحَ مكةَ، أو كذا؛ لنجمعَ لك بين عِزِّ الدارين، وأغراضِ العاجلِ والآجلِ ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يريد جميعَ ما فَرَطَ منك، أو: ما تقدم من حديثِ ماريةَ، وما تأخر مِن امرأةِ زيدٍ[٣]، ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ

---

(١) وهو الفتح.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ١٩).

(٣) كأنه يشير إلى ما ذكره في (سورة الأحزاب) أن رسول الله ﷺ أبصَرَ زينبَ بعد ما أنكحها زيداً، فوقعت في نفسه فقال: «سبحان الله مقلبِ القلوب». وذكرت هناك أنها رواية لا تصحُّ.

وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾ ....

عَلَيۡكَ﴾ بإعلاءِ دينِك، وفتحِ البلاد على يدك، ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾﴾: ويثبتَكَ على الدين المرضي.

《٣》 ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾: قويّاً منيعاً لا ذلَّ بعدَه أبداً.

《٤-٦》 ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ السكينةُ للسكون، كالبهيتة للبهتان؛ أي: أنزل الله في قلوبهم السكونَ والطمأنينة بسبب الصلح؛ ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم، وقيل: السكينةُ: الصبرُ على ما أمر الله، والثقةُ بوعد الله، والتعظيمُ لأمر الله.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ أي: ولله جنودُ السموات والأرض، يُسلط بعضَها على بعضٍ كما يقتضيه علمُه وحكمتُه، ومِن قضيته أنْ سَكَّنَ قلوبَ المؤمنين بصلح الحديبية، ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك لِيعرفَ المؤمنون نعمةَ الله فيه ويشكروها فيثيبَهم ويعذبَ الكافرين والمنافقين لِما غاظهم من ذلك وكرهُوه ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ وقع السَّوءُ عبارةً عن رداءة الشيء وفسادِه؛ يقال: فِعْلُ سَوءٍ؛ أي: مسخوطٌ فاسدٌ؛ والمرادُ: ظنُّهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يَرْجعُهم إلى مكة ظافرين فاتِحِيها عَنوةً وقهراً، ﴿عليهم دائرةُ السُّوْءِ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو؛ أي: ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين.. فهو حائقٌ بهم، ودائرٌ عليهم، والسُّوءُ: الهلاكُ والدمارُ، وغيرُهما: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾: بالفتح[1]؛ أي: الدائرةُ التي يَذُمُّونها ويَسخطونها، السُّوءُ والسَّوءُ: كالكُره والكَره، والضُّعف والضَّعف، إلا أن المفتوحَ غلبَ في أن يُضاف إليه ما يُرادُ ذمُّه من كل شيء، وأما السُّوءُ.. فجارٍ مَجرَى الشَّرِّ الذي هو نقيضُ الخير، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾﴾ جهنم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٩).

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ....

《٧》 ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيدفعُ كيدَ من عادى نبيَّه عليه السلام والمؤمنين بما شاء منها، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾: غالباً فلا يُرَدُّ بأسُه، ﴿حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ فيما دبَّر.

《٨》 ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾: تشهدُ على أمتك يوم القيامة، وهذه حالٌ مقدرةٌ، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ للكافرين من النار.

《٩》 ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والخطابُ لرسول الله ﷺ ولأمتِه، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: وتُقوُّوه بالنصرة، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: وتُعظِّموه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾: من التسبيحِ، أو من السُّبْحَةِ[1]، والضمائرُ لله عزَّ وجلَّ؛ والمرادُ بتعزيز الله: تعزيزُ دينِه ورسولِه، ومَن فرَّقَ الضمائرَ فجعلَ الأوَّلَيْنِ للنبي ﷺ.. فقدْ أبْعَدَ، ﴿ليؤمنوا﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو، والضميرُ للناس، وكذا الثلاثةُ الأخيرةُ: بالياء عندَهما[2]، ﴿بُكْرَةً﴾: صلاةُ الفجر، ﴿وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾: الصلواتُ الأربع.

《١٠》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: بيعةَ الرضوان، ولما قال: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أكده تأكيداً على طريقة التخييل فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريدُ أن يَدَ رسولِ الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يدُ الله، واللهُ منزَّهٌ عن الجوارح، وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقريرُ أن عقدَ الميثاقِ مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] و(إنما يبايعون الله): خبرُ إنَّ، ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾: نقض العهدَ ولم يَفِ بالبيعة، ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: فلا يعودُ ضررُ نكثِه إلا عليه، قال جابرُ بنُ عبد الله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت، وعلى ألا نَفِرَّ، فما نكث أحدٌ منا البيعةَ إلا جِدُّ بنُ قيسٍ، وكان منافقاً اختبأ تحتَ بطنِ بعيرِه، ولم يَسِرْ مع القوم[3]، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ﴾ يقال: وَفَيْتُ بالعهد، وأوفيتُ به، ومنه قولُه: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾: حفصٌ[4]، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ وبالنون: حجازيٌّ وشاميٌّ، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾: الجنةَ.

---

(١) السُّبْحَة: الصلاة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٩).
(٣) رواه بنحوه مسلم (١٨٥٦).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٩٩) وكذا القراءات الأربع الآتية.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ ....

《١١》 ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ إذا رجعتَ من الحديبية ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: هم الذين خُلِّفُوا عن الحديبية، وهم أعرابُ غِفارٍ ومزينةَ وجُهينةَ وأسلمَ وأَشْجَعَ والدِّيلِ، وذلك أنه عليه السلام حين أراد السيرَ إلى مكةَ عام الحديبيةِ معتمراً.. استنفرَ مَن حولَ المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجُوا معه حذراً من قريش أن يَعْرِضُوا له بحربٍ أو يصدُّوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ، وساق معه الهدْيَ؛ لِيُعْلَمَ أنه لا يريد حرباً، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب إلى قوم غَزَوْهُ في عُقْرِ داره بالمدينة وقتلوا أصحابَه فيقاتِلُهم، وظنُّوا أنه يَهْلِكُ فلا ينقلبُ إلى المدينة، ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾: هي جمعُ أهل، اعتلُّوا بالشغل بأهاليهم وأموالِهم، وأنه ليس لهم مَن يقوم بأشغالهم، ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ليغفرَ لنا اللهُ تَخلُّفَنا عنك، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾: تكذيبٌ لهم في اعتذارهم، وأن الذي خَلَّفَهم ليس ما يقولون، وإنما هو الشكُّ في الله والنفاق، فطلبُهم الاستغفارَ أيضاً ليس بصادرٍ عن حقيقة، ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: فمن يمنعُكم من مشيئة الله وقضائِه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾: ما يضرُّكم من قتل أو هزيمة، ﴿ضُرًّا﴾: حمزةُ وعليٌّ، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾: من غنيمةٍ وظفرٍ، ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾.

《١٢》 ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: زَيَّنَهُ الشيطانُ، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: مِن عُلُوِّ الكفرِ وظهورِ الفساد، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾: جمعُ بائرٍ، كعائذٍ وعُوْذٍ؛ مِن: بارَ الشيءُ: هلك وفسد؛ أي: وكنتم قوماً فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم، لا خيرَ فيكم، أو: هالكين عند الله، مستحقين لِسَخَطه وعقابه.

《١٣》 ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: لهم، فأُقِيمَ الظاهرُ مُقام الضمير؛ للإيذان بأن من لم يَجمعْ بين الإيمانين: الإيمانِ بالله، والإيمانِ برسوله.. فهو كافر، ونكَّرَ ﴿سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ لأنها نارٌ مخصوصةٌ، كما نكَّرَ ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

《١٤》 ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُدبره تدبيرَ قادرٍ حكيم، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: يغفرُ ويعذبُ بمشيئته وحكمته، وحكمتُه المغفرةُ للمؤمنين، والتعذيبُ للكافرين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ سبقتْ رحمتُه غضبَه.

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

《١٥》 ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلفُوا عن الحديبية ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ أي: غنائمِ خيبرَ ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ ﴿كَلِمَ اللهِ﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ أي: يريدون أن يُغيروا موعدَ اللهِ لأهل الحديبية، وذلك أنه وَعَدَهم أن يُعوضَهم من مغانم مكة مغانم خيبرَ إذا قَفَلُوا مُوادِعين لا يُصيبون منهم شيئاً، ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر، وهو إخبارٌ من الله بعدم اتباعِهم، ولا يُبدَّلُ القولُ لديه، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾: من قبلِ انصرافِهم إلى المدينة إن غنيمة خيبرَ لِمَنْ شهد الحديبيةَ دونَ غيرِهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ﴾ أي: لم يأمُرْكم اللهُ به، بل تحسدوننا أن نشارِكَكم في الغنيمة، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ من كلام الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾: إلا شيئاً قليلاً؛ يعني: مجردَ القولِ، والفرقُ بين الإضرابين: أن الأولَ أن يكون حكمُ الله ألا يتبعوهم، وإثباتُ الحسد، والثاني: إضرابٌ عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطمُّ منه، وهو الجهلُ وقلةُ الفقه.

《١٦》 ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم: الذين تخلفُوا عن الحديبية، ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: بني حنيفةَ قومَ مُسيلِمةَ، وأهلَ الردة الذين حاربَهم أبو بكر رضي الله عنه؛ لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يُقبلُ منهم إلا الإسلامُ أو السيفُ، وقيل: هم فارسُ، وقد دعاهم عمرُ رضي الله عنه، ﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ﴾ أي: يكون أحدُ الأمرين: إما المقاتلةُ أو الإسلام؛ ومعنى (يسلمون) على هذا التأويل: ينقادون؛ لأن فارسَ مجوسٌ، تُقبلُ منهم الجزيةُ، وفي الآية دلالةُ صحةِ خلافةِ الشيخين؛ حيثُ وعدَهم الثوابَ على طاعة الداعي عند دعوتِه بقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ مَن دعاكم إلى قتالِه ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ﴾ فوجب أن يكون الداعي مفترَضَ الطاعةِ، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: عن الحديبيةِ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ في الآخرة.

《١٧》 ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ﴾ نفى الحرجَ عن ذوي العاهات في التخلف عن الغزو، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الجهادِ وغير ذلك ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ

﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ .....

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾: يعرضْ عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ ﴿ندخله﴾ و﴿نعذبه﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ.

《١٨》 ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: هي بيعةُ الرِّضوان؛ سميت بهذه الآية، وقصتُها: أن النبي ﷺ حين نزل بالحديبية بعثَ خِراشَ بنَ أمية الخُزاعيَّ رسولاً إلى مكةَ فهمُّوا به، فمنعه الأحابيشُ، فلما رجع.. دعا بعمرَ ليبعثه، فقال: إني أخافهم على نفسي لِما عُرف من عداوتي إياهم، فبعث عثمانَ بنَ عفانَ، فخبَّرهم أنه لم يأتِ لحربٍ وإنما جاء زائراً للبيت، فوَقَّروه واحتبس عندهم، فأُرْجِفَ بأنهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: لا نبرحُ حتى نُناجزَ القومَ، ودعا الناسَ إلى البيعة، فبايعوه على أن يناجزوا قريشاً ولا يَفِرُّوا تحت الشجرة، وكانت سَمُرةً، وكان عدد المبايعين ألفاً وأربع مئةٍ[1]، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاصِ وصدقِ الضمائرِ فيما بايعُوا عليه، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الطمأنينةَ والأمنَ بسبب الصلحِ على قلوبهم، ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾: وجازاهم ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾: هو فتحُ خيبرَ غِبَّ انصرافِهم من مكةَ.

《١٩》 ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾: هي مغانمُ خيبرَ، وكانت أرضاً ذاتَ عقارٍ وأموالٍ فقسمَها عليهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾: منيعاً فلا يُغالَبُ، ﴿حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ فيما يحكمُ به فلا يُعارَضُ.

《٢٠》 ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هي ما أصابوه مع النبي ﷺ وبعده إلى يوم القيامة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ المغانمَ؛ يعني: مغانمَ خيبرَ، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني: أيديَ أهلِ خيبرَ وحلفائِهم من أسَدٍ وغَطَفانَ حين جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعبَ فانصرفوا، وقيل: أيديَ أهلِ مكةَ بالصلح، ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكَفَّةُ ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرةً يعرفون بها أنهم من الله عزَّ وجلَّ بمكان، وأنه ضامنٌ نصرتَهم والفتحَ عليهم، وفعل ذلك، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾: ويزيدَكم بصيرةً ويقيناً وثقةً بفضل الله.

---

(١) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (٤/٣٢٣) ضمن حديث طويل.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرًا ٢١ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾ ....

《٢١》 ﴿وَأُخْرَىٰ﴾: معطوفةٌ على (هذه) أي: فجعل لكم هذه المغانمَ ومغانمَ أُخرى، هي مغانمُ هَوازنَ في غزوة حنين، ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ لِما كان فيها من الجَوْلَةِ، ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ أي: قَدَرَ عليها واستولى وأظهركم عليها، ويجوز في (أخرى) النصبُ بفعلٍ مضمرٍ يفسرُه (قد أحاط الله بها)، تقديرُه: وقضى الله أخرى قد أحاط بها، وأما (لم تقدروا عليها) فصفةٌ لـ(أخرى)، والرفعُ على الابتداء لكونها موصوفةً بـ(لم تقدروا)، و(قد أحاط الله بها): خبرُ المبتدأ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرًا ٢١﴾: قادراً.

《٢٢》 ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكةِ ولم يصالحوا، أو من حلفاء أهل خيبر ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: لغُلِبوا وانهزَمُوا، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يَلي أمرَهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا ٢٢﴾ ينصرُهم.

《٢٣》 ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: في موضع المصدر المؤكِّدِ؛ أي: سنَّ الله غلبةَ أنبيائِه سنةً، وهو قوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣﴾: تغييراً.

《٢٤》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: أيدي أهلِ مكةَ، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾: عن أهل مكة؛ يعني: قضى بينهم وبينكم المكافَّةَ والمحاجزةَ، بعد ما خوَّلَكم الظفرَ عليهم والغلبةَ، وذلك يومَ الفتح، وبه استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه على أن مكة فُتحت عَنوةً لا صلحاً، وقيل: كان ذلك في غزوة الحديبية؛ لما روي: أن عكرمةَ بنَ أبي جهل خرج في خمسِ مئةٍ، فبعث رسول الله ﷺ مَن هزمَه وأدخلَه حيطانَ مكةَ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلُوهم البيوت، ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: بمكةَ أو بالحديبيةِ؛ لأن بعضَها منسوبٌ إلى الحرم، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ﴾ أي: أقدرَكم وسلطَكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾ وبالياء: أبو عمرٍو[1].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٠).

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ ....

«٢٥» ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ﴾ هو: ما يُهدَى إلى الكعبة، ونصبه عطفاً على (كم) في (صدوكم)؛ أي: صدوكم وصدُّوا الهديَ ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ﴾ محبوساً عن أن يبلغ، و(معكوفاً): حالٌ، وكان عليه السلام ساق سبعين بدنةً[1]، ﴿مَحِلَّهُۥ﴾: مكانَه الذي يَحِلُّ فيه نحرُه؛ أي: يجب، وهذا دليلٌ على أن المحصرَ مَحِلُّ هديه الحرمُ؛ والمراد: المحلُّ المعهودُ، وهو مِنىً، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ بمكةَ ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾: صفةٌ للرجال والنساء جميعاً، ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾: بدلُ اشتمالٍ منهم، أو من الضمير المنصوب في (تعلموهم)، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾: إثمٌ وشدةٌ، وهي (مَفعلةٌ)، من: عَرَّهُ بمعنى: عَراهُ: إذا دهاه ما يكرهُه ويَشُقُّ عليه، وهو الكفارةُ إذا قتله خطأً، وسوءُ قالةِ المشركين أنهم فعلوا بأهل دينِهم مثلَ ما فعلوا بنا من غير تمييزٍ، والإثمُ إذا قَصَّرَ[2]، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: متعلقٌ بـ(أن تطؤوهم)؛ يعني: أن تطؤوهم غيرَ عالمين بهم، والوطءُ: عبارةٌ عن الإيقاع والإبادة؛ والمعنى: أنه كان بمكة قومٌ من المسلمين مختلطون بالمشركين، غيرُ متميزين منهم، فقيل: ولولا كراهةُ أن تُهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرانَي المشركين وأنتم غيرُ عارفين بهم، فيصيبُكم بإهلاكهم مكروهٌ ومشقةٌ.. لما كفَّ أيديَكم عنهم، وقولُه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: تعليلٌ لما دلت عليه الآيةُ وسيقت له؛ مِن كفِّ الأيدي عن أهل مكة، والمنعِ عن قتلهم صوناً لما بين أظهرهم من المؤمنين، كأنه قال: كان الكفُّ ومنعُ التعذيب؛ ليُدخلَ الله في رحمته؛ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعةِ مؤمنيهم، أو ليُدخلَ في الإسلام مَن رغب فيه مِن مشركيهم، ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾: لو تفرقُوا وتَميَّزَ المسلمون من الكافرين، وجوابُ (لولا): محذوفٌ أغنى عنه جوابُ (لو)، ويجوز أن يكون (لو تزيلوا) كالتكرير لـ(لولا رجال مؤمنون) لِمَرْجِعِهما إلى معنىً واحدٍ، ويكونُ ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هو الجواب، تقديرُه: ولولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ، ولو كانوا متميزين.. لعذبناهم بالسيف، ﴿مِنْهُمْ﴾: من أهلِ مكةَ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣١٦) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) في «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٣٠): (معرة): مكروهٌ كوجوبِ الديةِ... والإثمِ بالتقصير في البحث عنهم.

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ....

《٢٦》 والعاملُ في ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قريشٌ: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ أي: لعذبناهم في ذلك الوقتِ، أو: اذكرْ، ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ المرادُ بحميةِ الذين كفروا وهي الأَنفةُ، وسكينةِ المؤمنين وهي الوقار: ما يُروَى أن رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية.. بعثتْ قريشٌ سهيلَ بنَ عمرٍو وحويطبَ بنَ عبدِ العُزَّى ومِكْرَزَ بنَ حفصٍ على أن يَعرِضُوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامِه ذلك، على أن تُخْلِيَ له قريشٌ مكةَ من العام القابل ثلاثةَ أيامٍ، ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً، فقال عليه السلام لعلي رضي الله عنه: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيلٌ وأصحابُه: ما نعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهمَّ، ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه رسولُ الله ﷺ أهلَ مكةَ»، فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله.. ما صددْناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمدُ بنُ عبدِ الله أهلَ مكةَ، فقال عليه السلام: «اكتب ما يريدون؛ فأنا أشهدُ أني رسول الله، وأنا محمدُ بنُ عبد الله»[1]، فهمَّ المسلمون أن يأبَوا ذلك ويشمئزوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينةَ فتوقَّرُوا وحَلُمُوا، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ الجمهورُ على أنها كلمةُ الشهادة، وقيل: بسم الله الرحمن الرحيم. والإضافةُ إلى التقوى باعتبار أنها سببُ التقوى وأساسُها، وقيل: كلمةَ أهلِ التقوى، ﴿وَكَانُوا﴾ أي: المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرِهم، ﴿وَأَهْلَهَا﴾ بتأهيل الله إياهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ فيُجري الأمور على مصالِحها.

《٢٧》 ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أي: صدَّقه في رؤياه ولم يكذبْه تعالى الله عن الكذب، فحُذِفَ الجارُّ وأُوصل الفعلُ، كقوله: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] روي: أن رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابَه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حَلَقُوا وقَصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه ففرحُوا وحَسِبوا أنهم داخلوها في عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حقٌّ، فلما تأخر ذلك.. قال عبدُ الله بنُ أبي وغيرُه: والله ما حلقنا ولا قصرنا

(١) رواه بنحوه البخاري (٢٧٣١) ضمن حديث طويل عن سيدنا المِسوَرِ بنِ مَخرمةَ رضي الله عنه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت[1]، ﴿بِالْحَقِّ﴾: متعلقٌ بـ(صَدَقَ) أي: صَدَّقَه فيما رأى، وفي كونِه وحصولِه صدقاً ملتبساً بالحق؛ أي: بالحكمة البالغة، وذلك ما فيه من الابتلاء والتميزِ بين المؤمن المخلِصِ، وبين مَن في قلبه مرضٌ، ويجوز أن يكون (بالحقِّ) قَسَماً إما بالحقِّ الذي هو نقيضُ الباطل، أو بالحقِّ الذي هو من أسمائه، وجوابُه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ وعلى الأول: هو جواب قسم محذوفٍ، ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾: حكايةٌ من الله تعالى قول رسولِه لأصحابه وقصِّه عليهم، أو: تعليمٌ لعباده أن يقولوا في عِداتِهم مثلَ ذلك متأدبين بأدب الله، ومقتدين بسنته، ﴿آمِنِينَ﴾: حالٌ، والشرطُ معترضٌ، ﴿مُحَلِّقِينَ﴾: حالٌ من الضمير في (آمنين) ﴿رُءُوسَكُمْ﴾ أي: جميعَ شعورِها، ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بعضَ شعورِها، ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حالٌ مؤكدة، ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة في تأخيرِ فتحِ مكةَ إلى العام القابل، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن دون فتحِ مكةَ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ وهو فتحُ خيبرَ؛ ليستروحَ إليه قلوبُ المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

《٢٨》 ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾: بالتوحيد، ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾: لِيُغْلِبَه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: على جنس الدين؛ يريدُ: الأديانَ المختلفةَ من أديان المشركين وأهل الكتاب، ولقد حقق ذلك سبحانه؛ فإنك لا ترى ديناً قطُّ إلا وللإسلام دونَه العزةُ والغلبةُ، وقيل: هو عند نزول عيسى عليه السلام، حين لا يبقى على وجه الأرض كافر، وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ على أن ما وعدَه كائنٌ، وعن الحسن: شهد على نفسه أنه سيُظهرُ دينه، والتقدير: وكفاه الله شهيداً، و(شهيداً): تمييزٌ أو حالٌ.

《٢٩》 ﴿مُّحَمَّدٌ﴾: خبرُ مبتدأٍ؛ أي: هو محمدٌ؛ لتقدمِ قولِه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ أو:

---

(١) عن مجاهد، قال: أُرِيَ رسولُ الله ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسَهم ومقصرين، فقال له أصحابه حين نحر بالحديبية: أين رؤياك يا رسول الله؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٤).

....

مبتدأٌ خبرُه: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: وقف عليه نُصَيْرٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: أصحابُه: مبتدأٌ، والخبرُ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، أو: (محمدٌ): مبتدأٌ، و(رسولُ الله): عطفُ بيانٍ، و(الذين معه): عطفٌ على المبتدأِ، و(أشداءُ): خبرٌ عن الجميع، ومعناه: غِلاظٌ، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾: متعاطفون، وهو خبرٌ ثانٍ، وهما جَمْعا شديدٍ ورحيم، ونحوُه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وبلغ من تشدُّدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزقَ بثيابهم، ومن أبدانهم أن تَمَسَّ أبدانَهم، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يَرى مؤمناً إلا صافحه وعانقه، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا﴾: راكعين، ﴿سُجَّدًا﴾: ساجدين، ﴿يَبْتَغُونَ﴾: حالٌ، كما أن (ركعاً) و(سجداً) كذلك، ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ﴾: علامتُهم ﴿فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: من التأثير الذي يُؤَثِّره السجود، وعن عطاء: استنارت وجوهُهم من طولِ ما صَلَّوا بالليل؛ لقوله عليه السلام: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»[(١)]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكورُ ﴿مَثَلُهُمْ﴾: صفتُهم ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وعليه وُقِفَ، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾: فِراخَهُ، يقال: أشطأَ الزرعُ: إذا فَرَّخَ، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: قَوّاه، ﴿فأزره﴾: شاميٌّ[(٢)]، ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾: فصار من الرِّقَّةِ إلى الغِلَظِ، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: فاستقام على قَصَبِهِ: جمعُ ساقٍ، ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾: يتعجبون من قوته، وقيل: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم يَنبتون نباتَ الزرعِ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعن عكرمةَ: (أخرج شطأه) بأبي بكر، (فآزره) بعمر، (فاستغلظ) بعثمان (فاستوى على سوقه) بعليٍّ رضوان الله عليهم، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لبدء الإسلام وترقِّيْهِ في الزيادة إلى أن قويَ واستحكمَ؛ لأن النبيَّ ﷺ قام وحدَه، ثم قوّاه الله تعالى بمن آمن معه، كما يُقَوِّيْ الطاقةَ الأولى من الزرع ما يَحْتَفُّ بها مما يتولدُ منها حتى يُعجِبَ الزُّرَّاعَ، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾: تعليلٌ لما دلَّ عليه تشبيهُهم بالزرع؛ من نمائِهم وترقِّيهم في الزيادة والقوة، ويجوز أن يُعللَ به: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝٢٩﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أُعِدَّ لهم في الآخرة مع ما يُعِزُّهم به في الدنيا.. غاظَهم ذلك، ومِن في (منهم): للبيان، كما في

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٣) عن سيدنا جابر رضي الله عنه، والصواب أن هذا من قول شريك، وذلك أن ثابتَ بنَ موسى دخل على شريكِ بنِ عبدِ اللهِ القاضي وهو يحدث وقد ساق إسناداً، فلما بَصُرَ به ورأى عليه أثرَ الخشوع.. قال: من كثرت صلاته بالليل.. حسن وجهه بالنهار. فظنَّ ثابتٌ أن ما تكلم به شريكٌ هو حديثٌ عن النبي ﷺ بهذا الإسناد، فرواه عن شريكٍ بعد ذلك. انظر «الإرشاد في معرفة علماء الحديث» للخليلي (١/ ١٧٠).

(٢) هي رواية ابن ذكوان عن ابن عامر. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٠).

....

قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] أي: فاجتنبوا الرجسَ الذي هو الأوثانُ، وقولُك: أنفقْ من الدراهم؛ أي: اجعل نفقتك هذا الجنسَ، وهذه الآيةُ تَرُدُّ قولَ الروافضِ: إنهم كفروا بعد وفاة النبي ﷺ؛ إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنما يكون أنْ لو ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾ . . . .

سورة الحجرات

مدنية، وهي ثمانيَ عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ قدَّمَه وأَقْدَمَه: منقولان بتثقيل الحَشْوِ والهمزةِ مِن: قَدَمَه: إذا تَقَدَّمَه، في قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ [هود: ٩٨]، وحذفَ المفعولُ ليتناولَ كلَّ ما يقعُ في النفس مما يُقَدَّمُ من القول أو الفعل، وجاز ألا يُقصدَ مفعولٌ، والنهيُ متوجه إلى نفس التقدمة، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، أو: هو من: قَدَّمَ بمعنى: تَقَدَّمَ، ك: وَجَّهَ[١]، ومنه: مقدمةُ الجيش، وهي الجماعةُ المتقدمةُ منه، ويؤيدُه قراءةُ يعقوب: ﴿لا تَقَدَّمُوا﴾[٢]: بحذف إحدى تاءي تَتَقَدَّمُوا، ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ حقيقةُ قولِهم: جلستُ بين يدي فلان: أن تجلسَ بين الجهتين المسامِتَتين ليمينه وشمالِه قريباً منه، فسُميت الجهتان يَدَيْنِ؛ لكونهما على سَمْتِ اليدين مع القرب منهما تَوَسُّعاً، كما يُسَمَّى الشيءُ باسم غيره إذا جاوره، وفي هذه العبارة ضربٌ من المجاز الذي يسمى تَمثيلاً[٣]، وفيه فائدةٌ جليلةٌ، وهي تصوير الهُجْنَةِ والشناعة فيما نُهُوا عنه من الإقدام على أمرٍ من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، ويجوز أن يجريَ مَجرَى قولِك: سرني زيدٌ وحُسْنُ حالِه؛ أي: سرَّني حسنُ حالِ زيدٍ، فكذلك هنا المعنى: بين يدي رسول الله ﷺ، وفائدةُ هذا الأسلوب: الدلالةُ على قوة الاختصاص، ولما كان

---

(١) بمعنى: تَوَجَّهَ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٠).

(٣) يريد أنه استعارة مبنية على المجاز المرسل، ووجه المجاز فيه أنه عبَّر عن الجهتين باليدين؛ لكونهما على سَمْتِ اليدين؛ فالتعبير باليدين من قبيل تسمية الشيء باسم ما يُدانيه ويحاذيه، فإذا كان لفظُ اليدين بمعنى الجهتين.. كان بين اليدين بمعنى: بين الجهتين، والجهةُ التي بينهما هي جهةُ الأمام، وإذا قيل: (بين يدي الله) امتنع أن يُرادَ به الجهةُ والمكانُ، فيكون استعارةً تمثيليةً، شُبِّهَ حالُ ما وقع من بعض الصحابة من القطعِ في أمر من أمور الدين قبل أن يحكم به الله ورسوله.. بحالِ مَن يتقدم في المشي في الطريق مثلاً على مَن يجب أن يتأخر عنه تعظيماً له، فعبر عن الحالة المشبهةِ بما يُعبَّرُ به عن المشبهِ بها، فمعنى الآية: لا تقطعُوا أمراً قبل أن يَحكما به ويأذنا فيه، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتدين بالنبي المرسل عليه الصلاة والسلام. انظر «الإكليل» (٦/ ٦١٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ ....

رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يَخفَى.. سُلِكَ به هذا المسلكُ[١]، وفي هذا تمهيدٌ لما نُقِمَ منهم من رفع أصواتِهم فوقَ صوتِه عليه السلام؛ لأن مَن فَضَّلَه الله بهذه الأَثَرةِ، واختصَّه هذا الاختصاصَ.. كان أدنى ما يجبُ له من التَّهيُّبِ والإجلالِ أن يَخْفِضَ بين يديه الصوتَ، وعن الحسن: أن أناساً ذبحوا يومَ الأضحى قبل الصلاة فنزلت، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يُعيدوا ذبحاً آخرَ، وعن عائشة رضي عنها أنها نزلت في النهي عن صوم يوم الشكِّ[٢]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن اتقيتموه.. عاقتْكم التقوى عن التقدمةِ المنهيِّ عنها، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون، ﴿عَلِيمٌ ۝١﴾ بما تعملون، وحقُّ مثلِه أن يُتَّقَى.

《٢》 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إعادةُ النداء عليهم استدعاءٌ منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتحريكٌ منهم لئلا يَغفُلوا عن تأملهم، ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: إذا نطق ونطقتُم.. فعليكم ألا تَبلُغوا بأصواتكم وراءَ الحدِّ الذي يبلغُه بصوته، وأن تَغُضُّوا منها بحيث يكون كلامُه عالياً لكلامكم، وجهرُه باهراً لجهركم، حتى تكون مزيتُه عليكم لائحةً، وسابقتُه لديكم واضحةً، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: إذا كلمتموه وهو صامتٌ.. فإياكم والعدولَ عمّا نُهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم ألا تبلُغوا به الجهرَ الدائرَ بينكم، وأن تتعمدُوا في مخاطبته القولَ اللينَ المُقرَّبَ من الهمسِ الذى يُضادُّ الجهرَ، أو لا تقولوا له: يا محمدُ يا أحمدُ، وخاطِبُوه بالنبوةِ والسكينةِ والتعظيمِ، ولما نزلت هذه الآيةُ.. ما كلَّمَ النبيَّ ﷺ أبو بكر وعمرُ إلا كأخِي السِّرارِ[٣]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شماسٍ، وكان في أذنه وَقْرٌ، وكان جَهْوَرِيَّ الصوتَ، وكان إذا كَلَّمَ.. رفع

---

(١) فيكون ذكرُ الله تعالى تعظيماً له؛ حيث جُعِلَ ذكرُ اسمِه تعالى توطئةً وتمهيداً لذكر اسمه عليه الصلاة والسلام؛ ليدل على قوة اختصاص النبي عليه الصلاة و السلام بالله سبحانه.

(٢) روى البخاري (٤٣٦٧) عن سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أَمِّرِ القعقاعَ بنَ معبد بن زرارة، قال عمر: بل أَمِّرِ الأقرعَ بنَ حابس، قال أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتُهما، فنزل في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا﴾ حتى انقضت.

(٣) إسرارُ سيدِنا عمرَ رواه البخاري (٧٣٠٢)، وإسرارُ سيدِنا الصديق رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٦٣).

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ....

صوتَه، وربما كان يكلمُ النبيَّ ﷺ فيتأذى بصوته[1]، وكافُ التشبيه في محلِّ النصب؛ أي: لا تجهرُوا له جهراً مثلَ جهرِ بعضِكم لبعضٍ، وفي هذا أنهم لم يُنهَوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغَ لهم إلا أن يكلموه بالمخافتة، وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص؛ أعني: الجهرَ المنعوتَ بمماثلةِ ما قد اعتادُوه منه فيما بينهم، وهو الخُلُوُّ من مراعاة أُبَّهَةِ النبوةِ وجلالةِ مقدارِها، ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: منصوبُ الموضعِ على أنه المفعول له، متعلقٌ بمعنى النهي؛ والمعنى: انتهوا عمّا نُهيتُم عنه؛ لحبوط أعمالكم؛ أي: لِخشيةِ حُبوطِها، على تقديرِ حذفِ المضافِ، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

《٣》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ تَمَّ اسمُ (إنَّ) عند قولِه: (رسول الله) والمعنى: يَخفضون أصواتَهم في مجلسه تعظيماً له، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾، وتَمَّ صلةُ (الذين) عند قولِه: (للتقوى)، و(أولئك) مع خبرِه: خبرُ (إنَّ)، والمعنى: أَخْلَصَها للتقوى؛ مِن قولهم: امتحن الذهبَ وفَتَنَهُ: إذا أذابَه فخلَّصَ إبريزَه من خَبَثِهِ ونَقّاه، وحقيقتُه: عامَلَها معاملةَ المختبر، فوجدَها مُخلَصةً، وعن عمر رضي الله عنه: أَذْهَبَ الشهواتِ عنها، والامتحانُ: (افتعالٌ) مِن: مَحَنَهُ، وهو: اختبارٌ بليغٌ، أو بلاءٌ جهيدٌ، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾: جملةٌ أخرى، قيل: نزلت في الشيخين رضي الله عنهما، لِما كان منهما مِن غضِّ الصوتِ، وهذه الآيةُ بنظمها الذي رُتِّبَتْ عليه من إيقاع الغاضِّين أصواتَهم اسماً لـ(إنَّ) المؤكِّدةِ، وتصييرِ خبرِها جملةً من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ: اسمَ الإشارة. واستئنافِ الجملة المستودَعَةِ ما هو جزاؤُهم على عملِهم، وإيرادِ الجزاءِ نكرةً مبهماً أمرُه.. دالٌّ على غاية الاعتدادِ والارتضاءِ بفعل الخافضين أصواتَهم، وفيها تعريضٌ بعظيمِ ما ارتكب الرافعون أصواتَهم.

---

(١) روى مسلم (١١٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية.. جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحْتَبَسَ عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ، فقال: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنزلَتْ هذه الآيةُ ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة».

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ....

《٤》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ نزلت في وفدِ بني تميمٍ، أَتَوا رسولَ الله ﷺ وقتَ الظهيرةِ وهو راقدٌ، وفيهم الأقرعُ بنُ حابسٍ وعيينةُ بنُ حِصْنٍ، ونادَوا النبيَّ ﷺ من وراء حُجُراتِه، وقالوا: اخرجْ إلينا يا محمدُ؛ فان مدحَنا زَيْنٌ، وذمَّنا شَيْنٌ، فاستيقظ وخرج[1]، والوراءُ: الجهةُ التي يواريها عنك الشخص بظِلِّهِ من خلفٍ أو قُدّام، و(مِن): لابتداء الغاية، وأن المناداة نشأت من ذلك المكان، والحُجرةُ: الرُّقعةُ من الأرض المحجورةِ بحائطٍ يحوطُ عليها، وهي (فُعلة) بمعنى (مفعولة)، كالقُبْضَةِ، وجمعُها: الحُجُرات، بضمتين، و﴿الحُجَراتِ﴾: بفتح الجيم، وهي قراءةُ يزيدَ[2]، والمرادُ: حجرات نساء رسول الله ﷺ، وكانت لكل منهن حُجرةٌ، ومناداتُهم من ورائها، ولعلهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له، أو نادَوه من وراء الحجرة التي كان عليه السلامُ فيها، ولكنها جُمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ، والفعلُ وإن كان مسنداً إلى جميعهم.. فإنه يجوزُ أن يتولاه بعضُهم، وكان الباقون راضِين، فكأنهم تَوَلَّوْهُ جميعاً، ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ يحتملُ أن يكون فيهم مَن قُصِدَ استثناؤُه، ويحتمل أن يكون المرادُ النفي العامَّ؛ إذ القلةُ تقعُ موقعَ النفيِ، وورود الآيةِ على النمط الذي وردت عليه.. فيه ما لا يخفى من بيناتِ إجلالِ محلِّ رسول الله ﷺ، منها: التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل، ومنها: إيقاعُ لفظِ الحجرات كنايةً عن موضع خَلْوَتِه ومَقيلِه مع بعض نسائه، ومنها: التعريفُ باللام دون الإضافة، ولو تأمل متأملٌ من أول السورة إلى آخر هذه الآية.. لَوَجَدَها كذلك، فتأمل كيف ابتدأ بإيجابِ أن تكون الأمورُ التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدمةً على الأمور كلِّها من غير تقيدٍ، ثم أردف ذلك النهيَ عمّا هو من جنس التقديم؛ مِن رفع الصوتِ والجهرِ، كأن الأولَ بِساطٌ للثاني، ثم أثنى على الغاضّين أصواتَهم؛ ليدلَّ على عظيمِ موقِعِه عند الله، ثم عقَّبَه بما هو أَطَمُّ، وهُجنتُه أَتَمُّ؛ من الصياحِ برسول الله ﷺ في حال خَلْوَتِه من وراء الجدر، كما يُصاحُ بأهونِ الناسِ قدراً؛ لينبهَ على فظاعةِ ما جَسَرُوا عليه؛ لأن مَن رفع الله قدرَه على أن يُجهرَ له بالقول.. كان صنيعُ هؤلاء مِن المنكر الذي بلغ في التفاحشِ مبلغاً.

---

(١) روى الترمذي (٣٢٦٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٥١) عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إنَّ حمدي زَينٌ، وإن ذمي شَينٌ، فقال النبي ﷺ: «ذاك الله عز وجل».

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠١).

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ....

《٥》 ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ أي: ولو ثبت صبرُهم، ومحلُّ (أنهم صبروا): رفعٌ على الفاعلية، والصبرُ: حبسُ النفس عن أن تُنازِعَ إلى هواها، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨] وقولُهم: صبرَ عن كذا.. محذوفٌ منه المفعول، وهو النفس، وقيل: الصبرُ مرٌّ، لا يتجرعُه إلا حُرٌّ، وقولُه: ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ يفيدُ أنه لو خرج ولم يكن خروجُه إليهم ولأجلهم.. للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجَه إليهم، ﴿لَكَانَ﴾ الصبرُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في دينهم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾: بليغُ الغفران والرحمة واسعُهما، فلن يَضيقَ غفرانُه ورحمتُه عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

《٦》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ أجمعُوا أنها نزلت في الوليدِ بنِ عقبةَ وقد بعثه رسول الله ﷺ مُصَدِّقاً إلى بني المصطلِق، وكانت بينه وبينهم إحنةٌ في الجاهلية، فلما شارف ديارَهم.. ركبوا مستقبلين إليه، فحسِبهم مُقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدُّوا ومنعُوا الزكاة، فبعث خالدَ بنَ الوليدِ فوجدَهم يُصلون، فسلموا إليه الصدقاتِ فرجع[1]، وفي تنكير الفاسق والنبأِ شِياعٌ في الفساق والأنباء، كأنه قال: أيُّ فاسقٍ جاءكم بأيِّ نبأٍ ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾: فتوقفوا فيه، وتَطَلَّبُوا بيان الأمر، وانكشافَ الحقيقة، ولا تعتمدُوا قولَ الفاسق؛ لأن من لا يتحامى جنسَ الفسوقِ لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه، وفي الآية دلالةُ قبول خبر الواحد العدل؛ لأنا لو توقفنا في خبره.. لسوَّيْنا بينه وبين الفاسق، ولخلا التخصيصُ به عن الفائدة، والفسوقُ: الخروجُ من الشيء، ويقال: فَسقت الرُّطبة عن قِشرها، ومن مقلوبه: فَقَسْتُ البيضةَ: إذا كسرتَها وأخرجتَ ما فيها، ومن مقلوبه أيضاً: قَفَسْتُ الشيء: إذا أخرجتَه من يد مالكِه مغتصباً له عليه، ثم استعمل في الخروج عن القصد بركوبِ الكبائرِ، حمزةُ وعليٌّ: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾[2]، والتثبتُ والتبيُّنُ متقاربان، وهما: طلبُ الثباتِ والبيانِ والتعرفِ، ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا﴾: لئلا تصيبوا ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: حالٌ؛ يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكُنْهِ القصةِ، ﴿فَتُصْبِحُوا۟﴾: فتصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ الندمُ: ضربٌ من الغَمِّ، وهو أن تغتمَّ على ما وقع منك، وتتمنَّى أنه لم يقع، وهو غَمٌّ يصحبُ الإنسان صحبةً لها دوام.

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٥٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠١).

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ ......

«٧» ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ فلا تكذبوا؛ فإن الله يخبره فينهتكُ ستر الكاذب، أو: فارجعوا إليه واطلُبوا رأيه، ثم قال مستأنفاً: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾: لوقعتم في الجَهْدِ والهلاك، وهذا يدلُّ على أن بعض المؤمنين زيَّنوا لرسول الله ﷺ الإيقاعَ ببني المصطلقِ، وتصديقَ قولِ الوليدِ، وأن بعضَهم كانوا يتصوَّنُون ويَزَعُهم جِدُّهم في التقوى عن الجَسارةِ على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، وقيل: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، ولما كانت صفة الذين حببَ الله إليهم الإيمانَ غايرت صفةَ المتقدمِ ذكرُهم.. وقعت (لكن) في حاقِّ موقعِها؛ من الاستدراك، وهو مخالفةُ ما بعدها لما قبلَه نفياً وإثباتاً، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وهو تغطيةُ نِعَم الله وغَمْطُها بالجحود، ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾: وهو الخروجُ عن مَحَجَّةِ الإيمان بركوبِ الكبائرِ، ﴿وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾: وهو تركُ الانقياد لما أَمَر به الشارعُ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ أي: أولئك المستثنَون هم الراشدون؛ يعني: أصابُوا طريق الحقِّ، ولم يَميلوا عن الاستقامة، والرشدُ: الاستقامةُ على طريق الحقِّ مع تَصَلُّبٍ فيه؛ من الرشادة وهي الصخرة.

«٨» ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ﴾ الفضلُ والنعمةُ بمعنى الإفضال والإنعام، والانتصابُ على المفعول له؛ أي: حببَ وكرهَ؛ للفضل والنعمة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايُزِ والتفاضل، ﴿حَكِيمٌ ۝٨﴾ حين يُفَضِّلُ ويُنعمُ بالتوفيق على الأفاضل.

«٩» ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ وقفَ رسولُ الله ﷺ على مجلسِ بعضِ الأنصارِ وهو على حمارٍ، فبال الحمارُ، فأمسك ابنُ أبيٍّ بأنفه وقال: خَلِّ سبيلَ حمارك فقد آذانا نَتْنُهُ، فقال عبدُ الله بنُ رواحة: والله إن بول حماره لأطيبُ من مِسكِكَ، ومضى رسول الله ﷺ، وطال الخوضُ بينهما حتى استَبَّا وتَجالدا، وجاء قوماهما وهما الأوسُ والخزرجُ فتجالدُوا بالعِصِيِّ، وقيل: بالأيدي والنعال والسَّعَفِ، فرجع إليهم رسولُ له ﷺ فأصلح بينهم، ونزلت[1]، وجُمِعَ (اقتتلوا) حملاً على المعنى؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس، وثَنَّى في (فأصلحوا

(١) روى نحوه البخاري (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ....

بينهما) نظراً إلى اللفظ، ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ البغيُ: الاستطالةُ والظلمُ وإباءُ الصلح، ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ﴾ أي: ترجع، والفيءُ: الرجوعُ، وقد سُمِّيَ به الظلُّ والغنيمةُ؛ لأن الظلَّ يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة: ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين، وحكمُ الفئة الباغية وجوبُ قتالِها ما قاتلت، فإذا كَفَّتْ وقَبضت عن الحرب أيْدِيَها.. تُرِكَتْ، ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ المذكور في كتابه من الصلح وزوالِ الشحناءِ، ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ عن البغي إلى أمر الله ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾: بالإنصاف، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾: واعدلُوا، وهو أمر باستعمالِ القِسطِ على طريق العموم، بعد ما أُمِرَ به في إصلاح ذات البين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾: العادلين، والقَسطُ: الجَورُ، والقِسطُ: العدلُ، والفعلُ منه: أَقْسَطَ، وهمزتُه للسلب؛ أي: أزالَ القَسْطَ، وهو الجَوْرُ.

《١٠》 ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾: هذا تقريرٌ لما أَلْزَمَهُ مِن تولي الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقةُ من المؤمنين، وبيانُ أن الإيمان قد عَقَدَ بين أهله من السبب القريب، والنسبِ اللاصقِ ما إنْ لم يَفْضُلِ الأُخُوَّةَ.. لم يَنْقُصْ عنها، ثم قد جرت العادةُ على أنه إذا نَشَبَ مثلُ ذلك بين الأخَوين وِلاداً.. لزم السائرَ أن يتناهضُوا في رَفْعِهِ وإزاحتِه بالصلح بينهما، فالأخوةُ في الدين أَحَقُّ بذلك، ﴿إِخْوَتِكم﴾: يعقوبُ[1]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: واتقوا الله، فالتقوى تحملُكم على التواصل والائتلاف، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمةِ اللهِ إليكم مرجوّاً، والآيةُ تدلُّ على أن البغيَ لا يُزيل اسمَ الإيمان؛ لأنه سمّاهم مؤمنين مع وجود البغي.

《١١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ القومُ: الرجالُ خاصةً؛ لأنهم القُوّامُ بأمور النساء، قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وهو في الأصل: جمعُ قائمٍ، كصَوْمٍ وزَوْرٍ في جمع صائمٍ وزائرٍ، واختصاصُ القوم بالرجال صريحٌ في الآية؛ إذْ لو كانت النساء داخلةً في (قوم) لم يقل: (ولا نساء)، وحقق ذلك زهيرٌ في قوله[2]: [من: الوافر]

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠١).

(٢) البيت في «ديوانه» (ص١٧).

....

وما أدري ولست إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وأما قولُهم في قوم فرعونَ وقوم عادٍ: هم الذكورُ والإناثُ.. فليس لفظ القوم بمتناطٍ للفريقين، ولكن قُصِدَ ذكرُ الذكور، وتُرِكَ ذكرُ الإناث؛ لأنهن توابعُ لرجالِهن، وتنكيرُ القوم والنساء يحتملُ معنيين: أن يراد: لا يسخرْ بعضُ المؤمنين والمؤمنات من بعض، وأن يُقصدَ إفادةُ الشياع، وأن يصير كلُّ جماعة منهم مَنهيةً من السخرية، وإنما لم يقل: رجلٌ من رجل، ولا امرأةٌ من امرأة على التوحيد؛ إعلاماً بإقدام غير واحد من رجالهم، وغيرِ واحدةٍ من نسائهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه، وقولُه: (عسى أن يكونوا خيراً منهم) كلامٌ مستأنف وردَ مَوردَ جواب المستخبرِ عن علةِ النهيِ، وإلا.. فقد كان حقُّه أن يُوصل بما قبله بالفاء؛ والمعنى: وجوبُ أن يعتقد كلُّ واحدٍ أن المسخورَ منه ربما كان عند الله خيراً من الساخر؛ إذْ لا اطلاعَ للناس إلا على الظواهر، ولا علمَ لهم بالسرائر، والذي يَزِنُ عند الله خلوصُ الضمائر[1]، فينبغي ألّا يجترئَ أحدٌ على الاستهزاء بمن تقتحمُه عينه إذا رآه رثَّ الحال[2]، أو ذا عاهةٍ في بدنه، أو غيرَ لَبِقٍ في محادثته، فلعله أَخلصُ ضميراً، وأتقى قلباً ممن هو على ضِدِّ صفتِه، فيظلمُ نفسَه بتحقيرِ مَن وَقَّرَه الله تعالى، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: البلاءُ موكَّلٌ بالقول، لو سخرتُ مِن كلبٍ.. لخشيتُ أن أُحوَّلَ كلباً[3]، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: ولا تَطْعُنُوا أهلَ دينِكم، واللمزُ: الطعنُ والضربُ باللسان، ﴿ولا تَلْمُزُوا﴾: يعقوبُ وسهلٌ[4]، والمؤمنون كنفس واحدة، فإذا عاب المؤمنُ المؤمنَ.. فكأنما عاب نفسَه، وقيل: معناه: لا تفعلوا ما تَلْمِزُون به؛ لأن مَن فعل ما استحقَّ به اللمزَ.. فقد لَمَزَ نفسَه حقيقةً، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ التنابزُ بالألقاب: التداعي بها، والنبزُ: لقبُ السَّوْءِ، والتلقيبُ المنهيُّ عنه هو: ما يتداخل المدعوَّ به كراهةٌ لكونه تقصيراً به وذمّاً له، فأمّا ما يحبه.. فلا بأس به، وروي: أن قوماً من بني تميم استهزؤوا ببلالٍ وخبابٍ وعمارٍ وصهيبٍ فنزلت، وعن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تَسخَرُ من زينبَ بنتِ خزيمةَ، وكانت قصيرةً، وعن أنس رضي الله عنه: عيَّرَتْ نساءُ

---

(١) يَزِنُ: يكونُ له قيمةٌ وقدرٌ.

(٢) تقتحمُه: تزدريه.

(٣) قوله: (البلاء موكل بالقول) رواه ابن الجعد في المسند (ص ٢٩٠)، وباقيه رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢٣١).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ ....

النبي ﷺ أمَّ سلمةَ بالقِصَرِ، وروي: أنها نزلت في ثابتِ بنِ قيسٍ وكان به وَقْرٌ، فكانوا يُوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ ليسمع، فأتى يوماً وهو يقول: تفسحوا، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال لرجل: تَنَحَّ فلم يفعل، فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان، فقال: بل أنت ابنُ فلانةَ، يريدُ أُمّاً كان يُعيَّرُ بها في الجاهلية، فخجل الرجل فنزلت، فقال ثابت: لا أفخرُ على أحد في الحَسَبِ بعدها أبداً[1]، ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ الاسمُ ههنا بمعنى الذكر؛ مِن قولهم: طار اسمُه في الناس بالكرم أو باللؤم، وحقيقتُه: ما سَما مِن ذكرِه وارتفع بين الناس، كأنه قيل: بئس الذكرُ المرتفعُ للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن يُذكروا بالفسق، وقولُه: (بعد الإيمان) استقباحٌ للجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يحظُره الإيمانُ، كما تقول: بئس الشأنُ بعد الكَبْرَةِ الصَّبوةُ، وقيل: كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهوديُّ يا فاسقُ، فنُهُوا عنه، وقيل لهم: بئس الذكر أن تَذكروا الرجلَ بالفسق واليهودية بعد إيمانه، ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ عمّا نُهِيَ عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ وَحَّدَ وجَمَعَ لِلَفْظِ (مَن) ومعناه.

《١٢》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يقال: جَنَّبه الشرَّ: إذا أَبْعَدَه عنه، وحقيقتُه: جعلَه في جانبٍ، فيُعدَّى إلى مفعولين، قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ومُطاوِعُه: اجتنبَ الشرَّ، فنقصَ مفعولاً، والمأمورُ باجتنابه بعضُ الظن، وذلك البعضُ موصوفٌ بالكثرة، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ قال الزجاج: هو ظنُّك بأهل الخير سوءاً، فأما أهلُ الفسق.. فلَنا أن نظنَّ فيهم مثلَ الذي ظهر منهم[2]، أو: معناه: اجتناباً كثيراً، أو: احترزوا من الكثير ليقعَ التحرزُ عن البعض، والإثمُ: الذنبُ الذي يستحق صاحبه العقاب، ومنه قيل لعقوبته: الأَثام، (فَعالٌ) منه، كالنَّكال والعَذاب، ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: لا تَتَبَّعُوا عوراتِ المسلمين ومعايبَهم، يقال: تَجسس الأمرَ: إذا تطلبه وبحثَ عنه، (تَفَعَّلَ) من الجَسِّ، وعن مجاهد: خذوا ما ظهر ودَعُوا ما ستر اللهُ، وقال سهل: لا تبحثوا عن طلب مَعايِبِ ما

---

(١) عن سيدنا أبي جبيرة بنِ الضحاكِ رضي الله عنه قال: كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة، فيُدْعَى ببعضها، فعسى أن يَكْرَهَ، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾. رواه أبو داود (٤٩٦٢) والترمذي (٣٢٦٨) وابن ماجه (٣٧٤١) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٥٢).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣٦).

....

ستره الله على عباده، ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبةُ: الذكرُ بالعيب في ظهر الغيب، وهي: من الاغتياب، كالغِيلة من الاغتيال، وفي الحديث: «هو أن تذكر أخاك بما يكره، فإن كان فيه.. فهو غيبة، وإلا.. فبُهتان»[١]، وعن ابن عباس: الغيبةُ إدامُ كلابِ الناسِ[٢]، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ﴿مَيِّتاً﴾: مدنيٌّ[٣]، وهذا تمثيلٌ وتصويرٌ لما يناله المغتابُ من عِرْضِ المغتابِ على أفحشِ وجهٍ، وفيه مبالغاتٌ، منها: الاستفهامُ الذي معناه: التقرير، ومنها: جعلُ ما هو في الغاية من الكراهة مَوصولاً بالمحبة، ومنها: إسنادُ الفعل إلى (أحدكم)، والإشعارُ بأن أحداً من الأَحَدِين لا يحبُّ ذلك، ومنها: أنْ لم يقتصرْ على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعلَ الإنسان أخاً، ومنها: أن لم يقتصر على لحم الأخِ حتى جُعِلَ ميتاً، وعن قتادة: كما تكره إن وجدتَ جيفةً مُدَوَّدَةً أن تأكل منها.. كذلك فاكرهْ لحمَ أخيك وهو حيٌّ، وانتصب (ميتاً) على الحال من اللحم، أو مِن (أخيه)، ولمّا قَرَّرَهم بأن أحداً منهم لا يحبُّ أكل جيفةِ أخيه.. عَقَّبَ ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: فتحققت كراهتُكم له باستقامة العقل، فليتحقق أيضاً أن تكرهُوا ما هو نظيرُه من الغيبة باستقامة الدين، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ التوابُ: البليغُ في قبول التوبة؛ والمعنى: واتقوا الله بترك ما أُمِرتم باجتنابه، والندم على ما وُجد منكم منه؛ فإنكم إن اتقيتم.. تقبل اللهُ توبتَكم، وأنعمَ عليكم بثواب المتقين التائبين، وروي: أن سلمان كان يَخدُمُ رجلين من الصحابة ويُسوِّيْ لهما طعامَهما، فنام عن شأنه يوماً، فبعثاه الى رسول الله ﷺ يَبغي لهما إداماً، وكان أسامةُ على طعام رسول الله ﷺ، فقال: ما عندي شيء، فأخبرهما سلمانُ، فقالا: لو بعثناه إلى بئرِ سُمَيْحَةَ.. لغار ماؤُها، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ.. قال لهما: «ما لي أرى حمرةَ اللحم في أفواهكما؟» فقالا: ما تناولنا لحماً، قال: «قد اغتبتما، ومَن اغتاب مسلماً.. فقد أكل لحمَه»، ثم قرأ الآيةَ[٤]، وقيل: غِيبةُ الخلق إنما تكون من الغَيبة عن الحقِّ.

---

(١) رواه بنحوه مسلم (٢٥٨٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (ص ١٧٣) من قول سيدنا علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠١).

(٤) روى الضياء في «الأحاديث المختارة» (٥/ ٧١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت العرب تخدُم بعضُها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمرَ رجلٌ يخدُمهما، فناما فاستيقظا ولم يهئ لهما طعاماً، فقال أحدهما لصاحبه: إن هذا ليوائم نوم بيتكم، فأيقظاه فقالا: ائتِ رسولَ الله ﷺ فقل له: إن أبا بكر وعمر يُقرئانك السلام وهما يستأدِمانك، فقال: «أقرئهما السلام وأخبرهما أنهما قد ائتدما»، ففزِعا فجاءا إلى النبي =

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ ....

《١٣》 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾: من آدمَ وحواءَ، أو: كلٌّ واحد منكم من أب وأم، فما منكم من أحد إلا وهو يُدلي بمثل ما يدلي به الآخر، سواءً بسواءٍ، فلا معنى للتفاخر والتفاضل في النسب، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشَّعبُ: الطبقةُ الأولى من الطبقات الستِّ التي عليها العرب، وهي: الشَّعْبُ والقبيلةُ والعِمارةُ والبطنُ والفخذُ والفصيلةُ، فالشَّعبُ: يجمع القبائلَ، والقبيلةُ: تجمع العمائرَ، والعِمارةُ: تجمع البطون، والبطنُ: تجمع الأفخاذ، والفخذ: تجمع الفصائل، خُزيمةُ: شَعْبٌ، وكِنانةُ: قبيلةٌ، وقريشٌ عِمارةٌ، وقُصيٌّ: بطنٌ، وهاشمٌ: فخذٌ، والعباسُ: فصيلةٌ؛ وسُميت الشعوبَ؛ لأن القبائل تشعبتْ منها، ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: إنما رتبكم على شعوب وقبائلَ؛ ليعرف بعضُكم نسبَ بعض، فلا يَعتزي إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدَّعوا التفاضلَ في الأنساب، ثم بيَّنَ الخَصلةَ التي يَفضُلُ بها الإنسانُ غيرَه ويكتسبُ الشرفَ والكرمَ عند الله فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ في الحديث: «من سرَّه أن يكون أكرمَ الناس.. فليتقِ الله»[(١)]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كرم الدنيا الغِنى، وكرمُ الآخرة التقوى[(٢)]، وروي: أنه ﷺ طافَ يومَ فتحِ مكةَ فحمدَ اللهَ وأثنى عليه ثم قال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليةِ وتكبرَها[(٣)]، يا أيها الناس إنما الناس رجلان: مؤمنٌ تقيٌّ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌّ هَيِّنٌ على الله»[(٤)]، ثم قرأ الآيةَ، وعن يزيدَ بنِ شَجَرَةَ: مرَّ رسول الله ﷺ في سوقِ المدينةِ، فرأى غلاماً أسودَ يقول: مَن اشتراني.. فعلى شرطِ ألا يمنعَني من الصلوات الخمس خلفَ رسولِ الله ﷺ، فاشتراه بعضُهم فمرض، فعاده رسول الله ﷺ ثم توفي فحضر دفنَه، فقالوا في ذلك شيئاً، فنزلت، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكرمِ القلوبِ وتقواها، ﴿خَبِيرٌ (١٣)﴾ بهمم النفوس في هواها.

= ﷺ فقالا: يا رسول الله بعثنا إليك نستأدمك فقلتَ: «قد ائتدَما» فبأيِّ شيء ائتدَمنا؟ قال: «بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين أنيابكما» قالا: فاستغفرْ لنا، قال: «هو فليستغفرْ لكما».

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٧٠).

(٢) رواه الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (٣/ ٢٩٨).

(٣) العُبِّيَّةُ: الكِبْرُ والفَخْرُ.

(٤) رواه الترمذي (٣٢٧٠) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه.

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ ....

《١٤》 ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ أي: بعضُ الأعراب؛ لأن مِن الأعراب مَن يؤمن بالله واليوم الآخر، وهم أعرابُ بني أَسَدٍ، قدمُوا المدينة في سنةٍ جَدْبَةٍ، فأظهروا الشهادة يُريدون الصدقةَ، ويَمُنُّون عليه، ﴿ءَامَنَّاۖ﴾ أي: ظاهراً وباطناً، ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾: لم تُصدقوا بقلوبكم، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فالإيمانُ هو: التصديقُ، والإسلامُ: الدخولُ في السِّلمِ والخروجُ مِن أن يكون حرباً للمؤمنين بإظهار الشهادتين؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ فاعلمْ أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب.. فهو إسلامٌ، وما واطأ فيه القلبُ اللسانَ.. فهو إيمان، وهذا من حيث اللغةُ، وأما في الشرع.. فالإيمانُ والإسلامُ واحدٌ؛ لما عُرِفَ، وفي (لما) معنى التوقع، وهو دالٌّ على أن بعض هؤلاء قد آمنوا فيما بعدُ، والآيةُ تنقُضُ على الكرامية مَذْهبَهم أنَّ الإيمان لا يكون بالقلب، ولكن باللسان، فإن **قلت**: مقتضى نظمِ الكلامِ: أن يقال: قل: لا تقولوا آمنا، ولكن قولوا: أسلمنا، أو: قل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم.. **قلت**: أفاد هذا النظمُ تكذيبَ دعواهم أوّلاً، فقيل: قلْ: لم تؤمنوا، مع أدبٍ حسنٍ، فلم يَقُلْ: كذبتم، تصريحاً، ووضعَ (لم تؤمنوا) الذي هو نفيُ ما ادَّعوا إثباته موضعَه، واستغنَى بقوله: (لم تؤمنوا) عن أن يقال: لا تقولوا: آمنا؛ لاستهجانِ أن يُخاطَبوا بلفظٍ مؤدّاه: النهيُ عن القول بالإيمان، ولم يقل: ولكن أسلمتُم؛ ليكون خارجاً مخرج الزعمِ والدعوى، كما كان قولُهم: (آمنا) كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتُم.. لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم، وهو غير معتدٍّ به، وليس قولُه: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) تكريراً لمعنى (قل لم تؤمنوا)؛ فإن فائدة قوله: (لم تؤمنوا) تكذيبٌ لدعواهم، وقولُه: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) توقيتٌ لما أُمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ولكن قولوا أسلمنا، حين لم تثبت مُواطأةُ قلوبكم لألسنتكم؛ لأنه كلام واقعٌ موقع الحال من الضمير في (قولوا)، ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في السرِّ بترك النفاقِ ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾: ﴿لا يألتكم﴾: بَصريٌّ[1]، ﴿مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي: لا يُنقصكم من ثواب حسناتكم شيئاً، أَلَتَ يَأْلِتُ، وأَلاتَ يُليتُ، ولَاتَ يَلِيتُ بمعنىً، وهو: النقصُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ يسترُ الذنوبَ، ﴿رَّحِيمٌ ١٤﴾ بهدايتهم للتوبة عن العيوب.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٢).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ....﴾

«١٥» ثم وصف المؤمنين المخلصين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ ارتاب: مُطاوعُ رابَهُ: إذا أوقعه في الشكِّ مع التهمة؛ والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقعْ في نفوسهم شكٌّ فيما آمنوا به، ولا اتهامٌ لمن صدَّقُوه، ولما كان الإيقانُ وزوالُ الرَّيب مِلاكَ الإيمان.. أُفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان؛ تنبيهاً على مكانه، وعُطِفَ على الإيمانِ بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غَضّاً جديداً[1]، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أن يكون المجاهَدُ منويّاً، وهو العدوُّ المحارب، أو الشيطان، أو الهوى، وأن يكون: جاهدَ مبالغةً في: جَهَدَ، ويجوزُ أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزوُ، وأن يتناولَ العباداتِ بأجمعِها، وبالمجاهدة بالمال: نحوُ صنيعِ عثمانَ في جيش العُسرةِ، وأن يتناول الزكاة، وكلَّ ما يتعلق بالمال من أعمال البرِّ، وخبرُ المبتدأِ الذي هو (المؤمنون): ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: الذين صدقوا في قولهم: آمنا، ولم يَكذبوا، كما كذب أعرابُ بني أَسَدٍ، وهم الذين إيمانهم إيمانُ صدق وحقٍّ، وقولُه: (الذين آمنوا): صفةٌ لهم، ولما نزلت هذه الآيةُ.. جاؤوا وحلفوا أنهم مُخلصون، فنزل:

«١٦» ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرونه بتصديقِ قلوبِكم؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ من النفاق والإخلاص وغيرِ ذلك.

«١٧» ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ﴾ أي: بأن ﴿أَسْلَمُوا۟﴾ يعني: بإسلامهم، والمنُّ: ذكرُ الأيادي تعريضاً للشكر، ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: المنةُ لله عليكم ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾: بأن هداكم، أو: لِأَنْ، ﴿لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾: إن صحَّ زعمُكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعُمون وتدعُون ما اللهُ عليمٌ بخلافه، وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة ما قبلَه عليه، تقديرُه: إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمانَ بالله.. فلله المنةُ عليكم، وقرئَ: ﴿إنْ هداكم﴾[2].

---

(١) أي: ليس المراد من العطف بـ(ثم) أن عدم الارتياب متراخ في الزمن عن الإيمان؛ لأن تراخيَه يؤدي إلى عدم صحة الإيمان، ولكن العطف أفاد أنهم لم يحدث لهم الارتياب في كل زمن وإن طال. انظر «الإكليل» (٦/ ٦٦٧).

(٢) انظر «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٣٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾

《١٨》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾ وبالياء: مكيٌّ، وهذا بيانٌ لكونهم غيرَ صادقين في دعواهم؛ يعني: أنه تعالى يعلم كلَّ مستتر في العالم، ويبصرُ كلَّ عمل تعملونه في سركم وعلانيتكم، لا يخفَى عليه منه شيءٌ، فكيف يخفَى عليه ما في ضمائركم؟



﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾ ....

سورة ق

مكيةٌ، وهي خمس وأربعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٢》 الكلامُ في ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ كالكلام في ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص: ١-٢] سواءً بسواءٍ؛ لالتقائهما في أسلوب واحد، و(المجيد): ذو المجد والشرف على غيرِه من الكتب، ومن أحاط علماً بمعانيه، وعمل بما فيه.. مَجُدَ عند الله وعند الناس، وقولُه: (بل عجبوا) أي: كفارُ مكةَ ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: محمدٌ ﷺ، إنكارٌ لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمَخُوْفِ رجلٌ منهم قد عرفوا عدالته وأمانته، ومن كان كذلك.. لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن ينالهم مكروه، وإذا علم أن مَخُوفاً أظلَّهم.. لزمه أن ينذرهم، فكيف بما هو غايةُ المخاوف؟ وإنكارٌ لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث، مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وعلى اختراعِ كلِّ شيء، وإقرارِهم بالنشأة الأولى، مع شهادة العقل بأنه لا بُدَّ من الجزاء، ثم عوَّلَ على أحد الإنكارين بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

《٣》 ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾: دلالةٌ على أنَّ تعجبَهم من البعث أدخلُ في الاستبعاد، وأحقُّ بالإنكار، ووضع (الكافرون) موضعَ الضمير؛ للشهادة على أنهم في قولِهم هذا مُقدمون على الكفر العظيم، وهذا إشارةٌ إلى الرَّجْعِ، و(إذا): منصوبٌ بمضمر، معناه: أَحِيْنَ نموتُ ونَبلى نَرجعُ؟ ﴿مِتۡنَا﴾: نافعٌ وعليٌّ وحمزةُ وحفصٌ[1]، ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾: مُستبعدٌ مُستنكرٌ، كقولك: هذا قولٌ بعيدٌ؛ أي: بعيدٌ من الوهم والعادة، ويجوز أن يكون الرَّجْعُ بمعنى المرجوع، وهو الجوابُ[2]، ويكونُ من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارِهم ما أُنذرُوا به من البعث، والوقفُ على (تراباً) على هذا حسنٌ، وناصبُ الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع: ما دلَّ عليه المنذرُ من المنذَرِ به وهو البعث.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٢).

(٢) يقال: هذا رَجْعُ رسالتِكَ ومرجوعُها؛ أي: جوابُها.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ ....

«٤» ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾: ردٌّ لاستبعادِهم الرَّجْعَ؛ لأن مَن لَطُفَ علمُه حتى علم ما تَنْقُص الأرضُ من أجسادِ الموتى وتأكلُه من لحومهم وعظامِهم.. كان قادراً على رجْعِهم أحياءً كما كانوا، ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾: محفوظٌ من الشياطين ومن التغير، وهو اللوحُ المحفوظُ، أو: حافظٌ لما أُوْدِعَه وكُتِبَ فيه.

«٥» ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾: إضرابٌ أُتْبِعَ الإضرابَ الأولَ؛ للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أفظعُ من تعجبهم، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوةُ الثابتةُ بالمعجزات في أولِ وَهْلَةٍ من غير تفكُّرٍ ولا تَدَبُّرٍ، ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾: مضطرب؛ يقال: مَرِجَ الخاتَمُ في الإصبع؛ أي: اضطرب من سَعَتِه، فيقولون تارةً: شاعرٌ، وطوراً: ساحرٌ، ومرةً: كاهنٌ، لا يَثْبُتون على شيءٍ واحد، وقيل: الحقُّ: القرآنُ، وقيل: الإخبارُ بالبعث، ثم دلَّهم على قدرته على البعث فقال:

«٦» ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾: إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم، ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾: رفعناها بغير عَمَدٍ، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالنَّيِّراتِ، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾: من فُتوقٍ وشُقوقٍ؛ أي: أنها سليمةٌ من العيوب، لا فتقَ فيها، ولا صَدْعَ ولا خلل.

«٧» ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾: دَحَوْناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: جِبالاً ثوابتَ، لولا هي.. لمالت، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾: صِنْفٍ ﴿بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ يُبْتَهَجُ به لِحُسنه.

«٨» ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾: لِنُبَصِّرَ به ونُذَكِّرَ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾: راجعٍ إلى ربه، مفكر في بدائعِ خلقِه.

«٩» ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾: كثيرَ المنافعِ، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ أي: وحبَّ الزرعِ الذي من شأنه أن يُحصدَ، كالحنطةِ والشعير وغيرِهما.

«١٠» ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾: طِوالاً في السماء، ﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾: هو كلُّ ما يَطْلُعُ مِن ثمر النخيل ﴿نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾: منضودٍ بعضُه فوق بعض لكثرة الطَّلْعِ وتَراكمِه، أو لكثرة ما فيه من الثمر.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

«١١» ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: أنبتناها رزقاً للعباد؛ لأن الإنباتَ في معنى الرزق، فيكون (رزقاً) مصدراً من غير لفظه، أو: هو مفعولٌ له؛ أي: أنبتناها لرزقهم، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾: بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: قدْ جفَّ نباتُها، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾: كما حَيِيَتْ هذه البلدةُ الميتةُ.. كذلك تُخرَجون أحياءً بعد موتِكم؛ لأن إحياء المَوات كإحياء الأموات، والكافُ: في محلِّ الرفع على الابتداء.

«١٢» ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾: قبل قريشٍ ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ هو: بئرٌ لم تُطْوَ، وهم قومٌ باليمامة، وقيل: أصحابُ الأخدود، ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾.

«١٣» ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أراد بفرعونَ: قومَه، كقولِه: ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ [يونس: ٨٣] لأن المعطوفَ عليه قومُ نوح، والمعطوفاتُ جماعاتٌ، ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾.

«١٤» ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ سمّاهم إخوانه؛ لأن بينهم وبينه نَسَباً قريباً، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾: هو مَلِكٌ باليمن، دعا قومه إلى الإسلام فكذبوه، وسُمِّيَ به لكثرة تَبَعِه، ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ منهم ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ لأن مَن كذَّبَ رسولاً واحداً.. فقد كذبَ جميعَهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾: فوجب وحلَّ وعيدي، وفيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ، وتهديدٌ لهم.

«١٥» ﴿أَفَعَيِينَا﴾ عَيِيَ بالأمر: إذا لم يهتدِ لوجهِ عملِه، والهمزةُ للإنكار، ﴿بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أنا لم نَعْجِزْ عن الخلق الأول، فكيف نَعْجِزُ عن الثاني، والاعترافُ بذلك اعترافٌ بالإعادة، ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾: في خَلْطٍ وشُبْهَةٍ، قد لَبَّسَ عليهم الشيطانُ وحيَّرَهم، وذلك تَسويلُه إليهم أن إحياء الموتى أمرٌ خارج عن العادة، فتركوا لذلك الاستدلالَ الصحيحَ، وهو أن من قَدَرَ على الإنشاء.. كان على الإعادة أَقْدَرَ، ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ بعد الموت، وإنما نَكَّرَ الخلقَ الجديدَ؛ ليدلَّ على عظمةِ شأنِه، وأنَّ حقَّ من سَمِعَ به أن يَخافَ ويَهتمَّ به.

«١٦» ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ الوسوسةُ: الصوتُ الخفيُّ، ووسوسةُ النفس: ما يخطرُ ببال الإنسان ويَهْجِسُ في ضميره من حديث النفس، والباءُ مثلُها في قوله: صَوَّتَ بكذا[1]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ المراد: قربُ علمِه منه، ﴿مِّنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ هو مَثَلٌ في فَرْطِ

(١) أي: أنها باء التعدية، توصل الفعل إلى مفعوله.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ ....

القُرْبِ، والوريدُ: عِرْقٌ في باطن العنق، والحبلُ: العِرْقُ، والإضافةُ: للبيان، كقولهم: بعيرُ سانيةٍ.

《١٧》 ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين الحافظين، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ التلقي: التَّلَقُّنُ بالحفظ والكتابة، والقعيدُ: المقاعدُ، كالجليس بمعنى المجالس، وتقديرُه: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيدٌ مِن المتلَقِّيَيْنِ، فتُرِكَ أحدُهما لدلالة الثاني عليه، كقوله[1]: [من: الطويل]

رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي بريّاً ومن أجْلِ الطَّوِيِّ رماني

أي: رماني بأمرٍ كنتُ منه بريئاً، وكان والدي منه بريئاً، و(إذ): منصوبٌ بـ(أقرب) لما فيه معنى (يقرب) والمعنى: إنه لطيفٌ يَتوصل علمُه إلى خطرات النفس، ولا شيءَ أخفى منه، وهو أقربُ من الإنسان من كلِّ قريبٍ، حين يَتلقَّى الحفيظانِ ما يتلفظُ به إيذاناً بأن استحفاظَ الملكين أمرٌ هو غنيٌّ عنه، وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات، وإنما ذلك لِحِكْمَةٍ، وهي ما في كَتْبَةِ الملكين وحفظِهما وعرضِ صحائفِ العملِ يومَ القيامةِ مِن زيادة لطفٍ له في الانتهاء عن السيئات، والرغبةِ في الحسنات.

《١٨》 ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾: ما يتكلمُ به وما يَرمِي به مِن فِيْهِ، ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾: حافظٌ، ﴿عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾: حاضرٌ، ثم قيل: يكتبانِ كلَّ شيءٍ حتى أَنِيْنَهُ في مرضه، وقيل: لا يكتبان إلا ما فيه أجرٌ أو وِزْرٌ، وقيل: إن الملكين لا يَجتنبانِ إلا عند الغائط والجماعِ.

لما ذكر إنكارَهم البعثَ، واحتجَّ عليهم بقدرته وعلمه.. أعلمَهم أن ما أنكرُوه هم لاقُوْهُ عن قريبٍ عند موتِهم، وعند قيام الساعة، ونبَّهَ على اقتراب ذلك؛ بأن عبَّرَ عنه بلفظ الماضي، وهو قولُه:

《١٩》 ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شِدَّتُه الذاهبةُ بالعقل ملتبسةً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحقيقةِ الأمرِ، أو بالحكمةِ، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ﴾ الإشارةُ إلى الموت، والخطابُ: للإنسانِ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ على طريق الالتفات، ﴿تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾: تَنْفُرُ وتَهْرُبُ.

---

(١) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي في «ديوانه» (ص١٨٧).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ٢٥﴾

«٢٠» ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ يعني: نفخةَ البعثِ، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ أي: وقتُ ذلك يومُ الوعيد، على حذف المضاف، والإشارةُ إلى مصدرِ (نُفِخَ).

«٢١» ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ أي: ملكان، أحدُها يسوقُه إلى المحشر، والآخرُ يشهدُ عليه بعملِه، ومحلُّ (معها سائق): النصبُ على الحال مِن (كلّ) لتعرفِه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة.

«٢٢» ﴿لَّقَدۡ كُنتَ﴾ أي: يُقال له: لقد كنتَ ﴿فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ النازلِ بك اليومَ، ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: فأزلْنا غفلتك بما تشاهدُ، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ جُعِلَتِ الغَفْلَةُ كأنها غِطاءٌ غَطَّى به جسدَه كلَّه، أو غِشاوةٌ غَطَّى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً، فإذا كان يومُ القيامة.. تيقظَ وزالت عنه الغفلةُ وغطاؤُها، فيبصرُ ما لم يُبصرْه من الحقِّ، ورجع بصرُه الكليلُ عن الإبصار لغفلته حديداً لتيقظِه.

«٢٣» ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الجمهورُ على أنه الملكُ الكاتبُ الشهيدُ عليه، ﴿هَٰذَا﴾ أي: ديوانُ عمله، مجاهدٌ: شيطانُه الذي قُيِّضَ له في قوله: ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: ٣٦] هذا؛ أي: الذي وُكِّلْتُ به ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾ (هذا): مبتدأٌ، و(ما): نكرةٌ بمعنى شيء، والظرفُ بعده: وصفٌ له، وكذلك (عتيد)، و(ما) وصفتُها: خبرُ (هذا)، والتقديرُ: هذا شيءٌ ثابتٌ لديَّ عتيدٌ، ثم يقول الله تعالى:

«٢٤» ﴿أَلۡقِيَا﴾ والخطابُ: للسائق والشهيد، أو لمالكٍ، وكأن الأصلَ أَلْقِ أَلْقِ، فناب (ألقيا) عن أَلْقِ أَلْقِ؛ لأن الفاعل كالجزء من الفعل، فكانت تثنيةُ الفاعل نائبةً عن تكرار الفعل، وقيل: أصلُه: أَلْقِيَنْ، والألفُ بدلٌ من النون؛ إجراءً للوصل مُجرى الوقف؛ دليلُه: قراءةُ الحسن: ﴿أَلْقِيَنْ﴾[1]، ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بالنعمِ والمنعمِ ﴿عَنِيدٖ ٢٤﴾: معاندٍ مجانبٍ للحقِّ مُعادٍ لأهلِه.

«٢٥» ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾: كثيرِ المنعِ للمال عن حقوقِه، أو منّاعٍ لجنسِ الخيرِ أن يَصِلَ إلى أهلِه، ﴿مُعۡتَدٖ﴾: ظالم مُتخطٍّ للحق، ﴿مُّرِيبٍ ٢٥﴾: شاكٍّ في الله وفي دينه.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٤).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ ....

《٢٦》 ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: مبتدأٌ متضمن معنى الشرط، خبرُه: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾، أو: بدلٌ من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ (فألقياه): تكريرٌ للتوكيد، ولا يجوز أن يكون صفة لـ(كَفّار) لأن النكرة لا تُوصَفُ بالموصول.

《٢٧》 ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانُه الذي قُرِنَ به، وهو شاهدٌ لمجاهدٍ، وإنما أُخليت هذه الجملةُ عن الواو دون الأولى؛ لأن الأولى واجبٌ عطفُها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول؛ أعني: مجيءَ كلِّ نفس مع الملكين، وقولَ قرينِه ما قال له، وأما هذه.. فهي مستأنَفةٌ كما تُستأنَفُ الجملُ الواقعةُ في حكاية التقاول، كما في مقاولة موسى وفرعون، فكأن الكافرَ قال: ربِّ هو أطغاني، فقال قرينُه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: ما أوقعتُه في الطغيان، ولكنه طغى واختار الضلالةَ على الهدى.

《٢٨》 ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾: استئنافٌ مثلُ قولِه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ كأن قائلاً قال: فماذا قال الله؟ فقيل: قال: (لا تختصموا) ﴿لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: لا تختصمُوا في دارِ الجزاءِ وموقفِ الحسابِ، فلا فائدة في اختصامِكم، ولا طائلَ تحتَه، وقد أوعدتُكم بعذابي على الطغيان في كتبي، وعلى ألسنة رسلي، فما تركتُ لكم حجةً عليَّ، والباءُ في بالوعيد: مزيدةٌ، كما في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو مُعَدِّيَةٌ على أنَّ قَدَّمَ مطاوعٌ بمعنى تَقَدَّمَ.

《٢٩》 ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: لا تطمعُوا أن أُبَدِّلَ قولي ووعيدي بإدخال الكفار في النار، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ فلا أُعذبُ عبداً بغير ذنب، وقال: (بظلام) على لفظ المبالغة؛ لأنه من قولك: هو ظالم لعبده، وظلام لعبيده[1].

《٣٠》 ﴿يَوْمَ﴾: نصبٌ بـ(ظلّام)، أو بمضمر هو: اذكر وأنذرْ، ﴿يقول﴾: نافعٌ وأبو بكر[2]؛ أي: يقولُ الله ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ وهو مصدر كالمحيد[3]؛ أي: أنها تقول بعد امتلائها: هل من مزيد؛ أي: هل بقيَ فيَّ موضعٌ لم يمتلئ؛ يعني: قد امتلأتُ، أو: أنها

---

(١) أي: أن المبالغة جاءت بالنظر لكثرة العبيد، فلا يقال: إن نفي المبالغة في الظلم لا يفيد نفي أصل الظلم.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٣).

(٣) مصدرٌ ميمي للفعل حَادَ، يقال: حاد عن الطريق؛ أي: عدل عنه.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ....

تستزيدُ وفيها موضعٌ للمزيد، وهذا على تحقيقِ القولِ من جهنم، وهو غيرُ مستنْكَرٍ، كإنطاقِ الجوارحِ، والسؤالُ لتوبيخِ الكفرة؛ لعلمِه تعالى بأنها امتلأتْ أم لا.

《٣١》 ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ (غير): نصبٌ على الظرف؛ أي: مكاناً غيرَ بعيدٍ، أو على الحال، وتذكيره لأنه على زِنَةِ المصدر، كالصَّليل[1]، والمصادرُ يستوِي في الوصف بها المذكر والمؤنث، أو: على حذف الموصوف؛ أي: شيئاً غيرَ بعيدٍ؛ ومعناه: التوكيد، كما تقول: هو قريبٌ غيرُ بعيدٍ، وعزيزٌ غيرُ ذليل.

《٣٢》 ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأٌ، وهو إشارة إلى الثواب، أو إلى مصدر (أزلفت)، ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾: خبره، وبالياء: مكيٌّ[2]، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾. رجّاعٍ إلى ذكرِ اللهِ، بدل من قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بتكرير الجار[3]، ﴿حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾: حافظٍ لحدودِه، جاء في الحديث: «مَن حافظ على أربع ركعات في أول النهار.. كان أوّاباً حفيظاً»[4].

《٣٣》 ﴿مَّنْ﴾: مجرورُ المحلِّ بدلٌ مِن (أواب)، أو: رفعٌ بالابتداء، وخبرُه: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على تقدير: يُقال لهم: ادخلوها بسلام؛ لأن (مَن) في معنى الجمع، ﴿خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الخشيةُ: انزعاجُ القلب عند ذكر الخطيئة، وقُرِنَ بالخشيةِ اسمُه الدالُّ على سعة الرحمة؛ للثناء البليغ على الخاشي، وهو خشيتُه مع علمه أنه الواسع الرحمة، كما أُثنيَ عليه بأنه خاشٍ مع أن المختشَى منه غائبٌ، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: حالٌ من المفعول؛ أي: خَشِيَهُ وهو غائبٌ، أو: صفةٌ لمصدرِ خشيَ؛ أي: خشيه خشيةً ملتبسة بالغيب؛ حيث خشي عقابَه وهو غائبٌ، الحسن: إذا أَغلقَ البابَ، وأرخَى السِّتْرَ، ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾: راجعٍ إلى الله، وقيل: بسريرة مرضية، وعقيدة صحيحة.

《٣٤》 ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي: سالمين من زوال النعم، وحلول النقم، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ أي: يومُ تقديرِ الخلودِ، كقولِه: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: مُقدَّرين الخلودَ.

---

(١) الصليل: الصوت، يقال: صلَّ المسمار: صوَّتَ عند الدقِّ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٣).

(٣) التعبيرُ الأدقُّ قولُ الآلوسي في «تفسيره» (١٣/ ٣٣٩): بدلٌ من المتقين بإعادة الجار، أو: مِن ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على أن يكون الجارُّ والمجرور بدلاً من الجارِّ والمجرور.

(٤) لم أجده.

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ ....

«٣٥» ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ على ما يشتهون، والجمهورُ على أنه رؤيةُ الله تعالى بلا كيفٍ.

«٣٦» ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾: قبلَ قومِكَ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ من القرون الذين كذبوا رسلَهم، ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم﴾: من قومك ﴿بَطْشًا﴾: قوةً وسَطوةً، ﴿فَنَقَّبُوا﴾: فخرقوا[1] ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ وطافُوا، والتنقيب: التنقيرُ عن الأمر والبحثُ والطلبُ، ودخلت الفاءُ للتسبيب عن قولِه: (هم أشد منهم بشطاً) أي: شدةُ بطشِهم أقدرتْهم على التنقيب، وقَوَّتْهُم عليه، ويجوز أن يُرادَ: فنقب أهلُ مكةَ في أسفارهم ومسايرهم في بلاد القرون، فهل رأوا لهم مَحيصاً حتى يؤمِّلُوا مثله لأنفسهم، ويدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: ﴿فَنَقِّبُوا﴾ على الأمر[2]، ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾: مَهْرَبٍ من الله، أو من الموت.

«٣٧» ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَذِكْرَىٰ﴾: تذكرةً وموعظةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ واعٍ؛ لأن مَن لا يَعي قلبُه فكأنه لا قلبَ له، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾: أصغى إلى المواعظ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾: حاضرٌ بفطنته؛ لأن مَن لا يحضرُ ذهنُه فكأنه غائب.

«٣٨» ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾: إعياءٌ، قيل: نزلت في اليهود لُعِنَتْ تكذيباً لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، أولُها: الأحدُ، وآخرُها: الجمعةُ، واستراح يومَ السبتِ، واستلقى على العرش، وقالوا: إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود، ومنهم أُخِذَ، وأنكر اليهودُ التربيعَ في الجلوس، وزعمُوا أنه جلس تلك الجلسة يوم السبت[3].

«٣٩» ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: على ما يقول اليهودُ ويأتون به من الكفر والتشبيه، أو على ما يقول المشركون في أمر البعث؛ فإن مَن قَدَرَ على خلق العالم.. قَدَرَ على بعثهم

---

(١) يُقال: خرقتُ المفازةَ: قطعتُها حتى بلغتُ أقصاها.

(٢) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٥١٤).

(٣) تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ۝٤٣ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ۝٤٤﴾ ....

والانتقام منهم، ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾: حامداً ربَّك، والتسبيحُ محمولٌ على ظاهره، أو: على الصلاةِ؛ فالصلاةُ ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾: الفجرُ، ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩﴾: الظهرُ والعصرُ.

«٤٠» ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾: العِشاءان، أو: التهجدُ، ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾: التسبيحُ في آثار الصلوات والسجود والركوع يُعبَّرُ بهما عن الصلاة، وقيل: النوافلُ بعد المكتوبات، أو الوترُ بعد العشاء، والأدبارُ: جمعُ دُبُرٍ، ﴿وإدبار﴾: حجازيٌّ وحمزةُ وخلفٌ؛ مِن: أدبرتِ الصلاةُ: إذا انقضت وتمتّ، ومعناه: وقتُ انقضاء السجود، كقولِهم: آتيك خُفُوقَ النجمِ.

«٤١» ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ لما أُخبرك به من حال يوم القيامة، وفي ذاك تهويلٌ وتعظيمٌ لشأن المخبَرِ به، وقد وقف يعقوبُ عليه، وانتصب: ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ بما دلَّ عليه ذلك يومُ الخروج؛ أي: يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور، وقيل: تقديرُه: واستمعْ حديثَ يومَ ينادي المنادي، ﴿المنادي﴾: بالياء في الحالين: مكيٌّ وسهلٌ ويعقوبُ، وفي الوصل: مدنيٌّ وأبو عمرٍو، وغيرُهم: بغير ياء فيهما[1]، والمنادِي إسرافيلُ، ينفخُ في الصور، وينادي: أيتُها العظامُ الباليةُ، والأوصالُ المتقطعةُ، واللحومُ المتمزقةُ، والشعورُ المتفرقةُ، إن الله يأمركنَّ تجتمعن لفصل القضاء، وقيل: إسرافيلُ ينفخُ، وجبريلُ ينادي بالحشر، ﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١﴾: من صخرةِ بيتِ المقدسِ، وهي أقربُ مكانٍ من الأرض إلى السماء باثني عشرَ ميلاً، وهي وَسَطُ الأرض[2].

«٤٢» ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ﴾: بدلٌ من (يوم ينادي)، الصيحةُ: النفخةُ الثانيةُ، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: متعلقٌ بالصيحة، والمرادُ به: البعثُ والحشرُ للجزاء، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۝٤٢﴾ من القبور.

«٤٣» ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ﴾ الخلقَ، ﴿وَنُمِيتُ﴾ أي: نميتُهم في الدنيا، ﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ۝٤٣﴾ أي: مصيرُهم.

«٤٤» ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ﴾: خفيفٌ: كوفيٌّ وأبو عمرٍو، وغيرُهم: بالتشديد، ﴿ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ﴾

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٣) وكذا القراءة الآتية.

(٢) من المعلوم الآنَ بداهةً عدمُ صحة هذا الكلام، وقد جاء في «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٣٠): ووصفه بـ (قريب) للإشارة إلى سرعة حضور المنادَينَ، وهو الذي فسَّرَتْه جملةُ (يوم يسمعون الصيحة بالحق) لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يَخفَى على السامعين، بخلاف النداء من كان بعيد.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

أي: تتصدعُ الأرضُ، فتُخرجُ الموتى من صُدُوعِها، ﴿سِرَاعًا﴾: حالٌ من المجرور؛ أي: مسرعين، ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾: هَيِّنٌ، وتقديمُ الظرف يدلُّ على الاختصاص؛ أي: لا يتيسرُ مثلُ ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذي لا يشغلُه شأن عن شأن.

《٤٥》 ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك وفينا، تهديدٌ لهم، وتسليةٌ لرسول الله ﷺ، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ كقوله: ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] أي: ما أنت بمسلَّطٍ عليهم، إنما أنت داعٍ وباعثٌ، وقيل: هو مِنْ: جَبَرَه على الأمر؛ بمعنى: أَجْبره؛ أي: ما أنت بِوَالٍ عليهم تُجبرُهم على الإيمان، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] لأنه لا ينفعُ إلا فيه.



﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ ....

سورة الذاريات

مكيةٌ، وهي ستون آيةً مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾: الرياحُ؛ لأنها تَذْرُو الترابَ وغيرَه، وبإدغام التاء في الذال: حمزةُ وأبو عمرٍو[1]، ﴿ذَرْوًا ۝١﴾: مصدرٌ، والعاملُ فيه: اسمُ الفاعل.

《٢》 ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾: السحابُ؛ لأنها تحملُ المطرَ، ﴿وِقْرًا ۝٢﴾: مفعولُ الحاملات.

《٣》 ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾: الفُلكُ ﴿يُسْرًا ۝٣﴾: جرياً ذا يُسرٍ؛ أي: ذا سهولة.

《٤》 ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾: الملائكةُ؛ لأنها تَقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرِهما، أو تفعلُ التقسيمَ مأمورةً بذلك، أو تتولى تقسيمَ أمرِ العباد، جبريلُ للغلظة، وميكائيلُ للرحمة، وملكُ الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ، ويجوز أن يُرادَ الرياحُ لا غير؛ لأنها تُنشئُ السحابَ وتُقِلُّه، وتُصرِّفُه وتَجري في الجوِّ جرياً سهلاً، وتَقْسِمُ الأمطارَ بتصريف السحاب، ومعنى الفاء على الأول: أنه أقسم بالرياح، فبالسحاب التي تسوقُه، فبالفلك التي تُجريها بهبوبها، فبالملائكة التي تَقسمُ الأرزاق بإذن الله من الأمطار، وتِجاراتِ البحارِ ومنافعِها، وعلى الثاني أنها تبتدئُ في الهبوب، فتَذْرُ الترابَ والحصباءَ، فتُقِلُّ السحابَ، فتجري في الجوِّ باسطةً له، فتَقْسِمُ المطرَ.

《٥》 ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾: جوابُ القسم، و(ما): موصولةٌ أو مصدريةٌ، والموعودُ: البعثُ، ﴿لَصَادِقٌ ۝٥﴾ وعدٌ صادقٌ، كـ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي: ذاتِ رضاً.

《٦》 ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾: الجزاءَ على الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ ۝٦﴾: لكائنٌ.

《٧》 ﴿وَالسَّمَاءِ﴾: هذا قسمٌ آخرُ ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾: الطرائقِ الحسنةِ، مثلِ ما يظهر على الماء من هبوب الريح، وكذلك: حُبُكُ الشَّعْرِ: آثارُ تَثَنِّيهِ وتكَسُّرِهِ: جمعُ حبيكةٍ كطريقةٍ وطرقٍ، ويُقال: إن خلقةَ السماء كذلك، وعن الحسن: حُبُكُها: نُجُومُها: جمعُ حِبَاكٍ.

---

(١) الإدغام لحمزةَ وللسوسيِّ عن أبي عمرو. انظر المرجع السابق (ص٣٠٤).

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ . . . .

«٨» ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ أي: قولُهم في الرسول: ساحرٌ وشاعرٌ ومجنونٌ، وفي القرآن: سِحْرٌ وشِعْرٌ وأساطيرُ الأولين.

«٩» ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ الضميرُ للقرآن، أو الرسول؛ أي: يُصرفُ عنه مَن صُرِفَ الصرفَ الذي لا صرفَ أشدُّ منه وأعظمُ، أو يُصرفُ عنه مَن صُرِفَ في سابقِ علمِ اللهِ؛ أي: عَلِمَ فيما لم يزلْ أنه مأفوكٌ عن الحقِّ، لا يَرعوي، ويجوز أن يكون الضميرُ لـ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾، أو لـ﴿الدِّينِ﴾، أقسمَ بالذارياتِ على أن وقوعَ أمرِ القيامةِ حقٌّ، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلِف في وقوعه، فمنهم شاكٌّ، ومنهم جاحدٌ، ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة مَن هو المأفوكُ.

«١٠» ﴿قُتِلَ﴾: لعن، وأصلُه: الدعاءُ بالقتل والهلاكِ، ثم جَرى مَجرى لُعِنَ ﴿الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾: الكذّابون المقدِّرون ما لا يَصِحُّ، وهم أصحابُ القول المختلِفِ، واللامُ إشارةٌ إليهم، كأنه قيل: قتل هؤلاء الخراصون.

«١١» ﴿الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾: في جهلٍ يغمرُهم، ﴿سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾: غافلون عمّا أُمِروا به.

«١٢» ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾﴾ أي: متى يومُ الجزاء؟ وتقديرُه: أيان وقوعُ يومِ الدينِ؛ لأنه إنما يقعُ الأحيانُ ظروفاً للحِدْثانِ[1].

«١٣» وانتصب اليومُ الواقعُ في الجواب بفعل مضمرٍ دلَّ عليه السؤال؛ أي: يقعُ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾، ويجوزُ أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى غير متمكن، وهو الجملة، ومحلُّه نصبٌ بالمضمر الذي هو: يقعُ، أو رفعٌ على: هو يومَ هم على النار يفتنون: يُحرقُون ويُعذَّبون.

«١٤» ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: تقولُ لهم خزنةُ النار: ذوقوا عذابكم وإحراقَكم بالنار، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿الَّذِى﴾ أي: هذا العذابُ هو الذي ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ في الدنيا بقولِكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠]، ثم ذكرَ حالَ المؤمنين فقال:

---

(١) أي: أنَّ (أيان) ظرف، و(يوم) اسم زمان، ولا يكون الزمان ظرفاً للزمان، فلذا قدر (وقوع) وهو حدث، فكانت (أيان) ظرفاً للوقوع وهو حدث. انظر «الدر المصون» (١٠/ ٤٣).

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾

«١٥» ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: تكونُ العيونُ وهي الأنهار الجاريةُ بحيث يَرونَها وتقع عليها أبصارُهم، لا أنهم فيها.

«١٦» ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾: قابلين لكلِّ ما أعطاهم من الثواب راضين به، و(آخذين): حالٌ من الضمير في الظرف، وهو خبرُ (إنَّ)، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾: قبل دخول الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾: قد أحسنوا أعمالَهم، وتفسيرُ إحسانِهم ما بعده:

«١٧» ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾: ينامون، و(ما): مزيدةٌ للتوكيد، و(يهجعون): خبرُ (كان) والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل، أو: مصدريةٌ، والتقديرُ: كانوا قليلاً من الليل هجوعُهم، فيرتفع هجوعُهم لكونه بدلاً من الواو في (كانوا) لا بـ(قليلاً) لأنه لما صار موصوفاً بقوله: (من الليل) خرج من شَبَهِ الفعل، وعملُه باعتبار المشابهة؛ أي: كان هجوعهم قليلاً من الليل، ولا يجوز أن تكون (ما) نافيةً على معنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً ويُحيونه كلَّه؛ لأن ما النافيةَ لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لا تقول: زيداً ما ضربتُ.

«١٨» ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وصفَهم بأنهم يُحيون الليل متهجدين، فإذا أسحرُوا.. أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفُوا في ليلهم الجرائم، والسَّحَرُ: السدسُ الأخيرُ من الليل.

«١٩» ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ﴾: لمن يسألُ لحاجته، ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ أي: الذي يَتعرَّضُ ولا يَسألُ حياءً.

«٢٠» ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ تدلُّ على الصانع وقدرتِه وحكمتِه وتدبيرِه؛ حيث هي مَدْحُوَّةٌ كالبساط لما فوقَها، وفيها المسالكُ والفِجاجُ للمتقلِّبين فيها، وهي مُجزَّأةٌ، فمِن سهلٍ وجبلٍ، وصُلبةٍ ورِخوةٍ، وعَذاة وسَبَخة[1]، وفيها عُيونٌ منفجرةٌ، ومعادنُ مُفَنَّنةٌ[2]، ودوابُّ مُنبَثَّةٌ، مختلفةُ الصور والأشكال، متباينةُ الهيئات والأفعال، ﴿لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾: للموحِّدين الذين سلكوا الطريقَ السويَّ البرهانيَّ الموصِلَ إلى المعرفة، فهم نَظَّارون بعيون باصرة، وأفهام نافذة، كلما رَأَوا آيةً.. عرفوا وجهَ تأمُّلِها فازدادوا إيقاناً إلى إيقانهم.

---

(١) العَذاةُ: الأرض الطيبة، والسَّبَخة: الأرضُ التي تعلوها الملوحةُ ولا تكاد تُنبتُ إلا بعضَ الشجرِ.

(٢) مفننة: متنوعة.

وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ....

《٢١》 ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾: في حال ابتدائِها وتنقلِها من حالٍ إلى حالٍ، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفِطَرِ، وبدائعِ الخلقِ ما تتحيرُ فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب، وما رُكِزَ فيها من العقول، وبالألسنِ والنطقِ ومخارجِ الحروفِ، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفِها من الآيات الساطعة، والبينات القاطعةِ على حكمة مُدبِّرِها وصانعِها، دَعِ الأسماعَ والأبصارَ والأطرافَ وسائرَ الجوارح وتأتِّيَها لما خُلِقَتْ له، وما سُوِّيَ في الأعضاء من المفاصل للانعطافِ والتثني، فإنه إذا جسا منها شيءٌ.. جاء العجزُ[١]، وإذا استرخى.. أناخ الذُّلُّ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين[٢]، وما قيل: التقديرُ: أفلا تبصرون في أنفسكم.. ضعيفٌ؛ لأنه يُفضِي إلى تقديمِ ما في حيِّزِ الاستفهامِ على حرف الاستفهام، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾: تنظرون نظرَ مَن يعتبر.

《٢٢》 ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: المطرُ؛ لأنه سبب الأقوات، وعن الحسن: أنه كان إذا رأى السحاب.. قال لأصحابه: فيه والله رزقُكم، ولكنكم تُحرمونه بخطاياكم، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾: الجنةُ، فهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش، أو: أراد أن ما تُرزقونه في الدنيا، وما توعدونه في العُقبى كلُّه مقدورٌ مكتوبٌ في السماء.

《٢٣》 ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ الضميرُ يعودُ إلى الرزق، أو: إلى ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿مِثْلُ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾: بالرفع: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ، صفةٌ للحقِّ؛ أي: حقٌّ مثلُ نطقِكم، وغيرُهم: بالنصب[٣]؛ أي: إنه لحقٌّ حقّاً مثلَ نطقِكم، ويجوز أن يكون فَتحاً لإضافته إلى غير متمكن[٤]، و(ما): مزيدةٌ، وعن الأصمعي أنه قال: أقبلتُ من جامع البصرة، فطلع أعرابي على قَعُودٍ فقال: مَن الرجل؟ فقلت: مِن بني أصمعَ، قال: مِن أين أقبلتَ؟ قلت: مِن موضعٍ يُتلى فيه كلامُ الرحمنِ، قال: اتلُ عليَّ، فتلوتُ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ فلما بلغتُ قوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعَها على مَن أقبلَ وأدبرَ، وعَمَدَ إلى سيفه وقوسِه فكسرهما،

---

(١) جَسا: يبس.

(٢) في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٣٥) كلام نفيس في التفكر في عجائب خلقِ الله في الإنسان.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٣).

(٤) غيرُ المتمكن هو المبنيُّ، والمراد به: (ما) إن كانت نكرةً موصوفةً؛ بمعنى: شيء، أو موصولةً؛ بمعنى: الذي، و(أَنَّكُمْ...): خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: هو أَنَّكُمْ...، والجملةُ صفةٌ، أو صلةٌ، أو هو: (أنَّ) بما في حَيِّزِها إن جُعِلَتْ (ما) زائدةً. انظر «تفسير الألوسي» (١٤/ ١١).

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ ....

وولَّى، فلمّا حججتُ مع الرشيد وطَفِقتُ أطوفُ.. فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيقٍ، فالتفتُّ فإذا أنا بالأعرابي قد نَحَلَ واصفرَّ، فسلمَ عليَّ واستقرأ السورةَ، فلما بلغتُ الآيةَ.. صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً، ثم قال: وهل غيرُ هذا؟ فقرأتُ: (فورب السماء والأرض إنه لحق) فصاح وقال: يا سبحانَ الله! مَن ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يُصدِّقُوه بقوله حتى حلف، قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسُه[1].

《٢٤》 ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾: تفخيمٌ للحديث وتنبيهٌ على أنه ليس من عِلْمِ رسولِ الله ﷺ، وإنما عرفه بالوحي، وانتظامُها بما قبلها باعتبار أنه قال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ﴾ وقال في آخر هذه القصة: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾[2]، ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الضيفُ للواحد والجماعة، كالصَّوم والزَّوْرِ؛ لأنه في الأصل مصدرُ: ضافه، وكانوا اثني عشر مَلَكاً، وقيل: تسعةً، عاشرُهم جبريلُ، وجعلهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف؛ حيث أضافَهم إبراهيم، أو: لأنهم كانوا في حِسبانِه كذلك، ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ عند الله؛ لقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقيل: لأنه خدمَهم بنفسه، وأخدمهم امرأتَه، وعجَّلَ لهم القِرَى.

《٢٥》 ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾: نصبٌ بـ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إذا فُسِّرَ بإكرام إبراهيم لهم، وإلا.. فبإضمار: اذكر، ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾: مصدرٌ سادٌّ مسدَّ الفعل مستغنىً به عنه، وأصلُه: نُسلمُ عليكم سلاماً، ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ أي: عليكم سلامٌ، فهو مرفوع على الابتداء، وخبرُه محذوفٌ، والعدولُ إلى الرفع للدلالة على ثبات السلام، كأنه قد قصد أن يُحييَهم بأحسنَ مما حَيَّوْهُ به؛ أَخْذاً بأدبِ الله، وهذا أيضاً من إكرامه لهم، حمزةُ وعليٌّ: ﴿سِلْمٌ﴾[3]، والسِّلْمُ: السلامُ، ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فعرِّفوني من أنتم.

《٢٦》 ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾: فذهب إليهم في خُفْيَةٍ من ضيوفه، ومن أدب المُضِيْفِ أن يُخفيَ

---

(١) رواها البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٨٠).

(٢) بَيَّنَ البِقاعيُّ المناسبة بينهما في «نظم الدرر» (١٨/ ٤٦٠) فقال: ولما بيَّنَ بما مضى من القَسَم وما أتبعَه من أنه أودع في السماوات والأرض وما بينهما أسباباً صالحة للإتيان بما وُعِدْناه من الخير، وما تُوُعِّدْنا به من الشر وإن كنا لم نَرَها وهو قادرٌ مختارٌ، فصار ذلك كالمشاهَد، ولا وجهَ للتكذيب بوعدٍ ولا وعيدٍ.. دلَّ عليه وصوَّره بما شُوهد من أحوال الأمم، وبدأ - لأن السياق للمحسنين - برأسِ المحسنين من أهل هذه الأنباءِ...

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٣).

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠ ۞قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١﴾ ....

أمرَه، وأن يبادر بالقِرَى من غير أن يَشعر به الضيفُ حذراً من أن يَكُفَّه، وكان عامةُ مال إبراهيم عليه السلام البقرَ، ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦﴾.

《٢٧》 ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ ليأكلوا منه فلم يأكلوا، ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ أنكرَ عليهم تركَ الأكل، أو حثَّهم عليه.

《٢٨》 ﴿فَأَوۡجَسَ﴾: فأضمرَ ﴿مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾: خوفاً؛ لأن مَن لم يأكل طعامك.. لم يحفظ ذِمامَك[١]، عن ابن عباس رضي الله عنهما: وقع في نفسه أنهم ملائكةٌ أُرسلوا للعذاب، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ إنا رسلُ الله، وقيل: مسحَ جبريلُ العجلَ فقام ولحق بأمه، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ أي: يبلغ ويَعْلَمُ، والمبشَّرُ به إسحاقُ عند الجمهور.

《٢٩》 ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾: في صيحةٍ؛ مِن: صَرَّ القلمُ والبابُ، قال الزجاج: الصَّرَّةُ: شدةُ الصياح ههنا[٢]، ومحلُّه النصبُ على الحال؛ أي: فجاءت صارَّةً، وقيل: فأخذت في صياحٍ، وصَرَّتُها: قولُها: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ [هود: ٧٢]، ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾: فلطمتْ بِبَسْطِ يديْها، وقيل: فضربت بأطراف أصابعِها جبهتَها فعلَ المتعجِّبِ، ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ أي: أنا عجوزٌ، فكيف أَلِدُ؟ كما قال في موضع آخر: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: ٧٢].

《٣٠》 ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾: مثلَ ذلك الذي قلنا وأخبرْنا به ﴿قَالَ رَبُّكِۖ﴾ أي: إنما نُخبرك عن الله تعالى، والله قادرٌ على ما تستبعدين، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في فعله، ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ فلا يخفى عليه شيء، ورويَ: أن جبريل قال لها حين استبعدت: انظُري إلى سقف بيتك، فنظرت فإذا جذوعُه مُورقةٌ مثمرةٌ.

《٣١》 ولما علم أنهم ملائكة، وأنهم لا يَنزلون إلا بأمر الله رسلاً في بعض الأمور ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾ أي: فما شأنُكم؟ وما طِلْبَتُكم؟ وفيم أرسلتم؟ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١﴾ أُرسلتم بالبشارة خاصّةً؟ أو لأمر آخر؟ أو لهما؟

---

(١) الذمام: الحقُّ والحُرْمَةُ.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٥٥).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٣٧ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩﴾ ....

«٣٢» ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾ أي: قوم لوطٍ.

«٣٣» ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾ يريدُ السجيل، وهو طينٌ طبخ كما يطبخُ الآجرُّ حتى صار في صلابة الحجارة.

«٣٤» ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: معلمةً؛ مِن السُّومة وهي: العلامةُ، على كل واحد منها اسمُ من يَهلك به، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: في ملكه وسلطانه ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾ سمّاهم مسرفين كما سمّاهم عادين؛ لإسرافهم وعدوانهم في عملهم؛ حيث لم يقتنعوا بما أبيح لهم.

«٣٥» ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾: في القرية، ولم يَجْرِ لها ذكرٌ لكونها معلومة، ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾ يعني: لوطاً ومَن آمن به.

«٣٦» ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ أي: غيرَ أهلِ بيتٍ، وفيه دليل على أن الإيمان والإسلامَ واحدٌ؛ لأن الملائكة سَمَّوهم مؤمنين ومسلمين هنا.

«٣٧» ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ﴾: في قُراهم ﴿ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٣٧﴾: علامةً يَعتبر بها الخائفون دون القاسيةِ قلوبُهم، قيل: هي ماء أسودُ منتنٌ.

«٣٨» ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾: معطوفٌ على ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾، أو على قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾ على معنى: وجعلنا في موسى آيةً، كقوله[1]: [من: الرجز]

.... علفتُها تِبناً وماءً بارِدًا

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾: بحجةٍ ظاهرةٍ، وهي اليدُ والعصا.

«٣٩» ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: فأعرض عن الإيمان ﴿بِرُكۡنِهِۦ﴾: بما كان يتقوَّى به من جنوده وملكه، والركنُ: ما يَركن إليه الإنسانُ من مالٍ وجندٍ، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي: هو ساحر، ﴿أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩﴾.

---

(١) هذا شطر بيت، وله روايتان: الأولى:

لما حططت الرحل عنها واردًا ... علفتها تبنا وماء باردًا

والثانية:

علفتها تبناً وماءً بارداً ... حتى شتتْ همّالةً عيناها.

انظر «خزانة الأدب» (٣/ ١٤٠).

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

«٤٠» ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾: آتٍ بما يُلام عليه من كفره وعناده، وإنما وَصف يونسَ عليه السلام به في قوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] لأن موجبات اللوم تختلفُ، وعلى حسب اختلافِها تختلف مقادير اللوم، فراكبُ الكفر ملومٌ على مقداره، وراكبُ الكبيرة والصغيرة والزَّلة كذلك، والجملةُ مع الواو حالٌ من الضمير في (فأخذناه).

«٤١» ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ هي التي لا خيرَ فيها؛ من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وهي ريحُ الهلاك، واختلف فيها، والأظهرُ أنها الدَّبور؛ لقوله عليه السلام: «نصرت بالصبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبور»[١].

«٤٢» ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾: هو كلُّ ما رمَّ؛ أي: بَلِيَ وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك؛ والمعنى: ما تترك من شيء هبَّتْ عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا أهلكته.

«٤٣» ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ آيةً أيضاً ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ تفسيرُه قولُه: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

«٤٤» ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: فاستكبرُوا عن امتثاله، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: العذابُ، وكلُّ عذاب مهلك صاعقةٌ، ﴿الصَّعْقَةُ﴾: عليٌّ[٢]، وهي المرة من مصدر: صَعَقَتْهم الصاعقة، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ لأنها كانت نهاراً يُعاينونها.

«٤٥» ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: هَرَبٍ، أو: هو من قولهم: ما يقوم به: إذا عَجَزَ عن دفعه، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾: ممتنعين من العذاب، أولم يمكنهم مقابلتنا بالعذاب؛ لأن معنى الانتصار: المقابلةُ.

«٤٦» ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح؛ لأن ما قبله يدلُّ عليه، أو: واذكر قوم نوح، وبالجرِّ: أبو عمرٍو وعليٌّ وحمزةُ؛ أي: وفي قوم نوح آيةً، ويؤيده قراءةُ عبد الله: ﴿وفي قوم

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٤).

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ....

نوح﴾[1]، ﴿مِن قَبۡلُ﴾: من قبل هؤلاء المذكورين، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾: كافرين.

«٤٧» ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾: نصبٌ بفعل يفسرُه: ﴿بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾: بقوةٍ، والأَيْدُ: القوةُ، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾: لقادرون؛ من الوُسع، وهي: الطاقة، والمُوْسِعُ: القويُّ على الإنفاق، أو: لموسعون ما بين السماء والأرض.

«٤٨» ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾: بسطناها ومَهَدْناها، وهي منصوبةٌ بفعل مضمر؛ أي: فرشنا الأرض فرشناها، ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ نحن.

«٤٩» ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ من الحيوان ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾: ذكراً وأنثى، وعن الحسن: السماءُ والأرضُ، والليلُ والنهارُ، والشمسُ والقمر، والبرُّ والبحرُ، والموتُ والحياةُ، فعدَّدَ أشياء وقال: كل اثنين منها زوجٌ، والله تعالى فردٌ لا مثلَ له، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: فعلنا ذلك كلَّ من بناء السماء، وفَرش الأرض، وخلق الأزواج؛ لتتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

«٥٠» ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: من الشرك إلى الإيمان بالله، أو: من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن، أو: مما سواه إليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾﴾.

«٥١» ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾ والتكريرُ: للتوكيد، والإطالةُ في الوعيد أبلغُ.

«٥٢» ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الأمرُ مثل ذلك، و(ذلك): إشارةٌ إلى تكذيبهم الرسولَ، وتسميته ساحراً أو مجنوناً، ثم فَسَّرَ ما أجمل بقوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾: من قبل قومك ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾: هو ﴿سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ رَمَوْه بالسحر، أو الجنون لجهلهم.

«٥٣» ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ الضميرُ للقول؛ أي: أتواصَى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعاً متفقين عليه؟ ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: لم يتواصَوا به لأنهم لم يتلاقَوا في زمان واحد، بل جمعتْهم العلة الواحدة، وهي الطغيانُ، والطغيانُ هو الحامل عليه.

---

(١) انظر «الكشاف» (٤/٤٠٦).

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ . . . .

«٥٤» ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: فأعرض عن الذين كررتَ عليهم الدعوةَ فلم يُجيبوا عناداً، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾: فلا لومَ عليك في إعراضك بعد ما بلغتَ الرسالةَ، وبذلتَ مجهودَك في البلاغ والدعوة.

«٥٥» ﴿وَذَكِّرْ﴾: وعِظْ بالقرآن، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ بأن تزيد في عملِهم.

«٥٦» ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ العبادةُ إن حُملت على حقيقتها . . فلا تكون الآية عامةً، بل المرادُ بها المؤمنون من الفريقين؛ دليلُه: السياق؛ أعني: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ وقراءةُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: ﴿وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين﴾[1]، وهذا لأنه لا يجوزُ أن يخلقَ الذين علم منهم أنهم لا يؤمنون للعبادة؛ لأنه إذا خلقهم للعبادة وأراد منهم العبادةَ . . فلا بدَّ أن توجدَ منه، فإذا لم يؤمنوا . . علم أنه خلقهم لجهنمَ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقيل: إلا لآمرهم بالعبادة، وهو منقول عن علي رضي الله عنه، وقيل: إلا ليكونوا عباداً لي، والوجهُ: أن تحملَ العبادةُ على التوحيد، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلُّ عبادة في القرآن فهي توحيدٌ، والكلُّ يوحدونه في الآخرة؛ لما عُرِفَ أن الكفار كلَّهم مؤمنون موحدون في الآخرة؛ دليلُه: قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، نعم قد أشرك البعضُ في الدنيا، لكن مدةُ الدنيا بالإضافة إلى الأبد أقلُّ من يوم، ومن اشترى غلاماً وقال: ما اشتريتُه إلا للكتابة . . كان صادقاً في قوله: ما اشتريته إلا للكتابة وإن استعمله في يومٍ من عمره لعملٍ آخرَ.

«٥٧» ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي: ما خلقتهم ليَرزُقوا أنفسَهم، أو واحداً من عبادي، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ قال ثعلبٌ: أن يُطعموا عبادي، وهي إضافةُ تخصيص، كقوله عليه السلام خبراً عن الله تعالى: «من أكرم مؤمناً . . فقد أكرمني، ومن آذى مؤمناً . . فقد آذاني»[2].

«٥٨» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾: الشديدُ القوة، و(المتينُ): بالرفع، صفةٌ لـ(ذو)، وقرأ الأعمش: بالجرِّ[3]، صفةٌ للقوة على تأويل الاقْتِدار.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٣).
(٢) لم أجده.
(٣) انظر «المحتسب» (٢/ ٢٨٩).

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

《٥٩》 ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ رسولَ اللهِ بالتكذيب من أهل مكةَ ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾: نصيباً من عذاب الله مثلَ نصيبِ أصحابِهم ونظرائِهم من القرون المهلَكةِ، قال الزجاج: الذَّنوب في اللغة: النصيبُ، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ نزولَ العذابِ، وهذا جواب النضر وأصحابِه حين استعجلوا العذاب.

《٦٠》 ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: من يوم القيامة، وقيل: من يوم بدر، ﴿ليعبدوني﴾ ﴿أن يطعموني﴾ ﴿فلا يستعجلوني﴾: بالياء في الحالين: يعقوبُ، وافقه سهلٌ في الوصل، الباقون: بغير ياء[١].



---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٤).

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَالۡبَيۡتِ الۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَالسَّقۡفِ الۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَالۡبَحۡرِ الۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ ....

سورة الطور

تسع وأربعون آيةً، مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدينَ.

《٢》 ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾: هو القرآن، ونُكِّرَ؛ لأنه كتابٌ مخصوصٌ من بين سائر الكتب، أو: اللوحُ المحفوظُ، أو: التوراة.

《٣》 ﴿فِي رَقّٖ﴾: هو الصحيفةُ، أو: الجلدُ الذي يُكتب فيه، ﴿مَّنشُورٖ ۝٣﴾: مفتوحٍ لا ختمَ عليه، أو لائح.

《٤》 ﴿وَالۡبَيۡتِ الۡمَعۡمُورِ ۝٤﴾ أي: الضُّراحِ[1]، وهو بيت في السماء حيالَ الكعبةِ، وعُمرانُه بكثرة زُوّارِه من الملائكة، روي: «أنه يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ ملكٍ ويخرجون، ثم لا يعودون إليه أبداً»[2]، وقيل: الكعبةُ؛ لكونها معمورةً بالحُجاج والعُمّار.

《٥》 ﴿وَالسَّقۡفِ الۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ أي: السماءِ أو العرش.

《٦》 ﴿وَالۡبَحۡرِ الۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾: المملوءِ، أو: الموقدِ، والواوُ الأولى للقسم، والبواقي للعطف، وجوابُ القسم:

《٧》 ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ أي: الذي أوعدَ الكفارَ به، ﴿لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾: لنازلٌ، قال جُبير بن مُطعم: أتيت رسول الله ﷺ أكلمه في الأسارى، فلقيتُه في صلاة الفجر يقرأ سورةَ الطور، فلما بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ أسلمتُ خوفاً من أن ينزل العذاب[3].

---

(١) روى ابن أبي خيثمة في «التاريخ الكبير» (١/١٤٨) عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه سئل عن البيت المعمور فقال: هو بيت في السماء يقال له الضُّراح بحيالِ الكعبة، حرمتُه في السماء كحرمة هذا في الأرض.

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤) عن سيدنا مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٣) روى الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/١١٦) عن سيدنا جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ لأكلمه في أسارى بدر، فوافقته وهو يصلي بأصحابه المغرب أو العشاء، فسمعته وهو يقول أو يقرأ وقد خرج صوتُه من المسجد: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾، فكأنما صدع قلبي.

﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

《٨》 ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾: لا يمنعه مانعٌ، والجملةُ: صفةٌ لـ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أي: واقعٌ غيرُ مدفوعٍ.

《٩》 والعاملُ في ﴿يَوْمَ﴾: ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أي: يقعُ في ذلك اليوم، أو: اذكر ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾: تدورُ كالرحى مضطربةً، ﴿السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩﴾.

《١٠》 ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ في الهواء كالسحاب؛ لأنها تصير هباءً منثوراً.

《١١ - ١٢》 ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾ غلبَ الخوضُ في الاندفاعِ في الباطلِ والكذبِ، ومنه قولُه: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥].

《١٣》 ويبدلُ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾ من ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ والدَّعُّ: الدفعُ العنيفُ، وذلك أن خزنة النار يَغُلُّون أيديَهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيَهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزخّاً في أقفيتهم، فيقال لهم:

《١٤》 ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ في الدنيا.

《١٥》 ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ (هذا): مبتدأٌ، و(سحرٌ): خبرُه؛ يعني: كنتم تقولون للوحي: هذا سحرٌ، أفسحرٌ هذا؟ يريدُ: أن هذا المِصداقَ أيضاً سحر؟ ودخلت الفاءُ لهذا المعنى، ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا؛ يعني: أم أنتم عُمْيٌ عن المخبَر عنه، كما كنتم عُمياً عن الخبر، وهذا تقريعٌ وتهكُّم.

《١٦》 ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ خبرُ (سواء) محذوفٌ؛ أي: سواءٌ عليكم الأمرانِ الصبرُ وعدمُه، وقيل: على العكس، وعَلَّلَ استواءَ الصبرِ وعدمَه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ لأن الصبر إنما يكون له مزيةٌ على الجزع لنفعه في العاقبة؛ بأن يجازَى عليه الصابرُ جزاءَ الخيرِ، فأما الصبرُ على العذاب الذي هو الجزاءُ ولا عاقبةَ له ولا منفعةَ.. فلا مزيةَ له على الجزع.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ....

《١٧》 ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾: في أيةِ جناتٍ، ﴿وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: وأيِّ نعيمٍ؛ بمعنى الكمال في صفة، أو: في جناتٍ ونعيمٍ مخصوصةٍ بالمتقين خُلقت لهم خاصةً[1].

《١٨》 ﴿فَٰكِهِينَ﴾: حالٌ من الضمير في الظرف، والظرفُ خبرٌ؛ أي: متلذذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وعطفُ قولِه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ أي: إن المتقين استقرُّوا في جنات ووقاهم ربُّهم، أو: على (آتاهم ربهم) على أن تجعلَ (ما) مصدريةً؛ والمعنى: فاكهين بإيتائهم ربُّهم ووقايتهم ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ أو: الواوُ للحال، وقد: بعدها مضمرةٌ.

《١٩》 يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً، أو: طعاماً وشراباً هنيئاً[2]، وهو الذي لا تَنغيصَ فيه.

《٢٠》 ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: حالٌ من الضمير في ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾: جمعُ سريرٍ ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾: موصولٍ بعضُها ببعض، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾: وقرنّاهم ﴿بِحُورٍ﴾: جمعُ حَوراءَ ﴿عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾: عظامِ الأعينِ حِسانِها.

《٢١》 ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: مبتدأٌ، و(ألحقنا بهم): خبرُه، ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ ﴿وأتبعناهم﴾: أبو عمرٍو[3]، ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾: أولادُهم ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾: حالٌ من الفاعل، ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: نُلحقُ الأولادَ بإيمانهم وأعمالهم درجاتِ الآباءِ وإن قَصُرت أعمالُ الذرية عن أعمال الآباء، وقيل: إن الذرية وإن لم يبلغوا مبلغاً يكون منهم الإيمانُ استدلالاً وإنما تلقنوا منهم تقليداً.. فهم يُلحقون بالآباء، ﴿ذريتُهم﴾ ﴿ذرياتِهم﴾: مدنيٌّ، ﴿ذرياتِهم﴾ ﴿ذرياتِهم﴾: أبو عمرو، ﴿ذرياتُهم﴾ ﴿ذرياتِهم﴾: شاميٌّ، ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾: وما نقصناهم من ثوابِ عملِهم من شيءٍ، ﴿أَلِتناهم﴾: مكيٌّ، أَلَتَ يَألِتُ، وأَلِتَ يَأْلَتُ، لغتان، (مِن) الأولى: متعلقةٌ بـ(ألتناهم)، والثانية: زائدة، ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ أي: مرهونٌ، فنفسُ المؤمنِ مرهونةٌ بعمله وتُجازَى به.

---

(١) أي: أن تنكير (جنات وعيون) إما للتعظيم، أو للخصوص. انظر «الإكليل» (٧/٤٨).

(٢) أي: (هنيئاً): صفة لمفعول مطلق محذوف، أو: صفة لمفعول به محذوف.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٥) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

《٢٢》 ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾: وزدناهم في وقتٍ بعد وقتٍ ﴿بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وإن لم يقترحُوا.

《٢٣》 ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾: خمراً؛ أي: يتعاطَون ويتعاوَرون هم وجلساؤُهم من أقربائِهم، يتناول هذا الكأسَ من يد هذا، وهذا من يدِ هذا، ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾: في شُربِها، ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا يجري بينهم ما يُلغَى؛ يعني: لا يجري بينهم باطلٌ، ولا ما فيه إثمٌ لو فعله فاعلٌ في دار التكليف؛ من الكذب والشتم ونحوِهما، كشاربي خمرِ الدنيا؛ لأن عقولَهم ثابتةٌ، فيتكلمون بالحِكَم، والكلام الحسن، ﴿لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ﴾: مكيٌّ وبصريٌّ.

《٢٤》 ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾: مملوكون لهم، مخصوصون بهم، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من بياضِهم وصفائِهم ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ في الصدف؛ لأنه رَطْباً أحسنُ وأصفَى، أو: مخزون؛ لأنه لا يُخزنُ إلا الثمينُ الغالي القيمة، في الحديث: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادمَ من خدامه، فيجيبه ألفٌ ببابه: لبيك لبيك»[1].

《٢٥》 ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾: يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله، وما استحقَّ به نَيْلَ ما عند الله.

《٢٦》 ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا، ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾: أرقاءَ القلوب من خشية الله، أو: خائفين من نزع الإيمانِ وفوتِ الأمان، أو: من ردِّ الحسناتِ والأخذِ بالسيئات.

《٢٧》 ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ هي: الريحُ الحارَّةُ التي تدخل المسامَّ، فسميت بها نارُ جهنمَ؛ لأنها بهذه الصفة.

《٢٨》 ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ لقاءِ اللهِ تعالى والمصيرِ إليه؛ يعنون: في الدنيا، ﴿نَدْعُوهُ﴾: نعبدُه ولا نعبدُ غيرَه، ونسألُه الوقاية، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾: المحسنُ، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾: العظيمُ الرحمةِ الذي إذا عُبد.. أثاب، وإذا سئل.. أجاب، ﴿أنه﴾: بالفتح: مدنيٌّ وعليٌّ[2]؛ أي: بأنه، أو لأنه.

---

(١) رواه الديلمي في «الفردوس» (١/ ٢١٧) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٦) وكذا القراءة الآتية.

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ....

«٢٩» ﴿فَذَكِّرْ﴾: فاثبتْ على تذكير الناس وموعظتِهم، ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾: برحمة ربك وإنعامه عليك بالنبوة ورَجاحةِ العقلِ ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ كما زعموا، وهو في موضع الحال، والتقديرُ: لستَ كاهناً ولا مجنوناً متلبساً بنعمة ربك.

«٣٠» ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: هو ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾: حوادثَ الدهر؛ أي: ننتظرُ به نوائبَ الزمان فيهلِكُ كما هلك مَن قبلَه من الشعراء: زهيرٌ والنابغةُ، و(أم) في أوائلِ هذه الآي منقطعةٌ بمعنى: بل والهمزة.

«٣١» ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾: أتربصُ هلاككم كما تتربصون هلاكي.

«٣٢» ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾: عقولُهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ التناقضِ في القول، وهو قولُهم: كاهنٌ وشاعرٌ مع قولِهم: مجنونٌ، وكانت قريشٌ يُدعون أهلَ الأحلامِ والنُّهى، ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾: مُجاوزون الحدَّ في العناد، مع ظهور الحقِّ لهم، وإسنادُ الأمر إلى الأحلام مجازٌ.

«٣٣» ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾: اختلقَه محمدٌ من تلقاء نفسه، ﴿بَل﴾: ردٌّ عليهم؛ أي: ليس الأمر كما زعموا، ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فلكفرِهم وعنادِهم يَرمون بهذه المطاعن، مع علمهم ببطلان قولِهم، وأنه ليس بمتقوّل؛ لعجز العرب عنه، وما محمدٌ إلا واحدٌ من العرب.

«٣٤» ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ﴾ مختلَقٍ ﴿مِّثْلِهِۦٓ﴾: مثلِ القرآنِ ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ في أن محمداً تقوَّله من تلقاء نفسه؛ لأنه بلسانهم وهم فصحاء.

«٣٥» ﴿أَمْ خُلِقُوا۟﴾: أم أُحدِثوا وقُدِّروا التقديرَ الذي عليه فطرتُهم، ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾: من غير مقدر، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾: أمْ هم الذين خَلَقُوا أنفسهم حيث؛ لا يعبدون الخالق، وقيل: أَخُلِقوا من أجل لا شيءَ مِن جزاءٍ ولا حسابٍ، أم هم الخالقون فلا يأتمرون.

«٣٦» ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فلا يعبدون خالقَهما.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: لا يتدبرون في الآيات فيعلموا خالقَهم وخالقَ السموات والأرض.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ....

«٣٧» ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ من النبوةِ والرزقِ وغيرِهما فيخصُّوا من شاؤوا بما شاؤوا.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: الأربابُ الغالبونُ حتى يُدَبِّرُوا أمرَ الربوبية، ويَبْنُوا الأمورَ على مشيئتِهم، وبالسين: مكيٌّ وشاميٌّ[1].

«٣٨» ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوبٌ يرتَقُون إلى السماء، ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ كلامَ الملائكةِ وما يوحَى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائنٌ من تقدمِ هلاكِه على هلاكِهم، وظفرِهم في العاقبة دونَه كما يزعُمون، قال الزجاج: يستمعون فيه؛ أي: عليه[2]، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾: بحجةٍ واضحةٍ تُصدِّقُ استماعَ مستمعِهم.

«٣٩» ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ثم سفَّهَ أحلامَهم حيث اختاروا لله ما يكرهون، وهم حكماءُ عند أنفسِهم.

«٤٠» ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ والإنذار، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ المغرَمُ: أن يلتزم الإنسانُ ما ليس عليه؛ أي: لزمَهم مغرمٌ ثقيلٌ فدَحهم فزهَّدَهم ذلك في اتباعِك.

«٤١» ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوحُ المحفوظُ، ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾ ما فيه حتى يقولوا: لا نُبعث، وإن بُعثنا.. لم نُعذبْ.

«٤٢» ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدُهم في دار الندوةِ برسول الله وبالمؤمنين، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: إشارةٌ إليهم، أو: أُريد بهم كلُّ من كفر بالله تعالى، ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾: هم الذين يعودُ عليهم وبالُ كيدِهم، ويَحيقُ بهم مكرُهم، وذلك أنهم قُتِلُوا يوم بدر، أو: هم المغلوبون في الكيد؛ مِن: كايدتُه فكِدْتُه.

«٤٣» ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يمنعُهم من عذاب الله، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) قرأ قنبل وهشام وحفص بخلفٍ عنه: بالسين، وحمزةُ بخلفٍ عن خلاد: بإشمام الصاد زاياً، والباقون: بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لحفص وخلاد، والإشمامُ لخلادٍ أصحُّ وجهيه.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٦٦).

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾

《٤٤》 ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ﴾ الكِسْفُ: القطعةُ، وهو جوابُ قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] يريدُ: أنهم لشدة طُغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم.. لقالوا: هذا سحابٌ ﴿مَّرْكُومٌ ۝٤٤﴾ قَدْ رُكِمَ؛ أي: جُمِعَ بعضُه على بعض يُمطرنا، ولم يُصدقوا أنه كِسْفٌ ساقط للعذاب.

《٤٥》 ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥﴾: بضم الياء: عاصمٌ وشاميٌّ، الباقون: بفتح الياء[1]؛ يقال: صعقه فصَعِقَ، وذلك عند النفخة الأولى نفخةِ الصعقِ.

《٤٦ - ٤٧》 ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: وإن لهؤلاء الظلمةِ ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: دون يوم القيامة، وهو القتل ببدر، والقحطُ سبعَ سنين، وعذابُ القبر، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧﴾ ذلك.

《٤٨》 ثم أمره بالصبر إلى أن يقع بهم العذابُ فقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم، وبما يلحقك فيه من المشقة؛ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحيث نراك ونكلؤك، وجمعَ العينَ؛ لأن الضمير بلفظ الجماعة، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨﴾ للصلاة، وهو ما يقال بعد التكبير: سبحانك اللهم وبحمدك، أو: من أيِّ مكان قمتَ، أو: من منامك.

《٤٩》 ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾: وإذا أدبرت النجومُ من آخر الليل، ﴿وأَدْبارَ﴾: زيدٌ[2]؛ أي: في أعقاب النجوم وآثارِها إذا غربت؛ والمرادُ: الأمرُ بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات، وقيل: التسبيحُ: الصلاةُ إذا قام من نومه، (ومن الليل): صلاةُ العشاءين، (وإدبار النجوم): صلاةُ الفجر.



(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٦).
(٢) انظر «تفسير النيسابوري» (٦/ ١٩٢).

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ ....

سورة النجم

اثنتان وستونَ آيةً، مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَالنَّجْمِ﴾: أَقسم بالثريا، أو بجنس النجوم، ﴿إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾: إذا غربت، أو انتثرَ يومَ القيامة، وجوابُ القسم:

《٢》 ﴿مَا ضَلَّ﴾ عن قصد الحقِّ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ أي: محمدٌ ﷺ، والخطابُ لقريش، ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ في اتباع الباطل، وقيل: الضلالُ: نقيضُ الهدى، والغَيُّ: نقيضُ الرشد؛ أي: هو مهتدٍ راشدٌ، وليس كما تزعُمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغيِّ.

《٣ - ٤》 ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾: وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطقٍ يصدرُ عن هواه ورأيِه، إنما هو وحيٌ من الله يُوحَى إليه، ويَحتجُّ بهذه الآية مَن لا يرى الاجتهادَ للأنبياء عليهم السلام، ويُجابُ بأن الله تعالى إذا سوَّغَ لهم الاجتهادَ وقرَّرهم عليه. . كان كالوحي، لا نُطقاً عن الهوى.

《٥》 ﴿عَلَّمَهُ﴾: علم محمداً عليه السلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾: ملكٌ شديدٌ قُواه، والإضافةُ غيرُ حقيقة؛ لأنها إضافةُ الصفة المشبهة إلى فاعلها، وهو جبريل عليه السلام عند الجمهور، ومن قوته: أنه اقتلع قُرى قومِ لوطٍ من الماء الأسود، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء، ثم قلبَها، وصاح صيحةً بثمود فأصبحوا جاثمين.

《٦》 ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذو منظر حسن، عن ابن عباس، ﴿فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾: فاستقام على صورة نفسه الحقيقيةِ، دون الصورة التي كان يتمثلُ بها كلما هبطَ بالوحي، وكان ينزلُ في صورة دِحيةَ[1]، وذلك أن رسول الله ﷺ أحبَّ أن يراه في صورته التي جُبِلَ عليها، فاستوى له في الأفق الأعلى، وهو أُفُقُ الشمس، فملأ الأفق، وقيل: ما رآه أحد من الأنبياء عليهم السلام في صورته الحقيقية سوى محمدٍ ﷺ مرتين؛ مرةً في الأرض، ومرةً في السماء.

---

(١) نزولُ سيدنا جبريل عليه السلام في صورة سيدنا دحية رضي الله عنه رواه البخاري (٣٦٣٤) ومسلم (٢٤٥١) عن سيدتنا أم سلمة رضي الله عنها.

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ ....

《٧》 ﴿وَهُوَ﴾ أي: جبريلُ عليه السلام ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧﴾: مَطْلَعِ الشمس.

《٨》 ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريلُ من رسول الله ﷺ، ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾: فزاد في القرب، والتدلي هو: النزول بقربِ الشيءِ.

《٩》 ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾: مقدارَ قوسين عربيتين، وقد جاء التقدير بالقوسِ والرمحِ والسوطِ والذراعِ والباعِ، ومنه: «لا صلاةَ إلى أن ترتفع الشمس مقدارَ رُمحين»[١]، وفي الحديث: «لَقابُ قوسِ أحدِكم من الجنة، وموضعُ قِدِّه خيرٌ من الدنيا وما فيها»[٢]، والقِدُّ: السوطُ، وتقديرُه: فكان مقدارُ مسافةِ قربه مثلَ قابِ قوسين، فحذفت هذه المضافاتُ، ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ أي: على تقديرِكُم، كقوله: ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، وهذا لأنهم خُوطِبُوا على لغتهم ومقدارِ فهمِهم، وهم يقولون: هذا قدرُ رمحين أو أنقصُ، وقيل: بل أدنى.

《١٠》 ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ جبريلُ عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾: إلى عبدِ الله وإن لم يَجْرِ لاسمه ذكرٌ؛ لأنه لا يلتبسُ، كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥][٣]، ﴿مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾: تفخيمٌ للوحي الذي أُوحي إليه، قيل: «أُوحي إليه: إن الجنة محرمةٌ على الأنبياء حتى تدخلَها، وعلى الأمم حتى تدخلَها أمتُك»[٤].

《١١》 ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ﴾: فؤادُ محمدٍ ﴿مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾: ما رآه ببصره من صورة جبريلَ عليه السلامُ؛ أي: ما قال فؤادُه لما رآه: لم أعرفك، ولو قال ذلك.. لكان كاذباً؛ لأنه عرفه؛ يعني: أنه رآه بعينه، وعرفه بقلبه، ولم يشكَّ في أن ما رآه حقٌّ، وقيل: المرئيُّ هو الله سبحانه، رآه بعينِ رأسِه، وقيل: بقلبه[٥].

---

(١) روى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ١٣٣) عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٢٧٩٦) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) فالضمير في (ظهرها) للأرض ولم يَسبق ذكرُها.
(٤) رواه بنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٢٧) عن مكحول.
(٥) ذهب جمهورُ المفسرين إلى أن المراد بهذه الآية أنه رأى ربه سبحانه وتعالى، ثم اختلفوا فمنهم من قال: رأى ربه بفؤاده دون عينيه، وبعضهم قال: رآه بعينيه. ولا ريب في أنها رؤية بلا كيف. انظر «شرح صحيح مسلم» للنووي (٣/ ٦).

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ ....

《١٢》 ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾: أفتجادلونه؛ مِن المراء، وهو المجادلةُ، واشتقاقُه من: مَرَى الناقةَ[1]، كأن كلَّ واحد من المتجادلين يَمْرِي ما عند صاحبه، ﴿أفتَمْرُونه﴾: حمزةُ وعليٌّ وخلفٌ ويعقوبُ[2]، أفتغلبونه في المراء، مِن: ماريتُه فمريتُه، ولِما فيه من معنى الغلبة قال: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ فعُدِّيَ بـ(على)، كما تقول: غلبتُه على كذا، وقيل: أَفَتَمْرُونه: أفتجحدونه، يقال: مَرَيْتُه حقَّه: إذا جَحَدْتَه، وتعديتُه بـ(على) لا تصحُّ إلا على مذهب التضمين[3].

《١٣》 ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾: رأى محمدٌ جبريل عليهما السلام ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾: مرةً أخرى من النزول، نُصبت النزلةُ نصب الظرف الذي هو مرة؛ لأن الفَعلةَ اسمٌ للمرة من الفعل، فكانت في حكمها؛ أي: نزل جبريلُ عليه السلام نزلةً أخرى في صورة نفسه، فرآه عليها، وذلك ليلة المعراج.

《١٤》 ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ الجمهورُ على أنها شجرة نَبْقٍ في السماء السابعة عن يمين العرش، و(المنتهى) بمعنى موضع الانتهاء، أو الانتهاء[4]، كأنها في مُنتهى الجنة وآخرِها، وقيل: لم يُجاوزها أحدٌ، وإليها ينتهي علمُ الملائكة وغيرِهم، ولا يعلم أحدٌ ما وراءَها، وقيل: تنتهي إليها أرواحُ الشهداء.

《١٥》 ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ أي: الجنةُ التي يصير إليها المتقون، وقيل: تأوي إليها أرواحُ الشهداء.

《١٦》 ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ أي: رآه إذْ يغشى السدرة ما يغشى، وهو تعظيمٌ وتكثيرٌ لما يَغشاها، فقد عُلِمَ بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالةِ على عظمة الله تعالى وجلاله أشياءُ لا يُحيط بها الوصف، وقد قيل: يغشاها الجمُّ الغفيرُ من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها، وقيل: يغشاها فِراشٌ من ذهب.

---

(١) أي: مَسَحَ ضَرْعَها لتَدُرَّ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٦).

(٣) أي: تضمين الفعل معنى الغلبة؛ فإن المماريَ والجاحدَ يقصِدان بفعلهما غلبةَ الخصم. انظر «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٨).

(٤) أي: اسمُ مكان، أو مصدرٌ ميمي.

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ....

《١٧》 ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾: بصرُ رسولِ الله ﷺ ما عَدَلَ عن رؤية العجائب التي أُمِرَ برؤيتها ومُكِّنَ منها، ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾: وما جاوزَ ما أُمِرَ برؤيته.

《١٨》 ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾: والله لقد رأى ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾: الآياتِ التي هي كُبراها وعُظماها؛ يعني: حين رُقِيَ به الى السماء فأُرِيَ عجائب الملكوت.

《١٩-٢٠》 ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ أي: أخبرُونا عن هذه الأشياء التي تعبدونها من دون الله عزَّ وجلَّ، هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها ربُّ العزة؟ اللاتُ والعزَّى ومناةُ: أصنامٌ لهم، وهي مؤنثات، فاللاتُ: كان لثَقيفٍ بالطائف، وقيل: كانت بنخلةَ تعبدُها قريش، وهي (فَعْلَةٌ) مِن: لَوَى[1]؛ لأنهم كانوا يَلْوُون عليها ويَعكُفون للعبادة، والعُزَّى: كانت لغطفان، وهي: سَمُرَةٌ، وأصلُها: تأنيثُ الأعزِّ، وقَطَعَها خالدُ بنُ الوليد، ومناةُ: صخرةٌ كانت لهذيلٍ وخُزاعةَ، وقيل: لثقيفٍ، وكأنها سُميت مناةَ؛ لأن دماء النسائك كانت تُمنَى عندها؛ أي: تُراق، ﴿ومناءة﴾: مكيٌّ، (مَفْعَلَةٌ) من النَّوء، كأنهم كانوا يَستمطرون عندها الأنواءَ تبركاً بها، ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾: هي صفةُ ذمٍّ؛ أي: المتأخرةُ الوضيعةُ المقدارِ، كقوله: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: وُضَعاؤُهم لِرؤُسائِهم وأشرافِهم، ويجوز أن تكون الأوليةُ والتقدمُ عندهم لِلّاتِ والعزَّى، كانوا يقولون: إن الملائكةَ وهذه الأصنامَ بناتُ الله، وكانوا يعبدونهم ويزعُمون أنهم شُفعاؤُهم عند الله، مع وَأْدِهم البناتِ، وكراهتِهم لهنَّ، فقيل لهم:

《٢١ - ٢٢》 ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي: جعلكم لله تعالى البناتِ ولكم البنين قسمةٌ ضِيزَى؛ أي: جائرةٌ؛ مِن: ضازَهُ يَضيزُه: إذا ضامَه، وضِيزَى: (فُعلى) إذْ لا (فِعلى) في النعوت، فكسرت الضادُ للياء، كما قيل: بِيْضٌ، وهو: بُوْضٌ، مثل: حُمْرٍ وسُوْدٍ، ﴿ضِئْزَى﴾: بالهمز: مكيٌّ[2]؛ مِن: ضَأَزَهُ، مثل: ضَازَهُ.

《٢٣》 ﴿إِنْ هِىَ﴾: ما الأصنامُ ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ ليس تحتَها في الحقيقة مُسمياتٌ؛ لأنكم تَدَّعون الإلهيةَ لما هو أبعدُ شيءٍ منها، وأشدُّ منافاةً لها، ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: سمَّيتُم بها، يقال:

---

(١) لوى عليه: عَطَفَ؛ لأن الأصنام يُلوَى عليها ويُعكف.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٦).

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ . .

سميتُه زيداً، وسميتُه بزيدٍ، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾: حجةٍ، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: إلا تَوَهُّمَ أن ما هم عليه حقٌّ، ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾: وما تشتهيه أنفسُهم، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾: الرسولُ والكتابُ، فتركوه ولم يعملوا به.

《٢٤》 ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ هي (أم) المنقطعةُ، ومعنى الهمزة فيها: الإنكارُ؛ أي: ليس للإنسان؛ يعني: الكافرَ ما تمنى من شفاعة الأصنام، أو من قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقيل: هو تمني بعضِهم أن يكون هو النبيَّ.

《٢٥》 ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: هو مالكُهما، وله الحكمُ فيهما، يعطي النبوةَ والشفاعة من شاء وارتضى، لا مَن تمنَّى.

《٢٦》 ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ يعني: أن أمر الشفاعة ضيِّقٌ، فإن الملائكة مع قُرْبَتِهم وكثرتهم لو شَفَعُوا بأجمعهم لأحدٍ.. لم تغن شفاعتهم شيئاً قطُّ، ولم تنفعْ إلا إذا شَفَعُوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعةَ له ويرضاه، ويراه أهلاً لأن يُشفع له، فكيف تشفع الأصنامُ إليه لعبدتهم؟!

《٢٧》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: كلَّ واحدٍ منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ لأنهم إذا قالوا: الملائكةُ بناتُ الله.. فقد سَمَّوا كلَّ واحد منهم بنتاً، وهي تسمية الأنثى.

《٢٨》 ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بما يقولون، وقرئ ﴿بها﴾[1] أي: بالملائكةِ، أو التسميةِ، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: هو تقليدُ الآباء، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ أي: إنما يُعرف الحقُّ الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه.. بالعلم والتيقن، لا بالظن والتوهم.

《٢٩》 ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾: فأعرضْ عمن رأيتَه معرضاً عن ذكر الله؛ أي: القرآن، ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

《٣٠》 ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: اختيارُهم الدنيا والرضا بها ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾: مُنتهى علمِهم، ﴿إِنَّ

(١) انظر «الكشاف» (٤/ ٤٢٥).

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ....

﴿رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ أي: هو أعلم بالضالِّ والمهتدي ومُجازيْهما.

《٣١》 ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾: بعقابِ ما عملوا من السوء، أو: بسببِ ما عملُوا من السوء، ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾: بالمثوبة الحسنى، وهي الجنة، أو: بسبب الأعمال الحسنى؛ والمعنى: أن الله عزَّ وجلَّ إنما خلق العالمَ وسوَّى هذا الملكوتَ؛ ليجزيَ المحسنَ من المكلفين، والمسيءَ منهم؛ إذ الملكُ لنصر الأولياءِ، وقهر الأعداءِ.

《٣٢》 ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدلٌ، أو في موضع رفع على المدح؛ أي: هم الذين ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: الكبائرَ من الإثم؛ لأن الإثم جنسٌ يشتمل على كبائرَ وصغائرَ، والكبائرُ: الذنوبُ التي يكبُرُ عقابُها، ﴿كَبِيرَ﴾: حمزةُ وعليٌّ[1]؛ أي: النوعَ الكبيرَ منه، ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾: ما فَحُشَ من الكبائر، كأنه قال: والفواحشَ منها خاصةً، قيل: الكبائرُ: ما أوعدَ اللهُ عليه النارَ، والفواحشُ: ما شُرِع فيها الحدُّ، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي: الصغائرَ، والاستثناءُ منقطعٌ؛ لأنه ليس من الكبائر والفواحش، وهو كالنظرة والقُبلةِ واللمسةِ والغمزةِ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فيغفرُ ما شاء من الذنوب مِن غيرِ توبةٍ، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾: جمعُ جنين، ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: فلا تَنْسُبوها إلى زكاءِ العملِ، وزيادةِ الخير والطاعات، أو: إلى الزكاة والطهارة من المعاصي، ولا تُثنوا عليها، واهضِمُوها؛ فقد علم الله الزكيَّ منكم والتقيَّ أولاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدمَ عليه السلام، وقبل أن تخرجُوا من بُطون أمهاتكم، وقيل: كان ناسٌ يعملون أعمالاً حسنةً ثم يقولون: صلاتُنا وصيامُنا وحجُّنا، فنزلت، وهذا إذا كان على سبيل الإعجابِ أو الرياء، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة، فإنه جائز؛ لأن المسرة بالطاعةِ طاعةٌ، وذكرُها شكرٌ[2].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ فاكتفُوا بعلمِه عن علم الناس، وبجزائِه عن ثناء الناس.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٧).

(٢) في «سنن الترمذي» (٢١٦٥): «من سرته حسنته، وساءته سيئته.. فذلك المؤمن».

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ....

《٣٣》 ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾: أعرضَ عن الإيمان.

《٣٤》 ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾: قطعَ عطيتَه وأمسك، وأصلُه: إِكْداءُ الحافرِ، وهو أن تلقاه كُدْيَةٌ، وهي صَلابةٌ كالصخرة، فيمسك عن الحفر، عن ابن عباس رضي الله عنهما: فيمن كفر بعد الإيمان، وقيل: في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتَّبع رسول الله ﷺ فعيَّرَه بعضُ الكافرين وقال له: تركتَ دينَ الأشياخ، وزعمتَ أنهم في النار، قال: إني خشيت عذابَ الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أنْ يتحملَ عنه عذاب الله، ففعل وأعطَى الذي عاتبه بعضَ ما كان ضمنَ له، ثم بَخِلَ به ومنعَه.

《٣٥》 ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾: فهو يعلمُ أن ما ضمنه من عذاب الله حقٌّ.

《٣٦》 ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾: يُخبرْ ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي: التوراةِ.

《٣٧》 ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وفي صحف إبراهيمَ ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي: وَفَّرَ وأتمَّ، كقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وإطلاقُه ليتناول كلَّ وفاءٍ وتوفيةٍ، وقرئَ: مخففاً[١]، والتشديدُ مبالغةٌ في الوفاء، وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وَفَّى به، وعن عطاء بن السائب: عَهِدَ ألا يسألَ مخلوقاً، فلما قُذف في النار. . قال له جبريل: أَلَكَ حاجةٌ؟ فقال: أمّا إليك. . فلا، وعن النبي ﷺ: «وفَّى عملَه كلَّ يوم بأربع ركعات في صدر النهار»[٢]، وهي صلاةُ الضحى، وروي: «ألا أخبرُكم لِمَ سَمَّى الله خليلَه الذي وفَّى؟ كان يقول: إذا أصبح وإذا أمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨]»[٣]، وقيل: وَفَّى سهامَ الإسلام، وهي ثلاثون: عشرةٌ في (التوبة): ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وعشرةٌ في (الأحزاب): ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وعشرةٌ في (المؤمنين): ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

ثم أَعلمَ بما في صحف موسى وإبراهيم فقال:

《٣٨》 ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ (تزرُ): مِن: وَزَرَ يَزِرُ: إذا اكتسب وِزراً، وهو: الإثمُ، و(أنْ): مخففةٌ من الثقيلة؛ والمعنى: أنه لا تَزِرُ، والضميرُ: ضميرُ الشأن، ومحلُّ (أنْ) وما

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/٢٠٦).

(٢) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ١٥٠).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٣٩).

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ....

بعدها: الجرُّ بدلاً مِن (في صحف موسى)، أو الرفعُ، على: هو أنْ لا تَزِرُ، كأن قائلاً قال: وما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقيل: (ألا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى) أي: لا تحملُ نفسٌ ذنبَ نفسٍ.

《٣٩》 ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾: إلا سعيُه، وهذه أيضاً مما في صحفِ إبراهيمَ وموسى، وأما ما صحَّ في الأخبار من الصدقة عن الميتِ والحجِّ عنه.. فقد قيل: إن سعيَ غيرِه لَمّا لم ينفعْه إلا مَبْنِيّاً على سَعْيِ نَفْسِه وهو أن يكون مؤمناً.. كان سعيُ غيرِه كأنه سعيُ نفسِه؛ لكونه تابعاً له، وقائماً بقيامه، ولأن سعي غيره لا ينفعُه إذا عملَه لنفسه، ولكن إذا نواه به، فهو بحكم الشرع كالنائب عنه، والوكيل القائم مقامه.

《٤٠》 ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي: يَرى هو سعيَه يومَ القيامة في ميزانه.

《٤١》 ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾: ثم يُجزَى العبدُ سعيَه؛ يقال: جزاه الله عملَه، وجزاه على عمله، بحذف الجارِّ، وإيصالِ الفعلِ، ويجوز أن يكون الضميرُ للجزاء، ثم فسَّره بقوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أو أَبْدَلَه عنه.

《٤٢》 ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾: هذا كلُّه في الصحف الأولى، و(المنتهى): مصدرٌ بمعنى الانتهاء؛ أي: ينتهي إليه الخلقُ، ويرجعون إليه، كقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

《٤٣》 ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾: خلق الضحك والبكاء، وقيل: خلق الفرحَ والحزنَ، وقيل: أضحك المؤمنين في العُقبى بالمواهب، وأبكاهم في الدنيا بالنوائب.

《٤٤》 ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ قيل: أماتَ الآباء، وأحيا الأبناء، أو: أمات بالكفر وأحيا بالإيمان، أو: أمات هنا وأحيا ثمةَ.

《٤٥ - ٤٦》 ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾: إذا تُدفَقُ في الرحم، يقال: مَنَى وأَمْنَى.

《٤٧》 ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾: الإحياءَ بعد الموت.

《٤٨》 ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾: وأعطى القُنْيَةَ، وهي: المال الذي تأثَّلْتَه وعزمتَ ألا تخرجَه من يدك.

وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ....

«٤٩» ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ هو: كوكبٌ يطلعُ بعد الجَوزاءِ في شدةِ الحرِّ، وكانت خُزاعةُ تعبدُها، فأعلم اللهُ أنه ربُّ معبودِهم هذا.

«٥٠» ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾: هم قومُ هودٍ، وعادٌ الأُخرى: إرَمُ، ﴿عادَ لُّوْلَى﴾: مدنيٌّ وبصريٌّ غيرَ سهلٍ، بإدغام التنوين في اللام، وطرح همزةِ (الأولى)، ونقلِ ضمتِها إلى لامِ التعريفِ[(١)].

«٥١» ﴿وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾: حمزةُ وعاصمٌ، الباقون: ﴿وثموداً﴾، وهو معطوفٌ على (عاداً)، ولا ينتصبُ بـ(فما أبقى) لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبله، لا تقول: زيداً فضربتُ، وكذا ما بعد النفي لا يعملُ فيما قبله؛ والمعنى: وأهلك ثمودَ فما أبقاهم.

«٥٢» ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلك قومَ نوحٍ ﴿مِّن قَبْلُ﴾: من قبلِ عادٍ وثمودَ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ من عادٍ وثمودَ؛ لأنهم كانوا يضربونه حتى لا يكونَ به حَراكٌ، ويُنَفِّرون عنه، حتى كانوا يُحذِّرون صِبيانَهم أن يسمعوا منه.

«٥٣» ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾: والقُرى التي ائتفكتْ بأهلِها؛ أي: انقلبت، وهم قومُ لوط؛ يقال: أَفَكَه فأتَفَك، ﴿أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ أي: رفعَها إلى السماء على جناح جبريلَ، ثم أهواها إلى الأرض؛ أي: أسقطَها، و(المؤتفكة): منصوبٌ بـ(أهوى).

«٥٤» ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾: ألبسَها ﴿مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾: تهويلٌ وتعظيمٌ لما صُبَّ عليها من العذاب، وأُمْطِرَ عليها من الصخر المنضود.

«٥٥» ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أيُّها المخاطبُ ﴿تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾: تتشككُ بما أولاك من النعم، أو بما كفاك من النِّقَمِ، أو: بأيِّ نِعَمِ ربِّكَ الدالةِ على وحدانيته وربوبيته تَشَكَّكُ.

«٥٦» ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ أي: محمدٌ مُنذرٌ ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾: من المنذِرين الأولين، وقال: (الأُولى) على تأويل الجماعة، أو: هذا القرآنُ نذيرٌ من النذر الأولى؛ أي: إنذارٌ مِن جنس الإنذارات الأولى التي أُنْذِرَ بها مَن قبلَكم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٨) وكذا القراءة الآتية.

﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝٦٢﴾

《٥٧》 ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧﴾: قَرُبَتِ الموصوفةُ بالقُرب في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١].

《٥٨》 ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ أي: ليس لها نفسٌ كاشفةٌ؛ أي: مُبيِّنةٌ متى تقوم، كقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أو: ليس لها نفسٌ كاشفةٌ؛ أي: قادرةٌ على كشفها إذا وقعتْ إلا اللهُ تعالى، غيرَ أنه لا يكشفُها.

《٥٩》 ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآنِ ﴿تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ إنكاراً.

《٦٠》 ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً، ﴿وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ خُشوعاً.

《٦١》 ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾: غافلون، أو لاهُونَ لاعِبون، وكانوا إذا سمعوا القرآن.. عارَضُوه بالغناء ليشغلُوا الناس عن استماعِه.

《٦٢》 ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝٦٢﴾ أي: فاسجدوا لله واعبدوه، ولا تعبدوا الآلهةَ.



﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ . . . . . .

سورة القمر

خمسٌ وخمسون آيةً، مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: قَرُبَتِ القيامةُ، ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ نصفين، وقرئ: ﴿وقد انشقَّ﴾[١] أي: اقتربت الساعةُ وقد حصل من آيات اقترابِها أن القمر قد انشقَّ، كما تقول: أقبل الأميرُ وقد جاء المبشر بقدومِه، قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: رأيت حِراءَ بين فِلْقَتَي القمرِ[٢]، وقيل: معناه: ينشقُّ يومَ القيامة، والجمهورُ على الأول، وهو المرويُّ في «الصحيحين»[٣]، ولا يقال: لو انشقَّ.. لما خفي على أهل الأقطار، ولو ظهر عندهم.. لنقلوه متواتراً؛ لأن الطباع جُبلت على نشر العجائب؛ لأنه يجوز أن يَحْجُبَ اللهُ عنهم بغيم.

《٢》 ﴿وَإِن يَرَوْا۟﴾ يعني: أهل مكةَ ﴿ءَايَةً﴾ تدلُّ على صدقِ محمدٍ ﷺ ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ عن الإيمان بها، ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾: محكمٌ قويٌّ؛ مِن المِرَّةِ: القوة، أو: دائمٌ مطردٌ، أو: مارٌّ ذاهبٌ يزول ولا يبقى.

《٣》 ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ النبيَّ ﷺ، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وما زَيَّنَ لهم الشيطانُ مِن دفع الحق بعد ظهوره، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ وعدَهم اللهُ ﴿مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾: كائنٌ في وقته، وقيل: كلُّ ما قُدِّرَ واقعٌ، وقيل: كلُّ أمر من أمرهم واقعٌ مستقرٌ؛ أي: سيثبتُ ويستقرُّ عند ظهور العقابِ والثوابِ.

《٤》 ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ أهلَ مكةَ ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾: من القرآن المودَع أنباءَ القرونِ الخاليةِ، أو: أنباءِ الآخرة وما وُصف من عذاب الكفار ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾: ازدجارٌ عن الكفر؛ تقول: زجرتُه وازدجرتُه؛ أي: منعتُه، وأصلُه: ازْتَجَرَ، ولكن التاء إذا وقعت بعد زاي ساكنة.. أُبْدِلَت دالاً؛ لأن التاء حرفٌ مهموسٌ، والزاي حرف مجهورٌ، فأبدل من التاء حرفٌ مجهورٌ، وهو الدالُ ليتناسَبا، وهذا في آخرِ «كتاب سيبويه»[٤].

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٢).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ٢٥٧).

(٣) رواه البخاري (٤٨٦٤) ومسلم (٢٨٠٠) عن سيدِنا ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه.

(٤) انظر «الكتاب لسيبويه» (٤/ ٢٣٩).

حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ....

«٥» ﴿حِكْمَةٌ﴾: بدلٌ مِن (ما)، أو على: هو حكمةٌ ﴿بَلِغَةٌ﴾ نهايةَ الصوابِ، أو: بالغةٌ من الله إليهم، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ (ما): نفيٌ، و(النذر): جمعُ نذير، وهم الرسل، أو المنذَرُ به، أو النذر: مصدرٌ بمعنى الإنذار.

«٦» ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك أن الإنذارَ لا يُغني فيهم، نُصِبَ ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ بـ(يخرجون)، أو بإضمار: اذكر، ﴿الداعى﴾ ﴿إلى الداعى﴾: سهلٌ ويعقوبُ ومكيٌّ فيهما، وافق مدنيٌّ وأبو عمرٍو في الوصل[1]، ومن أسقط الياءَ.. اكتفَى بالكسرة عنها، وحذفُ الواو مِن (يدعُ) في الكتابة لمتابعة اللفظ، والداعي: إسرافيلُ عليه السلام، ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾. منكر فظيع تنكرُه النفوسُ؛ لأنها لم تَعْهَدْ بمثلِه، وهو هولُ يومِ القيامة، ﴿نُكْرٍ﴾: بالتخفيف: مكيٌّ.

«٧» ﴿خَاشِعاً أَبْصارُهُمْ﴾: عِراقيٌّ غيرَ عاصم، وهو حالٌ من الخارجين، فِعلٌ للأبصار، وذُكِّرَ كما تقول: يخشعُ أبصارُهم، غيرُهم: ﴿خُشَّعًا﴾ على: يَخشعن أبصارُهم، وهي لغةُ من يقول: أكلوني البراغيثُ، ويجوز أن يكون في (خُشّعاً) ضميرُهم، وتقعُ (أبصارُهم) بدلاً عنه، وخشوعُ الأبصارِ كنايةٌ عن الذِّلَّةِ؛ لأن ذِلةَ الذليل، وعِزّةَ العزيزِ تظهرانِ في عيونهما، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: مِن القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ في كثرتِهم وتفرقِهم في كلِّ جهةٍ، والجرادُ: مَثَلٌ في الكثرة والتّموُّج؛ يقال في الجيش الكثير المائج بعضُه في بعض: جاؤوا كالجراد.

«٨» ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾: مُسرعين مادّي أعناقِهم إليه، ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾: صعبٌ شديدٌ.

«٩» ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾: قبلَ أهلِ مكةَ ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام، ومعنى تكرارِ التكذيبِ: أنهم كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلّما مضى منهم قرنٌ مكذبٌ.. تبعه قرنٌ مكذبٌ، أو: كذبت قومُ نوح الرسلَ، فكذبوا عبدَنا؛ أي: لما كانوا مكذبين بالرسل، جاحدين للنبوة رأساً.. كذَّبوا نوحاً؛ لأنه من جملة الرسل، ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ أي: هو مجنون، ﴿وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾: زُجِرَ عن أداء الرسالة بالشتم، وهُدِّدَ بالقتل، أو: هو من جملة قيلهم؛ أي: قالوا: هو مجنونٌ؛ وقد ازدجرته الجنُّ وتخبطته وذهبت بِلُبِّهِ.

---

(١) مَن أثبت الياء في الأُولى وصلاً ووقفاً: البزي ويعقوب. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٠٨) وكذا القراءتان الآتيتان.

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ....

《١٠》 ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي﴾ أي: بأني ﴿مَغۡلُوبٞ﴾: غلبني قومِي فلم يسمعُوا مني، واستحكم اليأسُ مِن إجابتِهم، ﴿فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾﴾: فانتقمْ لي منهم بعذابٍ تبعثه عليهم.

《١١》 ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿ففتَّحنا﴾: شاميٌّ ويزيدُ وسهلٌ ويعقوبُ[1]، ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾﴾: مُنصَبٌّ في كثرةٍ وتتابعٍ لم ينقطعْ أربعين يوماً.

《١٢》 ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ أي: مياهُ السماء والأرض، وقرئَ: ﴿الماءان﴾[2] أي: النوعان من الماء: السماويُّ والأرضيُّ، ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾: على حالٍ قدَّرَها الله كيف شاء، أو: على أمرٍ قد قُدِّرَ في اللوح المحفوظ أنه يكون، وهو هَلاكُ قوم نوح بالطوفان.

《١٣》 ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾﴾ أرادَ: السفينةَ، وهي من الصفات التي تقوم مَقامَ الموصوفات، فتنوب منابَها، وتؤدِّي مُؤدّاها، بحيث لا يُفصَلُ بينها وبينها، ونحوُه[3]: [من: الخفيف]

.... ولـ كِـنْ قـمـيـصِـي مـسـرودةٌ مـن حـديـدِ

أرادَ: ولكن قميصي دِرعٌ؛ ألا تَرى أنك لو جمعت بين السفينةِ وبينَ هذه الصفةِ.. لم يصحَّ، وهذا من فصيح الكلام وبَديعِه، والدُّسُرُ: جمعُ دِسار، وهو: المِسمارُ، (فِعال) مِن دَسَره: إذا دفعه؛ لأنه يُدْسَرُ به منفذُه[4].

《١٤》 ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾: بمرأىً منّا، أو بِحِفْظِنا، و(بأعيننا): حالٌ من الضمير في (تجري) أي: محفوظةً بنا، ﴿جَزَآءٗ﴾: مفعولٌ له لِما قُدِّمَ مِن فتح أبواب السماء، وما بعدَه؛ أي: فعلْنا ذلك جراءً ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾: هو نوحٌ عليه السلام، وجعله مكفوراً؛ لأن النبي نعمة من الله ورحمةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان نوحٌ نعمة مكفورة.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٣٠٩).

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٤).

(٣) البيت للمتنبي في «ديوانه» (١/ ٣١٩) وأوله:

مــفــرشِــي صــهــوةُ الــحــصــانِ

(٤) أو لأنه يُدْفَعُ في منفذه.

وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ....

《١٥》 ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ﴾ أي: السفينةَ أو الفعلةَ؛ أي: جعلناها ﴿ءَايَةً﴾ يُعتبَرُ بها، وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة، وقيل: على الجُودِيِّ دهراً طويلاً، حتى نظر إليها أوائلُ هذه الأمة، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾: متعظ يتعظُ ويعتبرُ، وأصلُه: مُذْتَكِرٌ، بالذال والتاء، ولكن التاء أبدلت منها الدالُ، والدالُ والذالُ من موضع، فأُدغمت الذالُ في الدال.

《١٦》 ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾: هو جمعُ نذير، وهو: الإنذار، ﴿ونذري﴾: يعقوبُ فيهما، وافقه سهلٌ في الوصل، غيرُهما: بغير ياءٍ[1]، وعلى هذا الاختلافِ ما بعده إلى آخر السورة.

《١٧》 ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾: سَهَّلْناه للادِّكارِ والاتعاظ، بأن شَحَنّاه بالمواعظ الشافية، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾: متعظٍ يتعظ، وقيل: ولقد سهّلناه للحفظ، وأعنّا عليه مَن أراد حفظَه، فهل من طالب لحفظِه؛ لِيُعانَ عليه، يُروى أن كتب أهل الأديان نحوَ التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلُها إلا نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن.

《١٨》 ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ أي: وإنذاراتي لهم بالعذاب قبلَ نزولِه، أو: وإنذاراتي في تعذيبهم لمن بعدَهم.

《١٩》 ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾: باردةً، أو شديدةَ الصوتِ، ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾: شُؤْمٍ ﴿مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾: دائمِ الشرِّ، فقد استمرَّ عليهم حتى أهلكهم، وكان في أربعاءَ في آخرِ الشهر.

《٢٠》 ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: تقلعُهم عن أماكنهم، وكانوا يصطفُّون آخذاً بعضُهم بأيدي بعض، ويتداخلون في الشِّعابِ، ويحفِرون الحُفَرَ فيندسُّون فيها، فتنزِعُهم وتكبُّهم وتدقُّ رقابَهم، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾: أصولُ نخلٍ منقلعٍ عن مغارسِه، وشُبِّهوا بأعجازِ النخلِ؛ لأن الريح كانت تقطعُ رؤوسَهم فتبقَى أجساداً بلا رؤوسٍ، فيتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جُثَثٌ طِوالٌ كأنهم أعجاز نخل، وهي: أصولُها بلا فروعٍ، وذَكَّر صفةَ (نخلٍ) على اللفظ، ولو حملها على المعنى.. لأَنَّثَ، كما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

---

(١) أثبت الياء وصلاً: ورشٌ. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠٩) وكذا القراءة الآتية.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ....

《٢١ - ٢٢》 ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

《٢٣ - ٢٤》 ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا﴾ انتصبَ (بشراً) بفعلٍ يفسره ﴿نَّتَّبِعُهُ﴾ تقديرُه: أنتبع بشراً منّا واحداً ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ كأن يقول: إن لم تتبعوني.. كنتُم في ضلالٍ عن الحقِّ، وسُعُرٍ: ونيرانٍ، جمعُ سعير، فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك.. كنّا كما تقول، وقيل: الضلالُ: الخطأُ والبُعْدُ عن الصواب، والسُّعُرُ: الجنون، وقولُهم: (أبشراً): إنكارٌ لِأن يتبعوا مثلَهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من الملائكة، وقالوا: (منّا) لأنه إذا كان منهم.. كانت المماثلة أقوى، وقالوا: (واحداً) إنكاراً لأن تتبع الأمةُ رجلاً واحداً، أو أرادوا واحداً من أفنائِهم ليس بأشرفِهم وأفضلِهم، ويدلُّ عليه قوله:

《٢٥》 ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا﴾ أي: أأنزل عليه الوحيُ من بيننا وفِينا من هو أحقُّ منه بالاختيار للنبوة، ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾: بطرٌ متكبرٌ، حمله بطرُه وطلبُه التعظمَ علينا على ادعاء ذلك.

《٢٦》 ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نزول العذاب بهم، أو يومَ القيامةِ، ﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ أصالحٌ أم مَن كذَّبه، ﴿ستعلمون﴾: شاميٌّ وحمزة؛ على حكايةِ ما قال لهم صالح مجيباً لهم، أو: هو كلامُ الله على سبيل الالتفات.

《٢٧》 ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾: باعِثُوها ومُخرجُوها مِن الهضبة كما سألوا؛ ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾: امتحاناً لهم وابتلاءً، وهو مفعولٌ له أو حال، ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾: فانتظرْهم وتبصَّرْ ما هم صانعون، ﴿وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ على أذاهم، ولا تعجلْ حتى يأتيَكَ أمري.

《٢٨》 ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾: مقسومٌ بينهم، لها شِربُ يوم، ولهم شِربُ يوم، وقال: (بينهم) تغليباً للعقلاء، ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾: محضورٌ يحضرُ القومُ الشرب يوماً، وتحضرُ الناقةُ يوماً.

《٢٩》 ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾: قُدارَ بنَ سالفٍ أُحَيْمِرِ ثمودَ، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾: فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غيرَ مكترثٍ له، ﴿فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ الناقةَ، أو: فتعاطى الناقةَ فعقرَها، أو: فتعاطى السيفَ، وإنما قال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧] في آيةٍ أخرى؛ لرضاهم به، أو لأنه عَقَرَ بمعونتهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ ....

«٣٠ - ٣١» ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في اليوم الرابع مِن عقرِها ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاحَ بهم جبريل عليه السلام، ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ والهشيمُ: الشجرُ اليابسُ المتهشِّمُ المتكسرُ، والمحتظِرُ: الذي يعمل الحظيرةَ، وما يُحتظَرُ به يَيْبَسُ بطول الزمان، وتَطَؤُهُ البهائمُ فيتحطمُ ويتهشمُ، وقرأ الحسنُ: بفتح الظاء[1]، وهو موضع الاحتظار؛ أي: الحظيرةُ.

«٣٢» ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

«٣٣ - ٣٤» ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على قوم لوط ﴿حَاصِبًا﴾: ريحاً تحصبهم بالحجارة؛ أي: ترميهم ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾: ابْنَتَيْهِ ومَن آمن معه ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ مِن الأسحار؛ ولِذا صَرَفَه، ويقال: لقيتُه بسحرَ: إذا لقيتَه في سحرِ يومِه، وقيل: هما سَحران، فالسحرُ الأعلى: قبلَ انصداعِ الفجرِ، والآخر: عند انصداعِه.

«٣٥» ﴿نِعْمَةً﴾: مفعولٌ له؛ أي: إنعاماً ﴿مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ نعمةَ الله بإيمانه وطاعته.

«٣٦» ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوطٌ عليه السلام ﴿بَطْشَتَنَا﴾: أَخْذَتَنا بالعذاب، ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾: فكذَّبُوا بالنذر متشاكين.

«٣٧» ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾: طلبوا الفاحشة من أضيافه، ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾: أعميناهم، وقيل: مسحناها وجعلناها كسائر الوجه، لا يُرَى لها شِقٌّ، روي: أنهم لما عالَجُوا بابَ لوطٍ عليه السلام ليدخلوا.. قالت الملائكةُ: خَلِّهِم يدخلوا؛ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، فصَفَقَهم جبريلُ عليه السلام بجناحه صفقةً فتركهم يتردَّدُون ولا يهتدون إلى الباب، حتى أخرجهم لوطٌ، ﴿فَذُوقُوا﴾ فقلتُ لهم: ذوقُوا على ألسنة الملائكة ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾.

«٣٨» ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً﴾: أولَ النهارِ ﴿عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾: ثابتٌ قد استقرَّ عليهم إلى أن يُفضِيَ بهم إلى عذاب الآخرة.

---

(١) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٥٢٥).

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ ....

《٣٩ - ٤٠》 وفائدةُ تكريرِ: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠﴾: أن يُجددوا عند استماع كلِّ نبأٍ من أنباء الأولين ادِّكاراً واتعاظاً، وأن يستأنِفوا تَنَبُّهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحثَّ على ذلك والبعثَ عليه، وهذا حكمُ التكريرِ في قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] عند كل نعمة عدَّها، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] عند كل آيةٍ أوردَها، وكذا تكريرُ الأنباءِ والقَصصِ في أنفسِها لتكون تلك العِبَرُ حاضرةً للقلوب، مصوَّرةً للأذهان، مذكورةً غيرَ مَنْسِيَّةٍ في كلِّ أوان.

《٤١》 ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١﴾: موسى وهارونُ وغيرُهما من الأنبياء، أو: هو جمع نذير، وهو الإنذار.

《٤٢》 ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾: بالآيات التسعِ، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يُغالَبُ، ﴿مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ لا يُعجزُه شيءٌ.

《٤٣》 ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أهلَ مكةَ ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ الكفارِ المعدودينَ، قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وآلِ فرعونَ؛ أي: أهم خيرٌ قوةً وآلةً ومكانةً في الدنيا، أو أقلُّ كفراً وعناداً؟ يعني: أنَّ كفاركم مثلُ أولئك، بل شرٌّ منهم، ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣﴾: أم أُنزلت عليكم يا أهل مكة براءةٌ في الكتب المتقدمةِ أنَّ مَن كفر منكم وكذَّبَ الرسلَ كان آمناً من عذاب الله، فأمنتُم بتلك البراءة؟

《٤٤》 ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾: جماعةٌ أمرُنا مُجتمعٌ، ﴿مُّنتَصِرٌ ۝٤٤﴾: ممتنعٌ لا نُرام ولا نُضام.

《٤٥》 ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾: جمعُ أهل مكةَ، ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ أي: الأدبارَ، كما قال[1]:

[من: الوافر]

كُلُوا في بعضِ بطنِكمُ تَعِفُّوا ....

---

(١) البيت لا يعرف قائله، وهو من شواهد «الكتاب» لسيبويه (١/ ٢١٠)، وتمامه:

فإنَّ زمانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ.

والخميص: الجائع؛ أي: جياعٌ أهلُه.

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ ......

أي: ينصرفون منهزمين؛ يعني: يومَ بدر، وهذه من علامات النبوة.

《٤٦》 ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾: موعدُ عذابِهم بعد بدر، ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾: أشدُّ من موقف بدر، والداهيةُ: الأمر المنكر الذي لا يُهتدى لدوائه، ﴿وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ مَذاقاً من عذاب الدنيا، أو: أشدُّ؛ مِن المِرَّةِ.

《٤٧》 ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحقِّ في الدنيا، ﴿وَسُعُرٍ ۝٤٧﴾: ونيرانٍ في الآخرة، أو في هلاكٍ ونيرانٍ.

《٤٨》 ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾: يُجرُّون فيها ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾ كقولك: وجدَ مسَّ الحُمَّى، وذاق طعمَ الضرب؛ لأن النار إذا أصابتهم بِحَرِّها.. فكأنها تَمَسُّهم مسّاً بذلك، وسقرُ: غيرُ منصرف للتأنيث والتعريف؛ لأنها عَلَمٌ لجهنم؛ مِن: سقرتْه النارُ: إذا لَوَّحَتْه.

《٤٩》 ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ (كلَّ): منصوبٌ بفعل مضمر يفسرُه الظاهرُ، وقرئ: بالرفع شاذّاً[1]، والنصبُ أولى؛ لأنه لو رُفع.. لأمكن أن يكون (خلقناه) في موضع الجرِّ، وصفاً لـ(شيءٍ)، ويكونُ الخبر (بقدر)، وتقديرُه: إنّا كلُّ شيءٍ مخلوقٍ لنا كائنٌ بقدر، ويَحتمِل أن يكون (خلقناه) هو الخبر، وتقديرُه: إنّا كلُّ شيء مخلوقٌ لنا بقدر، فلمّا تردد الأمرُ في الرفع.. عُدِلَ إلى النصب، وتقديرُه: إنا خلقنا كلَّ شيء بقدر، فيكون الخلق عامّاً لكل شيء، وهو المراد بالآية، ولا يجوز في النصب أن يكون (خلقناه) صفةً لشيء؛ لأنه تفسيرُ الناصب، والصفةُ لا تعمل في الموصوف، والقَدَرُ والقَدْرُ: التقديرُ؛ أي: بتقديرٍ سابقٍ، أو: خلقنا كلَّ شيءٍ مقدّراً محكماً مرتباً على حَسَبِ ما اقتضتْه الحكمة، أو: مقدراً مكتوباً في اللوح، معلوماً قبل كونه، قد علما حالَه وزمانَه، قال أبو هريرة: جاء مشركو قريشٍ إلى النبيِّ ﷺ يُخاصمونه في القَدَرِ، فنزلت الآية[2]، وكان عمرُ يحلف أنها نزلت في القَدَرية.

《٥٠》 ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾: إلا كلمةٌ واحدةٌ؛ أي: وما أمرُنا لشيءٍ نريد تكوينَه إلا أن نقول له: كنْ فيكونُ ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾: على قدرِ ما يلمَحُ أحدُكم ببصره، وقيل: المراد بـ(أمرنا): القيامةُ، كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

---

(١) انظر «المحتسب» (٢/ ٣٠٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٦).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

《٥١》 ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾: أشباهكم في الكفر من الأمم، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾: متعظ.

《٥٢》 ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾: أولئك الكفارُ؛ أي: وكلُّ شيءٍ مفعولٍ لهم ثابتٌ ﴿فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾: في دواوينِ الحفظةِ، فـ(فعلوه): في موضع جرٍّ نعتٌ لـ(شيءٍ)، و(في الزبر): خبرٌ لـ(كل).

《٥٣》 ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال، ومن كل ما هو كائنٌ ﴿مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾: مسطورٌ في اللوح.

《٥٤》 ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾: وأنهار، اكتفى باسم الجنس، وقيل: هو السَّعَةُ والضياءُ، ومنه: النهار.

《٥٥》 ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: في مكان مرضيٍّ، ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾: عنديةُ منزلة وكرامةٍ، لا مسافةٍ ومُماسّةٍ، ﴿مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾: قادر، وفائدةُ التنكير فيها: أن يُعلمَ أنْ لا شيءَ إلا هو تحت ملكه وقدرته.



﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ ....

سورة الرحمن جلَّ وعلا

وهي ستٌّ وسبعون آيةً، مكية.

بسم الله الرحم الرحيم

«١ - ٣» ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ أي: الـجـنـسَ، أو آدمَ، أو محمداً عليهما السلام.

«٤» ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾: عدَّدَ الله عزَّ وجلَّ آلاءه، فأراد أن يُقَدِّم أولَ شيء ما هو أسبق قِدَماً من ضروب آلائِه وصنوفِ نَعمائِه، وهي نعمةُ الدين، فقدم من نعمةِ الدينِ ما هو سَنامٌ في أعلى مراتبِها، وأقصى مراقيها، وهو إنعامُه بالقرآن، وتنزيلُه وتعليمُه؛ لأنه أعظمُ وحيِ اللهِ رتبةً، وأعلاه منزلةً، وأحسنُه في أبواب الدين أثراً، وهو سَنامُ الكتب السماوية، ومِصداقُها، والعِيارُ عليها، وأَخَّرَ ذكرَ خلقِ الإنسان عن ذكره، ثم اتبعه إياه؛ لِيُعْلِمَ أنه إنما خلقه للدين، ولِيحيطَ علماً بوحيه وكتبه، وقدَّمَ ما خَلق الإنسانَ مِن أجله عليه، ثم ذكرَ ما تميَّزَ به من سائر الحيوان؛ مِن البيان، وهو المنطقُ الفصيحُ المعرِبُ عمّا في الضمير، و(الرحمن): مبتدأٌ، وهذه الأفعالُ مع ضمائرها أخبارٌ مترادفةٌ، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نَمَطِ التعديد، كما تقول: زيدٌ أغناك بعد فقرٍ، أعزك بعد ذلٍّ، كثَّرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحدٌ بأحد، فما تُنكر من إحسانه؟

«٥» ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾: بحسابٍ معلومٍ، وتقديرٍ سويٍّ، يَجريان في بُروجِهما ومنازِلِهما، وفي ذلك منافعُ للناس، منها: علمُ السنين والحساب.

«٦» ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾: النباتُ الذي يَنْجُمُ من الأرض لا ساقَ له، كالبُقول، ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾: الذي له ساقٌ، وقيل: النجمُ: نجومُ السماء، ﴿يَسْجُدَانِ ۝٦﴾: ينقادان لله تعالى فيما خُلقا له؛ تشبيهاً بالساجد من المكلفين في انقيادِه، واتَّصلت هاتان الجملتان بـ(الرحمن) بالوصل المعنوي؛ لِما علم أن الحُسبان حُسبانُه، والسجودَ له لا لغيره، كأنه قيل: الشمسُ والقمرُ بحُسبانه، والنجمُ والشجرُ يسجدان له، ولم يُذكر العاطفُ في الجمل الأُوَلِ، ثم جِيءَ به بعدُ؛ لأن الأُوَلَ وردت على سبيل التعداد؛ تبكيتاً لمن أنكر آلاءَه، كما يُبكَّتُ مُنكرُ أيادي المنعِمِ عليه من الناس

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١﴾ ....

بتعديدها عليه في المثال المذكور، ثم رَدَّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت، في وصلِ ما يجب وصلُه؛ للتناسب والتقارب بالعطف، وبيانُ التناسب: أن الشمس والقمر سماويان، والنجمُ والشجرُ أرضيّان، فبين القَبيلين تناسبٌ مِن حيث التقابلُ، وإن السماء والأرض لا تزالان تُذكرانِ قرينَتين، وأنَّ جَرْيَ الشمسِ والقمرِ بحُسبان من جنس الانقياد لأمر الله، فهو مناسب لسجود النجم والشجر.

《٧》 ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾: خلقها مرفوعةً مسموكةً حيث جعلها مَنشأَ أحكامِه، ومَصدرَ قضاياه، ومسكنَ ملائكته الذين يَهبِطون بالوحيِ على أنبيائه، ونبَّه بذلك على كبرياء شأنِه وملكِه وسلطانِه، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧﴾ أي: كلَّ ما توزن به الأشياء وتُعرفُ مقاديرُها؛ مِن ميزانٍ وقَرَسْطونٍ[١] ومكيالٍ ومقياسٍ؛ أي: خلقَه موضوعاً على الأرض حيث عَلَّقَ به أحكامَ عبادِه من التسوية والتعديلِ في أخذِهم وإعطائِهم.

《٨》 ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾: لئلا تطغوا، أو: هي (أن) المفسرة.

《٩》 ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾: وقَوِّموا وَزْنَكم بالعدل، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾: ولا تُنقصوه، أمرَ بالتسوية ونَهى عن الطغيان الذي هو اعتداءٌ وزيادةٌ، وعن الخسران الذي هو تطفيفٌ ونقصانٌ، وكرَّرَ لفظَ الميزان تشديداً للتوصية به، وتقويةً للأمر باستعماله والحثِّ عليه.

《١٠》 ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾: خفضَها مدحوَّةً على الماء ﴿لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾: للخلق، وهو كلُّ ما على ظهر الأرض من دابة، وعن الحسن: الإنسُ والجنُّ، فهي كالمهاد لهم، يتصرفون فوقَها.

《١١》 ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾: ضُروبٌ مما يُتفكه به، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١﴾ هي: أوعيةُ التمر، الواحدُ: كِمٌّ: بكسر الكاف، أو: كلُّ ما يَكُمُّ؛ أي: يُغَطِّي من لِيفه وسَعَفِه وكُفُرَّاه، وكلُّه منتفَعٌ به، كما يُنتفع بالمكمومِ من ثمره وجُمّارِه وجذوعِه[٢].

---

(١) القَرَسْطون: الميزان العظيم.
(٢) السَّعَفُ: ورقُ النخل، والكُفُرَّى: وعاءُ طلع النخل، والجُمّارُ: قلبُ النّخل.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾ ....

«١٢» ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ هو: ورقُ الزرعِ أو التين، ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٣﴾: الرِّزْقُ وهو اللُّبُّ[1]، أراد: فيها ما يُتلذَّذُ به من الفواكه، والجامعُ بين التلذُّذِ والتغذِّي، وهو ثمرُ النخل، وما يُتغذَّى به وهو الحَبُّ، ﴿والريحانِ﴾: بالجرِّ: حمزةُ وعليٌّ؛ أي: والحبُّ ذو العصف الذي هو عَلَفُ الأنعام، والريحانِ الذي هو مَطعمُ الأنام، والرفعُ على: وذو الريحان، فحُذف المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مُقامه، وقيل: معناه: وفيها الريحانُ الذي يُشَمُّ، ﴿والحبَّ ذا العصفِ والريحانَ﴾: شاميٌّ[2]؛ أي: وخلق الحبَّ والريحانَ، أو: وأخصُّ الحبَّ والريحانَ.

«١٣» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ أي: النعمِ مما عَدَّدَ مِن أولِ السورة، جمعُ أَلْيٍ وإِلْيٍ، ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ الخطابُ للثقلين بدلالة (الأنام) عليهما.

«١٤» ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾: طينٍ يابسٍ له صَلْصَلَةٌ ﴿كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ أي: الطينِ المطبوخِ بالنار، وهو الخَزَفُ، ولا اختلافَ في هذا، وفي قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] لاتفاقِها معنىً؛ لأنه يفيدُ أنه خلقه من تراب، ثم جعله طيناً، ثم حمأً مسنوناً، ثم صَلصالاً.

«١٥ - ١٦» ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾: أبا الجنِّ، قيل: هو إبليسُ، ﴿مِن مَّارِجٍ﴾: هو اللهبُ الصافي الذي لا دخانَ فيه، وقيل: المختلطُ بسوادِ النارِ؛ مِن: مَرَجَ الشيءُ: إذا اضطربَ واختلطَ، ﴿مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾: هو بيانٌ لـ(مارج)، كأنه قيل: مِن صافٍ من نار، أو مختلطٍ من نار، أو: أرادَ: من نار مخصوصة، كقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

«١٦» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾.

«١٧» ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ أرادَ مَشرِقَي الصيفِ والشتاءِ، ومَغربَيْهما.

«١٨» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾.

---

(١) في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ٢٨٨) الريحانُ: يُطلق على الرحمة والرِّزْقِ والراحة، وبالرزق سُمِّيَ الولدُ ريحاناً.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٠) وكذا القراءتان الآتيتان.

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ....

《١٩》 ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ أي: أرسلَ البحرَ الملحَ، والبحرَ العذبَ مُتجاوِرَين مُتلاقِيين لا فصلَ بين الماءين في مَرأى العين.

《٢٠》 ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾: حاجزٌ من قدرة الله تعالى، ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾: لا يتجاوزان حدَّيْهِما، ولا يبغي أحدُهما على الآخر بالممازجة.

《٢١》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾.

《٢٢》 ﴿يَخْرُجُ﴾ ﴿يُخرَجُ﴾: مدنيٌّ وبصريٌّ، ﴿منهما اللُّولُو﴾: بلا همز: أبو بكرٍ ويزيدُ، وهو كبارُ الدُّرِّ، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾: صِغارُه، وإنما قال: (منهما) وهما يَخرجان من المِلْحِ؛ لأنهما لما الْتَقَيا وصارا كالشيءِ الواحد.. جاز أن يقال: يَخرجان منهما، كما يقال: يخرجان من البحر، ولا يخرجان من جميع البحر، ولكنْ مِن بعضه، وتقول: خرجتُ من البلد، وإنما خرجتَ من مَحلَّةٍ من مَحالِّهِ، وقيل: لا يَخرجان إلا من ملتقى المِلْحِ والعذب.

《٢٣》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

《٢٤》 ﴿وَلَهُ﴾: ولله ﴿ٱلْجَوَارِ﴾: السفنُ، جمع جارية، قال الزجاج: الوقفُ عليهما بالياء، والاختيارُ: وصلُها، وإن وَقف عليها واقفٌ بغير ياء.. فذا جائز على بُعْدٍ، ولكن يَرُوم الكسرَ في الراء؛ ليدلَّ على حذف الياء[١]، ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: المرفوعاتُ الشُّرُعِ[٢]، ﴿المنشِآت﴾: بكسر الشين: حمزةُ ويحيى[٣]، الرافعاتُ الشُّرُعِ، أو: اللاتي يُنشِئن الأمواجَ بِجرْيِهنَّ، ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾: جمعُ عَلَمٍ، وهو: الجبلُ الطويلُ.

《٢٥》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

《٢٦》 ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾: على الأرض ﴿فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

《٢٧》 ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾: ذاتُه، ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾: ذو العظمة والسلطان، وهو صفةُ الوجه، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ بالتجاوُزِ والإحسانِ، وهذه الصفةُ من عظيم صفات الله، وفي الحديث: «أَلِظُّوا

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ١٠٠).

(٢) الشُّرُعُ: جمعُ شِراعٍ، وهو: ما يُرفع فوقَها لِتدخلَ فيه الريحُ فتُجريها.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٠).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ....

بـ: يا ذا الجلال والإكرام»[1]، وروي: أنه عليه السلام مرَّ برجلٍ وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام فقال: «قد استجيب لك»[2].

《٢٨》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ والنعمةُ في الفناء باعتبار أن المؤمنين به يَصِلون إلى النعم السَّرْمَدِ، وقال يحيى بنُ معاذ: حبذا الموتُ؛ فهو الذي يُقرب الحبيب إلى الحبيب.

《٢٩》 ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقفَ عليها نافعٌ، كلٌّ مِن أهلِ السموات والأرضِ مُفتقرون إليه، فيسألُه أهل السموات ما يتعلق بدينهم، وأهلُ الأرض ما يتعلق بدينهم ودُنياهم، وينتصبُ ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾: ظرفاً بما دلَّ عليه ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي: كلَّ وقت وحينٍ يُحدثُ أموراً، ويُجددُ أحوالاً، كما رُوي: أنه عليه السلام تلاها فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: «مِن شأنه أن يغفِرَ ذنباً، ويُفَرِّجَ كرباً، ويرفعَ قوماً، ويَضَعَ آخرين»[3]، وعن ابن عيينةَ: الدهرُ عند الله يومان: أحدُهما: اليومُ الذي هو مدةُ الدنيا، فشأنُه فيه: الأمرُ والنهيُ والإحياءُ والإماتةُ والإعطاءُ والمنعُ، والآخرُ: يومُ القيامة، فشأنُه فيه: الجزاءُ والحسابُ، وقيل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شأناً، وسأل بعضُ الملوك وزيرَه عن الآية فاستمهله إلى الغد وذهب كئيباً يفكر فيها، فقال غلامٌ له أسودُ: يا مولاي أخبرني ما أصابك لعلَّ الله يُسَهِّلُ لك على يدِي، فأخبره فقال: أنا أفسرُها للملك فأَعلمه، فقال: أيُّها الملكُ؛ شأنُ الله أنه يولجُ الليلَ في النار ويولجُ النهارَ في الليل، ويخرجُ الحيَّ من الميت ويخرجُ الميتَ من الحيِّ، ويشفي سقيماً ويُسقِمُ سليماً، ويَبتلي مُعافىً ويعافي مُبتلىً، ويُعزُّ ذليلاً ويُذلُّ عزيزاً، ويُفقرُ غنيّاً ويُغني فقيراً، فقال الأميرُ: أحسنتَ، وأمر الوزيرَ أن يخلع عليه ثيابَ الوزارة، فقال: يا مولايَ هذا من شأن الله، وقيل: سَوْقُ المقادير إلى المواقيت، وقيل: إن عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ دعا الحسينَ بنَ الفضلِ وقال له: أشكلتْ عليَّ ثلاثُ آيات، دعوتُك لتكشفَها لي، قولُه: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وقد صحَّ: «أن الندمَ توبةٌ»[4]، وقولُه: (كلَّ يومٍ هو في شأنٍ) وصحَّ: «أن القلم جفَّ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٩٩) عن سيدنا ربيعة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٣١) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٢) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٤) رواه ابنُ ماجه (٤٢٥٢) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ....﴾

بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[١]، وقولُه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فما بال الأضعاف[٢]؟ فقال الحسين: يجوزُ ألا يكونَ الندم توبة في تلك الأمة ويكون توبة في هذه الأمة، وقيل: إن ندمَ قابيلَ لم يكن على قتل هابيلَ، ولكن على حمله، وأما قوله: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فمعناه: ليس للإنسان إلا ما سعى عدلاً، وليَ أن أجزيَه بواحدة ألفاً فضلاً ـ وكذا قيل: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) مخصوصٌ بقوم إبراهيمَ وموسى عليهما السلام[٣] ـ وأمّا قولُه: (كلَّ يوم هو في شأن) فإنها شؤون يُبْدِيْها لا شؤون يَبْتَدِيْها، فقام عبدُ الله وقبَّلَ رأسَه، وسوَّغَ خراجَه.

«٣٠» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

«٣١» ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾: مستعارٌ من قول الرجل لمن يتهدَّدُه: سأفرُغُ لك؛ يريد: سأتجرد للإيقاع بك من كلِّ ما يشغلُني عنه، والمرادُ: التوفُّرُ على النِّكاية فيه، والانتقام منه، ويجوز أن يرادَ: ستنتهي الدنيا وتبلغُ آخرها، وتنتهي عند ذلك شؤونُ الخلق التي أرادها بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فلا يبقى إلا شأنٌ واحدٌ، وهو جزاؤُكم، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل، ﴿سَيَفْرُغُ﴾: حمزةُ وعليٌّ[٤]؛ أي: الله تعالى، ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾: الإنسُ والجنُّ، سُمِّيا بذلك؛ لأنهما ثَقَّلا الأرض.

«٣٢» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

«٣٣» ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: هو كالترجمة لقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانبِ السمواتِ والأرضِ هرباً

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) يشير إلى حديث البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، فيما يَروِي عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال: قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بَيَّنَ ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملْها.. كتبَها الله له عنده حسنةً كاملةً، فإنْ هو همَّ بها فعملها.. كتبها اللهُ له عنده عشرَ حسناتٍ إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ومَن همَّ بسيئة فلم يعملْها.. كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً، فإنْ هو همَّ بها فعمِلها.. كتبها الله له سيئةً واحدةً».

(٣) وردت القصة في «الكشاف» (٤/ ٤٤٧) دون قوله: (وكذا قيل... السلام).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٠).

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ....

من قضائي.. فاخرجُوا، ثم قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾: لا تَقدِرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾: بقوة وقهر وغلبة، وأنَّى لكم ذلك؟ وقيل: دلَّهم على العجز عن قوتهم للحساب غداً بالعجز عن نفوذ الأقطار اليومَ، وقيل: يقال لهم هذا يومَ القيامة حين تُحدقُ بهم الملائكة، فإذا رآهم الجنُّ والإنسُ.. هربوا، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به.

《٣٤》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾.

《٣٥》 ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ وبكسرِ الشين: مكيٌّ[1]، وكلاهما اللهبُ الخالصُ، ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخانٌ، ﴿ونُحاسٍ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو، فالرفعُ: عطفٌ على (شواظٌ)، والجرُّ: على (نارٍ) والمعنى: إذا خرجتم من قبوركم.. يُرسل عليكما لهبٌ خالصٌ من النار، ودخانٌ يسوقُكم إلى المحشر، ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾: فلا تُمنَعانِ منهما.

《٣٦》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

《٣٧》 ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾: انفكَّ بعضُها من بعض لقيام الساعة، ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلونِ الوردِ الأحمر، وقيل: أصلُ لون السماء الحمرةُ، ولكن مِن بُعْدِها تُرى زرقاءَ. ﴿كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾: كدُهنِ الزيتِ، كما قال: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩]، وهو دُرْدِيُّ الزيتِ، وهو جمعُ دهن، وقيل: الأديمُ الأحمر.

《٣٨》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾.

《٣٩》 ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: فيومَ تنشقُّ السماءُ ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ أي: ولا جنٌّ، فوُضِعَ الجانُّ الذي هو أبو الجن موضعَ الجنِّ، كما يقال: هاشمٌ، ويُرادُ: ولدُه، والتقديرُ: لا يسألُ إنس ولا جان عن ذنبه، والتوفيقُ بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]: أن ذلك يومٌ طويلٌ، وفيه مواطنُ، فيُسألون في موطن، ولا يسألون في آخر، وقال قتادةُ: قد كانت مسألةٌ، ثم خُتم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون، وقيل: لا يُسألُ عن ذنبه لِيُعْلَمَ من جهته، ولكن يُسألُ للتوبيخ.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٣١١) وكذا القراءة الآتية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ....

《٤٠》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾.

《٤١》 ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾: بسوادِ وجوهِهم، وزُرْقَةِ عُيونهم، ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ أي: يؤخذُ تارةً بالنواصي، وتارة بالأقدام.

《٤٢》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾.

《٤٣ - ٤٤》 ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾: ماءٍ حارٌّ قد انتهى حرُّه؛ أي: يُعاقب عليهم بين التصلية بالنار، وبين شرب الحميم.

《٤٥》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ والنعمةُ في هذا: نجاةُ الناجي منه بفضله ورحمته، وما في الإنذار به من التنبيه.

《٤٦》 ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾: موقفَه الذي يقفُ فيه العباد للحساب يوم القيامة، فتَرَكَ المعاصيَ، أو: فأدّى الفرائضَ، وقيل: هو مقحم، كقوله[1]: [من: الوافر]

.... ونـفـيـتُ عـنـه مـقـام الـذئـب ....

أي: نفيتُ عنه الذئبَ، ﴿جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾: جنةُ الإنس، وجنةُ الجنِّ؛ لأن الخطاب للثقلين، وكأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان: جنةٌ للخائف الإنسي، وجنةٌ للخائف الجني[2].

《٤٧》 ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

《٤٨》 ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾: أغصان، جمعُ فَنَنٍ، وخصَّ الأفنان؛ لأنها هي التي تُورق وتُثمر، فمنها تمتدُّ الظلال، ومنها تُجتنى الثمار، أو: ألوان، جمعُ فَنٍّ؛ أي: له فيها ما تشتهي الأنفسُ، وتَلَذُّ الأعينُ، قال[3]: [من: الطويل]

ومِـن كـل أفـنـان الـلـذاذةِ والـصـبـا لَـهَـوْتُ بـه والـعـيـشُ أخـضـرُ نـاضـرُ

---

(١) جزء من بيت للشَّمَّاخ في «ديوانه» (ص٣٢١).
وهو بتمامه:
ذَعـرتُ بـه الـقـطـا ونـفـيـتُ عـنـه مـقـامَ الـذئـب كـالـرجـل الـلـعـيـن

(٢) في «تفسير الآلوسي» (١٤/ ١١٥): والظاهرُ أن المراد ولكلِّ فردٍ فردٍ من الخائفين جنتان.

(٣) أورده في «مشاهد الإنصاف» (٥٩) ولم ينسبه لأحد.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ ....

«٤٩» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾.

«٥٠» ﴿فِيهِمَا﴾: في الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل، وعن الحسن: تجريان بالماء الزُّلال، إحداهما: التسنيم، والأخرى: السلسبيل.

«٥١» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾.

«٥٢» ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾: صنفان، صنفٌ معروف، وصنفٌ غريب.

«٥٣» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾.

«٥٤» ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: نصبٌ على المدح للخائفين، أو: حالٌ منهم؛ لأن ﴿مَنْ خَافَ﴾ في معنى الجمع.

﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾: جمعُ فراش، ﴿بَطَآئِنُهَا﴾: جمعُ بِطانة، ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾: ديباج ثخين، وهو مُعَرَّبٌ، قيل: ظهائرُها من سندس، وقيل: لا يعلمُها إلا الله، ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾: وثمرُها قريب ينالُه القائمُ والقاعدُ والمتكئُ.

«٥٥» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾.

«٥٦» ﴿فِيهِنَّ﴾: في الجنتين؛ لاشتمالهما على أماكنَ وقصورٍ ومجالسَ، أو: في هذه الآلاءِ المعدودةِ؛ من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجَنَى، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: نساءٌ قصرنَ أبصارَهنَّ على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ الدوريُّ: بضم الميم[1]، والطمثُ: الجماع بالتدمية، ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ وهذا دليلٌ على أن الجن يطمثُون كما يَطمث الإنس.

«٥٧» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

«٥٨» ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ ﴿٥٨﴾﴾ صفاءً، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ بياضاً، فهو أبيض من اللؤلؤ.

«٥٩» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١١) وفيه كلام طويل هنا فراجعه.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ ....

«٦٠» ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العملِ ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ في الثواب، وقيل: ما جزاءُ مَن قال: لا إله إلا الله إلا الجنة، وعن إبراهيم الخواص فيه: هل جزاءُ الإسلام إلا دارُ السلام.

«٦١» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

«٦٢» ﴿وَمِن دُونِهِمَا ﴿٦٢﴾﴾: ومن دون تَينِكَ الجنتين الموعودتين للمقربين ﴿جَنَّتَانِ﴾ لمن دونَهم من أصحاب اليمين.

«٦٣» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾.

«٦٤» ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾: سوداوان من شدة الخضرة، قال الخليل: الدُّهمةُ: السوادُ.

«٦٥» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾.

«٦٦» ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾: فوَّارتان بالماء لا تنقطعان.

«٦٧» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾.

«٦٨» ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾: ألوانُ الفواكه، ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ والرمانُ والتمرُ ليسا من الفواكه عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه؛ للعطف، ولأن التمر فاكهةٌ وغذاءٌ، والرمانُ فاكهةٌ ودواء، فلم يَخلُصا للتفكه، وهما قالا: إنما عُطفا على الفاكهة لِفضلهما، كأنهما جنسانِ آخران، لما لهما من المزية، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨][١].

«٦٩» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾.

«٧٠» ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي: خَيِّراتٌ، فخُففتْ، وقرئَ: ﴿خَيِّراتٌ﴾[٢] على الأصل؛ والمعنى: فاضلاتُ الأخلاقِ حِسانُ الخَلْقِ.

«٧١» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾.

---

(١) التمر ليس بفاكهة اتفاقاً، والخلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه في الرطب والرمان. انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٧٧٧).

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٤٤).

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

«٧٢» ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ أي: مُخدَّرات؛ يقال: امرأةٌ قصيرةٌ ومقصورةٌ وقَصُوْرَةٌ؛ أي: مُخَدَّرَةٌ، وقيل: الخيامُ من الدرِّ المجوَّف.

«٧٣» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾.

«٧٤ - ٧٥» ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾: قبلَ أصحابِ الجنتين، ودلَّ عليهم ذكر الجنتين، ﴿وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾.

«٧٦» ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: نصبٌ على الاختصاص[1]، ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ هو: كلُّ ثوب عريض، وقيل: الوسائدُ، ﴿خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾: ديباج أو طنافس.

«٧٧» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾ وإنما تقاصرت صفاتُ هاتين الجنتين عن الأولين حتى قيل: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ لأن ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ دون ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، و﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ دون ﴿تَجْرِيَانِ﴾ و﴿فَٰكِهَةٌ﴾ دون ﴿كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، وكذلك صفةُ الحورِ والمتَّكأ.

«٧٨» ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾: ذي العظمة، ﴿ذو الجلال﴾: شاميٌّ[2]، صفةٌ للاسم، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ لأوليائه بالإنعام، روى جابرٌ: أن النبي ﷺ الله عليه وسلم قرأ (سورة الرحمن) فقال: «مالي أراكم سُكوتاً، لَلْجِنُّ كانوا أحسنَ منكم ردّاً، ما أتيت على قول الله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيءِ من نعمك ربَّنا نكذب، فلك الحمد ولك الشكر»[3]، وكُرِّرَتْ هذه الآيةُ في هذه السورة إحدى وثلاثين مرةً، ذُكر ثمانيةٌ منها عقب آيات فيها تَعدادُ عجائب خلق الله، وبدائعِ صنعه، ومبدأِ الخلق ومعادِهم، ثم سبعةٌ منها عقبَ آياتٍ فيها ذكرُ النار وشدائدِها على عدد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة ثمانيةٌ في وصف الجنتين وأهلِهما على عدد أبواب الجنة، وثمانيةٌ أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى، وعمل بموجَبها.. فُتحت له أبواب الجنة، وأُغلقت عنه أبواب جهنم.



---

(١) ويجوز أن يكون حالاً بتقدير: يتنعمون متكئين. انظر «تفسير الآلوسي» (١٤/ ١٢٣).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١١).

(٣) رواه بنحوه الترمذي (٣٢٩١).

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨

سورة الواقعة

سبعٌ وتسعون آيةً، مدنيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾: قامت القيامة، وقيل: وُصفت بالوقوع؛ لأنها تقعُ لا محالةَ، فكأنه قيل: إذا وقعت الواقعةُ التي لا بدَّ من وقوعها، ووقوعُ الأمر: نزولُه؛ يقال: وقع ما كنت أتوقعُه؛ أي: نزل ما كنت أترقبُ نزولَه، وانتصابُ (إذا) بإضمار: اذكر.

《٢》 ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾: نفسٌ كاذبةٌ؛ أي: لا تكون حين تقعُ. . نفسٌ تكذبُ على الله، وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة، وأكثرُ النفوس اليوم كواذبُ مكذِّبات، واللامُ مثلُها في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤][(١)].

《٣》 ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أي: هي خافضة رافعة، ترفعُ أقواماً وتَضعُ آخرين.

《٤》 ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾: حُركت تحريكاً شديداً حتى يتهدمَ كلُّ شيء فوقَها؛ مِن جبل وبناء، وهو بدلٌ مِن: ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾، ويجوز أن ينتصب بـ(خافضة رافعة) أي: تَخفضُ وترفعُ وقتَ رَجِّ الأرض وبسِّ الجبال.

《٥》 ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾: وفُتِّتْ حتى تعودَ كالسويق، أو: سِيقت؛ مِن: بَسَّ الغنمَ: إذا ساقَها، كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠].

《٦》 ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً﴾: غباراً ﴿مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾: متفرقاً.

《٧》 ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾: أصنافاً؛ يقال للأصناف التي بعضُها من بعض، أو يُذكر بعضُها مع بعض: أزواجٌ، ﴿ثَلَٰثَةً ۝٧﴾: صنفان في الجنة، وصنفٌ في النار، ثم فَسَّرَ الأزواج فقال:

《٨》 ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: مبتدأٌ، وهم الذين يُؤتَون صحائفَهم بأيمانهم، ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، وهما: خبرُ المبتدأ الأول، وهو تعجيبٌ من حالهم في السعادة، وتعظيمٌ لشأنهم، كأنه قال: ما هم؟ وأيُّ شيءٍ هم؟

---

(١) أيْ: أن اللام بمعنى: في.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ ....

《٩》 ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: الذين يُؤتَون صحائفَهم بشمائلهم، أو أصحاب المنزلة السنية، وأصحابُ المنزلة الدنية الخسيسة؛ مِن قولك: فلانٌ مني باليمين، وفلان مني بالشمال: إذا وصفتَهما بالرفعة عندك والضَّعَةِ، وذلك ليُمنِهم بالميامِن، وتشاؤمِهم بالشمائل، وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذاتَ اليمين، وبأهل النار ذاتَ الشمال، ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ أي: أيُّ شيءٍ هم؟ وهو تعجيب من حالهم بالشقاء.

《١٠ - ١١》 ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾: خبرُه، تقديرُه: السابقون إلى الخيرات السابقون إلى الجنات، وقيل: الثاني تأكيدٌ للأول، والخبرُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾، والأولُ أَوْجَهُ.

《١٢》 ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ أي: هم في جنات النعيم.

《١٣ - ١٤》 ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: هم ثلةٌ، والثلةُ: الأمةُ من الناس الكثيرة، والمعنى: أن السابقين كثيرٌ من الأولين، وهم الأمم من لدنْ آدمَ إلى نبينا محمدٍ عليهما السلام، وقليلٌ من الآخِرين، وهم أمة محمد ﷺ، وقيل: (من الأولين): من متقدمِي هذه الأمةِ، و(من الآخِرين): من متأخريْها، وعن النبي ﷺ: «الثلتان جميعاً من أمتي»[١].

《١٥》 ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾: جمعُ سرير، ككَثيب وكُثُبٍ، ﴿مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾: مرمولة بالذهب[٢]، مشبكة بالدرِّ والياقوت.

《١٦》 ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾: حالٌ من الضمير في (على)، وهو العامل؛ أي: استقرُّوا عليها متكئين، ﴿عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾: ينظرُ بعضُهم في وجوه بعض، ولا ينظر بعضُهم في أقفاء بعض، وُصِفُوا بحسن العِشرة، وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودة، و(متقابلين): حالٌ أيضاً.

《١٧》 ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾: يخدُمهم ﴿وِلْدَٰنٌ﴾: غِلمانٌ، جمعُ وليد، ﴿مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾: مُبقَّوْن أبداً على شكل الوِلدان لا يتحولون عنه، وقيل: مُقرَّطون، والخِلَدَةُ: القُرطُ، قيل: هم أولادُ أهل

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/١٢٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) مرمولة: منسوجة.

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ....

الدنيا، لم تكن لهم حسنات فيثابُوا عليها، ولا سيئاتٌ فيعاقَبُوا عليها، وفي الحديث: «أولاد الكفار خدامُ أهل الجنة»(١).

《١٨》 ﴿بِأَكْوَابٍ﴾: جمعُ كوبٍ، وهي: آنيةٌ لا عُروةَ لها ولا خُرطوم، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾: جمعُ إبريق، وهو ما له خُرطوم وعُروة، ﴿وَكَأْسٍ﴾: وقَدَحٍ فيه شراب، فإن لم يكن فيه شرابٌ.. فليس بكأس، ﴿مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾: من خمر تجري من العيون.

《١٩》 ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها، وحقيقتُه: لا يَصدُرُ صُداعُهم عنها، أو: لا يُفرَّقُون عنها، ﴿وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾: ولا يَسكَرون، نَزَفَ الرجل: ذهب عقلُه بالسُّكْرِ، ﴿ولا يُنزِفون﴾: بكسر الزاي: كوفي(٢)، لا يَنْفَدُ شرابُهم؛ يُقال: أَنزف القومُ: إذا فَني شرابُهم.

《٢٠》 ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾: يأخذون خيرَه وأفضلَه.

《٢١》 ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾: يتمنَّون.

《٢٢》 ﴿وَحُورٌ﴾: جمعُ حَوراء، ﴿عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾: جمعُ عَيناء؛ أي: وفيها حور عِينٌ، أو: ولهم حورٌ عينٌ، ويجوز أن يكون عطفاً على (ولدان)، ﴿وحورٍ﴾: يزيدُ وحمزةُ وعلي، عطفاً على (جنات النعيم) كأنه قال: هم في جناتِ النعيم وفاكهةٍ ولحمٍ وحورٍ.

《٢٣》 ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ﴾ في الصفاء والنقاء، ﴿ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾: المَصُون، قال الزجاج: كأمثال الدرِّ حين يَخرجُ مِن صَدَفِه لم يغيرْه الزمانُ واختلافُ أحوالِ الاستعمالِ.

《٢٤》 ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (جزاءً) مفعولٌ له؛ أي: يُفْعَلُ بهم ذلك كلُّه لجزاءِ أعمالِهم، أو: مصدرٌ؛ أي: يُجزون جزاءً.

《٢٥》 ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾: في الجنات ﴿لَغْوًا﴾: باطلاً، ﴿وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾: هَذَياناً.

《٢٦》 ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾: إلا قولاً ذا سلامة، والاستثناءُ منقطعٌ، و(سلاماً): بدلٌ مِن (قيلاً)، أو: مفعولٌ به لـ(قيلاً) أي: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاماً سلاماً؛ والمعنى: أنهم يُفشون السلام بينهم، فيسلمون سلاماً بعد سلام.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٠٤٥) عن سيدنا سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٢) وكذا القراءة الآتية.

وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ....

《٢٧》 ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

《٢٨》 ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ السدرُ: شجرُ النَّبْقِ، والمخضودُ: الذي لا شوكَ له، كأنما خُضِدَ شوكُه.

《٢٩》 ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ الطلحُ: شجرُ الموز، والمنضودُ: الذي نُضِدَ بالحمل من أسفلِه إلى أعلاه، فليست له ساقٌ بارزةٌ.

《٣٠》 ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾: ممتدٍّ منبسطٍ كظلٍّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

《٣١》 ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾: جارٍ بلا حدٍّ ولا خَدٍّ[1]؛ أي: تجري على الأرض في غير أُخدود.

《٣٢》 ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: كثيرةِ الأجناس.

《٣٣》 ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾: لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكهِ الدنيا، بل هي دائمة، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾: لا تُمنع عن مُتناوِلها بوجهٍ، وقيل: لا مقطوعةٍ بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان.

《٣٤》 ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾: رفيعةِ القدر، أو: نُضدت حتى ارتفعت، أو: مرفوعةٍ على الأَسِرَّةِ، وقيل: هي النساء؛ لأن المرأة يُكَنَّى عنها بالفراش، مرفوعةٍ على الأرائك، قال الله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦]، ويدلُّ عليه قولُه:

《٣٥》 ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾: ابتدأنا خلْقهن ابتداءً مِن غير ولادة، فإما أن يُرادَ: اللاتي ابتُدِئَ إنشاؤُهنَّ، أو: اللاتي أعيدَ إنشاؤهنَّ، وعلى غير هذا التأويلِ أُضْمِرَ: لهنَّ؛ لأن ذكر الفرش وهي المضاجع دلَّ عليهنَّ[2].

《٣٦》 ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾: عَذارَى، كلما أتاهنَّ أزواجُهن.. وجدوهن أبكاراً.

《٣٧》 ﴿عُرُبًا﴾ ﴿عُرْباً﴾: حمزةُ وخلفٌ ويحيى وحمادٌ[3]، جمعُ عَروب، وهي المتحببةُ إلى

---

(١) الخَدُّ: الشَّقُّ في الأرض.

(٢) أي: إن لم تفسر الفرشُ بالنساء.. فالضمير في (أنشأناهن) يعود على النساء وإن لم يتقدم ذكرهن؛ لأن ذكر الفرش يدل عليهنَّ.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٢) وكذا القراءات الأربع الآتية.

﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ....﴾

زوجِها الحسنةُ التبعُّل، ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾: مستوياتٍ في السنِّ، بناتِ ثلاثٍ وثلاثين، وأزواجُهن كذلك.

《٣٨》 واللامُ في ﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾: مِن صلةِ أنشأنا.

《٣٩ - ٤٠》 ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: أصحابُ اليمين ثلةٌ ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ **فإن قلت**: كيف قال قبل هذا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، ثم قال هنا: (وثلة من الآخرين)؟

قلت: ذاك في السابقين، وهذا في أصحاب اليمين، وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعاً، وعن الحسن: سابِقُو الأممِ أكثرُ من سابِقِي أمتِنا، وتابِعُو الأممِ مثلُ تابعي هذه الأمة.

《٤١》 ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ الشمالُ والمشأمةُ واحدةٌ.

《٤٢》 ﴿فِى سَمُومٍ﴾: في حرِّ نارٍ ينفُذُ في المسامِّ، ﴿وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾: وماءٍ حارٍّ مُتناهي الحرارة.

《٤٣》 ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾: من دخان أسودَ.

《٤٤》 ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾: نَفْيٌ لِصِفَتَي الظلِّ عنه، يريدُ: أنه ظِلٌّ، ولكن لا كَسائِرِ الظلال، سمّاه ظلّاً، ثم نَفَى بردَ الظلِّ ورَوْحَهُ ونفعه مَن يأوي إليه مِن أذى الحَرِّ، وذلك كَرَمُهُ؛ لِيمحقَ ما في مدلول الظلِّ مِن الاسترواح إليه؛ والمعنى: أنه ظِلٌّ حارٌّ ضارٌّ.

《٤٥》 ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾: مُتنعِّمين، فمنعَهم ذلك من الانزجار، وشغَلَهم عن الاعتبار.

《٤٦》 ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ﴾: يُداوِمون ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ أي: على الذنب العظيم، أو: على الشرك؛ لأنه نَقْضُ عهدِ الميثاقِ، والحِنْثُ: نقضُ العهد المؤكَّد باليمين، أو: الكفرِ بالبعث؛ بدليل قولِه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

《٤٧》 ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ تقديرُه: أنبعث إذا متنا؟ وهو العامل في الظرف، وجاز حذفُه؛ إذْ مبعوثونَ يدلُّ عليه، ولا يعمل فيه مبعوثون؛ لأنَّ (إنَّ) والاستفهامَ يَمنعان أن يعمل ما بعدهما فيما قبلَهما.

أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ....

《٤٨》 ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف، وحسن العطف على المضمر في (لمبعوثون) من غير توكيد بـ(نحن) للفاصلِ الذي هو الهمزة، كما حسن في قوله: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] لفصلِ (لا) المؤكدة للنفي، ﴿أَوْ آباؤنا﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ[(١)].

《٤٩ - ٥٠》 ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾: إلى ما وُقِّتَتْ به الدنيا من يومٍ معلومٍ، والإضافةُ بمعنى: مِن، كخاتمِ فضةٍ، والميقاتُ: ما وُقِّتَ به الشيء؛ أي: حُدَّ، ومنه: مواقيتُ الإحرام، وهي الحدودُ التي لا يُجاوزها مَن يريدُ دخول مكةَ إلا مُحرماً.

《٥١》 ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الهدى، ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ بالبعث، وهم أهلُ مكةَ ومَن في مثلِ حالِهم.

《٥٢》 ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ﴾ (مِن) لابتداء الغاية، ﴿مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ (مِن): لبيان الشجر.

《٥٣ - ٥٤》 ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ أَنَّثَ ضميرَ الشجر على المعنى، وذَكَّرَه على اللفظ في (منها) و(عليه).

《٥٥》 ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ﴾: بضم الشين: مدنيٌّ وعاصمٌ وحمزةُ وسهلٌ، وبفتح الشين: غيرُهم، وهما مصدران، ﴿ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ هي: إبلٌ عِطاشٌ لا تَرْوَى، جمع أَهْيَمَ وهَيماءَ؛ والمعنى: أنه يُسلَّطُ عليهم مِن الجوع ما يَضطرُّهم إلى أكلِ الزقوم الذي هو كالمُهل، فإذا ملؤوا منه البطونَ.. سُلط عليهم مِن العطش ما يَضطرُّهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءَهم، فيشربونه شربَ الهِيْمِ، وإنما صحَّ عطفُ الشاربين على الشاربين وهما لِذواتٍ متفقةٍ وصفتان متفقتان؛ لأن كونَهم شاربين للحميم على ما هو عليه مِن تناهي الحرارةِ وقطعِ الأمعاء أمرٌ عجيبٌ، وشُربُهم له على ذلك كما يشرب الهِيْمُ الماءَ أمرٌ عجيبٌ أيضاً، فكانتا صفتين مختلفتين.

《٥٦》 ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾: هو الرزق الذي يُعدُّ للنازل تَكْرِمَةً له، ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾: يومَ الجزاءِ.

---

(١) قرأ قالون وأبو جعفر وابن عامر: بإسكان الواو.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ....

《٥٧》 ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا﴾: فهلّا ﴿تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾: تحضيضٌ على التصديق، إما بالخَلْقِ؛ لأنهم وإن كانوا مصدقين به إلا أنه لما كان مذهبُهم خلافَ ما يقتضيه التصديقُ.. فكأنهم مكذبون به، وإما بالبعث؛ لأن مَن خلق أولاً.. لم يَمتنع عليه أن يَخلُق ثانياً.

《٥٨》 ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾: ما تُمنونه؛ أي: تَقذِفونه في الأرحام مِن النُّطَفِ.

《٥٩》 ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾: تُقدِّرونه وتُصوِّرونه وتَجعلونه بشراً سويّاً، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

《٦٠ - ٦١》 ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ تقديراً وقسمناه عليكم قسمةَ الأرزاقِ على اختلافٍ وتفاوتٍ كما تَقتضيه مشيئتُنا، فاختلفت أعمارُكم مِن قصير وطويل ومتوسط، ﴿قَدَرْنا﴾: بالتخفيف: مكيٌّ، سبقتُه بالشيء: إذا أعجزتَه عنه وغلبتَه، فمعنى قولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾: إنا قادرون على ذلك، لا تغلبونني عليه، و(أمثالكم): جمعُ مِثل؛ أي: على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهَكم من الخلق، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾: وعلى أن ننشئكم في خَلْقٍ لا تعلمونَها، وما عهدتم بمثلها؛ يعني: أنا نَقدِرُ على الأمرين جميعاً، على خلق ما يُماثلُكم وما لا يُماثلُكم، فكيف نَعجِزُ عن إعادتكم، ويجوز أن يكون (أمثالكم) جمعَ مَثَلٍ؛ أي: على أن نبدل ونغير صفاتِكم التي أنتم عليها في خَلْقِكم وأخلاقِكم، وننشئكم في صفاتٍ لا تعلمونها.

《٦٢》 ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿النشاءة﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو، ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أن مَن قَدَرَ على شيء مرةً.. لم يمتنع عليه ثانياً، وفيه دليلُ صحةِ القياس؛ حيث جهَّلَهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

《٦٣》 ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾: ما تَحرثونه من الطعام؛ أي: تُثيرون الأرض وتُلقون فيها البَذْرَ.

《٦٤》 ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾: تُنبتونه وتردُّونه نباتاً، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾: المُنبتون، وفي الحديث: «لا يقولون أحدكم: زرعتُ، وليقل: حرثتُ»[1].

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٧٢٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ . . . . . .﴾

《٦٥》 ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾: هشيماً متكسِّراً قبل إدراكه، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾: تَعَجَّبُون، أو: تَندَمُون على تعبكم فيه، وإنفاقِكم عليه، أو على ما اقترفتم من المعاصي التي أُصبتم بذلك من أجلها[1].

《٦٦》 ﴿إِنَّا﴾ أي: تقولون: إنا، ﴿أئنا﴾: أبو بكر[2]، ﴿لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾: لملزَمُون غرامةَ ما أنفقنا، أو: مُهْلَكون لِهلاكِ رِزْقِنا؛ مِن الغَرام، وهو: الهلاكُ.

《٦٧》 ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قومٌ ﴿مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾: مُحارَفون محدودون، لا مَجدودون[3]، لا حظَّ لنا ولا بختَ لنا، ولو كنا مَجدودين.. لما جَرى علينا هذا.

《٦٨》 ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: الماءَ العذبَ الصالحَ للشرب.

《٦٩》 ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾: السحاب الأبيضِ، وهو أعذبُ ماءٍ، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بقدرتِنا.

《٧٠》 ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾: مِلحاً، أو: مُرّاً لا يُقْدَرُ على شُربه، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾: فهلّا تشكرون، ودخلت اللامُ على جواب (لو) في قوله: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ ونُزعت منه هنا؛ لأن (لو) لمّا كانت داخلة على جملتين مُعلَّقةٍ ثانيتَهما بالأولى، تَعَلُّقَ الجزاءِ بالشرط، ولم تكن مُخلَّصَةً للشرط كـ(إنْ)، ولا عاملةً مثلَها، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقاً مِن حيثُ إفادتُها في مضمون جُملتَيها أن الثاني امتنعَ لامتناعِ الأول.. افتقرت في جوابها إلى ما يُنْصَبُ عَلَماً على هذا التعلُّقِ، فزيدت هذه اللامُ لتكون علماً على ذلك، ولما شُهِرَ موقعُه.. لم يُبالَ بإسقاطِه عن اللفظ لِعِلْمِ كلِّ أحدٍ به، وتَساوِي حالَيْ حذفِه وإثباتِه، على أنَّ تقدمَ ذكرِها والمسافةُ قصيرةٌ.. مُغْنٍ عن ذكرها ثانيةً، ولأن هذه اللام تفيد معنى التأكيد لا محالة.. فأدخلت في آية

---

(١) ما ذكره النسفي هو تفسير باللازم، وأصلُ معنى (تفكهون): تَطْرَحُون الفُكاهةَ عن أنفسكم، وهي المسَرَّة، فالتفعُّل فيه للسلب، كما يقال: تَهَجَّدَ: إذا ترك الهُجُود، وهو: النوم. انظر «البحر المحيط» (٨/ ٢١١) و«تفسير الآلوسي» (١٤/ ١٤٨).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٣).

(٣) محارَفون: لا نصيبُ خيراً حيث توجهنا، محدودون: ممنوعون مما كنا نطلب من الزرع، مَجدودون: أصحابُ حظٍّ طيب.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ ....

المطعوم دون آيةِ المشروب؛ للدلالة على أن أمر المعلوم مقدمٌ على أمر المشروب، وأن الوعيدَ بفقدِه أشدُّ وأصعبُ؛ مِن قِبَلِ أن المشروب إنما يُحتاج إليه تبعاً للمطعوم، ولهذا قُدمت آيةُ المطعوم على آية المشروب.

《٧١》 ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾: تَقدحونها وتَستخرجونها من الزِّناد، والعربُ تَقدحُ بعودَين، تَحُكُّ أحدهما على الآخر، ويُسمُّون الأعلى الزَّنْد، والأسفلَ: الزَّنْدَة، شبهوهما بالفَحل والطَّرُوقة.

《٧٢》 ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ التي منها الزِّناد، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾: الخالقون لها ابتداءً.

《٧٣》 ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ أي: النارَ ﴿تَذْكِرَةً﴾: تذكيراً لنارِ جهنمَ؛ حيث علَّقْنا بها أسبابَ المعاشِ، وعمَّمْنا بالحاجة إليها البلوى؛ لتكون حاضرةً للناس، ينظرون إليها، ويذكرون ما أُوعِدوا به، ﴿وَمَتَٰعًا﴾: ومنفعةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾: للمسافرين النازلين في القَواءِ، وهي: القَفْرُ، أو: الذين خلت بطونُهم أو مَزاوِدُهم من الطعام؛ مِن قولهم: أَقْوَتِ الدارُ: إذا خلت من ساكنيها، بدأ بذكر خلق الإنسان فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ لأن النعمة فيه سابقةٌ على جميع النعم، ثم بما به قِوامُه وهو الحَبُّ، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾، ثم بما يُعجَنُ به ويشربُ عليه وهو الماءُ، ثم بما يُخبزُ به وهو النار، فحصولُ الطعام بمجموع الثلاثة، ولا يَستغني عنه الجسدُ ما دام حيّاً.

《٧٤》 ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾: فنزِّهْ ربك عمّا لا يليق به أيُّها المستمعُ المستدلُّ، أو: أراد بالاسم الذِّكْرَ؛ أي: سبح بذكر ربك ﴿ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾: صفةٌ للمضاف، أو للمضاف إليه، وقيل: قل: سبحان ربي العظيم، وجاء مرفوعاً أنه لما نزلت هذه الآيةُ.. قال: «اجعلوها في ركوعكم»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾

《٧٥》 ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: فأقسمُ، و(لا): مزيدةٌ مؤكدةٌ، مثلُها في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وقرئ: ﴿فَلَأُقسم﴾[1]؛ ومعناه: فَلأنا أُقسم، اللامُ: لامُ الابتداء، دخلت على جملة من مبتدأ وخبر، وهي: أنا أقسمُ، ثم حُذِفَ المبتدأ، ولا يصحُّ أن تكون اللامُ لام القسم؛ لأن حقَّها أن تُقْرَنَ بها النونُ المؤكِّدة، ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾: بمساقِطِها ومغاربِها، ﴿بموقع﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]، ولعلَّ الله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجومُ إلى المغرب أفعالاً مخصوصةً عظيمةً، أو للملائكة عباداتٍ موصوفةً، أو: لأنه قيام المتهجدين، ونزولِ الرحمة والرضوان عليهم، فلذلك أقسم بمواقعِها، واستعظم ذلك بقوله:

《٧٦》 ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾: وهو اعتراضٌ في اعتراض؛ لأنه اعترض به بين القسم والمقسَم عليه، وهو قولُه:

《٧٧》 ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾: حَسَنٌ مَرضيٌّ، أو: نَفّاعٌ جمُّ المنافع، أو: كريمٌ على الله، واعترض بـ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ بين الموصوف وصفته.

《٧٨》 ﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ أي: اللوح المحفوظ، ﴿مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾﴾: مصونٍ عن أن يأتيَه الباطل، أو: مِن غيرِ المقربين من الملائكة، لا يطلعُ عليه مَن سِواهم.

《٧٩》 ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ من جميع الأدناس، أدناسِ الذنوبِ وغيرِها، إن جعلت الجملةُ صفةً لـ(كتاب مكنون) وهو اللوح[3]، وإن جعلتَها صفةً للقرآن.. فالمعنى: لا ينبغي أن يمسَّه إلا مَن هو على الطهارة مِن الناس، والمرادُ: مسُّ المكتوب منه.

《٨٠》 ﴿تَنزِيلٞ﴾: صفةٌ رابعة للقرآن؛ أي: مُنزل ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أو: وصفٌ بالمصدر؛ لأنه نزل نجوماً من بين سائر كتب الله، فكأنه في نفسه تنزيلٌ، ولذلك جَرى مَجرى بعضِ أسمائِه فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل، أو: هو تنزيلٌ، على حذف المبتدأ.

《٨١》 ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: القرآنِ ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾: مُتهاونون به، كمَن يُدْهِنُ في الأمر؛ أي: يَلينُ جانبُه ولا يتصلبُ فيه تهاوناً به.

---

(١) انظر «المحتسب» (٢/ ٣٠٩).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٣).

(٣) فعلى هذا: المراد بالمطهرين: الملائكة.

وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ ....

《٨٢》 ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: تجعلون شكرَ رزقِكم التكذيبَ؛ أي: وضعتم التكذيب موضعَ الشكرِ، وفي قراءة عليٍّ رضي الله عنه، وهي قراءةُ رسول الله ﷺ: ﴿وتجعلون شُكرَكم أنكم تَكْذِبُون﴾[1] أي: تجعلون شكرَكم لنعمة القرآن أنكم تُكذبون به، وقيل: نزلت في الأنواءِ ونسبتِهم السقيا إليها، والرزقُ: المطرُ؛ أي: وتجعلون شكرَ ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تُكذِّبون بكونه من الله؛ حيث تَنسُبونه إلى النجوم.

《٨٣》 ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفسُ؛ أي: الروحُ عند الموت ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾﴾: ممرَّ الطعام والشراب.

《٨٤》 ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ الخطابُ لمن حضر الميِّتَ تلك الساعة.

《٨٥》 ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ﴾: إلى المحتضَرِ ﴿مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾: لا تعقلون ولا تعلمون.

《٨٦》 ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾: مربوبين؛ مِن: دان السلطانُ الرعيَّةَ: إذا ساسَهم.

《٨٧》 ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾: تَرُدُّون النفْسَ وهي الروحُ إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أنكم غيرُ مربوبين مقهورين، ﴿فَلَوۡلَآ﴾ في الآيتين: للتحضيض، يستدعي فِعلاً، وذا قولُه: (ترجعونها)، واكتُفِيَ بذكره مرةً، وترتيبُ الآية: فلولا تَرجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين، و﴿فَلَوۡلَآ﴾ الثانيةُ مُكرَّرةٌ للتأكيد، ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ يا أهل الميتِ بقدرتنا وعِلمِنا، أو: بملائكة الموت؛ والمعنى: أنكم في جُحودِكم آياتِ الله في كلِّ شيء إنْ أَنزل عليكم كتاباً معجزاً.. قلتُم: سحرٌ وافتراءٌ، وإن أَرسل إليكم رسولاً صادقاً.. قلتُم: ساحرٌ كذّابٌ، وإن رزقَكم مطراً يُحييكم به.. قلتُم: صَدَقَ نَوءُ كذا، على مذهبٍ يُؤدِّي إلى الإهمالِ والتعطيلِ، فما لكم لا تَرجعون الروحَ إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثمةَ قابِضٌ، وكنتم صادقين في تعطيلِكم وكفرِكم بالمحيي المميتِ، المبدئِ المعيدِ.

《٨٨ - ٨٩》 ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفَّى ﴿مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾: من السابقين مِن الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة ﴿فَرَوۡحٞ﴾: فله استراحةٌ، ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾: ورزقٌ، ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٢) وهي شاذة.

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

《٩٠ - ٩١》 ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ أي: فسلامٌ لك يا صاحبَ اليمين من إخوانك أصحابِ اليمينِ؛ أي: يُسلمون عليك، كقوله: إلا قيلاً سلاماً سلاماً.

《٩٢》 ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾: هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، وهم الذين قيل لهم في هذه السورة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾.

《٩٣ - ٩٤》 ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي: إدخالٌ فيه، وفي هذه الآيات إشارةٌ إلى أن الكفر كلَّه ملة واحدة، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين؛ لأنهم غيرُ مكذبين.

《٩٥》 ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي أُنزل في هذه السورة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ أي: الحقُّ الثابتُ من اليقين.

《٩٦》 ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ روي: أن عثمانَ بنَ عفانٍ رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رضي الله عنه في مرض موته فقال له: ما تشتكي؟ فقال: ذنوبي، فقال: ما تشتهي؟ قال: رحمةَ ربي، قال: أفلا ندعو الطبيب؟ قال: الطبيبُ أمْرَضني، فقال: ألا نأمرُ بعطائك؟ قال: لا حاجةَ لي فيه، قال: تدفعه إلى بناتك، قال: لا حاجةَ لهنَّ فيه، قد أمرتُهن أن يقرأن سورة الواقعة؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة.. لم تُصبْه فاقةٌ أبداً»[1]، وليس في هذه السورِ الثلاثِ ذكرُ (الله): (اقتربت) (الرحمن) (الواقعة)[2].



(١) روى هذه القصة الشجريُّ في «ترتيب الأمالي الخميسية» (٢/ ٣٩٠)، وروى المرفوعَ منها فقط البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١١٩).

(٢) أي: لم يرد في هذه السور اسمُ الجلالة.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ ....

سورة الحديد

مكيةٌ، وهي تسعٌ وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ جاء في بعض الفواتح ﴿سَبَّحَ﴾ [الحشر: ١] بلفظ الماضي، وفي بعضِها بلفظ المضارع، وفي (بني إسرائيل) بلفظ المصدر، وفي (الأعلى) بلفظ الأمر؛ استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتِها، وهي أربعٌ: المصدرُ والماضي والمضارعُ والأمرُ، وهذا الفعلُ قد عُدِّيَ باللام تارة، وبنفسه أخرى في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، وأصلُه التعدي بنفسه؛ لأن معنى سبَّحْتُه: بَعَّدْتُه من السوء، منقولٌ مِن: سَبَحَ: إذا ذهبَ وبَعُدَ، فاللامُ: إما أن تكون مثلَ اللامِ في نصحتُه ونصحتُ له، وإما أن يُرادَ بـ: سبَّحَ لله: اكتسبَ التسبيحَ لأجل الله ولوجهِهِ خالصاً، ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ما يتأتى منه التسبيحُ ويصحُّ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: المنتقمُ من مكلف لم يسبح له عناداً، ﴿الْحَكِيمُ (١)﴾ في مجازاةِ مَن سبَّحَ له انقياداً.

《٢》 ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا لغيره، وموضعُ ﴿يُحْيِي﴾: رفعٌ؛ أي: هو يحيي الموتى، ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياءَ، أو: نصبٌ؛ أي: له ملك السموات والأرض مُحيياً ومميتاً، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)﴾.

《٣》 ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾: هو القديمُ الذي كان قبلَ كلِّ شيء، ﴿وَالْآخِرُ﴾: الذي يبقَى بعد هلاكِ كل شيء، ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بالأدلة الدالة عليه، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ لكونه غيرَ مُدرَك بالحواس وإن كان مَرئيّاً، والواوُ الأولى معناها: الدلالةُ على أنه الجامعُ بين الصفتين: الأوليةُ والآخريةُ، والثالثةُ: على أنه الجامعُ بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى.. فعلى أنه الجامع بين مجموعِ الصفتين الأُولَيَيْنِ، ومجموعُ الصفتين الأُخريين، فهو مستمرُّ الوجود في جميع الأوقات الماضيةِ والآتيةِ، وهو في جميعها ظاهرٌ وباطنٌ، وقيل: الظاهرُ: العالي على كل شيء، الغالبُ له، مِن: ظهر عليه: إذا علاه وغلبه، والباطنُ: الذي بَطنَ كلَّ شيء؛ أي: عَلِمَ باطنَه، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ....﴾

《٤》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عن الحسن: مِن أيام الدنيا، ولو أراد أن يجعلها في طرفة عين.. لفعل، ولكن جعل الستةَ أصلاً؛ ليكون عليها المدار، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾: استولى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ما يدخل في الأرض من البَذْرِ والقَطر والكنوز والموتى، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وغيره، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة والأمطار، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأعمال والدعوات، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بالعلم والقدرة عموماً، وبالفضل والرحمة خصوصاً، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ فيجازيكم على حسب أعمالِكم.

《٥》 ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾.

《٦》 ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾: يُدخل الليل في النهار؛ بأن يَنقُصَ من الليل ويزيدَ في النهار، ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

《٧》 ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟﴾: يَحتمل الزكاةَ والإنفاقَ في سبيل الله، ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموالُ الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما موَّلَكم إياها للاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوُكَلاء والنُّوّاب، فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى، ولْيَهُنْ عليكم الإنفاقُ منها، كما يَهون على الرجل الإنفاقُ من مال غيره إذا أذن له فيه، أو: جعلكم مستخلفين ممن كان قبلَكم فيما في أيديكم بتوريثِه إياكم، وسَيُنْقَلُ منكم إلى مَن بعدَكم، فاعتبروا بِحالِهم، ولا تبخلوا به، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسولِه ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

《٨》 ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: هو حالٌ من معنى الفعل في (ما لكم)، كما تقول: ما لك قائماً؟ بمعنى: ما تصنع قائماً؛ أي: وما لكم كافرين بالله؟ والواوُ في ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾: واوُ الحال، فهما حالان متداخلتان؛ والمعنى: وأيُّ عذر لكم في ترك الإيمان والرسولُ يدعوكم ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ وقبلَ ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أو: بما رَكَّبَ فيكم

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِى مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١٠ . . .﴾

من العقول، ومكَّنكم من النظر في الأدلة، فإذا لم تبق لكم علة بعد أدلة العقولِ وتنبيهِ الرسولِ. . فما لكم لا تؤمنون؟ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨﴾ لمُوْجِبٍ ما . . فإن هذا الموجِبَ لا مزيدَ عليه، ﴿أُخِذَ ميثاقُكم﴾: أبو عمرٍو[1].

《٩》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ﴾: محمدٍ ﷺ، ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ يعني: القرآنَ ﴿لِّيُخۡرِجَكُم﴾ اللهُ تعالى، أو محمدٌ بدعوته ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ﴾: بالمدِّ والهمزةِ: حجازيٌّ وشاميٌّ وحفصٌ، ﴿رَّحِيمٞ ۝٩﴾ الرأفةُ: أشدُّ الرحمة.

《١٠》 ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾: في ألا تنفقوا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: يرثُ كل شيء فيهما، لا يبقى منه باقٍ لأحدٍ من مال وغيره؛ يعني: وأيُّ غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله، والجهادِ مع رسولِه واللهُ مُهلككُم، فوارثٌ أموالَكم، وهو من أبلغ البعثِ على الإنفاق في سبيل الله، ثم بَيَّنَ التفاوت بين المنفقين منهم فقال: ﴿لَا يَسۡتَوِى مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ أي: فتحِ مكةَ قبلَ عزِّ الإسلامِ وقوةِ أهلِه، ودخولِ الناس في دين الله أفواجاً، ومَن أنفق مِن بعدِ الفتح، فحُذف؛ لأن قوله: (من الذين أنفقوا من بعدُ) يدلُّ عليه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لو أنفق أحدُكم مثلَ أُحد ذهباً . . ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»[2]، ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا﴾ أي: كلَّ واحد من الفريقين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي: المثوبة الحسنى وهي الجنةُ، مع تفاوت الدرجات، و(كلّاً): مفعولٌ أولُ لـ(وعد)، و(الحسنى): مفعولٌ ثانٍ، ﴿وكلٌّ﴾: شاميٌّ[3]؛ أي: وكلٌّ وعده الله الحسنى، قيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه؛ لأنه أولُ مَن أسلم، وأولُ مَن أنفق في سبيل الله، وفيه دليلٌ على فضله وتقدُّمِه، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١٠﴾ فيجازيْكم على قدر أعمالكم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٣) وكذا القراءة الآتية.

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣١٤) وكذا القراءة الآتية.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ....

《١١》 ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيبِ نفسِه، والمرادُ: الإنفاقُ في سبيله، واستعير لفظُ القَرض؛ ليدلَّ على التزام الجزاء، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي: يُعطيه أجرَه على إنفاقه أضعافاً مضاعفةً مِن فضله، ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ يعني: ذلك الأجرُ المضمومُ إليه الأضعافُ كريمٌ في نفسه، ﴿فيُضَعِّفُه﴾: مكيٌّ، ﴿فيُضَعِّفَه﴾: شاميٌّ، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾: عاصمٌ وسهلٌ، ﴿فيُضاعفُه﴾: غيرُهم، فالنصبُ على جواب الاستفهام، والرفعُ على: فهو يضاعفُه، أو: عطفٌ على (يقرض).

《١٢》 ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: ظرفٌ لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾، أو: منصوب بإضمار: اذكر؛ تعظيماً لذلك اليوم، ﴿يَسْعَىٰ﴾: يَمضي ﴿نُورُهُم﴾: نورُ التوحيد والطاعات، وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن السعداء يُؤتَون صحائفَ أعمالِهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يُؤتَونها من شمائلهم، ووراءِ ظهورِهم، فيُجعلُ النورُ في الجهتين شعاراً لهم وآيةً؛ لأنهم هم الذين بحسناتهم سَعِدُوا، وبصحائفِهم البيضِ أفلحُوا، فإذا ذُهِبَ بهم إلى الجنة ومرُّوا على الصراط يَسعَون. . سَعَى بِسعيِهم ذلك النورُ، وتقول لهم الملائكة: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي: دخولُ جنات؛ لأن البشارة تقعُ بالأحداث دون الجُثَثِ[1]، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

《١٣》 ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾: هو بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ تَرَى﴾، ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا؛ لأنه يُسرَعُ بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة، ﴿أَنْظِرُونا﴾: حمزةُ[2]؛ مِن النَّظِرَةِ، وهي الإمهالُ، جُعِلَ اتئادُهم في المضيِّ إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم، ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾: نُصِبْ منه، وذلك أن يَلحقُوا بهم فيتسنيروا به، ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾: طردٌ لهم وتَهكُّمٌ بهم؛ أي: تقول لهم الملائكةُ، أو المؤمنون: ارجعُوا إلى الموقف حيث أُعطينا هذا النورَ، فالتمسوه هنالك، فمن ثَمَّ يُقتبس، أو: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه وهو الإيمان،

---

(١) أي: بالمعاني لا بالذوات.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٤) وكذا القراءة الآتية.

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ....

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾: بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾: بحائطٍ حائلٍ بين شِقِّ الجنةِ وشِقِّ النار، قيل: هو الأعراف، ﴿لَّهُۥ﴾: لذلك السورِ ﴿بَابٌۢ﴾ لأهل الجنة يدخلون منه، ﴿بَاطِنُهُۥ﴾: باطنُ السور، أو البابِ، وهو الشِّقُّ الذي يلي الجنة؛ ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: النورُ أو الجنةُ، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾: ما ظهر لأهل النار، ﴿مِن قِبَلِهِ﴾: مِن عنده ومن جهته ﴿ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ أي: الظلمةُ والنارُ.

《١٤》 ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يريدون مرافقتَهم في الظاهر، ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المؤمنون: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: مَحَنْتُموها بالنفاق، وأهلكتموها، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائرَ، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾: وشككتُم في التوحيد، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾: طولُ الآمالِ، والطمعُ في امتداد الأعمار، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموتُ، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾: وغرَّكم الشيطان بأن الله عفوٌّ كريمٌ لا يعذبُكم، أو: بأنه لا بعثَ ولا حسابَ.

《١٥》 ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ وبالتاء: شاميٌّ، ﴿مِنكُمْ﴾ أيُّها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾: ما يُفتدَى به، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ﴾: مرجعُكم، ﴿ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: هي أولى بكم، وحقيقة (مولاكم). مَحراكُم[1]؛ أي: مكانُكم الذي يقال فيه: هو أولى بكم، كما يقال: هو مَئِنَّةٌ للكرم؛ أي. مكانٌ لقول القائل: إنه لكريم[2]، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ النارُ.

《١٦》 ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ مِن: أَنَى الأمرُ يأْنِي: إذا جاءَ إناهُ؛ أي: وقتُه، قيل: كانوا مُجدِبين بمكةَ، فلما هاجروا.. أصابوا الرزق والنعمة، ففتروا عما كانوا عليه، فنزلت، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عُوتبنا بهذه الآية إلا أربعُ سنين[3]، وعن أبي بكر

---

(١) أي: المحلُّ الذي يُقال فيه: إنه أحرى وأحقُّ بكم؛ مِن قولهم: هو حَرِيٌّ بكذا؛ أي: خليقٌ وحقيقٌ وجديرٌ به. انظر «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٨/ ١٥٧).

(٢) المئنة: مأخوذةٌ مِن معنى إنَّ التي للتحقيق والتأكيد، غيرُ مشتقة من لفظها؛ لأن الحروف لا يشتقُّ منها، وإنما ضُمنت حروفَها دلالةً على أن معناها فيها. انظر «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٤/ ٢٩٠).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٧).

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١٧ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ۝١٨﴾ ....

رضي الله عنه أن هذه الآية قُرئت بين يديه، وعنده قومٌ من أهل اليمامة فبكَوا بكاءً شديداً، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب[١]، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾: بالتخفيف: نافع، وحفص. الباقون: ﴿نزَّل﴾[٢]، و(ما) بمعنى: الذي، والمراد بالذكر وما نزل من الحق: القرآن؛ لأنه جامعٌ للأمرين: للذكر والموعظة، وأنه حقٌّ نازلٌ من السماء، ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾: القراءةُ بالياء عطفٌ على (تخشع)، وبالتاء: رويسٌ؛ على الالتفات، ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب، بعد أنْ وُبِّخوا، وذلك أن بني إسرائيل كان الحقُّ يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل.. خشعوا لله، ورقَّتْ قلوبُهم، فلما طال عليهم الزمانُ.. غلبهم الجفاء والقسوة، واختلفوا وأحدثُوا ما أحدثُوا من التحريف وغيره، ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾: الأجلُ والزمانُ، ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ باتباع الشهوات، ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾: خارجون عن دينهم، رافضون لما في الكتابين؛ أي: وقليلٌ منهم مؤمنون.

《١٧》 ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١٧﴾ قيل: هذا تمثيلٌ لأثر الذكر في القلوب، وأنه يُحييها كما يُحيي الغيثُ الأرض.

《١٨》 ﴿إن المصدِّقين والمصدِّقاتِ﴾: بتشديد الدال وحدَه: مكيٌّ وأبو بكر، وهو اسم فاعلٍ مِن: صدَّق، وهم الذين صدَّقوا الله ورسولَه؛ يعني: المؤمنين، الباقون: بتشديد الصاد والدال، وهو اسم فاعل مِن: تَصدَّق، فأُدغمت التاءُ في الصاد، وقرئ على الأصل[٣]، ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾: هو عطفٌ على معنى الفعل في (المصدقين) لأن اللام بمعنى: الذين، واسم الفاعل بمعنى الفعل، وهو: اصَّدَّقوا، كأنه قيل: إن الذين اصَّدقُوا وأقرضوا، القرضُ الحسنُ: أن يتصدق من الطَّيب عن طِيبةِ النفس، وصحةِ النية على المستحِقِّ للصدقة، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ ﴿يُضَعَّفُ﴾: مكيٌّ وشاميٌّ[٤]، ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ۝١٨﴾؛ أي: الجنة.

---

(١) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٤/ ١٠٠).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٤) وكذا القراءتان الآتيتان.

(٣) أي: ﴿إن المتصدقين والمتصدقات﴾. انظر «حجة القراءات» لابن زنجلة (ص ٧٠١).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٤).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ . . . .

《١٩》 ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ يريدُ: أن المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى التصديق، واستشهدوا في سبيل الله، ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ أي: مثلُ أجرِ الصديقين والشهداء، ومثلُ نورِهم، ويجوزُ أن يكون (والشهداء): مبتدأً، و(لهم أجرُهم): خبرُه، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾.

《٢٠》 ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ﴾ كَلِعب الصبيان، ﴿وَلَهۡوٞ﴾ كَلَهْوِ الفِتيانِ، ﴿وَزِينَةٞ﴾ كزينة النِّسوانِ، ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ كتفاخر الأقران، ﴿وَتَكَاثُرٞ﴾ كتكاثر الدِّهْقانِ[1]، ﴿فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ أي: مباهاةٌ بهما، والتكاثرُ: ادِّعاءُ الاستكثار، ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ بعد خُضرتِه، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾: مُتفتتاً، شَبَّهَ حالَ الدنيا وسُرعةَ تَقَضِّيْها مع قلةِ جَدْواها بنباتٍ أنبته الغيث، فاستوى وقَوِي وأُعجب به الكفارُ الجاحدون لنعمة الله فيما رزقَهم من الغيث والنبات، فبَعث عليه العاهةَ، فهاجَ واصفرَّ وصار حطاماً؛ عُقوبة لهم على جُحودهم، كما فَعل بأصحاب الجنة وصاحبِ الجنتين، وقيل: الكفارُ: الزُّرّاعُ، ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ للكفار، ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ للمؤمنين؛ يعني: أن الدنيا ليست إلا مُحقَّراتِ الأمور، وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرةُ.. فما هي إلا أمورٌ عِظامٌ، وهي العذاب الشديد، والمغفرة والرضوان من الله الحميد، والكافُ في (كمثل غيث) في محل رفعٍ على أنه خبرٌ بعد خبر؛ أي: الحياةُ الدنيا مثلُ غيث، ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ لمن ركن إليها واعتمد عليها، قال ذو النون: يا معشر المريدين لا تطلُبوا الدنيا، وإن طلبتموها.. فلا تحبوها؛ فإن الزادَ منها، والمقيلَ في غيرها.

ولما حقَّر الدنيا وصغَّر أمرَها وعظَّمَ أمر الآخرة.. بعث عبادَه على المسارعة إلى نيلِ ما وعد من ذلك، وهي المغفرةُ المنجيةُ من العذاب الشديد، والفوزُ بدخول الجنة بقوله:

---

(١) الدِّهقان يُطلقُ على رئيس القرية، وعلى التاجر، وعلى مَن له مالٌ وعَقارٌ.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ ....

《٢١》 ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي: بالأعمال الصالحة ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وقيل: سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال السُّدّيُّ: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين، وذكرَ العرضَ دون الطول لأن كلَّ ما له عرض وطول.. فإن عَرْضَه أقلُّ مِن طوله، فإذا وُصِفَ عرضُه بالبَسطة.. عُرِف أن طوله أبسطُ، أو: أُريد بالعرض: البسطةُ، وهذا ينفي قولَ مَن يقول: إن الجنة في السماء الرابعة؛ لأن التي في إحدى السموات لا تكون في عرض السموات والأرض، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وهذا دليلٌ على أنها مخلوقة، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموعودُ من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ وهم المؤمنون، وفيه دليلٌ على أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

《٢٢》 ثم بَيَّن أنَّ كلَّ كائن بقضاء الله وقدره بقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الجدب وآفات الزروع والثمار، وقولُه: (في الأرض): في موضع الجر؛ أي: ما أصاب من مصيبة ثابتة في الأرض، ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾: في اللوح، وهو في موضع الحال؛ أي: إلا مكتوباً ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾: من قبل أن نخْلُقَ الأنفس، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: إن تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ وإن كان عسيراً على العباد، ثم علل ذلك وبَيَّنَ الحكمة فيه بقوله:

《٢٣》 ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ﴾: تحزنوا حزناً يُطغيكم ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا وسعتها، أو من العافية وصِحتها، ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ﴾ فرحَ المختال الفخور ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: أعطاكم؛ من الإيتاء، أبو عمرو: ﴿أتاكم﴾[1] أي: جاءكم؛ مِن الإتيان؛ يعني: أنكم إذا علمتم أن كل شيء مقدر مكتوب عند الله.. قلَّ أساكم على الفائت، وفرحُكم على الآتي؛ لأن مَن علم أن ما عنده مفقود لا محالة.. لم يتفاقمْ جزعُه عند فقده؛ لأنه وطَّنَ نفسه على ذلك، وكذلك مَن علم أن بعض الخير واصلٌ إليه، وأن وصوله لا يفوته بحال.. لم يَعظُم فرحُه عند نيله، وليس أحدٌ إلا وهو يفرح عند منفعة تصيبُه، ويَحزنُ عند مضرة تَنزلُ به، ولكن ينبغي أن يكون الفرحُ شكراً، والحزنُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ ....﴾

صبراً، وإنما يُذم من الحزن الحزعُ المنافي للصبر، ومن الفرح الأشرُ المطغي الماهي عن الشكر، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ لأن مَن فرح بحظٍّ من الدنيا وعَظُمَ في نفسه.. اختال وافتخر وتكبر على الناس.

《٢٤》 ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾: خبرُ مبتدأ محذوف، أو: بدلٌ من ﴿كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ كأنه قال: لا يحب الذين يبخلون؛ يريدُ: الذين يفرحون الفرحَ المطغِيَ إذا رُزقوا مالاً وحظّاً من الدنيا، فلِحُبِّهم له وعِزَّته عندهم يَزْوُوْنَهُ عن حقوق الله ويبخلون به، ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾: ويحضُّون غيرَهم على البخل، ويُرغبونهم في الإمساك، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: يُعرض عن الإنفاق، أو: عن أوامر الله ونواهيْه، ولم ينته عما نُهي عنه من الأسى على الفائت، والفرح بالآتي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن جميع المخلوقات، فكيف عنه! ﴿ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ في أفعاله، ﴿فإن الله الغني﴾ بترك (هو): مدنيٌّ وشاميٌّ.

《٢٥》 ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ يعني: أرسلنا الملائكةَ إلى الأنبياء ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: بالحجج والمعجزات، ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي. الوحي، وقيل: الرسلُ: الأنبياءُ، والأولُ أولى؛ لقوله: (معهم) لأن الأنبياء يَنزل عليهم الكتابُ، ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ روي: أن جبريل نزل بالميزان، فدفعه إلى نوح وقال: مُرْ قومَك يَزِنُوا به، ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾: ليتعاملوا بينهم إيفاءً واستيفاءً ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: بالعدل ولا يظلمَ أحدٌ أحداً، ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدمُ من الجنة ومعه خمسةُ أشياء من حديد: السَّنْدَانُ، والكَلْبَتانِ، والمِيْقَعَةُ، والمطرقة والإبرة، وروي: ومعه المَرُّ والمِسحاةُ[1]، وعن الحسن: (وأنزلنا الحديد): خلقناه ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ وهو: القتالُ به، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مصالحهم ومعايِشِهم وصنائعِهم، فما من صناعة إلا والحديدُ آلةٌ فيها، أو ما يُعملُ بالحديد، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين، وقال الزجاج: ليعلمَ الله من يقاتلُ مع رسوله في سبيله[2] ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

---

(١) السَّنْدانُ: آلة يَطرُق الحدَّادُ عليها الحديدَ، الكَلْبَتان: أداةٌ يأُخذ بها الحدادُ الحَدِيد المحمَّى، المِيْقَعَةُ: المِبْرَدُ، المَرُّ والمسحاة: من آلات الزراعة.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ١٢٩).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ....

غائباً عنهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾: يدفع بقوته بأسَ من يعرضُ عن مِلته، ﴿عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ يَربط بعزَّته جأشَ مَن يتعرض لنصرته، والمناسبةُ بين هذه الأشياء الثلاثة: أن الكتاب قانون الشريعة، ودُستور الأحكام الدينية، يُبيِّنُ سُبُلَ المراشد والعهود، ويتضمن جوامعَ الأحكام والحدود، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن البغي والطغيان، واستعمالُ العدلِ والاجتنابُ عن الظلم إنما يقع بآلةٍ يقع بها التعامل، ويحصل بها التساوي والتعادل، وهي الميزان، ومن المعلوم أن الكتابَ الجامعَ للأوامر الإلهية، والآلةَ الموضوعةَ للتعامل بالسَّويَّةِ إنما تَحضُّ العامةَ[1] على اتباعهما بالسيف الذي هو حجةُ الله على من جحد وعَنَدَ، ونَزَعَ عن صفقة الجماعة اليَدَ، وهو الحديدُ الذي وُصف بالبأس الشديد.

《٢٦》 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ خُصّا بالذكر؛ لأنهما أبوانِ للأنبياء عليهم السلام، ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾: أولادِهما ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾: الوحيَ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الخطُّ بالقلم؛ يقال: كتب كتاباً وكتابةً، ﴿فَمِنْهُم﴾: فمن الذرية، أو: من المرسَلِ إليهم، وقد دلَّ عليهم ذكرُ الإرسال والمرسلين، ﴿مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾: هذا تفصيلٌ لحالهم؛ أي: فمنهم من اهتدى باتباع الرسل، ومنهم من فسق؛ أي: خرج عن الطاعةِ، والغلبةُ للفُسّاق.

《٢٧》 ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: نوحٍ وإبراهيمَ ومَن مضى من الأنبياء، ﴿بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾: مَودَّةً وليناً، ﴿وَرَحْمَةً﴾: تَعطُّفاً على إخوانهم، كما قال في صفة أصحاب النبي ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾: هي تَرهُّبُهم في الجبال فارِّينَ من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسَهم للعبادة، وهي الفِعلةُ المنسوبة إلى الرهبان، وهو الخائفُ، (فَعْلان) مِن: رَهِبَ، كخَشْيان مِن: خَشِيَ، وانتصابُها بفعل مضمر يفسرُه الظاهرُ، تقديرُه: وابتدعوا رهبانيةً ابتدعوها؛ أي: خَرَّجُوها من عند أنفسهم ونذرُوها، ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾: لم نَفرِضْها نحن عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾: استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: ولكنهم ابتدعُوها ابتغاء رضوان الله، ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ كما يجبُ على

---

(١) في الأصل: (يحفظ العامّ)، والمثبت من المطبوع (٤/ ٢٤٩) وهو الصواب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

الناذر رعايةُ نذره؛ لأنه عهدٌ مع الله لا يَحِلُّ نَكْثُهُ، ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: أهلَ الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام، أو: الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾: كافرون.

《٢٨》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الخطابُ لأهل الكتاب، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾: محمدٍ ﷺ، ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ اللهُ ﴿كِفْلَيْنِ﴾: نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بمحمد ﷺ، وإيمانِكم بِمَنْ قبلَه، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ وهو النورُ المذكور في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

《٢٩》 ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾: ليعلمَ ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذين لم يُسلموا، و(لا): مزيدة، ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ (أنْ): مخففةٌ من الثقيلة، أصلُه: أنه لا يقدرون؛ يعني: أن الشأن لا يقدرون ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا ينالون شيئاً مما ذُكر من فضل الله؛ من الكِفلين والنور والمغفرة؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ، فلم ينفعْهم إيمانُهم بمن قبله، ولم يُكسِبهم فضلاً قَطُّ، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾: عطفٌ على (أنْ لا يقدرون) ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: في ملكه وتصرفه، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ والله الموفق.



﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ....

سورة المجادلة

مدنية، وهي اثنتان وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾: تُحاوِرك، وقرئ بها[1]، وهي خولةُ بنتُ ثعلبةَ امرأةُ أوسِ بنِ الصامتِ أخي عبادةَ، رآها وهي تصلي، وكانت حسنةَ الجسم، فلما سلمت.. راودَها فأبت، فغضبَ فظاهرَ منها، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابةٌ مرغوب فيَّ، فلما خلا سِنِّي، ونثرْتُ بطني - أي: كَثُرَ ولدي - جعلني عليه كأمه[2]، وروي: أنها قالت: إن لي صِبيةً صغاراً، إن ضممتُهم إليه.. ضاعُوا، وإن ضممتُهم إليَّ.. جاعُوا، فقال ﷺ: «ما عندي في أمرِكِ شيءٌ»، وروي: أنه قال لها: «حَرُمْتِ عليه»، فقالت: يا رسول الله، ما ذَكَرَ طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي، وأحبُّ الناس إليَّ، فقال: «حَرُمْتِ عليه»، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي وَوَجْدِي، كلما قال رسول الله ﷺ: «حَرُمْتِ عليه».. هتفتْ وشَكَتْ إلى الله، فنزلت[3]: ﴿فِى زَوْجِهَا﴾: في شأنِه ومعناه، ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: تُظهرُ ما بها من المكروه، ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾: مُراجعتَكما الكلامَ؛ مِن: حار: إذا رجع، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمعُ شكوى المضطر، ﴿بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ بحاله.

《٢》 ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾: عاصمٌ، ﴿يَظَّهَّرُونَ﴾: حجازيٌّ وبصريٌّ، غيرُهم: ﴿يَظَّاهَرُونَ﴾[4]، وفي ﴿مِنكُمْ﴾: توبيخٌ للعرب؛ لأنه كان من أَيمانِ أهلِ جاهليتهم خاصةً دون سائر الأمم، ﴿مِن

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٣).

(٢) رواه بنحوه ابن ماجه (٢٠٦٣) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٣) روى البيهقي قصة خولة في «السنن الكبرى» (٧/ ٣٨٤) بغير هذا السياق، وفيها: «ما أعلم إلا قد حَرُمْتِ عليه»، وفي رواية أخرى فيه (٧/ ٣٨٢): «يا خويلة ما أُمِرنا في أمرِك بشيء»، وفي سنن أبي داود (٢٢١٤): «اتقي الله فإنه ابن عمك».

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٥).

﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾ . . . .

﴿نِّسَآئِهِمْ﴾: زوجاتهم، ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ ﴿أمهاتُهم﴾: المفضل[1]، والأولُ: حجازيٌّ، والثاني: تميميٌّ، ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا الَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ يُريدُ أن الأمهاتِ على الحقيقة: الوالداتُ، والمرضعاتُ مُلحقاتٌ بالوالدات بواسطة الرَّضاع، وكذا أزواجُ رسول الله ﷺ؛ لزيادةِ حرمتِهنَّ، وأما الزوجاتُ.. فأَبْعَدُ شيءٍ من الأُمومة، فلذا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ﴾ أي: تُنكرُه الحقيقةُ والأحكامُ الشرعية، ﴿وَزُورًا﴾: وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحقِّ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾ لما سلفَ منهم.

«٣» ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ بيَّنَ في الآية الأولى أن ذلك من قائله منكرٌ وزُورٌ، وبين في الثانية حكمَ الظهار، ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ العودُ: الصيرورةُ ابتداءً أو بناءً، فمِن الأول: قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، ومن الثاني: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، ويُعدَّى بنفسه كقولك: عدتُه: إذا أتيتَه وصِرتَ إليه، وبحرف الجر بـ: إلى وعلى وفي واللام، كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ومنه: (ثم يعودون لما قالوا) أي: يعودون لنقضِ ما قالوا، أو لتداركِه؛ على حذف المضاف، وعن ثعلب: يعودون لتحليلِ ما حرَّموا؛ على حذف المضاف أيضاً، غيرَ أنه أراد بـ(ما قالوا): ما حرَّموه على أنفسهم بلفظ الظهار؛ تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه، كقوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أرادَ: المقولَ فيه، وهو المال والولد، ثم اختلفوا أن النقضَ بماذا يحصل، فعندنا: بالعزم على الوطء، وهو قولُ ابن عباس والحسن وقتادة، وعند الشافعي: بمجرد الإمساك، وهو ألا يُطلقَها عقيبَ الظهار[2]، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: فعليه إعتاقُ رقبة مؤمنة، أو كافرةٍ، ولم يَجُزِ المدبرُ وأمُّ الولد والمكاتب الذي أَدَّى شيئاً، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ الضميرُ يرجعُ إلى ما دلَّ عليه الكلام من المظاهِرِ والمظاهَرِ منها، والمماسَّةُ: الاستمتاع بها؛ مِن جماعٍ أو لمسٍ بشهوة أو نظرٍ إلى فرجها بشهوة، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحكمُ ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ لأن الحكم بالكفارة دليلٌ على ارتكاب الجناية، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار، وتخافوا عقاب الله عليه، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾ والظهارُ: أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، وإذا وَضعَ موضعَ (أنتِ) عضواً منها يُعبَّرُ به عن الجملة،

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٤٦).
(٢) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٤٦٩)، و«نهاية المحتاج» (٧/ ٨٦).

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ....

أو مكانَ الظهر عضواً آخرَ يحرمُ النظرُ إليه من الأم، كالبطن والفَخِذِ، أو مكان الأمِّ ذاتَ رحم محرم منه بنسبٍ أو رضاعٍ أو صهرٍ أو جماعٍ، نحوُ أن يقول: أنت عليَّ كظهر أختي من الرضاع، أو عمتي من النسب، أو امرأة ابني أو أبي، أو أمِّ امرأتي أو ابنتِها.. فهو مظاهر، وإذا امتنع المظاهِرُ من الكفارة.. للمرأة أن تُرافعَه، وعلى القاضي أن يُجبره على أن يكفر، وأن يحبسَه، ولا شيءَ من الكفارات يجبر عليه ويحبسُ إلا كفارةُ الظهار؛ لأنه يَضُرُّ بِها في ترك التكفير، والامتناعِ من الاستمتاع، فإن مسَّ قبل أن يُكفر.. استغفر الله، ولا يعودُ حتى يكفر، وإن أعتق بعض الرقبة ثم مسَّ.. عليه أن يستأنف عند أبي حنيفة رضي الله عنه[1].

《٤》 ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبةَ ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾: فعليه صيامُ شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيامَ ﴿فَإِطْعَامُ﴾: فعليه إطعامُ ﴿سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ لكلِّ مسكينٍ نصفُ صاعٍ من بُرٍّ، أو صاعٌ من غيره، ويجبُ أن يقدمَه على المسيس، ولكن لا يستأنف إن جامعَ في خلال الإطعام[2]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ البيانُ والتعليمُ للأحكام ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾: لتصدقوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها؛ من الظهار وغيره، ورفضِ ما كنتم عليه في جاهليتكم، ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: الأحكامُ التي وصفنا في الظهار والكفارة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي لا يجوزُ تعدِّيها، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يتبعونَها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾: مُؤلم.

《٥》 ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: يُعادُون ويُشاقُّون ﴿كُبِتُوا﴾: أُخزُوا وأُهلكوا ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن أعداء الرسل، ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تدلُّ على صدق الرسول وصحةِ ما جاء به، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بهذه الآياتِ ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾ يَذهب بعزِّهم وكِبرهم.

《٦》 ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾: منصوبٌ بـ(مهين)، أو بإضمار: اذكر، تعظيماً لليوم، ﴿اللَّهُ جَمِيعًا﴾

(١) انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٣/ ١٦٤).

(٢) عَلَّلَ ذلك في «الاختيار لتعليل المختار» (٣/ ١٦٦) بأن النص لم يشرط في الإطعام أن يكون قبل المسيس، إلا أنا أوجبناه قبل المسيس لاحتمال القدرة على الإعتاق أو الصوم فيقعان بعد المسيس، والمنع لمعنى في غيره لا ينافي المشروعية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)﴾ ....

كلَّهم، لا يتركُ منهم أحداً غيرَ مبعوث، أو: مجتمعين في حال واحدة، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بحالهم، يتمنون عنده المسارعةَ بهم إلى النار؛ لما يلحقُهم من الخِزْيِ على رؤوس الأشهاد، ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾: أحاط به عدداً، لم يَفُتْهُ منه شيءٌ، ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه، وإنما تُحفظ معظماتُ الأمور، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)﴾: لا يغيبُ عنه شيءٌ.

«٧» ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ﴾: مِن: كانَ التامةِ؛ أي: ما يقعُ ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ النجوى: التناجي، وقد أُضيفت إلى ثلاثة؛ أي: من نجوى ثلاثة نفرٍ، ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله ﴿رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ﴾: ولا أقلَّ ﴿مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلمُ ما يتناجون به، ولا يخفى عليه ما هم فيه، وقد تعالى عن المكان عُلوّاً كبيراً، وتخصيصُ الثلاثة والخمسة؛ لأنها نزلت في المنافقين، وكانوا يتحلَّقون للتناجي مغايظةً للمؤمنين على هذين العددين، وقيل: ما يتناجى منهم ثلاثةٌ ولا خمسةٌ ولا أدنى من عدَدَيْهم، ولا أكثرُ إلا والله معهم، يسمع ما يقولون، ولأن أهل التناجي في العادة طائفةٌ من أهل الرأي والتجارب، وأولُ عددهم الاثنان فصاعداً، إلى خمسةٍ، إلى ستةٍ، إلى ما اقتضته الحالُ، فذكر عزَّ وعلا الثلاثةَ والخمسةَ، وقال: (ولا أدنى من ذلك)، فدلَّ على الاثنين والأربعة، وقال: (ولا أكثرَ) فدلَّ على ما يقارب هذا العدد. ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيجازيهم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾.

«٨» ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ كانت اليهودُ والمنافقون يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأَوْا المؤمنين، ويريدون أن يَغيظوهم ويُوهموهم في نجواهم وتغامُزهم أن غُزاتَهم غُلبوا، وأن أقاربَهم قُتلوا، فنهاهم رسولُ الله ﷺ، فعادُوا لمثل فعلِهم، وكان تناجيهم بما هو إثمٌ وعُدوانٌ للمؤمنين،

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ ....

وتَواصٍ بمعصية الرسول ومخالفتِه، ﴿وَيَنْتَجُون﴾: حمزةُ[1]، وهو بمعنى الأول، ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يعني: أنهم يقولون في تحيتك: السامُ عليك يا محمد، والسامُ: الموتُ، والله تعالى يقول: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يقولون فيما بينهم: لو كان نبيّاً.. لعاقبَنا الله بما نقوله، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: حالٌ؛ أي: يدخلونها، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾: المرجعُ جهنمُ.

《٩》 ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بألسنتهم، وهو خطابٌ للمنافقين، والظاهرُ أنه خطاب للمؤمنين، ﴿إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: إذا تناجيتم.. فلا تَشبَّهوا باليهود والمنافقين في تناجيهم بالشرِّ، ﴿وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ﴾: بأداء الفرائض والطاعات. ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾: وتركِ المعاصي، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ للحساب فيجازيكم بما تتناجون به من خير أو شرٍّ.

《١٠》 ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بالإثم والعدوانِ ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾: من تزيينه، ﴿لِيَحْزُنَ﴾ أي: الشيطانُ، وبضم الياء: نافعٌ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ﴾ الشيطانُ أو الحُزنُ ﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بعلمه وقضائه وقدره، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: يُوكلون أمرهم إلى الله، ويستعيذون به من الشيطان.

《١١》 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ﴾: توسعُوا فيه، ﴿فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾: عاصمٌ، والمرادُ: مجلسُ رسول الله ﷺ، وكانوا يتضامُّون فيه تنافساً على القرب منه، وحرصاً على استماع كلامه، وقيل: هو المجلسُ من مجالس القتال، وهي مراكزُ الغزاة، كقوله: ﴿مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، مُقاتل: في صلاة الجمعة، ﴿فَٱفْسَحُواْ﴾: فوسِّعُوا

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٦) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾ ....

﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾: مطلقٌ في كلِّ ما يبتغي الناسُ الفُسحةَ فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغيرِ ذلك، ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾: انهضُوا للتوسعةِ على المقبلين، أو: انهضوا عن مجلس رسول الله ﷺ إذا أُمرتم بالنهوض عنه، أو: انهُضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير، ﴿فَٱنشُزُواْ﴾: بالضمِّ فيهما: مدنيٌّ وشاميٌّ وعاصمٌ غيرَ حمادٍ، ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ بامتثالِ أوامرِه وأوامرِ رسولِه، ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾: والعالِمِين منهم خاصةً ﴿دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ وفي الدرجات قولان: أحدُهما: في الدنيا في المرتبة والشرف، والآخَرُ: في الآخرة، وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا قرأها.. قال: يا أيها الناسُ افهموا هذه الآيةَ، ولْترغبكم في العلم[(١)]، وعن النبي ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[(٢)]، وعنه ﷺ: «عبادةُ العالم يوماً واحداً تعدلُ عبادةَ العابد أربعين سنةً»[(٣)]، وعنه ﷺ: «يشفعُ يوم القيامة ثلاثةٌ: الأنبياءُ ثم العلماءُ ثم الشهداءُ»[(٤)]، فأَعْظِمْ بمرتبة هي واسطةٌ بين النبوة والشهادة، بشهادة رسول الله ﷺ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خُيِّرَ سليمانُ عليه السلام بين العلم والمال والملك، فاختار العلمَ، فأُعطيَ المالَ والملكَ معه[(٥)]، وقال ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيمُ إني عليمٌ أحبُّ كلَّ عليم»[(٦)]، وعن بعض الحكماء: ليت شعري أيَّ شيءٍ أدرك مَن فاته العلم؟ وأيُّ شيءٍ فات من أدرك العلم؟ وعن الزبيري: العلمُ ذَكَرٌ فلا يحبه إلا ذكورةُ الرجال[(٧)]، والعلومُ أنواعٌ، فأشرفُها أشرفُها معلوماً.

《١٢》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: إذا أردتم مناجاته ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: قبلَ نجواكم، وهي استعارةٌ ممن له يدان، كقول عمر رضي الله عنه: من أفضلِ ما أُوتيت العربُ الشعرُ، يقدمُه الرجلُ أمام حاجته، فيستمطرُ به الكريم، ويَستنزل به اللئيم، يريد:

---

(١) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/ ٢٦٠).
(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١) وابن ماجه (٢٢٣) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه.
(٣) لم أجده.
(٤) رواه ابن ماجه (٤٣١٣) عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.
(٥) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٧٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.
(٦) لم أجده.
(٧) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٦٥) من قول الزهري.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ....

قبلَ حاجته، ﴿ذَٰلِكَ﴾ التقديمُ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم، ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأن الصدقة طُهرةٌ، ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ في ترخيص المناجاة من غير صدقة، قيل: كان ذلك عشرَ ليال، ثم نُسخ، وقيل: ما كان إلا ساعةً من نهار ثم نسخ، وقال علي رضي الله عنه: هذه آيةٌ من كتاب الله ما عمل بها أحدٌ قبلي، ولا يعمل بها أحدٌ بعدي، كان لي دينارٌ فصرفتُه، فكنتُ إذا ناجيتُه.. تصدقتُ بدرهم[1]، وسألت رسول الله ﷺ عشَر مسائلَ فأجابني عنها، قلتُ: يا رسول الله ما الوفاء؟ قال: «التوحيدُ وشهادةُ أن لا إله إلا الله»، قلتُ: وما الفساد؟ قال: «الكفر والشرك بالله»، قلت: وما الحقُّ؟ قال: «الإسلام والقرآن والولاية إذا انتهت إليك»، قلت: وما الحيلة؟ قال: «ترك الحيلة»، قلت: وما عَلَيَّ؟ قال: «طاعة الله وطاعة رسوله»، قلت: وكيف أدعو الله تعالى؟ قال: «بالصدق واليقين»، قلت: وماذا أسأل الله؟ قال: «العافية»، قلت: وما أصنع لنجاة نفسي؟ قال: «كُلْ حلالاً، وقل صدقاً»، قلت: وما السرور؟ قال: «الجنة»، قلت: وما الراحة؟ قال: «لقاء الله»، فلما فرغتُ منها.. نزل نسخُها[2].

«١٣» ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾: أَخِفْتُم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه؟ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أُمرتُم به وشَقَّ عليكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفف عنكم، وأزال عنكم المؤاخذةَ بترك تقديم الصدقة على المناجاة، كما أزال المؤاخذة بالذنب عن التائب عنه ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: فلا تُفرِّطُوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾: وهذا وعدٌ ووعيد.

«١٤» ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ كان المنافقون يتولون اليهود، وهم الذين غضب الله عليهم في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وينقُلون إليهم أسرار المؤمنين، ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ يا مسلمون، ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾: ولا من اليهود، كقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٣).

(٢) لم أجد روايةً فيها ذكرُ هذه المسائل، والحقُّ عدمُ صحتِها؛ ففيها طعن بخلافة سيدنا أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم؛ حيث قال: «والولايةُ إذا انتهت إليك»، وهذا يعني أن الولاية؛ أي: الخلافة لم تكن قبله حقّاً!

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ....

﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي: يقولون: والله إنا لمسلمون لا منافقون، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ أنهم كاذبون منافقون.

《١٥》 ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: نوعاً من العذاب متفاقماً، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: أنهم كانوا في الزمان الماضي مُصرين على سوء العمل، أو: هي حكايةُ ما يقال لهم في الآخرة.

《١٦》 ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾: وِقايةً دون أموالهم ودمائهم، ﴿فَصَدُّوا۟﴾ الناسَ في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن طاعته والإيمان به، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ وعدهم العذاب المخزيَ لكفرهم وصدِّهم، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨].

《١٧》 ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: من عذاب الله ﴿شَيْـًٔا﴾: قليلاً من الإغناء، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

《١٨》 ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: لله في الآخرة أنهم كانوا مخلصين في الدنيا غيرُ منافقين، ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا على ذلك، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ في الدنيا ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من النفع، أو: يحسبون أنهم على شيء من النفع ثَمَّ بأيمانهم الكاذبةِ، كما انتفعوا ههنا، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ حيث استوت حالُهم فيه في الدنيا والآخرة.

《١٩》 ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: استولى عليهم، ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ قال شاه الكِرمانيُّ: علامةُ استحواذ الشيطان على العبد أن يشغلَه بعمارة ظاهره من المآكل والمشارب والملابس، ويَشغلَ قلبَه عن التفكر في آلاء الله ونعمائِه، والقيام بشكرِها، ويَشغلَ لسانَه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويَشغلَ قلبَه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: جُندُه، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

《٢٠》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾: في جملة مَن هو أذلُّ خلقِ الله تعالى، لا ترى أحداً أذلَّ منهم.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾

《٢١》 ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ بالحجة والسيف، أو بأحدهما، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾: لا يمتنعُ عليه ما يريد، ﴿عَزِيزٞ ٢١﴾: غالبٌ غيرُ مغلوب.

《٢٢》 ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ هو مفعولٌ ثانٍ لـ(تجد)، أو حالٌ، أو صفةٌ لـ(قوماً)، (تجدُ) بمعنى: تصادفُ على هذا، ﴿مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾: خالفه وعاداه، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: مِن الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين؛ والمراد: أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقُّه أن يمتنعَ ولا يوجدَ بحال، مبالغةً في الزجر عن ملابسته والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتِهم، والاحتراس عن مخالطتهم ومعاشرتهم، وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾، وبقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي: أثْبَتَهُ فيها، وبمقابلة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ بقوله: (أولئك حزب الله)، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي: بكتاب أنزله، فيه حياةٌ لهم، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان؛ أي: بروح من الإيمان، على أنه في نفسه روحٌ؛ لحياة القلوب به، وعن الثوري: أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان، وعن عبد العزيز بنِ أبي رَوّادٍ: أنه لقيه في الطواف المنصورُ، فلمّا عرفه.. هرب منه وتلاها، وقال سهلٌ: مَن صحح إيمانه وأخلص توحيده.. فإنه لا يأنس بمبتدع ولا يجالسُه، ويُظهرُ له من نفسه العداوة، ومن داهن مبتدعاً.. سلبه الله حلاوة السنن، ومن أجاب مبتدعاً لطلب عزِّ الدنيا أو عَرَضِها.. أَذَلَّه الله بذلك العزِّ، وأفقره بذلك الغنى، ومن ضحك إلى مبتدع.. نزع الله نور الإيمان من قلبه، ومن لم يصدِّق.. فليجرِّبْ، ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بتوحيدهم الخالص وطاعتهم، ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بثوابه الجسيم في الآخرة، أو بما قضى عليهم في الدنيا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾: أنصارُ حقِّه ودعاةُ خلقِه، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾: الباقون في النعيم المقيم، الفائزون بكلِّ محبوبٍ، الآمنون من كل مرهوب.



﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ ....

سورة الحشر

مدنيةٌ، وهي أربع وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ روي: أن هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير، وذلك أن النبي ﷺ حين قدم المدينة صالَحَ بنو النضير رسولَ الله ﷺ على ألا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يومَ بدرٍ.. قالوا: هو النبي الذي نعتُه في التوراة، فلما هُزم المسلمون يومَ أحد.. ارتابُوا ونكثُوا، فخرج كعبُ بنُ الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة، فحالفَ أبا سفيانَ عند الكعبة، فأمر ﷺ محمدَ بنَ مَسلَمةَ الأنصاريَّ فقتل كعباً غِيلةً[1]، ثم خرج ﷺ مع الجيش إليهم، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلةً، وأمر بقطع نخيلِهم، فلما قذف اللهُ الرعبَ في قلوبهم.. طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاءَ على أن يحملَ كلٌّ ثلاثةِ أبياتٍ على بعير ما شاؤوا من متاعهم، فَجُلُوا إلى الشام إلى أَرِيحْاءَ وأَذْرِعاتٍ.

《٢》 ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: يهودَ بني النضير، ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ بالمدينة، واللامُ في ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾: تتعلقُ بـ(أَخْرَجَ)، وهي اللامُ في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤]، وقولِه: جئتُه لوقتِ كذا؛ أي: أَخرجَ الذين كفروا عند أول الحشر، ومعنى (أول الحشر): أن هذا أولُ حشرِهم إلى الشام، وكانوا من سِبْطٍ لم يُصبْهم جلاءٌ قطُّ، وهم أولُ مَن أُخرجَ مِن أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، أو: هذا أول حشرِهم، وآخرُ حشرِهم إجلاءُ عمرَ إياهم من خيبرَ إلى الشام[2]، أو: آخرُ حشرِهم: حشرُ يوم القيامةِ، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: مَن شكَّ أن المحشر بالشام.. فليقرأْ هذه الآية، فَهُمُ الحشرُ الأول، وسائرُ الناس الحشرُ الثاني، وقال لهم رسول الله ﷺ لما خرجوا: «امضوا، فإنكم أولُ الحشر، ونحن

---

(١) قصة قتله رواها البخاري (٤٠٣٧) ومسلم (١٨٠١) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) قصة إجلائهم من خيبر رواها البخاري (٢٧٣٠) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾ ....

على الأثر»[(١)]، قتادة: إذا كان آخرُ الزمان.. جاءت نارٌ مِن قِبَلِ المشرقِ فحشرت الناسَ إلى أرض الشام، وبها تقومُ عليهم القيامة، وقيل: معناه: أَخْرَجَهم من ديارهم لأول ما حَشَرَ لقتالهم؛ لأنه أولُ قتالٍ قاتلهم رسولُ الله ﷺ، ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشدة بأسِهم ومَنَعَتِهم وَوَثَاقَةِ حصونِهم وكثرةِ عددِهم وعدتِهم، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ظنوا أن حصونهم تمنعُهم من بأس الله، والفرقُ بين هذا التركيب، وبين النظم الذي جاء عليه: أن في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فَرْطِ وُثُوقِهم بِحصانتها ومنعِها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسماً لـ(أنَّ) وإسنادِ الجملةِ إليه دليلٌ على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ لا يُبالَى معها بأحد يتعرضُ لهم، أو يطمعُ في مُعازَّتِهم[(٢)]، وليس ذلك في قولك: وظنُّوا أن حصونَهم تمنعُهم، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُ اللهِ وعقابُه، وفي الشواذِّ: ﴿فآتاهم الله﴾ أي: فآتاهم الهلاكَ ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾: مِن حيث لم يظنُّوا ولم يخطرْ ببالهم، وهو قتلُ رئيسهم كعبِ بنِ الأشرفِ غِرَّةً على يدِ أخيه رضاعاً، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾: الخوف، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يُخَرِّبُوْنَ﴾: أبو عمرٍو[(٣)]، والتخريبُ والإخرابُ: الإفسادُ بالنقض والهدم، والخَرَبَةُ: الفسادُ، وكانوا يُخربون بواطَنها، والمسلمون ظواهرَها لِما أراد اللهُ مِن استئصالِ شأفتِهم، وألا تبقَى لهم بالمدينة دارٌ، ولا منهم دَيّارٌ، والذي دعاهم إلى التخريب حاجتُهم إلى الخشب والحجارة؛ لِيسدُّوا بها أفواهَ الأزقةِ، وألا يتحسرُوا بعدَ جلائِهم على بقائِها مساكنَ للمسلمين، وأن ينقُلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جَيِّدِ الخشب والساج، وأما المؤمنون.. فداعِيْهم إلى التخريب إزالةُ مُتحصَّنِهم، وأن يتسع لهم مجالُ الحربِ؛ ومعنى تخريبِهم لها بأيدي المؤمنين: أنهم لما عَرَّضُوهم بنكثِ العهدِ لذلك، وكانُوا السبب فيه.. فكأنهم أَمَرُوهم به، وكلَّفوهم إياه، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ أي: فتأملُوا فيما نزل بهؤلاء، والسببَ الذي استحقُّوا به ذلك، فاحذرُوا أن تفعلوا مثلَ فعلِهم، فتعاقبُوا بمثلِ عقوبتِهم، وهذا دليلٌ على جواز القياس.

﴿٣﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾: الخروجَ من الوطن مع الأهلِ والولدِ ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتلِ والسبْيِ، كما فعل ببني قريظةَ، ﴿وَلَهُمْ﴾ سواءٌ أَجلُوا أو قُتلوا، ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾ الذي لا أشدَّ منه.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٥٩) عن الحسن مرسلاً.

(٢) الْمُعازَّةُ: الْمُغَالَبَةُ.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٧).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

«٤» ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: إنما أصابهم ذلك بسبب أنهم ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾: خالفُوه، ﴿وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ ورسوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

«٥» ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾: هو بيانٌ لـ(ما قطعتم)، ومحلُّ (ما): نصبٌ بـ(قطعتم) كأنه قيل: أيَّ شيءٍ قطعتُم، وأُنِّثَ الضميرُ الراجعُ إلى (ما) في قوله: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ لأنه في معنى اللِّينة، واللينةُ: النخلةُ؛ من الألوان، وياؤُها عن واوٍ قُلبت لكسرِ ما قبلَها، وقيل: اللينةُ: النخلةُ الكريمةُ، كأنهم اشتقُّوها من اللين[1]، ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: فقطعُها وتركُها بإذن الله، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾: وليذلَّ اليهودَ ويُغيظَهم أَذِنَ في قَطعِها.

«٦» ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: جعلَه فيئاً له خاصةً ﴿مِنْهُمْ﴾: من بني النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾: فلم يكن ذلك بإيجافِ خيلٍ أو ركابٍ منكم على ذلك، والركابُ: الإبل؛ والمعنى: فما أوجفتم على تحصيلِه وتغنيمِه خيلاً ولا ركاباً، ولا تعبتم في القتال عليه، وإنما مَشيتم إليه على أرجلكم؛ لأنه على مِيلين من المدينة، وكان ﷺ على حمار فحَسْبُ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: أن ما خوَّلَ اللهُ رسولَه من أموال بني النضير شيءٌ لم تُحصِّلوه بالقتال والغلبة، ولكن سلطه اللهُ عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يُسلطُ رسله على أعدائهم، فالأمر فيه مفوَّض إليه، يضعُه حيث يشاء، ولا يقسمُه قسمة الغنائم التي قُوتل عليها وأُخذت عَنوةً وقهراً، فقسمها بين المهاجرين، ولم يُعطِ الأنصارَ إلا ثلاثةً منهم لفقرهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

«٧» ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وإنما لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيانٌ للأولى، فهي منها، غيرُ أجنبية عنها، بَيَّنَ لرسول الله ﷺ ما يصنعُ بما أفاء الله عليه، وأمرَه أن يضعه حيث يضع الخُمُسَ من

---

(١) في «لسان العرب» (١٣/ ٣٩٣): قال الفراء: كلُّ شيء من النخل سوى العجوة فهو من اللِّين، واحدتُه: لينة.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ ....

الغنائم، مقسومةً على الأقسام الخمسة، وزيَّفَ هذا القولَ بعضُ المفسرين وقال: الآيةُ الأولى نزلت في أموال بني النضير، وقد جعلها الله لرسوله خاصةً، وهذه الآيةُ في غنائمِ كلِّ قريةٍ تؤخذ بقوة الغُزاة، وفي الآية بيانُ مَصرِفِ خُمُسِها، فهي مبتدأةٌ، ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ «تكونَ دولةٌ»: يزيدُ[1]؛ على: كان التامةِ، والدَّولةُ والدُّولةُ: ما يدول للإنسان؛ أي: يدورُ من الجَدِّ[2]، ومعنى قوله: (كيلا يكون دولة) ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾: كيلا يكون الفيءُ الذي حقُّه أن يعطي الفقراءَ ليكون لهم بُلغةً يعيشون بها جَدّاً بين الأغنياء يتكاثرون به، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكم من قسمة غنيمة أو فَيءٍ ﴿فَخُذُوهُ﴾: فاقبلُوه، ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾: عن أخذه منها ﴿فَانتَهُوا﴾: عنه ولا تطلُبوه، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تخالفُوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه، ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ لمن خالفَ رسولَه ﷺ، والأجودُ أنه يكون عامّاً في كلِّ ما آتى رسولُه ﷺ ونَهى عنه، وأَمْرُ الفيءِ داخلٌ في عُمومه.

《٨》 ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾: بدلٌ مِن قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ والمعطوفِ عليه، والذي منعَ الإبدالَ مِن ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وإن كان المعنى: لرسول الله: أن الله عزَّ وجلَّ أخرج رسولَه من الفقراء في قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وأنه يُترَفَّعُ برسول الله عن التسمية بالفقير، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عزَّ وجلَّ، ﴿الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ بمكة، وفيه دليلٌ على أن الكفار يَملكون بالاستيلاء أموال المسلمين؛ لأن الله تعالى سمّى المهاجرين فقراءَ، مع أنه كانت لهم ديارٌ وأموالٌ، ﴿يَبْتَغُونَ﴾: حالٌ ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: يَطلُبون الجنة ورضوانَ الله، ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ينصرون دين الله، ويُعينون رسوله، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ في إيمانهم وجهادِهم.

《٩》 ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوفٌ على المهاجرين، وهم الأنصارُ، ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾: توطَّنوا

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٧).
(٢) الجَدُّ: الغِنى.

....

المدينةَ، ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾: وأخلصُوا الإيمان، كقوله[1]: [من: الرجز]

.... علفتُها تبناً وماءً باردًا

أو: وجعلوا الإيمان مستقَرّاً ومُتوطَّناً لهم؛ لتمكنهم واستقامتهم عليه، كما جعلوا المدينة كذلك، أو: أرادَ: دارَ الهجرة، ودارَ الإيمان، فأقام لامَ التعريف في (الدار) مُقامَ المضاف اليه، وحذف المضاف من دار الإيمان، ووضع المضافُ إليه مُقامه، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: من قبل المهاجرين؛ لأنهم سبقوهم في تَبُوُّءِ دارِ الهجرة والإيمان، وقيل: مِن قبلِ هجرتِهم، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتى شاطرُوهم أموالَهم، وأنزلوهم منازلَهم، ونزل مَن كانت له امرأتان عن إحداهما، حتى يتزوج بها رجلٌ من المهاجرين، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾: ولا يَعلمون في أنفسهم طلبَ محتاجٍ إليه مما أُوتي المهاجرون من الفيء وغيرِه، والمحتاجُ إليه: يُسمَّى حاجةً؛ يعني: أن نفوسهم لم تَتَبعْ ما أُعْطُوا، ولم تَطمحْ إلى شيء منه تَحتاجُ إليه، وقيل: (حاجةً): حسداً مما أُعطي المهاجرون من الفيء؛ حيث خصَّهم النبي ﷺ به، وقيل: لا يجدون في صدورهم مسَّ حاجةٍ مِن فَقْدِ ما أُوتُوا، فحُذِفَ المضافان، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: فقرٌ، وأصلُها: خَصاصُ البيت، وهي فُروجُه، والجملةُ: في موضع الحال؛ أي: مفروضةً خصاصتُهم، روي: أنه نزل برجل منهم ضيفٌ، فنوَّمَ الصِّبية، وقرَّبَ الطعام، وأطفأ السراجَ؛ لِيشبعَ ضيفُه، ولا يأكلُ هو[2]، وعن أنس: أُهدي لبعضهم رأسٌ مشويٌّ وهو مجهود فوجَّهَه إلى جاره، فتداولته تسعةُ أَنْفُسٍ حتى عاد إلى الأول. أبو يزيد: قال لي شابٌّ من أهل بَلْخَ: ما الزهدُ عندكم؟ قلت: إذا وجدنا.. أكلْنا، وإذا فقدْنا.. صبرْنا، فقال: هكذا عندنا كلابُ بَلْخَ، بل إذا فقدنا.. صبرنا، وإذا وجدنا.. آثرْنا، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾: الظافرون بما أرادوا، الشحُّ: اللؤمُ، وأن تكون نفس الرجل كَزَّةً حريصةً على المنع، وأما البخل.. فهو المنع نفسُه، وقيل: الشحُّ: أكلُ مال أخيك ظلماً، والبخل: منعُ مالِكَ، وعن كسرى: الشحُّ أضرُّ من الفقر؛ لأن الفقير يتسعُ إذا وجد، بخلاف الشحيح.

---

(١) هذا شطر بيت، وله روايتان: الأولى:

لما حططت الرحل عنها واردًا ... علفتها تبنا وماء باردًا

والثانية:

علفتها تبناً وماءً بارداً ... حتى شتتْ همّالةً عيناها.

انظر «خزانة الأدب» (٣/ ١٤٠).

(٢) رواه بنحوه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ ....

«١٠» ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: عطفٌ أيضاً على المهاجرين، وهم الذين هاجروا من بعد، وقيل: التابعون بإحسان، وقيل: مَن بعدَهم إلى يوم القيامة، قال عمر رضي الله عنه: دخل في هذا الفيءِ كلُّ مَن هو مولود إلى يوم القيامة في الإسلام[1]، فجعل الواو للعطف فيهما، وقرئ ﴿للذين﴾ فيهما، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ قيل: هم المهاجرون والأنصار، عائشةُ رضي الله عنها: أمروا بأن يستغفروا لهم فسبُّوهم[2]، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾: حِقداً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: الصحابة، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ وقيل لسعيد ابن المسيب: ما تقول في عثمانَ وطلحةَ والزبيرِ؟ قال: أقول ما قَوَّلَنِيهِ اللهُ، وتلى هذه الآية.

«١١» ثم عجَّبَ نبيَّه بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ أي: ألم ترَ يا محمد إلى عبد الله ابنِ أُبَيٍّ وأشياعِه ﴿يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: بني النضير، والمرادُ: أُخُوَّةُ الكفر: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ﴾ من دياركم ﴿لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ روي: أن ابنَ أُبَيٍّ وأصحابَه دسُّوا إلى بني النضير حين حاصرهم النبي ﷺ: لا تَخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم.. فنحن معكم لا نخذلُكم، و(لئن أُخرجتم لنخرجن معكم)، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ﴾: في قتالكم ﴿أَحَدًا أَبَدٗا﴾ يعني: رسول الله ﷺ والمسلمين إن حُمِلْنا عليه، أو: في خِذْلانِكم وإخلافِ ما وعدناكم من النصرة، ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ في مواعيدهم لليهود، وفيه دليلٌ على صحة النبوة؛ لأنه إخبارٌ بالغيب.

«١٢» ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ وإنما قال: (ولئن نصروهم) بعدَ الإخبارِ بأنهم لا ينصرونهم.. على الفَرْضِ والتقديرِ، كقوله: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكما يَعلم ما يكون فهو يَعلم ما لا يكون

---

(١) روى أبو داود (٣/ ١٤١) أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال: فاستوعبت هذه الآية الناس، فلم يبقَ أحد من المسلمين إلا له فيها حق - قال أيوب: أو قال: حظٌّ - إلا بعضَ مَن تملكون من أرقائكم.

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٢).

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ....

لو كان كيف يكون؛ والمعنى: ولئن نَصَرَ المنافقون اليهودَ.. لَيُهزَمَنَّ المنافقون، ثم لا ينصرون بعد ذلك؛ أي: يُهلكهم الله، ولا ينفعُهم نفاقُهم؛ لظهور كفرِهم، أو لَيُهزَمَنَّ اليهودُ، ثم لا ينفعُهم نصرةُ المنافقين.

《١٣》 ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدُّ مَرهوبيةً، مصدرُ: رُهِبَ المبنيِّ للمفعول، وقولُه: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾: دلالةٌ على نفاقهم؛ يعني: أنهم يُظهرون لكم في العلانية خوفَ الله، وأنتم أَهْيَبُ في صدورهم ﴿مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾: لا يعلمون الله وعظمتَه حتى يخشَوه حقَّ خشيته.

《١٤》 ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: لا يقدِرون على مقاتلتكم ﴿جَمِيعًا﴾: مجتمعين؛ يعني: اليهودَ والمنافقين ﴿إِلَّا﴾ كائنين ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادقِ والدروبِ، ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ ﴿جدار﴾: مكيٌّ وأبو عمرو[1]، ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني: أن البأسَ الشديدَ الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم.. لم يبقَ لهم ذلك البأسُ والشدةُ؛ لأن الشجاع يَجبُنُ عند محاربة الله ورسوله، ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ أي: اليهودَ والمنافقين ﴿جَمِيعًا﴾: مجتمعين ذوي أُلفةٍ واتحادٍ، ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾: متفرقةٌ لا أُلفةَ بينها؛ يعني: أن بينهم إحَناً وعداواتٍ، فلا يتعاضدون حقَّ التعاضُدِ، وهذا تجسير للمؤمنين، وتشجيعٌ لقلوبهم على قتالهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفرقُ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أنَّ تَشتُّتَ القلوبِ مما يُوهِنُ قُواهم، ويعينُ على أرواحهم.

《١٥》 ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثلُهم كمثل أهل بدر، فحذفَ المبتدأُ، ﴿قَرِيبًا﴾ أي: استقرُّوا مِن قبلهم زمناً قريباً، ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: سوءَ عاقبةِ كفرهم وعداوتِهم لرسول الله ﷺ؛ مِن قولهم: كَلأٌ وَبِيْلٌ: وَخِيْمٌ سَيِّئُ العاقبةِ؛ يعني: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: ولهم مع ذلك في الآخرة عذابُ النار.

《١٦》 ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: مثلُ المنافقين في إغرائهم اليهودَ على القتال ووعدِهم إياهم النصرَ ثم

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٧).

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ....

مُتاركتِهم لهم وإخلافِهم كمثل الشيطان إذ استغوى الإنسانَ بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة، وقيل: المرادُ: استغواؤُه قريشاً يوم بدر، وقولُه لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ﴾ [الأنفال: ٤٨] إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

《١٧》 ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾: عاقبةَ الإنسان الكافر والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ﴾ (عاقبتَهما): خبرُ (كان) مقدمٌ، و(أنَّ) مع اسمِها وخبرِها؛ أي: (في النار): في موضع الرفع على الاسم، و(خالدين): حال، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

《١٨》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أوامره فلا تخالفُوها، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ نكَّرَ النفسَ تقليلاً للأنفس النواظر فيما قَدَّمْنَ للآخرة، ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾ يعني: يومَ القيامةِ؛ سمّاه باليوم الذي يلي يومَكَ تقريباً له، أو: عبَّرَ عن الآخرة بالغدِ، كأن الدنيا والآخرة نهارانِ: يومٌ وغدٌ، وتنكيرُه لتعظيم أمره؛ أي: لِغَدٍ لا يُعرفُ كُنهُه لِعظمه، وعن مالكِ بنِ دينار: مكتوبٌ على باب الجنة: وَجَدْنا ما عملنا، رَبِحنا ما قدمنا، خَسِرنا ما خَلَّفنا، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كَرَّرَ الأمر بالتقوى تأكيداً، أو: (واتقوا الله) في أداءِ الواجبات؛ لأنه قُرِنَ بما هو عملٌ، (واتقوا الله) في ترك المعاصي؛ لأنه قُرِنَ بما يجري مَجرى الوعيد، وهو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ وفيه تحريضٌ على المراقبة؛ لأن مَن علم أن الله مطلعٌ على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه.

《١٩》 ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾: تركوا ذكر الله عزَّ وجلَّ وما أمرهم به، ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ﴾: فتركهم من ذكره بالرحمة والتوفيق، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾: الخارجون عن طاعة الله.

《٢٠》 ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾: هذا تنبيهٌ للناس، وإيذانٌ بأنهم لِفَرْطِ غفلتِهم، وقلةِ فكرِهم في العاقبة، وتَهالُكِهم على إيثار العاجلة واتباعِ الشهواتِ كأنهم لا يعرفون الفرقَ بين الجنة والنار، والبونَ العظيمَ بين أصحابهما، وأن الفوز العظيم مع أصحاب الجنة، والعذابَ الأليمَ مع أصحاب النار، فمِن حقِّهم أن يعلموا ذلك ويُنبَّهوا عليه، كما تقول لمن يَعُقُّ أباه: هو أبوك، تجعلُه بمنزلةِ مَن لا يعرفه، فتنبهه بذلك على حقِّ الأبوةِ الذي يقتضي البرَّ والتعطف، وقد استدلت الشافعية بهذه الآية على أن المسلم لا يُقتل

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ....

بالكافر[1]، وأن الكافر لا يَملك مال المسلم بالاستيلاء[2]، وقد أجبنا عن مثل هذا في أصول الفقه و«الكافي».

《٢١》 ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من شأنِ القرآنِ وعظمتِه أنه لو جُعِلَ في الجبل تمييزٌ وأُنزل عليه القرآن.. لخشع؛ أي: لَخضع وتَطأْطأَ وتصدَّعَ؛ أي: تشققَ من خشية الله، وجائزٌ أن يكون هذا تمثيلاً، كما في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ويدلُّ عليه قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾: وهي إشارةٌ إلى هذا المثل، وإلى أمثاله في مواضعَ من التنزيل، والمرادُ: توبيخُ الإنسان على قسوة قلبه، وقلةِ تخشُّعِه عند تلاوة القرآنِ، وتدبُّرِ قوارعِه وزواجرِه، ثم ردَّ على من أشرك وشبهه بخلقه فقال:

《٢٢》 ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السِّرِّ والعلانية، أو: الدنيا والآخرة، أو: المعدوم والموجود، ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

《٢٣》 ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ الذي لا يَزولُ ملكُه، ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: المنزهُ عن القبائح، وفي تسبيح الملائكة: سبوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكة والروح، ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: الذي سَلِمَ الخلقُ مِن ظُلمه، عن الزجاج[3]، ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: واهبُ الأمن، وعن الزجاج: الذي آمَنَ الخلقَ مِن ظلمه[4]، أو: المُؤْمِنُ مِن عذابه مَن أطاعه، ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الرقيبُ على كل شيء، الحافظُ له، (مُفيعِل) مِن الأَمْنِ، إلا أن همزته قُلبت هاء[5]، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ غيرُ المغلوب، ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: العالي العظيم، الذي يَذِلُّ له مَن دونه، أو: العظيمُ الشأن في القدرة والسلطان،

---

(١) انظر «الحاوي الكبير» للماوردي (١٢/ ١١).

(٢) انظر «روضة الطالبين» (١٠/ ٢٩٣) و«الأم» للإمام الشافعي (٧/ ٣٨٧) وقد استدل بغير هذه الآية.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ١٥٠).

(٤) انظر المرجع السابق.

(٥) نقل في «لسان العرب» (١٣/ ٢٣) عن ابن بري أنه اسم فاعل مِن: هَيْمَنَ، ولا قلب فيه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

أو: القهارُ ذو الجبروت، ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: البليغُ الكبرياء والعظمة، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾: نَزَّهَ ذاتَه عمّا يصفه به المشركون.

《٢٤》 ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾: المقدِّرُ لما يوجده، ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: المُوْجِدُ، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ في الأرحام، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الدالةُ على الصفات العُلا، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ حتم السورةَ بما بدأ به، عن أبي هريرة رضي الله عنه: سألت حبيبي رسول الله ﷺ عن الاسم الأعظم فقال: «عليك بآخر الحشر فأكثرْ قراءتَه»، فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ، فأعدتُ عليه فأعاد عليَّ[1].



(١) روى الواحدي في «التفسير الوسيط» (٤/ ٢٨٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «اسمُ الله الأعظم في ست آيات في آخر سورة الحشر».

سورة الممتحنة

مدنية، وهي ثلاثَ عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

روي: أن مولاةً لأبي عمرو بنِ صيفيٍّ بنِ هاشمٍ يقال لها: سارةُ، أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح، فقال لها: «أَمُسلِمةً جئتِ؟» قالت: لا، قال: «أَفَمُهاجرةً جئت؟» قالت: لا، قال: «فما جاء بك؟» قالت: احتجتُ حاجةً شديدةً، فحثَّ عليها بني عبد المطلب، فكَسَوها وحَمَلُوها وزوَّدُوها، فأتاها حاطبُ بنُ أبي بَلْتَعَةَ وأعطاها عشرةَ دنانيرَ، وكَساها بُرداً، واستحملَها كتاباً إلى أهل مكة، نُسختُه: مِن حاطبِ بنِ أبي بَلتعةَ إلى أهل مكة، اعلموا أن رسول الله يريدُكم فخذُوا حِذْرَكم، فخرجت سارةُ، ونزل جبريل بالخبر، فبعث رسولُ الله ﷺ عليّاً وعماراً وعمرَ وطلحةَ والزبيرَ والمِقدادَ وأبا مِرْثدٍ وكانوا فرساناً، وقال: انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خاخٍ؛ فإن بها ظعينةً معها كتابٌ من حاطب إلى أهل مكة، فخذُوه منها وخَلُّوها، فإن أبت.. فاضربُوا عنقَها، فأدركوها فجحدتْ وحلفتْ، فهمُّوا بالرجوع، فقال عليٌّ: والله ما كَذَبْنا ولا كذبَ رسولُ الله ﷺ، وسلَّ سيفَه وقال: أخرجي الكتاب أو تضعي رأسَكِ، فأخرجتْه من عِقاصِ شعرِها، وروي: أن رسول الله ﷺ أَمَّنَ جميعَ الناس يوم الفتح إلا أربعةً، هي أحدُهم، فاستحضر رسولُ الله ﷺ حاطباً وقال: «ما حَمَلَكَ عليه؟» فقال: يا رسول الله ما كفرتُ منذُ أسلمتُ، ولا غششتُك منذ نصحتُك، ولا أحببتُهم منذ فارقتُهم، ولكني كنتُ امرأً مُلصقاً في قريش، ولم أكن من أَنفُسِها، وكلُّ مَن معَك من المهاجرين لهم قراباتٌ بمكةَ يَحمُون أهاليَهم وأموالَهم غيري، فخشيتُ على أهلي، فأردتُ أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمتُ أن الله يُنزل عليهم بأسَه، وأن كتابي لا يُغني عنهم شيئاً، فصدَّقه وقَبِلَ عُذْرَه، فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضربْ عنقَ هذا المنافقِ، فقال ﷺ: «ما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟» ففاضت عينا عمر رضي الله عنه، فنزل[1]:

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٤٢٧٤) ومسلم (٢٤٩٤) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ....

《١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ عُدي: اتخذ إلى مفعوليه، وهما (عدوي) و(أولياء)، والعدوُّ (فعول) مِن: عدا، كعَفُوٌّ مِن: عفا، ولكنه على زنة المصدر، أُوْقِعَ على الجمع إيقاعَه على الواحد، وفيه دليل على أن الكبيرة لا تَسلُب اسمَ الإيمان، ﴿تُلْقُونَ﴾: حالٌ من الضمير في (لا تتخذوا) التقدير: لا تتخذوهم أولياءَ مُلقين ﴿إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، أو مستأنفٌ بعد وقفٍ على التوبيخ، والإلقاءُ: عبارةٌ عن إيصال المودة والإفضاءِ بها إليهم، والباءُ في (بالمودة): زائدةٌ مؤكدة للتعدي، كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أو: ثابتةٌ على أن مفعول (تلقون) محذوفٌ، معناه: تُلقون إليهم أخبار رسول الله ﷺ بسبب المودة التي بينكم وبينهم، ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ﴾: حالٌ مِن (لا تتخذوا)، أو مِن (تُلقون) أي: لا تَتولَّوْهم أو تُوادُّونهم وهذه حالُهم، ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾: دينِ الإسلام والقرآن، ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: استئنافٌ كالتفسير لكفرهم وعُتوِّهم، أو: حالٌ مِن (كفروا)، ﴿أَن تُؤْمِنُواْ﴾: تعليلٌ لـ(يخرجون) أي: يُخرجونكم من مكةَ لإيمانكم ﴿بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾: متعلقٌ بـ(لا تتخذوا) أي: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي، وقولُ النحويين في مثله: هو شرطٌ جوابُه محذوفٌ[1]؛ لدلالة ما قبلَه عليه، ﴿جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي﴾: مصدرٌ في موضع الحال؛ أي: إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾: ومبتغين مرضاتي، ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: تُفضون إليهم بمودتكم سرّاً، أو: تُسِرُّون إليهم أسرارَ رسولِ الله ﷺ بسبب المودة، وهو استئنافٌ، ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ والمعنى: أيُّ طائل لكم في إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي، وأني مُطْلِعٌ رسولي على ما تُسرُّون، ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾ أي: هذا الإسرارَ ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾: فقد أخطأ طريق الحقِّ والصواب.

《٢》 ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾: إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾: خالصِي العداوة، ولا يكونوا لكم أولياءَ كما أنتم، ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾: بالقتل والشتم، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾: وتمنَّوا لو تَرتدُّون عن دينكم، فإذاً مُوادَّةُ أمثالِهم خطأٌ عظيمٌ، والماضي وإن كان

(١) جملة (هو شرط): خبر المبتدأ (قول).

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ ....

يجري في باب الشرط مَجرى المضارع ففيه نُكتةٌ، كأنه قيل: ووَدُّوا قبلَ كلِّ شيء كفرَكم وارتدادكم؛ يعني: أنهم يريدون أن يُلحقوا بكم مضارَّ الدنيا والدين؛ مِن قتلِ الأنفسِ، وتمزيقِ الأعراض، وردِّكم كفاراً، وردُّكم كفاراً أسبقُ المضارِّ عندهم وأولُها؛ لعلمهم أن الدين أعزُّ عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بَذّالون لها دونَه، والعدوُّ أهمُّ شيء عنده أن يَقصِدَ أهمَّ شيء عند صاحبه.

«٣» ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾: قَراباتُكم، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين تُوالون الكفارَ مِن أجلهم، وتتقربون إليهم مُحاماةً عليهم، ثم قال: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربِكم وأولادِكم، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآيةَ [عبس: ٣٤]، فما لَكم ترفُضُون حقَّ اللهِ مُراعاةً لحقِّ مَن يفرُّ منكم غداً؟ ﴿يَفْصِلُ﴾: عاصمٌ، ﴿يُفَصِّلُ﴾: حمزةُ وعليٌّ، والفاعل هو الله عزَّ وجلَّ، ﴿يُفَصَّلُ﴾: ابنُ ذَكوان، غيرُهم: ﴿يُفْصَلُ﴾[1]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ فيجازيكم على أعمالِكم.

«٤» ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾: قدوةٌ في التبرِّيْ من الأهل، ﴿حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: في أقواله، ولهذا استثنى منه (إلا قول إبراهيم)، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين، وقيل: كانوا أنبياءَ، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾: جمعُ بريءٍ، كظريف وظُرفاء، ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ﴾ بالأفعال، ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ بالقلوب، ﴿أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فحينئذ نتركُ عداوتكم، ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وذلك لَموعدة وَعَدَها إياه؛ أي: اقتدوا به في أقواله، ولا تأتسوا به في الاستغفار لأبيه الكافر، ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: مِن هدايةٍ ومغفرةٍ وتوفيقٍ، وهذه الجملة لا تليق بالاستثناء؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الفتح: ١١]، ولكن المراد استثناءُ جملة قوله لأبيه، والقصدُ إلى موعد الاستغفار له وما بعده تابعٌ له، كأنه قال: أستغفر لك، وما في طاقتي إلا الاستغفارُ، ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾: متصلٌ بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة، وقيل: معناه: قولوا: ربَّنا، فهو ابتداءُ أمرٍ من الله للمؤمنين بأن يقولوه، ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾: أقبلنا، ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾: المرجعُ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٨) وفيه أن قراءة (يُفَصَّلُ) هي لابن عامر، فهي من رواية ابن ذكوان وهشام.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩﴾ ....

《٥》 ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تُسلطهم علينا فيَفْتِنُونا بعذاب، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥﴾ أي: الغالبُ الحاكمُ.

《٦》 ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ثم كَرَّرَ الحثَّ على الائتساء بإبراهيمَ عليه السلام وقومِه تقريراً وتأكيداً عليهم، ولذا جاء به مُصدَّراً بالقسم؛ لأنه الغاية في التأكيد، وأبدل مِن قوله: (لكم) قولَه: (لمن كان يرجو الله) أي: ثوابَه؛ أي: يخشى الله وعقابَه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: عن أمرنا ووالَى الكفارَ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الخلق، ﴿الْحَمِيدُ ۝٦﴾: المستحقُّ للحمد، فلم يترك نوعاً من التأكيد إلا جاء به، ولما أُنزلت هذه الآيات وتَشدَّدَ المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائِهم من المشركين.. أطمعَهم في تحوُّل الحال إلى خِلافِه فقال:

《٧》 ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي: مِن أهل مكةَ من أقربائكم ﴿مَّوَدَّةً﴾ بأن يُوفقَهم للإيمان، فلما يَسَّرَ فتحَ مكةَ.. أظفرهم الله بأمنيتهم، فأسلم قومُهم، وتمَّ بينهم التحابُّ، وعسى: وعدٌ من الله على عاداتِ الملوكِ؛ حيث يقولون في بعض الحوائج: عسى أو لعل، فلا تَبقى شبهةٌ للمحتاج في تمام ذلك، وأُريدَ به إطماعُ المؤمنين، ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تقليب القلوب، وتحويل الأحوال، وتسهيل أسباب المودة، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ لمن أسلم من المشركين.

《٨》 ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾: تُكرموهم وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً، ومحلُّ (أن تبروهم): جَرٌّ على البدل من (الذين لم يقاتلوكم)، وهو بدلُ اشتمال، والتقديرُ: عن برِّ الذين، ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾: وتقضُوا إليهم بالقسط ولا تَظلموهم، وإذا نُهي عن الظلم في حقِّ المشرك.. فكيف في حقِّ المسلم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾.

《٩》 ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾: هو بدلٌ من (الذين قاتلوكم) والمعنى: لا ينهاكم عن مَبرَّةِ هؤلاء، وإنما ينهاكم عن تَوَلِّي هؤلاء، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩﴾ حيث وَضعُوا التولِّيَ غيرَ موضعِه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ ....

«١٠» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ سمّاهنَّ مؤمناتٍ لنطقِهن بكلمة الشهادة، أو: لأنهن مُشارفاتٍ لِثبات إيمانِهن بالامتحانِ، ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾: نصبٌ على الحال، ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾: فابتلوهن بالنظر في الأمارات ليغلبَ على ظنونكم صدقُ إيمانهن، وعن ابن عباس: امتحانُها أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ منكم، فإنكم وإن رُزْتُم أحوالَهن لا تعلمون ذلك حقيقةً[1]، وعند الله حقيقةُ العلمِ به، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ العلمَ الذي تبلغُه طاقتُكم، وهو الظنُّ الغالب بظهور الأمارت، وتسميةُ الظن علماً يُؤذن بأن الظنَّ الغالبَ وما يُفضي إليه القياس جارٍ مَجرى العلم، وصاحبُه غيرُ داخل في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾: فلا تردُّوهن إلى أزواجهن المشركين، ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: لا حِلَّ بين المؤمنة والمشرك؛ لِوُقوع الفُرقة بينهما بِخروجها مسلمةً، ﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾: وأعطوا أزواجَهن مثلَ ما دفعُوا إليهن من المهور، نزلت الآيةُ بعد صلح الحديبية، وكان الصلحُ قد وقع على أن يُرَدَّ على أهل مكة مَن جاء مؤمناً منهم، فأنزل الله هذه الآيةَ بياناً لأن ذلك في الرجال لا في النساء؛ لأن المسلمةَ لا تَحِلُّ للكافر، وقيل: نسخت هذه الآيةُ الحكمَ الأولَ، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ ثم نَفَى عنهم الجُناحَ في تَزَوُّجِ هؤلاء المهاجرات، ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مُهورَهنَّ؛ لأن المهر أجرُ البُضع، وبه احتجَّ أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه على أنْ لا عِدَّةَ على المهاجرة[2]، ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ ﴿ولا تَمَسَّكُوا﴾: بصريٌّ[3]، ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ العصمةُ: ما يُعتصَمُ به من عقدٍ وسببٍ، و(الكوافر): جمعُ كافرة، وهي التي بقيت في دار الحرب، أو لَحِقَتْ بدار الحرب مرتدةً؛ أي: لا يكن بينكم وبينهن عصمةٌ ولا عُلقةُ زوجيةٍ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من كانت له امرأة بمكةَ.. فلا يَعْتَدَّنَّ

(١) رُزْتُم: اختبرتم.

(٢) وجه الاستدلال أنه سبحانَه نَفَى الجُناح من كل وجه في نكاح المهاجرات بعد إيتاء المهر، ولم يُقيد جلَّ شأنُه بمضي العِدَّة. انظر «المبسوط» للسرخسي (٥/٥٧) و«تفسير الآلوسي» (١٤/٢٧١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٩).

وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ....

بها من نسائه؛ لأن اختلاف الدارين قطع عصمتَها منه، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ من مهور أزواجكم اللاحقاتِ بالكفار ممن تزوجَها، ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من مهور نسائِهم المهاجراتِ ممن تزوجَها منّا، ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي: جميع ما ذُكر في هذه الآيةِ، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: كلامٌ مستأنف، أو: حال مِن (حكم اللهِ)، على حذفِ الضمير؛ أي: يحكمُهُ اللهُ، أو جعلِ الحكمِ حاكماً على المبالغة، وهو منسوخٌ فلم يبق سؤالُ المهر لا منّا ولا منهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

《١١》 ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: وإن انفلت أحدٌ منهن إلى الكفار، وهو في قراءة ابنِ مسعود رضي الله تعالى عنه: ﴿أَحَدٌ﴾[1]، ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: فأصبتموهم في القتال بعقوبةٍ حتى غنمتم، عن الزجاج[2]، ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾: فأعطُوا المسلمين الذين ارتدَّتْ زوجاتُهم ولَحِقْنَ بدار الحرب مهورَ زوجاتِهم من هذه الغنيمة، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ وقيل: هذا الحكم منسوخٌ أيضاً.

《١٢》 ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾: هو حالٌ، ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾: يريدُ: وَأْدَ البنات، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأةُ تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كَنَّى بالبهتان المفترَى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تُلصقُه بزوجها كذباً؛ لأن بطنَها الذي تحملُه فيه بين اليدين، وفرجَها الذي تلدُ به بين الرجلين، ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾: طاعةِ الله ورسوله، ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عمّا مَضى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ بتمحيقِ ما سلف، ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ بتوفيقِ ما ائتنف، روي: أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكةَ مِن بيعة الرجال.. أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا، وعمرُ قاعدٌ أسفلَ منه يبايعُهن عنه بأمره، ويبلغُهن عنه، وهندُ بنتُ عُتبةَ امرأةُ أبي سفيان متقنعةٌ متنكرةٌ خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزةَ، فقال عليه السلام: «أبايعُكن على ألا تشركن بالله شيئاً»، فبايع عمرُ النساء على ألا يشركن بالله شيئاً، فقال عليه السلام:

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٨).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ١٦٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾

«ولا يسرقن»، فقالت هندٌ: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني أصبت من ماله هَناتٍ، فقال أبو سفيان: ما أصبتِ. . فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفَها، فقال لها: «فإنك لهند»، قالت: نعم، فاعفُ عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، فقال: «ولا يزنين»، فقالت: أَوَتزني الحرة؟! فقال: «ولا يقتلن أولادهن» فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتَهم كباراً فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلةُ قد قتل يوم بدر، فضحك عمرُ حتى استلقى، وتبسمَ رسول الله ﷺ، فقال: «ولا يأتين ببهتان»، فقالت: والله إن البهتان لأمرٌ قبيحٌ، وما تأمرُنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: «ولا يعصينك في معروف»، فقالت: والله ما جلسنا مجلسَنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيَكَ في شيء[1]، وهو يشير إلى أن طاعةَ الوُلاة لا تجب في المنكر.

《١٣》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ ختم السورة بما بدأ به، قيل: هم المشركون، ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: مِن ثوابها؛ لأنهم ينكرون البعث، ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ أي: يئسوا، إلا أنه وُضع الظاهر موضع الضمير، ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾ أن يَرجعوا إليهم، أو: كما يئس أسلافُهم الذين هم في القبور من الآخرة؛ أي: هؤلاء كَسَلَفِهِمْ، وقيل: هم اليهود؛ أي: لا تتولوا قوماً مغضوباً عليهم، قد يَئِسُوا من أن يكون لهم حظٌّ في الآخرة؛ لعنادِهم رسولَ الله ﷺ، وهم يعلمون أنه الرسول المنعوتُ في التوراة، كما يئس الكفار مِن موتاهم أن يُبعثوا ويرجعُوا أحياءً، وقيل: (من أصحاب القبور): بيانٌ للكفار؛ أي: كما يئس الكفارُ الذين قُبروا من خير الآخرة؛ لأنهم تبيَّنوا قُبحَ حالهم، وسوءَ منقلبهم.



(١) روى بعضه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٣٤١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ ....

سورة الصف

مدنيةٌ، وهي أربعَ عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾.

روي: أنهم قالوا قبل أن يُؤمروا بالجهاد: لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله.. لعملناه، فنزلت آيةُ الجهاد، فتباطأ بعضُهم فنزلت:

《٢》 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ (لِمَ) هي لامُ الإضافة داخلةً على (ما) الاستفهامية، كما دخل عليها غيرُها من حروف الجرِّ في قولك: بِمَ وفِيْمَ ومِمَّ وعَمَّ وإلامَ وعَلامَ، وإنما حُذِفَت الألفُ لأنَّ ما واللام أو غيرَها كشيء واحد، وهو كثيرُ الاستعمال في كلام المستفهِم، وقد جاء استعمال الأصل قليلاً، قال[1]: [من: الوافر]

علـى مـا قـامَ يـشـتـمـني جـريـر ....

والوقفُ على زيادة هاء السكت، أو الإسكان، ومن أسكن في الوصل.. فلإجرائِه مُجرى الوقف[2].

《٣》 ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ قُصِدَ في (كبر) التعجبُ من غير لفظه، كقوله[3]: [من: الطويل]

---

(١) لم أجده هكذا، ولكن في «خزانة الأدب» منسوباً لسيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه:

علـى مـا قـام يـشـتـمـني لـئـيـم كـخـنـزيـر تـمـرَّغَ فـي رمـاد

والذي في «ديوانه» (١/٢٥٨):

فـفـيـم تـقـول يـشـتـمـني لـئـيـم كـخـنـزيـر تـمـرّغ فـي رمـاد

(٢) وقف عليه يعقوب والبزي بخلفٍ عنه: بهاءِ السكت، وغيرُهما: بحذفها. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٩).

(٣) جزء من بيت، وهو بتمامه كما في «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (١/١٧٨):

وجـارةُ جـسـاس أبَـأْنـا بِـنـابِـهـا كُـلـيـباً غـلـتْ نـابُ كُـلَـيْـب بَـواؤُهـا

جارة جساس امرأة اسمها البَسوس، قتل كُلَيبٌ ناقتَها، فشكت ذلك لجساس فقتل كُلَيباً، نابها: ناقتُها، أبأنا: قابلنا، غلتْ نابُ كُلَيب بواؤُها: ما أغلى ناقةَ كُليبٌ مُقابلُها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٦﴾ ....

.... غَـلَـتْ نـابٌ كـلـيـبٌ بَـواؤهـا

ومعنى التعجب: تعظيمُ الأمر في قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا مِن شيء خارج عن نظائره، وأُسنِدَ إلى (أن تقولوا) ونُصب (مقتاً) على التمييز، وفيه دلالة على أن قولَهم ما لا يفعلون مقتٌ خالصٌ لا شوبَ فيه؛ والمعنى: كَبُرَ قولُكم ما لا تفعلون مقتاً عند الله، واختير لفظُ المقت؛ لأنه أشدُّ البغض، وعن بعض السلف أنه قيل له: حدِّثْنا، فقال: أتأمرونني أن أقولَ ما لا أفعلُ فأستعجلَ مقتَ الله[1].

ثم أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ ما يحبُّه فقال:

《٤》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي: صافِّين أنفسَهم، مصدرٌ وقع موقع الحال، ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤﴾: لاصِقٌ بعضُه ببعض، وقيل: أُريد به استواءُ نياتهم في حرب عدوِّهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رُصَّ بعضُه إلى بعض، وهو حالٌ أيضاً.

《٥》 ﴿وَإِذۡ﴾: منصوبٌ بـ: اذكر ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ بجحود الآيات والقذفِ بما ليس فيَّ، ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾: في موضع الحال؛ أي: تؤذونني عالمين علماً يقيناً ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ وقضيةُ علمِكم بذلك توقيري وتعظيمي لا أن تُؤذوني[2]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ عن الحق ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ من الهداية، أو: لَمّا تركوا أوامره.. نزع نور الإيمان عن قلوبهم، أو: فلما اختارُوا الزيغ.. أزاغ الله قلوبهم؛ أي: خذلهم وحرمهم توفيقَ اتباعِ الحقِّ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ أي: لا يهدي مَن سبق في علمه أنه فاسق.

《٦》 ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل: يا قوم، كما قال موسى؛ لأنه لا نسبَ له فيهم فيكونوا قومَه ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ

---

(١) الأولى بالعالم أن يُعَلِّم ويجاهدَ نفسَه ليعملَ بعلمه، وأمثالُ هذا مما نُقِلَ عن السلف وبعضِ الصالحين يَبقَى خاصّاً بصاحبه لا يتعدّاه ولا يُقاس عليه.

(٢) في الأصل: (تُؤذونني)، والمثبت من المطبوع (٤/ ٢٨١) وهو الصواب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ ....

﴿أَحْمَدُ﴾ أي: أُرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني من التوراة، وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي؛ يعني: أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً، ممن تقدم وتأخر، ﴿بَعْدِيَ﴾: حجازيٌّ وأبو عمرٍو وأبو بكرٍ[1]، وهو اختيار الخليل وسيبويه[2]، وانتصب (مصدقاً) و(مبشراً) بما في الرسول من معنى الإرسال، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ عيسى أو محمدٌ عليهما السلام ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزات ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ ﴿ساحرٌ﴾: حمزةُ وعليٌّ[3].

《٧》 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾: وأيُّ الناس أشدُّ ظلماً ممن يدعوه ربُّه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعاة الدارين، فيجعلُ مكان إجابته إليه افتراءَ الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاءُ عبادِه إلى الحقِّ: هذا سحرٌ، والسحرُ كذبٌ وتمويهٌ.

《٨》 ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: هذا تَهكُّمٌ بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: هذا سحر، مُثلت حالُهم بحال مَن ينفخُ في نور الشمس بِفِيه لِيطفئَه، والمفعولُ محذوف، واللامُ للتعليل، والتقدير: يريدون الكذبَ ليطفؤا نورَ الله بأفواههم؛ أي: بكلامهم، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾: مكيٌّ وحمزةُ وعليٌّ وحفصٌ، ﴿متمٌّ نورَه﴾: غيرُهم[4]، أي: متمُّ الحقِّ ومُبَلِّغُه غايتَه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

《٩》 ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الملةِ الحنيفيةِ؛ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: لِيُعليَه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: على جميع الأديان المخالفةِ له، ولعمري لقد فَعل، فما بقي دينٌ مِن الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام، وعن مجاهدٍ: إذا نزل عيسى.. لم يكن في الأرض إلا دينُ الإسلام، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٩).

(٢) لعلهما اختارا الفتح لئلا تسقط الياء لفظاً لالتقاء الساكنين، قال الواحدي في «التفسير البسيط» (٢١/ ٤٣٤): وهو - أي: فتح الياء - الاختيار في كل موضع تذهب فيه الياء لالتقاء الساكنين.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٩).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٩) وكذا القراءة الآتية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

《١٠》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾﴾ ﴿تُنَجِّيكُمْ﴾: شاميٌّ.

《١١》 ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾: استئنافٌ كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: تؤمنون، وهو بمعنى: آمِنوا عند سيبويه، ولهذا أجيب بقوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾، ويدلُّ عليه قراءةُ ابن مسعود: ﴿آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا﴾[(١)]، وإنما جيء به على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنه امتُثل فهو يُخبِرُ عن إيمان وجهاد موجودَين، ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ أنه خير لكم.. كان خيراً لكم حينئذ؛ لأنكم إذا علمتُم ذلك واعتقدتموه.. أحببتُم الإيمان والجهادَ فوق ما تحبون أنفسَكم وأموالَكم، فتخلِصون وتفلحون.

《١٢》 ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ أي: إقامةٍ وخلودٍ، يقال: عَدَنَ بالمكان: إذا أقام به، كذا قيل، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

《١٣》 ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾: ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمةٌ أخرى عاجلةٌ محبوبةٌ إليكم، ثم فسَّرَها بقوله: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ أي: عاجلٌ، وهو فتح مكة، والنصرُ على قريش، أو فتحُ فارسَ والرومِ، وفي (تحبونها) شيءٌ من التوبيخ على محبة العاجل، وقال صاحب «الكشف»: معناه هل أدلكم على تجارة تنجيكم وعلى تجارة أخرى تحبونها، ثم قال: (نصر) أي: هي نصر، ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾: عطفٌ على (تؤمنون) لأنه في معنى الأمر، كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يُثبْكم الله وينصرْكم وبشرْ يا رسول الله المؤمنين بذلك، وقيل: هو عطفٌ على قُلْ مُراداً قَبْلَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾.

《١٤》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصارَ دينه، ﴿أنصاراً للهِ﴾: حِجازيٌّ وأبو عمرٍو[(٢)]، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾: ظاهرُه تشبيهُ كونهم أنصاراً بقولِ

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٤).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣١٩).

....

عيسى (من أنصاري إلى الله)، ولكنه محمول على المعنى؛ أي: كونوا أنصارَ اللهِ كما كان الحواريون أنصارَ عيسى حين قال لهم: مَن أنصاري إلى الله؛ ومعناه: مَن جُندي متوجهاً إلى نصرة الله؛ ليطابقَ جوابَ الحواريين، وهو قولُه: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي: نحن الذين ينصرون الله؛ ومعنى (مَن أنصاري): مَن الأنصارُ الذين يختصُّون بي ويكونون معي في نصرة الله، والحواريون: أصفياؤُه، وهم أولُ مَن آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً، وحواريُّ الرجلِ: صفيُّه وخالِصُه؛ من الحَوَرِ، وهو البياض الخالص، وقيل: كانوا قصّارين يُحَوِّرُون الثياب؛ أي: يُبيضونَها، ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعيسى، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ به، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾: فقوَّيْنا مؤمنيهم على كفّارهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾: فغَلَبوا عليهم.



﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ ....

سورة الجمعة

مدنية، وهي إحدى عشرة آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ التسبيحُ إما أن يكون تسبيحَ خِلقةٍ؛ يعني: إذا نظرتَ إلى كل شيء.. دَلَّتْكَ خِلقتُه على وحدانية الله تعالى وتنزيهِه عن الأشباه، أو تسبيحَ معرفة بأن يَجعل اللهُ بلطفه في كل شيء ما يَعرفُ به الله تعالى وينزهه؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، أو تسبيحَ ضرورةٍ بأن يُجري اللهُ التسبيح على كل جوهر من غير معرفة له بذلك.

《٢》 ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ﴾: أرسلَ ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: بعث رجلاً أُمّياً في قوم أميين، وقيل: (منهم) كقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] يعلمون نسبَه وأحوالَه، والأميُّ: منسوبٌ إلى أمة العرب؛ لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم، وقيل: بُدئت الكتابةُ بالطائف، وهم أخذوها من أهلِ الحِيرة، وأهلُ الحِيرة من أهل الأنبار، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: القرآنَ، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ويطهرُهم من الشرك وخبائثِ الجاهليةِ، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآنَ.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: السنةَ، أو: الفقهَ في الدين، ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ محمدٍ ﷺ ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾: كفرٍ وجهالةٍ، و(إنْ) مخففةٌ من الثقيلة، واللامُ دليلٌ عليها؛ أي: كانوا في ضلال لا ترى ضلالاً أعظمَ منه.

《٣》 ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾: مجرورٌ معطوفٌ على الأميين؛ يعني: أنه بعثه في الأميين الذين على عهده، وفي آخرين من الأميين ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: لم يلحقوا بهم بعدُ، وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة رضي الله تعالى عنهم، أو: هم الذين يأتون مِن بعدِهم إلى يوم الدين، وقيل: هم العجم، أو: منصوبٌ معطوفٌ على المنصوب في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ أي: يعلمُهم ويعلمُ آخرين؛ لأن التعليم إذا تناسقَ إلى آخر الزمان.. كان كلُّه مستنداً إلى أوَّلِه، فكأنه هو الذي تولى كلَّ ما وُجد منه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ في تمكينه رجلاً أُميّاً من ذلك الأمر العظيم، وتأييدِه عليه، واختيارِه إياه من بين كافَّةِ البشر.

ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ....

«٤» ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضلُ الذي أعطاه محمداً، وهو أن يكون نبيَّ أبناءِ عصره، ونبيَّ أبناءِ العصورِ الغوابرِ[١] هو ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ إعطاءَه، وتقتضيه حكمتُه، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

«٥» ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: كُلِّفوا عِلمَها والعملَ بما فيها، ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: ثم لم يعملوا بها، فكأنهم لم يحملوها، ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾: جمعُ سِفْرٍ، وهو الكتاب الكبير، و(يحمل): في محلِّ النصب على الحال، أو الجرِّ على الوصف؛ لأن الحمار كاللئيم في قوله[٢]:

ولـقـد أمـرُّ عـلـى الـلـئـيـم يَـسـبُّـنـي ....

شَبَّهَ اليهودَ في أنهم حملة التوراة وقُراؤُها وحفَّاظُ ما فيها، ثم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارةَ به فلم يؤمنوا به.. بالحمار حُمِّلَ كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يَمُرُّ بجنبه وظهره من الكدِّ والتعب، وكلُّ مَن علم ولم يعمل بعلمه فهذا مَثَلُه، ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بئس مثلاً مثلُ القوم الذين كذبوا بآيات الله، أو: بئس مثلُ القومِ المكذبين مثلُهم، وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالةِ على صحة نبوة محمد ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ أي: وقتَ اختيارِهم الظلمَ، أو: لا يهدي مَن سبق في علمه أنه يكون ظالماً.

«٦» ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ هادَ يَهُودُ: إذا تَهَوَّدَ، ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ أي: إن كان قولُكم حقّاً، وكنتم على ثقة.. فتمنَّوا على الله أن يميتكم وينقلَكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدَّها لأوليائه، ثم قال:

---

(١) الغوابر: الأزمانُ الآتيةُ بعدَه، والغابرُ: يطلق على الباقي والماضي، فهو من الأضداد.

(٢) قائله: شمَّرُ بنُ عمرَ الحنفيُّ، وتتمته:

فـمـضـيـتُ ثُـمَّـتَ قـلـتُ لا يـعـنـيـنـي.

انظر «الأصمعيات» (ص ١٢٦).

فجملة (يسبُّني) يصح كونُها نعتاً، وكونُها حالاً؛ لأن اللئيم معرف بأل الجنسية، فأشبه النكرة.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ......﴾

《٧》 ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسببِ ما قدَّموا من الكفر، ولا فرقَ بينَ لا ولنْ؛ في أنَّ كلَّ واحدة منهما نفيٌ للمستقبل، إلا أنَّ في لنْ تأكيداً وتشديداً ليس في لا، فأُتيَ مرةً بلفظ التأكيد: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥]، ومرةً بغير لفظِه: (ولا يتمنونه)، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾: وعيدٌ لهم.

《٨》 ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تَجسُرون أن تتمنوه؛ خِيفةَ أن تُؤخذُوا بوبال كفركم ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ لا محالةَ، والجملةُ: خبرُ إنَّ، ودخلت الفاءُ لتضمن (الذي) معنى الشرط، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾: فيجازيْكم بما أنتم أهلُه من العقاب.

《٩》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ النداءُ: الأذان، و(مِن): بيانٌ لـ(إذا) وتفسيرٌ له، ويومُ الجمعة سيدُ الأيام، وفي الحديث: «من مات يوم الجمعة.. كتب الله له أجرَ شهيد، ووُقِيَ فتنة القبر»[١]، ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾: فامضُوا، وقرئ بها[٢]، وقال الفراء: السعْيُ والمضيُّ والذهابُ واحدٌ[٣]، وليس المراد به السرعةَ في المشي، ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى الخطبة عند الجمهور، وبه استدل أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه على أن الخطيب إذا اقتصر على الحمدُ لله.. جاز[٤]، ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أرادَ الأمرَ بتركِ ما يُذهلُ عن ذكر الله من شواغل الدنيا، وإنما خَصَّ البيعَ من بينها لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيعُ والشراءُ عند الزوال، فقيل لهم: بادرُوا تجارةَ الآخرة، واتركوا تجارةَ الدنيا، واسعَوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربحُ، وذروا البيعَ الذي نفعُه يسيرٌ، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: السعيُ إلى ذكر الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من البيع والشراء ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) روى نحوه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٥٥)
(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (١٠/ ١٢).
(٣) «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٥٦).
(٤) انظر «المبسوط» للسرخسي (٢/ ٣١).

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

《١٠》 ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: أُدِّيتْ ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أمرُ إباحةٍ، ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾: الرزقِ، أو طلب العلم، أو عيادة المريض، أو زيارة أخٍ في الله، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾: واشكروا على ما وفقكم لأداء فرضه، ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

《١١》 ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾: تفرقُوا عنك إليها، وتقديرُه: وإذا رأوا تجارة.. انفضوا إليها، أو لهواً.. انفضُّوا إليه، فحُذف أحدُها لدلالة المذكور عليه، وإنما خَصَّ التجارةَ لأنها كانت أهمَّ عندهم، روي: أن أهل المدينة أصابهم جوعٌ وغلاءٌ، فقدم دحيةُ بنُ خليفةَ بتجارةٍ مِن زيت الشام، والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقاموا إليه، فما بقي معه إلا ثمانيةٌ أو اثنا عشرَ، فقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعاً.. لأضرم الله عليهم ناراً»[1]، وكانوا إذا أقبلت العِيرُ.. استقبلوها بالطبل والتصفيق، وهو المراد باللهو، ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ على المنبر ﴿قَآئِمًا﴾ تخطبُ، وفيه دليلٌ على أن الخطيب ينبغي أن يخطب قائماً، ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثوابِ ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ أي: لا يفوتُهم رزقُ الله بترك البيع، فهو خير الرازقين.



(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (١٥/ ٣٠٠) عن سيدنا جابر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد.. لسال لكم الوادي ناراً».

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ....

سورة المنافقون

إحدى عشرةَ آيةً، مدنيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أرادوا شهادةً واطأتْ فيها قلوبُهم ألسنتَهم، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي: والله يعلم أن الأمر كما يدلُّ عليه قولُهم: إنك لرسول الله، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ في ادعاء المواطأة، أو: إنهم لكاذبون فيه؛ لأنه إذا خلا عن الموطأة.. لم يكن شهادةً في الحقيقة، فهم كاذبون في تسميته شهادة، أو: إنهم لكاذبون عند أنفسهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم: إنك لرسول الله كذبٌ وخبرٌ على خلافِ ما عليه حال المخبَرِ عنه.

《٢》 ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾: واقيةً مِن السبْيِ والقتل، وفيه دليلٌ على أنَّ أشهدُ يمينٌ، ﴿فَصَدُّوا۟﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن الإسلام بالتنفيرِ وإلقاءِ الشُّبهِ، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ من نفاقهم وصدِّهم الناس عن سبيل الله، وفي (ساء) معنى التعجب الذي هو تعظيمُ أمرِهم عند السامعين.

《٣》 ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى قوله: ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ذلك القولُ الشاهدُ عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾، أو: إلى ما وُصِفَ مِن حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان؛ أي: ذلك كلُّه بسبب أنهم آمنوا؛ أي: نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل مَن يدخل في الإسلام، ثم كفروا، ثم ظهر كفرُهم بعد ذلك بقولهم: إنْ كان ما يقولُه محمدٌ حقّاً.. فنحن حميرٌ، ونحوِ ذلك، أو: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام، كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤] الآيةَ، ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: فخُتِمَ عليها حتى لا يدخلَها الإيمان جزاءً على نفاقهم، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾: لا يتدبرون، أو: لا يعرفون صحة الإيمان.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ ....

«٤» والخطابُ في ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لرسول الله، أو لكلِّ مَن يُخاطَبُ، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ كان ابنُ أبيٍّ رجلاً جسيماً صبيحاً فصيحاً، وقومٌ من المنافقين في مثل صفته، فكانوا يَحضُرون مجلس النبي ﷺ، فيستندون فيه، ولهم جَهارةُ المناظر، وفصاحةُ الألسن، فكان النبي ﷺ ومَن حضر يُعجَبون بهياكِلهم، ويَسمعون إلى كلامهم، وموضعُ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾: رفعٌ على: هم كأنهم خشب، أو: هو كلامٌ مستأنَفٌ لا محلَّ له، ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ إلى الحائط، شُبِّهُوا في استنادهم وما هم إلا أجرامٌ خاليةٌ عن الإيمان والخير بالخُشُبِ المسندة إلى الحائط؛ لأن الخشب إذا انتُفِعَ به.. كان في سقف أو جدارٍ أو غيرِها مِن مظانِّ الانتفاع، وما دام متروكاً غيرَ منتفَع به.. أُسند إلى الحائط، فشُبهوا به في عدم الانتفاع، أو: لأنهم أشباحٌ بلا أرواح، وأجسامٌ بلا أحلام، ﴿خُشْبٌ﴾: أبو عمرٍو غيرَ عباسٍ، وابنُ كثير وعليٌّ[1]، جمعُ خَشَبَةٍ، كبَدَنَةٍ وبُدْنٍ، و(خُشُبٌ): كثَمَرَةٍ وثُمُرٍ، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (كلَّ صيحة): مفعولٌ أولُ، والمفعولُ الثاني: (عليهم) وتمَّ الكلام؛ أي: يحسبون كلَّ صيحة واقعةً عليهم، وضارةً لهم؛ لِخِيفتِهم ورُعبِهم؛ يعني: إذا نادى منادٍ في العسكر، أو انفلتت دابةٌ، أو أُنشدت ضالةٌ.. ظنُّوه إيقاعاً بِهم، ثم قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: هم الكاملون في العداوة؛ لأن أعدى الأعداء العدوُّ المُداجي، الذي يُكاشرك وتحتَ ضلوعِه الدّاءُ الدَّوِيُّ[2]، ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا تَغْتَرِرْ بظواهرهم، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾: دعاءٌ عليهم، أو تعليمٌ للمؤمنين أن يدعُوا عليهم بذلك، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾: كيف يَعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالتهم.

«٥» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾: عَطَفُوها وأمالُوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً، ﴿لَوَوا﴾: بالتخفيف: نافعٌ[3]، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾: يعرضون ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ عن الاعتذار والاستغفار، روي: أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصْطَلِقِ على المُرَيْسيع، وهو ماءٌ لهم، وهزمهم.. ازدحم على الماء جَهجاهُ بنُ سعيد أجيرٌ لعمر، وسِنانٌ

---

(١) أسكنَ الشينَ: قنبلٌ وأبو عمرو والكسائيُّ، وضمَّها غيرُهم. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٠).

(٢) المداجي: الذي يستر عداوتَه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢١).

سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ....

الجُهني حليفٌ لابن أبيٍّ واقتتلا، فصرخ جَهجاهُ: يا لَلمهاجرين، وسِنانٌ: يا لَلأنصار، فأعان جَهجاهاً جِعالٌ مِن فقراء المهاجرين ولَطَمَ سِناناً، فقال عبد الله لِجعالٍ: وأنت هناك! وقال: ما صحبنا محمداً إلا لِنلطم، والله ما مثلُنا ومثلُهم إلا كما قال: سَمِّنْ كلبَك يأكلْك، وأما والله، لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؛ عَنَى بالأعزّ نفسَه، وبالأذلّ رسولَ الله ﷺ، ثم قال لقومه: والله لو أمسكتُم عن جِعالٍ وذويْه فضلَ الطعام.. لم يركبوا رقابَكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضُّوا من حول محمد، فسمع بذلك زيدُ بنُ أرقمَ، وهو حدثٌ، فقال: أنت والله الذليل القليل المبغَضُ في قومك، ومحمدٌ على رأسه تاجُ المعراج في عزٍّ من الرحمن، وقوةٍ من المسلمين، فقال عبد الله: اسكُت؛ فإنما كنتُ ألعبُ، فأخبر زيدٌ رسول الله ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: دَعني أضربْ عنقَ هذا المنافقِ يا رسول الله، فقال: «إذن تَرْعُدُ آنُفٌ كثيرةٌ بيثربَ»، قال: فإن كرهتَ أن يقتله مهاجريٌّ.. فأمُرْ به أنصاريّاً، قال: «فكيف إذا تحدثَ الناسُ أن محمداً يقتلُ أصحابَه؟»، وقال عليه الصلاة السلام لعبد الله: «أنت صاحبُ الكلام الذي بلغني؟» قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلتُ شيئاً من ذلك، وإن زيداً لكاذب، فهو قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾، فقال الحاضرون: يا رسول الله شيخُنا وكبيرُنا لا تُصدقْ عليه كلام غلام عسى أن يكن قد وَهِمَ، فلما نزلت.. قال رسول الله ﷺ لزيدٍ: «يا غلامُ إن الله قد صَدَّقَك وكذبَ المنافقين»، فلما بان كذبُ عبد الله.. قيل له: نزلت فيك آيٌ شِدادٌ فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفرْ لك، فلوَى رأسَه فقال: أمرتموني أن أُؤْمِنَ فآمنت، وأمرتموني أن أُزكيَ ماليَ فزكيت، وما بقي لي إلا أن أسجد لمحمد، فنزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، ولم يلبث إلا أياماً حتى اشتكى ومات[(١)].

《٦》 ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ أي: ما داموا على النفاق؛ والمعنى: سواءٌ عليهم الاستغفارُ وعدمُه؛ لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتدُّون به لكفرهم، أو: لأن الله لا يغفرُ لهم، وقرئ: ﴿استغفرت﴾[(٢)] على حذف حرف الاستفهام؛ لأن (أم) المعادِلة تدلُّ عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

---

(١) انظر غزوةَ بني المصطلِق في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٩٠).

(٢) انظر «المحتسب» لابن جني (٢/ ٣٢٢).

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ....

《٧》 ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾: يتفرقوا، ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وله الأرزاقُ والقِسَمُ، فهو رازقُهم منها وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾: ولكن عبد الله وأضرابَه جاهلون، لا يفقهون ذلك، فيهذُون بما يُزَيِّنُ لهم الشيطان.

《٨》 ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ من غزوة بن المصطلِق ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾: الغَلَبَةُ والقُوَّةُ ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: ولمن أعزَّه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين، وهم الأَخِصَّاء بذلك، كما أن المذلةَ والهوانَ للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين، وعن بعض الصالحات كانت في هيئة رَثَّةٍ: ألستُ على الاسلام وهو العِزُّ الذي لا ذُلَّ معه، والغِنى الذي لا فقرَ معه، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أن رجلاً قال له: إن الناس يزعُمون أن فيك تِيْهاً، قال: ليس بِتِيْهٍ، ولكنه عِزَّةٌ، وتلا هذه الآية، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

《٩》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ﴾: لا تشغَلْكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾ والتصرفُ فيها، والسعيُ في تدبير أمرِها بالنماءِ وطلبِ النِّتاج، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾: وسرورُكم بهم، وشفقتُكم عليهم، والقيامُ بِمُؤَنِهم ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: عن الصلوات الخمس، أو: عن القرآن، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يريد الشغلَ بالدنيا عن الدين، وقيل: مَن يشتغلْ بتثمير أمواله عن تدبير أحواله، وبمرضاة أولادِه عن إصلاح مَعادِه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ في تجارتهم؛ حيث باعُوا الباقيَ بالفاني.

《١٠》 ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ (مِن) للتبعيض، والمرادُ بالإنفاق: الواجبُ، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: مِن قبلِ أن يَرى دلائلَ الموت، ويُعاينَ ما ييئَسُ معه من الإمهال، ويتعذرَ عليه الإنفاق، ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾: هلّا أخرت موتي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: إلى زمان قليل، ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: فأتصدقَ، وهو جوابُ (لولا)، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾: من المؤمنين، والآيةُ في المؤمنين، وقيل: في المنافقين، ﴿وأكونَ﴾: أبو عمرٍو[1]: بالنصب عطفاً على اللفظ، والجزمُ على موضع (فأصدق)، كأنه قيل: إن أخرتني أصدقْ وأكنْ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢١) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

《١١》 ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ عن الموت ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ المكتوبُ في اللوح المحفوظ، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ ﴿يعملون﴾: حمادٌ ويحيى؛ والمعنى: أنكم إذا علمتم أن تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه، وأنه هاجمٌ لا محالة، وأن الله عليم بأعمالكم فمُجازٍ عليها؛ مِن منعِ واجبٍ وغيره.. لم يبق إلا المسارعةُ إلى الخروج عن عهدة الواجب، والاستعدادُ للقاء الله تعالى.



﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ ....

سورة التغابن

ثماني عشرة آيةً، مختلفٌ فيها[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

«١» ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ قُدِّمَ الظرفان لِيُدَلَّ بتقديمهما على اختصاص الملكِ والحمدِ بالله عزَّ وجلَّ، وذلك لأن الملك على الحقيقة له؛ لأنه مبدئُ كلِّ شيء والقائمُ به، وكذا الحمدُ؛ لأن أصول النعم وفروعَها منه، وأما ملكُ غيرِه.. فتسليطٌ منه واسترعاء، وحمدُ غيرِه اعتدادٌ بأن نعمة الله جرت على يده.

«٢» ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ أي: فمنكم آتٍ بالكفر وفاعلٌ له، ومنكم آتٍ بالإيمان وفاعلٌ له، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ أي: عالمٌ وبصيرٌ بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملِكم؛ والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجادُ عن العدم، وكان يجبُ أن تكونوا بأجمعكم شاكرين، فما بالُكم تفرقتم أُمماً، فمنكم كافر ومنكم مؤمن؟ وقُدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثرُ فيهم، وهو رَدٌّ لقولِ مَن يقول بالمنزلة بين المنزلتين، وقيل: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية، ومنكم مؤمن به.

«٣» ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: بالحكمة البالغة، وهو أنْ جعلها مَقارَّ المكلفين ليعملوا فيجازيَهم، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: جعلَكم أحسنَ الحيوان كلِّه وأبهاه؛ بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورتُه على خلافِ ما يَرى من سائر الصور، ومِن حسن صورته أنه خُلق منتصباً غيرَ مُنكبٍّ، ومن كان دميماً مُشوَّهَ الصورِ سَمِجَ الخِلقةِ.. فلا سماجةَ ثَمَّ[2]، ولكن الحسن على طبقاتٍ، فلانحطاطها عمّا فوقَها لا تُستملح، ولكنها غيرُ خارجة عن حدِّ

---

(١) قال قتادة: مدنية، وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء: مكيةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ من آخرها. انظر «البيان» للداني (ص ٢٤٨).

(٢) دميم وسمج: قبيح.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨)﴾ ....

الحسن، وقالت الحكماء: شيئان لا غايةَ لهما: الجمالُ والبيانُ، ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣)﴾ فأحسِنوا سرائرَكم كما أحسنَ صورَكم.

《٤》 ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)﴾ نَبَّهَ بعلمه ما في السموات والأرض، ثم بعلمه بما يُسرُّه العبادُ وما يُعلنونه، ثم بعلمه بذات الصدور أن شيئاً من الكليات والجزئيات غيرُ خافٍ عليه، فحقُّه أن يُتقى ويُحذرَ ولا يُجترأ على شيء مما يخالف رضاه، وتكريرُ العلم في معنى تكرير الوعيد، وكلُّ ما ذكره بعد قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ في معنى الوعيد على الكفر، وإنكارِ أن يُعصَى الخالقُ ولا تُشكرَ نعمتُه.

《٥》 ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الخطابُ لكفار مكةَ ﴿نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ يعني: قومَ نوح وهود وصالح ولوط، ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا وبالَ كفرِهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)﴾ في العقبَى.

《٦》 ﴿ذَلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا، وما أُعدَّ لهم من العذاب في الآخرة، ﴿بِأَنَّهُ﴾: بأن الشأن والحديث ﴿كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالمعجزات، ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكَروا الرسالة للبشر، ولم يُنكروا العبادة للحجر، ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرسل، ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن الإيمان، ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أُطلق ليتناولَ كلَّ شيء، ومِن جملتِه إيمانُهم وطاعتُهم، ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه، ﴿حَمِيدٌ (٦)﴾ على صنعِه.

《٧》 ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهلُ مكة، الزعمُ: ادعاءُ العلم، ويتعدَّى تعديَ العلم، ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ (أنْ) مع ما في حيزه قائمٌ مَقام المفعولَين، وتقديرُه: أنهم لن يُبعثوا، ﴿قُلْ بَلَى﴾: هو إثباتٌ لِما بعد (لنْ)، وهو البعث، ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أكَّدَ الإخبار باليمين، **فإن قلت**: ما معنى اليمين على شيء أنكروه؟ **قلت**: هو جائز؛ لأن التهديد به أعظم موقعاً في القلب، فكأنه قيل لهم: ما تنكرونه كائن لا محالة، ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ﴾ البعث ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧)﴾: هينٌ.

《٨》 ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: محمدٍ ﷺ، ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ يعني: القرآنَ؛ لأنه يبين حقيقة كل شيء، فيُهتدَى به كما بالنور، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨)﴾ فراقبُوا أمورَكم.

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ....

«٩» ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ انتصب الظرفُ بقوله: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾، أو: بإضمار: اذكر ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ يُجمع فيه الأولون والآخرون، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾: هو مستعارٌ مِن تَغابُنِ القومِ في التجارة، وهو: أن يَغْبِنَ بعضُهم بعضاً؛ لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزولِ الأشقياء منازلَ السعداء التي كانوا ينزلوها لو كانوا أشقياء، كما ورد في الحديث[1]، ومعنى (ذلك يوم التغابن) وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم: استعظامٌ له، وأن تغابنه هو التغابنُ في الحقيقة، لا التغابنُ في أمور الدنيا، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾: صفةٌ للمصدر؛ أي: عملاً صالحاً ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ﴾ وبالنون فيهما: مدنيٌّ وشاميٌّ[2]، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

«١٠» ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

«١١» ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾: شدةٍ ومرضٍ وموتِ أهلٍ، أو شيءٍ يقتضي هَمّاً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بعلمه وتقديره ومشيئته، كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للاسترجاع عند المصيبة، حتى يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، أو: يشرحْه للازدياد من الطاعة والخير، أو: يهدِ قلبَه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعن مجاهد: إن ابتلي.. صبر، وإن أُعطيَ.. شكر، وإن ظُلِمَ.. غفر، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

«١٢» ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ أي: فعليه التبليغ وقد فعل.

---

(١) روى البخاري (٦٥٦٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء؛ ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن؛ ليكون عليه حسرة».

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢١).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ ....

《١٣》 ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾: بَعْثٌ لرسول الله ﷺ على التوكل عليه حتى ينصرَه على مَن كذَّبه وتولى عنه.

《١٤》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ أي: إنَّ مِن الأزواج أزواجاً يُعادِين بعولتهن ويخاصمنَهم، ومن الأولاد أولاداً يُعادُون آباءَهم ويعقونَهم، ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الضميرُ للعدوِّ؛ أي: للأزواج والأولاد جميعاً؛ أي: لَمّا علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدوٍّ.. فكونوا منهم على حذر، ولا تأمنوا غوائلَهم وشرَّهم، ﴿وَإِن تَعْفُوا۟﴾ عنهم إذا اطلعتم منهم على عداوة ولم تُقابلوهم بمثلها، ﴿وَتَصْفَحُوا۟﴾: تُعرضُوا عن التوبيخ، ﴿وَتَغْفِرُوا۟﴾: تَستُروا ذنوبَهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ يغفرْ لكم ذنوبكم، ويُكَفِّرْ عنكم، قيل: إن ناساً أرادوا الهجرة عن مكةَ فثبطهم أزواجُهم وأولادُهم وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا، فرقُّوا لهم ووقَفُوا، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقُهوا في الدين.. أرادُوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم، فزيَّنَ لهم العفوَ.

《١٥》 ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: بلاءٌ ومحنةٌ؛ لأنهم يُوقعون في الإثم والعقوبة، ولا بلاءَ أعظمُ منهما، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: في الآخرة، وذلك أعظمُ من منفعتكم بأموالكم وأولادكم، ولم يُدخل فيه: مِنْ، كما في العداوة؛ لأن الكلَّ لا يخلو عن الفتنة وشَغْلِ القلب، وقد يخلو بعضُهم عن العداوة.

《١٦》 ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾: جُهدَكم ووُسعَكم، قيل: هو تفسير لقوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما توعظون به، ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ فيما تُؤمَرون به وتُنهَون عنه، ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقةُ فيها، ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: إنفاقاً خيراً لأنفسكم، وقال الكسائي: يكن الإنفاقُ خيراً لأنفسكم، والأصحُّ أنَّ تقديرَه: ائتوا خيراً لأنفسكم، وافعلوا ما هو خير لها، وهو تأكيد للحثِّ على امتثال هذه الأوامر، وبيانٌ لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حبِّ الشهوات وزخارفِ الدنيا، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي: البخلَ بالزكاة والصدقة الواجبة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾.

إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

《١٧ - ١٨》 ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بنيةٍ وإخلاصٍ، وذكرُ القرضِ تلطفٌ في الاستدعاء، ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾: يكتب لكم بالواحدة عشراً أو سبعَ مئةٍ إلى ما شاء من الزيادة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبلُ القليل ويعطي الجزيل، ﴿حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ يُقيل الجليل من ذنب البخيل، أو يُضعِّفُ الصدقة لدافعها، ولا يُعجِّلُ العقوبةَ لمانعِها، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: يعلمُ ما استتر من سرائر القلوب، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما انتشر من ظواهر الخُطوب، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: المُعِزُّ بإظهار السُّيوب[1]، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ في الإخبار عن الغيوب.



(١) السُّيوب: جمع سيب، وهو العطاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ ....

سورة الطلاق

مدنيةٌ، وهي اثنتا عشرة آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خَصَّ النبيَّ ﷺ بالنداءِ وعَمَّ بالخطاب؛ لأن النبي إمامُ أمته وقدوتُهم، كما يقال لرئيس القوم: يا فلانُ افعلوا كذا؛ إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤُّسِه، وأنه قدوة قومِه، فكان هو وحده في حكم كلِّهم، وسادّاً مسدَّ جميعِهم، وقيل: التقديرُ: يا أيها النبيُّ والمؤمنون، ومعنى (إذا طلقتم النساءَ): إذا أردتُم تطليقَهن؛ على تنزيل المقبلِ على الأمر المُشارِفِ له منزلةَ الشارعِ فيه، كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً.. فله سلبُه»[1]، ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمنتظرُ لها في حكم المصلي، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: فطلقوهن مستقبلاتٍ لعدتِهنَّ، وفي قراءة رسول الله ﷺ: ﴿في قُبُلِ عدتِهنَّ﴾[2]، وإذا طُلقت المرأةُ في الطهر المتقدم للقُرءِ الأول من أقرائها.. فقد طُلقت مستقبلةً لعدتِها؛ والمرادُ: أن تُطلقَ المدخولُ بهنَّ من المعتدات بالحيض في طهر لم يُجامَعنَ فيه، ثم يُخَلَّيْنَ حتى تنقضيَ عدتُهنَّ، وهذا أحسنُ الطلاقِ، ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾: واضبطوها بالحفظ، وأكملوها ثلاثةَ أقراءٍ مستقبَلات كواملَ لا نُقصانَ فيهنَّ، وخوطب الأزواجُ لغفلةِ النساءِ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ حتى تنقضيَ عدتُهن ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾: من مساكنهنَّ التي يَسكُنَّها قبل العدة، وهي بيوت الأزواج، وأضيف إليهنَّ لاختصاصها بهنَّ من حيث المسكنُ، وفيه دليل على أن السكنى واجبةٌ، وأن الحنث بدخول دار يسكنُها فلان بغير مِلكٍ ثابتٌ فيما إذا حلف لا يدخلُ دارَه، ومعنى الإخراج: ألا يخرجَهن البعولةُ غَضَباً عليهم، وكراهةً لِمُساكَنَتِهن، أو لحاجة لهم إلى المساكن، وألا يأذنوا لهنَّ في الخروج إذا طَلَبْنَ ذلك؛ إيذاناً بأن إذنَهم لا أثرَ له في رفع الحظر، ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ بأنفسهن إن أَرَدْنَ ذلك، ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ قيل: هي الزنا؛ أي: إلا أن يَزنين فيُخرجنَ لإقامة

---

(١) رواه البخاري (٣١٤٢) ومسلم (١٧٥١) عن سيدنا أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٣).

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ....﴾

الحدِّ عليهن، وقيل: خروجُها قبل انقضاء العدة فاحشةٌ في نفسه، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: الأحكامُ المذكورةُ، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي﴾ أيُّها المخاطَبُ ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ بأن يُقلِّبَ قلبَه مِن بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم إليه فيراجُعها؛ والمعنى: فطلقوهن لعدتهن، وأحصوا العدة، ولا تخرجوهن من بيوتهن؛ لعلكم تندمون فتراجِعُون.

《٢》 ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: قارَبْنَ آخرَ العدةِ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فأنتم بالخيار؛ إن شئتم.. فالرجعةُ والإمساكُ بالمعروفِ والإحسانُ، وإن شئتم.. فتركُ الرجعةِ والمفارقةُ واتقاءُ الضِّرار، وهو أن يُراجعها في آخر عدتها، ثم يطلقها تطويلاً للعِدةِ عليها وتعذيباً لها، ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ يعني: عند الرجعة والفرقة جميعاً، وهذا الإشهادُ مندوبٌ إليه؛ لئلا يقع بينهما التجاحد، ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾: مِن المسلمين، ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾: لوجهه خالصاً، وذلك أن يقيموها لا للمشهود له، ولا للمشهود عليه، ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحقِّ ودفعِ الظلم، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحثُّ على إقامة الشهادة لوجه الله، ولأجل القيام بالقسطِ ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إنما ينتفعُ به هؤلاءِ، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ هذه جملة اعتراضيةٌ مؤكدةٌ لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة، والمعنى: ومن يتق الله فطلق للسنة، ولم يضارَّ المعتدةَ، ولم يخرجها من مسكنها، واحتاطَ فأشهد.. يجعلِ اللهُ له مخرجاً مما في شأن الأزواج من الغُموم والوقوعِ في المضايقِ، ويفرجْ عنه، ويعطِه الخلاصَ.

《٣》 ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾: مِن وجهٍ لا يخطر بباله، ولا يحتسبه، ويجوز أن يجاءَ بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾ أي: ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومَخلصاً من غموم الدنيا والآخرة، وعن النبي ﷺ أنه قرأها فقال: «مخرجاً من شبهات الدنيا، ومن غَمَراتِ الموت، ومن شدائدِ يوم القيامة»[1]، وقال ﷺ: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها.. لكفتْهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾»، فما زال يقرؤُها ويعيدُها[2]، وروي: أن عوفَ بنَ مالكٍ أسر

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٣٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٠) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾ ....

المشركون ابناً له، فأتى رسول الله ﷺ فقال: أُسر ابني، وشكا إليه الفاقة، فقال: «ما أمسى عند آل محمد إلا مُدٌّ، فاتق الله واصبر، وأكثرْ مِن قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، فعاد إلى بيته وقال لامرأته: إن رسول الله أمرني وإياكِ أن نستكثر من قولِ: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقالت: نِعْمَ ما أمرنا به، فجعلا يقولان ذلك، فبينما هو في بيته إذْ قرعَ ابنُه الباب ومعه مئةٌ من الإبل، تَغَفَّلَ عنها العدوُّ فاستاقَها، فنزلت هذه الآية[1]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾: يَكِلْ أمرَه إليه عن طمعِ غيرِه وتدبيرِ نفسِه ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾: كافِيْه في الدارين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾: حفصٌ؛ أي: مُنفذُ أمرِه، غيرُه: ﴿بالغٌ أمرَه﴾[2] أي: يبلغُ ما يريدُ، لا يفوتُه مُرادٌ، ولا يعجزُه مطلوبٌ، ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾: تقديراً وتَوقيتاً، وهذا بيانٌ لوجوب التوكلِ على الله وتفويضِ الأمر إليه؛ لأنه إذا عُلِمَ أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته.. لم يبق إلا التسليمُ للقدرِ، والتوكلُ.

《٤》 ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ روي: أن ناساً قالوا: قد عرفنا عِدةَ ذواتِ الأقراء، فما عدةُ اللائي لم يحضن؟ فنزلت، ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: أشكلَ عليكم حكمُهن وجهلتُم كيف يَعْتَدِدْنَ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ أي: فهذا حكمُهن، وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغَ اليأسِ، وقَدْ قَدَّروه بستين سنةً، وبخمسٍ وخمسين، أهو دمُ حيضٍ أم استحاضةٌ.. فعدتُهن ثلاثةُ أشهر، وإذا كانت هذه عدةَ المرتاب بها.. فغيرُ المرتاب بها أولى بذلك، ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ هنَّ الصغائرُ، وتقديرُه: واللائي لم يحضن.. فعدتُهن ثلاثةُ أشهر، فحذفت الجملةُ لدلالة المذكور عليها، ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾: عدتُهن ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ والنصُّ يتناول المطلقاتِ، والمتوفَّى عنهن أزواجُهن، وعن علي وابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: عدةُ الحامل المتوفَّى عنها زوجُها أبعدُ الأجلين، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾: يُيَسِّرْ له من أمره، ويَحلُلْ من عُقَدِه بسبب التقوى.

《٥》 ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما عُلم من حكم هؤلاء المعتداتِ ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ من اللوح المحفوظِ، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام، وحافظَ على الحقوق الواجبة

---

(١) رواه بنحوه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٣٦)

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٢).

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾

عليه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ ثم بيَّنَ التقوى في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ كأنه قيل: كيف يُعْمَلُ بالتقوى في شأن المعتدات؟ فقيل:

《٦》 ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وكذا وكذا ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ هي (مِنْ) التبعيضية، مبعَّضُها محذوفٌ؛ أي: أسكنوهن مكاناً من حيث سكنتم؛ أي: بعضَ مكانِ سُكناكم، ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ هو عطفُ بيانٍ لقوله: (من حيث سكنتم) وتفسيرٌ له، كأنه قيل: أسكنوهن مكاناً مِن مسكنكم مما تُطيقونه، والوُجْدُ: الوُسعُ والطاقةُ، وقرئ بالحركات الثلاث، والمشهورُ: الضمُّ[1]، والنفقةُ والسُّكنى واجبتان لكل مطلقة، وعند مالك والشافعي: لا نفقةَ للمبتوتة؛ لحديث فاطمةَ بنتِ قيسٍ: أن زوجها أَبَتَّ طلاقَها، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا سكنى لك ولا نفقة»[2]، وعن عمرَ رضي الله عنه: لا ندعُ كتابَ ربِّنا وسنةَ نبينا بقول امرأة لعلها نسيتْ أو شُبِّهَ لها، سمعت النبي ﷺ يقول: «لها السكنى والنفقة»[3]، ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾: ولا تستعملوا معهنَّ الضِّرارَ؛ ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ في المسكن ببعض الأسباب؛ مِن إنزال مَن لا يوافقهن، أو يشغلُ مكانَهن، أو غيرِ ذلك حتى تَضطروهن إلى الخروج، ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلقاتُ ﴿أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾: ذواتِ الأحمالِ ﴿فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وفائدةُ اشتراط الحمل: أن مدة الحمل ربما تَطولُ، فيظنُّ ظانٌّ أن النفقة تسقطُ إذا مضى مقدار عدة الحائل، فنُفِيَ ذلك الوهمُ، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني: هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهنَّ، أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: فحكمُهن في ذلك حكمُ الأظآر، ولا يجوز الاستئجار إذا كان الولد منهنَّ ما لم يَبِنَّ خلافاً للشافعي رحمه الله[4]، ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم﴾ أي: تَشاوروا على التراضي في الأجرة، أو: ليأمرْ بعضُكم بعضاً، أو الخطابُ للآباء والأمهات، ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: بما يليق بالسنةِ، ويحسنُ في المروءة، فلا يُماكِس الأبُ، ولا تُعاسِر الأمُّ؛ لأنه ولدُهما، وهما شريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه، ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾: تضايقتم فلم ترضَ الأمُّ بما تُرْضِعُ به الأجنبيةُ، ولم يَزِد الأبُ

---

(١) قرأ رَوْحٌ: بكسر الواو، وغيرُه: بضمها. انظر المرجع السابق (ص ٣٢٢)، وأما القراءةُ بفتح الواو.. فهي شاذة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٤٩).

(٢) رواه مسلم (١٤٨٠).

(٣) روى نحوه مسلم (١٤٨٠).

(٤) انظر «اللباب في شرح الكتاب» (٣/ ١٠٠)، و«مغني المحتاج» (٥/ ١٨٨).

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ....

على ذلك ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾: فستوجد ولا تعوزُ مرضعةٌ غيرُ الأم ترضعُه، وفيه طَرَفٌ مِن معاتبة الأم على المعاسرة، وقولُه: (له) أي: للأب؛ أي: سيجدُ الأبُ غيرَ معاسِرة ترضع له ولدَه إن عاسرته أمُّه.

《٧》 ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لينفقْ كلُّ واحد من الموسر والمعسر ما بلغَه وُسْعُه؛ يريدُ: ما أُمِرَ به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات، ومعنى (قُدر عليه رزقه): ضُيِّقَ؛ أي: رزقه الله على قدر قوته، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾: أعطاها من الرزق، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾: بعد ضيق في المعيشة سعة، وهذا وعدٌ لذي العُسر باليُسر.

《٨》 ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾: مِن أهل قرية ﴿عَتَتْ﴾ أي: عَصَتْ ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾: أعرضت عنه على وجه العُتُوِّ والعِنادِ، ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاءِ والمناقشةِ، ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ ﴿نُكُراً﴾: مدنيٌّ وأبو بكرٍ[1]، منكراً عظيماً.

《٩》 ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ أي: خساراً وهلاكاً؛ والمرادُ: حسابُ الآخرة وعذابُها وما يذوقون فيها من الوبال، ويَلقون من الخُسْرِ، وجيءَ به على لفظ الماضي؛ لأن المنتظرَ مِن وعدِ الله ووعيدِه مَلْقِيٌّ في الحقيقة، وما هو كائن.. فكأن قد.

《١٠》 ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: تكريرٌ للوعيد، وبيانٌ لكونه مُترقَّباً، كأنه قال: أعدَّ الله لهم هذا العذابَ، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: فليكن لكم ذلك يا أولي الألباب من المؤمنين لطفاً في تقوى الله، وحذرَ عقابِه، ويجوز أن يرادَ إحصاءُ السيئات واستقصاؤُها عليهم في الدنيا، وإثباتُها في صحائف الحفظةِ وما أُصيبوا به من العذاب في العاجل، وأن يكون ﴿عَتَتْ﴾ وما عُطف عليه صفةً للقرية، و(أعد الله لهم) جواباً لـ﴿وَكَأَيِّن﴾، ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ أي: القرآنَ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٢) وكذا القراءة الآتية.

﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

《١١》 وانتصب ﴿رَسُولًا﴾ بفعل مضمر تقديرُه: أرسلَ رسولاً، أو: هو بدلٌ مِن ﴿ذِكْرًا﴾ كأنه في نفسه ذكرٌ، أو: على تقدير حذف المضاف؛ أي: قد أنزل الله إليكم ذا ذكرٍ رسولاً، أو أريدَ بالذكر الشرفُ، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: ذا شرفٍ ومجدٍ عند الله، وبالرسول: جبريلُ أو محمدٌ عليهما السلام، ﴿يَتْلُوا﴾ أي: الرسولُ أو اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ﴾ اللهُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ليحصل لهم ما هم عليه الساعةَ من الإيمان والعمل الصالح، أو: ليخرج الذين علم أنهم يؤمنون ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: من ظلمات الكفر أو الجهل إلى نور الإيمان أو العلم، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ﴾ وبالنون: مدنيٌّ وشاميٌّ، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وَحَّدَ وجمعَ حملاً على لفظ (مَنْ) ومعناه، ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾: فيه معنى التعجيب والتعظيم لِما رَزَقَ المؤمنين من الثواب.

《١٢》 ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أجمع المفسرون على أن السموات سبعٌ، ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: بالنصب عطفاً على (سبع سموات)، قيل: ما في القرآن آيةٌ تدلُّ على أن الأرضين سبعٌ إلا هذه الآيةَ، وبين كلِّ سماءَين مسيرةُ خمسِ مئةِ عام، وغِلَظُ كلِّ سماء كذلك، والأرضون مثلُ السموات، وقيل: الأرضُ واحدةٌ إلا أن الأقاليم سبعةٌ، ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يَجري أمرُ الله وحكمُه بينهنَّ، وملكُه ينفذُ فيهنَّ، ﴿لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ اللامُ يتعلقُ بـ(خلق)، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ هو تمييزٌ، أو مصدرٌ من غير لفظ الأول؛ أي: قد علم كل شيء علماً.



﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾ ....

سورة التحريم

مدنيةٌ، وهي اثنتا عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ روي: أن رسول الله ﷺ خلا بمارية في يوم عائشة رضي الله عنها، وعلمت بذلك حفصةُ فقال لها: «اكتمي عليَّ وقد حَرَّمْتُ ماريةَ على نفسي، وأُبشرك أن أبا بكر وعمرَ يَملكان بعدي أمرَ أمتي»، فأخبرت به عائشةَ وكانتا متصادقتين[١]، وقيل: خلا بها في يوم حفصةَ فأَرْضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلقها، واعتزل نساءَه، ومكث تسعاً وعشرين ليلةً في بيت مارية، فنزل جبريل عليه السلام وقال: «راجِعْها فإنها صَوّامةٌ قوّامة، وإنها لمن نسائك في الجنة»[٢]، وروي: أنه شرب عسلاً في بيت زينبَ بنتِ جحشٍ، فتواطأتْ عائشةُ وحفصةُ وقالتا له: إنا نَشُمُّ منك ريحَ المَغافير، وكان يكره رسولُ الله ﷺ التَّفَلَ، فحرم العسل[٣]، فمعناه: لِمَ تُحرمُ ما أحل الله لك من ملك اليمين، أو من العسل[٤]، ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾: تفسيرٌ لـ(تحرمُ)، أو حالٌ، أو استئنافٌ، وكان هذا زلةً منه؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ قد غفر لك ما زَلَلْتَ فيه، ﴿رَّحِيمٞ ١﴾ قد رحمك فلم يُؤاخذْك به[٥].

《٢》 ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾: قد قَدَّرَ اللهُ لكم ما تُحلِّلون به أيمانَكم، وهي الكفارة، أو: قد شرع لكم تحليلَها بالكفارة، أو: شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم؛ مِن

---

(١) رواه بنحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١١٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) روى الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه قولَ سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام دون القصة.

(٣) رواه بنحوه البخاري (٤٩١٢) ومسلم (١٤٧٤) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٤) رجح القاضي عياض أن الآية نزلت في قصة العسل، لا في قصة السيدة مارية رضي الله عنها، وذكر أنه لم يأت بقصة مارية طريق صحيح. انظر «إكمال المعلم شرح صحيح مسلم» (٥/ ١٥).

(٥) الإمامُ النسفيُّ تبع الزمخشريَّ في نسبة الزلة إلى سيدنا النبي ﷺ، وقد ردَّ ابنُ المنير ذلك في «الانتصاف» (٦/ ١٥٣) بأن تحريم الحلال على وجهين: الأولُ اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه وهو كاعتقاد ثبوت حكم =

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ ....

قولك: حَلَّلَ فلانٌ في يمينه: إذا استثنى فيها، وذلك أن يقول: إن شاء الله عَقِيْبَها حتى لا يحنث، وتحريمُ الحلال يمينٌ عندنا[1]، وعن مقاتل: أن رسول الله ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية،

وعن الحسن: أنه لم يُكَفِّرْ؛ لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإنما هو تعليم للمؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾: سيدُكم ومتولي أمورِكم، وقيل: (مولاكم): أولى بكم من أنفسكم، فكانت نصيحتُه أنفعَ لكم من نصائحكم أنفسَكم، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحُكم فيشرعُه لكم، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ فيما أحلَّ وحرَّمَ.

«٣» ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ يعني: حفصة ﴿حَدِيثًا﴾: حديثَ ماريةَ، وإمامةَ الشيخين، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾: أَفْشَتْهُ إلى عائشةَ رضي الله عنها، ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾: وأطلعَ النبيَّ ﷺ على إفشائها الحديثَ على لسان جبريل عليها السلام ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾: أَعلَمَ ببعض الحديث، ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ فلم يخبر به تكرماً، قال سفيانُ: ما زال التغافلُ مِن فعلِ الكرام، ﴿عَرَفَ﴾: بالتخفيف: عليٌّ[2]؛ أي: جازى عليه؛ مِن قولك للمسيء: لأعرفن لك ذلك، وقيل: المعرَّفُ: حديثُ الإمامة، والمعرَضُ عنه: حديثُ مارية، وروي: أنه قال لها: «ألم أقل لك اكتمي عليَّ؟» قالت: والذي بعثك بالحقِّ ما ملكت نفسي؛ فرحاً بالكرامة التي خصَّ الله بها أباها، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾: نبأَ النبيُّ حفصةَ بما أفشت من السرِّ إلى عائشة ﴿قَالَتْ﴾ حفصةُ للنبي ﷺ: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بالسرائر، ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ بالضمائر.

«٤» ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: خطابٌ لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات؛ ليكون أبلغ في معاتبتهما، وجوابُ الشرط محذوفٌ، والتقديرُ: إن تتوبا إلى الله.. فهو الواجب، ودلَّ على

= التحليل في الحرام، وهذا محظور يوجب الكفر، فلا يمكن صدوره من المعصوم أصلاً، والثاني: الامتناعُ من الحلال مطلقاً أو مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله، وهذا مباحٌ، ولو كان تركُ المباح غيرَ مباح.. لاستحالت حقيقة الحلال، وما وقع منه صلّى الله تعالى عليه وسلم كان من هذا النوع، وإنما عاتبه الله تعالى عليه رِفقاً به، وتنويهاً بقدره، وإجلالاً لمنصِبه عليه الصلاة والسلام أن يُراعيَ مرضاةَ أزواجِه بما يَشُقُّ عليه، جرياً على ما أَلِفَ مِن لطف الله تعالى به.

(١) انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٣/١٥٦).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٣) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ....

المحذوف: ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾: مالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن الواجب في مُخالصةِ رسول الله ﷺ؛ مِن حُبِّ ما يحبه، وكراهةِ ما يكرهُه، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾: بالتخفيف: كوفيٌّ، وإن تعاونا عليه بما يسوؤُه؛ مِن الإفراط في الغَيرة، وإفشاءِ سِرِّهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾: وليُّه وناصرُه، وزيادةُ (هو) إيذانٌ بأنه يتولى ذلك بذاته، ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ أيضاً وليُّه، ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ومَن صلح من المؤمنين؛ أي: كلُّ مَن آمن وعمل صالحاً، وقيل: مَن برئَ من النفاق، وقيل: الصحابةُ، وقيل: واحدٌ أُريد به الجمعُ، كقولك: لا يفعلُ هذا الصالحُ من الناس؛ تُريدُ الجنس، وقيل: أصلُه: صالحو المؤمنين، فحذفت الواوُ من الخطِّ موافَقةً للفظ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: بعد نُصرةِ الله وجبريلَ وصالحي المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾: فوجٌ مظاهرٌ له فما يَبلغُ تظاهرُ امرأتين على مَن هؤلاء ظُهراؤُه، ولما كانت مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله.. قال: (بعد ذلك) تعظيماً لنصرتهم ومظاهرتهم.

《٥》 ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾: ﴿يُبَدِّلَهُۥ﴾: مدنيٌّ وأبو عمرٍو، فالتشديدُ للكثرة، ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فإن قلت: كيف تكون المبدَلاتُ خيراً منهنَّ، ولم يكن على وجه الأرض نساءٌ خيرٌ من أمهاتِ المؤمنين قلت: إذا طلقَهنَّ رسولُ الله ﷺ؛ لإيذائهن إياه.. لم يَبقين على تلك الصفة، وكان غيرُهنَّ من الموصوفات بهذه الأوصافِ خيراً منهن ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾: مُقِرّاتٍ مخلصاتٍ، ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: مُطيعات، فالقنوتُ هو: القيامُ بطاعة الله، وطاعةُ الله في طاعةِ رسولِه، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ من الذنوب، أو: راجعاتٍ إلى الله وإلى أمرِ رسولِه، ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ لله، ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: مهاجراتٍ، أو: صائمات، وقيل للصائم: سائحٌ؛ لأن السائح لا زادَ معه، فلا يزالُ ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمُه، فشبه به الصائمُ في إمساكه إلى أن يجيءَ وقتُ إفطاره، ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ إنما وُسِّط العاطفُ بين الثيبات والأبكار دون سائر الصفات؛ لأنهما صفتان متنافيتان، بخلاف سائر الصفات.

《٦》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعلِ الطاعاتِ، ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾: نوعاً من النار لا تتقدُ إلا بالناس والحجارة، كما يتقدُ غيرُها من النيران بالحطب، ﴿عَلَيْهَا﴾: يلي أمرَها وتعذيبَ أهلِها ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ يعني: الزبانيةَ التسعةَ عشرَ وأعوانَهم، ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ في أجرامهم غلظةٌ وشدةٌ، أو غلاظ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ ....

الأقوالِ شِدادُ الأفعالِ، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ﴾: في موضع الرفع على النعت، ﴿مَآ أَمَرَهُمۡ﴾: في محلّ النصب على البدل؛ أي: لا يعصون ما أمر الله؛ أي: أمرَه، كقوله: ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٣]، أو: لا يعصونه فيما أمرهم، ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ وليست الجملتان في معنى واحدٍ؛ إذْ معنى الأُولى: أنهم يتقبلون أوامرَه ويلتزمونَها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدُّون ما يؤمرون به، ولا يتثاقلون عنه، ولا يتوانَون فيه.

«٧» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧﴾ في الدنيا؛ أي: يُقال لهم ذلك عند دخولهم النارَ، لا تعتذروا؛ لأنه لا عذرَ لكم، أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.

«٨» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾: صادقةً، عن الأخفش رحمه الله، وقيل: خالصة؛ يقال: عسلٌ ناصحٌ: إذا خَلُصَ من الشمع، وقيل: نصوحاً مِن نصاحة الثوب؛ أي: توبةً ترفُوا خروقَك في دينك، وتَرُمُّ خللَك، ويجوز أن يرادَ: توبةً تنصحُ الناسَ؛ أي: تدعوهم إلى مثلِها لظهور أثرِها في صاحبِها، واستعمالِه الجِدَّ والعزيمةَ في العمل على مقتضياتها، وبضم النون: حمادٌ ويحيى، وهو مصدرٌ؛ أي: ذاتُ نُصوح؛ أي تنصح نُصوحاً، وجاء مرفوعاً: «إن التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب إلى أن يعود اللبن في الضَّرع»[1]، وعن حذيفة: بِحَسْبِ الرجلِ من الشر أن يتوبَ عن الذنب ثم يعودَ فيه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي الاستغفارُ باللسان، والندمُ بالجَنان، والإقلاع بالأركان، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾: هذا على ما جرت به عادة الملوك من الإجابةِ بـ: عسى ولعلَّ، ووقوعِ ذلك منهم موقعَ القطعِ والبتِّ، ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ونُصِبَ ﴿يَوۡمَ﴾ بـ(يدخلكم)، ﴿لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾: فيه تعريضٌ بِمَنْ أخزاهم الله من أهل الكفر، ﴿نُورُهُمۡ﴾: مبتدأٌ ﴿يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: في موضع الخبر، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ يقولون ذلك إذا انطفأ نورُ المنافقين، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾.

---

(١) روى عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٣٢٤) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً: التوبة النصوح: أن يجتنب الرجل عمل السوء كان يعمله، فيتوب إلى الله فلا يعود إليه أبداً، فتلك التوبة النصوح

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

«٩» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالقول الغليظِ، والوعد البليغ، وقيل: بإقامة الحدود عليهم، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾: على الفريقين فيما تجاهدُهما به من القتال والمحاجَّةِ باللسان، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

«١٠» ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ مَثَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ حالَ الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباةٍ، ولا ينفعُهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم مِن النَّسب والمصاهرة، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيّاً.. بحال امرأة نوح وامرأة لوط لَمّا نافقتا وخانتا الرسولين بإفشاء أسرارِهما.. لم يُغْنِ الرسولان عنهما؛ أي: عن المرأتين بِحَقِّ ما بينهما من الزواج إغناءً ما من عذاب الله، وقيل لهما عند موتهما، أو يومَ القيامةِ: ادخُلا النار مع سائر الداخلين الذين لا وُصلةَ بينهم وبين الأنبياء، أو: مع داخليْها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط.

«١١» ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ هي: آسيةُ بنتُ مُزاحم، آمنت بموسى فعذبها فرعونُ بالأوتاد الأربعة، ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وهي تُعذَّبُ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ فكأنها أرادت الدرجةَ العالية؛ لأنه تعالى مُنزه عن المكان، فعبَّرت عنها بقولها: (عندك)، ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: من عملِ فرعون، أو: مِن نفس فرعونَ الخبيثةِ، وخصوصاً من عمله وهو الكفرُ والظلمُ والتعذيبُ بغير جُرمٍ، ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾: مِن القِبطِ كلِّهم. وفيه دليلٌ على أن الاستعاذةَ بالله والالتجاءَ إليه ومسألةَ الخلاصِ عند المِحَنِ والنوازلِ مِن سيرِ الصالحين.

«١٢» ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال، ﴿فَنَفَخْنَا﴾: فنفخ جبريلُ بأمرنا ﴿فِيهِ﴾: في الفرج ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ المخلوقةِ لنا ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي: بصحفِه التي أنزلها

....

على إدريسَ وغيرِه، ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾: بصريٌّ وحفصٌ[١]؛ يعني: الكتبَ الأربعةَ، ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ لما كان القنوتُ صفةً تشملُ مَن قَنَتَ من القبيلين.. غُلب ذكورُه على إناثه، و(من) للتبعيض، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية؛ على أنها وُلدت من القانتين؛ لأنها من أعقاب هارونَ أخي موسى عليهما السلام، ومَثَّلَ حالَ المؤمنين في أن وُصلة الكافرين لا تضرُّهم، ولا تُنقص شيئاً من ثوابهم وزُلفاهم عند الله.. بحال امرأة فرعون ومنزلتِها عند الله، مع كونِها زوجةَ أعدى أعداءِ الله، ومريمَ ابنةِ عمرانَ وما أُوتيت من كرامة الدنيا والآخرةِ والاصطفاءِ على نساء العالمين، مع أن قومها كانوا كفاراً، وفي طَيِّ هذين التمثيلين تعريضٌ بِأُمَّي المؤمنين المذكورتين في أول السورةِ، وما فَرَطَ منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرههُ، وتحذيرٌ لهما على أغلظِ وجهٍ، وإشارةٌ إلى أن من حقِّهما أن يكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين، وألا يَتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ.



---

(١) وقرأ الباقون: ﴿وكِتابه﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٣).

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ ....

سورة الملك

مكيةٌ، وهي ثلاثون آيةً.

وتُسمَّى الواقيةَ والمنجيةَ؛ لأنها تقي قارئَها من عذاب القبر، وجاء مرفوعاً: «من قرأها في ليلة.. فقد أكثرَ وأطيبَ»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿تَبَٰرَكَ﴾: تعالى وتعاظمَ عن صفات المخلوقين، ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: بتصرفه الملكُ والاستيلاءُ على كل موجود، وهو مالك الملك يؤتيه من يشاءُ، وينزعُه ممن يشاءُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من المقدورات، أو: مِن الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ ۝١﴾: قادرٌ على الكمال.

《٢》 ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوف، أو: بدلٌ من (الذي) قبلَه، ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: ما يصحُّ بوجوده الإحساسُ، والموتُ: ضدُّه؛ ومعنى خلقِ الموتِ والحياةِ: إيجادُ ذلك المصحِّحِ وإعدامُه؛ والمعنى: خلق موتَكم وحياتَكم أيُّها المكلفون، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: ليمتحنَكم بأمره ونهيه فيما بين الموتِ الذي يَعُمُّ الأميرَ والأسيرَ، والحياةِ التي لا تَفي بعليلٍ ولا طبيبٍ، فيُظْهِرَ منكم ما علم أنه يكون منكم، فيجازيَكم على عملِكم، لا على علمِه بكم، ﴿أَيُّكُمْ﴾: مبتدأٌ، وخبرُه: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصُه وأصوبُه، فالخالصُ: أن يكون لوجه الله، والصوابُ: أن يكون على السنة؛ والمرادُ: أنه أعطاكم الحياةَ التي تَقدِرون بها على العمل، وسلط عليكم الموتَ الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح، فما وراءَه إلا البعثُ والجزاءُ الذي لا بدَّ منه، وقدم الموت على الحياة؛ لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل مَن نصبَ موتَه بين عينيه، فَقُدِّمَ؛ لأنه فيما يرجع إلى المسوقِ له الآيةُ أهمُّ، ولَمّا قدمَ الموتَ الذي هو أثرُ صفةِ القهرِ على الحياةِ التي هي أثر اللطف.. قَدَّمَ صفةَ القهر على صفة اللطف بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالبُ الذي لا يُعجزه من أساء العمل، ﴿ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾: السَّتُوْرُ الذي لا ييئس منه أهلَ الإساءة والزلل.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ٣٧٩) موقوفاً من قول سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ ....

《٣》 ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾: مُطابَقَةً بعضُها فوق بعض؛ مِن: طابَقَ النعلَ: إذا خَصفَها طَبقاً على طَبَقٍ، وهذا وصفٌ بالمصدر، أو: على ذاتِ طِباقٍ، أو: على طُوبِقتْ طباقاً، وقيل: جمعُ طَبَقٍ، كجَمَلٍ وجِمال، والخطابُ في ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: للرسول، أو لكلِّ مُخاطبٍ، ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ ﴿تفوت﴾: حمزةُ وعليٌّ[1]؛ ومعنى البناءين واحدٌ، كالتعاهد والتعهد؛ أي: مِن اختلافٍ واضطرابٍ، وعن السُّدِّيِّ: مِن عيبٍ، وحقيقةُ التفاوت: عدمُ التناسب، كأنَّ بعضَ الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمُه، وهذه الجملةُ صفةٌ لـ(طباقاً)، وأصلُها: ما ترى فيهنَّ من تفاوت، فوضع (خلق الرحمن) موضعَ الضمير؛ تعظيماً لخلقهن، وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنه خلقُ الرحمن، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلُقُ مثلَ ذلك الخلقِ المتناسِبِ، ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾: رُدَّهُ إلى السماء حتى يصحَّ عندك ما أُخبرتَ به بالمعاينة، فلا تبقى معك شبهةٌ فيه، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾: صدوع وشقوق، جمعُ فَطْرٍ، وهو الشَّقُّ.

《٤》 ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾: كَرِّرِ النظرَ مرتين؛ أي: كرتين مع الأُولى، وقيل: سِوى الأولى، فتكون ثلاثَ مرات، وقيل: لم يُرِدِ الاقتصارَ على مرتين، بل أراد به التكريرَ بكثرةٍ؛ أي: كرِّرْ نظرَكَ ودَقِّقْه، هل ترى خَللاً أو عيباً، وجوابُ الأمر: ﴿يَنقَلِبْ﴾: يرجعْ ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾: ذليلاً، أو بعيداً مما تريدُ، وهو حالٌ من (البصر)، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾: كليل مُعْيٍ، ولم يَرَ فيها خَللاً.

《٥》 ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾: القُربى؛ أي: السماءَ الدنيا منكم، ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: بكواكبَ مضيئةٍ كإضاءة الصبح، والمصابيحُ: السُّرُجُ، فسُمِّيَتْ بها الكواكبُ، والناسُ يزينون مساجدَهم ودُورَهم بإيقادِ المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقفَ الدارِ التي اجتمعتم فيها بمصابيحَ؛ أي: بأيِّ مصابيحَ، لا توازيها مصابيحُكم إضاءةً، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: لأعدائكم الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات، قال قتادة: خلق الله النجومَ لثلاثٍ: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها، فمن تأوَّلَ فيها غير ذلك.. فقد تَكلَّفَ ما لا علمَ له به، والرجومُ: جمعُ رَجْمٍ، وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يُرجمُ به، ومعنى كونِها رجوماً للشياطين: أن

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٤) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ....

ينفصل عنها شهابٌ كقبسٍ يؤخذُ من نار فيقتلُ الجنيَّ أو يَخبِلُه؛ لأن الكواكب لا تزول عن أماكنها؛ لأنها قارَّةٌ في الفَلَكِ على حالها، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾: للشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا.

《٦》 ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾: ولكلِّ مَن كفر بالله من الشياطين وغيرِهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾: المرجعُ جهنمُ.

《٧》 ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾: طُرحوا في جهنم كما يُطرحُ الحطبُ في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾: لجهنم ﴿شَهِيقًا﴾: صوتاً منكراً كصوت الحمير، شُبِّهَ حسيسُها المنكرُ الفظيعُ بالشهيق، ﴿وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾: تَغلي بهم غَلَيانَ المِرْجلِ بما فيه.

《٨》 ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تتميز؛ يعني: تتقطعُ وتتفرقُ ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ على الكفار، فجُعلت كالمغتاظة عليهم استعارةً لشدة غليانِها بهم، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾: جماعةٌ من الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾: مالكٌ وأعوانُه من الزبانية توبيخاً لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾: رسولٌ يخوِّفُكم من هذا العذاب.

《٩》 ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾: اعترافٌ منهم بعدل الله، وإقرارٌ بأنه تعالى أزاح عِلَلَهم ببعثِ الرسل، وإنذارِهم ما وقعوا فيه، ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ أي: فكذبناهم ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ مما تقولون من وعد ووعيد وغيرِ ذلك، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ أي: قال الكفار للمنذِرين: ما أنتم إلا في خطأ عظيم، فالنذيرُ بمعنى الإنذار، ثم وُصِفَ به مُنْذِرُوهم لغلوهم في الإنذار، كأنهم ليسوا إلا إنذاراً، وجاز أن يكون هذا كلامَ الخزنة للكفار على إرادة القول، ومرادُهم بالضلال: الهلاكُ، أو: سَمَّوا جزاء الضلال باسمه، كما سُمِّيَ جزاءُ السيئة والاعتداء سيئةً واعتداءً، ويسمَّى المشاكلةَ في علم البيان، أو: كلامَ الرسلِ لهم، حَكَوه للخزنة؛ أي: قالوا لنا هذا فلم نقبلْه.

《١٠》 ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ الإنذارَ سماعَ طالب الحقِّ، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي: نعقلُه عقل متأمل ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾: في جملة أهل النار، وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان.

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ ....

《١١》 ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾: بكفرهم في تكذيبهم الرسلَ، ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ وبضم الحاء: يزيدُ وعليٌّ، أي: فبعداً لهم عن رحمة الله وكرامته، اعترفُوا أو جحدُوا؛ فإن ذلك لا ينفعُهم، وانتصابُه على أنه مصدرٌ وقع موقع الدعاء.

《١٢》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قبلَ معاينة العذاب، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ للذنوب، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢﴾ أي: الجنةُ.

《١٣》 ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ ظاهرُه الأمرُ بأحد الأمرين: الإسرارِ والإجهارِ؛ ومعناه: لِيَسْتَوِ عندكم إسرارُكم وإجهارُكم في علم الله بهما، روي: أن مشركي مكة كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريلُ بما قالوه فيه ونالوه منه، فقالوا فيما بينهم: أَسِرُّوا قولكم لئلا يسمعَ إلهُ محمد، فنزلت، ثم علله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ أي: بضمائرها قبل أن تترجمَ الألسنةُ عنها، فكيف لا يعلم ما تُكُلِّمَ به!

《١٤》 ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾: في موضع رفعٍ بأنه فاعلُ (يعلم) ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ أنكر ألا يحيطَ علماً بالمضمَرِ والمسرِّ والمجهَرِ مَن خَلَقَها، وصفتُه: أنه اللطيف؛ أي: العالم بدقائق الأشياء، الخبير: العالمُ بحقائقِ الأشياءِ، وفيه إثباتُ خلق الأقوال، فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد، وقال أبو بكر بنُ الأصمِّ وجعفرُ بن حربٍ: (مَن): مفعولٌ، والفاعلُ مضمرٌ، وهو الله تعالى، فاحتالا بهذا لِنَفْيِ خلقِ الأفعالِ.

《١٥》 ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾: لينةً سهلةً مذللةً، لا تَمنع المشيَ فيها، ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾: جوانبِها استدلالاً واسترزاقاً، أو: جبالِها، أو: طرقِها، ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ أي: من رزق الله فيها، ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ أي: وإليه نُشوركم، فهو سائلُكم عن شكرِ ما أنعم به عليكم.

《١٦》 ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَن ملكوتُه في السماء؛ لأنها مسكن ملائكته، ومنها تنزلُ قضاياه وكتبُه وأوامرُه ونواهيه، فكأنه قال: أأمنتم خالقَ السماءِ ومُلْكِهِ، ولأنهم كانوا يعتقدون التشبيهَ، وأنه في السماء، وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه، فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أأمنتم من تزعُمون أنه في السماء وهو متعالٍ عن المكان ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كما خَسف بقارونَ، ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾: تضطرب وتتحرك.

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ....

《١٧》 ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾: حجارةً، (أن يرسل): بدلٌ مِن (مَن) بدلَ الاشتمال، وكذا ﴿أَن يَخْسِفَ﴾، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ أي: إذا رأيتم المنذَرَ به.. علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعُكم العلمُ.

《١٨》 ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: مِن قبلِ قومِك، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ أي: إنكاري عليهم إذا أهلكتهم، ثم نبه على قدرته على الخسف وإرسالِ الحاصبِ بقوله:

《١٩》 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾: جمعُ طائرٍ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء، ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: باسطاتٍ أجنحتَهن في الجوِّ عند طيرانهن، ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾: ويضمُمْنها إذا ضربنَ بها جُنُوبَهن، و(يقبضن): معطوفٌ على اسم الفاعل حملاً على المعنى؛ أي: يَصفُفْنَ ويقبضنَ، أو: صافاتٍ وقابضاتٍ، واختيارُ هذا التركيب باعتبار أن أصل الطيران هو صفُّ الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والهواءُ للطائر كالماء للسابح، والأصلُ في السباحة مدُّ الأطراف وبسطُها، وأما القبضُ.. فطارئٌ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئٌ بلفظ الفعل؛ على معنى أنهن صافاتٌ ويكونُ منهن القبضُ تارة بعد تارة، كما يكون من السابح، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عن الوقوع عند القبض والبسط ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ بقدرته، وإلا.. فالثقيلُ يتسفَّلُ طبعاً ولا يعلو، وكذا لو أمسك حفظَه وتدبيرَه عن العالم.. لتهافتت الأفلاك، و(ما يمسكهن): مستأنفٌ، وإن جعل حالاً من الضمير في (يقبضن) يجوزُ، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾: يعلم كيف يخلقُ وكيف يدبرُ العجائبَ.

《٢٠》 ﴿أَمَّنْ﴾: مبتدأٌ خبرُه: ﴿هَٰذَا﴾ ويبدلُ مِن (هذا): ﴿ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ ومحلُّ ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾: رفعٌ نعتٌ لِ(جند) محمولٌ على اللفظ؛ والمعنى: مَن المشارُ إليه بالنصر غيرُ الله تعالى؟ ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ما هم إلا في غرور.

《٢١》 ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ﴾: أمْ مَن يشارُ إليه ويقالُ: هذا الذي يرزقكم إن أمسك الله رزقه؟ وهذا على التقدير، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان؛ لاعتقادهم أنهم يُحفظون من النوائب، ويُرزقون ببركة آلهتهم، فكأنه الجندُ الناصرُ والرازقُ، فلما لم يتعظوا..

أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ....

أضربَ عنهم فقال: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾: تمادَوا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾: استكبارٍ عن الحقِّ، ﴿وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾: وشِرادٍ عنه؛ لثقله عليهم، فلم يتبعوه، ثم ضربَ مثلاً للكافرين والمؤمنين فقال:

《٢٢》 ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ أي: ساقطاً على وجهه يعثرُ كلَّ ساعة ويمشي معتسفاً، وخبرُ (مَن): ﴿أَهْدَىٰٓ﴾: أرشدُ، وأكَبَّ: مُطاوعُ كَبَّهُ؛ يقال: كببتُه فأكبَّ، ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾: مُستوياً منتصباً سالماً من العثور والخُرور، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾: على طريق مُسْتوٍ، وخبرُ (مَن) محذوفٌ؛ لدلالة (أهدى) عليه، وعن الكلبي: عُنِيَ بالمُكبِّ أبو جهل، وبالسويِّ النبيُّ عليه السلام.

《٢٣》 ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ﴾: خلقكم ابتداءً، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: خَصَّها لأنها آلاتُ العلم، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ هذه النعم؛ لأنكم تُشركون بالله، ولا تُخلصون له العبادة؛ والمعنى: تشكرون شكراً قليلاً، و(ما): زائدةٌ، وقيل: القلةُ: عبارةٌ عن العدم.

《٢٤》 ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾: خلقكم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ للحساب والجزاء.

《٢٥》 ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكافرون للمؤمنين استهزاءً: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ التي تعدوننا به؛ يعني: العذابَ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ في كونه. فأَعْلِمونا زمانَه.

《٢٦》 ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي: علمُ وقتِ العذابِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾: مُخَوِّفٌ، ﴿مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾: أبين لكم الشرائع.

《٢٧》 ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: الوعدَ؛ يعني: العذاب الموعود ﴿زُلْفَةً﴾: قريباً منهم، وانتصابُها على الحال ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ساءت رؤيةُ الوعد وجوهَهم؛ بأن علَتْها الكآبةُ والمساءةُ، وغشيتْها القَتَرةُ والسوادُ، ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي﴾ القائلون الزبانيةُ ﴿كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (تفتعلون) من الدعاء؛ أي: تسألون تعجيلَه وتقولون: ائتنا بما تعدُنا، أو: هو من الدعوى؛ أي: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تُبعثون، وقرأ يعقوبُ: ﴿تَدْعُونَ﴾.

《٢٨》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: أماتني اللهُ، كقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ مِن أصحابي، ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾: أو أخَّرَ في آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾: يُنجي ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾: مُؤلم، كان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأُمِرَ بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين: إما أن نَهلكَ كما تتمنون فنُقلبَ إلى الجنة، أو نُرحم بالنصرة عليكم كما نرجو، فأنتم ما تصنعون؟ مَن يُجيركم وأنتم كافرون من عذاب النار لا بُدَّ لكم منه؟

《٢٩》 ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: الذي أدعوكم إليه الرحمنُ، ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: صدَّقنا به ولم نكفر به كما كفرتم، ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾: فَوَّضْنا إليه أمورَنا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب، وبالياء: عليٌّ، ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ نحن أم أنتم.

《٣٠》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾: غائراً ذاهباً في الأرض لا تنالُه الدلاءُ، وهو وصفٌ بالمصدر، كعدل بمعنى: عادل، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾: جارٍ يصل إليه مَن أراده، وتُليت عند ملحد فقال: يأتي بالمِعْوَلِ والمُعين، فذهب ماءُ عينه في تلك الليلة وعمي، وقيل: إنه محمد ابن زكريا المتطبب، زادنا الله بصيرة.



﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥﴾ ....

سورة ن

مكيةٌ، وهي اثنتان وخمسون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿نٓۚ﴾ الظاهرُ أن المراد به هذا الحرفُ من حروف المعجم، وأما قولُ الحسن: إنه الدَّواةُ، وقولُ ابن عباس: إنه الحوت الذي عليه الأرض واسمُه يهموتُ.. فمشكلٌ؛ لأنه لا بدَّ له من الإعراب، سواءٌ كان اسم جنس أو اسم علم، فالسكونُ دليلٌ على أنه من حروف المعجم، ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ أي: ما كتب به اللوح، أو: قلمِ الملائكة، أو: الذي يكتب به الناسُ، أقسم به لما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيطُ بها الوصفُ، ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ أي: ما يسطره الحفظةُ، أو: ما يكتب به من الخير مَن كَتَبَ، و(ما): موصولةٌ، أو مصدريةٌ، وجوابُ القسم:

《٢》 ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامه عليك بالنبوة وغيرِها، فـ(أنت): اسمُ (ما)، وخبرُها: ﴿بِمَجۡنُونٖ ٢﴾، و(بنعمة ربك): اعتراضٌ بين الاسم والخبر، والباءُ في (بنعمة ربك) تتعلق بمحذوف، ومحلُّه النصبُ على الحال، والعاملُ فيها (بمجنون)، وتقديرُه: ما أنت بمجنون منعَماً عليك بذلك، ولم تَمنع الباءُ أن يعمل (مجنون) فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي، وهو جواب قولهم: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦].

《٣》 ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على احتمال ذلك والصبرِ عليه ﴿لَأَجۡرًا﴾: لثواباً ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣﴾: غير مقطوع، أو: غيرَ ممنونٍ عليك به.

《٤》 ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ قيل: هو ما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن[١] أي: ما فيه من مكارم الأخلاق، وإنما استعظم خلقَه؛ لأنه جاد بالكونين وتوكل على خالقهما.

《٥》 ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥﴾ أي: عن قريب ترى ويَرون، وهذا وعدٌ له ووعيدٌ لهم.

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ⑥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ⑦ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ⑧ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ⑨ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ⑩ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ⑪ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ⑬﴾ ....

《٦》 ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ⑥﴾: المجنونُ؛ لأنه فُتن؛ أي: مُحن بالجنون، والباءُ مزيدة، أو: المفتونُ: مصدرٌ، كالمعقول؛ أي: بأيكم الجنونُ، وقال الزجاج: الباءُ بمعنى في؛ تقول: كنتُ ببلد كذا؛ أي: في بلدِ كذا، وتقديرُه: في أيكم المفتونُ؛ أي: في أيِّ الفريقين منكم المجنون، فريقُ الإسلام، أو فريقُ الكفر.

《٧》 ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: هو أعلم بالمجانين على الحقيقة، وهم الذين ضلُّوا عن سبيله، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ⑦﴾ أي: هو أعلم بالعقلاء، وهم المهتدون.

《٨》 ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ⑧﴾: تهييجٌ للتصميم على معاصاتِهم، وقد أرادوه على أن يعبد الله مدةً، وآلهتَهم مدةً، ويكفُّوا عنه غوائلهم.

《٩》 ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾: لو تَلين لهم ﴿فَيُدْهِنُونَ ⑨﴾: فَيَلِيْنُونَ لك، ولم يُنصب بإضمارِ أَنْ، وهو جوابُ التمني؛ لأنه عُدل به إلى طريق آخر، وهو أن جُعل خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: فهم يدهنون؛ أي: فهم الآن يدهنون لِطمعهم في إدهانك.

《١٠》 ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثيرِ الحلفِ في الحقِّ والباطل، وكفى به مزجرةً لمن اعتاد الحلف، ﴿مَّهِينٍ ⑩﴾: حقيرٍ في الرأي والتمييز؛ مِن المهانة، وهي القلةُ والحقارةُ، أو: كذابٍ؛ لأنه حقير عند الناس.

《١١》 ﴿هَمَّازٍ﴾: عيّابٍ طعّانٍ مُغتابٍ، ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ⑪﴾: نَقّالٍ للحديث من قوم إلى قوم على وجه السِّعايةِ والإفساد بينهم، والنميم والنميمة: السعاية.

《١٢》 ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: بخيلٍ، والخيرُ: المالُ، أو: مناعٍ أهلَه من الخير وهو الإسلام، والمرادُ: الوليدُ بنُ المغيرةِ عند الجمهور، وكان يقول لبنيه العشرة: مَن أسلم منكم.. منعتُه رِفدي، ﴿مُعْتَدٍ﴾: مُجاوزٍ في الظلم حدَّه، ﴿أَثِيمٍ ⑫﴾: كثيرِ الآثام.

《١٣》 ﴿عُتُلٍّ﴾: غليظٍ جافٍ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: بعد ما عُدَّ له من المثالب ﴿زَنِيمٍ ⑬﴾: دَعِيٍّ، وكان الوليد دَعِياً في قريش ليس من سِنْخِهم[1]، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرةَ سنةً من

(١) السِّنْخ: الأصل.

أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ....

مولده، وقيل: بَغَتْ أمُّه ولم يَعْرِفْ حتى نزلت هذه الآية، والنطفةُ إذا خَبُثَتْ. . خبث الناشئُ منها، روي: أنه دخل على أمه وقال: إن محمداً وصفني بعشر صفات، وجدتُ تسعاً فيَّ، فأما الزنيمُ. . فلا علم لي به، فإن أخبرتِني بحقيقته، وإلا. . ضربتُ عنقَكِ، فقالت: إن أباك عِنِّينٌ، وخِفتُ أن يموت فيصلَ مالُه إلى غير ولده، فدعوتُ راعياً إلى نفسي، فأنتَ مِن ذلك الراعي.

﴿١٤﴾ ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾: متعلقٌ بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ أي: ولا تُطعْه مع هذه المثالبِ؛ لأنْ كان ذا مال؛ أي: ليساره وحظه من الدنيا، ويجوز أن يتعلق بما بعده؛ أي: لأن كان ذا مال ﴿وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ كذَّبَ بآياتنا، يدلُّ عليه:

﴿١٥﴾ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآنُ ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ ولا يعملُ فيه (قال) لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبلَه، ﴿أأن﴾: حمزةُ وأبو بكرٍ؛ أي: أَلِأَنْ كان ذا مالٍ كذبَ؟ ﴿أأن﴾: شاميٌّ ويزيدُ ويعقوبُ وسهلٌ[1]، قالوا: لمّا عاب الوليدُ النبي ﷺ كاذباً باسمٍ واحدٍ، وهو المجنونُ. . سمّاه الله تعالى بعشرة أسماء صادقاً، فإن كان من عدله أن يَجزي المسيء إلى رسول الله ﷺ بعشرة. . كان من فضله أن مَن صلى عليه واحدةً. . صلى الله عليه بها عشراً.

﴿١٦﴾ ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: سَنَكْويه ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾: على أنفه إهانةً له وعَلَماً يُعرَفُ به، وتخصيصُ الأنف بالذكر لأن الوَسْمَ عليه أبشعُ، وقيل: خُطِمَ بالسيف يوم بدر فبقيتْ سِمَةً على خُرطُومِه.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾: امتحنّا أهل مكة بالقحط والجوع حتى أكلوا الجِيَفَ والرِّمَمَ بدعاء النبي ﷺ حيث قال: «اللهم اشددْ وَطْأَتَكَ على مضرَ، واجعلها سنين كسني يوسف»[2]، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: هم قومٌ من أهل الصَّلاةِ[3]، كانت لأبيهم هذه الجنةُ بقرية يُقال لها: ذروان، وكانت على فرسخين من صنعاءَ، وكان يأخذ منها قوتَ سنته ويتصدق بالباقي على الفقراء، فلمّا

---

(١) قرأ الشامي وشعبة وحمزة وأبو جعفر ويعقوب: بهمزتين مفتوحتين على الاستفهام، لكنْ أبو جعفر وهشام: بالتسهيل والإدخال، ورويسٌ وابنُ ذكوان: بالتسهيل من غير إدخال، وشعبةُ وحمزةُ وروح: بالتحقيق من غير إدخال، وقرأ الباقون: بهمزة واحدة مفتوحة على الخبر. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٥).

(٢) رواه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في بعض النسخ المطبوعة (الصِّلاتِ).

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ....

مات.. قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا.. ضاق علينا الأمرُ، ونحن أولو عيال، فحلفوا ليصرِمُنَّها مصبحين في السَّدَفِ خفيةً عن المساكين، ولم يستثنوا في يمينهم، فأحرق الله جنتَهم، وقال الحسن: كانوا كفاراً، والجمهورُ على الأول، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾: حلفُوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾: ليقطعنَّ ثمرَها ﴿مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾: داخلين في الصبح قبل انتشار الفقراء، حالٌ مِن فاعل (ليصرمنها).

《١٨》 ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾: ولا يقولون: إن شاء الله، وسُمِّي استثناءً وإن كان شرطاً صورة لأنه مؤدَّى الاستثناء؛ مِن حيث إن معنى قولك: لأخرجن إن شاء الله، ولا أخرج إلا أن يشاء اللهُ.. واحدٌ.

《١٩》 ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾: نزل عليها بلاءٌ، قيل: أنزل الله تعالى عليها ناراً فأحرقتْها ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: في حالِ نومِهم.

《٢٠》 ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ فصارت الجنةُ ﴿كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾: كالليل المظلم؛ أي: احترقت فاسودَّتْ، أو كالصبح؛ أي: صارت أرضاً بيضاءَ بلا شجرٍ، وقيل: كالمصْرُومة؛ أي: كأنها صُرمت لهلاك ثمرها.

《٢١ - ٢٢》 ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾: نادى بعضُهم بعضاً عند الصباح: ﴿أَنِ اغْدُوا﴾: باكروا ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ ولم يقل: إلى حرثكم؛ لأن الغُدُوَّ إليه ليصرمُوه كان غُدُوّاً عليه[1]، أو: ضُمِّنَ الغُدُوُّ معنى الإقبال؛ أي: فأقبِلُوا على حرثكم باكرين ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾: مُريدين صِرامَه.

《٢٣》 ﴿فَانطَلَقُوا﴾: ذهبوا ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾: يتسارُّون فيما بينهم لئلا يسمعَ المساكينُ.

《٢٤》 ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ أي: الجنةَ، و(أنْ): مفسرةٌ، وقرئ بِطرحِها بإضمار القول؛ أي: يتخافتون يقولون: لا يدخلنَّها ﴿الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ والنهيُ عن دخول المساكين نهيٌ عن التمكين؛ أي: لا تُمكنوه من الدخول.

《٢٥》 ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: على جِدٍّ في المنع ﴿قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ عند أنفسهم على المنع، كذا عن نِفطويه، أو الحردُ: القصدُ والسرعةُ؛ أي: وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة، قادرين عند

---

(١) أي: أنَّ (اغدوا) ضُمِّنَ معنى استولوا.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ....

أنفسهم على صِرامها وَزَيِّ منفعتِها عن المساكين، أو: هو عَلَمٌ للجنة؛ أي: غدَوا على تلك الجنة قادرين على صرامِها عند أنفسهم.

《٢٦》 ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: جنتَهم محترقةً ﴿قَالُوٓاْ﴾ في بديهةِ وُصولِهم: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ضللنا جنتَنا، وما هي بها؛ لِما رأوا مِن هلاكها، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي.. قالوا:

《٢٧》 ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾: حُرِمْنا خيرَها لِجنايتنا على أنفسنا.

《٢٨ - ٢٩》 ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾: أعدلُهم وخيرُهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾: هلا تَستثنون؛ إذ الاستثناءُ تسبيحٌ؛ لالتقائهما في معنى التعظيم لله؛ لأن الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له، وكلٌّ واحد من التفويض والتنزيه تعظيمٌ، أو: لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبثِ نيتِكم، كأن أوسطَهم قال لهم حين عزمُوا على ذلك: اذكروا الله وانتقامَه من المجرمين، وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة، فعصَوه فعيَّرَهم، ولهذا ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فتكلموا بعد خراب البصرة بما كان يدعوهم إلى التكلم به أوّلاً[1]، وأقرُّوا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف وترك الاستثناء، ونزهوه عن أن يكون ظالماً.

《٣٠》 ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾: يلومُ بعضُهم بعضاً بما فعلوا من الهرب من المساكين، ويُحيل كلُّ واحد منهم اللائمةَ على الآخر، ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزُوا الحدَّ بقوله:

《٣١》 ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ بمنع حقِّ الفقراء وترك الاستثناء.

《٣٢》 ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ وبالتشديد: مدنيٌّ وأبو عمرو[2]، ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ﴾: من هذه الجنة، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾: طالبون منه الخير، راجُون لِعفوه، عن مجاهد: تابوا فأُبدلوا خيراً منها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغني أنهم أخلصوا فأبدلهم بها جنةً تُسمَّى الحيوانَ، فيها عنبٌ يحمل البغلُ منه عُنقوداً.

---

(١) يقال في المثل: فعل كذا بعد خراب البصرة، لمن أراد التدارك بعد فوات الأوان.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٥).

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ....

《٣٣》 ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: مثلُ ذلك العذابِ الذي ذكرنا عذابُ الدنيا لمن سلك سبيلَهم، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾: أعظمُ منه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لَما فعلوا ما يُفضِي إلى هذا العذاب، ثم ذكر ما عنده للمؤمنين فقال:

《٣٤》 ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾: جناتٍ ليس فيها إلا التنعمُ الخالصُ، بخلاف جنات الدنيا.

《٣٥》 ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾: استفهامُ إنكارٍ على قولهم: لو كان ما يقول محمد حقّاً.. فنحن نُعطَى في الآخرة خيراً مما يُعطَى هو ومن معه كما في الدنيا، فقيل لهم: أَنحيفُ في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين؟ ثم قيل لهم على طريقة الالتفات:

《٣٦》 ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هذا الحكمَ الأعوجَ، وهو التسويةُ بين المطيع والعاصي، كأن أمرَ الجزاء مفوضٌ إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم.

《٣٧》 ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ من السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾: تقرؤون في ذلك الكتاب:

《٣٨》 ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: إن ما تختارونه وتشتهونه لكم، والأصل: تدرسون أن لكم ما تخيَّرون، بفتح (أنَّ) لانه مدروسٌ؛ لوقوع الدَّرس عليه، وإنما كسرت لمجيءِ اللام، ويجوز أن يكون حكاية للمدرس كما هو، كقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٨، ٧٩]، وتخيرَ الشيءَ واختارَه: أخذ خيرَه.

《٣٩》 ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ عُهودٌ مؤكدة بالأيمان، ﴿بَٰلِغَةٌ﴾: نعتُ (أيمان)، ويتعلقُ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بـ(بالغة) أي: أنها تبلغ ذلك اليوم، وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منه يمينٌ إلى أن يحصل المقسَمُ عليه من التحكيم، أو: بالمقدر في الظرف؛ أي: هي ثابتةٌ لكم علينا إلى يوم القيامة، لا تخرج عن عهدتها إلا يومئذٍ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ به لأنفسكم وهو جواب القسم؛ لأن معنى (أم لكم أيمان علينا): أم أقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد.

《٤٠》 ﴿سَلْهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكمِ ﴿زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾: كفيلٌ بأنه يكون ذلك.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ....

《٤١》 ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: ناسٌ يشاركونهم في هذا القول، ويذهبون مذهبَهم فيه، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ في دعواهم؛ يعني: أن أحداً لا يُسَلِّمُ لهم هذا، ولا يُساعدُهم عليه، كما أنه لا كتابَ لهم ينطق به، ولا عهد لهم به عند الله، ولا زعيم لهم يضمن لهم من الله بهذا.

《٤٢》 ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ناصبُ الظرف: (فليأتوا)، أو: اذكر مضمَراً، والجمهورُ على أن الكشف عن الساق: عبارةٌ عن شدة الأمر وصعوبة الخطب، فمعنى (يوم يكشف عن ساق): يومَ يشتدُّ الأمر ويصعب، ولا كشفَ ثمةَ ولا ساقَ، ولكن كُنِّيَ به عن الشدة؛ لأنهم إذا ابتُلُوا بشدةٍ.. كشفوا عن الساق، وهذا كما تقول للأقطع الشحيح: يدُه مغلولةٌ، ولا يدَ ثمةَ ولا غُلَّ، وإنما هو كناية عن البخل، وأما مَن شَبَّهَ.. فلضيق عَطَنِهِ، وقلةِ نظره في علم البيان، ولو كان الأمرُ كما زعم المشبهةُ.. لكان من حقِّ الساق أن يُعَرَّفَ؛ لأنها ساق معهودة عنده، ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أي: الكفارُ ثمةَ ﴿إِلَى السُّجُودِ﴾ لا تكليفاً، ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك؛ لأن ظهورهم تصير كصَياصِي البقرِ[1]، لا تنثني عند الخفض والرفع.

《٤٣》 ﴿خَاشِعَةً﴾: ذليلةً، حالٌ من الضمير في (يُدعون) ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: يُدعون في حال خشوع أبصارِهم، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: يغشاهم صَغارٌ، ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ﴾ على أَلْسُنِ الرسلِ ﴿إِلَى السُّجُودِ﴾ في الدنيا ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وهم أَصِحَّاءُ فلا يسجدون، فلذلك مُنعوا عن السجود ثمةَ.

《٤٤》 ﴿فَذَرْنِي﴾ يقال: ذرني وإياه؛ أي: كِلْهُ إليَّ فإني أكفيكَهُ، ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾: معطوفٌ على المفعول، أو مفعولٌ معه، ﴿بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾: بالقرآن، والمرادُ: كِلْ أَمْرَهُ إليَّ، وخَلِّ بيني وبينه؛ فإني عالم بما ينبغي أن يُفعلَ به، مُطيقٌ له، فلا تَشغَلْ قلبَك بشأنه، وتوكل عليَّ في الانتقام منه؛ تسليةً لرسول الله ﷺ، وتهديداً للمكذبين، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: سنُدنيهم من العذاب درجةً درجةً، يُقال: استدرجه إلى كذا؛ أي: استنزله إليه درجةً درجةً حتى يُورِّطَ فيه، واستدراجُ الله تعالى العصاةَ: أن يرزقهم الصحةَ والنعمةَ فيَجعلون رزقَ الله ذريعةً إلى ازدياد

---

(١) صَياصِي البقرِ: قُرونها.

وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ ....

المعاصي، ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾: من الجهة التي لا يَشعُرون أنه استدراج، قيل: كلما جدَّدُوا معصيةً.. جددْنا لهم نعمةً وأنسيناهم شُكرَها، قال عليه السلام: «إذا رأيت الله تعالى يُنعم على عبد وهو مقيم على معصيته.. فاعلم أنه مُستدرَجٌ»[1]، وتلا الآية.

《٤٥》 ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾: وأمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾: قويٌّ شديدٌ، فسمَّى إحسانَه وتمكينَه كيداً، كما سمّاه استدراجاً؛ لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك، والأصلُ: أن معنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذُ من جهة الأمن، ولا يجوز أن يُسمَّى اللهُ كائداً وماكراً ومُستدرِجاً.

《٤٦》 ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾: غرامةٍ ﴿مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ فلا يؤمنون، استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: لستَ تطلب أجراً على تبليغ الوحي فيثقلَ عليهم ذلك فيمتنعوا لذلك.

《٤٧》 ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوحُ المحفوظُ عند الجمهور، ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ منه ما يحكمون به.

《٤٨》 ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم وتأخيرُ نصرتك عليهم؛ لأنهم وإن أُمْهِلُوا لم يُهمَلُوا، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾: كيونسَ عليه السلامُ في العجلة والغضب على القوم، حتى لا تُبتلى ببلائه، والوقفُ على (الحوت) لأن (إذ) ليس بظرف لما تقدمه؛ إذ النداء طاعةٌ فلا يُنهى عنه، بل مفعولُ محذوفٍ؛ أي: اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾: دعا ربه في بطن الحوت بـ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾: مملوء غيظاً، مِن: كَظَمَ السقاءَ: إذا ملأه.

《٤٩》 ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ﴾: رحمةٌ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه وقبول عذره ﴿لَنُبِذَ﴾ من بطن الحوت ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾: بالفضاء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾: مُعاتَبٌ بزلَّتِه، لكنه رُحم فنُبذ غيرَ مذموم.

---

(١) لم أجده.

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

《٥٠》 ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾: اصطفاه لدعائه وعذره، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾: من المستكملين لصفات الصلاح، ولم يبق له زَلَّةٌ، وقيل: من الأنبياء، وقيل: من المرسلين، والوجهُ هو الأول؛ لأنه كان مرسلاً ونبيّاً قبلَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٠] الآياتِ.

《٥١》 ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ وبفتح الياء: مدنيٌّ[١]، (إنْ): مخففةٌ من الثقيلة، واللامُ عَلَمُها، زَلَقَه وأزلقَه: أزالَه عن مكانه؛ أي: قارب الكفارُ من شدة نظرهم إليك شزراً بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك، أو يهلكوك لشدة حَنَقِهم عليك[٢]، وكانت العينُ في بني أَسَدٍ، فكان الرجل منهم يَتَجَوَّعُ ثلاثة أيام، فلا يَمُرُّ به شيء فيقول فيه: لم أرَ كاليوم مثلَه إلا هلك، فأُريدَ بعضُ العَيّانِين على أن يقول في رسول الله مثل ذلك فقال: لم أرَ كاليوم مثلَه رجلاً، فعصمه الله عن ذلك، وفي الحديث: «العين حقٌّ، وإن العين لتدخل الجملَ القِدْرَ والرجلَ القبرَ»[٣]، وعن الحسن: رقيةُ العين هذه الآيةُ، ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾: القرآنَ، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حسداً على ما أُوتيت من النبوة: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾﴾: إن محمداً لمجنونٌ حَيرةً في أمره وتنفيراً عنه.

《٥٢》 ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآنُ ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ﴾: وعظٌ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾: للجن والإنس؛ يعني: أنهم جَنَّنُوه لأجل القرآن، وما القرآن إلا موعظةٌ للعالمين، فكيف يُجنَّنُ مَن جاء بمثله، وقيل: (لما سمعوا الذكر) أي: ذكرَه عليه السلام، (وما هو) أي: محمدٌ عليه السلام (إلا ذكرٌ): شرفٌ للعالمين، فكيف يُنسب إليه الجنونُ.



---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٥).

(٢) الحَنَقُ: الغيظ.

(٣) أوله: «العين حقٌّ» رواه البخاري (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وباقيه رواه الشهاب القضاعي في «مسنده» (٢/ ١٤٠) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

﴿الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ③ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ④ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ⑤ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥﴾ ....

سورة الحاقة

إحدى وخمسون آيةً، مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١» ﴿الْحَاقَّةُ ①﴾: الساعةُ الواجبةُ الوقوع، الثابتةُ المجيءِ، التي هي آتيةٌ لا ريب فيها، مِن: حقَّ يَحِقُّ بالكسر؛ أي: وجب.

«٢» ﴿مَا الْحَاقَّةُ ②﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، وهما خبرُ (الحاقة) والأصلُ: الحاقةُ ما هي؛ أي: أيُّ شيء هي، تفخيماً لشأنها وتعظيماً لِهَوْلِها؛ أي: حقُّها أن يُستفهم عنها لِعظمِها، فوُضِعَ الظاهرُ موضعَ المضمر لزيادة التهويل.

«٣» ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾: وأيُّ شيءٍ أعلمك ﴿مَا الْحَاقَّةُ ③﴾ يعني: أنك لا علمَ لك بِكُنهها ومَدى عِظَمِها؛ لأنه من العظم والشدة بحيث لا تبلُغه درايةُ المخلوقين، و(ما): رفع بالابتداء، و(أدراك): الخبرُ، والجملةُ بعده: في موضع نصب؛ لأنها مفعول ثان لـ: أدرى.

«٤» ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ④﴾ أي: بالحاقة، فوضعت القارعةُ موضعَها؛ لأنهما من أسماء القيامة، وسميت بها لأنها تَقرعُ الناس بالأفزاع والأهوال، ولما ذكرها وفخَّمَها.. أتبع ذكرَ ذلك ذكرَ مَن كذَّبَ بها، وما حلَّ بهم بسبب التكذيب تذكيراً لأهل مكة، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم.

«٥» ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ⑤﴾: بالواقعة المجاوزة للحدِّ في الشدة، واختُلف فيها، فقيل: الرجفةُ، وقيل: الصيحةُ، وقيل: الطاغيةُ: مصدرٌ كالعافية؛ أي: بِطُغيانهم، ولكن هذا لا يطابق قولَه:

«٦» ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ أي: بالدَّبور؛ لقوله ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[1]، ﴿صَرْصَرٍ﴾: شديدةِ الصوتِ؛ مِن الصَّرَّةِ: الصيحةِ، أو: باردةٍ؛ مِن الصِّرِّ، كأنها التي كُرِّرَ فيها البردُ وكَثُرَ، فهي تُحرق بشدة بردِها، ﴿عَاتِيَةٍ ⑥﴾: شديدةِ العصف، أو: عتت على خُزّانِها فلم يضبطوها بإذن الله غضباً على أعداء الله.

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾ ....

《٧》 ﴿سَخَّرَهَا﴾: سلطها ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ وكان ابتداءُ العذاب يوم الأربعاء آخرَ الشهر إلى الأربعاء الأخرى، ﴿حُسُومًا﴾ أي: مُتتابعةً لا تنقطع، جمعُ حاسمٍ، كشهودٍ، تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعلِ الحاسمِ في إعادة الكيِّ على الداء كرةً بعد أخرى حتى ينحسم، وجاز أن يكون مصدراً؛ أي: تَحسِمُ حسوماً؛ بمعنى: تستأصلُ استئصالاً، ﴿فَتَرَى﴾ أيها المخاطبُ ﴿ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾: في مهابِّها، أو: في الليالي والأيام ﴿صَرْعَىٰ﴾: حالٌ جمعُ صريعٍ ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: حالٌ أخرى، ﴿أَعْجَازُ﴾: أصولُ ﴿نَخْلٍ﴾: جمعُ نخلة، ﴿خَاوِيَةٍ ۝٧﴾: ساقطةٍ أو باليةٍ.

《٨》 ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾: من نفس باقية، أو: من بقاء، كالطاغية بمعنى: الطغيان.

《٩》 ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾: ومَن تقدمَه من الأمم، ﴿وَمَن قِبَلَهُۥ﴾: بصريٌّ وعليٌّ[1]؛ أي: ومَن عندَه من تُبّاعِه، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾: قرى قوم لوط، فهي ائتفكتْ؛ أي: انقلبت بهم ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾: بالخطأ، أو: بالفَعلةِ، أو: بالأفعال ذات الخطأ العظيم.

《١٠》 ﴿فَعَصَوْا۟﴾ أي: قومُ لوط ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ لوطاً، ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾: شديدةً زائدةً في الشدة، كما زادت قبائحُهم في القبح.

《١١》 ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾: ارتفع وقت الطُّوفان على أعلى جبل في الدنيا خمسةَ عشرَ ذراعاً، ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: آباءكم ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾: في سفينة نوح عليه السلام.

《١٢》 ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الفَعلةَ، وهي إنجاءُ المؤمنين وإغراقُ الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾: عبرةً وعظةً، ﴿وَتَعِيَهَآ﴾: وتحفظَها ﴿أُذُنٌ﴾: بضم الذال: غيرُ نافعٍ، ﴿وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾: حافظةٌ لما تسمع، قال قتادة: وهي أذن عَقَلَتْ عن الله، وانتفعت بما سمعت.

《١٣》 ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾: هي النفخة الأولى، ويموت عندها الناسُ، والثانيةُ يبعثون عندها.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٦) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ . . . .﴾

《١٤》 ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾: رُفِعت عن موضعِهما، ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾: دُقتا وكُسرتا؛ أي: ضرب بعضُها ببعض حتى تندقَّ وترجعَ كثيباً مهيلاً، وهباءً منبثاً.

《١٥》 ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾: فحينئذٍ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾: نزلت النازلةُ، وهي القيامة، وجوابُ ﴿إِذَا﴾: (وقعت)، و(يومئذ): بدلٌ من ﴿إِذَا﴾.

《١٦》 ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾: فُتحت أبواباً، ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾: مسترخيةٌ ساقطةُ القوةِ بعد ما كانت مُحكمةً.

《١٧》 ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾: للجنسِ؛ بمعنى الجمع، وهو أعمُّ من الملائكة[1]، ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾: جوانبِها، واحدُها: رَجاً، مقصورٌ؛ لأنها إذا انشقت وهي مسكن الملائكة فيلجؤون إلى أطرافِها، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾: فوق الملك الذين على أرجائها ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ منهم، واليومَ تحملُه أربعةٌ، وزِيدت أربعة أخرى يوم القيامة، وعن الضحاك: ثمانيةُ صفوف، وقيل: ثمانيةُ أصناف.

《١٨》 ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال، شُبِّهَ ذلك بعرض السلطان العسكرَ لتعرف أحوالِه، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾: سريرةٌ وحالٌ كانت تَخفى في الدنيا، وبالياء: كوفيٌّ غيرَ عاصم[2]، وفي الحديث: «يُعْرَضُ الناسُ يومَ القيامة ثلاثَ عَرَضاتٍ، فأما عَرْضَتان.. فجِدالٌ ومَعاذِيرُ، وأما الثالثةُ.. فعندها تَطِيرُ الصحفُ، فيأخذُ الفائزُ كتابَه بيمينه، والهالكُ كتابَه بشماله»[3].

---

(١) في «الكشاف» (٤/ ٦٠٥): الملك أعمُّ من الملائكة؛ ألا ترى أن قولك: ما من ملك إلا وهو شاهدٌ.. أعمُّ من قولك: ما من ملائكة.
واعترض عليه أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٣١٨) فقال: ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة؛ لأن المفرد المحلى بالألف واللام الجنسيةِ قُصاراه أن يراد به الجمعُ المحلَّى بهما، ولذلك صح الاستثناءُ منه، فقصاراه أن يكون كالجمع المحلى بهما، وأما دعواه أنه أعمُّ منه بقوله: ألا ترى إلخ.. فليس دليلاً على دعواه؛ لأنَّ مِن ملكٍ نكرةٌ مفردةٌ في سياق النفي، قد دخلت عليها مِنْ المُخَلِّصَةُ للاستغراق، فشملت كلَّ ملك، فاندرج تحتها الجمعُ لوجود الفرد فيه، فانتفى كلُّ فردٍ فردٍ، بخلافِ مِن ملائكةٍ؛ فإن مِن دخلتْ على جمعٍ مُنكَّرٍ، فعمَّ كلَّ جمعٍ جمعٍ من الملائكة، ولا يلزم من ذلك انتفاءُ كل فردٍ فردٍ من الملائكة، لو قلت: ما في الدار من رجال.. جاز أن يكون فيها واحد؛ لأن النفي إنما انسحب على جمع، ولا يلزم من انتفاء الجمع أن ينتفي المفرد، والملكُ في الآية ليس في سياق نفي دخلت عليه مِنْ فيكونَ أعمَّ من جمعٍ دخلت عليه مِنْ، وإنما جِيءَ به مفرداً لأنه أخفُّ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٢٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٢٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وابنُ ماجه (٤٢٧٧) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ......﴾

«١٩» ﴿فَأَمَّا﴾: تفصيلٌ للعرض ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ﴾ سروراً به لما يَرى فيه من الخيرات خطاباً لجماعةٍ: ﴿هَآؤُمُ﴾: اسمٌ للفعل؛ أي: خُذوا ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ تقديرُه: هاؤم كتابي اقرؤوا كتابيه، فحُذف الأول لدلالة الثاني عليه، والعاملُ في (كتابيه): (اقرؤوا) عند البصريين؛ لأنهم يُعمِلون الأقرب، والهاءُ في (كتابيه) و(حسابيه) و(ماليه) و(سلطانيه) للسكت، وحقُّها أن تثبت في الوقفِ وتسقطَ في الوصل، وقد استحبَّ إيثارُ الوقف إيثاراً لثباتها؛ لثبوتها في المصحف.

«٢٠» ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾: علمتُ، وإنما أُجري الظنُّ مُجرى العلم لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام، ولأن ما يُدرك بالاجتهاد قلما يخلو عن الوسواس والخواطر، وهي تُفضي إلى الظنون، فجاز إطلاقُ لفظ الظنِّ عليها لما لا يخلو عنه ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾: مُعاين حسابي.

«٢١» ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾: ذاتِ رِضاً يرضى بها صاحبُها كَلَابِنٍ.

«٢٢» ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾: رفيعةِ المكان، أو رفيعةِ الدرجات، أو رفيعةِ المباني والقصور، وهو خبرٌ بعد خبر.

«٢٣» ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: ثمارُها قريبةٌ من مريدِها، ينالُها القاعد كالقائم؛ يقال لهم:

«٢٤» ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾: أكلاً وشرباً هنيئاً لا مكروهَ فيهما ولا أذىً، أو: هُنِّئْتُم هنيئاً، على المصدر، ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾: بما قدمتم من الأعمال الصالحة، ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾: الماضية من أيام الدنيا، وعن ابن عباس: هي في الصائمين؛ أي: كلوا واشربوا بدلَ ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله.

«٢٥» ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ لما يَرى فيها من الفضائح.

«٢٦» ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ أي: يا ليتني لم أعلمْ ما حسابي.

«٢٧» ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾: يا ليت الموتةَ التي مِتُّها ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: القاطعةَ لأمري فلم أُبعثْ بعدَها، ولم ألقَ ما أَلقَى.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾ ....

《٢٨》 ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ أي: لم ينفعني ما جمعتُه في الدنيا، فـ(ما): نفيٌ، والمفعولُ محذوفٌ؛ أي: شيئاً.

《٢٩》 ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾: ملكي وتسلطي على الناس، وبقيت فقيراً ذليلاً، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ضَلَّتْ عني حُجَّتي؛ أي: بَطَلَتْ حُجتي التي كنت أحتجُّ بها في الدنيا، فيقول الله تعالى لخزنة جهنم:

《٣٠》 ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠﴾ أي: اجمعوا يديه إلى عنقه.

《٣١》 ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١﴾: أدخلوه؛ يعني: ثم لا تُصلُّوه إلا الجحيم، وهي النار العظمى، أو نُصِبَ (الجحيم) بفعل يفسره: (صلوه).

《٣٢》 ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا﴾: طولُها ﴿سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ بذراع المَلَكِ، عن ابن جريج، وقيل: لا يَعرف قدرها إلا الله[1]، ﴿فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾: فأدخلوه، والمعنى في تقديم السلسلةِ على السَّلْكِ مثلُه في تقديم الجحيم على التصليةِ.

《٣٣》 ﴿إِنَّهُۥ﴾: تعليلٌ، كأنه قيل: ما له يُعذَّبُ هذا العذابَ الشديدَ، فأجيب بأنه ﴿كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣﴾.

《٣٤》 ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾: على بذل طعام المسكين، وفيه إشارةٌ إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث؛ لأن الناس لا يطلبون من المساكين الجزاء فيما يطعمونهم، وإنما يطعمونهم لوجه الله ورجاءَ الثواب في الآخرة، فإذا لم يؤمن بالبعث.. لم يكن له ما يحملُه على إطعامهم؛ أي: أنه مع كفره لا يُحَرِّضُ غيرَه على إطعام المحتاجين، وفيه دليل قويٌّ على عِظَم جُرم حرمان المسكين؛ لأنه عطفَه على الكفر، وجعَله دليلاً عليه، وقرينةً له، ولأنه ذكر الحضَّ دون الفعل؛ ليُعلَمَ أن تارك الحضِّ إذا كان بهذه المنزلة.. فتاركُ الفعل أحقُّ، وعن أبي الدرداء: أنه كان يحضُّ امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، ويقول: خَلَعْنا نصفَ السلسلة بالإيمان، فنخلعُ نصفَها بهذا، وهذه الآياتُ ناطقةٌ على أن المؤمنين يُرْحَمُون جميعاً، والكافرين لا يُرْحَمُون؛ لأنه قسم الخلق صنفين، فجعل صنفاً منهم أهلَ اليمين، ووصفهم بالإيمان فَحَسْبُ بقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ

---

(١) فيكون ذكر السبعين للتكثير والمبالغة.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ....

﴿أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾، وصنفاً منهم أهلَ الشمال ووصفَهم بالكفر بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾، وجاز أن الذي يُعاقَبُ من المؤمنين إنما يعاقَبُ قبل أن يُؤتَى كتابه بيمينه.

«٣٥» ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾: قريبٌ يَدفع عنه ويحترقُ له قلبُه.

«٣٦» ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾: غسالةِ أهلِ النارِ، (فِعْلِين) من الغسل، والنونُ: زائدةٌ، وأُريد به هنا ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم.

«٣٧» ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾: الكافرون أصحابُ الخطايا، وخَطِئَ الرجلُ: إذا تعمَّدَ الذنبَ.

«٣٨ - ٣٩» ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من الأجسام والأرض والسماء، ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ من الملائكة والأرواح، فالحاصلُ: أنه أقسم بجميع الأشياء.

«٤٠» ﴿إِنَّهُ﴾ أي: إن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي: محمدٍ ﷺ، أو: جبريلَ عليه السلام؛ أي: يقولُه ويتكلمُ به على وجه الرسالة من عند الله.

«٤١» ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تدَّعون، ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

«٤٢» ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تقولون، ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وبالياء فيهما: مكيٌّ وشاميٌّ ويعقوبُ وسهلٌ، وبتخفيف الذال: كوفيٌّ غيرَ أبي بكر[1]، والقلةُ في معنى العدم؛ يقال: هذه أرضٌ قَلّما تنبت؛ أي: لا تُنبت أصلاً؛ والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون البتةَ.

«٤٣» ﴿تَنْزِيلٌ﴾: هو تنزيل، بياناً لأنه قولُ رسولٍ نُزِّلَ عليه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

«٤٤ - ٤٦» ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾: ولو ادَّعى علينا شيئاً لم نقلْه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾: لقتلناه صبراً كما يفعل الملوك بمن يتكذَّبُ عليهم معاجلةً بالسخط والانتقام، فصُوِّرَ قتلُ الصبرِ بصورتِه ليكون أهولَ، وهو: أن يؤخذَ بيده وتُضربَ رقبتُه، وخَصَّ اليمينَ لأن القتّالَ إذا أراد أن يُوقع الضرب في قفاه.. أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جِيْدِه، وأن يَكْفَحه

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٧) وكذا القراءتان الآتيتان.

فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

بالسيف وهو أشدُّ على المصبور لنظره إلى السيف.. أخذ بيمينه، ومعنى (لأخذنا منه باليمين): لأخذنا بيمينه، وكذا ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾: لقطعنا وتِينَهُ، وهو: نِياطُ القلب، إذا قُطع.. مات صاحبُه.

《٤٧》 ﴿فَمَا مِنكُم﴾ الخطابُ للناس، أو: للمسلمين ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ (مِن): زائدةٌ، ﴿عَنْهُ﴾: عن قتل محمدٍ، وجمع ﴿حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وإن كان وصفَ (أحد) لأنه في معنى الجماعة، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

《٤٨》 ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإن القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾: لعظةٌ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

《٤٩》 ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

《٥٠》 ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإن القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به.

《٥١》 ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإن القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾: لَعَيْنُ اليقين ومَحضُ اليقين.

《٥٢》 ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾: فسبح الله بذكر اسمِه العظيمِ، وهو قولُه: سبحان الله.



﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ ....

سورة المعارج

مكيةٌ، وهي أربع وأربعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾: هو النضرُ بنُ الحارث، قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، أو: هو النبي ﷺ، دعا بنزول العذاب عليهم، ولما ضُمِّنَ (سأل) معنى دعا.. عدي تعديته، كأنه قيل: دعا داعٍ ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ مِن قولك: دعا بكذا: إذا استدعاه وطلبه، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥]، و﴿سال﴾: بغير همز: مدنيٌّ وشاميٌّ، وهو من السؤال أيضاً، إلا أنه خُفِّفَ بالتليين، و(سائل): مهموزٌ إجماعاً.

《٢》 ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: صفةٌ لـ(عذاب) أي: بعذابٍ واقعٍ كائنٍ للكافرين، ﴿لَيْسَ لَهُۥ﴾: لذلك العذابِ ﴿دَافِعٌ ۝٢﴾: رادٌّ.

《٣》 ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متصلٌ بـ(واقع) أي: واقعٍ من عنده، أو بـ(دافع) أي: ليس له دافعٌ من جهته تعالى إذا جاء وقتُه، ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ أي: مصاعدِ السماء للملائكة، جمعُ مَعْرَجٍ، وهو موضع العروج، ثم وصفَ المصاعدَ وبُعدَ مَداها في العلو والارتفاع فقال:

《٤ - ٥》 ﴿تَعْرُجُ﴾: تصعدُ، وبالياء: عليٌّ، ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبريلُ عليه السلام، خصَّه بالذكر بعد العموم؛ لفضله وشرفه، أو: خَلْقٌ هم حفظةٌ على الملائكة، كما أن الملائكة حَفَظَةٌ علينا، أو: أرواحُ المؤمنين عند الموت، ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى عرشه ومَهْبِطِ أمرِه ﴿فِى يَوْمٍ﴾: مِن صلةِ (تعرج)، ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ من سِنِيْ الدنيا لو صَعِدَ فيه غيرُ الملَك، أو: مِن صلة (واقع) أي: يقعُ في يوم طويلٍ، مقدارُه خمسون ألف سنةٍ مِن سِنِيْكُم، وهو يوم القيامة، فإما أن يكون استطالةً له لشدته على الكفار، أو: لأنه على الحقيقة كذلك، فقد قيل: فيه خمسون موطناً، كلُّ موطن ألفُ سنة، وما قَدْرُ ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر، ﴿فَٱصْبِرْ﴾: متعلقٌ بـ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ لأن استعجال النضر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ، والتكذيبِ بالوحْي، وكان ذلك مما يُضْجِرُ رسولَ الله ﷺ، فأُمر بالصبر عليه.

﴿صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾: بلا جزعٍ ولا شكوى.

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ....

《٦ - ٧》 ﴿إِنَّهُمْ﴾: إن الكفار ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ أي: العذابَ، أو: يومَ القيامة ﴿بَعِيدًا ﴿٦﴾﴾: مستحيلاً ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾: كائناً لا محالة، فالمرادُ بالبعيد: البعيدُ من الإمكان، وبالقريب: القريبُ منه،

《٨》 نُصِبَ ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ بـ﴿قَرِيبًا﴾ أي: يمكنُ في ذلك اليوم، أو: هو بدلٌ عن ﴿فِى يَوْمٍ﴾ فيمَن علقه بـ﴿وَاقِعٍ﴾، ﴿كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾: كَدُرْدِيِّ الزيت، أو: كالفضة المذابة في تلوُّنِها.

《٩》 ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾: كالصوف المصبوغ ألواناً؛ لأن الجبال ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] فإذا بُسَّتْ وطُيِّرَتْ في الجوِّ.. أشبهت العِهْنَ المنفوش إذا طَيَّرَتْه الريح.

《١٠》 ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾: لا يَسأل قريبٌ عن قريب لاشتغاله بنفسه، وعن البزيِّ والبرجميِّ: بضم الياء[1]؛ أي: لا يُسأل قريبٌ عن قريب؛ أي: لا يُطالَب به ولا يؤخذ بذنبه.

《١١ - ١٤》 ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: صفةٌ؛ أي: حميماً مُبَصَّرين مُعرَّفين إياهم، أو مُستأنَفٌ، كأنه لما قال: (ولا يسأل حميم حمياً) قيل: لعله لا يبصره، فقيل: يُبصرونهم، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تَساؤُلِهم، والواوُ: ضميرُ الحميم الأول، و(هم): ضميرُ الحميم الثاني؛ أي: يُبَصَّرُ الأحماءُ الأحماءَ فلا يَخفَون عليهم، وإنما جُمع الضميران وهما للحميمين؛ لأن (فعيلاً) يقع موقع الجمع، ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾: يتمنَّى المشركُ، وهو مستأنف، أو حالٌ من الضميرِ المرفوعِ أو المنصوبِ مِن (يبصرونهم)، ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ﴾ وبالفتح: مدنيٌّ وعليٌّ[2]؛ على البناء؛ للإضافة إلى غير متمكن، ﴿بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾: وزوجته، ﴿وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ﴾: وعشيرته الأَدْنَيْنِ، ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾: تَضمُّه انتماءً إليها، وبغير همز: يزيد، ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الناس ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ الافتداءُ، عطفٌ على (يفتدي).

---

(١) في المرجع السابق (ص ٣٢٧): قرأ أبو جعفر: بضم الياء، وغيرُه: بفتحها. ونقل ضم الياء عن البزي في «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٥٥٦).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٢٧) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ١٨ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ٢٤﴾ ....

《١٥》 ﴿كَلَّآ﴾: ردعٌ للمجرم عن الوِدادة، وتنبيهٌ على أنه لا ينفعُه الافتداءُ، ولا يُنْجِيْهِ من العذاب، ﴿إِنَّهَا﴾: إن النارَ، ودلَّ ذكرُ العذاب عليها، أو: هو ضميرٌ مبهم تَرجم عنه الخبرُ، أو ضميرُ القِصة، ﴿لَظَىٰ ١٥﴾: عَلَمٌ للنار.

《١٦》 ﴿نَزَّاعَةً﴾: حفصٌ والمفضل؛ على الحال المؤكدة، أو: على الاختصاص للتهويل، وغيرُهما: بالرفع، خبرٌ بعد خبر لـ(إنَّ)، أو: على: هي نزاعةٌ ﴿لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾: لأطراف الإنسان، كاليدين والرجلين، أو: جمعُ شَواة، وهي جلدة الرأس، تَنْزِعُها نزعاً فتفرقُها، ثم تعود إلى ما كانت.

《١٧》 ﴿تَدْعُوا۟﴾ بأسمائهم: يا كافرُ يا منافقُ إليَّ إليَّ، أو: تُهْلِكُ؛ مِن قولهم: دعاك اللهُ؛ أي: أهلكَكَ، أو: لما كان مصيرُه إليها.. جُعلت كأنها دعتْه، ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ، ﴿وَتَوَلَّىٰ ١٧﴾ عن الطاعة.

《١٨》 ﴿وَجَمَعَ﴾ المالَ ﴿فَأَوْعَىٰ ١٨﴾: فجعله في وعاءٍ ولم يؤدِّ حقَّ الله منه.

《١٩ - ٢١》 ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أُرِيْدَ به الجنسُ ليصحَّ استثناء المصلين منه، ﴿خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: تفسيرُه ما بعده: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١﴾ والهَلَعُ: سرعةُ الجزع عند مسِّ المكروه وسرعةُ المنع عند مسِّ الخير، وسأل محمدُ ابنُ عبدِ الله بنِ طاهرٍ ثعلباً عن الهلع، فقال: قد فسَّره الله تعالى، ولا يكون تفسيرٌ أَبْيَنَ مِن تفسيرِه، وهو الذي إذا ناله شرٌّ أظهرَ شدةَ الجزع، وإذا ناله خيرٌ.. بَخِلَ به ومنعَه الناسَ، وهذا طبعُه، وهو مأمور بمخالفة طبعه، وموافقة شرعِه، والشرُّ: الضُّرُّ والفقرُ، والخيرُ: السَّعَةُ والغِنى، أو المرضُ والصحةُ.

《٢٢ - ٢٣》 ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ أي: على صلواتِهم الخمسِ ﴿دَآئِمُونَ ٢٣﴾ أي: يحافظون عليها في مواقيتها، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

《٢٤》 ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ٢٤﴾ يعني: الزكاةَ؛ لأنها مقدرة معلومة، أو صدقة يوظِّفُها الرجل على نفسه يؤدِّيْها في أوقات معلومة.

لِلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ....

《٢٥》 ﴿لِلسَّآئِلِ﴾: الذي يسألُ، ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾: الذي يتعففُ عن السؤال فيُحسَبُ غنياً فيُحرم.

《٢٦》 ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، وهو يوم القيامة.

《٢٧》 ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾: خائفون، واعترَضَ بقوله:

《٢٨》 ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾: بالهمزِ غيرَ أبي عمرٍو؛ أي: لا ينبغي لأحدٍ وإن بالغ في الاجتهاد والطاعة أن يأمنَه، وينبغي أن يكون مترجِّحاً بين الخوف والرجاء.

《٢٩ - ٣٠》 ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾: نسائِهم، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ أي: إمائِهم، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ على ترك الحفظ.

《٣١》 ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾: طلبَ مَنْكِحاً ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غيرَ الزوجات والمملوكات ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾: المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام، وهذه الآية تدلُّ على حرمة المتعة، ووطء الذُّكران والبهائم، والاستمناءِ بالكفِّ.

《٣٢》 ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ﴾ ﴿لأمانتهم﴾: مكيٌّ[1]، وهي تتناول أماناتِ الشرعِ وأماناتِ العبادِ، ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أي: عهودِهم، ويدخلُ فيها عهودُ الخلق والنذور والأيمان، ﴿رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾: حافظون غيرُ خائنين ولا ناقضين، وقيل: الأماناتُ: ما تدلُّ عليه العقولُ، والعهدُ: ما أتى به الرسول.

《٣٣》 ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ﴾: حفصٌ وسهلٌ ويعقوب، ﴿قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾: يقيمونها عند الحكام بلا ميلٍ إلى قريب وشريفٍ، وترجيحٍ للقويِّ على الضعيف؛ إظهاراً للصلابة في الدين، ورغبةً في إحياء حقوق المسلمين.

《٣٤》 ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ كرَّرَ ذكر الصلاة لبيان أنها أهمُّ، أو: لأن إحداهما للفرائض والأخرى للنوافل، وقيل: الدوامُ عليها: الاستكثارُ منها، والمحافظةُ عليها: ألا تُضيَّعَ

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٣٢٨) وكذا القراءة الآتية.

أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١ ....

عن مواقيتها، أو: الدوامُ عليها: أداؤُها في أوقاتها، والمحافظةُ عليها: حِفظُ أركانِها وواجباتِها وسننِها وآدابِها.

《٣٥》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أصحابُ هذه الصفات ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾: هما خبران.

《٣٦》 ﴿فَمَالِ﴾ كتبَ مفصولاً؛ اتّباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾: نحوَك، معمولُ ﴿مُهۡطِعِينَ ٣٦﴾: مسرعين: حالٌ من (الذين كفروا).

《٣٧》 ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾: عن يمين النبي ﷺ وعن شمالِه ﴿عِزِينَ ٣٧﴾: حالٌ؛ أي: فِرَقاً شتَّى، جمعُ عِزَةٍ، وأصلُها: عِزْوَةٌ، كأنَّ كل فرقة تَعتزي إلى غير من تَعتزي إليه الأخرى، فهم مفترقون.

كان المشركون يحتفُّون حول النبي ﷺ حِلَقاً حِلَقاً، وفِرَقاً فِرَقاً يستمعون ويستهزئون بكلامه، ويقولون: إنْ دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمدٌ.. فلندخلنها قبلهم، فنزلت:

《٣٨》 ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ﴾: بضمِّ الياء وفتحِ الخاء: سِوى المفضل[1]، ﴿جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨﴾ كالمؤمنين.

《٣٩》 ﴿كَلَّآۖ﴾: ردعٌ لهم عن طمعِهم في دخول الجنة، ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ أي: من النطفة المَذِرَةِ، ولذلك أبهمَ إشعاراً بأنه مَنصبٌ يُستحيا من ذكره[2]، فمن أين يتشرَّفُون ويدَّعون التقدم ويقولون: لندخلنَّ الجنة قَبْلَهم، أو: معناه: إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بني آدم كلَّهم، ومن حكمنا: ألا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان، فلِمَ يطمعُ أن يدخلها من لا إيمانَ له!

《٤٠ - ٤١》 ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾: مَطالِعِ الشمس، ﴿وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾: ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾: على أن نُهلكَهم ونأتيَ بخلقٍ أمثلَ منهم وأَطْوَعَ لله، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾: بعاجزين.

---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٦٥١).
(٢) مَنْصِبٌ: أصلٌ.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

《٤٢》 ﴿فَذَرْهُمْ﴾: فَدَعِ المكذبين ﴿يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فيه العذابَ.

《٤٣》 ﴿يَوْمَ﴾: بدلٌ مِن ﴿يَوْمَهُمُ﴾ ﴿يَخْرُجُونَ﴾: بفتح الياء وضم الراء: سِوى الأعشى[(١)]، ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: القبور ﴿سِرَاعًا﴾: جمعُ سريع، حالٌ؛ أي: إلى الداعي، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: حالٌ، ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾: شاميٌّ وحفصٌ وسهلٌ، ﴿نُصْب﴾: المفضل، ﴿نَصْبٍ﴾: غيرُهم[(٢)]، وهو: كلُّ ما نُصب وعُبد من دون الله، ﴿يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾: يُسرعون.

《٤٤》 ﴿خَٰشِعَةً﴾: حالٌ من ضمير ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أي: ذليلةً ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ يعني: لا يرفعونها لِذِلَّتِهم، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: يَغشاهم هَوانٌ، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في الدنيا وهم يكذبون به.



---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٥١).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٨)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٣٥٥).

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ ....

سورة نوح عليه السلام

مكيةٌ، وهي ثمان وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ قيل: معناه بالسريانية: الساكنُ، ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ﴾: خَوِّفْ، أصلُه: بأن أنذر، فحذف الجارُّ وأُوصل الفعلُ، ومحلُّه عند الخليل: جرٌّ، وعند غيره: نصبٌ، أو: (أن): مفسرةٌ بمعنى: أيْ؛ لأن في الإرسال معنى القول، ﴿قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١﴾: عذابُ الآخرة، أو: الطوفان.

《٢》 ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾: أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ﴾: مُخَوِّفٌ، ﴿مُّبِينٌ ۝٢﴾: أُبَيِّنُ لكم رسالة الله بِلُغَةٍ تعرفونها.

《٣》 ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: وَحِّدُوه، و(أنْ) هذه نحوُ ﴿أَنۡ أَنذِرۡ﴾ في الوجهين، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: واحذروا عصيانَه، ﴿وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، وإنما أضافه إلى نفسه لأن الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة.

《٤》 ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾: جوابُ الأمر، ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾: للبيان، كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، أو: للتبعيض؛ لأن ما يكون بينه وبين الخلق يؤاخذُ به بعد الإسلام، كالقصاص وغيره، كذا في «شرح التأويلات»[1]، ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾: وهو وقت موتكم، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: الموتَ ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ أي: لو كنتم تعلمون ما يَحُلُّ بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم.. لآمنتم، قيل: إن الله تعالى قضى مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عَمَّرهم ألفَ سنة، وإن لم يؤمنوا.. أهلكهم على رأس تسعِ مئةٍ، فقيل لهم: آمنوا يؤخرْكم إلى أجل مسمّىً؛ أي: تبلغوا ألفَ سنةٍ، ثم أخبر أن الألفَ إذا جاء.. لا يُؤخرُ كما يؤخر هذا الوقت، وقيل: إنهم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتِهم

(١) انظر «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٦١).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ ....

لنوح عليه السلام، فكأنه عليه السلام أَمَّنَهم عن ذلك ووعدَهم أنهم بإيمانهم يَبْقَوْنَ إلى الأجل الذي ضُرِبَ لهم لو لم يؤمنوا؛ أي: أنكم إن أسلمتم.. بقيتم إلى أجل مسمّىً آمنين من عدوكم.

《٥》 ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾: دائباً بلا فتور.

《٦》 ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ عن طاعتك، ونَسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده وإن لم يكن الدعاءُ سبباً للفرار في الحقيقة، وهو كقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] والقرآنُ لا يكون سبباً لزيادة الرجس، وكان الرجل يذهب بابنه إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا فلا يَغُرَّنَّكَ؛ فإنَّ أَبِي قد وصّاني به.

《٧》 ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان بك ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ليؤمنوا فتغفرَ لهم، فاكتفى بذكر المسبَّبِ ﴿جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: سدُّوا مسامعَهم لئلا يسمعُوا كلامي، ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾: وتغطَّوا بثيابهم لئلا يُبصروني كراهةَ النظر إلى وجهِ مَنْ يَنصحُهم في دين الله، ﴿وَأَصَرُّوا﴾: وأقاموا على كفرهم، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾: وتعظّموا عن إجابتي، وذكرُ المصدر دليلٌ على فرط استكبارهم.

《٨》 ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾: مصدرٌ في موضع الحال؛ أي: مُجاهراً، أو مصدرُ (دعوتهم) كـ: قعد القُرفُصاء، لأن الجهارَ أحدُ نوعَي الدعاء؛ يعني: أظهرتُ لهم الدعوة في المحافل.

《٩》 ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ أي: خلطت دعاءَهم بالعلانية بدعاء السرِّ، فالحاصلُ: أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السرِّ، ثم دعاهم جهاراً، ثم دعاهم في السرِّ والعلنِ، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف، يبتدئُ بالأهون ثم بالأشدِّ فالأشدِّ، فافتتح بالمناصحة في السرِّ، فلما لم يقبلوا.. ثنَّى بالمجاهرة، فلما لم تؤثرْ.. ثلَّثَ بالجمع بين الإسرار والإعلان، و(ثم) تدلُّ على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظُ من الإسرار، والجمعَ بين الأمرين أغلظُ من إفراد أحدِهما.

《١٠》 ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك؛ لأن الاستغفار طلبُ المغفرة، فإن كان المستغفر كافراً.. فهو من الكفر، وإن كان عاصياً مؤمناً.. فهو من الذنوب، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ لم يزل غفاراً لذنوب مَنْ يُنِيبُ إليه.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ ....

«١١» ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾: المطرَ ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾: كثيرةَ الدُّرور، و(مفعال) يستوي فيه المذكر والمؤنث.

«١٢» ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾: يزدكم أموالاً وبنين، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾: بساتين، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ۝١٢﴾ جاريةً لمزارعكم وبساتينكم، وكانوا يُحبون الأموال والأولاد، فحُرِّكُوا بهذا على الإيمان، وقيل: لما كذبوه بعد طول تكريره الدعوةَ.. حبس الله عنهم القَطْرَ، وأعقمَ أرحامَ نسائِهم أربعين سنةً، أو سبعين، فوعدَهم أنهم إن آمنوا.. رزقهم الله الخِصبَ، ورفع عنهم ما كانوا فيه، وعن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد استسقيتُ بمجاديحِ السماء التي يُستنزل به المطرُ - شبَّهَ عمرُ الاستغفار بالأنواءِ الصادقةِ التي لا تُخطئُ - وقرأ الآياتِ[1]، وعن الحسن: أن رجلاً شكا إليه الجدبَ فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخَرُ الفقرَ، وآخَرُ قلةَ النسل، وآخَرُ قلةَ رَيعِ أرضِه فأمرهم كلَّهم بالاستغفار، فقال له الربيعُ بنُ صبيح: أتاك رجالٌ يشكون أبواباً فأمرتم كلَّهم بالاستغفار! فتلا الآياتِ.

«١٣» ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾: لا تخافون اللهَ عظمةً، عن الأخفش، قال والرجاء هنا الخوف[2]؛ لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف ومن اليأس، والوقارُ: العظمةُ، أو: لا تَأمُلون له توقيراً؛ أي: تعظيماً؛ والمعنى: ما لكم لا تكونون على حالٍ تأمُلون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب.

«١٤» ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾: في موضع الحال؛ أي: ما لكم لا تؤمنون بالله والحالُ هذه، وهي حالٌ مُوجِبة للإيمان به؛ لأنه خلقكم أطواراً؛ أي: تاراتٍ وكرّاتٍ، خلقكم أوّلاً نُطَفاً، ثم خلقكم عَلَقاً، ثم خلقكم مُضغاً، ثم خلقكم عِظاماً ولحماً، نبههم أوّلاً على النظر في أنفسهم؛ لأنها أقرب، ثم على النظر في العالم وما سوَّى فيه من العجائب الدالة على الصانع بقوله:

«١٥» ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ بعضُها على بعض.

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٥٢).

(٢) «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٥٠).

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ....

《١٦》 ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في السموات، وهو في السماء الدنيا؛ لأن بين السموات ملابسةً من حيث إنها طباقٌ، فجاز أن يُقال: فيهن كذا وإن لم يكن في جميعهن، كما يقال: في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها، وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله تعالى عنهم: أن الشمس والقمر وجوهُهما مما يلي السموات، وظهورُهما مما يلي الأرض[1]، فيكون نور القمر محيطاً بجميع السموات؛ لأنها لطيفة لا تحجبُ نورَه، ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾: مصباحاً يُبصر أهلُ الدنيا في ضوئها، كما يُبصرُ أهلُ البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وضوءُ الشمس أقوى من نور القمر، وأجمعوا على أن الشمس في السماء الرابعة[2].

《١٧》 ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أنشأكم، استعير الإنبات للإنشاء، ﴿نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾: فنَبَتُّم نباتاً.

《١٨》 ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾: أكده بالمصدر؛ أي: أيَّ إخراج.

《١٩》 ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾: مبسوطةً.

《٢٠》 ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا﴾: لتتقلبوا عليها كما يتقلب الرجل على بساطه، ﴿سُبُلًا﴾: طرقاً ﴿فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾: واسعةً، أو مختلفةً.

《٢١》 ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ أي: السفلةُ والفقراءُ ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾ أي: الرؤساءَ وأصحابَ الأموال والأولاد، ﴿وَوُلْدُهُۥ﴾: مكيٌّ وعراقيٌّ غيرَ عاصم[3]، وهو جمعُ وَلَدٍ، كأُسْدٍ وأَسَدٍ، ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ في الآخرة.

《٢٢》 ﴿وَمَكَرُوا۟﴾: معطوفٌ على ﴿لَّمْ يَزِدْهُ﴾ وجُمِعَ الضميرُ وهو راجع إلى ﴿مَن﴾ لأنه في معنى الجمع، والماكرون هم الرؤساء، ومكرُهم: احتيالُهم في الدين، وكيدُهم لنوح،

---

(١) لعل هذا لم يثبت عنهما؛ إذ ليس للقمر والشمس وجوه ولا ظهور.

(٢) من البَدَهِي الآن عدمُ صحة هذا الكلام.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٨).

وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ . . . .

وتحريشُ الناس على أذاه، وصدُّهم عن الميل إليه، ﴿مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾: عظيماً، وهو أكبرُ مِن الكُبَار، وقُرِئ به[1]، وهو أكبر من الكبير.

《٢٣》 ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: الرؤساءُ لسفلتهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على العموم؛ أي: عبادتَها، ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾: بفتح الواو وضمِّها، وهو قراءةُ نافع[2]، لغتان، صنمٌ على صورة رجل، ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾: هو على صورة امرأة، ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾: هو على صورة أسد، ﴿وَيَعُوقَ﴾: هو على صورة فرس، وهما لا ينصرفان؛ للتعريف ووزن الفعل إن كانا عربيين، وللتعريف والعجمة إن كانا أعجمين، ﴿وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾: هو على صورة نَسر؛ أي: هذه الأصنام الخمسة على الخصوص، فكأنها كانت أكبر أصنامِهم وأعظمَها عندهم، فخصُّوها بعد العموم، وقد انتقلت هذه الأصنامُ عن قوم نوح إلى العرب، فكان وَدٌّ لكلب، وسُواعٌ لهمدانَ، ويغوثُ لِمُذْحِجٍ، ويعوقُ لِمُرادٍ، ونَسرٌ لِحِمْيَرٍ، وقيل: هي أسماء رجال صالحين، كان الناس يقتدون بهم بين آدم ونوح، فلما ماتُوا.. صوَّروهم ليكون ذلك أدعى لهم إلى العبادة، فلما طال الزمان.. قال لهم إبليسُ: إنهم كانوا يعبدونهم، فعبدُوهم.

《٢٤》 ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾ أي: الأصنامُ، كقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس، أو الرؤساءُ، ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: عطفٌ على ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد قال، وبعد الواو النائبة عنه؛ ومعناه: قال: رب إنهم عصوني، وقال: لا تزد الظالمين[3]؛ أي: قال هذين القولين، وهما في محلِّ النصب؛ لأنهما مفعولا قالَ، ﴿إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾﴾: هلاكاً، كقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

《٢٥》 ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ ﴿خطاياهم﴾: أبو عمرٍو[4]؛ أي: ذنوبِهم، ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان، ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ عظيمةً، وتقديمُ (مما خطيئاتهم): لبيان أنْ لم يكن إغراقُهم بالطوفان وإدخالُهم في النيران إلا من أجل خطيئاتهم، وأُكِّدَ هذا المعنى بزيادة (ما)، وكفى بها مَزْجرةً لمرتكب

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٦).

(٢) أي: الضم قراءة نافع. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٩).

(٣) جملة (إنهم عَصَوني): خبريةٌ، وجملة (لا تزد): إنشائيةٌ، فلذا قَدَّرَ: (قالَ) قبلها؛ ليكون من عطف الخبرية على الخبرية.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٩).

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

الخطايا؛ فإن كفرَ قومِ نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كُبراهنَّ، والفاءُ في (فأدخلوا): للإيذان بأنهم عذبوا بالإحراق عقيب الإغراق، فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر[١]، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله.

《٢٦》 ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: أحداً يدور في الأرض، وهو (فيعال) من الدَّوْرِ، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام[٢].

《٢٧》 ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ ولا تهلكهم ﴿يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾: يدعوهم إلى الضلال، ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾: إلا مَن إذا بلغ.. فجر وكفر، وإنما قال ذلك؛ لأن الله تعالى أخبره بقوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

《٢٨》 ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وكانا مسلمين، واسمُ أبيه لَمَكُ، واسم أمه شَمْخاءُ، وقيل: هما آدم وحواء، وقرئ: ﴿وَلِوَلَدَيَّ﴾[٣] يريدُ: ساماً وحاماً، ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾: منزلي أو مسجدي أو سفينتي ﴿مُؤْمِنًا﴾ لأنه عَلِمَ أنَّ مَن دخل بيته مؤمناً لا يعود إلى الكفر، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يوم القيامة، خَصَّ أوّلاً مَن يتصل به؛ لأنهم أولى وأحقُّ بدعائه، ثم عمَّ المؤمنين والمؤمناتِ، ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الكافرين ﴿إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾: هلاكاً فأُهلكوا، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: دعا نوح عليه السلام بدعوتين: إحداهما للمؤمنين بالمغفرة، وأخرى على الكافرين بالتَّبار، وقد أجيبت دعوتُه في حقِّ الكفار بالتَّبار، فاستحال ألا تُستجابَ دعوتُه في حقِّ المؤمنين، واختلف في صبيانهم حين أُغرقوا، فقيل: أعقم الله أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنةً، فلم يكن معهم صبيٌّ حين أُغرقوا، وقيل: عَلِمَ اللهُ براءتهم فأُهلكوا بغير عذاب.



---

(١) ويجوز أن يراد بها نارُ الآخرة، والتعقيبُ على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، فكأنه شُبِّهَ تخللُ ما لا يُعتدُّ به بعدم تخللِ شيء أصلاً، ويجوز أن تكون فاءُ التعقيب مستعارةً للسببية؛ لأن المسبَّبَ كالمتعقِّب للسببِ وإن تراخى عنه؛ لفقدِ شرطٍ أو وجودِ مانعٍ. انظر «تفسير الآلوسي» (١٥/ ٨٨)

(٢) فلا يستعمل في الإثبات، ولا في الواحدِ المنفيِّ، بل في الجنس المنفيِّ كلِّه، فإذا قيل: ما في البلد دَيّارٌ، فلا يراد إلا انتفاء الجنس كله. انظر «الإكليل» (٧/ ٤١٥).

(٣) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٧).

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ....

سورة الجن

مكيةٌ، وهي ثمانٍ وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأمتك: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ أنَّ الأمرَ والشأنَ، أجمعوا على فتح (أنه) لأنه فاعل (أُوحي)[١]، و﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ و﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ للعطف على (أنه استمع) فـ(أنْ): مخففة من الثقيلة، و﴿أَن قَدْ أَبْلَغُواْ﴾ لتعدي (يعلم) إليها؛ وعلى كسرِ ما بعد فاء الجزاء، وبعد القول، نحو: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ و﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا﴾ لأنه مبتدأٌ محكيٌّ بعد القول، واختلفوا في فتح الهمزة وكسرها من ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ إلى ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ ففتحها شاميٌّ وكوفيٌّ غيرَ أبي بكر؛ عطفاً على (أنه استمع) أو على محلِّ الجارِّ والمجرور في ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ تقديرُه: صدّقناه وصدّقنا ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إلى آخرها، وكسرها غيرُهم[٢]؛ عطفاً على ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ وهم يَقِفُون على أواخرِ الآياتِ، ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾: جماعةٌ من الثلاثة إلى العشرة، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: جنِّ نَصيبين، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لقومهم حين رجعوا إليهم من استماع قراءة النبي ﷺ في صلاة الفجر: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾: عجيباً بديعاً مُبايِناً لسائر الكتب في حسن نظمه، وصحة معانيه، والعجبُ: ما يكون خارجاً عن العادة، وهو مصدرٌ وُضِعَ مَوضعَ العجيب.

《٢》 ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: يدعو إلى الصواب، أو إلى التوحيد والإيمان، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾: بالقرآن، ولما كان الإيمان به إيماناً بالله وبوحدانيته وبراءةً من الشرك.. قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ من خلقه، وجاز أن يكون الضمير في (به) لله تعالى؛ لأن قوله: (بربنا) يفسرُه.

《٣》 ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾: عظمتُه؛ يقال: جَدَّ فلانٌ في عيني؛ أي: عظم، ومنه قولُ عمرَ أو أنسٍ: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآلَ عمران.. جدَّ فينا[٣]؛ أي: عَظُمَ في عُيونِنا، ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً﴾: زوجةً ﴿وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ كما يقول كفارُ الجنِّ والإنسِ.

---

(١) يريد أن المصدر المؤول نائب فاعل.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٢٩).

(٣) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ ....

《٤》 ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾: جاهلُنا، أو: إبليسُ؛ إذ ليس فوقَه سفيهٌ، ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾: كفراً لبعدِه عن الصواب؛ مِن: شطت الدار؛ أي: بَعُدَتْ، أو: قولاً يجوزُ فيه عن الحقِّ، وهو نسبة الصاحبة والولدِ إليه، والشططُ: مجاوزةُ الحدِّ في الظلم وغيرِه.

《٥》 ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾: قولاً كذباً، أو مكذوباً فيه، أو: نصبٌ على المصدر؛ إذ الكذبُ نوعٌ من القول؛ أي: كان في ظننا أن أحداً لن يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه، فكنّا نصدقُهم فيما أضافوا إليه، حتى تَبيَّنَ لنا بالقرآن كذبُهم، كان الرجل من العرب إذا نزل بِمَخُوف من الأرض.. قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه؛ يريدُ: كبيرَ الجنِّ، فقال:

《٦》 ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أي: زادَ الإنسُ الجنَّ باستعاذتهم بهم ﴿رَهَقًا ۝٦﴾: طُغياناً وسفهاً وكِبراً بأن قالوا: سُدْنا الجنَّ والإنسَ، أو: فزاد الجنُّ الإنسَ رهقاً: إثماً لاستعاذتهم بهم، وأصلُ الرَّهَقِ: غِشيانُ المحظور.

《٧》 ﴿وَأَنَّهُمْ﴾: وأن الجنَّ ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ يا أهلَ مكة ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ بعد الموت؛ أي: أن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم، ثم بسماع القرآن اهتدَوا وأقرُّوا بالبعث، فهلّا أقررتم كما أقرُّوا.

《٨》 ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾: طلبنا بلوغَ السماءِ واستماعَ كلامِ أهلها، واللمسُ: المسُّ، فاستعير للطلب؛ لأن الماسَّ طالبٌ متعرفٌ، ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾: جمعاً أقوياء من الملائكة يَحرُسون، جمعُ حارسٍ، ونُصب على التمييز، وقيل: الحرسُ: اسمٌ مفردٌ في معنى الحُرّاس، كالخَدَمِ في معنى: الخُدّام، ولذا وُصِفَ بشديد، ولو نُظِرَ إلى معناه.. لقيل: شدادٌ، ﴿وَشُهُبًا ۝٨﴾: جمعُ شهاب؛ أي: كواكبَ مضيئةً.

《٩》 ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾: من السماء قبلَ هذا ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لاستماعِ أخبارِ السماء؛ يعني: كنا نجدُ بعض السماء خاليةً من الحرس والشهبِ قبل المبعث، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ﴾: يُرِدِ الاستماعَ ﴿ٱلْـَٔانَ﴾ بعد المبعث ﴿يَجِدْ لَهُۥ﴾: لنفسِه ﴿شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾: صفةٌ لـ(شهاباً) بمعنى

وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ....

الراصد؛ أي: يجدْ شهاباً راصداً له ولأجله، أو: هو اسمُ جمعٍ للراصد، على معنى ذوي شهابٍ راصدين بالرجم، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشُّهُبِ، ويمنعونهم من الاستماع، والجمهورُ على أن ذلك لم يكن قبل مبعث محمد ﷺ، وقيل: كان الرجم في الجاهلية، ولكن الشياطين كانت تسترق السمع في بعض الأوقات، فمُنعوا من الاستراق أصلاً بعد مبعث النبي ﷺ.

《١٠》 ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ﴾: عذابٌ ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾: بعدم استراق السمع، ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾: خيراً ورحمة.

《١١》 ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: الأبرارُ المتقون، ﴿وَمِنَّا﴾ قومٌ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فحذف الموصوف، وهم المقتصدون في الصلاح غيرُ الكاملين فيه، أو أرادوا: غيرَ الصالحين، ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾: بيانٌ للقسمة المذكورة؛ أي: كنا ذوي مذاهبَ متفرقةٍ، أو أديانٍ مختلفةٍ، والقِدَدُ: جمعُ قِدَّةٍ، وهي القطعة؛ مِن: قددتُ السيرَ؛ أي: قطعتُه.

《١٢》 ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾: أيقنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾: لن نَفُوْتَه ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: حالٌ؛ أي: لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها، ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾: مصدرٌ في موضع الحال؛ أي: لن نعجزه هاربين منها إلى السماء، وهذه صفةُ الجنِّ وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم.

《١٣》 ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾: القرآنَ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: بالقرآن أو: بالله، ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾: فهو لا يخاف، مبتدأٌ وخبرٌ[1]، ﴿بَخْسًا﴾: نقصاً من ثوابه، ﴿وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ أي: ولا ترهقُه ذلةٌ؛ مِن قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧] وقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وفيه دليلٌ على أن العمل ليس من الإيمان[2].

《١٤》 ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾: المؤمنون، ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾: الكافرون الجائرون عن طريق الحقِّ، قسطَ: جار، وأقسط: عدل، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾: طلبوا هدىً، والتحري: طلبُ الأحرى؛ أي: الأولى.

---

(١) إذا اقترن المضارع بالفاء الرابطة لجوابِ الشرط.. وجب رفعه، وقُدِّرَ بعدها مبتدأٌ، فتكون الفاء داخلةً على جملة اسمية. انظر «شرح التسهيل» لابن مالك (٤/ ٧٩).

(٢) ولكن لا يكمل الإيمان إلا بالعمل الصالح.

وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ....

《١٥》 ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟﴾ في علم الله ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾: وَقوداً، وفيه دليل على أن الجني الكافر يعذب في النار، ويُتوقف في كيفية ثوابهم.

《١٦》 و(أنْ): مخففة من الثقيلة؛ يعني: وأنه، وهي من جملة الموحَى؛ أي: أُوحي إليَّ أن الشأن (لو) ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: القاسطون ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾: طريقةِ الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾: كثيراً؛ والمعنى: لَوَسَّعْنا عليهم الرزق، وذُكِرَ الماءُ الغدقُ؛ لأنه سبب سعة الرزق.

《١٧》 ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خُوِّلُوا منه، ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾: القرآنِ أو التوحيدِ أو العبادةِ ﴿يَسْلُكْهُ﴾: بالياء: عراقيٌّ غيرَ أبي بكر[1]، يُدخلْه، ﴿عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾: شاقّاً، مصدرُ صَعِدَ؛ يقال: صَعِدَ صُعُوداً وصَعَداً، فوُصف به العذابُ؛ لأنه يتصعدُ المعذَّبَ؛ أي: يعلوه ويغلبُه فلا يُطِيْقُه، ومنه قولُ عمرَ رضي الله تعالى عنه: ما تصعَّدَني شيءٌ ما تصعدني خُطبةُ النكاح[2]؛ أي: ما شقَّ عليَّ.

《١٨》 ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾: من جملة الموحَى؛ أي: أوحي إليَّ أن المساجد؛ أي: البيوتَ المبنيةَ للصلاة فيها لله، وقيل: معناه: ولأن المساجد لله فلا تدعوا؛ على أن اللام متعلقةٌ بـ(لا تدعوا) أي: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ في المساجد؛ لأنها خالصة لله ولعبادته، وقيل: المساجدُ أعضاءُ السجود، وهي الجبهة واليدان والركبتان والقدمان.

《١٩》 ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: محمدٌ عليه السلام إلى الصلاة، وتقديرُه: وأوحي إلى أنه لما قام عبد الله ﴿يَدْعُوهُ﴾: يعبدُه ويقرأ القرآن، ولم يقل: نبيُّ الله أو رسولُ الله؛ لأنه مِن أحبِّ الأسماء إلى النبي ﷺ، ولأنه لما كان واقعاً في كلامه ﷺ عن نفسه.. جيء به على ما يقتضيه التواضعُ، أو: لأن عبادة عبدِ الله لله ليست بمستبعَدٍ حتى يكونوا عليه لِبداً، ﴿كَادُوا۟﴾: كاد الجنُّ

---

(١) قرأ الكوفيون ويعقوب: بالياء، والباقون: بالنون. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٠).

(٢) في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٣٠): قيل: إنما تصعب عليه لقرب الوجوه من الوجوه ونظر بعضهم إلى بعض.
وخُطبةُ النكاح: أن يَحمدَ اللهَ الخاطبُ أو نائبُه، ويصلي على النبي ﷺ، ويوصي بتقوى الله، وهذا مستحب قبل خِطبة المرأة، وقبل العقد. انظر «مغني المحتاج» (٤/ ٢٢٣).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ ....

﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾: جماعاتٍ، جمعُ لِبدةٍ، تعجباً مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابِه به، وإعجاباً بما تلاه من القرآن؛ لأنهم رَأَوا ما لم يَروا مثله.

《٢٠》 ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾ وحدَه، ﴿قال﴾: غيرُ عاصمٍ وحمزة[1]، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ في العبادة، فَلِمَ تتعجبون وتزدحمون عليّ.

《٢١》 ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾: مضرةً، ﴿وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾: نفعاً، أو أراد بالضَّرِّ: الغيَّ؛ بدليل قراءة أُبَيٍّ: ﴿غيّاً ولا رشداً﴾[2] يعني: لا أستطيع أن أضرَّكم وأن أنفعكم؛ لأن الضارَّ والنافعَ هو الله.

《٢٢》 ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾: لن يدفع عني عذابَه أحدٌ إن عصيتُه، كقول صالح عليه السلام: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ [هود: ٦٣]، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾: ملتجأ.

《٢٣》 ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: استثناءٌ مِن ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ أي: لا أملك لكم ضَراً ولا رشداً إلا بلاغاً من الله، و﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى﴾: اعتراضٌ لتأكيدِ نفي الاستطاعة عن نفسه وبيانِ عجزِه، وقيل: (بلاغاً): بدلٌ مِن ﴿مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: لن أجد من دونه مَنْجىً إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به؛ يعني: لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به، فإن ذلك ينجيني، وقال الفراء: هذا شرطٌ وجزاءٌ، وليس باستثناءٍ، و(أنْ) منفصلة مِن (لا) وتقديرُه: إنْ لا أبلغْ بلاغاً؛ أي: إنْ لم أبلغ.. لم أجد من دونه ملتجأً ولا مُجيراً لي، كقولك: إنْ لا قياماً.. فقعوداً، والبلاغُ في هذه الوجوه بمعنى: التبليغ، ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾: عطفٌ على (بلاغاً) كأنه قيل: لا أملك لكم إلا التبليغَ والرسالاتِ؛ أي: إلا أن أبلغَ عن الله فأقولَ: قال الله كذا، ناسباً لقوله إليه، وأن أبلغَ رسالته التي أرسلني بها، بلا زيادة ونقصان، و(مِن) ليست بصلة للتبليغ؛ لأنه يقال: بلغ عنه، إنما هي بمنزلة (مِن) في ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١] أي: بلاغاً كائناً من الله، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في ترك القبول لما[3] أنزل على الرسول؛ لأنه ذُكِرَ على أثر تبليغ الرسالة، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ وَحّدَ في قوله (له) وجمعَ في (خالدين) للفظِ (مَن) ومعناه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٠). (٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٤).

(٣) في الأصل: (بما) والمثبت من المطبوع (٤/ ٣٤٢) وهو أولى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾

《٢٤》 ﴿حَتَّىٰٓ﴾: يتعلق بمحذوفٍ دلت عليه الحال، كأنه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتى ﴿إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ أهمْ أم المؤمنون؟ أي: الكافرُ لا ناصرَ له يومئذ، والمؤمنُ ينصره الله وملائكته وأنبياؤه.

《٢٥》 ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ﴾: ما أدري ﴿أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب، ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ﴾ وبفتح الياء: حجازيٌّ وأبو عمروٍ[1]، ﴿أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾: غايةً بعيدةً؛ يعني: أنكم تُعَذَّبُون قطعاً، ولكن لا أدري أهو حالٌّ أم مؤجلٌ.

《٢٦》 ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: خبرُ مبتدأٍ؛ أي: هو عالم الغيب، ﴿فَلَا يُظۡهِرُ﴾: فلا يطلع ﴿عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ من خلقه.

《٢٧》 ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾: إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب؛ ليكون إخباره عن الغيب معجزةً له، فإنه يطلعُه على غيبه ما شاء، و(مِن رسول): بيانٌ لـ(من ارتضى)، والوليُّ إذا أخبر بشيء فظهرَ. . فهو غير جازم عليه، ولكنه أَخْبَرَ بناءً على رؤياه، أو بالفراسة، على أن كل كرامة للولي فهي معجزة للرسول، وذكر في «التأويلات»: قال بعضُهم: في هذه الآية دلالة تكذيب المنجمة، وليس كذلك، فإن فيهم مَن يصدقُ خبرُه، وكذلك المتطببةُ يعرفون طبائع النبات، وذا لا يُعرفُ بالتأمل، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسولٍ انقطع أثرُه، وبقي علمُه في الخلق، ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ﴾: يُدخل ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: يدي الرسول، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾: حفظةً من الملائكة يحفظونه من الشياطين، ويعصمونه من وساوسِهم وتخاليطِهم حتى يُبلغَ الوحْيَ.

《٢٨》 ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ اللهُ ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾ أي: الرسلُ ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ كاملةً بلا زيادة ولا نقصان إلى المرسَلِ إليهم؛ أي: ليعلم الله ذلك موجوداً حالَ وجودِه، كما كان يعلم ذلك قبل وجوده أنه

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٠) وكذا القراءة الآتية.

يوجد، وَحَّدَ الضمير في ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ للفظِ (مَن)، وجمعَ في (أبلغوا) لمعناه، ﴿وَأَحَاطَ﴾ اللهُ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: بما عند الرسل من العلم، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ من القطرِ والرملِ وورقِ الأشجارِ وزَبَدِ البحار، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وَحْيِهِ وكلامِه، و(عدداً): حال؛ أي: وعلم كل شيء معدوداً محصوراً، أو: مصدرٌ في معنى: إحصاءً.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ ....

سورة المزمل

مكية، وهي تسعَ عشرةَ أو عشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ أي: المتزمل، وهو الذي تزمل في ثيابه؛ أي: تلفف بها، بإدغام التاء في الزاي، كان النبي ﷺ نائماً في الليل متزملاً في ثيابه فأُمِرَ بالقيام للصلاة بقوله:

《٢ - ٣》 ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ﴾: بدلٌ من (الليل)، و(إلا قليلاً): استثناءٌ من قوله: نصفَه، تقديرُه: قُمْ نصفَ الليل، إلا قليلاً من نصف الليل، ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾: من النصف، بضم الواو: غيرُ عاصمٍ وحمزةَ، ﴿قَلِيلًا ۝٣﴾: إلى الثلث.

《٤》 ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾: على النصف إلى الثلثين؛ والمراد: التخييرُ بين أمرين: بين أن يقوم أقلَّ من نصف الليل على البتِّ، وبين أن يختار أحدَ الأمرين، وهما: النقصانُ من النصف والزيادةُ عليه، وإن جعلت ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلاً مِن ﴿قَلِيلٗا﴾ كان مخيراً بين ثلاثة أشياء: بين قيام نصف الليل تامّاً، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، وإنما وُصِفَ النصف بالقلة بالنسبة إلى الكلِّ، وإلا.. فإطلاق لفظ القليل ينطلقُ على ما دون النصف، ولهذا قلنا: إذا أقرَّ أن لفلان عليه ألفَ درهم إلا قليلاً أنه يلزمه أكثرُ من نصف الألف، ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: بيِّنْ وفصِّلْ؛ مِن الثغر المرتَّلِ؛ أي: المفلَّجِ، أو: اقرأْ على تُؤَدَةٍ بتبيين الحروفِ، وحفظ الوقوفِ، وإشباع الحركات، ﴿تَرۡتِيلًا ۝٤﴾: هو تأكيدٌ في إيجاب الأمر به، وأنه لا بدَّ منه للقارئ.

《٥》 ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ﴾: سننزل عليك ﴿قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾ أي: القرآنَ؛ لما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليفُ شاقَّةٌ ثقيلةٌ على المكلفين، أو: ثقيلاً على المنافقين، أو: كلام له وزنٌ ورجحانٌ ليس بالسَّفْسافِ الخفيفِ.

《٦》 ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: بالهمزة: سِوى ورشٍ[1]، قيامُ الليل، عن ابن مسعود رضي الله عنه، فهو مصدرٌ مِن: نشأَ: إذا قام ونهض، على (فاعلة) كالعافية، أو: العبادةُ التي تَنْشَأُ بالليل؛

(١) هي رواية الأصبهاني عن ورش. انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٧٨)، وقال في «البدور الزاهرة» (ص ٣٣٠): أبدل أبو جعفر همزه ياءً خالصةً مطلقاً، وكذلك حمزةُ عند الوقف.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾ ....

أي: تَحْدُثُ، أو: ساعاتُ الليل؛ لأنها تَنْشَأُ ساعةً فساعةً، وكان زينُ العابدين رضي الله عنه يصلي بين العشاءين ويقول: هذه ناشئة الليل، ﴿هي أشدُّ وِطاءً﴾: وِفاقاً: شاميٌّ وأبو عمرٍو؛ أي: يواطئُ فيها قلبُ القائم لسانَه، وعن الحسن: أشدُّ موافقةً بين السرِّ والعلانيةِ؛ لانقطاع رؤية الخلائق، غيرُهما: ﴿وَطۡـٔٗا﴾[1] أي: أثقلُ على المصلي من صلاة النهار؛ لطرد النوم في وقته؛ مِن قوله ﷺ: «اللهم اشددْ وطأتك على مضر»[2]، ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾: وأشدُّ مقالاً، وأثبتُ قراءةً؛ لِهُدُوِّ الأصواتِ، وانقطاعِ الحركاتِ.

《٧》 ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾: تصرفاً وتقلباً في مهماتك وشواغلك، ففرِّغ نفسك بالليل لعبادة ربك، أو فراغاً طويلاً لنومك وراحتك.

《٨》 ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾: ودُمْ على ذكره في الليل والنهار، وذكرُ الله يتناول التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة وتلاوة القرآن ودراسة العلم، ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾: انقطعْ إلى عبادته عن كل شيء، والتبتلُ: الانقطاعُ إلى الله تعالى بتأميل الخير منه دون غيره، وقيل: رفضُ الدنيا وما فيها، والتماسُ ما عند الله، ﴿تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾: في اختلاف المصدر زيادةُ تأكيد؛ أي: بَتَّلك الله فتبتل تبتيلاً، أو: جيء به مراعاة لحقِّ الفواصل.

《٩》 ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾: بالرفع؛ أي: هو ربُّ، أو: مبتدأٌ خبرُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وبالجرِّ: شاميٌّ وكوفيٌّ غيرَ حفصٍ[3]، بدلٌ من ﴿رَبِّكَ﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما على القسمِ بإضمار حرف القسم، نحو: اللهِ لأفعلن، وجوابُه: (لا إله إلا هو) كقوله: واللهِ لا أحدَ في الدار إلا زيدٌ، ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾: وليّاً وكفيلاً بما وعدك من النصر، أو: إذا علمت أنه ملكَ المشرقَ والمغربَ، وأنْ لا إله إلا هو.. فاتخذه كافياً لأمورك، وفائدةُ الفاء: ألّا تلبثَ بعد أنْ عرفت في تفويض الأمور إلى الواحد القهار؛ إذْ لا عذرَ لك في الانتظار بعد الإقرار.

《١٠》 ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيَّ مِن الصاحبة والولد، وفيك من الساحر والشاعر، ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾: جانبهم بقلبك، وخالفهم مع حسن المخالفةِ، وتركِ المكافأة، وقيل: هو منسوخ بآية القتال.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٠).

(٢) رواه البخاري (٨٠٤) ومسلم (٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٠).

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ....

《١١》 ﴿وَذَرْنِي﴾ أي: كِلْهُمْ إليَّ فأنا كافيهم، ﴿وَالْمُكَذِّبِينَ﴾: رؤساءَ قريش، مفعولٌ معه، أو عطفٌ على (ذرني) أي: دعني وإياهم، ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾: التنعم، وبالكسر: الإنعام، وبالضم: المسرةُ، ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾ إمهالاً ﴿قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ إلى يوم بدرٍ، أو: إلى يوم القيامة.

《١٢》 ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾: للكافرين في الآخرة، ﴿أَنكَالًا﴾: قيوداً ثِقالاً، جمعُ نِكْلٍ، ﴿وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾: ناراً مُحرقةً.

《١٣》 ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: الذي يَنْشَبُ في الحُلُوق فلا يَنْساغُ؛ يعني: الضَّريعَ والزَّقُّوْمَ، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾: يَخْلُصُ وجعُه إلى القلب، وروي: أنه ﷺ قرأ هذه الآية فصَعِقَ، وعن الحسن: أنه أمسى صائماً، فأُتِيَ بطعام فعَرَضَت له هذه الآيةُ، فقال: ارفعْه، وَوُضِعَ عنده الليلةَ الثانيةَ فعَرَضت له فقال: ارفعْه، وكذلك الليلةُ الثالثةُ، فأُخبِرَ ثابتٌ البنانيُّ وغيرُه فجاؤوا، فلم يزالوا به حتى شرب شَرْبةً من سَوِيْقٍ.

《١٤》 ﴿يَوْمَ﴾: منصوب بما في ﴿لَدَيْنَا﴾ من معنى الفعل؛ أي: استقرَّ للكفار لدينا كذا وكذا يومَ ﴿تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: تتحرك حركة شديدة، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا﴾: رملاً مجتمعاً؛ مِن: كَثَبَ الشيءَ: إذا جمعَه كأنه (فعيل) بمعنى (مفعول) ﴿مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾: سائلاً بعد اجتماعه.

《١٥》 ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهلَ مكةَ ﴿رَسُولًا﴾ يعني: محمداً عليه السلام ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ يعني: موسى عليه السلام.

《١٦》 ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أي: ذلك الرسولَ؛ إذ النكرة إذا أعيدت معرفة.. كان الثاني عين الأول، ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾: شديداً غليظاً، وإنما خُصَّ موسى وفرعون؛ لأن خبرهما كان منتشراً بين أهل مكة؛ لأنهم كانوا جيران اليهود.

《١٧》 ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ هو مفعولُ (تتقون) أي: كيف تتقون عذاب يوم كذا إن كفرتم، أو: ظرفٌ؛ أي: فكيف لكم التقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا، أو: منصوبٌ بـ(كفرتم) على تأويل: جحدتم؛ أي: فكيف تتقون الله وتخشونَه إن جحدتم يومَ القيامة والجزاء؛

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩ ۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾

لأن تقوى الله خوفُ عقابِه، ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ﴾: صفةٌ لـ(يوماً) والعائدُ محذوف؛ أي: فيه، ﴿شِيبًا ١٧﴾ مِن هَوْلِهِ وشدتِه، وذلك حين يقال لآدمَ عليه السلام، «قمْ فابعث بَعْثَ النار من ذريتك»[1]، وهو جمعُ أَشْيَبَ، وقيل: هو على التمثيل للتهويل؛ يقال: في اليوم الشديد: يومٌ يُشَيِّبُ نواصيَ الأطفال.

«١٨» ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ وَصْفٌ لليوم بالشدة أيضاً؛ أي: السماءُ على عظمِها وإحكامِها تنفطرُ به؛ أي: تنشقُّ، فما ظنك بغيرها من الخلائق، والتذكيرُ على تأويل السماء بالسقف، أو: السماءُ شيء منفطرٌ، وقولُه (به) أي: بيوم القيامة؛ يعني: أنها تنفطر لشدة ذلك اليوم، وهَوْلِه، كما ينفطرُ الشيءُ بما يُفطر به، ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾ المصدرُ مضافٌ إلى المفعول، وهو اليومُ، أو إلى الفاعل، وهو الله عزَّ وجلَّ، ﴿مَفۡعُولًا ١٨﴾: كائناً.

«١٩» ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الآياتِ الناطقةَ بالوعيد ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾: موعظةٌ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ أي: فمن شاء.. اتَّعظ بها، واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية.

«٢٠» ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ﴾: أقلَّ، فاسْتُعِيْرَ الأدنى وهو الأقربُ.. للأقل؛ لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت.. قلَّ ما بينهما من الأحياز، وإذا بعدت.. كثر ذلك، ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾: بضم اللام: سِوى هشام[2]، ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾: منصوبان، عطفٌ على أدنى: مكيٌّ وكوفيٌّ، ومن جرَّهما.. عطفَ على (ثلثي)[3]، ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾: عطفٌ على الضمير في (تقوم)، وجاز بلا توكيدٍ لوجود الفاصل، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: ويقوم ذلك المقدارَ جماعةٌ من

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألفٍ تسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعين، فعنده يشيب الصغير...» رواه البخاري (١٣٨/٤) ومسلم (٢٢٢).

(٢) وهشام: بسكون اللام. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٠).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٠).

....

أصحابك، ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ولا يَقدرُ على تقدير الليل والنهار، ولا يعلم مقاديرَ ساعاتِهما إلا اللهُ وحدَه، وتقديمُ اسمه عزَّ وجلَّ مبتدأً مبنيّاً عليه: (يقدر) هو الدالُّ على أنه مختصٌّ بالتقدير، ثم إنهم قاموا حتى انتفخت أقدامُهم فنزل: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾: لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدة ومشقة، وفي ذلك حرجٌ، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: فخفف عليكم وأسقط عنكم فرض قيام الليل، ﴿فَاقْرَءُوا﴾ في الصلاة، والأمرُ للوجوب؛ أو: في غيرها، والأمرُ للندب، ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ عليكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ روى أبو حنيفة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: «من قرأ مئةَ آية في ليلة.. لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مئتي آية.. كتب من القانتين»[1]. وقيل: أراد بالقرآن الصلاةَ؛ لأنه بعضُ أركانِها؛ أي: فصلُّوا ما تيسر عليكم ولم يتعذرْ من صلاة الليل، وهذا ناسخٌ للأول، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس، ثم بيَّنَ الحكمة في النسخ، وهي تعذرُ القيام على المرضى والمسافرين والمجاهدين فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم﴾ أي: أنَّهُ، مخففةٌ من الثقيلة، والسين بدلٌ من تخفيفِها وحذفِ اسمِها، ﴿مَّرْضَىٰ﴾ فيشقُّ عليهم قيامُ الليل، ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: يسافرون ﴿يَبْتَغُونَ﴾: حالٌ من ضمير (يضربون) ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾: رزقِه بالتجارة، أو طلبِ العلمِ، ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سَوَّى بين المجاهد والمكتسب؛ لأن كسب الحلال جهاد، قال ابن مسعود رضي الله عنه: أيُّما رجلٍ جَلَبَ شيئاً إلى المدينة من مدائنِ المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعرِ يومِه.. كان عند الله من الشهداء، وقال ابنُ عمرَ رضي الله عنهما: ما خلق الله مَوتةً أموتُها بعد القتل في سبيل الله أحبَّ إليَّ من أن أموت بين شُعْبَتَيْ رَحْلٍ أضربُ في الأرض أبتغي من فضل الله[2]، ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ كرَّرَ الأمرَ بالتيسير لشدة احتياطهم، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضةَ، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبةَ، ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ بالنوافل، والقرضُ لغة: القطعُ، فالمقرضُ: يقطعُ ذلك القدرَ من ماله فيدفعه إلى غيره، وكذا المتصدقُ يقطع ذلك القدرَ من ماله فيجعله لله تعالى، وإنما أضافه إلى نفسه لئلا يَمُنَّ على الفقير فيما يتصدق به عليه، وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القُرْبةِ، فلا يكونُ له عليه مِنَّةٌ، بل المنةُ للفقير عليه، ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الحلال بالإخلاص، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ أي:

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الصغير» (١/ ٢٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وقال: ورواه أبو حازم عن أبي هريرة بمعناه موقوفاً.

(٢) روى هذين الأَثَرينِ الثعلبيُّ في «الكشف والبيان» (١٠/ ٦٥-٦٦).

....

ثوابَه، وهو جواب الشرط، ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرًا﴾ مما خلَّفتم وتركتم، فالمفعول الثاني لـ(تجدوه): (خيراً) و(هو): فصلٌ، وجاز وإن لم يقع بين معرفتين؛ لأن (أفعل مِن) أشبه المعرفةَ؛ لامتناعه من حرف التعريف، ﴿وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾: وأجزل ثواباً، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾ من السيئاتِ والتقصيرِ في الحسنات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ يسترُ على أهل الذنب والتقصير، ﴿رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ يخففُ عن أهل الجَهْدِ والتوفير[1].



(١) التوفير: إكمالُ الشيء، فلعل المراد بأهل التوفير: الذين يُؤدُّون ما عليهم من الحقوق كاملةً دون نقصان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ ....

سورة المدثر

ستٌّ وخمسون آيةً؛ مكيّةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

روى جابرٌ: أن النبي ﷺ قال: «كنتُ على جبلِ حراءَ، فنوديتُ: يا محمدُ إنك رسول الله، فنظرت عن يمني ويساري، فلم أرَ شيئاً، فنظرتُ فوقي، فإذا هو قاعدٌ على عرشٍ بين السماء والأرض؛ يعني: الملك الذي ناداه، فرُعبتُ ورجعتُ إلى خديجة فقلت: دثِّروني دثِّروني»، فدثرته خديجةُ، فجاء جبريل وقرأ[1]:

《١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ أي: المتلففُ بثيابه؛ من الدِّثار، وهو كلُّ ما كان من الثياب فوق الشِّعَارِ، والشِّعارُ: الثوبُ الذي يلي الجسد، وأصلُه: المتدثرُ، فأدغم.

《٢》 ﴿قُمۡ﴾ من مَضْجَعِك، أو: قم قيامَ عزم وتصميم، ﴿فَأَنذِرۡ ۝٢﴾: فحذر قومَك من عذاب الله إن لم يؤمنوا، أو: فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد، وقيل: سمع من قريشٍ ما كرهه فاغتمَّ فتغطَّى بثوبه مفكِّراً كما يفعل المغمومُ، فقيل له: يا أيها الصارف أذى الكفار عن نفسك بالدِّثار، قمْ فاشتغل بالإنذار، وإن آذاك الفجار.

《٣》 ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾: واختصَّ ربَّك بالتكبير، وهو التعظيم؛ أي: لا يكبر في عينك غيرُه، وقل عندما يعروك من غيره: اللهُ أكبرُ، وروي: أنه لما نزل.. قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر»، فكبرت خديجةُ وفرحت، وأيقنت أنه الوحي، وقد يُحملُ على تكبير الصلاة، ودخلت الفاءُ بمعنى الشرط، كأنه قيل: وما كان.. فلا تدعْ تكبيرَه.

《٤》 ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ بالماء عن النجاسة؛ لأن الصلاة لا تصحُّ إلا بها، وهي الأَولى في غير الصلاة، أو: فَقَصِّرْ مخالفةً للعرب في تطويلهم الثيابَ، وجرِّهم الذيولَ؛ إذْ لا يُؤْمَنُ معه إصابةُ النجاسة، أو: طهِّرْ نفسك مما يُستقذر من الأفعال؛ يقال: فلانٌ طاهرُ الثياب: إذا وصفوه بالنقاء من المعايبِ، وفلانٌ دَنِسُ الثياب للغادر، ولأنَّ مَن طهَّرَ باطنَه يُطَهِّرُ ظاهرَه ظاهراً.

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٤٩٢٢) ومسلم (١٦١).

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ ....

《٥》 ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾: بضم الراء: يعقوبُ وسهلٌ وحفصٌ، وغيرُهم: بالكسر[1]، العذابُ، والمرادُ: ما يؤدي إليه، ﴿فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ أي: اثبتْ على هجره؛ لأنه كان بريئاً منه.

《٦》 ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾: بالرفع، وهو منصوب المحلِّ على الحال؛ أي: لا تعطِ مستكثراً رائياً لما تعطيه كثيراً، أو طالباً أكثرَ مما أُعطيت، فإنك مأمورٌ بأجلِّ الأخلاق، وأشرفِ الآداب، وهو مِن: مَنَّ عليه: إذا أنعم عليه، وقرأ الحسن: ﴿تستكثرْ﴾: بالسكون جواباً للنهي[2].

《٧》 ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾: ولوجه الله فاستعملِ الصبرَ على أوامره ونواهيْه، وكلِّ مصبورٍ عليه ومصبورٍ عنه.

《٨》 ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾: نُفخ في الصور، وهي النفخة الأولى، وقيل: الثانية.

《٩》 ﴿فَذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى وقت النقر، وهو مبتدأٌ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: مرفوعُ المحلِّ بدلٌ من (ذلك)، ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾: خبرٌ، كأنه قيل: فيومُ النقر يومٌ عسيرٌ، والفاءُ في ﴿فَإِذَا﴾: للتسبيب، وفي (فذلك): للجزاء، كأنه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك عليه، والعاملُ في ﴿فَإِذَا﴾: ما دلَّ عليها الجزاء؛ أي: فإذا نقر في الناقور.. عَسُرَ الأمرُ.

《١٠》 ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ وأُكِّد بقوله: (غيرُ يسير) لِيؤذن بأنه يسيرٌ على المؤمنين، أو عسيرٌ لا يُرجَى أن يرجع يسيراً، كما يُرجَى تيسيرُ العسير من أمور الدنيا.

《١١》 ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي: كِلْهُ إليَّ؛ يعني: الوليدَ بنَ المغيرة، وكان يلقب في قومه بالوحيد، و(من خلقت): معطوفٌ، أو مفعولٌ معه، ﴿وَحِيدًا ۝١١﴾: حالٌ من الياء في (ذرني) أي: ذرني وحدي معه، فإني أكفيك أمرَه، أو: من التاء في (خلقت) أي: خلقتُه وحدي لم يَشركني في خلقه أحدٌ، أو: من الهاء المحذوفة، أو: مِن (مَن) أي: خلقته منفرداً بلا أهل ومال، ثم أنعمتُ عليه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣١).

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٥٣).

وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ . . .

《١٢》 ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾: مبسوطاً كثيراً، أو ممدوداً بالنّماء، وكان له الزرعُ والضرعُ والتجارةُ، وعن مجاهد: كان له مئةُ ألفِ دينارٍ، وعنه: أن له أرضاً بالطائف لا تنقطع ثمارُها.

《١٣》 ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾: حضوراً معه بمكةَ لِغناهم عن السفر، وكانوا عشرةً، أسلم منهم خالدٌ وهشامٌ وعُمارةُ.

《١٤》 ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾: وبَسطتُ له الجاه والرياسة، فأتممت عليه نِعمتَي الجاهِ والمالِ، واجتماعُهما هو الكمال عند أهل الدنيا.

《١٥》 ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾: استبعادٌ واستنكارٌ لطمعه وحرصه، فيرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر، وقال الحسن: أن أزيد: أن أدخله الجنةَ فأعطيَه مالاً وولداً كما قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

《١٦》 ﴿كَلَّآ﴾: ردعٌ له وقطعٌ لرجائه؛ أي: لا يُجمعُ له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم، فلم يزلْ بعد نزول الآية في نقصان من المال والجاه حتى هلك، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾: معانداً جاحداً، وهو تعليلٌ للردع على وجه الاستئناف، كأن قائلاً قال: لم لا يزاد؟ فقيل: إنه عاندَ آياتِ المنعم، وكفر بذلك نعمته، والكافرُ لا يستحقُّ المزيد.

《١٧》 ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾: سَأُغْشِيْهِ ﴿صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾: عَقَبَةً شاقَّةَ المَصْعَدِ، وفي الحديث: «الصَّعُود: جبلٌ من نار يصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يَهوي فيه كذلك أبداً»[(١)].

《١٨》 ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾: تعليلٌ للوعيد، كأن الله تعالى عاجله بالفقر والذلّ بعد الغنى والعزِّ؛ لعناده، ويعاقبه في الآخرة بأشدِّ العذاب لبلوغِه بالعناد غايتَه، وتسميتِه القرآن سحراً، يعني: أنه فكرَ ماذا يقول في القرآن؟ ﴿وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ في نفسه ما يقولُه وهيأه.

《١٩》 ﴿فَقُتِلَ﴾: لُعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾: تعجيبٌ من تقديره.

《٢٠》 ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ كُرِّرَ للتأكيد، و(ثمَّ): يُشعرُ بأن الدعاء الثانيَ أبلغُ من الأول.

《٢١》 ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ في وجوه الناس، أو: فيما قدَّر.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٧٦) عن سيدنا أبي سعيد رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ ....

《٢٢》 ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾: قطَّب وجهَه، ﴿وَبَسَرَ ۝٢٢﴾: زاد في التَّقبُّضِ والكُلوح.

《٢٣》 ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ، ﴿وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣﴾ عنه، أو: عن مقامه، وفي مقاله[1]، ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾: عطفٌ على ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، والدعاءُ: اعتراضٌ بينهما، وإيراد (ثم) في المعطوفات لبيانِ أن بين الأفعال المعطوفة تراخياً.

《٢٤》 ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾: ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾: يُروَى عن السحرة، روي: أن الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن له لحلاوةً، وإن عليه لطُلاوةً، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغدقٌ، وإنه يعلو ولا يُعلى، فقالت قريش: صبأ واللهِ الوليدُ، فقال أبو جهل وهو ابن أخيه: أنا أكفيكموه، فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه، فأتاهم، فقال: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يُخنَقُ؟ وتقولون: إنه كاهنٌ، فهل رأيتموه قطُّ يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطَى شعراً قطُّ؟ وتزعُمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كلِّ ذلك: اللهم لا، ثم قالوا: فما هو؟ ففكر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يُفرِّقُ بين الرجل وأهله، وولده ومواليه؟ وما الذي يقوله إلا سحرٌ يأثُره عن مسيلِمةَ وأهلِ بابلَ، فارتجَّ النادي فرحاً، وتفرقوا متعجبين منه[2]، وذكرُ الفاءِ دليلٌ على أن هذه الكلمة لما خطرت بباله.. نطقَ بها من غير تلبث.

《٢٥》 ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ ولم يُذكر العاطفُ بين هاتين الجملتين؛ لأن الثانية جرت مجرى التوكيد للأولى.

《٢٦》 ﴿سَأُصْلِيهِ﴾: سأدخلُه، بدلٌ مِن ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ ﴿سَقَرَ ۝٢٦﴾: علمٌ لجنهم، ولم ينصرف للتعريف والتأنيث.

《٢٧》 ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾: تهويلٌ لشأنها.

《٢٨》 ﴿لَا تُبْقِى﴾ أي: هي لا تُبقي لحماً، ﴿وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ عظماً، أو: لا تُبقي شيئاً يُلقَى فيها إلا أهلكته، ولا تَذَره هالكاً بل يعودُ كما كان.

---

(١) أي: (أدبر) عن مقامه، (واستكبر) في مقاله.

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢٤).

لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ....

《٢٩》 ﴿لَوَّاحَةٌ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هي لواحةٌ ﴿لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾: جمعُ بشرة، وهي: ظاهرُ الجلد؛ أي: مُسَوِّدَةٌ للجلود ومُحرقةٌ لها.

《٣٠》 ﴿عَلَيْهَا﴾: على سقرَ ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يَلِي أمرَها تسعةَ عشرَ ملكاً عند الجمهور، وقيل: صنفاً من الملائكة، وقيل: صفّاً، وقيل: نَقيباً.

《٣١》 ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي: خزنتَها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ لأنهم خلافُ جنس المعذَّبين، فلا تأخذُهم الرأفةُ والرقةُ؛ لأنهم أشدُّ الخلقِ بأساً، فللواحد منهم قوةُ الثقلين، ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تسعةَ عشرَ ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً واختباراً ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حتى قال أبو جهل لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾: أما يستطيع كلُّ عشرة منكم أن يأخذوا واحداً منهم وأنتم الدَّهْمُ[1]؟ فقال أبو الأَشَدِّ وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعةَ عشرَ، فاكفوني أنتم اثنين، فنزلت: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أي: وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يُطاقُون، وقالوا في تخصيص الخزنة بهذا العددِ مع أنه لا يُطلب في الأعداد العلل: إنَّ ستةً منهم يقودون الكفرة إلى النار، وستةً يسوقونهم، وستةً يضربونهم بمقامعِ الحديدِ، والآخر: خازنُ جهنمَ وهو مالك، وهو الأكبر، وقيل: في سقرَ تسعةَ عشرَ دَرْكاً، وقد سُلِّط على كل دَرْكٍ ملكٌ، وقيل: يُعَذَّبُ فيها بتسعةَ عشرَ لوناً من العذاب، وعلى كلِّ لونٍ ملكٌ موكَّلٌ، وقيل: إن جهنم تُحفظ بما تُحفظ به الأرضُ من الجبال، وهي تسعةَ عشرَ، وكان أصلُها مئةً وتسعين، إلا أن غيرها ينشعبُ عنها، ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لأن عدتهم تسعةَ عشرَ في الكتابين، فإذا سمعوا بمثلها في القرآن.. أيقنوا أنه منزلٌ من الله، ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمدٍ، وهو عطفٌ على (ليستيقن) ﴿إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بذلك، كما صدَّقُوا سائرَ ما أنزل، أو: يزدادُوا يقيناً لموافقة كتابِهم كتابَ أولئك، ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾: هذا عطفٌ أيضاً، وفيه توكيدٌ للاستيقانِ وزيادةِ الإيمان؛ إذ الاستيقانُ وازديادُ الإيمان دالّان على انتفاء الارتياب، ثم عُطِفَ على (ليستيقن) أيضاً: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: نفاقٌ، ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾: المشركون، **فإن قلت**: النفاقُ ظهر في المدينة، والسورةُ مكيةٌ.. **قلتُ**:

(١) **الدَّهْمُ**: العدد الكثير.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ....﴾

معناه: وليقول المنافقون الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة، والكافرون بمكةَ: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: وهذا إخبارٌ بما سيكون، كسائر الإخبارات بالغيوب، وذا لا يخالف كون السورة مكيةً، وقيل: المرادُ بالمرض: الشكُّ والارتياب؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكّين، و(مثلاً): تمييزٌ لـ(هذا)، أو: حالٌ منه، كقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، ولما كان ذكر العدد في غاية الغرابة، وأن مِثْلَه حَقِيقٌ بأن تسير به الركبان سَيْرَها بالأمثال.. سُمّيَ مثلاً؛ والمعنى: أيَّ شيء أراد الله بهذا العدد العجيب؟ وأيَّ معنىً أراد في أنْ جعل الملائكة تسعةَ عشرَ، لا عشرين، وغرضُهم إنكارُه أصلاً، وأنه ليس من عند الله، وأنه لو كان من عند الله.. لما جاء بهذا العدد الناقص، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ الكافُ: نصبٌ، و(ذلك): إشارةٌ إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى؛ أي: مثلَ ذلك المذكورِ من الإضلال والهدى؛ يعني: إضلالَ المنافقين والمشركين حتى قالوا ما قالوا، وهَدْيَ المؤمنين لتصديقه ورؤيةِ الحكمة في ذلك.. يُضِلُّ اللهُ من يشاء من عباده، وهو الذي عَلِمَ منه اختيارَ الضلال، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي عَلِمَ منه اختيار الاهتداء، وفيه دليلُ خلقِ الأفعال، ووصفِ الله بالهداية والإضلال، ولما قال أبو جهل لعنه الله: أمَا لربِّ محمدٍ أعوانٌ إلا تسعةَ عشرَ.. نزل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ لفرطِ كثرتِها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا يَعِزُّ عليه تتميمُ الخزنة عشرين، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمةٌ لا تعلمونها، ﴿وَمَا هِىَ﴾: متصلٌ بوصف سقرَ، و(هي): ضميرُها؛ أي: وما سقرُ وصفتُها ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ أي: تذكرةٌ للبشر، أو: ضميرُ الآيات التي ذُكِرَتْ فيها.

《٣٢》 ﴿كَلَّا﴾: إنكارٌ بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى؛ لأنهم لا يتذكرون، ﴿وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ أقسمَ به لِعِظَم منافعِه.

《٣٣》 ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾: نافعٌ وحفصٌ وحمزةُ ويعقوبُ وخلفٌ، وغيرُهم: ﴿إذا دبر﴾ بمعنى: أدبر، ومعناهما: وَلّى وذَهَبَ، وقيل: أدبر: وَلّى ومضى، ودَبَرَ: جاء بعد النهار.

《٣٤》 ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾: أضاء، وجوابُ القسم:

《٣٥》 ﴿إِنَّهَا﴾: إن سقرَ ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾: هي جمعُ الكبرى؛ أي: لإحدى البلايا، أو الدواهي الكُبَرِ، ومعنى كونها إحداهن: أنها من بينهن واحدةٌ في العِظَمِ لا نظيرةَ لها، كما تقول: هو أحد الرجال، وهي إحدى النساء.

نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ....

«٣٦ - ٣٧» ﴿نَذِيرًا﴾: تمييزٌ من (إحدى) أي: إنها لإحدى الدواهي إنذاراً، كقولك: هي إحدى النساء عفافاً، وأبدل مِن: ﴿لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بإعادة الجارِّ، ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الخير، ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ عنه، وعن الزجاج: إلى ما أُمر، وعمّا نُهي.

«٣٨» ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ هي ليست بتأنيث (رهين) في قوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفةُ.. لقيل: رهينٌ؛ لأن (فعيلاً) بمعنى (مفعول) يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي اسمٌ؛ بمعنى: الرهن، كالشتيمة بمعنى: الشتم، كأنه قيل: كلُّ نفس بما كسبت رهنٌ؛ والمعنى: كلُّ نفس رهنٌ بكسبها عند الله، غيرُ مفكوك.

«٣٩» ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أطفالَ المسلمين؛ لأنهم لا أعمالَ لهم يُرهَنون بها، أو: إلا المسلمين؛ فإنهم فَكُّوا رقابَهم بالطاعة، كما يُخلِّصُ الراهن رهنه بأداء الحقِّ.

«٤٠ - ٤١» ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ أي: هم في جنات لا يُكتنه وصفُها، ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾: يسأل بعضهم بعضاً عنهم، أو: يتساءلون غيرَهم عنهم.

«٤٢» ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾: أدخلكم فيها.

ولا يقال: لا يطابقُ قولُه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ وهو سؤالٌ للمجرمين قولَه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ وهو سؤالٌ عنهم، وإنما يطابقُ ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم.

لأن ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ ليس ببيان للتساؤل عنهم، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم؛ لأن المسؤولين يُلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين، فيقولون: قلنا لهم: ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين، إلا أنه اختُصر كما هو نهج القرآن، وقيل: (عن): زائدة.

«٤٣» ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: لم نعتقدْ فرضيتَها.

«٤٤» ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ كما يُطعِمُ المسلمون.

«٤٥» ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ الخوضُ: الشروعُ في الباطل؛ أي: نقول الباطلَ والزورَ في آيات الله.

«٤٦» ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾: الحسابِ والجزاءِ.

«٤٧» ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾: الموتُ.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ....

《٤٨》 ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ من الملائكة والنبيين والصالحين؛ لأنها للمؤمنين دون الكافرين، وفيه دليلُ ثبوت الشفاعة للمؤمنين، في الحديث: «إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثرُ من ربيعة ومضر»[١].

《٤٩》 ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾: عن التذكير، وهو العِظَةُ؛ أي: القرآنُ ﴿مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾: مُولِّين، حالٌ من الضمير، نحو: ما لَكَ قائماً؟

《٥٠》 ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ أي: حمرُ الوحش، حالٌ من الضمير في ﴿مُعْرِضِينَ﴾ ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾: شديدة النِّفارِ، كأنها تطلب النِّفارَ مِن نفوسها، وبفتح الفاء: مدنيٌّ وشاميٌّ[٢]؛ أي: استنفرها غيرُها.

《٥١》 ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾: حالٌ، وقدْ معَها مقدرةٌ، والقسورةُ: الرماةُ أو الأسدُ، (فَعْوَلَةٌ) من القَسْرِ، وهو القهرُ والغلبةُ، شبهوا في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر بِحُمُرٍ جدَّت في نفارها.

《٥٢》 ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾: قراطيسَ تُنشرُ وتُقرأُ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كلَّ واحد منا بكتب من السماء عنوانُها: من رب العالمين إلى فلان ابن فلان، نُؤمرُ فيها باتباعك، ونحوُه: قولُه: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، وقيل: قالوا: إن كان محمد صادقاً.. فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفةٌ فيها براءتُه وأمنُه من النار.

《٥٣》 ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ لهم عن تلك الإرادة، وزجرٌ عن اقتراح الآيات، ثم قال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة؛ لا لامتناع إيتاء الصحف.

《٥٤》 ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ ردَعَهم عن إعراضهم عن التذكرة، وقال: إن القرآن تذكرة بليغة كافية.

《٥٥》 ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ أي: فمن شاء أن يذكره ولا ينساه.. فعل؛ فإن ذلك عائدٌ إليه.

---

(١) رواه بنحوه ابن ماجه (٤٣٢٣) عن سيدنا الحارث بن أُقَيْشٍ رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣١).

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ٥٦﴾

《٥٦》 ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ وبالتاء: نافعٌ ويعقوبُ، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾: إلا وقت مشيئة الله، أو: إلا بمشيئة الله، ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ٥٦﴾ في الحديث: «هو أهلٌ أن يُتَّقَى، وأهلٌ أن يَغفر لمن اتقاه»[١].



(١) رواه بنحوه الترمذي (٣٣٢٨)

سورة القيامة

مكيةٌ، وهي أربعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ أي: أقسم، عن ابن عباس، و(لا): صلةٌ، كقوله: ﴿لِئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] وقوله[١]: [من: الرجز]

فـي بـئـرِ لا حُـورٍ سـرَى ومـا شَـعَـر

وكقوله[٢]: [من الطويل]

تـذكـرتُ لـيـلـى فـاعـتـرتـنـي صَـبـابـةٌ   وكـاد ضـمـيـرُ الـقـلـب لا يَـتـقـطَّـعُ

وعليه الجمهور، وعن الفراء: (لا): ردٌّ لإنكار المشركين البعثَ، كأنه قيل: ليس الأمر كما تزعُمون، ثم قيل: أُقْسِمُ بيوم القيامة[٣]، وقيل: أصلُه: لَأُقسِمُ، كقراءة ابن كثير[٤]، على أن اللام للابتداء، و(أقسم): خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: لأنا أقسمُ، ويقوِّيه أنه في الإمام بغير الألف، ثم أُشبعَ فظهر من الإشباع ألفٌ، وهذا اللامُ يصحبُه نون التأكيد في الأغلب، وقد يفارقُه.

《٢》 ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ الجمهورُ على أنه قسمٌ آخَرُ، وعن الحسن: أقسمَ بيوم القيامة، ولم يُقسم بالنفس اللوامة، فهي صفةُ ذمٍّ، وعلى القسم صفةُ مدحٍ؛ أي: النفسُ المتقيةُ التي تلومُ على التقصير في التقوى، وقيل: هي نفس آدمَ، لم تزلْ تلومُ على فعلها التي أُخرجت به من الجنة، وجوابُ القسم محذوفٌ؛ أي: لتبعثُنَّ، دليلُه:

《٣》 ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافرُ المنكرُ للبعث، ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ بعد تفرقِها ورجوعِها رُفاتاً مختلطاً بالتراب.

---

(١) البيت للعجاج في «ديوانه» (ص٧٢)، والحُورُ: الهَلَكةُ.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٥٠).

(٣) «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٠٧).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣١).

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ ....

《٤》 ﴿بَلَىٰ﴾: أوْجَبَتْ ما بعد النفي؛ أي: بلى نجمعُها ﴿قَٰدِرِينَ﴾: حالٌ من الضمير في (نجمع) أي: نجمعها قادرين على جمعِها وإعادتِها كما كانت، ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾: أصابعَه كما كانت في الدنيا، بلا نقصانٍ وتفاوتٍ مع صغرِها، فكيف بكبار العظام؟

《٥》 ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: عطفٌ على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ فيجوزُ أن يكون مثلَه استفهاماً ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾: ليدومَ على فُجوره فيما يستقبلُه من الزمان.

《٦》 ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ﴾: متى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ سؤالَ مُتعنتٍ مستبعدٍ لقيام الساعة.

《٧》 ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾: تحيَّرَ فزَعاً، وبفتح الراء: مدنيٌّ[١]، شَخَصَ.

《٨》 ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾: ذهب ضوؤُه، أو: غاب؛ مِن قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ [القصص: ٨١]، وقرأ أبو حيوةَ: بضم الخاء[٢].

《٩》 ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ أي: جمع بينهما في الطلوع من المغرب، أو: جُمعا في ذهاب الضوء، أو: يُجمعان فيقذفان في البحر فيكون نارَ الله الكبرى.

《١٠》 ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: الكافرُ ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾: هو مصدرٌ؛ أي: الفِرارُ من النار، أو: المؤمنُ أيضاً من الهول، وقرأ الحسن: بكسر الفاء[٣]، وهو يحتمل المكان والمصدر.

《١١》 ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ عن طلب المفرِّ، ﴿لَا وَزَرَ ۝١١﴾: لا ملجأ.

《١٢》 ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خاصةً ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾: مُستقرُّ العباد، أي: موضعُ قَرارِهم من جنة أو نار؛ أي: مُفوَّضٌ ذلك إلى مشيئته، مَن شاء.. أدخله الجنة، ومن شاء.. أدخله النار.

《١٣》 ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ﴾: يُخبَرُ ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من عملٍ عملَه، ﴿وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ ما لم يعملْه.

《١٤》 ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾: شاهدٌ، والهاءُ: للمبالغة، كعلَّامة، أو: أنَّثه لأنه أراد به جوارحَه؛ إذْ جوارحُه تشهدُ عليه، أو: هو حجةٌ على نفسه، والبصيرةُ: الحجة، قال الله

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٣٣٢).

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٥٤).

(٣) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٥٦٣).

وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وتقول لغيرك: أنت حجةٌ على نفسك، و(بصيرةٌ): رفعٌ بالابتداء، وخبرُه: على نفسه، تقدم عليه، والجملةُ: خبرُ الإنسان كقولك: زيدٌ على رأسه عِمامةٌ، والبصيرةُ على هذا: يجوز أن يكون المَلَكَ الموكَّلَ عليه.

《١٥》 ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾: ولو أرخَى سُتورَه، والمِعذارُ: السِّترُ، وقيل: ولو جاء بكلِّ مَعذرةٍ.. ما قُبلت منه؛ فَعَلَيْهِ مَنْ يُكَذِّبُ عُذرَه، والمعاذيرُ: ليس بجمعِ مَعْذِرَةٍ؛ لأن جمعها مَعاذِرُ، بل هي اسم جمع لها، ونحوُه: المناكيرُ في المنكر.

《١٦》 ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ﴾: بالقرآن ﴿لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾: بالقرآن، وكان ﷺ يأخذُ في القراءة قبل فراغ جبريلَ كراهةَ أن ينفلت منه، فقيل له: لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريلُ يقرأُ؛ لتعجلَ به: لتأخذَه على عجلة، ولئلا ينفلتَ منك، ثم عَلَّلَ النهيَ عن العجلة بقوله:

《١٧》 ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: وإثباتَ قراءتِه في لسانك، والقرآنُ: القراءةُ، ونحوُه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

《١٨》 ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: قرأه عليك جبريلُ، فجعل قراءةَ جبريلَ قراءتَه ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ أي: قراءتَه عليك.

《١٩》 ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ إذا أشكل عليك شيءٌ من معانيه.

《٢٠》 ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ عن إنكار البعث، أو: ردعٌ لرسول الله ﷺ عن العجلة وإنكارٌ له عليه، وأكده بقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ كأنه قيل: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خُلقتم من عجل وطُبعتم عليه تَعجلون في كل شيء، ومن ثَمَّ تُحبون العاجلة الدنيا وشهواتِها.

《٢١》 ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾: الدارَ الآخرةَ ونعيمَها، فلا تعملون لها، والقراءةُ فيهما: بالتاء: مدنيٌّ وكوفيٌّ[1].

《٢٢》 ﴿وُجُوهٌ﴾ هي وجوهُ المؤمنين، ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾: حسنةٌ ناعمةٌ.

《٢٣》 ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ بلا كيفيةٍ ولا وجهةٍ ولا ثبوتِ مسافةٍ، وحملُ النظرِ على الانتظار لأمرِ ربِّها أو لِثوابِه.. لا يصحُّ؛ لأنه يقال: نظرتُ فيه أي: تفكرتُ، ونظرتُه: انتظرتُه، ولا يُعدَّى بـ(إلى) إلا بمعنى الرؤية، مع أنه لا يليق الانتظارُ في دار القرار.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٢) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ ....

《٢٤》 ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾: كالحةٌ شديدةُ العُبوسةِ، وهي وجوهُ الكفّار.

《٢٥》 ﴿تَظُنُّ﴾: تتوقعُ ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ فعلٌ هو في شدته ﴿فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾: داهيةٌ تَقصِمُ فَقارَ الظهرِ.

《٢٦》 ﴿كَلَّآ﴾: ردعٌ عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلةُ عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة التي تَبقَون فيها مخلَّدين، ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الروحُ، وجاز وإن لم يَجْرِ لها ذكرٌ لأن الآية تدلُّ عليها، ﴿ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾: العظامَ المكتنفةَ لثُغرة النحرِ عن يمينٍ وشمالٍ، جمعُ تَرْقُوَةٍ.

《٢٧》 ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ يقفُ حفصٌ على (مَن) وُقَيْفَةً؛ أي: قال حاضرُو المحتضَرِ بعضُهم لبعضٍ: أيّكم يَرقيه مما به؛ مِن الرُّقية؛ مِن حدِّ: ضَرَبَ، أو: هو من كلام الملائكة: أيُّكم يَرقَى بروحِه؟ أملائكةُ الرحمة أم ملائكة العذاب؟ من الرُّقِيِّ؛ مِن حدِّ: عَلِمَ.

《٢٨》 ﴿وَظَنَّ﴾: أيقنَ المحتضَرُ ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾: أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة.

《٢٩》 ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾: الْتَوَتْ ساقاه عند موته، وعن سعيدِ بنِ المسيبِ: هما ساقاه حين تُلفّان في أكفانه، وقيل: شدةُ فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، على أن الساقَ مثلٌ في الشدة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هما هَمّانِ: همُّ الأهل والولد، وهمُّ القدوم على الواحدِ الصمدِ.

《٣٠》 ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾: هو مصدرُ ساقَه؛ أي: مساقُ العبادِ إلى حيثُ أمر الله: إما إلى الجنة، أو إلى النار.

《٣١》 ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بالرسول والقرآن، ﴿وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ الإنسانُ في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾.

《٣٢》 ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بالقرآن، ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ عن الإيمان، أو: فلا صدق مالَه؛ يعني: فلا زكّاه.

《٣٣》 ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾: يتبخترُ، وأصلُه: يتمطَّطُ؛ أي: يتمدَّدُ؛ لأن المتبخترَ يَمُدُّ خُطاه، فأبدلت الطاءُ ياءً لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

《٣٤》 ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى: ويلٌ لك، وهو دعاءٌ عليه بأن يليَه ما يكره، ﴿فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

《٣٥》 ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ كُرِّرَ للتأكيد، كأنه قال: ويلٌ لك فويلٌ لك، ثم ويلٌ لك فويلٌ لك، وقيل: ويلٌ لك يومَ الموت، وويلٌ لك في القبر، وويلٌ لك حين البعث، وويلٌ لك في النار.

《٣٦》 ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾: أيحسب الكافر أن يُتركَ مهملاً لا يُؤمرُ ولا يُنهى، ولا يُبعث ولا يُجازَى؟

《٣٧》 ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾: بالياء: ابنُ عامرٍ وحفصٌ؛ أي: يُراقُ المنيُّ في الرحم، وبالتاء: يعودُ إلى النطفة.

《٣٨》 ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: صار المنيُّ قطعة دم جامد بعد أربعين يوماً، ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾: فخلق الله منه بشراً سويّاً.

《٣٩》 ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ أي: من المنيِّ الصِّنفين.

《٤٠》 ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾: أليس الفعّالُ لهذه الأشياءِ بقادرٍ على الإعادة؟ وكان ﷺ إذا قرأها.. يقول: «سبحانك بلى»(١).



(١) رواه أبو داود (٨٨٤).

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾ ....

سورة الانسان

مكيةٌ، وهي إحدى وثلاثون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾: قد مضى ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: آدمَ عليه السلام ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾: أربعون سنةً مصوَّراً قبل نفخ الروح فيه، ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾: لم يُذكر اسمُه، ولم يدرِ ما يُرادُ به؛ لأنه كان طيناً يمرُّ به الزمان، ولو كان غيرَ موجود.. لم يوصف بأنه قد أتى عليه حينٌ من الدهر، ومحلُّ (لم يكن شيئاً مذكوراً): النصبُ على الحال من (الإنسان) أي: أتى عليه حينٌ من الدهر غيرَ مذكورٍ.

《٢》 ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: ولدَ آدمَ، وقيل: الأولُ: ولدُ آدمَ أيضاً، و(حين من الدهر على هذا): مدةُ لبثِه في بطن أمه إلى أن صار شيئاً مذكوراً بين الناس، ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾: نعتٌ، أو: بدلٌ منها؛ أي: من نطفةٍ قد امتزج فيها الماءانِ، ومَشَجَهُ ومَزَجَه بمعنىً، و(نطفةٍ أمشاجٍ) كبُرْمَةٍ أَعْشارٍ[1]، فهو لفظٌ مفردٌ غيرُ جمعٍ، ولذا وقع صفةً للمفرد، ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: حالٌ؛ أي: خلقناه مُبتلين؛ أي: مُريدين ابتلاءَه بالأمر والنهي، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾: ذا سمعٍ وبصرٍ.

《٣》 ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾: بيَّنّا له طريق الهدى بأدلة العقل والسمع، ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾: مؤمناً، ﴿وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾: كافراً، حالان من الهاء في هديناه؛ أي: إن شكر أو كفر.. فقد هديناه السبيل في الحالين، أو مِن (السبيل) أي: عرَّفْناه السبيلَ، إما سبيلاً شاكراً، وإما سبيلاً كفوراً، ووصفُ السبيل بالشكر والكفر مجازٌ، ولما ذَكر الفريقين.. أتبعَهما ما أَعَدَّ لهما فقال:

《٤》 ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾: جمعُ سلسلة، بغير تنوين: حفصٌ ومكيٌّ وأبو عمرٍو وحمزةُ، وبه لِيناسبَ (أغلالاً وسعيراً) إذْ يجوز صرفُ غيرِ المنصرِف للتناسب: غيرُهم[2]، ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾: جمعُ غُلٍّ، ﴿وَسَعِيرًا ۝٤﴾: ناراً مُوقدةً.

---

(١) **البُرمةُ**: القِدْرُ، **وأعشار**: مُكَسَّرة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٣٢).

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ ....

《٥》 وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾: جمعُ بَرٍّ، أو: بارٍّ، كَرَبٍّ وأرباب، وشاهدٍ وأشهادٍ، وهم الصادقون في الإيمان، أو: الذين لا يُؤذون الذرَّ، ولا يُضمِرون الشرَّ، ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾: خمرٍ، فنفسُ الخمر تُسمَّى كأساً، وقيل: الكأسُ: الزجاجةُ إذا كان فيها خمرٌ، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾: ما تُمزجُ به ﴿كَافُورًا ۝٥﴾: ماءَ كافورٍ، وهو اسمُ عين في الجنة، ماؤُها في بياضِ الكافورِ ورائحتِه وبَرْدِه.

《٦》 ﴿عَيْنًا﴾: بدلٌ منه، ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي: منها، أو: الباءُ زائدةٌ، أو: هو محمول على المعنى؛ أي: يلتذُّ بها، أو: يَرْوَى بها[1]، وإنما قال أولاً بحرفِ (مِن) وثانياً بحرف الباء؛ لأن الكأسَ مبتدأُ شربِهم وأولُ غايتِه، وأما العينُ.. فبها يَمزِجون شرابَهم، فكأنه قيل: يشربُ عبادُ الله بها الخمرَ، ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾: يُجرونها حيث شاؤُوا من منازلهم، ﴿تَفْجِيرًا ۝٦﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم.

《٧》 ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾: بما أوجبوا على أنفسهم، وهو جوابُ مَنْ عَسى أن يقول: ما لهم يُرزقون ذاك؟ والوفاءُ بالنذر مبالغةٌ في وصفهم بالتوفُّرِ على أداء الواجبات؛ لأن مَن وَفَى بما أوجبه على نفسه لوجه الله.. كان بما أوجبه الله عليه أَوْفَى، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾: شدائدُه ﴿مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾: مُنتشراً؛ مِن: استطار الفجرُ.

《٨》 ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: حبِّ الطعام؛ أي: مع الاشتهاء والحاجة إليه، أو: على حبِّ الله، ﴿مِسْكِينًا﴾: فقيراً عاجزاً عن الاكتساب، ﴿وَيَتِيمًا﴾: صغيراً لا أب له، ﴿وَأَسِيرًا ۝٨﴾: مأسوراً مملوكاً أو غيرَه، ثم علَّلوا إطعامهم فقالوا:

《٩》 ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: لطلب ثوابِه، أو: هو بيان من الله عزَّ وجلَّ عمّا في ضمائرهم؛ لأن الله تعالى عَلِمَه منهم فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئاً، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾: هديةً على ذلك، ﴿وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾: ثناءً، وهو مصدرٌ كالشكر.

---

(١) أي: تضمين (يشربُ) معنى فعلٍ متعدٍّ بالباء.

إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ....

«١٠» ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾: إنا لا نريد منكم المكافأةَ لخوف عذاب الله على طلب المكافأة بالصدقة، أو: إنا نخاف من ربنا فنتصدقُ لوجهه حتى نأمنَ من ذلك الخوفِ ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ وُصِفَ اليومُ بصفة أهله من الأشقياء، نحوُ: نهارُك صائمٌ، والقَمْطَرِيْرُ: الشديدُ العُبوس، الذي يجمع ما بين عينيه.

«١١» ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾: صانهم من شدائده، ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾: أعطاهم بَدَلَ عُبوس الفجار ﴿نَضْرَةً﴾: حُسناً في الوجوه، ﴿وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾: فرحاً في القلوب.

«١٢» ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾: بِصَبْرِهم على الإيثار، نزلت في علي وفاطمة وفضّة جاريةٍ لهما، لما مرض الحسن والحسين رضي الله عنهما.. نذروا صوم ثلاثة أيام، فاستقرض عليٌّ رضي الله عنه من يهودي ثلاثةَ أَصْوُعٍ من الشعير، فطحنت فاطمةُ رضي الله تعالى عنها كلَّ يوم صاعاً وخبزت، فآثروا بذلك ثلاثَ عَشايا على أنفسهم مسكيناً ويتيماً وأسيراً، ولم يذوقوا إلا الماء في وقت الإفطار[1]، ﴿جَنَّةً﴾: بستاناً فيه مأكلٌ هنيء، ﴿وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾: فيه مَلْبَسٌ بَهِيّ.

«١٣» ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾: حالٌ مِن (هم) في (جزاهم) ﴿فِيهَا﴾: في الجنة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: الأَسِرَّةِ، جمعُ الأريكةِ، ﴿لَا يَرَوْنَ﴾: حالٌ من الضمير المرفوع في (متكئين)، غيرَ رائين ﴿فِيهَا﴾: في الجنه ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ لأنه لا شمسَ فيها ولا زمهريرَ، فظلُّها دائمٌ، وهواؤُها معتدلٌ لا حَرّ شمسٍ يُحمِي، ولا شدةَ بردٍ تُؤذي، وفي الحديث: «هواء الجنة سَجْسَجٌ ، لا حَرَّ ولا قُرَّ»[2]، فالزمهريرُ: البردُ الشديدُ، وقيل: القمرُ؛ أي: الجنةُ مضيئةٌ لا يُحتاجُ فيها إلى شمس وقمر.

«١٤» ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾: قريبةً منهم ظلالُ أشجارها، عُطفت على ﴿جَنَّةً﴾ أي: وجنةً أُخرى دانيةً عليهم ظلالُها، كأنهم وُعِدُوا جنتين؛ لأنهم وُصِفُوا بالخوف بقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَذُلِّلَتْ﴾: سُخِّرَتْ للقائم والقاعد والمتكئ، وهو حالٌ من (دانية) أي: تدنو ظلالُها عليهم في حال تذليلِ قطوفِها عليهم، أو: معطوفةٌ عليها؛ أي: ودانيةٌ عليهم ظلالُها ومذلَّلَةٌ ﴿قُطُوفُهَا﴾: ثمارُها، جمعُ قِطْفٍ، ﴿تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) رواه ابن الأثر في «أسد الغابة» (٧/ ٢٣٠). قال ابن حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة» (٨/ ٢٨١): قال الذّهبيّ: «كأنه موضوع»، وليس ما قاله ببعيد.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٣٠) موقوفاً على سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ....﴾

《١٥》 ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾: أي: يُديرُ عليهم خدمُهم كؤوسَ الشراب، والآنيةُ: جمع إناء، وهي: وعاء الماء ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: من فضة: جمعُ كوب، وهو: إبريقٌ لا عُروةَ له، ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾﴾ كان: تامةٌ؛ أي: كُوِّنَتْ فكانت قواريرَ بتكوين الله، نصبٌ على الحال[1].

《١٦》 ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ أي: مخلوقةً من فضة، فهي جامعةٌ لبياض الفضة وحسنِها، وصفاءِ القواريرِ وشَفِيْفِها، حتى يُرى ما فيها من الشراب من خارجِها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قواريرُ كلِّ أرض من تربتها، وأرضُ الجنة فضةٌ. قرأ نافعٌ والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية أبي بكر: بالتنوين فيهما، وحمزةُ وابنُ عامر وأبو عمرٍو وحفصٌ: بغير تنوين فيهما، وابنُ كثير: بتنوين الأول[2]، والتنوينُ في الأول لتناسب الآيِ المتقدمةِ والمتأخرةِ، وفي الثاني لإتباعه الأولَ، والوقفُ على الأول قد قيل، ولا يوثق به؛ لأن الثاني بدلُ الأولِ، ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾: صفة لـ(قوارير من فضة) أي: أهلُ الجنة قدَّروها على أشكال مخصوصة، فجاءت كما قدروها؛ تكرمةً لهم، أو: السقاةُ جعلوها على قدر رِيِّ شاربِها، فهي ألذُّ لهم، وأخفُّ عليهم، وعن مجاهد: لا تَفيضُ ولا تَغيضُ.

《١٧》 ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أي: الأبرار ﴿فِيهَا﴾: في الجنة ﴿كَأْسًا﴾: خمراً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

《١٨》 ﴿عَيْنًا﴾: بدلٌ مِن (زنجبيلاً) ﴿فِيهَا﴾: في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ﴾ تلك العينُ ﴿سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ سميت العينُ زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها، والعربُ تستلذُّه وتستطيبُه، و(سلسبيلاً) لسلاسة انحدارها في الحلقِ، وسهولةِ مَساغِها، قال أبو عبيدة: ماءٌ سلسبيلٌ؛ أي: عذب طيب.

《١٩》 ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾: غِلمانٌ يُنشئهم الله لخدمة المؤمنين، أو: وِلدانُ الكفرة يجعلهم الله تعالى خدمةً لأهل الجنة، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: لا يموتون، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ لحسنِهم وصفاءِ ألوانِهم وانبثاثِهم في مجالسهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ وتخصيصُ المنثور؛ لأنه أَزْيَنُ في النظر من المنظوم.

---

(١) ويجوز أن تكون ناقصة، و(قواريرا) خبرها.

(٢) في «البدور الزاهرة» (ص ٣٣٢): قرأ المدنيان وشعبة والكسائي: بالتنوين فيهما، وبإبداله ألفاً وقفاً، وقرأ ابن كثير وخلف في اختياره: بالتنوين في الأول، وبتركه في الثاني، وَوَقَفا على الأول بالألف، وعلى الثاني بحذفها مع إسكان الراء، وأبو عمرو وابن عامر ورَوح وحفص: بترك التنوين فيهما، ووقفوا على الأول بالألف، وعلى الثاني بحذفها مع إسكان الراء، إلا هشاماً فوقف على الثاني بالألف أيضاً، وقرأ حمزةُ ورويس: بترك التنوين فيهما، وإذا وقفا.. حذفا الألفَ فيهما مع إسكان الراء.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ . . .﴾

«٢٠» ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾: ظرفٌ؛ أي: في الجنة، وليس لـ(رأيت) مفعولٌ ظاهرٌ ولا مقدرٌ؛ ليشيعَ في كلِّ مَرئيٍّ، تقديرُه: وإذا اكتسبت الرؤية في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ واسعاً، يُروَى: «أن أدنى أهل الجنة منزلةً ينظرُ في ملكه مسيرةَ ألف عام، يَرى أقصاه كما يرى أدناه»[١]، وقيل: مُلْكٌ لا يَعقُبه هُلكٌ، أو: لهم فيها ما يشاؤون، أو: تُسلم عليهم الملائكةُ ويستأذنون في الدخول عليهم.

«٢١» ﴿عَالِيَهُمْ﴾: بالنصب على أنه حال من الضمير في (يطوف عليهم) أي: يطوف عليهم ولدانٌ عالياً للمَطُوف عليهم ثيابٌ، وبالسكون: مدنيٌّ وحمزة[٢]؛ على أنه مبتدأٌ، خبرُه: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ أي: ما يعلوهم من ملابسهم ثيابُ سندسٍ: رقيقِ الديباج، ﴿خُضْرٌ﴾: جمعُ أخضرَ، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: غليظٌ، برفعهما حملاً على الثياب: نافعٌ وحفصٌ، وبجرهما: حمزةُ وعليٌّ؛ حملاً على (سندس)، وبرفع الأول وجرِّ الثاني، أو عكسِه: غيرُهم، ﴿وَحُلُّوا﴾: عطفٌ على ﴿وَيَطُوفُ﴾، ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وفي (سورة الملائكة): ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣] قال ابن المسيب: لا أحدَ من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أَسْوِرَةٍ: واحدةٌ من فضة، وأخرى من ذهب، وأخرى من لؤلؤ، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص، وقيل: إن الملائكة يَعرضون عليهم الشراب فيأبَون قبولَه منهم، ويقولون: لقد طال أخذُنا من الوسائط، فإذا هم بكاسات تُلاقي أفواههم بغير أكفٍّ، من غَيبٍ إلى عَبدٍ، ﴿شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ ليس بِرِجْسٍ كخمر الدنيا؛ لأن كونها رِجْساً بالشرع لا بالعقل، ولا تكليفَ ثَمَّ، أو: لأنه لم يُعصرْ فتمسَّه الأيدي الوَضِرَةُ، وتدوسُه الأقدام الدنِسة، يقال لأهل الجنة:

«٢٢» ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ النعيمَ ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ لأعمالكم، ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾: محموداً مقبولاً مرضيّاً عندنا، حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير: لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً.

«٢٣» ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ تكريرُ الضمير بعد إيقاعه اسماً لـ(إنَّ) تأكيدٌ على تأكيد؛ بمعنى اختصاص الله بالتنزيل؛ ليستقرَّ في نفسِ النبي ﷺ أنه إذا كان هو المُنْزِلَ.. لم يكن تنزيلُه مفرَّقاً إلا حكمةً وصواباً، ومن الحكمة الأمرُ بالمصابرة.

---

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ١٣) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٣) وكذا القراءة الآتية.

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ....

«٢٤» ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ عليك بتبليغ الرسالةِ واحتمال الأذيةِ وتأخير نصرتِك على أعدائِك من أهل مكةَ، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾: من الكفار للضجرِ من تأخير الظفر، ﴿ءَاثِمًا﴾: راكباً لما هو إثمٌ داعياً لك إليه، ﴿أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾: فاعلاً لما هو كفرٌ داعياً لك إليه؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل ما هو إثمٌ أو كفرٌ، أو غيرُ إثم ولا كفر، فنُهي أن يساعدهم على الأوَّلَين دون الثالث، وقيل: الآثمُ: عُتبةُ؛ لأنه كان ركّاباً للمآثم والفسوق، والكَفورُ: الوليدُ؛ لأنه كان غالياً في الكفر والجحود، والظاهرُ: أن المراد كل آثم وكافر؛ أي: لا تُطع أحدَهما، وإذا نُهِيَ عن طاعة أحدهما لا بعينه.. فقد نُهِيَ عن طاعتهما معاً ومتفرقاً، ولو كان بالواو.. لجاز أن يطيع أحدَهما؛ لأن الواو للجمعِ، فيكون منهياً عن طاعتهما معاً لا عن طاعة أحدهما، وقيل: (أو) بمعنى: ولا؛ أي: ولا تطع آثماً ولا كفوراً.

«٢٥» ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: صَلِّ له ﴿بُكْرَةً﴾: صلاةَ الفجر، ﴿وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾: صلاةَ الظهر والعصر.

«٢٦» ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾: وبعضَ الليل فصلِّ صلاةَ العشاءين، ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: تهجدْ له هزيعاً طويلاً من الليل[١]، ثلثيه أو نصفه أو ثلثه.

«٢٧» ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: يؤثرونها على الآخرة، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾: قُدّامَهم، أو: خلفَ ظهورِهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾: شديداً لا يعبؤون به، وهو يومُ القيامة؛ لأن شدائده تثقلُ على الكفار.

«٢٨» ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ﴾: أحكمْنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾: خلقَهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما والفراء[٢]، ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: إذا شئنا إهلاكَهم.. أهلكناهم وبدلنا أمثالَهم في الخلقةِ ممن يطيع.

«٢٩» ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾: عِظةٌ، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ بالتقرب إليه بالطاعة له واتّباع رسولِه.

---

(١) الهزيع: صدرٌ من الليل، نحوُ ثلثِه وربُعِه.

(٢) «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٠).

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾

《٣٠》 ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ اتخاذَ السبيل إلى الله، وبالياء: مكيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو[١]، ومحلُّ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: النصبُ على الظرف؛ أي: إلا وقت مشيئة الله، وإنما يشاءُ الله ذلك ممن علم منه اختياره ذلك، وقيل: هو لعموم المشيئة في الطاعة والعصيان والكفر والإيمان، فيكون حجةً لنا على المعتزلة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون منهم من الأحوال، ﴿حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾: مصيباً في الأقوال والأفعال.

《٣١》 ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾: وهم المؤمنون ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: جنته؛ لأنها برحمته تُنال، وهو حجة على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: قد شاء أن يُدخل كُلّاً في رحمته؛ لأنه شاء إيمانَ الكلِّ، والله تعالى أخبر أنه يُدخل من يشاء في رحمته، وهو الذي علم منه أنه يختار الهدى، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الكافرين؛ لأنهم وَضَعُوا العبادة في غير موضعها، ونُصب بفعلٍ مضمر يفسره: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ نحوُ: أوعد وكافأ.



---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٣).

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ ....

سورة المرسلات

مكيةٌ، وهي خمسون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٦》 ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ ﴿عُذْراً أو نُذْراً﴾ أقسم سبحانه وتعالى بطوائفَ من الملائكة أرسلهنَّ بأوامره، فعَصَفْنَ في مُضِيِّهن، وبطوائفَ منهم نَشَرْنَ أجنحتَهن في الجوِّ عند انْحِطاطهنَّ بالوحي، أو: نَشَرْنَ الشرائع في الأرض، أو:

نَشَرْنَ النفوسَ الموتى بالكفر والجهل بِما أَوْحَيْنَ، فَفَرَقْنَ بين الحق والباطل، فأَلْقَيْنَ ذِكراً إلى الأنبياء عليهم السلام، عُذراً للمُحِقِّين، أو نُذراً للمبطلين، أو: أقسم برياحِ عَذابٍ أَرْسَلَهنَّ، فعَصَفْن، وبرياحِ رحمةٍ نَشَرْنَ السحاب في الجوِّ فَفَرَقْنَ بينه، كقوله: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨] فأَلْقَين ذِكراً؛ إما عُذراً للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، وإما نُذراً للذين لا يشكرون ويَنسُبون ذلك إلى الأنواء، وجُعلن مُلقياتٍ للذكرِ باعتبار السببية، (عرفاً): حالٌ؛ أي: متتابعةً كعُرف الفرس، يتلو بعضُه بعضاً، أو: مفعول له؛ أي: أُرسلن للإحسان والمعروف، و(عصفاً) و(نشراً): مصدران، ﴿أَوْ نُذُرًا ۝٦﴾: أبو عمرٍو وكوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ وحمادٍ[١]، والعذرُ والنذرُ: مصدران؛ مِن: عذرَ: إذا محا الإساءة، ومِن: أنذر: إذا خَوَّفَ على فعل، كالكفر والشكر، وانتصابُهما على البدل مِن: (ذكراً) أو على المفعول له.

《٧》 ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾: إن الذي توعدونه من مجيء يوم القيامة ﴿لَوَاقِعٌ ۝٧﴾: لكائن نازلٌ لا ريبَ فيه، وهو جواب القسم، ولا وقفَ إلى هنا؛ لوصل الجواب بالقسم.

《٨》 ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾: مُحيت، أو: ذُهب بنورها، وجوابُ (فإذا): محذوفٌ، والعاملُ فيها: جوابُها، وهو: وَقَعَ الفصلُ، ونحوُه، و(النجومُ): فاعلُ فعلٍ يفسرُه: (طمست)[٢].

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٣٣٤).

(٢) والتقدير: غابت النجومُ.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝٢١ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢٢﴾ ....

《٩》 ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾: فُتحت فكانت أبواباً.

《١٠》 ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾: قُلعت من أماكنها.

《١١》 ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١﴾ أي: وُقِّتَتْ، كقراءة أبي عمرو[(١)]، أُبدلت الهمزة من الواو، ومعنى توقيتِ الرسلِ: تبيينُ وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

《١٢》 ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢﴾: أُخرت وأُمهلت، وفيه تعظيمٌ لليوم، وتعجيبٌ مِن هَوْلِه، والتأجيلُ من الأجل، كالتوقيت من الوقت.

《١٣》 ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣﴾: بيانٌ ليوم التأجيل، وهو اليوم الذي يُفصل فيه بين الخلائق.

《١٤》 ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤﴾: تعجيبٌ آخرُ وتعظيمٌ لأمره.

《١٥》 ﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأٌ وإن كان نكرة؛ لأنه في أصله مصدرٌ منصوبٌ سادٌّ مسدَّ فعله، ولكنه عُدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعوِّ عليه، ونحوُه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٥٥][(٢)]، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرفه ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ بذلك اليومِ، خبرُه.

《١٦》 ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾: الأممَ الخالية المكذبةَ.

《١٧》 ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۝١٧﴾: مُستأنف بعد وقف، وهو وعيدٌ لأهل مكة؛ أي: ثم نفعل بأمثالهم من الآخِرين مثلَما فعلنا بالأولين؛ لأنهم كذَّبوا مثلَ تكذيبهم.

《١٨》 ﴿كَذَلِكَ﴾: مثلَ ذلك الفعلِ الشنيعِ ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨﴾: بكلِّ مَن أجرمَ.

《١٩》 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾ بما أَوْعَدْنا.

《٢٠》 ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝٢٠﴾: حقير، وهو النطفة.

《٢١ - ٢٢》 ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الماءَ ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝٢١﴾: مقرٍّ يَتمكن فيه وهو الرحم، ومحلُّ ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢٢﴾: الحالُ؛ أي: مؤخَّراً إلى مقدارٍ من الوقت معلوم قد علمه الله وحكم به، وهو تسعةُ أشهر أو ما فوقَها أو ما دونَها.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٤).

(٢) من مسوغات الابتداء بالنكرة أن تكون للدعاء. انظر «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (١/ ٢٢٠).

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ....

《٢٣》 ﴿فَقَدَرْنَا﴾: فقدَّرْنا ذلك تقديراً ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: فنعم المقدِّرون له نحن، أو: فقَدَرْنا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن، والأولُ أحقُّ؛ لقراءة نافع وعليٍّ: بالتشديد[1]، ولقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩].

《٢٤》 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بنعمة الفطرة.

《٢٥》 ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ وهو مِن: كَفَتَ الشيءَ: إذا ضمَّه وجمعَه، وهو اسمُ ما يُكفت كقولهم: الضِّمامُ لما يُضم، وبه انتصب:

《٢٦》 ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾ كأنه قيل: كافتةً أحياءً وأمواتاً، أو بفعل مضمر يدلُّ عليه: ﴿كِفَاتًا﴾، وهو: تَكْفِتُ؛ أي: تكفِتُ أحياءً على ظهرها، وأمواتاً في بطنها، والتنكيرُ فيهما للتفخيم؛ أي: تكفتُ أحياءً لا يُعدون، وأمواتاً لا يُحصرون.

《٢٧》 ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: جبالاً ثوابتَ، ﴿شَامِخَاتٍ﴾: عالياتٍ، ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾: عَذْباً.

《٢٨》 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ بهذه النعمة.

《٢٩》 ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: يقال للكافرين يوم القيامة: سِيروا إلى النار التي كنتم تكذبون بها.

《٣٠》 ﴿انْطَلِقُوا﴾: تكريرٌ للتوكيد ﴿إِلَى ظِلٍّ﴾: دخانِ جهنمَ، ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾: يتشعبُ لعظمه ثلاثَ شعب، وهكذا الدخانُ العظيمُ يتفرقُ ثلاثَ فرقٍ.

《٣١》 ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾: نعتُ (ظل) أي: لا مُظِلٍّ من حرِّ ذلك اليوم وحرِّ النار، ﴿وَلَا يُغْنِي﴾: في محل الجرِّ؛ أي: وغيرِ مُغْنٍ لهم ﴿مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾: من حرِّ اللهب شيئاً.

《٣٢》 ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النارَ ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾: هو ما تطاير من النار، ﴿كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ في العِظَمِ، وقيل: هو الغليظُ من الشجر، الواحدةُ: قَصْرَة.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٤) وكذا القراءة الآتية.

كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ....

《٣٣》 ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكر، جمعُ جَمَلٍ، ﴿جِمالاتٌ﴾: غيرُهم، جمعُ الجمع، ﴿صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾: جمعُ أصفر؛ أي: سُوْدٌ تضرب إلى الصفرة، وشُبِّهَ الشررُ بالقَصْرِ لعظمه وارتفاعِه، وبالجِمالِ للعِظَمِ والطول واللون.

《٣٤》 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ بأن هذه صفتُها.

《٣٥》 ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وقرئَ: بنصب اليوم[1]؛ أي: هذا الذي قُصَّ عليكم واقعٌ يومئذ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] فقال: في ذلك اليوم مواقفُ، في بعضها يختصمون، وفي بعضها لا ينطقون[2]، أو: لا ينطقون بما ينفعهم، فَجَعَلَ نُطقَهم كَلا نُطْقٍ.

《٣٦》 ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾: عطفٌ على (يؤذن) منخرطٌ في سلك النفي؛ أي: لا يكون لهم إذن واعتذار.

《٣٧》 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾ بهذا اليوم.

《٣٨》 ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين المحقِّ والمبطل، والمحسن والمسيء بالجزاء ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ يا مكذبي محمد، ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾: والمكذبين قبلَكم.

《٣٩》 ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾: حيلةٌ في دفع العذاب ﴿فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾: فاحتالوا علي بتخليص أنفسكم من العذاب، والكيدُ: متعدٍّ، تقول: كِدْتُ فلاناً: إذا احتلتَ عليه.

《٤٠》 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ بالبعث.

《٤١》 ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن عذابِ اللهِ ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: جمعُ ظلٍّ، ﴿وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ جارية في الجنة.

《٤٢》 ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: لذيذةٍ مشتهاةٍ.

---

(١) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٥٦٨) وهي شاذة، والفتحة: إما فتحة بناء، فهو في محل رفع خبر، وإما فتحة إعراب، فهو ظرف منصوب متعلق بخبر محذوف لـ (هذا). انظر «الدر المصون» (١٠/ ٦٤٣).

(٢) روى نحوه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٧٢).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

《٤٣》 ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾: في موضع الحال من ضمير المتقين في الظرف الذي هو ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ أي: هم مستقرُّون في ظلالٍ مقولاً لهم ذلك[1]، ﴿هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ في الدنيا.

《٤٤》 ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ فأَحْسِنوا تُجزَوا بهذا.

《٤٥》 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ بالجنة.

《٤٦》 ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾: كلامٌ مستأنف، خطابٌ للمكذبين في الدنيا على وجه التهديد، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿قَلِيلًا﴾ لأن متاع الدنيا قليلٌ، ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: أن كل مجرم يأكل ويتمتع أياماً قلائلَ، ثم يبقى في الهلاك الدائم.

《٤٧》 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بالنعم.

《٤٨》 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾: اخشعوا لله وتواضعوا إليه بقبول وَحْيِهِ واتباعِ دينِه، ودعُوا هذا الاستكبارَ ﴿لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾: لا يخشعون ولا يقبلون ذلك، ويُصرُّون على استكبارهم، أو إذا قيل لهم: صلُّوا.. لا يصلون.

《٤٩》 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ بالأمر والنهي.

《٥٠》 ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾: بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: إن لم يؤمنوا بالقرآن مع أنه آية مُبْصِرةٌ، ومعجزةٌ باهرةٌ مِن بين الكتب السماوية فبأيِّ كتابٍ بعده يؤمنون؟



(١) فجملة (كلوا) هي معمول الحال المقدر، وليست هي الحال؛ لأن الجملة الطلبية لا تكون حالاً.

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ ....

سورة النبأ

مكيةٌ، وهي أربعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿عَمَّ﴾: أصلُه: عنْ ما، وقرئ بها، ثم أدغمت النونُ في الميم، فصار ﴿عمَّا﴾ وقرئ بها[1]، ثم حذفت الألف تخفيفاً لكثرة الاستعمال في الاستفهام، وعليه الاستعمالُ الكثير، وهذا استفهامٌ تفخيم للمستفهَم عنه؛ لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾: يسأل بعضهم بعضاً، أو: يَسألون غيرَهم من المؤمنين، والضميرُ لأهل مكةَ، كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث، ويسألون المؤمنين عنه على طريق الاستهزاء.

《٢》 ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ أي: البعث، وهو بيان للشأن المفخَّم، وتقديرُه: عمَّ يتساءلون؟ يتساءلون عن النبإ العظيم.

《٣》 ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ فمنهم مَن يقطعُ بإنكاره، ومنهم من يَشُكُّ، وقيل: الضميرُ للمسلمين والكافرين، وكانوا جميعاً يسألون عنه، فالمسلمُ يسأل ليزداد خشية، والكافرُ يسأل استهزاءً.

《٤》 ﴿كَلَّا﴾: ردع عن الاختلاف أو التساؤلِ هزؤاً، ﴿سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾: وعيدٌ لهم بأنهم سوف يعلمون عِياناً أن ما يتساءلون عنه حقٌّ.

《٥》 ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ كَرَّرَ الردعَ للتشديد، و(ثم): يُشعرُ بأن الثاني أبلغُ من الأول وأشدُّ.

《٦》 ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يَخلق مَن أُضِيفَ إليه البعثُ هذه الخلائقَ العجيبةَ؟ فَلِمَ تُنكرون قدرتَه على البعث؟ وما هو إلا اختراعٌ كهذه الاختراعات، أو: قيل لهم: لِمَ فَعلَ هذه الأشياءَ؟ والحكيمُ لا يفعل عبثاً، وإنكارُ البعث يؤدي إلى أنه عابثٌ في كل ما فعل، ﴿مِهَٰدًا ۝٦﴾: فراشاً، فرشناها لكم حتى سكنتموها.

---

(١) انظر القراءتين في «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢٣) وهما من الشواذ.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ ....

《٧》 ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ للأرض؛ لئلا تميدَ بكم.

《٨》 ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾: ذكراً وأُنثى.

《٩》 ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾: قطعاً لأعمالكم، وراحة لأبدانكم، والسبتُ: القطعُ.

《١٠》 ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾: ستراً يستركُم عن العيون إذا أردتم إخفاءَ ما لا تحبون الاطلاعَ عليه.

《١١》 ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾: وقتَ معاش تتقلَّبون في حوائجكم ومكاسبِكم.

《١٢》 ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾: سبعَ سماواتٍ ﴿شِدَادًا ۝١٢﴾: جمعُ شديدة؛ أي: مُحكمةً قويةً لا يؤثر فيها مرورُ الزمان، أو: غِلاظاً غِلَظُ كلِّ واحدةٍ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ.

《١٣》 ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾: مُضيئاً وقّاداً؛ أي: جامعاً للنور والحرارة، والمراد: الشمس.

《١٤》 ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أي: السحائبِ إذا أَعْصَرَتْ؛ أي: شارفت أن تَعصِرَها الرياحُ فتمطرَ، ومنه: أعصرت الجاريةُ: إذا دنت أن تحيض، أو: الرياحُ لأنها تُنشئ السحاب وتَدُرُّ أخلافَه، فيصحُّ أن يجعل مَبدأً للإنزال، وقد جاء أن الله تعالى يبعث الرياح فتحملُ الماءَ من السماء إلى السحاب، ﴿مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾: مُنصبّاً بكثرة.

《١٥》 ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ﴾: بالماء ﴿حَبًّا﴾ كالبُرِّ والشعير، ﴿وَنَبَاتًا ۝١٥﴾: وكَلأً.

《١٦》 ﴿وَجَنَّاتٍ﴾: بساتين ﴿أَلْفَافًا ۝١٦﴾: مُلتفةَ الأشجار، واحدُها: لِفٌّ، كجذع وأجذاع، أو: لفيفٌ، كشريف وأشراف، أو: لا واحدَ له، كأوزاع، أو: هي جمع الجمع، فهي جمع لِفٍّ، واللفُّ: جمعُ لَفّاء، وهي شجرةٌ مجتمعةٌ، ولا وقفَ مِن: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ إلى (ألفافاً)، والوقف الضروريُّ على (أوتاداً) (معاشاً).

《١٧》 ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين المحسن والمسيء، والمحقِّ والمبطلِ ﴿كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧﴾: وقتاً محدوداً ومُنتهىً معلوماً لوقوع الجزاء، أو: ميعاداً للثواب والعقاب.

《١٨》 ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾: بدلٌ من ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أو: عطفُ بيان، ﴿فِي الصُّورِ﴾: في القَرن، ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾: حالٌ؛ أي: جماعاتٍ مختلفةً، أو: أمماً، كلُّ أمةٍ مع رسولها.

وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ....

«١٩» ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾: خفيفٌ، كوفيٌّ[1]؛ أي: شُقَّتْ لنزول الملائكة، ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾﴾: فصارت ذاتَ أبوابٍ وطرقٍ وفروجٍ، وما لها اليوم من فروج.

«٢٠» ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض، ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: هباءً تُخيِّلُ الشمسُ أنه ماء.

«٢١» ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾﴾: طريقاً عليه مَمَرُّ الخلق، فالمؤمنُ يمرُّ عليها، والكافرُ يدخلُها، وقيل: المرصادُ: الحدُّ الذي يكون فيه الرَّصْدُ؛ أي: هي حدُّ الطاغين الذين يُرْصَدُون فيه للعذاب، وهي مآبهم، أو: هي مرصادٌ لأهل الجنة ترصُدُهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها؛ لأن مَجازَهم عليها.

«٢٢» ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾﴾: للكافرين مَرجِعاً.

«٢٣» ﴿لَّٰبِثِينَ﴾: ماكثين، حالٌ مقدرةٌ من الضمير في ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾، حمزةُ: ﴿لَبِثِينَ﴾، واللَّبِثُ: أقوى؛ إذ اللابثُ: مَن وُجِدَ منه اللُّبثُ وإن قلَّ، واللَّبِثَ: مَن شأنُه اللبثُ والمُقامُ في المكان، ﴿فِيهَآ﴾: في جهنمَ ﴿أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾﴾: ظرفٌ جمعُ حُقْبٍ، وهو الدهرُ، ولم يُرَدْ به عددٌ محصورٌ، بل الأبدُ، كلما مضى حُقبٌ.. تبعه آخرُ إلى غير نهاية، ولا يُستعمل الحُقب والحِقبةُ إلا إذا أُريد تتابعُ الأزمنة وتواليْها، وقيل: الحِقبُ: ثمانون سنةً، وسئل بعضُ العلماء عن هذه الآية فأجاب بعد عشرين سنة: (لابثين فيها أحقاباً).

«٢٤» ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: غيرَ ذائقين، حالٌ من ضمير (لابثين) فإذا انقضت هذه الأحقابُ الذي عُذِّبُوا فيها بمنع البرد والشراب.. بُدِّلُوا بأحقاب أُخَرَ فيها عذابٌ آخرُ، وهي أحقاب بعد أحقاب، لا انقطاعَ لها، وقيل: هو من حَقِبَ عامُنا: إذا قلَّ مطرُه وخيرُه، وحَقِبَ فلانٌ: إذا أخطأ الرزقَ، فهو حَقِبٌ، وجمعُه: أحقاب، فينتصبُ حالاً عنهم؛ أي: لابثين فيها حَقِبِيْنَ جَحِدِيْنَ[2]، و(لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً): تفسيرٌ له، وقولُه:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٥) وكذا القراءة الآتية.

(٢) جَحِدَ الرجلُ جَحَداً، فهو جَحِدٌ: إذا كان ضيِّقاً قليلَ الخير.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾﴾

《٢٥》 ﴿إلا حميمًا وغَسَاقًا﴾: استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: لا يذوقون في جهنم، أو في الأحقاب برداً: رَوحاً يُنَفِّسُ عنهم حرَّ النار، أو: نوماً، ومنه: منع البَرْدُ البَرْدَ، ولا شراباً يُسكِّنُ عطشَهم، ولكن يذوقون فيها حميماً: ماءً حارّاً يُحرقُ ما يأتي عليه، وغساقاً: ماءً يسيل من صديدهم، وبالتشديد: كوفيٌّ غيرَ أبي بكر[1].

《٢٦》 ﴿جَزَآءً﴾: جُوزوا جزاءً ﴿وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾: مُوافقاً لأعمالهم: مصدرٌ بمعنى الصفة، أو ذا وِفاقٍ، ثم استأنف مُعلِّلاً فقال:

《٢٧》 ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾: لا يخافون محاسبةَ اللهِ إياهم، أو: لم يؤمنوا بالبعث ليرجُوا حساباً.

《٢٨》 ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾: تكذيباً، و(فِعّالٌ) في باب (فَعَّلَ) كلُّه فاشٍ[2].

《٢٩》 ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾: نصبٌ بمضمر يفسرُه: ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾﴾: مكتوباً في اللوح، حالٌ، أو مصدرٌ في موضع إحصاءٍ، أو: (أحصينا): في معنى: كتبنا؛ لأن الإحصاء يكون بالكتابة غالباً، وهذه الآية اعتراضٌ؛ لأن قوله:

《٣٠》 ﴿فَذُوقُوا۟﴾: مسببٌ عن كفرهم بالحساب، وتكذيبِهم بالآياتِ؛ أي: فذوقوا جزاءَكم، والالتفاتُ شاهدٌ على شدة الغضب، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ في الحديث: «هذه الآيةُ أشدُّ ما في القرآن على أهل النار»[3].

《٣١》 ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾: (مَفْعَل) من الفوز، يصلحُ مصدراً؛ أي: نجاةً من كلِّ مكروه، وظفراً بكلِّ محبوب، ويصلحُ للمكان وهو الجنة، ثم أَبدل عنه بدلَ البعض من الكلِّ فقال:

《٣٢》 ﴿حَدَآئِقَ﴾: بساتين فيها أنواعُ الشجر المثمر، جمعُ حديقة، و﴿وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾﴾: كُروماً: عطفٌ على (حدائق).

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٥).

(٢) أي: أن مجيءَ (فِعّال) مصدرا لـ(فَعَّلَ) شائعٌ في كلام فصحاء العرب، وقال الفراء: هي لغة يمانية فصيحة. انظر «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٩) و«تفسير الآلوسي» (١٥/ ٢١٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٣٠٢) عن سيدنا أبي برزة رضي الله عنه.

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ....

《٣٣》 ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: نواهدَ[1]، ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾: لِدَاتٍ مستوياتٍ في السنِّ.

《٣٤》 ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾: مملوءَةً.

《٣٥》 ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾: في الجنة، حالٌ من ضمير خبرِ (إنَّ) ﴿لَغْوًا﴾: باطلاً، ﴿وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ الكسائي: خفيفٌ[2]؛ بمعنى: مكاذبة؛ أي: لا يَكْذِبُ بعضُهم بعضاً، أو لا يُكاذِبه[3].

《٣٦》 ﴿جَزَآءً﴾: مصدرٌ؛ أي: جزاهم جزاءً ﴿مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾: مصدرٌ، أو: بدلٌ من (جزاء) ﴿حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾: صفةٌ؛ يعني: كافياً، أو: على حسب أعمالهم.

《٣٧》 ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: بجرِّهما: ابنُ عامر وعاصمٌ[4]، بدلاً من ﴿رَبِّكَ﴾، ومن رفعهما.. فـ(ربُّ): خبرُ مبتدأ محذوف، أو: مبتدأٌ خبرُه: (الرحمن)، أو: (الرحمن): صفتُه، و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبرٌ، أو: هما خبران، والضميرُ في (لا يملكون): لأهل السموات والأرض، وفي ﴿مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾: لله تعالى؛ أي: لا يملكون الشفاعة من عذابه تعالى إلا بإذنه، أو: لا يقدر أحدٌ أن يخاطبه تعالى خوفاً.

《٣٨》 ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إن جعلتَه ظرفاً لـ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لا تقفْ على (خطاباً)، وإن جعلتَه ظرف لـ(لا يتكلمون) تقفْ، ﴿ٱلرُّوحُ﴾: جبريلُ عند الجمهور، وقيل: هو ملك عظيم ما خلق الله تعالى بعد العرش خلقاً أعظمَ منه، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾: حالٌ؛ أي: مصطفين، ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: الخلائقُ ثَمَّ خوفاً، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الكلام أو الشفاعة، ﴿وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾: حقّاً بأن قال المشفوعُ له: لا إله إلا الله في الدنيا، أو: لا يؤذن إلا لمن يتكلم بالصواب في أمر الشفاعة.

---

(١) جمعُ ناهدٍ وناهدةٍ، وهي: التي ارتفع ثديها.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٥).

(٣) يُقال: كاذَبْتُه مُكَاذَبَةً وكِذَاباً، وقيل: كذاباً: مصدرُ: كَذَبَ.

(٤) قرأ المدنيان والمكي والبصري: ﴿ربُّ﴾ ﴿الرحمنُ﴾، وابنُ عامر وعاصمٌ ويعقوبُ: ﴿ربِّ﴾ ﴿الرحمنِ﴾، والأخوانِ وخلفٌ: ﴿ربِّ﴾ ﴿الرحمنُ﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٥).

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾﴾

«٣٩» ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾: الثابتُ وقوعُه، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾: مرجعاً بالعمل الصالح.

«٤٠» ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ أيُّها الكفارُ ﴿عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ في الآخرة؛ لأن ما هو آتٍ قريب، ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾ أي: الكافرُ لقوله: (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ من الشرِّ؛ كقوله: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢]، وتخصيصُ الأيدي لأن أكثر الأعمال تقع بها وإن احتمل ألا يكون للأيدي مدخلٌ فيما ارتُكِبَ من الآثام، ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ﴾ وُضع الظاهرُ موضع المضمر لزيادة الذمِّ، أو: (المرء): عامٌّ، وخُصَّ منه الكافر، و(ما قدمت يداه): ما عمل من خير وشر، أو: هو المؤمنُ لذكر الكافر بعده، وما قدم من خير، و(ما): استفهاميةٌ منصوبةٌ بـ(قدمت) أي: ينظرُ أيَّ شيء قدمت يداه، أو: موصولةٌ منصوبةٌ بـ(ينظر) يقال: نظرتُه؛ يعني: نظرتُ إليه، والراجعُ من الصلة محذوفٌ؛ أي: ما قدمتْهُ، ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾﴾ في الدنيا فلم أُخلق ولم أُكلف، أو: ليتني كنت تراباً في هذا اليوم فلم أبعثْ، وقيل: يحشرُ اللهُ الحيوان غير المكلف حتى يَقتصَّ للجماء من القرناء، ثم يردُّه تراباً، فَيَودُّ الكافرُ حالَه، وقيل: الكافرُ: إبليسُ، يتمنى أن يكون كآدمَ مخلوقاً من التراب لِيثابَ ثوابَ أولادِه المؤمنين.



﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ ....

سورة النازعات

ستٌّ وأربعون آيةً مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٥》 ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ لا وقفَ إلى هنا، ولَزِمَ هنا؛ لأنه لو وُصل.. لصار ﴿يَوۡمَ﴾ ظرفَ المدبراتِ، وقد انقضى تدبيرُ الملائكة في ذلك اليوم.

أَقسم سبحانه بطوائفِ الملائكةِ التي تَنْزِعُ الأرواح من الأجساد غرقاً؛ أي: إغراقاً في النزع؛ أي: تَنْزِعُها من أقاصي الأجساد، من أناملها ومواضعِ أظفارِها، وبالطوائفِ التي تَنْشُطُها؛ أي: تخرجُها، مِن: نَشَطَ الدلْوَ من البئر: إذا أخرجها، وبالطوائف التي تسبحُ في مُضيِّها؛ أي: تسرع، فتسبقُ إلى ما أُمروا به، فتدبر أمراً مِن أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم كما رُسِمَ لهم، أو: بِخَيْلِ الغُزاة التي تَنْزِعُ في أعنتها نَزْعاً تغرق فيه الأَعِنَّةُ لطول أعناقها؛ لأنها عِرابٌ[١]، والتي تخرجُ من دار الإسلام إلى دار الحرب؛ من قولك: ثورٌ ناشطٌ: إذا خرج من بلد إلى بلد، والتي تسبحُ في جَرْيِها، فتسبقُ إلى الغاية، فتدبرُ أمرَ الغَلَبَةِ والظفرِ، وإسنادُ التدبير إليها لأنها من أسبابه، أو: بالنجوم التي تنزعُ من المشرق إلى المغرب، وإغراقُها في النزع: أن تقطع الفَلَكَ كلَّه حتى تنحطَّ في أقصى الغرب، والتي تخرجُ من بُرجٍ إلى بُرجٍ، والتي تسبحُ في الفلك من السيارة، فتسبقُ، فتدبرُ أمراً مِن علم الحساب، وجوابُ القسم محذوفٌ، وهو: لَتُبْعَثُنَّ؛ لدلالةِ ما بعدَه عليه؛ مِن ذكر القيامة.

《٦》 ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ﴾: تتحركُ حركةً شديدةً، والرَّجْفُ: شدةُ الحركة، ﴿ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾: النفخةُ الأولى، وُصفت بما يحدث بحدوثها؛ لأنها تضطربُ بها الأرض حتى يموت كلُّ مَن عليها.

《٧》 ﴿تَتۡبَعُهَا﴾: حالٌ عن ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾، ﴿ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾: النفخةُ الثانيةُ؛ لأنها تَرْدُفُ الأولى، وبينهما أربعون سنةً[٢]، والأولى: تُميتُ الخلق، والثانيةُ: تُحييهم.

---

(١) تنزعُ الخيلُ: تجري.

(٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة =

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤ ....﴾

《٨》 ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾: قلوبُ منكري البعث، ﴿وَاجِفَةٌ ۝٨﴾: مضطربةٌ؛ من الوجيف، وهو: الوجيبُ، وانتصابُ (يومَ ترجف) بما دلَّ عليه (قلوب يومئذ واجفة) أي: يومَ ترجف وجفت القلوبُ، وارتفاعُ (قلوب): بالابتداء، و(واجفةٌ): صفتُها.

《٩》 ﴿أَبْصَٰرُهَا﴾ أي: أبصارُ أصحابِها ﴿خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾: ذليلةٌ لهولِ ما ترى،

《١٠》 خبرُها: ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: منكرو البعث في الدنيا استهزاءً وإنكاراً للبعث: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾: استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي: أَنُرَدُّ بعد موتنا إلى أول الأمر فنعودَ أحياءً كما كُنّا، والحافرةُ: الحالةُ الأولى؛ يقال لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته؛ أي: إلى حالته الأولى، ويقال: النقدُ عند الحافرة؛ أي: عند الحالة الأولى، وهي: الصفقةُ، أنكروا البعث ثم زادوا استبعاداً فقالوا:

《١١》 ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾: باليةٌ، ﴿ناخرة﴾: كوفيٌّ غيرَ حفص[1]، و(فَعِلٌ) أبلغُ مِن (فاعل) يقال: نَخِرَ العظمُ فهو نَخِرٌ وناخِرٌ؛ والمعنى: أَنُرَدُّ إلى الحياة بعد أن صِرنا عظاماً باليةً؟ و(إذا): منصوبٌ بمحذوف، وهو: نُبعث.

《١٢》 ﴿قَالُوا۟﴾ أي: منكرو البعثِ: ﴿تِلْكَ﴾ رجعتُنا ﴿إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾: رجعةٌ ذاتُ خُسران، أو: خاسرٌ أصحابُها؛ والمعنى: أنها إن صحَّتْ وبُعثنا.. فنحن إذاً خاسرون؛ لتكذيبنا بها، وهذا استهزاءٌ منهم.

《١٣》 ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾: متعلقٌ بمحذوف؛ أي: لا تَحسَبوا تلك الكرةَ صعبةً على الله عزَّ وجلَّ، فإنها سهلة هيِّنة في قدرته، فما هي إلا صيحةٌ واحدةٌ؛ يريد: النفخةَ الثانيةَ؛ من قولهم: زجر البعير: إذا صاح عليه.

《١٤》 ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾: فإذا هم أحياءٌ على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها، وقيل: الساهرةُ: أرضٌ بعينها بالشام إلى جنب بيت المقدس، أو: أرضُ مكةَ، أو: جهنمُ.

= أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ. رواه البخاري (٤٨١٤) ومسلم (٤/ ٢٢٧٠)، وذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٧٠) أنه جاء في طريق ضعيف عن أبي هريرة في «تفسير ابن مردويه» أن بين النفختين أربعين عاماً.

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٦).

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ . . . .

《١٥》 ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾: استفهامٌ يتضمن التنبيهَ على أن هذا مما يجب أن يَشِيع[1]، والتشريفَ للمخاطب به.

《١٦》 ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: حين ناداه ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾: المبارك المطهر، ﴿طُوًى ﴿١٦﴾﴾: اسمُه.

《١٧》 ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول، ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾: تجاوز الحدَّ في الكفر والفساد.

《١٨》 ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾: هل لك ميلٌ إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان بالطاعة والإيمان، وبتشديد الزاي: حجازيٌّ[2].

《١٩》 ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: وأُرشدك إلى معرفة الله بذكر صفاته فتعرفَه ﴿فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماءُ به، وعن بعض الحكماء: اعرِفُوا اللهَ؛ فمن عرف الله.. لم يقدر أن يعصيه طرفةَ عين، فالخشيةُ مِلاكُ الأمرِ، مَن خشي الله.. أتى منه كلُّ خير، ومَن أَمِنَ.. اجترأ على كلِّ شرٍّ، ومنه الحديث: «من خاف.. أدلج، ومن أدلج.. بلغ المنزل»[3]، بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه: العرضُ، كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلامَ الرقيقَ ليستدعيه بالتلطف في القول، ويستنزلَه بالمداراة من عُتُوِّه، كما أُمِرَ بذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

《٢٠》 ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي: فذهب فأرى موسى فرعونَ العصا، أو: العصا واليدَ البيضاء؛ لأنهما في حكم آية واحدة.

《٢١》 ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعونُ بموسى، والآيةِ الكبرى، وسماهما ساحراً وسِحراً، ﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ اللهَ تعالى.

《٢٢》 ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾: تولى عن موسى ﴿يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾: يجتهدُ في مُكايدته، أو: لمّا رأى الثعبانَ.. أدبر مرعوباً يُسرع في مِشيتِه، وكان طيّاشاً خفيفاً.

---

(١) عبارة: (أن يشيع) مُستدرَكة من المطبوع (٤/ ٣٧٦).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٥٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، **أدلج**: سارَ أولَ الليل.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ ....

《٢٣》 ﴿فَحَشَرَ﴾: فجمع السحرةَ وجندَه، ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه.

《٢٤》 ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ لا ربَّ فوقي، وكانت لهم أصنامٌ يعبُدونها.

《٢٥》 ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ﴾: عاقبه الله عقوبةَ الآخرةِ، والنكالُ بمعنى: التنكيل، كالسلام بمعنى: التسليم، ونصبُه على المصدر؛ لأنَّ أَخذَ بمعنى: نَكَّلَ، كأنه قيل: نَكَّلَ اللهُ به نكالَ الأخرى؛ أي: الإحراقَ، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ أي: الإغراقَ، أو: نكالَ كلمتيه: الآخرةِ، وهي: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، والأولى، وهي: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وبينهما أربعون سنةً، أو ثلاثون، أو عشرون.

《٢٦》 ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ اللهَ.

《٢٧》 ﴿ءَأَنتُمْ﴾ يا منكري البعثِ ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾: أصعبُ خلقاً وإنشاءً ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾: مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ؛ أي: أم السماءُ أشدُّ خلقاً، ثم بَيَّنَ كيف خلقَها فقال: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ أي: اللهُ، ثم بيَّنَ البناءَ فقال:

《٢٨》 ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾: أعلى سقفَها، وقيل: جعل مقدار ذهابها في سَمْتِ العُلُوِّ رفيعاً مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ، ﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾: فعدَّلها مستويةً بلا شقوقٍ ولا فطور.

《٢٩》 ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: أظلمَه، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾: أبرز ضوء شمسِها، وأضيف الليلُ والشمسُ إلى السماء؛ لأن الليل ظِلُّها، والشمسَ سراجُها.

《٣٠》 ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾: بسطها، وكانت مخلوقة غيرَ مَدْحُوَّةٍ، فدُحيت من مكة بعد خلق السماء بألفَي عام، ثم فَسَّرَ البسطَ فقال:

《٣١》 ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجيرِ العُيون، ﴿وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾: كلأَها، ولِذا لم يدخل العاطف على (أخرج)، أو: (أخرج): حالٌ بإضمار: قَدْ.

《٣٢》 ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾: أثبتَها، وانتصابُ (الأرض) و(الجبال) بإضمار: دحا، وأرسى؛ على شريطة التفسير.

《٣٣》 ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾: فعل ذلك تَمتيعاً لكم ولأنعامكم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣)﴾ ....

«٣٤» ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤)﴾: الداهيةُ العُظمى التي تَطُمُّ على الدواهي؛ أي: تَعلو وتغلب، وهي: النفخة الثانية، أو: الساعةُ التي يُساق فيها أهل الجنة إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار.

«٣٥» ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾: بدلٌ مِن: إذا جاءت؛ أي: إذا رأى أعمالَه مدونة في كتابه.. تذكرها وكان قدْ نَسيها، ﴿مَا سَعَى (٣٥)﴾: (ما): مصدريةٌ؛ أي: سعيَه، أو: موصولةٌ.

«٣٦» ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾: وأُظهرت ﴿لِمَنْ يَرَى (٣٦)﴾: لكلِّ راءٍ لظهورها ظهوراً بيِّناً.

«٣٧» ﴿فَأَمَّا﴾: جوابُ ﴿فَإِذَا﴾ أي: فإذا جاءت الطامة.. فإن الأمر كذلك، ﴿مَنْ طَغَى (٣٧)﴾: جاوز الحدَّ فكفر.

«٣٨» ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨)﴾ على الآخرة باتباع الشهوات.

«٣٩» ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩)﴾: مأواه، والألفُ واللامُ بدلُ الإضافة، وهذا عند الكوفيين، وعند سيبويه وعند البصريين: هي المأوى له[1].

«٤٠» ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: عَلِمَ أن له مقاماً يوم القيامة لحساب ربه، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾: الأَمّارةَ بالسوء ﴿عَنِ الْهَوَى (٤٠)﴾ المُردي؛ أي: زجرها عن اتباع الشهوات، وقيل: هو الرجل يَهُمُّ بالمعصية فيذكرُ مقامه للحساب فيتركُها، والهوى: ميلُ النفس إلى شهواتها.

«٤١» ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ أي: المرجعُ.

«٤٢» ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢)﴾: متى إرساؤُها؛ أي: إقامتُها؛ يعني: متى يُقيمُها الله تعالى ويُثْبِتُها.

«٤٣» ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣)﴾ في أيِّ شيء أنت مِن أن تذكر وقتَها لهم وتُعلِمَهم به؟ أي: ما أنت مِن ذكراها لهم وتبيينِ وقتِها في شيء، كقولك: ليس فلان من العلمِ في شيءٍ، وكان رسول الله ﷺ لم يزلْ يذكرُ الساعةَ ويُسألُ عنها حتى نزلت، فهو على هذا تعجبٌ مِن كثرة ذكره لها؛ أي: أنهم يسألونك عنها، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرُها وتسألُ عنها.

---

(١) قال ابن هشام في «مغني اللبيب» (ص ٧٧): أجاز الكوفيون وبعضُ البصريين وكثيرٌ من المتأخرين نيابةَ ألْ عن الضمير المضاف إليه.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

《٤٤》 ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾: مُنتهَى علمِها متى تكون، لا يعلمها غيرُه، أو: ﴿فِيمَ﴾: إنكارٌ لسؤالهم عنها؛ أي: فيم هذا السؤال؟ ثم قال: أنت مِن ذكراها؛ أي: إرسالُك وأنت آخرُ الأنبياء علامةٌ من علاماتها، فلا معنى لسؤالهم عنها، ولا يبعد أن يُوقف على هذا على ﴿فِيمَ﴾، وقيل: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾: متصلٌ بالسؤال؛ أي: يسألونك عن الساعة أيان مرساها، ويقولون: أين أنت من ذكراها، ثم استأنف فقال: (إلى ربك منتهاها).

《٤٥》 ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ أي: لم تُبعث لِتُعْلِمَهم بوقت الساعة، وإنما بُعثتَ لتنذرَ مِن أهوالها مَن يخافُ شدائدَها، ﴿منذرٌ﴾: منونٌ: يزيدُ وعباسٌ[1].

《٤٦》 ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: الساعةَ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ أي: ضُحى العشية، استقلُّوا مدةَ لُبثِهم في الدنيا لِما عاينوا من الهول، كقوله: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]، وقولِه: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، وإنما صحت إضافةُ الضحى إلى العشية للملابسة بينهما؛ لاجتماعهما في نهار واحد؛ والمرادُ: أن مدة لبثهم لم تبلغ يوماً كاملاً، ولكن أحدَ طرفَي النهارِ؛ عشيتَه أو ضُحاه.



(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٦).

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ ....

سورة عبس

مكيةٌ، وهي أربعون وآيتان.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿عَبَسَ﴾ أي: كلح النبيُّ ﷺ[١]، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾: أعرض.

《٢》 ﴿أَن جَآءَهُ﴾: لِأَنْ جاءه، ومحلُّه: نصبٌ؛ لأنه مفعول له، والعاملُ فيه: ﴿عَبَسَ﴾، أو ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ على اختلاف المذهبين، ﴿ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾: عبدُ اللهِ بنُ أم مكتوم، وأمُّ مكتوم: أمُّ أبيه، وأبوه: شريحُ بنُ مالكٍ[٢]، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام فقال: يا رسول الله علمْني مما علمك الله، وكرَّرَ ذلك وهو لا يعلم تشاغلَه بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعَه لكلامِه، وعبسَ وأعرض عنه، فنزلت[٣]، فكان رسول الله ﷺ يكرمُه بعدها ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»[٤]، واستخلفه على المدينة مرتين[٥].

《٣ - ٤》 ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأيُّ شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى؟ ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾: لعل الأعمى يتطهرُ بما يسمعُ منك من دنس الجهل، وأصلُه: يتزكَّى، فأدغمت التاء في الزاي، وكذا ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾: يتعظ، ﴿فَتَنفَعَهُ﴾: نصبه عاصمٌ غيرَ الأعشى؛ جواباً لِـ: لَعلَّ، وغيرُه رفعه[٦]؛ عطفاً على (يذَّكر)، ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾: ذكراك؛ أي: موعظتُك؛ أي: أنك لا تدري ما هو مترقَّبٌ منه من تَزَكٍّ أو تَذَكُّرٍ، ولو دَريت.. لما فَرَطَ ذلك منك.

---

(١) في «تفسير الآلوسي» (١٥/ ٢٤٢): وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلالٌ له ﷺ؛ لإيهام أنَّ مَن صدر عنه ذلك غيرُه؛ لأنه لا يصدر عنه ﷺ مثلُه، كما أن في التعبير عنه ﷺ بضمير الخطاب في قوله سبحانه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ ذلك لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش، والإقبال بعد الإعراض، والتعبيرُ عن ابن أم مكتوم بالأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ وتشاغلِه بالقوم.

(٢) اختلف في اسم ابن أم مكتوم، فقيل هو: عبد الله بنُ زائدة، وقيل: عمرو بنُ قيس، وقيل: عبدُ الله بنُ عمرٍو. انظر «التاريخ الكبير للبخاري» (٥/ ٧).

(٣) رواه بنحوه الترمذي (٣٣٣١) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٤) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٤/ ١٦٤) عن سيدنا أنس رضي الله عنه، وفي «مسند أبي يعلى» (٥/ ٤٣١): فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه.

(٥) رواه أبو داود (٢٩٣١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٦) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٧) وكذا القراءة الآتية.

أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ....

《٥ - ٦》 ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾﴾ أي: من كان غنياً بالمال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾: تتعرض بالإقبال عليه حرصاً على إيمانه، ﴿تَصَّدَّى﴾: بإدغام التاء في الصاد: حجازيٌّ.

《٧》 ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾: وليس عليك بأسٌ في ألا يتزكى بالإسلام، إن عليك إلا البلاغ.

《٨ - ١٠》 ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾: يُسرع في طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾ اللهَ، أو: الكفار؛ أي: أذاهم في إتيانك، أو: الكبوةَ كعادة العُميان ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾: تتشاغل، وأصلُه: تتلهى، وروي: أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قطُّ، ولا تصدَّى لغني، وروي: أن الفقراء في مجلس الثوريِّ كانوا أمراءَ[1].

《١١》 ﴿كَلَّآ﴾: ردعٌ؛ أي: لا تَعُدْ إلى مثله، ﴿إِنَّهَا﴾: إن السورة، أو: الآياتِ ﴿تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾: موعظةٌ يجب الاتعاظُ بها، والعمل بموجَبها.

《١٢》 ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾: فمن شاء اللهُ أن يذكره.. ذكره، وذُكِّرَ الضميرُ؛ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ؛ والمعنى: فمن شاء الذكرَ.. ألهمه الله تعالى[2].

《١٣》 ﴿فِى صُحُفٍ﴾: صفةٌ لـ(تذكرة) أي: أنها مثبتة في صحفٍ منتسخةٍ من اللوح، أو: خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: هي في صحف ﴿مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾ عند الله.

《١٤》 ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ في السماء، أو: مرفوعةِ القدرِ والمنزلةِ، ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾ عن مسِّ غير الملائكة، أو: عمّا ليس من كلام الله تعالى.

《١٥》 ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾: كَتَبَةٍ، جمعُ سافر؛ أي: الملائكةُ ينتسخون الكتب من اللوح.

《١٦》 ﴿كِرَامٍۭ﴾ على الله، أو: عن المعاصي، ﴿بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾: أتقياءُ، جمعُ بارٍّ.

---

(١) روى ابنُ المقرئ في «المعجم» (ص ٦٧) عن قبيصةَ قال: ما رأيت الأغنياءَ أذلَّ منهم في مجلس الثوري، ولا الفقراءَ أعزَّ منهم في مجلس الثوري رحمه الله.

(٢) في «تفسير أبي السعود» (٩/ ١٠٩): فمن رغبَ فيها.. اتَّعظَ بها، كما نطقَ به قولُه تعالى: (فَمَن شَاء ذَكَرَهُ) أي: حفظَهُ واتَّعظَ بهِ، ومن رغبَ عنهَا كما فعلَ المستغني.. فلا حاجةَ إلى الاهتمام بأمرِه.

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ ....

《١٧》 ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: لعن الكافرُ، أو: هو أميةُ، أو عتبةُ، ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: استفهامُ توبيخٍ؛ أيْ: أيُّ شيءٍ حمله على الكفر؟ أو: هو تعجبٌ؛ أي: ما أشدَّ كفرَه.

《١٨》 ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾: من أيِّ حقير خلقه؟ وهو استفهام ومعناه: التقرير، ثم بيَّنَ ذلك الشيءَ فقال:

《١٩》 ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ على ما يشاء من خلقه.

《٢٠》 ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ نُصب السبيل بإضمار: يَسَّرَ؛ أي: ثم سَهَّلَ سبيل الخروج من بطن أمه، أو: بيَّنَ له سبيل الخير والشر.

《٢١》 ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾: جعله ذا قبر يُوارَى فيه لا كالبهائم؛ كرامةً له، قبرَ الميتَ: دَفَنَه، وأقبرَ الميتَ: أَمَره بأن يَقبُرَه ومكَّنَه منه.

《٢٢》 ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾: أحياه بعد موته.

《٢٣》 ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ للإنسان عن الكفر، ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾: لم يفعل هذا الكافرُ ما أمره الله به من الإيمان، ولما عَدَّدَ النعمَ في نفسه من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى.. أتبعه ذكرَ النعم فيما يَحتاج إليه فقال:

《٢٤》 ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ الذي يأكلُه ويحيا به كيف دبَّرنا أمرَه.

《٢٥》 ﴿أَنَّا﴾: بالفتح: كوفيٌّ؛ على أنه بدلُ اشتمال من الطعام، وبالكسر على الاستئناف: غيرُهم[1]، ﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ يعني: المطرَ من السحاب.

《٢٦》 ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ بالنبات.

《٢٧》 ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ كالبُرِّ والشعيرِ وغيرِهما مما يُتغذَّى به.

《٢٨》 ﴿وَعِنَبًا﴾: ثمرةَ الكرم؛ أي: الطعامَ والفاكهةَ، ﴿وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾: رَطْبَةً، سُمِّيَ بمصدر: قَضَبَهُ؛ أي: قَطَعَه؛ لأنه يُقضَب مرةً بعد مرةٍ.

《٢٩》 ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٧).

﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠﴾

«٣٠» ﴿وَحَدَآئِقَ﴾: بساتين ﴿غُلۡبٗا ٣٠﴾: غِلاظَ الأشجار، جمعُ غَلْباءَ.

«٣١» ﴿وَفَٰكِهَةٗ﴾ لكم، ﴿وَأَبّٗا ٣١﴾: مرعىً لدوابِّكم.

«٣٢» ﴿مَّتَٰعٗا﴾: مصدرٌ؛ أي: منفعةً ﴿لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

«٣٣» ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾: صيحةُ القيامة؛ لأنها تَصُخُّ الآذان؛ أي: تصمُّها، وجوابُه محذوفٌ لظهوره.

«٣٤ - ٣٥» ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥﴾ لِتَبِعاتٍ بينه وبينهم، أو: لاشتغاله بنفسه.

«٣٦» ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾: وزوجتِه، ﴿وَبَنِيهِ ٣٦﴾ بدأ بالأخ ثم بالأبوين؛ لأنهما أقربُ منه، ثم بالصاحبة والبنين؛ لأنهم أحبُّ، قيل: أولُ مَن يفرُّ من أخيه: هابيلُ، ومن أبويه: إبراهيمُ، ومن صاحبته: نوحٌ ولوطٌ، ومن ابنه: نوحٌ.

«٣٧» ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ﴾ في نفسه ﴿يُغۡنِيهِ ٣٧﴾: يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن غيره.

«٣٨» ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨﴾: مضيئةٌ من قيام الليل، أو من آثار الوضوء.

«٣٩» ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩﴾ أي: أصحابُ هذه الوجوه، وهم المؤمنون ضاحكون مسرورون.

«٤٠» ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠﴾: غُبارٌ.

«٤١» ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١﴾: يعلو الغَبَرَةَ سوادٌ كالدخان، ولا ترى أَوْحَشَ من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه.

«٤٢» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أهلُ هذه الحالة ﴿هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ﴾ في حقوق الله، ﴿ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾ في حقوق العباد، ولما جمعوا الفجور إلى الكفر.. جُمع إلى سواد وجوههم الغبرةَ.



﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ....

سورة التكوير

مكية، وهي تسعٌ وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ١٤》 ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾: ذُهب بضوئها؛ مِن: كَورتُ العِمامةَ: إذا لففتَها؛ أي: يُلف ضوؤُها لَفّاً فيذهب انبساطُه وانتشارُه في الآفاق، وارتفاعُ الشمس بالفاعلية[1]، ورافعُها: فعلٌ مضمرٌ يفسره (كورت) لأن (إذا) يَطْلُبُ الفعلَ لما فيه من معنى الشرط، ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾: تساقطت، ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ عن وجه الأرض وأُبعدت، أو: سيرت في الجوِّ تَسييرَ السحاب، ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾: جمعُ عُشَراءَ، وهي: الناقةُ التي أتى على حملها عشرةُ أشهر، ثم هو اسمُها إلى أن تضع لتمام السنة، ﴿عُطِّلَتْ ۝٤﴾: أهملت، عطَّلَها أهلُها؛ لاشتغالهم بأنفسهم، وكانوا يحبسونها إذا بلغت هذه الحالة لِعِزَّتِها عندهم، ويُعطلون ما دونها، ﴿عُطِلَتْ﴾: بالتخفيف: عن اليزيدي[2]، ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾: جُمعت من كل ناحية، قال قتادة: يُحشر كلُّ شيء حتى الذباب للقصاص، فإذا قُضي بينها.. رُدَّتْ تراباً، فلا يبقى منها إلّا ما فيه سرورٌ لبني آدمَ كالطاووس ونحوِه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حشرُها: موتُها. يقال إذا أَجحفت السنةُ بالناس وأموالِهم: حَشَرَتْهم السنة، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ ﴿سُجِرَتْ﴾: مكيٌّ وبصريٌّ[3]؛ مِن سَجَرَ التنورَ: إذا ملأه بالحطب؛ أي: مُلئت وفُجِّرَ بعضُها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً، وقيل: ملئت ناراً لتعذيب أهل النار، ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾: قُرنت كلُّ نفس بشكلِها، الصالحُ مع الصالحِ في الجنة، والطالحُ مع الطالح في النار، أو: قُرنت الأرواحُ بالأجساد، أو: بكتبها وأعمالها، أو: نفوسُ المؤمنين بالحُور العين، ونفوسُ الكافرين

---

(١) الإمام النسفي يعبر عن اسم الفاعل بالفاعل.
(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤١).
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٨) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾

بالشياطين، ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾: المدفونةُ حيةً، وكانت العرب تَئِدُ البناتِ خشية الإملاق وخوف الاسترقاقِ، ﴿سُئِلَتۡ ٨﴾ سؤالَ تلطفٍ؛ لتقولَ: بلا ذنبٍ قُتلت، أو: لتدلَّ على قاتلها، أو: هو توبيخ لقاتلِها بصرف الخطاب عنه، كقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ...﴾ الآيةَ [المائدة: ١١٦]، ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾ وبالتشديد: يزيدُ، وفيه دليلٌ على أن أطفال المشركين لا يُعذَّبون، وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنبٍ، ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾: فُتحت، وبالتخفيف: مدنيٌّ وشاميٌّ وعاصمٌ وسهلٌ ويعقوبُ، والمرادُ: صحفُ الأعمال، تُطوى صحيفةُ الإنسان عند موته، ثم تُنشر إذا حوسب، ويجوز أن يراد: نُشرت بين أصحابها؛ أي: فُرقت بينهم، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١﴾ قال الزجاج: قُلعت كما يُقلع السقف[1]، ﴿وإذا الجحيمُ سُعِرَتْ﴾: أُوْقِدَتْ إيقاداً شديداً، وبالتشديد: شاميٌّ ومدنيٌّ وعاصمٌ غيرَ حمادٍ ويحيى، للمبالغة[2]، ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣﴾: أُدْنِيت من المتقين، كقوله: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، فهذه اثنتا عشرة خصلةً: ستٌّ منها في الدنيا، والباقيةُ في الآخرة، ولا وقفَ مطلقاً من أول السورة إلى ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ لأن عامل النصب في ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ﴾ وفيما عُطف عليه جوابُها، وهو: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ أي: كلُّ نفس، ولضرورةِ انقطاعِ النَّفَسِ على كل آية جُوِّزَ الوقفُ، ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ من خير وشر.

«١٥ - ١٨» ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ (لا): زائدةٌ ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾: بالرواجع، بينا ترى النجمَ في آخر البُرج.. إذْ كَرَّ راجعاً إلى أوله، ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾: السيارةِ، ﴿ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾: الغُيَّبِ؛ مِن: كَنَسَ الوحشُ: إذا دخل كِناسَه، قيل: هي الدَّراريُّ الخمسةُ: بهرام وزُحلُ وعُطاردُ والزُّهرةُ والمُشتري، تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتى تختفي تحت ضوء الشمس، فخنوسُها: رجوعُها، وكنوسُها: اختفاؤُها تحت ضوء الشمس، وقيل: هي جميع الكواكب، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾: أقبل بظلامه، أو: أدبر، فهو من الأضداد، ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾: امتدَّ ضوؤُه، ولما كان إقبال الصبح يلازمُه الرَّوحُ والنسيمُ.. جُعل ذلك نَفَساً له مجازاً، وجوابُ القسم:

«١٩» ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآنَ ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾ أي: جبريلَ عليه السلام، وإنما أُضيف القرآنُ إليه؛ لأنه هو الذي نَزل به ﴿كَرِيمٖ ١٩﴾ عند ربه.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٩١).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٨) وكذا القراءة الآتية.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ....

«٢٠» ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾: قدرةٍ على ما يُكلَّفُ، لا يَعْجِزُ عنه ولا يَضْعُف، ﴿عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ﴾: عند الله، ﴿مَكِينٍ ﴿٣٠﴾﴾: ذي جاه ومنزلة، ولما كانت حالُ المكانة على حسب حال المُمكِّنِ.. قال: ﴿عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ﴾ ليدلَّ على عظم منزلتِه ومكانتِه.

«٢١» ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السموات، يطيعُه مَن فيها، أو: عند ذي العرش؛ أي: عند الله يطيعُه مَن فيها، أو: عند ذي العرش؛ أي: عند الله، يطيعُه ملائكتُه المقربون، يَصدُرون عن أمره، ويَرجعون إلى رأيه، ﴿أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ على الوحي.

«٢٢» ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ كما تزعم الكفرة، وهو عطفٌ على جواب القسم.

«٢٣» ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾: رأى محمدٌ جبريلَ عليهما السلام على صورته ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾: بمطلع الشمس.

«٢٤» ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾: ما محمد على الوحي ﴿بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾: ببخيلٍ من الضَّنِّ، وهو البخلُ؛ أي: لا يبخل بالوحي كما يبخل الكهانُ رغبةً في الحُلوان، بل يُعلِّمُه كما عُلِّمَ، ولا يَكتم شيئاً مما عُلِّمَ، ﴿بظنين﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو وعليٌّ؛ أي: بمتَّهَم فيُنْقِصَ شيئاً مما أُوحي إليه، أو يزيدَ فيه؛ مِن الظِّنَّةِ، وهي التُّهَمَةُ.

«٢٥» ﴿وَمَا هُوَ﴾: وما القرآنُ ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾: طريدٍ، وهو كقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] أي: ليس هو بقول بعض المسترِقَةِ للسمع، وبوحْيِهم إلى أوليائهم من الكهنة.

«٢٦» ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾: استضلالٌ لهم، كما يقال لتارك الجادّةِ اعتسافاً أو ذهاباً في بُنَيّاتِ الطريق: أين تذهب[1]؟ مُثِّلت حالُهم بحاله في تركهم الحقَّ وعدولِهم عنه إلى الباطل، وقال الزجاج: معناه: فأيَّ طريق تَسلُكون أَبْيَنَ مِن هذه الطريقة التي بُينت لكم[2]؟ وقال الجنيد: فأين تذهبون عنّا وإن من شيء إلا عندنا؟

(١) **بنيات الطريق** هي: الطرقُ الصغار تتشعب من الطريق الكبير الذي يجمع الطرق.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٩٣).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

《٢٧》 ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾: ما القرآنُ إلا عظةٌ للخلق.

《٢٨》 ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾: بدلٌ مِن العالمين، ﴿أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: القرآنُ ذكرٌ لمن شاء الاستقامة؛ يعني: إن الذين شاؤوا الاستقامةَ بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يُوعظ به غيرُهم وإن كانوا موعوظين جميعاً.

《٢٩》 ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامةَ ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾: مالكُ الخلق أجمعين.



﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾ ....

سورة الانفطار

مكيةٌ، وهي تسع عشرة آيةً.

بسم الله لرحمن الرحيم

《١ - ٥》 ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾: انشقت، ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾: تساقطت، ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣﴾: فتح بعضُها إلى بعض وصارت البحار بحراً واحداً، ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾: بُحثت وأُخرج موتاها، وجوابُ ﴿إِذَا﴾: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ أي: كلُّ نفس بَرَّةٍ وفاجرةٍ ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾: ما عملت من طاعة، ﴿وَأَخَّرَتۡ ٥﴾: وتركت فلم تعمل، أو: ما قدمت من الصدقات، وما أخرت من الميراث.

《٦ - ٧》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ قيل: الخطابُ لِمنكري البعث ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾: أيُّ شيء خدعك حتى ضيعت ما وجب عليك مع كرم ربك، حيث أنعم عليك بالخَلْقِ والتسويةِ والتعديلِ، وعنه عليه السلام حين تلاها: «غَرَّهُ جهلُه»[١]، وعن عمر رضي الله عنه: غرَّه حمقُه، وعن الحسن: غرَّه شيطانُه، وعن الفضيل: لو خُوطبت.. أقول: غرتْني سُتُورك المرخاةُ، وعن يحيى بنِ معاذ أقول: غَرَّني بِرُّك بي سالفاً وآنفاً، ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: فجعلك مُستويَ الخلق، سالمَ الأعضاء، ﴿فَعَدَّلَكَ﴾: فصيرك مُعتدلاً متناسبَ الخلق من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطولَ، ولا إحدى العينين أوسعَ، ولا بعضَ الأعضاء أبيضَ وبعضَها أسودَ، أو: جعلك معتدلَ الخلقِ تَمشي قائماً لا كالبهائم، وبالتخفيف: كوفيٌّ[٢]، وهو بمعنى المشدد؛ أي: عدلَ بعضَ أعضائك ببعض حتى اعتدلتَ فكنتَ مُعتدلَ الخِلقةِ، متناسباً.

《٨ - ٩》 ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾ (ما): مزيدٌ للتوكيد؛ أي: ركبك في أيِّ صورة اقتضتْها مشيئتُه من الصور المختلفة في الحسن والقبح، والطول والقِصَرِ، ولم تُعطف هذه الجملة كما عطف ما قبلها؛ لأنها بيانٌ لـ: عَدَلَكَ، والجارُّ يتعلق بـ(ركبك) على معنى: وَضَعَكَ في بعض

---

(١) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٠/ ١٤٦).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٩).

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

الصور، ومكنك فيها، أو بمحذوف؛ أي: ركبك حاصلاً في بعض الصور، ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ عن الغفلة عن الله تعالى.

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ أصلاً، وهو الجزاءُ، أو: دينُ الإسلام، فلا تصدقون ثواباً ولا عقاباً.

《١٠》 ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ أعمالَكم وأقوالَكم من الملائكة.

《١١》 ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ يعني: أنكم تُكذبون بالجزاء، والكاتبون يكتبون عليكم أعمالَكم لِتُجازَوا بها.

《١٢》 ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾: لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم، وفي تعظيم الكَتَبَةِ بالثناء عليهم تعظيمٌ لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، وفيه إنذارٌ وتهويلٌ للمجرمين، ولطفٌ للمتقين، وعن الفضيل: أنه إذا قرأها.. قال: ما أشدَّها من آية على الغافلين.

《١٣》 ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾: إن المؤمنين لفي نعيم الجنة.

《١٤》 ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾: وإن الكفار لفي النار.

《١٥》 ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾: يدخلونها يوم الجزاء.

《١٦》 ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾ أي: لا يخرجون منها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

ثم عظَّمَ شأن يوم القيامة فقال:

《١٧ - ١٨》 ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ فكرَّرَ للتأكيد والتهويل، وبيَّنَه بقوله:

《١٩》 ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تستطيعُ دفعاً عنها، ولا نفعاً لها بوجه، وإنما تملك الشفاعة بالإذن، ﴿يومُ﴾: بالرفع: مكيٌّ وبصريٌّ؛ أي: هو يومُ، أو: بدلٌ مِن ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، ومن نصب.. فبإضمار اذكر، أو بإضمار: يُدانُون؛ لأن (الدين) يدلُّ عليه، ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ أي: لا أمرَ إلا لله تعالى وحدَه، فهو القاضي فيه دون غيره.



﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ ....

سورة المطففين

مختلفٌ فيها، وهي ستٌّ وثلاثون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأٌ خبرُه: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾: للذين يَبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن.

《٢》 ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ أي: إذا أخذوا بالكيل من الناس.. يأخذون حقوقَهم وافية تامّة، ولما كان اكتيالُهم مِن الناس اكتيالاً يضرُّهم ويُتحامَلُ فيه عليهم.. أُبدل (على) مكانَ (من) للدلالة على ذلك، ويجوز أن يتعلق (على) بـ(يستوفون)، ويقدمُ المفعولُ على الفعل؛ لإفادة الاختصاص؛ أي: يستوفون على الناس خاصة، وقال الفراء: مِنْ، وعلى: يَعتقِبانِ في هذا الموضع؛ لأنه حقٌّ عليه، فإذا قال: اكْتَلْتُ عليك.. فكأنه قال: أخذتُ ما عليك، وإذا قال: اكتلتُ منك.. فكأنه قال: استوفيتُ منك.

《٣》 والضميرُ المنصوبُ في ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: راجعٌ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ أي: كالُوا لَهم أو وَزَنُوا لَهم، فحُذف الجارُّ، وأُوصل الفعلُ، وإنما لم يقل: أو اتَّزَنُوا كما قيل: (أو وزنوهم) اكتفاءً، ويحتملُ أن المطففين كانوا لا يأخذون ما يُكال ويوزن إلا بالمكاييل؛ لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة؛ لأنهم يُزَعْزِعُون ويحتالون في الملءِ، وإذا أَعْطَوا.. كالُوا أو وزنوا؛ لتمكنهم من البَخْسِ في النوعين، ﴿يُخْسِرُونَ ۝٣﴾: يُنقِصون؛ يقال: خَسَرَ الميزانَ وأَخْسَرَهُ.

《٤》 ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾.

《٥》 ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ يعني: يومَ القيامة، أدخلَ همزةَ الاستفهام على "لا" النافيةِ توبيخاً، وليست ﴿أَلَا﴾ هذه للتنبيه، وفيه إنكارٌ وتعجيبٌ عظيمٌ من حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخطرون ببالهم ولا يخمنون تخميناً أنهم مبعوثون ومُحاسَبون على مقدار الذرة، ولو ظنوا أنهم يبعثون.. ما نَقَصوا في الكيل والوزن، وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابياً قال له: قد سمعتَ ما قال الله في المطففين، أراد بذلك أن المطففَ قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعتَ به، فما ظنُّك بنفسك وأنت تأخذُ أموال المسلمين بلا كيلٍ ولا وزنٍ.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ ....

《٦》 ونُصِبَ ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ بـ﴿مَّبۡعُوثُونَ﴾، ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾: لأمره وجزائه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه قرأ هذه السورة، فلما بلغ هنا.. بكى نَحيباً وامتنع من قراءة ما بعده.

《٧ - ٩》 ﴿كَلَّآ﴾: ردعٌ وتنبيهٌ؛ أي: رَدَعَهم عمّا كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب، ونَبَّهَهُم على أنه مما يجب أن يُتاب عنه ويُندم عليه، ثم أتبعه وعيدَ الفجار على العموم فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾: صحائفَ أعمالِهم ﴿لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾.

فإن قلت: قد أخبر الله تعالى عن كتاب الفجار بأنه في سجين، وفَسَّرَ سجيناً بـ (كتاب مرقوم) فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم، فما معناه؟ **قلت**: سجين: كتابٌ جامعٌ، هو ديوان الشرِّ، دَوَّنَ اللهُ فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس، وهو كتاب مرقوم: مسطورٌ بَيِّنُ الكتابة، أو: مُعَلَّمٌ يَعلمُ مَن رآه أنه لا خير فيه؛ مِن رَقْمِ الثيابِ: علامتِها؛ والمعنى: أنَّ ما كتب من أعمال الفجار مُثبتٌ في ذلك الديوان، وسمي سِجّيناً: (فِعِّيلاً) مِن السَّجْنِ وهو الحبسُ والتضييقُ؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، أو: لأنه مطروحٌ تحت الأرض السابعة في مكان وَحْشٍ مظلمٍ، وهو مسكنُ إبليسَ وذريتِه، وهو اسمٌ عَلَمٌ منقولٌ من وصفٍ، كحاتِمٍ[١]، منصرفٌ لوجود سبب واحد وهو العلميةُ فَحَسْبُ.

《١٠》 ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ﴾: يومَ يُخرَجُ المكتوبُ ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾.

《١١》 ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾: الجزاءِ والحسابِ.

《١٢》 ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾: بذلك اليومِ ﴿إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾: مُجاوز للحدِّ، ﴿أَثِيمٍ ۝١٢﴾: مكتسبٍ للإثم.

《١٣》 ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآنُ ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾: أحاديثُ المتقدمين، وقال الزجاج: أساطير: أباطيلُ، واحدُها: أُسطورةٌ، مثلُ: أحدوثة وأحاديث[٢].

---

(١) منقول من اسم فاعل مِن: حتمتُ الأمر: إذا أحكمتَه، أو: من الحتمِ، وهو القضاءُ. انظر «شرح المفصل» لابن يعيش (١/ ٩٩).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٩٩).

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ ....

«١٤» ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ للمعتدي الأثيم عن هذا القول، ﴿بَلْ﴾: نفيٌ لما قالوا، ويقف حفصٌ على (بل) وُقَيْفَةً[١]، ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾: غطّاها كسبُهم؛ أي: غلب على قلوبهم حتى غمرَها ما كانوا يكسبون من المعاصي، وعن الحسن: الذنبُ بعد الذنب حتى يسودَّ القلب، وعن الضحاك: الرَّيْنُ: موتُ القلب، وعن أبي سليمان: الرينُ والقسوةُ زِماما الغفلة، ودواؤُهما إدمانُ الصوم، فإن وَجَدَ بعد ذلك قسوةً.. فليترك الإدام.

«١٥» ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ عن الكسب الرائن على القلب، ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ﴾: عن رؤية ربهم ﴿يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾: لممنوعون، والحجبُ: المنعُ، قال الزجاج: في الآية دليلٌ على أن المؤمنين يَرَوْنَ ربَّهم، وإلا.. لا يكون التخصيص مفيداً[٢]، وقال الحسينُ بنُ الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في العقبى عن رؤيته، وقال مالكُ بنُ أنسٍ رحمه الله: لما حجب الله أعداءَه فلم يَرَوه.. تجلَّى لأوليائه حتى رأَوه، وقيل: عن كرامة ربهم؛ لأنهم في الدنيا لم يشكروا نعمه، فيئسوا في الآخرة عن كرامته مجازاة، والأولُ أصحُّ؛ لأن الرؤية أقوى الكرامات، فالحجبُ عنها دليلُ الحجب عن غيرها.

«١٦» ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦﴾: ثم بعد كونهم محجوبين عن ربهم لداخلون النار.

«١٧» ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ أي: هذا العذاب هو الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتنكرون وقوعه.

«١٨» ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ عن التكذيب، ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾: ما كتب من أعمالهم، والأبرارُ: المطيعون الذين لا يطففون، ويؤمنون بالبعث؛ لأنه ذكر في مقابلة الفجار، وبُيِّنَ الفجارُ بأنهم المكذبون بيوم الدين، وعن الحسن: البَرُّ: الذي لا يؤذي الذَّرَّ ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ هو: عَلَمٌ لديوان الخير الذي دُوِّنَ فيه كلُّ ما عملته الملائكةُ وصلحاء الثقلين، منقولٌ من جمع عِلِّيٍّ (فِعِّيلٌ) من العُلُوِّ؛ سمي به لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة، أو: لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يَسكن الكَرُوبِيُّونَ تكريماً له[٣].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٩).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٩٩).

(٣) الكَرُوبِيُّونَ: سادَةُ المَلائِكَةِ.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ ....

«١٩» ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾: ما الذي أعلمك يا محمد ﴿مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾ أيُّ شيء هو؟

«٢٠» ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾.

«٢١» ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾: تحضُره الملائكةُ، قيل: يشهدُ عملَ الأبرارِ مُقربو كلِّ سماء إذا رُفِعَ.

«٢٢» ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾: تَنَعُّمٍ في الجنان.

«٢٣» ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: الأَسِرَّةِ في الحِجال ﴿يَنظُرُونَ ٢٣﴾ إلى كرامة الله ونعمه، وإلى أعدائهم كيف يعذبون.

«٢٤» ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾: بهجةَ التنعم وطَراوتَه.

«٢٥» ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾: شرابٍ خالصٍ لا غِشَّ فيه، ﴿مَّخۡتُومٍ ٢٥﴾.

«٢٦» ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾: تُختمُ أوانيه بمسكٍ بدل الطين الذي يُختم به الشراب في الدنيا، أمر الله تعالى بالختم عليه إكراماً لأصحابه، أو: ختامه مسكٌ: مَقطعُه رائحةُ مسكٍ؛ أي: توجد رائحةُ المسك عند خاتمة شربه، ﴿خاتَمُهُ﴾: عليٌّ[1]، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ الرحيقِ أو النعيمِ ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾: فليرغب الراغبون، وذا إنما يكون بالمسارعة إلى الخيرات، والانتهاءِ عن السيئات.

«٢٧» ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾: ومِزاجُ الرحيق ﴿مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧﴾ هو: عَلَمٌ لِعَينٍ بعينها، سميت بالتسنيم الذي هو مصدرُ: سَنَّمَهُ: إذا رفعه؛ لأنها أرفع شراب في الجنة، أو: لأنها تأتيهم من فوقُ، وتَنْصَبُّ في أوانيهم.

«٢٨» ﴿عَيۡنٗا﴾: حالٌ، أو نصبٌ على المدح، ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ أي: منها ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم: يشربها المقربون صِرْفاً، وتُمزج لأصحاب اليمين[2].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٩).
(٢) رواه ابن السَّريّ في «الزهد» (١/ ٧٥) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه البيهقي في «البعث والنشور» (ص ٢٠٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

«٢٩» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾: كفروا ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في الدنيا استهزاءً بهم.

«٣٠» ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾: يُشيرُ بعضُهم إلى بعض بالعين طعناً فيهم وعيباً لهم، قيل: جاء عليٌّ رضي الله عنه في نفر من المسلمين، فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، وقالوا: أترون هذا الأصلع؟ فنزلت قبل أن يصلَ عليٌّ إلى رسول الله ﷺ.

«٣١» ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ أي: إذا رجع الكفار إلى منازلهم ﴿ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾: متلذذين بذكرهم والسخرية منهم، وقرأ غيرُ حفص: ﴿فاكهين﴾[1] أي: فرحين.

«٣٢» ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾: وإذا رأى الكافرون المؤمنين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: خدع محمدٌ هؤلاء فضلُّوا وتركوا اللذاتِ لما يرجونه في الآخرة من الكرامات، فقد تركوا الحقيقة بالخيال، وهذا هو عين الضلال.

«٣٣» ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟﴾: وما أُرسل الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾: على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ يحفظون أحوالهم، ويَرْقُبون أعمالهم، بل أُمروا بإصلاح أنفسهم، فاشتغالُهم بذلك أولى بهم مر تَتَبُّعِ غيرِهم، وتسفيهِ أحلامِهم.

«٣٤» ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي: يومَ القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ثَمَّ، كما ضحكوا منهم هنا مجازاةً.

«٣٥» ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: حالٌ من ﴿يَضْحَكُونَ﴾ أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهَوان والصَّغار، بعد العزة والاستكبار، وهم على الأرائك آمنون، وقيل: يُفتح للكفار بابٌ إلى الجنة فيقال لهم: هلمُّوا إلى الجنة، فإذا وصلوا إليها.. أُغلق دونهم، فيضحك المؤمنون منهم.

«٣٦» ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾: هل جُوزُوا بسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا إذا فُعل بهم ما ذكر؟



(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣٩).

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ ....

سورة الانشقاق

خمس وعشرون آية، مكيَّة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«١» ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾: تصدعت وتشققت.

«٢» ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾: سمعت وأطاعت وأجابت ربَّها إلى الانشقاق ولم تأْبَ ولم تمتنعْ، ﴿وَحُقَّتْ ۝٢﴾: وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع لأمر الله؛ إذْ هي مصنوعةٌ مربوبةٌ لله تعالى.

«٣» ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾: بُسطت وسُويت باندكاك جبالها وكلِّ أَمْتٍ فيها[1].

«٤» ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾: ورَمَتْ ما في جوفها من الكنوز والموتى، ﴿وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾: وخلَتْ غايةَ الخُلُوِّ حتى لم يبق شيء في باطنها، كأنها تكلَّفت أقصى جهدها في الخلوِّ؛ يقال: تكرم الكريم: إذا بلغ جُهْدَه في الكرم، وتكلَّفَ فوق ما في طبعه.

«٥» ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخلِّيْها، ﴿وَحُقَّتْ ۝٥﴾: وهي حقيقةٌ بأن تنقادَ ولا تمتنع، وحُذف جوابُ ﴿إِذَا﴾ ليذهب المُقدرُ كلَّ مذهب، أو اكتفاءً بما عُلِمَ في مثلها من سورتي (التكوير) و(الانفطار)، أو: جوابُه: ما دلَّ عليه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ أي: إذا السماء انشقت.. لاقى الإنسان كدحَه.

«٦» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: خطابٌ للجنس، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾: جاهدٌ إلى لقاء ربك وهو الموتُ وما بعده من الحال الممثلة باللقاء، ﴿فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾: الضميرُ للكدح، وهو جهدُ النفس في العمل والكدُّ فيه حتى يؤثر فيها، والمرادُ: جزاءُ الكدح، إن خيراً.. فخيرٌ، وإن شرّاً.. فشرٌّ، وقيل: لقاءُ الكدح لقاءُ كتابٍ فيه ذلك الكدحُ، يدلُّ عليه قولُه:

«٧ - ٨» ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ أي: كتابَ عمله ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾: سهلاً هيِّناً، وهو: أن يُجازى على الحسنات، ويُتَجاوَزَ عن السيئات، وفي

---

(١) الأمتُ: المكانُ المرتفعُ.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾ ....

الحديث: «من يحاسبْ.. يعذبْ»، فقيل: فأين قولُه: (فسوف يحاسب حساباً يسيراً؟) قال: «ذلكم العرض، مَن نوقش في الحساب.. عُذب»[(١)].

﴿٩﴾ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾: إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين، أو: إلى فريق المؤمنين، أو: إلى أهله في الجنة من الحور العين، ﴿مَسْرُورًا ۝٩﴾: فَرِحاً.

﴿١٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ قيل: تُغَلُّ يُمناه إلى عنقه، وتُجعلُ شمالُه وراء ظهره، فيؤتى كتابَه بشمالِه من وراءِ ظهرِه.

﴿١١﴾ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١﴾ يقول: يا ثبوراه، والثُّبورُ: الهلاكُ.

﴿١٢﴾ ﴿وَيَصْلَىٰ﴾: عِراقيٌّ غيرَ عليٍّ[(٢)]، ﴿سَعِيرًا ۝١٢﴾ أي: ويدخلُ جهنم.

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ في الدنيا ﴿فِيٓ أَهْلِهِۦ﴾ معهم ﴿مَسْرُورًا ۝١٣﴾ بالكفر، يضحك ممن آمن بالبعث، قيل: كان لنفسه متابعاً، وفي مراتعِ هواه راتعاً.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾: لن يرجع إلى ربه تكذيباً بالبعث، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت تفسيره حتى سمعت أعرابية تقول لبنتها: حُوْرِي؛ أي: ارجعي.

﴿١٥﴾ ﴿بَلَىٰٓ﴾: إيجابٌ لما بعد النفي في ﴿أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ أي: بلى لَيحُورنَّ، ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ﴾ وبأعماله ﴿بَصِيرًا ۝١٥﴾ لا تخفى عليه، فلا بدَّ أن يُرجِعَه ويُجازيَه عليها.

﴿١٦﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾: فأُقسم بالبياضِ بعد الحمرة، أو: الحمرةِ[(٣)].

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾: جمعَ وضمَّ، والمرادُ: ما جمعه من الظلمة والنجم، أو: ما عُمِلَ فيه من التهجد وغيره.

﴿١٨﴾ ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾: اجتمع وتمّ بدراً، (افتعل) مِن الوَسْقِ.

---

(١) رواه بنحوه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٢) وقرأ الباقون: ﴿وَيُصَلَّىٰ﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٠).

(٣) مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله: أن الشفق هو: البياضُ الذي يبقى بعد الحمرة، وقال صاحباه: هو الحمرةُ. انظر «الاختيار لتعليل المختار» (١/ ٣٩).

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ۝٢٥﴾

《١٩》 ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ أيها الإنسانُ؛ على إرادة الجنس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾: حالاً بعد حال، كلُّ واحدة مطابقةٌ لأختها في الشدة والهول، والطبقُ: ما طابق غيره؛ يقال: ما هذا بطبقٍ لذا؛ أي: لا يُطابقه، ومنه قيل للغطاء: الطبق، ويجوز أن يكون جمعَ طبقة، وهي: المرتبةُ؛ من قولهم: هو على طبقات؛ أي: لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقاتٌ في الشدة، بعضُها أرفعُ من بعض، وهي الموتُ وما بعدها من مواطنِ القيامةِ وأهوالِها، ومحلُّ (عن طبق): نصبٌ على أنه صفةٌ لـ(طبقاً) أي: طبقاً مجاوزاً لِطبق، أو: حالٌ من الضمير في (لتركبن) أي: لتركبن طبقاً مجاوزين لطبق، وقال مكحول: في كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه، وبفتح الباء: مكيٌّ وعليٌّ وحمزةُ[1]، والخطابُ له عليه السلام؛ أي: طبقاً من أطباق السماء بعد طبق؛ أي: في المعراج.

《٢٠》 ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠﴾: فما لهم في ألّا يؤمنوا؟

《٢١》 ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۝٢١﴾: لا يخضعون.

《٢٢》 ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾ بالبعث والقرآن.

《٢٣》 ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣﴾: بما يجمعون في صدورهم، ويُضمرون من الكفر وتكذيب النبي ﷺ، أو: بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء، ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب.

《٢٤》 ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤﴾: أخبرهم خبراً يظهر أثرُه على بشرتهم.

《٢٥》 ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: استثناءٌ منقطعٌ، ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ۝٢٥﴾: غيرُ مقطوع، أو: غيرُ منقوص.



(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٠).

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ ....

سورة البروج

مكيةٌ، وهي اثنتان وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ هي: البروجُ الاثنا عشرَ، وقيل: النجومُ، أو: عظامُ الكواكب.

《٢》 ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢﴾: يومِ القيامةِ.

《٣》 ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ أي: وشاهدٍ في ذلك اليوم ومشهودٍ فيه؛ والمرادُ بالشاهد: مَن يشهدُ فيه من الخلائق كلِّهم، وبالمشهود فيه: ما في ذلك اليوم من عجائبه، وطريقُ تنكيرهما: إمّا ما في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] كأنه قيل: ما أَفْرَطَتْ كثرتُه من شاهدٍ ومشهود، وإما الإبهامُ في الوصف، كأنه قيل: وشاهدٍ ومشهودٍ لا يُكتنه وصفُهما.

وقد كثرت أقاويلُ المفسرين فيهما، فقيل: محمدٌ ﷺ ويومُ القيامة، أو: عيسى وأمتُه لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، أو: أمةُ محمد وسائرُ الأمم، أو: الحجرُ الأسودُ والحجيجُ، أو: الأيامُ والليالي وبنو آدمَ؛ للحديث: «ما من يوم إلا وينادي: أنا يوم جديد، وعلى ما يُفعلُ فيَّ شهيدٌ، فاغتنمني»، أو: الحفظةُ وبنو آدم، أو: اللهُ تعالى والخلقُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، أو: الأنبياءُ ومحمدٌ عليهم السلام[1]، وجوابُ القسم محذوفٌ يدلُّ عليه:

《٤》 ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾ أي: لُعِنَ، كأنه قيل: أُقسم بهذه الأشياءِ إنهم ملعونون؛ أي: كفارَ قريش، كما لعن أصحابُ الأخدود، وهو: خَدٌّ؛ أي: شَقٌّ عظيمٌ في الأرض.

روي عن النبي ﷺ: «أنه كان لبعض الملوك ساحرٌ، فلما كَبِرَ.. ضمَّ إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهبٌ، فسمع منه، فرأى في طريقه ذاتَ يوم دابةً قد حبست الناس، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهبُ أحبَّ إليك من الساحر.. فاقتلْها فقتلها، فكان

---

(١) في «البخاري» (٣٣٣٩): «يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أيْ ربِّ، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فنشهد أنه قد بلغ».

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ ....

الغلام بعد ذلك يبرئُ الأكمه والأبرص، وعمي جليسٌ للملِكِ فأبرأه، فأبصره الملك فسأله من ردَّ عليك بصرك؟ فقال: ربي، فغضبَ فعذبه فدلَّ على الغلام، فعذبه فدلَّ على الراهب، فلم يرجع الراهبُ عن دينه، فَقُدَّ بالمنشار، وأبى الغلامُ، فذُهب به إلى جبل ليُطرَح من ذِرْوَتِه، فدعا فرَجَفَ بالقوم فطاحُوا ونجا، فذُهب به إلى قُرْقُورٍ، فلَجَّجُوا به لِيُغرقوه، فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرِقُوا ونجا، فقال للملِك: لستَ بِقاتِلي حتى تجمعَ الناسَ في صعيد واحد وتَصْلِبَني على جذع، وتأخذَ سَهماً من كِنانتي وتقولَ: باسم الله ربِّ الغلام، ثم تَرميَني به، فرماه فوقعَ في صُدْغِهِ، فوضع يدَه عليه ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملِك: نزل بك ما كنت تحذرُ، فخدَّ أُخدوداً، وملأها ناراً، فمن لم يرجع عن دينه.. طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبيٌّ، فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبي: يا أمّاه اصبري؛ فإنك على الحقِّ، فأُلْقِيَ الصبيُّ وأمُّه فيها»[(١)].

《٥》 ﴿ٱلنَّارِ﴾: بدلُ اشتمال من ﴿ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾، ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾: وصفٌ لها بأنها نار عظيمة، لها ما يرتفع به لهبُها من الحطب الكثير وأبدان الناس.

《٦》 ﴿إِذْ﴾: ظرفٌ لـ﴿قُتِلَ﴾ أي: لُعنوا حين أَحرَقُوا بالنار قاعدين حولها.

﴿هُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: الكفارُ على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ ۝٦﴾: جلوسٌ على الكراسيِّ.

《٧》 ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفارُ ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ ۝٧﴾: يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحداً منهم لم يُفرِّطْ فيما أُمِرَ به وفُوِّضَ إليه من التعذيب، وفيه حثٌّ للمؤمنين على الصبر وتحملِ أذى أهلِ مكةَ.

《٨》 ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾: وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان، كقوله[(٢)]:

[من: الطويل]

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم ....

---

(١) رواه بنحوه مسلم (٣٠٠٥) عن سيدنا صهيب رضي الله عنه.

(٢) صدر بيت للنابغة الذبياني في «ديوانه» (ص٣٢)، وتتمته:

بهن فُلُولٌ من قِراع الكتائبِ

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ....

وقولِه[1]: [من: المنسرح]

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يَحلُمون إن غضبوا

وقرئ: ﴿نَقِمُوا﴾: بالكسر[2]، والفصيحُ هو الفتح، ﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ ذكر الأوصاف التي يستحقُّ بها أن يؤمَن به، وهو كونه عزيزاً غالباً قادراً يُخشى عقابُه، حميداً منعِماً يجب له الحمد على نعمته ويُرجَى ثوابُه.

《٩》 ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكلُّ مَن فيهما تَحِقُّ عليه عبادتُه، والخشوعُ له تقريراً لأن ما نقموا منهم هو الحقُّ الذي لا يَنْقِمُه إلا مبطلٌ، وأن الناقمين أهلٌ لانتقامِ اللهِ منهم بعذاب عظيم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾: وعيدٌ لهم؛ يعني: أنه علم ما فعلوا، وهو مُجازيهم عليه.

《١٠》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يجوزُ أن يريد بـ(الذين فتنوا): أصحابَ الأخدود خاصّةً، وبالذين آمنوا: المطروحين في الأخدود، ومعنى فتنوهم: عذبوهم بالنار وأحرقوهم، ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾: لم يَرجعوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ في الدنيا؛ لما روي: أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم، ويجوز أن يريد: الذين فتنوا المؤمنين؛ أي: بَلَوهم بالأذى على العموم، والمؤمنين: المفتونين، وأن للفاتنين عذابَين في الآخرة؛ لكفرهم ولفتنتهم.

《١١》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ أي: الذين صبروا على تعذيب الأخدود، أو: هو عامٌّ.

《١٢》 ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ البطشُ: الأخذُ بالعنف، فإذا وُصف بالشدة.. فقد تضاعف وتفاقم، والمراد: أخذُه الظلمةَ والجبابرةَ بالعذاب والانتقام.

《١٣》 ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ أي: يخلقُهم ابتداءً ثم يعيدُهم بعد أن صيَّرهم تراباً، دلَّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشِه، أو: أَوْعَدَ الكفرة بأنه يعيدُهم، كما أبدأهم؛ لِيَبْطِشَ بهم؛ إذْ لم يشكروا نعمةَ الإبداء، وكذَّبوا بالإعادة.

---

(١) البيت لعبيد الله بن قيس الرقيات في «ديوانه» (ص٧٣).

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٢).

وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

《١٤》 ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾: الساتر للعيوب، العافي عن الذنوب، ﴿ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾: المحبُّ لأوليائه، وقيل: الفاعلُ بأهل طاعته ما يفعله الودود؛ مِن إعطائهم ما أرادوا.

《١٥》 ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: خالقُه ومالكُه، ﴿المجيدِ﴾: حمزةُ وعليٌّ[1]؛ على أنه صفةُ العرش، ومجدُ الله: عظمتُه، ومجدُ العرش: علوُّه وعظمتُه.

《١٦》 ﴿فَعَّالٌ﴾: خبرُ مبتدأ محذوف، ﴿لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ تكوينَه، فيه دلالة على خلق أفعال العباد.

《١٧》 ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ أي: قد أتى خبرُ الجموع الطاغية، في الأمم الخالية.

《١٨》 ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾: بدلٌ من الجنود، وأراد بفرعون: إياه وآلَه؛ والمعنى: قد عرفتَ تكذيب تلك الجنودِ للرسل وما نزل بهم لتكذيبهم.

《١٩》 ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قومك ﴿فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ واستيجاب للعذاب، ولا يعتبرون بالجنود، لا لخفاء حال الجنود عليهم، لكن يكذبونك عِناداً.

《٢٠》 ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾: عالم بأحوالهم وقادرٌ عليهم، وهم لا يُعْجِزُونه، والإحاطةُ بهم من ورائهم مَثَلٌ بأنهم لا يفوتونه، كما لا يفوتُ فائتُ الشيءَ المحيطَ به.

《٢١》 ﴿بَلْ هُوَ﴾: بل هذا الذي كذبوا به ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾: شريفٌ عالي الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه، ليس كما يزعُمون أنه مفترىً، وأنه أساطير الأولين.

《٢٢》 ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾: من وصول الشياطين، ﴿محفوظٌ﴾: نافعٌ، صفةٌ للقرآن؛ أي: من التغيير والتبديل، واللوحُ عند الحسن شيءٌ يلوح للملائكة فيقرؤونه، وعند ابن عباس رضي الله عنهما: هو من درة بيضاء، طولُه ما بين السماء والأرض، وعرضُه ما بين المشرق والمغرب، قلمُه نورٌ، وكل شيء فيه مسطور، مقاتل: هو عن يمين العرش، وقيل: أعلاه، معقودٌ بالعرش، وأسفلُه في حِجْرِ مَلَكٍ كريم.



---

(١) والباقون: بالرفع. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٠) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾ ....

سورة الطارق

مكيةٌ، وهي سبعَ عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١ - ٣» ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ عَظَّمَ قدرَ السماء في أعين الخلق لكونها مَعْدِنَ رزقِهم، ومسكنَ ملائكته، وفيها خَلَقَ الجنةَ، فأقسم بها وبالطارق؛ والمرادُ: جنسُ النجوم، أو: جنسُ الشهب التي يُرجم بها لعظم منفعتها، ثم فسره بالنجم الثاقب؛ أي: المضيء، كأنه يثقب الظلام بضوئِه، فينفذُ فيه، ووصف بالطارق؛ لأنه يبدو بالليل، كما يقال للآتي ليلاً: طارقٌ، أو: لأنه يطرقُ الجنيَّ؛ أي: يصكُّه، وجوابُ القسم:

«٤» ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ لأنَّ (لما) إن كانت مشددة بمعنى إلا كقراءةِ عاصم وحمزةَ وابنِ عامر.. فتكونُ (إن) نافية؛ أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وإن كانت مخففة كقراءة غيرِهم[1]، فتكون (إن) مخففةً من الثقيلة؛ أي: إنه كلُّ نفس لَعَلَيْها حافظٌ يحفظها من الآفات، أو: يحفظ عملَها ورزقها وأجلها، فإذا استوفى ذلك.. ماتت، وقيل: هو كاتب الأعمال، فـ(ما): زائدةٌ، واللامُ: فارقةٌ بين الثقيلة والخفيفة، و(حافظ): مبتدأٌ، و(عليها): الخبر، والجملةُ: خبرُ (كلّ)، وأيتهما كانت.. فهي مما يُتلقَّى به القسم.

«٥» ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ لما ذكر أن على كل نفس حافظاً.. أمره بالنظر في أول أمره؛ ليَعلمَ أن مَن أنشأه قادرٌ على إعادته وجزائه، فيعملَ ليوم الجزاء، ولا يُملي على حافظه إلا ما يسرُّه في عاقبته، و(ممَّ خلق): استفهامٌ؛ أي: مِن أيِّ شيء خُلِقَ؟ جوابُه:

«٦» ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ والدفقُ: صبٌّ فيه دفعٌ، والدفقُ في الحقيقة لصاحبه، والإسنادُ إلى الماء مجازٌ، وعن بعض أهل اللغة: دفقتُ الماءَ دفقاً: صببتُه، ودفق الماءُ بنفسه؛ أي: انْصَبَّ، ولم يقل: مِن ماءين لامتزاجِهما في الرحم، واتحادِهما حين ابتُدِئَ في خلقه.

«٧» ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾: مِن بين صُلْبِ الرجل وترائب المرأة، وهي: عظامُ الصدر حيث تكون القلادة، وقيل: العظمُ والعصبُ من الرَّجُلِ، واللحمُ والدمُ من المرأة.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٠).

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ۝١٧﴾

《٨》 ﴿إِنَّهُۥ﴾: إن الخالقَ؛ لدلالة ﴿خُلِقَ﴾ عليه، ومعناه: إن الذي خلق الإنسان ابتداءً من نطفة ﴿عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾: على إعادته خصوصاً ﴿لَقَادِرٞ ۝٨﴾: لَبَيِّنُ القدرة لا يَعْجِزُ عنه، كقوله: إنني لفقير.

《٩》 ونُصِبَ ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى﴾ أي: تُكشف بـ ﴿رَجۡعِهِۦ﴾، أو: بمضمر دلَّ عليه قولُه: ﴿رَجۡعِهِۦ﴾ أي: يبعثه، ﴿ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾: ما أُسِرَّ في القلوب من العقائد والنيّات، وما أُخفيَ من الأعمال.

《١٠》 ﴿فَمَا لَهُۥ﴾: فما للإنسان ﴿مِن قُوَّةٖ﴾ في نفسه على دفع ما حلَّ به، ﴿وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾ يُعينُه ويدفعُ عنه.

《١١》 ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١﴾ أي: المطر، وسمي به لعودِه كلَّ حين.

《١٢》 ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾ هو: ما تتصدع عنه الأرض من النبات.

《١٣》 ﴿إِنَّهُۥ﴾: إن القرآنَ ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣﴾: فاصلٌ بين الحق والباطل، كما قيل له: فرقان.

《١٤》 ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾: باللعب والباطل؛ يعني: أنه جِدٌّ كلُّه، ومن حقه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مَهيباً في الصدور، مُعظّماً في القلوب، يرتفع به قارئُه وسامعُه أن يُلِمَّ بهزل، أو يتفكَّهَ بمزاح.

《١٥》 ﴿إِنَّهُمۡ﴾ يعني: مشركي مكةَ ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥﴾: يعملون المكايِدَ في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحقِّ.

《١٦》 ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦﴾: وأَجْزِيْهم جزاءَ كيدِهم باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون، فسمَّى جزاءَ الكيدِ كيداً، كما سمَّى جزاءَ الاعتداءِ والسيئةِ اعتداءً وسيئةً وإن لم يكن اعتداءً وسيئةً، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى إلا على وجه الجزاء، كقوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥].

《١٧》 ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تدعُ بهلاكِهم، ولا تستعجل به، ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ﴾: أنظرهم، فكَرَّر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير، ﴿رُوَيۡدَۢا ۝١٧﴾: إمهالاً يسيراً، ولا يُتكلم بها إلا مصغرةً، وهي من رادت الريحُ ترودُ رَوداً: تحركت حركةً ضعيفةً.



﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ . . . .

سورة الأعلى عزَّ وجلَّ

تسعَ عشرةَ آيةً، مكيَّةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾: نزهْ ذاتَه عمّا لا يليق به، والاسمُ صلةٌ، وذلك بأن يُفسَّرَ (الأعلى) بمعنى: العُلُوِّ الذي هو القهرُ والاقتدار، لا بمعنى العلو في المكان، وقيل: قلْ: سبحان ربي الأعلى، وفي الحديث: لما نزلت. . قال عليه السلام: «اجعلوها في سجودكم»[١].

《٢》 ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ أي: خلق كل شيء فسوَّى خلقَه تسوية، ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم، ولكن على إحكام واتِّساق، ودلالةً على أنه صادرٌ عن عالم حكيم، أو: سَوّاهُ على ما فيه منفعةٌ ومصلحةٌ.

《٣》 ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ أي: قدَّرَ لكل حيوان ما يُصلحُه، فهداه إليه، وعرَّفه وجه الانتفاع به، أو: فهدى وأضلَّ، ولكن حُذِفَ: وأضل؛ اكتفاءً، كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣] ﴿قَدَّرَ﴾: عليٌّ[٢].

《٤》 ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾: أنبت ما ترعاه الدوابُّ.

《٥》 ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾: يابساً هشيماً، ﴿أَحْوَىٰ ۝٥﴾: أسودَ، فـ(أحوى): صفةٌ لـ(غثاءً).

《٦》 ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾: سنعلمك القرآن حتى لا تنساه.

《٧》 ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ أن ينسخه، وهذا بشارةٌ من الله لنبيه أن يحفظَ عليه الوحي حتى لا ينفلت منه شيءٌ إلا ما شاء الله أن ينسخَه فيذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته، وسأل ابن كيسان النحوي جُنيداً عنه فقال: فلا تنسى العملَ به، فقال: مثلُك يُصَدَّرُ، وقيل: قولُه: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ على النهي، والألفُ: مزيدةٌ للفاصلة، كقوله ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] أي: فلا تُغفِلْ قراءتَه وتكريرَه فتنساه إلا ما شاء الله أن يُنسِيَكَهُ برفع تلاوته، ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ أي:

---

(١) رواه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) عن سيدنا عقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤١).

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ....

إنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل مخافة التَّفَلُّتِ، والله يعلم جهرك معه وما في نفسك؛ مما يدعوك إلى الجهر، أو: ما تقرأ في نفسك مخافَةَ النسيان، أو: يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وما بطن من أحوالكم.

《٨》 ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾: معطوف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾: اعتراضٌ، ومعناه: ونوفقك للطريقة التي هي أيسرُ وأسهلُ؛ يعني: حفظ الوحي، وقيل: للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع، أو: نوفقك لعمل الجنة.

《٩》 ﴿فَذَكِّرْ﴾: عِظْ بالقرآن ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾: جوابُ (إنْ): مدلولُ قولِه: (فذكر) قيل: ظاهره شرطٌ، ومعناه استبعادٌ لتأثير الذكرى فيهم، وقيل: هو أمر بالتذكير على الإطلاق، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] غيرَ مشروطٍ بالنفع.

《١٠》 ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾: سيتعظ ويقبلُ التذكرةَ ﴿مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ اللهَ وسوءَ العاقبة.

《١١》 ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾: ويتباعد عن الذكرى ولا يقبلها ﴿الْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾: الكافرُ، أو: الذي هو أشقى الكفرةِ؛ لتوغله في عداوة رسول الله ﷺ، قيل: نزلت في الوليدِ بنِ المغيرةِ، وعتبةَ بنِ ربيعةَ.

《١٢》 ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾: يدخل نار جهنم، والصغرى: نارُ الدنيا.

《١٣》 ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريحَ من العذاب، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ حياةً يتلذذ بحياتِه، وقيل: (ثم) لأن الترجُّحَ بين الحياة والموت أفظعُ من الصَّلْي، فهو متراخٍ عنه في مراتب الشدة.

《١٤》 ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾: نال الفوز ﴿مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾: تطهَّرَ من الشرك، أو: تطهر للصلاة، أو: أدى الزكاة، (تفعل) من الزكاة، ك: تصدق من الصدقة.

《١٥》 ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾: وكبَّرَ للافتتاح، ﴿فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ الخمسَ، وبه يُحتجُّ على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة عُطفت عليها، وهو يقتضي المغايرة، وعلى أن الافتتاح جائزٌ بكل اسم من أسمائه عزَّ وجلَّ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ذكر مَعادَه وموقفه بين يدي ربه فصلى له، وعن الضحاك: وذكر اسم ربه في طريق المصلَّى، فصلَّى صلاة العيد.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

《١٦》 ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ على الآخرة، فلا تفعلون ما به تفلحون، والمخاطب به الكافرون؛ دليلُه: قراءةُ أبي عمرو: ﴿يؤثرون﴾: بالياء[1].

《١٧》 ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾: أفضلُ في نفسها وأَدْوَمُ.

《١٨》 ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ (هذا): إشارةٌ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلى ﴿أَبْقَىٰٓ﴾ أي: أن معنى هذا الكلام واردٌ في تلك الصحف، أو: إلى ما في السورة كلِّها، وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة؛ لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف، مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة[2].

《١٩》 ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾: بدلٌ عن ﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، وفي الأثر: وفي صحف إبراهيم: ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه[3].



---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤١).

(٢) الذي استقر عليه رأي أبي حنيفة رحمه الله: جواز القراءة في الصلاة بغير العربية للعاجز عن العربية. انظر «مراقي الفلاح» (ص ٨٧).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (ص ٦٠) عن وهب بن منبه قال: (في حِكَم آل داود...) فذكره.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ ....

سورة الغاشية

مكية، وهي ستٌّ وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾: الداهيةِ التي تغشى الناس بشدائدها، وتُلْبِسُهم أهوالَها؛ يعني: القيامة، وقيل: النار؛ من قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

《٢》 ﴿وُجُوهٌ﴾ أي: وجوهُ الكفار، وإنما خُصَّ الوجه لأن الحزن والسرور إذا استحكما في المرء.. أثَّرا في وجهه، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يومَ إذْ غَشِيَتْ ﴿خَـٰشِعَةٌ ۝٢﴾: ذليلةٌ لما اعترى أصحابَها من الخِزْيِ والهوان.

《٣》 ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جرُّها السلاسل والأغلال، وخوضُها في النار كما تخوض الإبل في الوحْلِ، وارتقاؤُها دائبةً في صَعود من نارٍ، وهبوطُها في حُدور منها، وقيل: عملت في الدنيا أعمالَ السوء والْتَذَّتْ بها وتنعمت، فهي في نَصَبٍ منها في الآخرة، وقيل: هم أصحاب الصوامع، ومعناه: أنها خشعت لله وعملت ونَصِبَتْ في أعمالها؛ من الصوم الدائبِ، والتهجد الواصب.

《٤》 ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾: تدخل ناراً قد أحميت مُدَداً طويلةً، فلا حرَّ يَعْدِلُ حرَّها، ﴿تُصْلَى﴾: أبو عمرٍو وأبو بكرٍ[١].

《٥》 ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾: من عينِ ماءٍ قد انتهى حرُّها، والتأنيثُ في هذه الصفات والأفعال راجعٌ إلى الوجوه، والمرادُ: أصحابُها؛ بدليل قولِه:

《٦》 ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ وهو: نبتٌ يقال لِرَطْبِه: الشِّبْرِق، فإذا يَبِسَ.. فهو ضريع، وهو سُمٌّ قاتل، والعذاب ألوانٌ، والمعذبون طبقات، فمنهم أكلُه الزَّقوم، ومنهم أكلُه الغِلسين، ومنهم أكله الضَّريع، فلا تناقض بين هذه الآيةِ وبين قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤١) وكذا القراءة الآتية.

لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ....

《٧》 ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾: مجرورُ المحلِّ؛ لأنه وصف ضريع، ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ أي: مَنْفَعَتا الغذاءِ مُنتفيتان عنه، وهما: إماطةُ الجوع وإفادةُ السِّمَنِ في البدن.

《٨》 ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾: ثم وَصَفَ وجوه المؤمنين، ولم يقل: ووجوه؛ لأن الكلام الأول قد طال وانقطع، ﴿نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾: مُتنعمةٌ في لِيْنِ العيش.

《٩》 ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾: رضيت بعملها وطاعتها لمّا رأت ما أدّاهم إليه من الكرامة والثواب.

《١٠》 ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾: مِن علوِّ المكان أو المقدار.

《١١》 ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾: يا مُخاطَبُ، أو: الوجوهُ ﴿فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾ أي: لغواً، أو: كلمة ذات لغو، أو: نفساً تلغو، لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمةِ وحمدِ اللهِ على ما رزقهم من النعيم الدائم، ﴿لا يُسمع فيها لاغيةٌ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو، و﴿لا تُسْمَعُ فيها لاغيةٌ﴾: نافعٌ.

《١٢》 ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: عيونٌ كثيرةٌ[1]، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤].

《١٣》 ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾: جمعُ سرير ﴿مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾: مِن رفعة المقدار، أو: السَّمْكِ؛ لِيَرى المؤمن بجلوسه عليه جميعَ ما خوَّلَه ربُّه من الملك والنعيم.

《١٤》 ﴿وَأَكْوَابٌ﴾: جمعُ كوب، وهو: القَدَحُ، وقيل: آنيةٌ لا عُروةَ لها.

﴿مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ بين أيديهم ليتلذذوا بالنظر إليها، أو: موضوعة على حافات العيون معدةٌ للشرب.

《١٥》 ﴿وَنَمَارِقُ﴾: وَسائِدُ ﴿مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ بعضُها إلى جنب بعض مساندَ ومطارحَ، أينما أراد أن يجلس.. جلس على مِسْوَرَةٍ، واستند إلى الأخرى[2].

《١٦》 ﴿وَزَرَابِيُّ﴾: وبُسُطٌ عِراض فاخرة، جمع زِرْبِيَّةٍ، ﴿مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾: مبسوطةٍ، أو: مفرقةٍ في المجالس، ولما أنزل الله تعالى هذه الآياتِ في صفة الجنة، وفسَّر النبيُّ عليه السلام بأن

---

(١) فالتنوين للتكثير، وقيل: للتعظيم. انظر «تفسير الآلوسي» (١٥/٣٢٨).

(٢) المسورةُ: الوسادةُ.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ....

ارتفاع السرير يكون مئةَ فرسخ، والأكواب الموضوعة لا تدخل في حساب الخلق لكثرتها، وطولُ النمارق كذا، وعرضُ الزَّرابي كذا.. أنكر الكفارُ وقالوا: كيف يُصعد على هذا السرير؟ وكيف تكثر الأكواب هذه الكثرةَ؟ وتطول النمارق هذا الطولَ؟ وتنبسط الزرابي هذا الانبساطَ ولم نشاهد ذلك في الدنيا؟ فقال الله تعالى:

«١٧» ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ طويلةً ثم تَبْرُكُ حتى تُركبَ أو يُحملَ عليها، ثم تقوم، فكذا السريرُ يُطأطِئُ للمؤمن كما يُطأطِئُ الإبلُ.

«١٨» ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ رفعاً بعيدَ المدى بلا إمساكٍ وعَمَدٍ، ثم نجومُها تكثرُ هذه الكثرةَ، فلا تدخل في حساب الخلق، فكذا الأكواب.

«١٩» ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ نصباً ثابتاً فهي راسخةٌ لا تميل مع طولها، فكذا النمارق.

«٢٠» ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ سطحاً بتمهيد وتوطئة، فهي كلُّها بِساطٌ واحد تنبسط من الأفق إلى الأفق، فكذا الزرابيُّ، ويجوز أن يكون المعنى: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقاتِ الشاهدةِ على قدرة الخالق حتى لا يُنكروا اقتدارَه على البعث، فيسمعوا إنذار الرسول ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه، وتخصيصُ هذه الأربعة باعتبار أن هذا خطاب للعرب، وحثٌّ لهم على الاستدلال، والمرءُ إنما يستدلُّ بما تكثرُ مشاهدتُه له، والعرب تكون في البوادي، ونظرُهم فيها إلى السماء والأرض والجبال والإبل، فهي أعزُّ أموالهم، وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر الحيوانات، ولأنها تجمعُ جميع المآرب المطلوبة من الحيوان، وهي: النسلُ والدَّرُّ والحملُ والركوبُ والأكلُ، بخلاف غيرها، ولأن خَلقها أعجبُ من غيرها؛ فإنه سخَّرها منقادة لكل من اقتادها بأزِمَّتِها، لا تُعازُّ ضعيفاً، ولا تُمانع صغيراً، أو: بَرَأَها طِوالَ الأعناق لتنوء بالأوقار، وجعلها بحيث تَبركُ حتى تُحمَّلَ عن قرب ويُسر، ثم تَنهضُ بما حُمِّلت، وتَجرُّها إلى البلاد الشاحطة، وصبَّرها على احتمال العطش، حتى إن ظِمْأَها لَيرتفعُ إلى العَشْرِ فصاعداً، وجعلها ترعى كل نابتٍ في البراري مما لا يَرعاه سائرُ البهائم.

«٢١» ﴿فَذَكِّرْ﴾: فذكرهم بالأدلة ليتفكروا فيها، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ ليس عليك إلا التبليغ.

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

《٢٢》 ﴿لسْتَ عليهم بمسيطر﴾: بمتسلِّطٍ، كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] ﴿بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾: مدنيٌّ وبصريٌّ وعليٌّ وعاصمٌ[1].

《٢٣ - ٢٤》 ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ الاستثناءُ منقطعٌ؛ أي: لست بمُسْتَوْلٍ عليهم، ولكن مَن تولى منهم وكفر بالله.. فإن لله الولايةَ والقهرَ، فهو يعذبه العذاب الأكبر، وهو عذاب جهنم، وقيل: هو استثناءٌ من قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكرْ إلا مَن انقطع طمعُك من إيمانه وتولى، فاستحق العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراضٌ.

《٢٥》 ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾: رجوعَهم، وفائدةُ تقديم الظرف: التشديدُ في الوعيد، وإن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام.

《٢٦》 ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ فنحاسبُهم على أعمالهم ونجازيْهم بها جزاءَ أمثالِهم، و(على): لتأكيد الوعيدِ لا الوجوب؛ إذْ لا يجب على الله شيء.



(١) قرأ هشامٌ: بالسين، وحمزةُ بخلفٍ عن خلاد: بإشمام الصاد الزايَ، والباقون: بالصاد الخالصة، وهو الوجهُ الثاني لخلاد. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤١).

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ . .

سورة الفجر

مكيةٌ، وهي ثلاثون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾: أقسم بالفجر، وهو الصبح، كقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، أو: بصلاة الفجر.

《٢》 ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾: عشرِ ذي الحجة، أو: العشر الأُوَلِ من المحرم، أو: الآخِرِ من رمضان، وإنما نُكِّرَت لزيادة فضيلتها.

《٣》 ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾: شفعِ كلِّ الأشياء وَوِتْرِها، أو: شفع هذه الليالي ووترِها، أو: شفع الصلاة ووترها، أو: يومِ النحر؛ لأنه اليوم العاشر، ويومِ عرفة؛ لأنه اليوم التاسع، أو: الخلقِ والخالقِ، ﴿والوِتْرِ﴾: حمزةُ وعليٌّ، وبفتح الواو: غيرُهما[1]، وهما لغتان، فالفتح: حجازي، والكسر: تميمي، وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليالي على العموم فقال:

《٤》 ﴿وَالَّيْلِ﴾ وقيل: أُريدَ به: ليلةُ القدر، ﴿إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾: إذا يمضي، وياءُ (يَسْرِ) تحذف في الدرج اكتفاء عنها بالكسرة، وأما في الوقف.. فتحذف مع الكسر، وسأل واحدٌ الأخفشَ عن سقوط الياء، فقال: لا، حتى تخدمَني سنة، فسأله بعد سنة فقال: الليلُ لا يَسري، وإنما يُسرَى فيه، فلما عُدل عن معناه.. عُدل عن لفظه موافقةً، وقيل: معنى يَسْرِي: يُسرَى فيه، كما يقال: ليلٌ نائمٌ؛ أي: يُنام فيه.

《٥》 ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿قَسَمٌ﴾ أي: مُقسَمٌ به ﴿لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾: عقل، سُمِّي به لأنه يَحْجُرُ عن التهافت فيما لا ينبغي، كما سمي عقلاً ونُهْيَةً؛ لأنه يَعقل وينهى؛ يريدُ: هل تحقق عنده أن تَعظم هذه الأشياءُ بالإقسام بها، أو: هل في إقسامي بها إقسامٌ لذي حِجر؛ أي: هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسمُ عليه؟ أو: هل في القسم بهذه الأشياء قسم مُقْنِعٌ لذي عقل ولبٍّ؟ والمقسَمُ عليه محذوفٌ، وهو قولُه: ليعذبُنَّ؛ يدلُّ عليه قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، ثم ذكر تعذيبَ الأمم التي كذبت الرسل فقال:

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٣٤٢).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝﴾ ....

《٦ - ٧》 ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝﴾ أي: ألم تعلم يا محمد عِلماً يوازي العِيانَ في الإيقان؟ وهو استفهامُ تقرير، قيل لعَقِبِ عادِ بنِ عَوْصِ بنِ إِرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ: عادٌ، كما يقال لبني هاشم: هاشمٌ، ثم قيل للأولين منهم: عادٌ الأُولى، وإِرَمُ: تسميةٌ لهم باسم جدِّهم، ولمن بعدَهم: عادٌ الأخيرة، فـ(إرم): عطفُ بيان لـ(عاد)، وإيذانٌ بأنهم عادٌ الأُولى القديمةُ، وقيل: (إرمُ): بلدتُهم وأرضُهم التي كانوا فيها، ويدلُّ عليه قراءة ابن الزبير: ﴿بعادِ إرمَ﴾ على الإضافة[1]، وتقديرُه: بعادِ أهلِ إرمَ، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ولم تنصرف قبيلةً كانت أو أرضاً؛ للتعريف والتأنيث، و(ذاتِ العمادِ) إذا كانت صفة للقبيلة.. فالمعنى: أنهم كانوا بَدويين أهلَ عُمُدٍ، أو: طِوالَ الأجسام، على تشبيه قُدودهم بالأعمدة، وإن كانت صفةً للبلدة.. فالمعنى: أنها ذاتُ أساطين، وروي: أنه كان لعادٍ ابنان: شدّاد وشديد، فمَلَكا وقَهَرا، ثم مات شديدٌ وخَلَصَ الأمرُ لشدّاد، فملك الدنيا، ودانت له ملوكُها، فسمع بذكر الجنة فقال: أبني مثلَها فبنى إرمُ في بعض صحارى عدن في ثلاثِ مئةِ سنةٍ، وكان عمرُه تسعَ مئةِ سنةٍ، وهي مدينة عظيمة، قصورُها من الذهب والفضة، وأساطينُها من الزَّبَرْجَدِ والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار، ولما تَمَّ بناؤها.. سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة.. بعث الله عليهم صيحةً من السماء فهلكوا، وعن عبد الله بنِ قِلابةَ: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قَدَرَ عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبرُه معاويةَ، فاستحضره فقصَّ عليه، فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي: إرمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمرُ أشقرُ قصيرٌ، على حاجبه خالٌ، وعلى عقبه خالٌ، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر ابنَ قِلابةَ فقال: هذا والله ذلك الرجل.

《٨》 ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝﴾ أي: مثلُ عاد في قوتهم وطول قامتهم، كان طولُ الرجل منهم أربعَ مئةِ ذراع، أو: لم يخلق مثلُ مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا.

《٩》 ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾: قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً، قيل: أولُ مَن نحَتَ الجبالَ والصخورَ ثمودُ، وبَنَوا ألفاً وسبعَ مئةِ مدينةٍ كلُّها من الحجارة، ﴿بِٱلْوَادِ ۝﴾: بوادي القُرى.

---

(١) انظر «الكشاف» (٤/ ٧٥٠).

وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ....

«١٠» ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ أي: ذي الجنود الكثيرة، وكانت لهم مضاربُ كثيرةٌ يضرِبونها إذا نزلوا، وقيل: كان له أوتادٌ يعذب الناس بها، كما فعل بآسيةَ.

«١١» ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب على الذم، أو: الرفع على: هم الذين، أو: الجرِّ على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون، ﴿طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾﴾: تجاوَزُوا الحدَّ.

«١٢» ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ بالكفر والقتل والظلم.

«١٣» ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾: مجازٌ عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه؛ إذ الصبُّ يُشعر بالدوام، والسوطُ بزيادة الإيلام؛ أي: عُذِّبُوا عذاباً مؤلماً دائماً.

«١٤» ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ وهو المكان الذي يُترقب فيه الرَّصَدُ، (مفعال) مِن: رَصَدَهُ، وهذا مثلٌ لإرصاده العباد، وأنهم لا يفوتونه، وأنه عالم بما يصدرُ منهم وحافظٌ فيجازيهم عليه؛ إن خيراً.. فخيرٌ، وإن شرّاً.. فشرٌّ.

«١٥ - ١٦» ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: ضيق عليه وجعله بمقدار بُلْغَتِهِ، ﴿فَقَدَّرَ﴾: شاميٌّ ويزيدُ[1]، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ أي: الواجبُ لمن ربُّه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة، ولا تُهِمَّهُ العاجلةُ، وهو قد عكس، فإنه إذا امتحنه ربه بالنعمة والسعة ليشكر.. قال: ربي أكرمني؛ أي: فضَّلَني بما أعطاني، فيرى الإكرام في كثرة الحظِّ من الدنيا، وإذا امتحنه بالفقر فقدَرَ عليه رزقَه ليصبرَ.. قال: ربي أهانني، فيرى الهَوانَ في قلة الحظِّ من الدنيا؛ لأنه لا تُهِمُّهُ إلا العاجلةُ وما يَلَذُّهُ ويُنَعِّمُه فيها، فردَّ عليه زعمَه بقوله:

«١٧» ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلته، بل الإكرامُ في توفيق الطاعة، والإهانةُ في الخِذلان، وقولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ﴾: خبرُ المبتدأ الذي هو ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، ودخولُ الفاء لما في أمّا مِن معنى الشرط، والظرفُ المتوسطُ بين المبتدأ والخبرِ في تقدير التأخير، كأنه قيل: فأما الإنسان.. فقائل: ربي أكرمن وقتَ الابتلاء، وكذا ﴿فَيَقُولُ﴾ الثاني:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٢) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ ....

خبرٌ لمبتدأ تقديره: وأما هو إذا ما ابتلاه ربه، وسَمَّى كِلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاءً؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما اختبارٌ للعبد، فإذا بُسط له.. فقد اختُبِرَ حالُه أَيَشكر أم يكفر؟ وإذا قُدِرَ عليه.. فقد اختُبِر حالُه أَيَصبر أم يجزع؟ ونحوُه: قولُه تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وإنما أَنكر قولَه: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ مع أنه أثبته بقوله: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ لأنه قاله على قصدِ خلافِ ما صححه الله عليه وأثبته، وهو قصدُه إلى أنَّ الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له؛ لاستحقاقه، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وإنما أعطاه الله تعالى ابتلاءً من غير استحقاق منه، ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧﴾.

《١٨》 ﴿وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ أي: بل هناك شرٌّ من هذا القول، وهو أن الله يكرمُهم بالغنى، فلا يؤدُّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالمبرةِ، وحضِّ أهله على طعام المسكين.

《١٩》 ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾: الميراثَ ﴿أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩﴾: ذا لَمٍّ، وهو الجمع بين الحلال والحرام، وكانوا لا يُوَرِّثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون تراثَهم مع تراثِهم.

《٢٠》 ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ﴾ يقال: حبَّه وأحبَّه: بمعنىً، ﴿حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾: كثيراً شديداً مع الحرص ومنع الحقوق، ﴿رَبِّيَ﴾: حجازي وأبو عمرو، ﴿يكرمون﴾، ﴿ولا يحضون﴾، ﴿ويأكلون﴾، ﴿ويحبون﴾: بصري[1].

《٢١》 ﴿كَلَّآ﴾: ردعٌ لهم عن ذلك، وإنكارٌ لفعلهم، ثم أتى بالوعيد، وذكر تحسرَهم على ما فرَّطوا فيه حين لا تنفع الحسرة فقال: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾: إذا زلزلت ﴿دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾: دكاً بعد دك؛ أي: كُرِّرَ عليها الدكُّ حتى عادت هباء منبثاً.

《٢٢》 ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾: تمثيلٌ لظهور آيات اقتداره، وتبيين آثار قهره وسلطانه، فإن واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه.. ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصِّه، وعن ابن عباس: أمرُه وقضاؤه، ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ أي: ينزل ملائكة كل سماء، فيصطفون صفّاً بعد صفٍّ مُحْدِقِين بالجنِّ والإنس.

---

(١) قرأ نافعٌ وابنُ كثير وابنُ عامر: بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة، و(تَحُضُّون)، وأبو عمرٍو ويعقوبُ: بياء الغيبة في الأربعة، و(يَحُضُّون)، والباقون: بتاء الخطاب في الأربعة، و(تَحاضُّون).

وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ....

《٢٣》 ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ قيل: إنها بُرِّزَتْ لأهلها، كقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]، وقيل: هو مُجرىً على حقيقته؛ ففي الحديث: «يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألفَ ملك يَجُرُّونها»[١]، ﴿يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: يتعظ، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾: ومِن أين له الذكرى؟

《٢٤》 ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ هذه، وهي: حياةُ الآخرة؛ أي: يا ليتني قدمت الأعمال الصالحة في الحياة الفانية لحياتي الباقية.

《٢٥》 ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا يتولى عذاب الله أحد؛ لأن الأمر لله وحدَه في ذلك اليوم.

《٢٦》 ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾ قال صاحبُ «الكشاف»: لا يعذبُ أحدٌ أحداً كعذاب الله، ولا يوثقُ أحدٌ أحداً كوثاق الله، ﴿لا يُعَذَّبُ﴾ ﴿ولا يُوثَقُ﴾ عليٌّ[٢]، وهي قراءةُ رسول الله ﷺ[٣]، ورجع إليها أبو عمرٍو في آخر عمره[٤]، والضميرُ يرجعُ إلى الإنسان الموصوف وهو الكافر، وقيل: هو أُبَيُّ بنُ خلف؛ أي: لا يُعذَّبُ أحدٌ مثل عذابه، ولا يُوثَقُ بالسلاسل مثلَ وَثاقه؛ لِتناهيه في كفره وعناده، ثم يقول الله تعالى للمؤمن:

《٢٧》 ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ﴾ إكراماً له، كما كلم موسى عليه السلام، أو يكون على لسان مَلَكٍ، ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾: الآمنةُ التي لا يستفزُّها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة، أو: المطمئنة إلى الحق، التي سكنها ثَلْجُ اليقين، فلا يخالجُها شكٌّ، ويشهد للتفسير الأول: قراءةُ أُبَيٍّ: ﴿يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة﴾[٥]، وإنما يقال لها عند الموت، أو: عند البعث، أو: عند دخول الجنة.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٢).

(٣) القراءات المتواترة كلها قراءات رسول الله ﷺ، تلقاها عنه الصحابة رضوان الله عليهم.

(٤) إن ثبت رجوعه إليها.. فلا يقدح ذلك في قراءة الكسر؛ فهما متواترتان.

(٥) انظر «المحرر الوجيز» (٥/٤٨٢).

﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

《٢٨》 ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ﴾ موعد ﴿رَبِّكِ﴾ أو: ثواب ربِّك ﴿رَاضِيَةً﴾ من الله بما أُوتيتِ، ﴿مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ عند الله بما عملتِ.

《٢٩ - ٣٠》 ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾﴾: في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سِلْكِهم، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ معهم، وقال أبو عبيدة: أي: مع عبادي، أو: بين عبادي؛ أي: خواصِّي، كما قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقيل: النفس: الروحُ، ومعناه: فادخلي في أجسام عبادي، كقراءة عبد الله بن مسعود: ﴿في جسد عبدي﴾[١]، ولما مات ابنُ عباس بالطائف.. جاء طائرٌ لم يُرَ على خِلقته، فدخل في نعشه، فلما دُفن.. تليت هذه الآيةُ على شفير القبر، ولم يُدْرَ مَن تلاها[٢]، قيل: نزلت في حمزةَ بنِ عبد المطلب، وقيل: في خُبيب ابن عديٍّ الذي صلبه أهل مكة، وقيل: هي عامة في المؤمنين؛ إذ العبرةُ لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.



(١) انظر «تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٠٠).
(٢) روى هذه القصة الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٩٦٢) عن سعيد بن جبير.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾

سورة البلد

مكيةٌ، وهي عشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾: أقسم سبحانه بالبلد الحرام وبما بعده على أن الإنسان خُلق مغموراً في مكابدة المشاقِّ والشدائدِ، واعتَرض بين القسم والمقسم عليه بقوله:

《٢》 ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ أي: ومن المكابدة: أن مثلك على عِظَمِ حرمتك يُستحلُّ بهذا البلد؛ يعني: مكة، كما يُستحلُّ الصيد في غير الحرم، عن شُرحبيل: يُحرمون أن يقتلوا بها صيداً ويستحلون إخراجك وقتلك، وفيه تثبيت لرسول الله ﷺ، وبعثٌ على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته، أو: سلَّى رسول الله بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد، واعتَرض بأنْ وَعَدَهُ فتحَ مكة تتميماً للتسلية والتنفيس عنه فقال: (وأنت حِلٌّ بهذا البلد) أي: وأنت حِلٌّ به في المستقبل، تصنع فيه ما تريده من القتل والأسر، وذلك أن الله تعالى فتح عليه مكةَ وأحلَّها له، وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له، فأحلَّ ما شاء وحرمَ ما شاء، قَتَلَ ابنَ خَطَلٍ وهو متعلق بأستار الكعبة[1]، ومِقْيَسَ بنَ صُبابةَ[2]، وغيرَهما، وحرَّمَ دار أبي سفيان[3]، ونظيرُ قوله: (وأنت حِلٌّ) في الاستقبال قولُه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وكفاك دليلاً على أنه للاستقبال: أن السورة مكية بالاتفاق، وأين الهجرة من وقت نزولها؟ فما بال الفتح؟

《٣》 ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ هما: آدمُ وولدُه، أو: كلُّ والد وولده، أو: إبراهيمُ وولدُه، و(ما) بمعنى مَن، أو: بمعنى الذي.

《٤》 ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: جوابُ القسم ﴿فِى كَبَدٍ ۝٤﴾: مشقةٍ يُكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وعن ذي النون: لم يزل مربوطاً بحبل القضاء، مدعوّاً إلى الائتمار والانتهاء.

---

(١) رواه البخاري (١٨٤٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه النسائي في «المجتبى» (٧/ ١٠٥) عن سيدنا سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) أي: بقوله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان.. فهو آمِن» رواه مسلم (١٧٨٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ....

《٥ - ٦》 والضميرُ في ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾: لبعض صناديد قريش، الذين كان رسول الله يكابد منهم، ثم قيل: هو: أبو الأَشَدِّ، وقيل: الوليدُ بنُ المغيرة؛ والمعنى: أيظنُّ هذا الصنديد القوي في قومه، المتضعِّفُ للمؤمنين أنْ لن تقوم قيامةٌ، ولن يُقدَرَ على الانتقام منه؟ ثم ذَكَرَ ما يقوله في ذلك اليوم، وأنه ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ أي: كثيراً، جمعُ لِبْدَةٍ، وهو: ما تَلَبَّدَ؛ أي: كثر واجتمع؛ يريد: كثرةَ ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارمَ ومعاليَ.

《٧》 ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ حين كان ينفق ما ينفق رياءً وافتخاراً؛ يعني: أن الله تعالى كان يراه، وكان عليه رقيباً، ثم ذكر نعمه عليه فقال:

《٨》 ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ يُبصرُ بهما المرئياتِ.

《٩》 ﴿وَلِسَانًا﴾ يُعبر به عمّا في ضميره، ﴿وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ يستر بهما ثغرَه، ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ.

《١٠》 ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: طريقَي الخير والشر المفضِيَيْنِ إلى الجنة والنار، وقيل: الثديين.

《١١ - ١٧》 ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: فلم يشكرْ تلك الآياديَ والنعمَ بالأعمال الصالحة؛ مِن فَكِّ الرقاب، أو إطعام اليتامى والمساكين، ثم بالإيمان الذي هو أصلُ كلِّ طاعة، وأساسُ كل خير، بل غَمَطَ النعم، وكفر بالمنعم؛ والمعنى: أن الإنفاق على هذا الوجه مرضيٌّ نافعٌ عند الله، لا أن يُهلِكَ مالَه لُبَداً في الرياء والفَخَار، وقلّما تستعمل (لا) مع الماضي إلا مكررةً، وإنما لم تكرر في الكلام الأفصح؛ لأنه لما فَسَّرَ اقتحامَ العقبة بثلاثة أشياء.. صار كأنه أعاد (لا) ثلاثَ مرات، وتقديرُه: فلا فكَّ رقبةً، ولا أطعمَ مسكيناً، ولا آمن، والاقتحامُ: الدخولُ والمجاوزةُ بشدة ومشقة، والقُحْمَةُ: الشِّدةُ، فجعل الصالحةَ عَقَبَةً، وعملَها اقتحاماً لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقة، ومجاهدة النفس، وعن الحسن: عَقَبَةٌ واللهِ شديدةٌ مجاهدةُ الإنسان نفسَه وهواه وعدوَّه الشيطانَ؛ والمرادُ بقوله: (ما

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾

العقبة): ما اقتحامُها؟ ومعناه: أنك لم تَدْرِ كُنْهَ صعوبتِها على النفس، وكُنْهَ ثوابها عند الله، وفكُّ الرقبة: تخليصُها من الرقِّ، والإعانةُ في مال الكتابة، ﴿فَكَّ رقبةً أو أَطْعَمَ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو وعلي؛ على الإبدال مِن (اقتحم العقبة)، وقولُه: (وما أدراك ما العقبة): اعتراض، غيرُهم: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾[1]؛ على: اقتحامُها فكُّ رقبةٍ أو إطعام، والمسغبةُ: المجاعةُ، والمَقْرَبَةُ: القرابةُ، والمَتْرَبَةُ: الفقرُ، (مَفْعَلات) مِن: سَغِبَ: إذا جاع، وقَرُبَ في النسب؛ يقال: فلانٌ ذو قرابتي، وذو مَقْرُبَتي، وتَرِبَ: إذا افتقر، ومعناه: الْتَصَقَ بالتراب، فيكون مأواه المزابل، ووصْفُ اليوم بذي مسغبةٍ كقولهم: هَمٌّ ناصب؛ ذو نَصَبٍ، ومعنى (ثم كان من الذين آمنوا) أي: داوم على الإيمان، وقيل: (ثم) بمعنى الواو، وقيل: إنما جاء بـ(ثُمَّ) لِتراخي الإيمان وتباعدِه في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة[2]، لا في الوقت؛ إذ الإيمانُ هو السابقُ على غيره، ولا يثبت عملٌ صالح إلا به، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات والمحنِ التي يُبتلى بها المؤمن، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾: بالتراحم فيما بينهم.

《١٨》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفات من أصحاب الميمنة.

《١٩》 ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: بالقرآن، أو: بدلائِلِنا ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩﴾: أصحابُ الشِّمال، والميمنةُ والمشأمةُ: اليمين والشمال، أو: اليُمْنُ والشُّؤْمُ؛ أي: الميامين على أنفسهم، والمشائيم عليهنَّ.

《٢٠》 ﴿عليهم نارٌ موصدة﴾ وبالهمزة: أبو عمرٍو وحمزةُ وحفصٌ[3]؛ أي: مُطْبَقَةٌ؛ مِن: أوصدتُ الباب وآصدتُه: إذا أطبقتَه وأغلقتَه.



---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٣).

(٢) أي: لكون الإيمانِ أعلى رتبةً من العتق والصدقة.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٣).

سورة الشمس

مكية، وهي خمسَ عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾: وضوئِها إذا أشرقت وقام سلطانُها.

《٢》 ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾: تَبِعَها في الضياء والنور، وذلك في النصف الأول من الشهر، يَخلُفُ القمرُ الشمسَ في النور.

《٣》 ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾: جلَّى الشمسَ وأظهرها للرائين، وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه؛ لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمامَ الانجلاء، وقيل: الضميرُ للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر، كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

《٤》 ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾: يستر الشمس وتظلمُ الآفاقُ، والواوُ الأولى في نحو هذا للقسم بالاتفاق، وكذا الثانيةُ عند البعض، وعند الخليل: الثانيةُ للعطف؛ لأن إدخال القسم على القسم قبل تمام الأول لا يجوز؛ ألا ترى أنك لو جعلتَ موضعها كلمةَ الفاء، أو ثُمَّ.. لكان المعنى على حاله؟ وهما حرفا عطف، فكذا الواوُ.

ومَن قال: إنها للقسم.. احتج بأنها لو كانت للعطف.. لكان عطفاً على عاملين[1]؛ لأن قوله: (والليل) مثلاً: مجرورٌ بواو القسم، و(إذا يغشى): منصوبٌ بالفعل المقدر الذي هو: أُقسم، فلو جُعلت الواوُ في (والنهار إذا تجلى) للعطف.. لكان (النهار) معطوفاً على (الليل) جراً، و(إذا تجلى) معطوفاً على (إذا يغشى) نصباً، فكان كقولك: إن في الدار زيداً والحجرةِ عمراً.

وأُجيب: بأن واو القسم تَنزلت منزلة الباء والفعل، حتى لم يَجُزْ إبرازُ الفعل معها، فصارت كأنها العاملة نصباً وجرّاً، وصارت كعامل واحد له عملان، وكلُّ عامل له عملان يجوز أن يُعطف على معموليه بعاطف واحد بالاتفاق، نحو: ضرب زيد عمراً، وبكر خالداً، فتَرفع بالواو وتَنصبُ؛ لقيامها مقامَ: ضرب الذي هو عاملُها، فكذا هنا.

---

(١) أي: على معمولَي عاملين.

وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ....

《٥ - ٧》 و(ما): مصدريةٌ في ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾ أي: وبنائِها وطَحْوِها؛ أي: بَسطِها وتسويةِ خلقِها في أحسن صورة عند البعض، وليس بالوجهِ؛ لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ لما فيه من فساد النظم، والوجهُ: أن تكون موصولةً، وإنما أُوثرت على (مَن) لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماءِ والقادرِ العظيمِ الذي بناها، ونفسٍ والحكيمِ الباهرِ الحكمةِ الذي سوّاها، وإنما نُكِّرَتِ النفس؛ لأنه أراد نفساً خاصّةً من بين النفوس، وهي نفسُ آدم، كأنه قال: وواحدةٍ من النفوس، أو: أراد: كلَّ نفسٍ، والتنكيرُ للتكثير، كما في ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤].

《٨》 ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾: فأعلمها طاعتَها ومعصيتَها؛ أي: أفهمَها أن أحدهما حسنٌ، والآخرَ قبيحٌ.

《٩》 ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾: جوابُ القسم، والتقدير: لقد أفلح، قال الزجاج: صار طولُ الكلام عوضاً عن اللام[1]، وقيل: الجوابُ محذوفٌ، وهو الأظهر، تقديرُه: ليُدَمْدِمَنَّ اللهُ عليهم؛ أي: على أهل مكةَ لتكذيبهم رسولَ الله ﷺ، كما دمدم على ثمودَ؛ لأنهم كذبوا صالحاً، وأما (قد أفلح) فكلامٌ تابعٌ لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ على سبيل الاستطراد، وليس مِن جواب القسم في شيء، ﴿مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾: طهَّرها الله وأصلحها وجعلها زاكيةً.

《١٠》 ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾: أغواها الله، قال عكرمة: أفلحت نفس زكاها الله، وخابت نفس أغواها الله، ويجوز أن تكون التدسيةُ والتطهيرُ فعلَ العبدِ، والتدسيةُ: النقصُ والإخفاءُ بالفجور[2]، وأصلُ دسَّى: دسَّسَ، والياء: بدلٌ من السين المكررة.

《١١》 ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾: بطغيانها؛ إذ الحاملُ لهم على التكذيب طغيانُهم.

《١٢》 ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾: حين قام بعَقْرِ الناقةِ ﴿أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾: أشقى ثمودَ قُدارُ بنُ سالفٍ، وكان أشقرَ أزرقَ قصيراً، و(إذا): منصوبٌ بـ(كذبت)، أو: بالطغوى.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣٣١)، وإنما قال ذلك لأنّ الماضيَ الواقعَ جواباً للقسم يقترنُ بـ: قدْ واللام في الأغلب. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٨/ ٣٦٥).

(٢) فصانعُ المعروفِ والمبادرُ إلى أعمال البر شَهَرَ نفسَه ورفعَها، وكانت أجوادُ العرب تَنزل الرُّبى وارتفاعَ الأرض؛ ليشتهر مكانُها للقاصدين، ويوقدون النارَ في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأماكن غير الظاهرة؛ ليَخفى مكانُها عن الطالبين، فأولئك عَلَّوا أنفسَهم وزَكَّوْها، وهؤلاء أَخْفَوا أنفسَهم ودَسُّوها، وكذا الفاجرُ أبداً خفيُّ المكان، غامضُ الشخصِ، ناكسُ الرأسِ بركوب المعاصي. انظر «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٧).

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

《١٣》 ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: صالحٌ عليه السلام: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾: نصبٌ على التحذير؛ أي: احذروا عقرَها، ﴿وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ كقولك: الأسدَ الأسدَ.

《١٤》 ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلُوا، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: الناقةَ، أسندَ الفعلَ إليهم وإن كان العاقرُ واحداً؛ لقوله: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]؛ لرضاهم به، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾: أهلكَهم هلاكَ استئصال ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾: بسبب ذنبِهم، وهو تكذيبُهم الرسولَ وعقرُهم الناقةَ ﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾: فسوَّى الدمدمة عليهم، لم يُفْلَتْ منها صغيرُهم ولا كبيرُهم.

《١٥》 ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾: ولا يخاف اللهُ عاقبةَ هذه الفِعلةِ؛ أي: فَعَلَ ذلك غيرَ خائف أن تلحقه تبعةٌ من أحد، كما يخاف من يُعاقِبُ من الملوك؛ لأنه فَعَلَ في مُلكه، ومِلكه[1]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿فلا يخاف﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ[2].



(١) الملك بضم الميم: أبلغُ منه بكسرها؛ فإنه بالضم يستدعي العزَّ والقوة، وبالكسر يستدعي القدرة على نوع من التصرف في عين أو منفعة. انظر «فتاوى السبكي» (١/ ١٠٨).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٤).

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ⑪ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ⑫ ....

سورة الليل

إحدى وعشرون آيةً، مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ①﴾: المَغْشِيُّ: إما الشمسُ؛ مِن قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، أو النهار؛ مِن قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أو: كلُّ شيء يُواريه بظلامه؛ من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

《٢》 ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ②﴾: ظهر بزوال ظلمة الليل.

《٣》 ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ③﴾: والقادرِ العظيمِ القدرةِ الذي قَدَرَ على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد، وجوابُ القسم:

《٤》 ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾: إن عملكم لمختلِف، وبيانُ الاختلاف فيما فُصِّلَ على أَثَرِه:

《٥ - ٧》 ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ حقوق ماله ﴿وَٱتَّقَىٰ ⑤﴾ ربَّه فاجتنب محارمَه، ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ⑥﴾: بالملةِ الحُسنى، وهي ملة الإسلام، أو: بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، أو: بالكلمة الحُسنى، وهي: لا إله إلا الله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ⑦﴾ فسنُهيئه للخَلةِ اليُسرى، وهي العمل بما يرضاه ربُّه.

《٨ - ١٠》 ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بماله، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ ⑧﴾ عن ربه فلم يتقِهِ، أو: استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العُقبى، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ⑨﴾: بالإسلام، أو: الجنة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ⑩﴾ للخَلَّةِ المؤدية إلى النار، فتكون الطاعة أعسرَ شيءٍ عليه وأشدَّه، أو: سمَّى طريقةَ الخير باليسرى؛ لأن عاقبتها اليسرى، وطريقةَ الشر بالعُسرى؛ لأن عاقبتها العُسر، أو: أراد بهما: طريقَي الجنة والنار.

《١١》 ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ⑪﴾: ولم ينفعه مالُه إذا هلك، و(تَرَدَّى): تَفَعَّلَ؛ مِن الردى وهو الهلاك، أو: تردَّى في القبر، أو: في قعر جهنم؛ أي: سقط.

《١٢》 ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ⑫﴾: إن علينا الإرشادَ إلى الحقِّ بنصب الدلائل، وبيان الشرائع.

وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾

«١٣» ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فلا يضُّرنا ضلالُ من ضلَّ، ولا ينفعنا اهتداءُ من اهتدى، أو: أنهما لنا، فمن طلبهما من غيرنا.. فقد أخطأ الطريق.

«١٤» ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾: خوَّفْتُكم ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾: تتلهَّب.

«١٥ - ١٦» ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾: لا يدخلُها للخلود فيها، ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾: إلا الكافرُ الذي كذب الرسولَ وأعرض عن الإيمان.

«١٧» ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: وسُيبعَدُ منها ﴿ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾: المؤمنُ.

«١٨» ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ للفقراء ﴿يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾: من الزكاة؛ أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، لا يريد به رياء ولا سمعة، أو: (يتفعَّلُ) من الزكاة، و(يتزكى): إن جعلتَه بدلاً مِن (يؤتي) فلا محلَّ له؛ لأنه داخل في حكم الصلة، والصِّلاتُ لا محلَّ لها، وإن جعلتَه حالاً من الضمير في (يؤتي) فمحلُّه النصبُ، قال أبو عبيدة: (الأشقى): بمعنى الشقي، وهو الكافر، و(الأتقى): بمعنى التقي، وهو المؤمن؛ لأنه لا يختصُّ بالصِّلِيِّ أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء، وإن زعمتَ أنه نَكَّرَ النارَ فأراد ناراً مخصوصةً بالأشقى.. فما تصنعُ بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ لأن التقِيَّ يُجنب تلك النارَ المخصوصةَ لا الأتقى منهم خاصة، وقيل: الآيةُ واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأُريد أن يُبالَغَ في صفتيهما فقيل: (الأشقى) وجُعل مختصّاً بالصِّلِيِّ، كأن النار لم تُخلق إلا له، وقيل: (الأتقى) وجُعل مختصّاً بالنجاة، كأن الجنة لم تُخلق إلا له، وقيل: هما أبو جهل، وأبو بكر[1]، وفيه بطلانُ زعم المرجئة؛ لأنهم يقولون: لا يدخل النار إلا كافر.

«١٩ - ٢٠» ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ أي: وما لأحد عند الله نعمةٌ يُجازيه بها إلا أن يَفعل فعلاً يبتغي به وجهَ ربِّه فيجازَى عليه، ﴿ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ هو: الرفيعُ بسلطانه، المنيعُ في شأنه وبرهانه، ولم يُرِدْ به العلوَّ من حيث المكان، فذا آيةُ الحِدْثان.

---

(١) روى الآجري في «الشريعة» (٤/١٨٢٨) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه: أن قوله تعالى: (وسيجنبها الأتقى) نزل في سيدنا أبي بكر رضي الله عنه.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

《٢١》 ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ : مَوْعِدٌ بالثواب الذي يُرضيه ويُقر عينه، وهو كقوله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ ....

سورة الضحى

إحدى عشرَة آيةً، مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ المرادُ به: وقتُ الضحى، وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس، وإنما خَصَّ وقتَ الضحى بالقسم؛ لأنها الساعة التي كلَّم فيها موسى عليه السلام، وأُلقِيَ فيها السحرةُ سجّداً، أو: النهارُ كلُّه؛ لمقابلته بالليل في قوله:

《٢》 ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾: سكن؛ والمرادُ: سكون الناس والأصوات فيه، وجوابُ القسم:

《٣》 ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾: ما تركك منذ اختارك، وما أبغضك منذ أحبك، والتوديعُ: مبالغةٌ في الوَدْعِ؛ لأن مَن ودَّعك مفارقاً.. فقد بالغ في تركك، روي: أن الوحي قد تأخر عن رسول الله ﷺ أياماً، فقال المشركون: إن محمداً وَدَّعه ربُّه وقلاه، فنزلت[1]، وحَذفُ الضميرِ مِن (قَلَى) كحذفه من (الذاكرات) في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] يريدُ: والذاكراتِه، ونحوُه: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿فَهَدَىٰ﴾ ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾، وهو اختصارٌ لفظيٌّ لظهور المحذوف.

《٤》 ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ أي: ما أعدَّ الله لك في الآخرة من المقام المحمود، والحوضِ الموردِ، والخيرِ الموعودِ خيرٌ مما أعجبك في الدنيا، وقيل: وجهُ اتصاله بما قبله: أنه لما كان في ضمن نفي التوديعِ والقِلَى أن الله مُواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله، ولا ترى كرامةً أعظمَ من ذلك.. أخبره أن حاله في الآخرة أعظمُ من ذلك؛ لتقدمه على الأنبياء، وشهادة أمته على الأمم، وغيرِ ذلك.

《٥》 ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ﴾ في الآخرة من الثوابِ ومقامِ الشفاعةِ وغيرِ ذلك ﴿فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ ولما نزلت.. قال ﷺ: «إذاً لا أرضى قطُّ وواحدٌ من أمتي في النار»[2]، واللامُ الداخلةُ على

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٨٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) روى البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية قال: رِضاه أن تدخل أمتُه كلُّهم الجنة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾

(سوف): لامُ الابتداء المؤكدةُ لمضمون الجملة، والمبتدأُ محذوفٌ تقديرُه: ولأنت سوف يعطيك، ونحوُه: ﴿لَأُقْسِمُ﴾ فيمن قرأ كذلك[1]، لأن المعنى: لأنا أقسم، وهذا لأنها إن كانت لامَ قسم.. فلامُه لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، فتَعَيَّنَ أن تكون لامَ الابتداءِ، ولامُه لا تدخل إلا على المبتدأ والخبر، فلا بدَّ من تقدير مبتدإٍ وخبرٍ كما ذكرنا؛ كذا ذكره صاحب «الكشاف»[2]، وذكر صاحب «الكشف»: هي لام القسم، واستُغْنِيَ عن نون التوكيد لأن النون إنما تدخل لِيؤذن أن اللام لامُ القسم، لا لامُ الابتداء، وقد عُلِمَ أنه ليس للابتداء[3]؛ لدخولها على (سوف) لأن لام الابتداء لا تدخل على (سوف)، وذَكر: أن الجمع بين حرفَي التأكيد والتأخير يُؤذن بأن العطاء كائن لا محالةَ وإن تأخر، ثم عَدَّدَ عليه نعمَه من أول حاله ليقيس المترقِّبَ من فضل الله على ما سلف منه؛ لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادةَ الخير، ولا يَضيقَ صدرُه، ولا يَقِلَّ صبرُه فقال:

«٦» ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ وهو من الوجود الذي بمعنى العلم، والمنصوبان: مفعولاه؛ والمعنى: ألم تكن يتيماً حين مات أبواك، ﴿فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ أي: فآواك إلى عمِّكَ أبي طالب، وضمَّك إليه حتى كَفَلَكَ وربّاك.

«٧» ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي: غيرَ واقفٍ على معالمِ النبوة، وأحكامِ الشريعة، وما طريقُهُ السمعُ، ﴿فَهَدَىٰ ۝٧﴾: فعرَّفَك الشرائع والقرآن، وقيل: ضلَّ في طريق الشام حين خرج به أبو طالب فردَّه إلى القافلة، ولا يجوز أن يُفهمَ به عدولٌ عن حقٍّ، ووقوعٌ في غَيٍّ، فقد كان عليه السلام من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً عن عبادة الأوثانِ، وقاذوراتِ أهل الفسق والعصيان.

«٨» ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾: فقيراً ﴿فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾: فأغناك بمال خديجةَ، أو: بما أفاء عليك من الغنائم.

---

(١) هو وجهٌ للبزي عن ابن كثير في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١]. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٣١).

(٢) انظر «الكشاف» (٤/ ٧٧٢).

(٣) عودُ الضمير المذكر على اللام في قوله: (ليس...) صحيحٌ؛ ففي «المصباح المنير» (١/ ١٣٠): قال ابن الأنباري: التأنيثُ في حروف المعجم عندي على معنى الكلمة، والتذكيرُ على معنى الحرف، وقال في البارع: الحروفُ مؤنثةٌ إلا أن تجعلها أسماءً، فعلى هذا يجوز أن يقال: هذا جيمٌ، وهذه جيمٌ، وما أشبهه.

وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾

《٩》 ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾﴾: فلا تغلبه على مالِه وحقِّه؛ لضعفه.

《١٠》 ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾﴾: فلا تزجرْه، فابذُل قليلاً، أو رُدَّ جميلاً، وعن السُّدي: المرادُ: طالبُ العلم، إذا جاءك.. فلا تنهرْه.

《١١》 ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾ أي: حَدِّثْ بالنبوة التي آتاك الله، وهي أجلُّ النعم، والصحيحُ: أنها تعمُّ جميع نعم الله عليه، ويدخلُ تحته تعليم القرآن والشرائع.



﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ ....

سورة ألم نشرح

مكيةٌ، وهي ثمانِ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١» ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾: استفهمَ عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثباتَ الشرح، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك، ولذا عَطَفَ عليه (وضعنا) اعتباراً للمعنى؛ أي: فَسَحْناه بما أودعناه من العلوم والحكم حتى وَسِعَ همومَ النبوة ودعوةَ الثقلين، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العَمَى والجهل، وعن الحسن: مُلِئ حكمةً وعلماً.

«٢» ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾: وخفَّفْنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها، وقيل: هو زَلَّةٌ لا تعرفُها بعينها، وهي ترك الأفضل مع إتيان الفاضل، والأنبياءُ يُعاتَبون بمثلها، ووضعُه عنه: أنْ غُفِرَ له، والوِزرُ: الحِملُ الثقيلُ.

«٣» ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾: أثقله حتى سُمِعَ نقيضُه، وهو صوت الانتقاض.

«٤» ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾: ورَفْعُ ذكره: أنْ قُرِنَ بذكر الله في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والخُطَبِ والتشهد، وفي غير موضع من القرآن: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وفي تسميته رسولَ اللهِ ونبيَّ اللهِ، ومنه ذكرُه في كتب الأولين، وفائدةُ ﴿لك﴾: ما عُرِفَ في طريقة الإبهام والإيضاح؛ لأنه يُفهم بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ أنَّ ثَمَّ مشروحاً، ثم أوضح بقوله: ﴿صَدْرَكَ﴾ ما عُلِمَ مبهماً، وكذلك: ﴿لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ و﴿عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾.

«٥ - ٦» ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ أي: إن مع الشدة التي أنت فيها من مُقاسات بلاء المشركين يُسراً بإظهاري إياك عليهم حتى تغلبهم، وقيل: كان المشركون يُعيِّرون رسول الله والمؤمنين بالفقر، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله، فذكَّره ما أنعم به عليه من جلائلِ النعمِ، ثم قال: (فإنَّ مع العسر يسراً) كأنه قال: خوَّلناك ما خوَّلناك، فلا تيأس من فضل الله، فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسراً، وجيءَ بلفظ (مع) لغاية مقاربة اليسرِ العسرَ؛ زيادةً في التسلية، ولتقوية القلوب، وإنما قال عليه السلام عند نزولها: «لن يغلب عسرٌ

﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾

يُسرين»[1] لأن العسرَ أُعيد مُعرَّفاً، فكان واحداً؛ لأن المعرفة إذا أعيدت معرفةً.. كانت الثانية عينَ الأولى، واليسرُ أُعيد نكرةً، والنكرةُ إذا أُعيدت نكرةً.. كانت الثانية غيرَ الأولى، فصار المعنى: إن مع العسر يسرين، قال أبو معاذ: يُقال: إن مع الأمير غلاماً، إن مع الأمير غلاماً، فالأميرُ واحدٌ ومعه غلامان، وإذا قال: إن مع أميرِ الغلام، إن مع الأميرِ الغلامَ.. فالأميرُ واحدٌ والغلامُ واحدٌ، وإذا قيل: إن مع أمير غلاماً، إن مع أمير غلاماً.. فهما أميران وغلامان، كذا في «شرح التأويلات»[2].

《٧》 ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧﴾ أي: فإذا فرغت من دعوة الخلق.. فاجتهد في عبادة الربِّ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: فإذا فرغت من صلاتك.. فاجتهد في الدعاء، واختلف أنه قبل السلام أو بعده، ووجهُ الاتصال بما قبله: أنه لما عدد عليه نعمَه السالفةَ، ومواعيدَه الآتيةَ.. بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة، والنَّصَبِ فيها، وأن يُواصل بين بعضِها وبعضٍ، ولا يُخلِي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة.. ذَنَّبَها بأخرى.

《٨》 ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾: واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسألْ إلا فضله متوكلاً عليه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].



(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٤٣٨) عن الحسن مرسلاً.
(٢) «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٨٣).
ويحتمل أن تكون الجملةُ الثانية تأكيداً للأولى، فيكون اليسرُ فيها عينَ اليسر في الأولى، كما أن العسر كذلك، فلا تتعدد النكرة بإعادتها نكرةً، ويكون حديث: «لن يغلب عسر يسرين» مبنياً على كون التنوين في (يُسْراً) للتفخيم، فحُمل لقوة الرجاء على يُسر الدارين، وذلك يُسران في الحقيقة. انظر «تفسير الآلوسي» (١٥/ ٣٩٠).

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ . . .

سورة التين

مكيةٌ، وهي ثمانِ آياتٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ①﴾ أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة، روي: أنه أهدي لرسول الله ﷺ طبقٌ من تين فأكل منه وقال لأصحابه: «كلوا؛ فلو قلت: إن فاكهة أنزلت من الجنة.. لقلتُ: هذه؛ لأن فاكهة الجنة بلا عَجَمٍ، فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع من النِّقْرِسِ»[1]، وقال: «نِعم السواكُ الزيتونُ من الشجرة المباركة، يُطيب الفمَ، ويَذهب بالحَفْرَةِ- وقال-: هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي»[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو تينُكم هذا وزيتونُكم هذا، وقيل: هما جبلان بالشام مَنبتاهما.

《٢》 ﴿وَطُورِ سِينِينَ ②﴾ أُضيف الطور وهو الجبل إلى (سينين) وهي البقعة، ونحوُ سِينون: يَبْرُون في جواز الإعراب بالواو والياء، والإقرارِ على الياءِ وتحريكِ النونِ بحركات الإعراب.

《٣》 ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني: مكةَ ﴿الْأَمِينِ ③﴾ مِن: أَمِنَ الرجلُ أمانةً فهو أمين، وأمانتُه: أنه يَحفظ من دخله، كما يَحفظ الأمينُ ما يُؤتمن عليه، ومعنى القسم بهذه الأشياء: الإبانةُ عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والأولياء، فمَنْبِتُ التين والزيتون: مُهاجَرُ إبراهيم، ومَولدُ عيسى ومنشؤه، والطورُ: المكانُ الذي نودي منه موسى، ومكةُ: مكانُ البيت الذي هو هدىً للعالمين، ومولدُ نبينا ومبعثُه صلوات الله عليهم أجمعين، أو: الأوّلانِ: قَسَمٌ بمهبِطِ الوحي على عيسى، والثالثُ: على موسى، والرابعُ: على محمد عليهم السلام، وجوابُ القسم:

《٤》 ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ وهو جنسٌ ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④﴾: في أحسنِ تعديلٍ لشكلِه وصورته، وتسويةِ أعضائِه.

---

(١) رواه أبو نعيم في «الطب النبوي» (٢/ ٤٨٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٧٨) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

《٥》 ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ أي: ثم كان عاقبةُ أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية أنْ رددناه أسفلَ مَن سَفُلَ خَلْقاً وتركيباً؛ يعني: أقبح مَن قَبُحَ صورةً، وهم أصحاب النار، أو: أسفلَ مَن سَفُلَ مِن أهل الدركات، أو: ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفلَ مَنْ سَفُلَ في حسن الصورة والشكل؛ حيث نَكَّسْناه في خلقه، فقَوَّسَ ظهرُه بعد اعتداله، وابْيَضَّ شعرُه بعد سواده، وتشنَّنَ جلدُه، وكَلَّ سمعُه وبصرُه، وتغيَّرَ كلُّ شيء منه، فمشيُه دَلِيفٌ[1]، وصوتُه خُفاتٌ، وقوتُه ضعفٌ، وشهامتُه خوفٌ.

《٦》 ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ ودخل الفاءُ هنا دون (سورة الانشقاق) للجمع بين اللغتين، والاستثناءُ على الأول متصلٌ، وعلى الثاني منقطعٌ؛ أي: ولكن الذين كانوا صالحين من الهَرمى فلهم ثوابٌ غيرُ منقطع على طاعتهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاقِّ، والقيام بالعبادة.

《٧》 والخطابُ في ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾: للإنسان على طريقة الالتفات؛ أي: فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع، والبرهان الساطع بالجزاء؟ والمعنى: أنَّ خلق الإنسان من نطفة، وتقويمَه بشراً سويّاً، وتَدريجَه في مراتب الزيادة إلى أن يكمُلَ ويَستويَ، ثم تنكيسَه إلى أن يبلغ أرذلَ العمر لا ترى دليلاً أوضحَ منه على قدرة الخالق، وأنَّ مَن قَدَرَ من الإنسان على هذا كلِّه.. لم يَعْجِزْ عن إعادتِه، فما سببُ تكذيبك بالجزاء؟ أو: لرسول الله ﷺ؛ أي: فمن يَنسِبك إلى الكذب بعد هذا الدليل؟ فـ(ما) بمعنى: مَنْ.

《٨》 ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾: وعيدٌ للكفار، وأنه يحكم عليهم بما هم أهلُه، وهو من الحكم والقضاء.



---

(١) أي: بطيء.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ ....

سورة العلق

مكيةٌ، وهي تسعَ عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

عن ابن عباس ومجاهد: هي أولُ سورة نزلت، والجمهورُ على أن (الفاتحةَ) أولُ ما نزل[1]، ثم (سورة القلم)[2].

《١》 ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ محلُّ (باسم ربك): النصبُ على الحال؛ أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربك، قل: بسم الله، ثم اقرأ: (الذي خلق)، ولم يَذكر لـ(خلق) مفعولاً؛ لأن المعنى: الذي حصل منه الخلقُ، واستأثر به، لا خالقَ سواه، أو: تقديرُه: خلق كل شيء، فيتناول كل مخلوق؛ لأنه مطلق، فليس بعض المخلوقات بتقديره أولى من بعض.

《٢》 وقولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: تخصيصٌ للإنسان بالذكر مِن بين ما يتناوله الخلق لشرفه؛ ولأن التنزيل إليه، ويجوز أن يُراد: الذي خلق الإنسان، إلا أنه ذُكر مبهماً ثم مفسراً؛ تفخيماً لخلقه، ودلالة على عجيب فطرته، ﴿مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ وإنما جَمع ولم يَقل: من علقة؛ لأن الإنسان في معنى الجمع.

《٣》 ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾: الذي له الكمالُ في زيادة كرمه على كل كريم، يُنْعِمُ على عباده النعمَ، ويَحلُمُ عنهم، فلا يعاجلُهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرمٌ حيث قال:

《٤》 ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ﴾ الكتابةَ ﴿بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾.

《٥》 ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ فدلَّ على كمال كرمه بأنه علم عبادَه ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّهَ على فضل علم الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة، وما

---

(١) أي: أولُ سورة نزلت بتمامها هي الفاتحة، فهي أولية مقيدة، وأما صدر (سورة العلق) فهو أول ما نزل على الإطلاق. انظر «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١/٢٠٧)، و«علوم القرآن الكريم» د. نور الدين عتر (ص ٣٥، ٣٧).

(٢) من أسماء هذه السورة (سورة القلم).

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ....

دُوِّنَتِ العلومُ، ولا قُيدت الحكمُ، ولا ضُبطت أخبارُ الأولين، ولا كتبُ الله المنزلةُ إلا بالكتابة، ولولا هي.. لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليلٌ إلا أمرُ القلم والخط.. لكفى به.

《٦》 ﴿كَلَّآ﴾: ردعٌ لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يُذْكَرْ؛ لدلالة الكلام عليه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾: نزلت في أبي جهل إلى آخر السورة.

《٧》 ﴿أَن رَّءَاهُ ﴿٧﴾﴾: أن رأى نفسه؛ يُقال في أفعال القلوب: رأيْتني وعلمتُني؛ ومعنى الرؤيةِ: العلمُ، ولو كانت بمعنى الإبصار.. لامتنع في فعلها الجمعُ بين الضميرين، ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾: هو المفعولُ الثاني.

《٨》 ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾: تهديدٌ للإنسان من عاقبة الطغيان على طريق الالتفات، و(الرجعى): مصدرٌ بمعنى: الرجوع؛ أي: إن رجوعك إلى ربك، فيجازيك على طغيانك.

《٩ - ١٠》 ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ أي: أرأيت أبا جهل ينهى محمداً عن الصلاة.

《١١》 ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ أي: إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما يَنهى عنه من عبادة الله.

《١٢》 ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾: أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمرُ به من عبادة الأوثان كما يَعتقد.

《١٣- ١٤》 ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾: أرأيت إن كان الناهي مُكذِّباً بالحق، متولياً عنه كما نقول نحن ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ ويطلع على أحواله؛ مِن هُداه وضلاله فيجازيه على حسب حاله، وهذا وعيد، وقولُه: ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ مع الجملة الشرطية: مفعولا ﴿أَرَءَيْتَ﴾، وجوابُ الشرط محذوف، تقديرُه: إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى، وإنما حُذف؛ لدلالة ذكرِه في جواب الشرط الثاني، وهذا كقولك: إن أكرمتُك.. أتكرمني؟ و﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثانيةُ مكررةٌ زائدةٌ للتوكيد.

《١٥》 ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله، وأمرِه بعبادة الأصنام، ثم قال:

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عمّا هو فيه ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾: لنأخذنَّ بناصيته، ولنسحبنَّه بها إلى النار، والسفعُ: القبضُ على الشيء وجذبُه بشدة، وكتْبُها في المصحف بالألف على حكم الوقف، واكتُفِي بلام العهد عن الإضافة بأنها ناصيةُ المذكور.

《١٦》 ﴿نَاصِيَةٍ﴾: بدلٌ من (الناصية) لأنها وُصفت بالكذب والخطأ بقوله: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾: على الإسناد المجازي، وهما لصاحبها حقيقةً، وفيه من الحُسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصيةُ كاذبٍ خاطئٍ.

《١٧ - ١٨》 ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ النادي: المجلسُ الذي يجتمع فيه القومُ؛ والمرادُ: أهل النادي، روي: أن أبا جهل مرَّ بالنبي عليه السلام وهو يصلي فقال: ألم أنهك؟ فأغلظ له رسول الله عليه السلام، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فنزل[1]، والزبانيةُ لغةً: الشُّرَط، الواحدُ: زِبْنِيَةٌ؛ مِن الزَّبْنِ، وهو الدفع؛ والمراد: ملائكةُ العذاب، وعنه عليه السلام: «ولو دعا ناديَه.. لأخذتْه الزبانيةُ عِياناً»[2].

《١٩》 ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ لأبي جهل، ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: اثبُتْ على ما أنت عليه من عصيانه، كقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]، ﴿وَٱسْجُدْ﴾: ودُمْ على سجودك؛ يريد: الصلاةَ، ﴿وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾: وتقربْ إلى ربك بالسجود؛ فإن أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد، كذا الحديث[3].



(١) رواه بنحوه الترمذيُّ (٣٣٤٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٢٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) رواه بنحوه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٢١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) روى مسلم (٤٨٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ؛ فأكثروا الدعاء».

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ . .

سورة القدر

مكيةٌ، وقيل: مدنيةٌ، وهي خمسُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ عظَّمَ القرآن حيث أسندَ إنزالَه إليه دون غيره، وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه، ورفع مقدار الوقت الذي أنزله فيه، روي: أنه أُنزل جملةً في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم كان يُنزله جبريلُ على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنةً[١]، ومعنى (ليلة القدر): ليلةُ تقدير الأمور وقضائِها، والقدرُ بمعنى: التقدير، أو: سميت بذلك لشرفها على سائر الليالي، وهي ليلةُ السابع والعشرين من رمضان، كذا روى أبو حنيفة رحمه الله عن عاصم عن زرٍّ أن أُبيَّ بنَ كعبٍ كان يحلف على ليلة القدر أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان[٢]، وعليه الجمهور، ولعل الداعيَ إلى إخفائها أن يُحييَ مَن يريدُها اللياليَ الكثيرةَ طلباً لموافقتها، وهذا كإخفاء الصلاة الوسطى، واسمِه الأعظم، وساعةِ الإجابةِ في الجمعة، ورضاه في الطاعات، وغضبِه في المعاصي، وفي الحديث: من أدركها . . يقول: «اللهم إنك عفوٌّ تحب العفوَ فاعفُ عني»[٣].

《٢》 ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ أي: ولم تبلغ درايتُك غاية فضلها، ثم بيَّنَ له ذلك بقوله:

《٣》 ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ ليس فيها ليلةُ القدر، وسبب ارتقاء فضيلتها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من تنزل الملائكةِ والروحِ، وفصلِ كل أمر حكيم، وذُكر في تخصيص هذه المدة: أن النبي عليه السلام ذكر رجلاً من بني إسرائيل لَبِسَ السلاح في سبيل الله ألفَ شهرٍ، فعجب المؤمنون من ذلك، وتقاصرت إليهم أعمالُهم، فأُعطُوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي[٤].

---

(١) روى النسائي في «السنن الكبرى» (٧٩٣٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فُصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ يرتله ترتيلاً».

(٢) رواه أبو يوسف في «الآثار» (ص ١٨١) من طريق أبي حنيفة رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي (٣٥١٣) وابن ماجه (٣٨٥٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٦٥) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٤٥٢) عن مجاهد مرسلاً.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

《٤》 ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ إلى السماء الدنيا، أو إلى الأرض، ﴿وَٱلرُّوحُ﴾: جبريلُ، أو: خلقٌ من الملائكة لا تراهم الملائكةُ إلا تلك الليلة، أو: الرّحمة، ﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ أي: تنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل، وعليه وُقِفَ.

《٥》 ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ﴾: ما هي إلا سلامة، خبرٌ ومبتدأ؛ أي: لا يُقدر الله فيها إلا السلامة والخير، ويقضِي في غيرها بلاءً وسلامةً، أو: ما هي إلا سلامٌ؛ لكثرة ما يُسَلِّمُون على المؤمنين، قيل: لا يَلقَون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سَلَّمُوا عليه في تلك الليلة، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ أي: إلى وقت طلوع الفجر، وبكسر اللام: عليٌّ وخلفٌ[١]، وقد حُرم من السلام الذين كفروا.



(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٦) وكذا القراءة الآتية.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ....

سورة البينة

مختلفٌ فيها، وهي ثمانِ آياتٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١» ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اليهودِ والنصارى، وأهلُ الرجل: أخصُّ الناس به، وأهلُ الإسلام: مَن يدين به، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾: عبدةِ الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾: منفصلين عن الكفر، وحُذف لأن صلة (الذين) تدلُّ عليه، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾: الحجةُ الواضحةُ؛ والمراد: محمدٌ ﷺ، يقول: لم يتركوا كفرهم حتى يُبعثَ محمدٌ ﷺ، فلما بُعث.. أسلم بعضٌ، وثبت على الكفر بعضٌ.

«٢» ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: محمدٌ عليه السلام، وهو بدلٌ من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، ﴿يَتْلُوا۟﴾: يقرأُ عليهم ﴿صُحُفًا﴾: قراطيسَ ﴿مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ من الباطل.

«٣» ﴿فِيهَا﴾: في الصحف ﴿كُتُبٌ﴾: مكتوباتٌ ﴿قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾: مستقيمةٌ ناطقةٌ بالحقِّ والعدل.

«٤» ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ فمنهم من أنكر نبوتَه بغياً وحسداً، ومنهم من آمن، وإنما أفردَ أهل الكتاب بعد ما جمع أوّلاً بينهم وبين المشركين؛ لأنهم كانوا على علم به؛ لوجوده في كتبهم، فإذا وُصفوا بالتفرق عنه.. كان مَن لا كتابَ له أدخلَ في هذا الوصف.

«٥» ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي: في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير شرك ونفاق، ﴿حُنَفَآءَ﴾: مؤمنين بجميع الرسل، مائلين عن الأديان الباطلة، ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ أي: دينُ الملة القيمة.

«٦ - ٧» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ ونافعٌ يهمزُهما، والقراء على التخفيف[١]، والنبيُّ والبريَّةُ مما استمرَّ الاستعمال على تخفيفِه ورفضِ الأصل[٢].

《٨》 ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: إقـامـةٍ، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول أعمالهم، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بثوابها، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرضا ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ وقولُه: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾: يدلُّ على فضل المؤمنين من البشر على الملائكة؛ لأن البرية: الخلقُ، واشتقاقُها مِن: برأ الله الخلق، وقيل: اشتقاقُها مِن البَرَى، وهو: الترابُ، ولو كان كذلك.. لما قرؤوا (البريئة) بالهمز، كذا قاله الزجاجُ[٣].



(١) قرأ نافع وابن ذكوان: ﴿البريئة﴾.

(٢) هذه العبارة: (والنبيُّ والبريَّةُ مما استمرَّ الاستعمال على تخفيفه ورفضِ الأصلِ) للزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٧٨٩)، وهو كلام مردود؛ لأن فيه طعناً بالقراءة المتواترة. انظر «فتوح الغيب» (١٦/ ٥٣٣).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣٥٠).

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ ....

سورة الزلزلة

مختلفٌ فيها، وهي ثماني آياتٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ أي: حُركت زلزالَها الشديدَ الذي ليس بعده زلزالٌ، وقُرئ: بفتح الزاي[1]، فالمكسور: مصدرٌ، والمفتوحُ: اسمٌ.

《٢》 ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾: كنوزَها ومَوتاها، جمعُ ثِقْلٍ، وهو: متاعُ البيت، جُعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها.

《٣》 ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ زلزلت هذه الزلزلةَ الشديدةَ، ولَفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تُزلزل وتَلفظ موتاها أحياءً، فيقولون ذلك لما يَبْهَرُهم من الأمر الفظيع، كما يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، وقيل: هذا قول الكافر؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأما المؤمن.. فيقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

《٤》 ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: بدلٌ من ﴿إِذَا﴾ وناصبُها، ﴿تُحَدِّثُ﴾ أي: تُحدِّثُ الخلقَ ﴿أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ فحُذف أول المفعولين؛ لأن المقصود ذكرُ تحديثِها الأخبار، لا ذكرُ الخلق، قيل: يُنطقها اللهُ وتُخبر بما عُمل عليها من خير وشرٍّ، وفي الحديث: «تشهد على كل واحد بما عمل على ظهرها»[2].

《٥》 ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ أي: تحدث أخبارَها بسبب إيحاء ربك لها؛ أي: إليها وأمرِه إياها بالتحديث.

《٦》 ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾: يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أَشْتَاتًا﴾: بيضَ الوجوه آمنين، وسودَ الوجوه فَزِعين، أو: يَصدرون عن الموقف أشتاتاً، يتفرق بهم طريقا الجنةِ والنارِ، ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ أي: جزاءَ أعمالِهم.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٧٣) وهي شاذة.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٢٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾

《٧》 ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾: نملةٍ صغيرةٍ ﴿خَيۡرٗا﴾: تمييزٌ ﴿يَرَهُۥ ٧﴾ أي: يرى جزاءَه.

《٨》 ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ قيل: هذا في الكفار، والأولُ في المؤمنين، ويُروى: أن أعرابياً أخَّرَ ﴿خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ فقيل له: قدمتَ وأخرتَ، فقال[1]: [من: الطويل]

خُذا بطنَ هرشَى أو قَفاها فإنه ... كِلا جانِبَي هرشَى لهن طريقُ

وروي: أن جدَّ الفرزدق أتاه عليه السلام ليستقرئه فقرأ عليه هذه الآيةَ فقال: حسبي حسبي، وهي أحكمُ آيةٍ، وسميت الجامعةَ.



(١) هرشى: موضعٌ له طريقان يوصلان إليه، ومراد هذا الأعرابي من الاستشهاد بالبيت: أن التقديم والتأخير في هذه السورة سواءٌ، ولكن هذا لا يجوز أبداً؛ فالقرآن يتلى كما أنزله الله دون أدنى تصرف فيه، وللتقديم والتأخير في القرآن أسرار جليلة، وفوائد عظيمة، وكان الأولى عدم إيراد هذه الحادثةِ الدالة على جهل بالقرآن العظيم. انظر «فتوح الغيب» (١٦/ ٥٤٢).

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ ....

سورة العاديات

مختلفٌ فيها، وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ أقسمَ بخيل الغزاةِ، تَعدو فتَضْبَحُ، والضبحُ: صوتُ أنفاسِها إذا عَدَوْنَ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه حكاه فقال: أح أح، وانتصابُ (ضبحاً) على: يَضبحن ضبحاً.

《٢》 ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾: تُوري نار الحُباحِبِ[1]، وهي: ما ينقدح من حوافرها ﴿قَدْحًا ۝٢﴾: قادحاتٍ صاكّاتٍ بحوافرها الحجارةَ، والقدحُ: الصكُّ، والإيراءُ: إخراجُ النار؛ تقول: قدحَ فأَوْرَى، وقدحَ فأَصْلَدَ[2]، وانتصب (قدحاً) بما انتصب به (ضبحاً).

《٣》 ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾: تُغيرُ على العدوِّ ﴿صُبْحًا ۝٣﴾: في وقت الصبح.

《٤》 ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾: فهيَّجْنَ بذلك الوقت غُباراً.

《٥》 ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾: بذلك الوقتِ ﴿جَمْعًا ۝٥﴾ من جموع الأعداء، ووَسَطَه بمعنى: تَوَسَّطَه، وقيل: الضميرُ لمكان الغارة، أو: للعَدْوِ الذي دلَّ عليه ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾، وعُطف ﴿فَأَثَرْنَ﴾ على الفعل الذي وُضِعَ اسمُ الفاعل موضعه؛ لأن المعنى: واللاتي عَدَوْنَ فأَوْرَيْنَ فأَغَرْنَ فأَثَرْنَ، وجوابُ القسم:

《٦》 ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾: لكفور؛ أي: إنه لِنعمةِ ربِّه خصوصاً لشديدُ الكفران.

《٧》 ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإن الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على كُنوده ﴿لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ يشهدُ على نفسه، أو: وإن الله على كُنوده لشاهدٌ؛ على سبيل الوعيد.

---

(١) الحباحب: رجلٌ بخيلٌ، لا يوقد إلا ناراً ضعيفة، فإذا انتبه منتبهٌ ليقتبسَ منها.. أطفأها، فكذلك ما أَوْرَتِ الخيلُ لا يُنتفع به، كما لا يُنتفع بنار الحُباحِبِ.

(٢) أصلد الرجل: صَلَدَ زَنْدُه؛ أي: صوَّتَ ولم يُخرج ناراً.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

《٨》 ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾: وإنه لأجل حب المال لبخيلٌ ممسك، أو: إنه لحب المال لقويٌّ، وهو لحبِّ عبادة الله لضعيفٌ.

《٩》 ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسانُ ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾: بُعِثَ ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾ من الموتى، و(ما) بمعنى: مَنْ.

《١٠》 ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾: مُيِّزَ ما فيها من الخير والشرِّ.

《١١》 ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾: لعالمٌ فيجازيْهم على أعمالهم من الخير والشرِّ، وخَصَّ يومئذ بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان؛ لأن الجزاء يقعُ يومئذ.



﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ....

سورة القارعة

مكيةٌ، وهي عشرُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾: مبتدأٌ.

《٢》 ﴿مَا﴾: مبتدأٌ ثانٍ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾: خبرُه، والجملةُ: خبرُ المبتدأ الأول، وكان حقُّه: ما هي، وإنما كُرِّرَ تفخيماً لشأنها.

《٣》 ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾: أيُّ شيءٍ أعلمك ما هي؟ ومن أين علمت ذلك؟

《٤》 ﴿يَوْمَ﴾: نصبٌ بمضمر دلت عليه (القارعة)، أو: تَقْرَعُ يومَ ﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ شبَّهَهم بالفَراش في الكثرة والانتشار والضعف والذِّلَّة والتطاير إلى الداعي من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار، وسُمِّيَ فَراشاً لتفرشه وانتشاره.

《٥》 ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ وشَبَّهَ الجبال بالعهن، وهو الصوف المصبغ ألواناً؛ لأنها ألوان: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، وبالمنفوش منه لتفرقِ أجزائِها.

《٦ - ٧》 ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ باتباعهم الحقَّ، وهي جمعُ موزون، وهو العمل الذي له وزنٌ وخطرٌ عند الله، أو: جمعُ ميزان، وثقلُها: رُجحانُها ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾: ذاتِ رضاً، أو: مَرْضيةٍ.

《٨ - ٩》 ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ باتباعهم الباطلَ ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾: فمسكنُه ومأواه النارُ، وقيل للمأوى: أُمٌّ على التشبيه؛ لأن الأمَّ مأوى الولد ومَفزعُه.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾

《١٠》 ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠﴾ الضميرُ يعودُ إلى ﴿هَاوِيَةٞ﴾، والهاءُ للسكت، ثم فسَّرَها فقال:

《١١》 ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾ بلغت النهايةَ في الحرارة.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

سورة التكاثر

مكيةٌ، وهي ثماني آياتٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾: شغلكم التباري في الكثرة، والتباهي بها في الأموال والأولاد عن طاعة الله.

《٢》 ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾: حتى أدرككم الموتُ على تلك الحال، أو: حتى زُرتم المقابرَ وعددتُم من في المقابر مِن مَوتاكم.

《٣》 ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ وتنبيهٌ على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميعَ همِّه ولا يهتمَّ بدينه، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ عند النزع سوءَ عاقبةِ ما كنتم عليه.

《٤》 ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ في القبور.

《٥》 ﴿كَلَّا ۝٣﴾: تكريرُ الردع للإنذار والتخويف، ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابُ (لو): محذوفٌ؛ أي: لو تعلمون ما بين أيديكم ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾: عِلْمَ الأمرِ اليقين؛ أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور.. لَمَا ألهاكم التكاثر، أو: لفعلتم ما لا يوصف، ولكنكم ضُلّالٌ جَهَلَةٌ.

《٦》 ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾: هو جوابُ قسمٍ محذوفٍ، والقسمُ لتوكيد الوعيد، ﴿لَتُرَوُنَّ﴾: بضم التاء: شاميٌّ وعليٌّ[1].

《٧》 ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ كرَّره معطوفاً بـ(ثم) تغليظاً في التهديد، وزيادةً في التهويل، أو: الأولُ بالقلب، والثاني: بالعَين، ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ أي: الرؤيةَ التي هي نفس اليقين وخالصتُه.

《٨》 ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾: عن الأمن والصحة فيم أفنيتموهما، عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقيل: عن التنعُّم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه، وعن الحسن: ما سوى كِنٍّ يُؤويه، وثوب يُواريه، وكِسْرَةٌ تُقَوِّيْهِ، وقد روي مرفوعاً.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٧).

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

سورة العصر

ثلاثُ آياتٍ، مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾: أقسم بصلاة العصر لفضلها؛ بدليل قوله تعالى: ﴿والصلاة الوسطى صلاة العصر﴾ في مصحف حفصة[1]، ولأن التكليف في أدائها أَشَقُّ لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم، أو: أقسم بالعشيِّ كما أقسم بالضحى؛ لما فيها من دلائل القدرة، أو: أقسم بالزمان؛ لما في مروره من أصناف العجائب، وجوابُ القسم:

《٢》 ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ أي: جنسُ الإنسان لفي خسران من تجاراتهم.

《٣》 ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، فربحُوا وسعدُوا، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾: بالأمر الثابت الذي لا يسوغُ إنكارُه، وهو الخير كلُّه من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعات، وعلى ما يبلو به الله عبادَه، و(تواصوا) في الموضعين: فعلٌ ماضٍ معطوفٌ على ماضٍ قبلَه.



---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢٥) بلفظ: (وصلاة العصر)، وروى البخاري (٢٩٣١) ومسلم (٦٢٧) واللفظ له عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً».

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ ....

سورة الهمزة

تسع آيات؛ مكيَّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأٌ خبرُه: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ أي: الذي يعيبُ الناس مِن خلفِهم، ﴿لُّمَزَةٍ ۝١﴾ أي: مَن يعيبُهم مواجهةً، وبناءُ (فُعَلَةٍ) يدلُّ على أن ذلك عادة منه، قيل: نزلت في الأخنسِ بنِ شَرِيْقٍ، وكانت عادتُه الغِيبةَ والوقيعةَ، وقيل: في أميةَ بنِ خلفٍ، وقيل: في الوليد، ويجوز أن يكون السبب خاصّاً والوعيدُ عامّاً؛ ليتناولَ كلَّ مَن باشر ذلك القبيح.

《٢》 ﴿الَّذِي﴾: بدلٌ مِن (كلّ)، أو: نصبٌ على الذم ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ ﴿جَمَّعَ﴾: شاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ[1]؛ مبالغةُ (جَمَعَ)، وهو مطابقٌ لقوله: ﴿وَعَدَّدَهُ ۝٢﴾ أي: جعله عُدَّةً لحوادثِ الدهرِ.

《٣》 ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ أي: تركه خالداً في الدنيا لا يموت، أو: هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذي أخلدَ صاحبه في النعيم، فأما المال.. فما أخلدَ أحداً فيه.

《٤》 ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ له عن حِسبانه ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ أي: الذي جمع ﴿فِي الْحُطَمَةِ ۝٤﴾: في النار التي شأنُها أن تَحْطِمَ كلَّ ما يُلقى فيها.

《٥》 ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥﴾: تعجيبٌ وتعظيمٌ.

《٦》 ﴿نَارُ اللَّهِ﴾: خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: هي نار الله ﴿الْمُوقَدَةُ ۝٦﴾: نعتُها.

《٧》 ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧﴾ يعني: أنها تدخل في أجوافهم حتى تصلَ إلى صدورهم وتطلعَ على أفئدتهم، وهي: أوساطُ القلوب، ولا شيءَ في بدن الإنسان ألطفُ من الفؤاد، ولا أشدُّ تألماً منه بأدنى أذىً يَمَسُّه، فكيف إذا طلعت عليه نار جهنم واستولت عليه! وقيل: خَصَّ الأفئدة؛ لأنها مواطن الكفر والعقائدِ الفاسدة، ومعنى اطلاع النار عليها: أنها تشتمل عليها.

《٨》 ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم﴾ أي: النارَ أو: الحُطمةَ ﴿مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾: مُطْبَقَةٌ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٧) وكذا القراءة الآتية.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾

《٩》 ﴿في عُمُدٍ﴾: بضمتين: كوفيٌّ غيرَ حفص، الباقون: ﴿فِي عَمَدٍ﴾، وهما لغتان في جمع عِماد، كإهابٍ وأُهُبٍ، وحِمار وحُمُرٍ، ﴿مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ أي: تُوْصَدُ عليهم الأبواب، وتُمَدَّدُ على الأبواب العمدُ استيثاقاً في استيثاق، في الحديث: «المؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ وقّافٌ مُتثبتٌ لا يَعْجَلُ عالمٌ وَرِعٌ، والمنافقُ همزةٌ لمزةٌ حطمةٌ كحاطب الليل، لا يبالي من أين اكتسب، وفِيْمَ أنفق».



﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ ....

سورة الفيل

خمس آيات؛ مكيَّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ (كيف): في موضع نصب بـ(فَعَلَ) لا بـ(ألم تر) لما في (كيف) من معنى الاستفهام، والجملةُ سدَّتْ مسدَّ مفعولي (تَرَ)، وفي (ألم) تعجيبٌ؛ أي: عجَّبَ الله نبيه من كفر العرب، وقد شاهدتْ هذه العظمةَ من آيات الله؛ والمعنى: إنك رأيت آثار صنع الله بالحبشة، وسمعتَ الأخبارَ به متواترةً، فقامت لك مقام المشاهدة ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ روي: أن أبرهةَ بنَ الصباحِ ملكَ اليمنِ من قِبَلِ أصحمةَ النجاشيِّ بَنَى كنيسةً بصنعاء، وسماها: القُلَّيْسَ، وأراد أن يصرف إليها الحاجَّ، فخرج رجل من كنانة فقعدَ فيها ليلاً فأغضبه ذلك[1]، وقيل: أجَّجتْ رُفقةٌ من العرب ناراً فحملتْها الريحُ فأحرقتْها، فحلف ليهدِمَنَّ الكعبة، فخرج بالحبشة ومعه فيلٌ اسمُه محمودٌ، وكان قويّاً عظيماً، واثنا عشر فيلاً غيرُه، فلمّا بلغ المُغَمِّسَ.. خرج إليه عبدُ المطلب، وعرض عليه ثلثَ أموالِ تِهامةَ ليرجع، فأبى، وعَبَّأَ جيشَه، وقدَّمَ الفيل، وكانوا كلما وجهوه إلى الحرم.. بَرَكَ ولم يَبْرَحْ، وإذا وجَّهُوه إلى اليمن.. هَرْوَلَ، فأرسل الله طيراً، مع كل طائر حجرٌ في منقاره، وحَجَران في رجليه أكبرُ من العدسة، وأصغرُ من الحِمِّصةِ، فكان الحجرُ يقع على رأس الرجل فيخرجُ من دبره، وعلى كل حجر اسمُ مَن يقع عليه، ففرُّوا وهَلَكوا، وما مات أبرهةُ حتى انصدع صدره عن قلبه، وانفلت وزيرُه أبو يَكسومَ، وطائرٌ يُحلق فوقَه، حتى بلغ النجاشيَّ فقص عليه القصةَ، فلما أتمَّها.. وقع عليه الحجرُ فخرَّ ميِّتاً بين يديه، وروي: أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مئتي بعيرٍ، فخرج إليه فيها، فَعُظِّمَ في عينه، وكان رجلاً جسيماً وسيماً وقيل: هذا سيدُ قريش وصاحبُ عِيْرِ مكةَ الذي يُطْعِمُ الناس في السهل، والوحوشَ في رؤوس الجبال، فلما ذكر حاجتَه.. قال: سقطتَ من عيني، جئتُ لأهدِمَ البيت الذي هو دينك ودينُ آبائك، وشرفُكم في قديم الدهر، فألهاك عنه ذَوْدٌ أُخذَ لك، فقال: أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ سيمنعه.

---

(١) قعد: تَغَوَّط.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

《٢》 ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾: في تضييع وإبطال؛ يقال: ضَلَّلَ كيدَه: إذا جعله ضالاً ضائعاً، وقيل لامرئ القيس: الملكُ الضِّلِّيلُ؛ لأنه ضَلَّلَ ملكَ أبيه؛ أي: ضيَّعه؛ يعني: أنهم كادُوا البيت أولاً ببناء القُلَّيْسِ ليصرفوا وجوهَ الحاجِّ إليه، فضُلِّلَ كيدُهم بإيقاع الحريق فيه، وكادُوه ثانياً بإرادة هدمِه، فضُلِّلَ كيدُهم بإرسال الطير عليهم.

《٣》 ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾: حزائقَ[1]، الواحدةُ: إبّالة، قال الزجاج: جماعاتٍ من ههنا، وجماعاتٍ من ههنا.

《٤》 ﴿تَرْمِيهِم﴾ وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه: ﴿يرميهم﴾[2] أي: اللهُ، أو: الطيرُ؛ لأنه اسمُ جمعٍ مذكرٌ، وإنما يُؤنث على المعنى، ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ هو معربٌ مِن سنك كل، وعليه الجمهور؛ أي: الآجرِّ.

《٥》 ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾: زرعٍ أكله الدُّودُ.



---

(١) حزائق: جماعات، جمعُ حَزِيْقة.

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٦٣).

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

سورة قريش

أربعُ آياتٍ؛ مكيَّةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١» ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾: متعلقٌ بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾، أمرهم أن يعبدوه؛ لأجل إيلافهم الرحلتين، ودخلت الفاءُ لما في الكلام من معنى الشرط؛ أي: إن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه.. فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة، أو: بما قبله؛ أي: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش؛ يعني: أن ذلك الإتلافَ لهذا الإيلافِ، وهذا كالتضمين في الشعر، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصحُّ إلا به، وهما في مصحف أُبَيٍّ سورةٌ واحدةٌ بلا فصلٍ، ويُرْوَى عن الكسائي تركُ التسمية بينهما؛ والمعنى: أنه أهلك الحبشةَ الذين قصدُوهم؛ ليتسامع الناس بذلك فيحترموهم فَضْلَ احترامٍ حتى ينتظمَ لهم الأمنُ في رحلتيهم، فلا يجترئَ أحدٌ عليهم، وقيل: المعنى: اعجَبُوا لإيلاف قريش، ﴿لِإِلَافِ قريشٍ﴾: شاميٌّ[1]؛ أي: لِمُؤالَفة قريش، وقيل: يقال: أَلِفْتُه إِلْفاً وإِلافاً[2]، وقريشٌ: ولدُ النضرِ بنِ كنانةَ، سمَّوه بتصغير القِرشِ، وهو دابةٌ عظيمةٌ في البحر تعبث بالسفن، فلا تطاقُ إلا بالنار، والتصغيرُ للتعظيم، فسمُّوا بذلك لشدتِهم ومَنَعَتِهم؛ تشبيهاً بها، وقيل: من القَرش وهو الجمعُ والكسبُ؛ لأنهم كانوا كسّابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد.

«٢» ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ أطلقَ الإيلافَ، ثم أَبدلَ عنه المُقَيَّدَ بالرحلتين؛ تفخيماً لأمر الإيلاف، وتذكيراً لعظيم النعمة فيه، ونصبَ الرحلةَ بـ (إيلافهم) مفعولاً به، وأراد رحلتي الشتاء والصيف، فأفرد لأَمْنِ الإلباس، وكانت لقريش رِحلتان، يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين؛ لأنهم أهل حرم الله، فلا يُتَعَرَّضُ لهم، وغيرُهم يُغار عليهم.

«٣ - ٤» ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٨).

(٢) أي: أن (لإلاف) إما من الفعل الرباعي: آلف، أو من الثلاثي: أَلِفَ. انظر «الدر المصون» (١١/ ١١٢).

....

والتنكيرُ في (جوع) و(خوف) لشدتِهما؛ يعني: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلَهما، وآمنهم من خوف عظيم، وهو خوفُ أصحاب الفيل، أو خوفُ التخطفِ في بلدهم ومَسايِرهم، وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجِيَفَ والعظامَ المحرقةَ، وآمنهم من خوف الجُذام، فلا يصيبُهم ببلدهم، وقيل: ذلك كلُّه بدعاء إبراهيم عليه السلام.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

سورة الماعون

سبعُ آياتٍ؛ مختلفٌ فيها.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١ - ٢》 ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ أي: هل عرفت الذي يكذبُ بالجزاء مَن هو؟ إن لم تعرفه ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى﴾ يكذبُ بالجزاء هو الذي ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ أي: يدفعُه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذىً، ويردُّه ردّاً قبيحاً بزجرٍ وخشونةٍ.

《٣》 ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾: ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين، جَعلَ عَلَمَ التكذيب بالجزاء منعَ المعروف، والإقدامَ على إيذاء الضعيف؛ أي: لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد.. لخشي الله وعقابَه، ولم يُقْدِمْ على ذلك، فحين أقدم عليه.. دلَّ أنه مُكَذِّبٌ، ثم وصل به قولَه:

《٤ - ٧》 ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ يعني بهذا: المنافقين؛ أي: لا يُصلونها سرّاً؛ لأنهم لا يعتقدون وجوبَها، ويصلونها علانيةً رياء، وقيل: فويلٌ للمنافقين الذين يُدخلون أنفسهم في جملة المصلين صورةً وهم غافلون عن صلاتهم، وأنهم لا يُريدون بها قُرْبَةً إلى ربهم، ولا تأديةً لفرضٍ، فهم ينخفضون ويرتفعون، ولا يدرون ماذا يفعلون، ويُظهرون للناس أنهم يؤدون الفرائض، ويمنعون الزكاة وما فيه منفعة، وعن أنس والحسن قالا: الحمدُ لله الذي قال: (عن صلاتهم) ولم يقل: في صلاتهم؛ لأن معنى (عن): أنهم ساهون عنها سهوَ تركٍ لها، وقلةِ التفاتٍ إليها، وذلك فعلُ المنافقين، ومعنى في: أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان، أو حديث نفس، وذلك لا يخلو عنه مسلم، وكان رسول الله ﷺ يقعُ له السهو في صلاته فضلاً عن غيره، والمرآةُ مفاعلة من الإراءة؛ لأن المرائي يُرائي الناسَ عملَه، وهم يُرُوْنَه الثناء عليه والإعجابَ به، ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار الفرائض، فمن حقِّها الإعلانُ بها؛ لقوله ﷺ: «ولا غُمَّةَ في فرائض الله»[1]،

---

(١) أي: لا تُسترُ فرائضُه، وإنما تُظهَرُ ويُجهر بها.

والإخفاءُ في التطوع أولى؛ فإنْ أظهره قاصداً للاقتداء به. . كان جميلاً، والماعونُ: الزكاةُ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ما يُتعاور في العادة من الفأس والقِدر والدلْو والمِقْدَحَةِ ونحوِها، وعن عائشة رضي الله عنها: الماءُ والنارُ والملحُ.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

سورة الكوثر

مكيةٌ، وهي ثلاثُ آياتٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ هو (فَوْعَلٌ) من الكثرة، وهو المفرطُ الكثرةِ، وقيل: هو نهرٌ في الجنة، أحلى من العسل، وأشدُّ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، حافّتاه الزَّبَرْجَدُ، وأوانيه من فضة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الخير الكثير، فقيل له: إن ناساً يقولون: هو نهرٌ في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير.

《٢》 ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾: فاعبدْ ربك الذي أعزَّكَ بإعطائه، وشرَّفك وصانك من مِنَنِ الخلق مُراغِماً لقومك الذين يعبدون غير الله، ﴿وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ لوجهه وباسمه إذا نحرت، مخالفاً لعبدة الأوثان في النحرِ لها.

《٣》 ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾: إن مَن أبغضك من قومك بمخالفتك لهم ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾: المنقطعُ من كل خير، لا أنتَ؛ لأن كل مَن يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فَهُمْ أولادُك وأعقابُك، وذِكْرُك مرفوعٌ على المنابر وعلى لسانِ كلِّ عالمٍ وذاكرٍ إلى آخر الدهر، يَبدأُ بذكر الله ويُثَنِّي بذكرك، ولك في الآخرة ما لا يدخلُ تحت الوصف، فمثلُك لا يقال له: أبتر، إنما الأبترُ هو شانئك المنسِيُّ في الدنيا والآخرة، قيل: نزلت في العاصِ بنِ وائل، وسمّاه الأبترَ، والأبترُ: الذي لا عَقِبَ له، وهو خبرُ (إن)، و(هو): فصلٌ.



﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

سورة الكافرون

ست آياتٍ، مكيةٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ المخاطَبون كفرةٌ مخصوصون، قد علم الله أنهم لا يؤمنون، روي: أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمدُ، هلمَّ فاتَّبِعْ ديننا ونتبعَ دينك، تعبدُ آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنةً، فقال: «مَعاذَ الله أن أشرك بالله غيرَه»، قالوا: فاستلِمْ بعضَ آلهتنا نصدقْك ونعبدْ إلهك، فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم فأَيِسُوا[(١)].

《٢》 ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ أي: لستُ في حالي هذه عابداً ما تعبدون.

《٣》 ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ الساعةَ ﴿مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ يعني: اللهَ.

《٤》 ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾: ولا أعبدُ فيما أستقبلُ ما عبدتم.

《٥》 ﴿وَلَآ أَنتُمْ﴾ فيما تستقبلون ﴿عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ وذُكِرَ بلفظِ (ما) لأن المراد به الصفة؛ أي: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحقَّ، أو ذُكِرَ بلفظ (ما) ليتقابل اللفظان، ولم يصحَّ في الأول مَنْ، وصح في الثاني (ما) بمعنى: الذي.

《٦》 ﴿لكمْ دينُكم وليْ دينِ﴾: لكم شِرْكُكم ولي توحيدي، وبفتح الياء: نافعٌ وحفصٌ[(٢)]، وروي: أن ابن مسعود رضي الله عنه دخل المسجد والنبيُّ ﷺ جالسٌ فقال له: «نابذْ يا ابن مسعود» فقرأ: (قل يا أيها الكافرون) ثم قال له في الركعة الثانية: «أَخْلِصْ» فقرأ: (قل هو الله أحد) فلما سلم.. قال: «يا ابن مسعود سَلْ تجبْ»[(٣)].



---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦٦٢) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) فتحَ ياءَ (وليَ): نافعٌ وهشامٌ وحفصٌ والبزيُّ بخلف عنه، وأسكنها: الباقون. انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٨).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٣/ ١٠٤).

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

سورة النصر

مدنيةٌ، وهي ثلاثُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿إِذَا﴾: منصوبٌ بـ: سبح، وهو لما يُستقبلُ، والإعلامُ بذلك قبل كونه.. من أعلام النبوة، وروي: أنها نزلت في أيام التشريق بمنىً في حَجة الوداع، ﴿جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ النصرُ: الإغاثةُ والإظهارُ على العدو، والفتحُ: فتحُ البلاد؛ والمعنى: نصرُ رسول الله ﷺ على العرب، أو على قريش، وفتحُ مكة، أو: جنسُ نصر الله للمؤمنين، وفتحُ بلادِ الشركِ عليهم.

《٢ - ٣》 ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ﴾ هو: حالٌ من الناس؛ على أن (رأيت) بمعنى: أبصرتَ، أو عرفت، أو: مفعولٌ ثانٍ؛ على أنه بمعنى: علمتَ، ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ هو حالٌ من فاعل (يدخلون)، وجوابُ ﴿إِذَا﴾: ﴿فَسَبِّحۡ﴾ أي: إذا جاء نصر الله إياك على مَن ناوَأَكَ، وفَتَحَ البلادَ، ورأيت أهلَ اليمن يدخلون في ملة الإسلام جماعاتٍ كثيرةً بعد ما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً، واثنين اثنين ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾: فقلْ: سبحان الله حامداً له، أو: فصلِّ له، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ تواضعاً وهضماً للنفس، أو: دُمْ على الاستغفار، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾: لم يَزَلْ ﴿تَوَّابَۢا ۝٣﴾ التوابُ: كثيرُ القبول للتوبة، وفي صفة العباد: كثيرُ الفعلِ للتوبةِ، ويُروَى: أن عمر رضي الله عنه لما سمعها.. بكى وقال: الكمالُ دليلُ الزوال[1]، وعاش رسول الله ﷺ بعدها سنتين.



---

(١) روى البخاري (٣٦٢٧) أن سيدنا عمر سأل سيدنا ابن عباس رضي الله عنهم عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ فقال: «أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه إياه» قال: ما أعلمُ منها إلا ما تعلم.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ ....

سورة أبي لهب

مكيةٌ، وهي خمسُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ التبابُ: الهلاكُ، ومنه قولُهم: أشابَّةٌ أم تابَّةٌ؛ أي: هالكةٌ من الهرم؛ والمعنى: هلكت يداه؛ لأنه فيما يُروَى أخذَ حجراً ليرميَ به رسول الله ﷺ، ﴿وَتَبَّ ۝١﴾: وهلك كلُّه، أو جُعلت يداه هالكتين، والمراد: هلاكُ جملته كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ومعنى (وتب): وكان ذلك وحصل، كقوله[1]: [من: الطويل]

جزاني جزاه الله شرَّ جزائِه ... جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فعل

وقد دلت عليه قراءةُ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وقد تب﴾[2]، روي: أنه لما نزل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] رَقِيَ الصَّفا وقال: «يا صباحاه» فاستجمع إليه الناسُ من كل أوب فقال عليه الصلاة والسلام: «يا بني عبد المطلب، يا بني فِهْرٍ، إن أخبرتُكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي الساعة»، فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا دعوتَنا؟ فنزلت[3]، وإنما كنّاه والتكنيةُ تكرِمةٌ، لاشتهاره بها دون الاسم، أو لكراهة اسمه، فاسمُه عبدُ العزَّى، أو: لأن مآله إلى نارٍ ذاتِ لهبٍ، فوافقت حالُه كنيتَه، ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾: مكيٌّ[4].

《٢》 ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ (ما): للنفي، ﴿وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾: مرفوعٌ، و(ما): موصولةٌ، أو مصدريةٌ؛ أي: ومكسوبُه، أو وكسبُه؛ أي: لم ينفعه مالُه الذي ورثه من أبيه، والذي كَسَبَه

---

(١) هذا البيت مركب من بيتين:
الأول: للنابغة في «ديوانه» (ص١٦١)، وهو:

جزى ربُّه عني عديَّ بنَ حاتم ... جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فعل

والثاني: لعبد العزّى بن امرئ القيس، كما في «معجم ما استعجم» (٢/ ٥١٦) وهو:

جزاني جزاه الله شرَّ جزائِه ... جزاءَ سنمّار وما كان ذا ذنب

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٤).
(٣) روى نحوه البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٨).

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

بنفسه، أو: مالُه التالدُ والطارفُ[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما كَسَبَ: ولدُه، وروي: أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابنُ أخي حقّاً.. فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي.

《٣》 ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾: سيدخل، ﴿سَيُصَلَّى﴾: البرجميُّ عن أبي بكر[2]، والسينُ للموعيد؛ أي: هو كائن لا محالةَ وإن تراخى وقتُه، ﴿ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾: تَوَقُّدٍ.

《٤》 ﴿وَامْرَأَتُهُۥ﴾ هي أمُّ جميل بنتُ حربٍ أختُ أبي سفيانَ ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤﴾: كانت تحمل حُزمةً من الشوك والحَسَكِ فتنثرُها بالليل في طريق رسول الله ﷺ، وقيل: كانت تمشي بالنميمة فتشعلُ نار العداوة بين الناس، ونصبَ عاصمٌ (حمالة الحطب)[3] على الشتم، وأنا أحبُّ هذه القراءة، ولقد توسلَ إلى رسول الله ﷺ بجميلٍ مَن أحبَّ شتمَ أمِّ جميلٍ، وعلى هذا يسوغ الوقف على (امرأتُه) لأنها عُطفت على الضمير في (سيصلى) أي: سيصلى هو وامرأتُه، والتقدير: أعني: حمالةَ الحطب، وغيرُه رفع (حمالة الحطب) على أنها خبرُ (وامرأتُه)، أو: هي حمالةُ.

《٥》 ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾: حالٌ، أو خبرٌ آخرُ، والمسدُ: الذي فُتِلَ من الحبال فتلاً شديداً، مِن ليف كان أو جلد، أو غيرَهما؛ والمعنى: في جيدها حبلٌ مما مُسِدَ من الحبال، وأنها تَحمل تلك الحزمةَ مِن الشوك، وتربطُها في جيدها كما يفعل الحطَّابون؛ تحقيراً لها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطّابات؛ لتجزع من ذلك ويجزعَ بعلُها وهما في بيت العز والشرف، وفي مَنْصِبِ الثَّرْوَةِ والجِدَةِ.



---

(١) التالد: المال القديم، والطريف: من المال المستحدث.

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٦٣).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٤٨).

سورة الإخلاص

أربعُ آياتٍ، مكيةٌ عند الجمهور.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (هو): ضمير الشأن، و(الله أحدٌ) هو الشأنُ، كقولك: هو زيدٌ منطلقٌ، كأنه قيل: الشأنُ هذا، وهو أن الله واحدٌ لا ثانيَ له، ومحلُّ (هو): الرفعُ على الابتداء، والخبرُ هو الجملة، ولا يَحتاج إلى الراجع؛ لأنه في حكم المفرد في قولك: زيدٌ غلامُك؛ في أنه هو المبتدأُ في المعنى، وذلك أن قولَه: (الله أحد) هو الشأنُ الذي (هو) عبارةٌ عنه، وليس كذلك: زيدٌ أبوه منطلقٌ؛ فإن زيداً والجملَة يدلان على معنيين مختلفين، فلا بدَّ مما يصل بينهما.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قالت قريشٌ: يا محمد صِفْ لنا ربك الذي تدعونا إليه، فنزلت[١]، يعني: الذي سألتموني وصفَه هو الله تعالى، وعلى هذا (أحد): خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: هو أحدٌ، وهو بمعنى: واحدٍ، وأصلُه: وَحَدٌ، فقلبت الواو همزة لوقوعها طَرَفاً.

والدليل على أنه واحدٌ من جهة العقل:

أن الواحد إما أن يكون في تدبير العالم وتخليقِه كافياً أو لا، فإن كان كافياً.. كان الآخر ضائعاً غيرَ محتاج إليه، وذلك نقصٌ، والناقصُ لا يكون إلهاً، وإن لم يكن كافياً.. فهو ناقص.

ولأن العقل يقتضي احتياج المفعول إلى فاعل، والفاعلُ الواحدُ كافٍ، وما وراء الواحد.. فليس عدد أولى من عدد، فيفضِي ذلك إلى وجود أعداد لا نهايةَ لها، وذا محال، فالقول بوجود إلهين محالٌ.

ولأن أحدهما إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر، فإن قدر.. لزم كون المستور عنه جاهلاً، وإن لم يقدر.. لزم كونه عاجزاً.

ولأنا لو فرضنا معدوماً ممكنَ الوجود؛ فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده.. كان كل واحد منهما عاجزاً، والعاجز لا يكون إلهاً، وإن قدر أحدُهما دون الآخر.. فالآخرُ لا يكون

---

(١) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

إلهاً، وإن قَدَرا جميعاً؛ فإما أن يُوجداه بالتعاون فيكونُ كل واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر، فيكون كل واحد منهما عاجزاً، وإن قدر كل واحد منهما على إيجاده بالاستقلال؛ فإذا أوجده أحدُهما؛ فإما أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال؛ لأن إيجاد الموجود محال؛ وإن لم يَبق.. فحينئذ يكون الأول مُزيلاً قدرةَ الثاني، فيكون عاجزاً ومقهوراً تحت تصرفه، فلا يكون إلهاً، فإن قلت: الواحدُ إذا أوجد مقدور نفسه.. فقد زالت قدرتُه، فيلزمكم أن يكون هذا الواحدُ قد جعل نفسه عاجزاً.. قلنا: الواحدُ إذا أوجد مقدور نفسه.. فقد نفذت قدرتُه، ومن نفذت قدرتُه.. لا يكون عاجزاً، وأما الشريك.. فما نفذت قدرتُه، بل زالت قدرتُه بسبب قدرة الآخر، فكان ذلك تعجيزاً.

﴿٢﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ هو (فَعَلٌ) بمعنى (مفعول) مِن: صَمَدَ إليه: إذا قصده، وهو السيد المصمودُ إليه في الحوائج؛ والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتُقرُّون بأنه خالق السموات والأرض وخالقُكم، وهو واحد لا شريك له، وهو الذي يَصمد إليه كلُّ مخلوق، لا يستغنون عنه، وهو الغنيُّ عنهم.

﴿٣﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لا يجانِسُ حتى تكون له من جنسه صاحبةٌ فيتوالدا، وقد دلَّ على هذا المعنى بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ لأن كل مولود محدثٌ وجسمٌ، وهو قديمٌ لا أول لوجوده؛ إذ لو لم يكن قديماً.. لكان حادثاً؛ لعدم الواسطة بينهما، ولو كان حادثاً.. لافتقر إلى محدث، وكذا الثاني والثالث، فيؤدي إلى التسلسل وهو باطل، وليس بجسم؛ لأنه اسم للمتركب، ولا يخلو حينئذ من أن يتصف كلُّ جزء منه بصفات الكمال، فيكون كلُّ جزء إلهاً، فيفسد القولُ به، كما فسد بإلهين، أو غيرَ متصف بها بل بأضدادها من سمات الحدث وهو محال.

﴿٤﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: ولم يكافئْه أحدٌ؛ أي: لم يماثلْه.

سألوه أن يصفَه لهم، فأوحَى إليه ما يحتوي على صفاته تعالى، فقولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾: إشارةٌ إلى أنه خالق الأشياء وفاطرُها، وفي طيِّ ذلك وصفُه بأنه قادرٌ عالمٌ؛ لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم؛ لكونه واقعاً على غاية إحكامٍ واتّساقٍ وانتظامٍ، وفي ذلك وصفُه بأنه حيٌّ؛ لأن المتصف بالقدرة والعلم لا بدَّ وأن يكون حيّاً، وفي ذلك وصفُه بأنه سميع بصير مريد متكلم، إلى غير ذلك من صفات الكمال؛ إذ لو لم يكن موصوفاً بها.. لكان موصوفاً بأضدادها وهي نقائص، وذا مِن

....

أمارات الحدث، فيستحيلُ اتصافُ القديم بها، وقولُه: ﴿أَحَدٌ﴾: وصفٌ بالوحدانيةِ ونفي الشريك، وبأنه المتفرد بإيجاد المعدومات، والمتوحدُ بعلم الخفيات، وقولُه: ﴿ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: وصفٌ بأنه ليس إلا مُحتاجاً إليه، وإذا لم يكن إلا مُحتاجاً إليه.. فهو غنيٌّ لا يحتاج إلى أحد، ويحتاج إليه كلُّ أحد، وقولُه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: نفيٌ للشبه والمجانسة، وقولُه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾: نفيٌ للحدوث، ووصفٌ بالقِدم والأولية، وقولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: نَفْيٌ أن يُماثلَه شيء، ومن زعم أن نفي الكُفْءِ - وهو المِثْلُ - في الماضي لا يدلُّ على نفيه للحال، والكفارُ يدَّعونه في الحال.. فقدْ تاهَ في غَيِّهِ؛ لأنه إذا لم يكن فيما مضى.. لم يكن في الحال ضرورةً؛ إذ الحادثُ لا يكون كُفْؤاً للقديم.

وحاصلُ كلام الكفرة يؤولُ إلى الإشراك والتشبيه والتعطيل، والسورةُ تدفع الكلَّ كما قررنا.

واستحسن سيبويه تقديم الظرف إذا كان مستقَرّاً؛ أي: خبراً؛ لأنه لما كان محتاجاً إليه.. قُدم ليُعْلَمَ من أول الأمر أنه خبرٌ لا فضلةٌ، وتأخيرَه إذا كان لغواً؛ أي: فضلةً؛ لأن التأخير مستحَقٌّ للفَضْلات، وإنما قدم في الكلام الأفصح؛ لأن الكلام سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مَصَبُّه ومركزُه هو هذا الظرف، فكان الأهمُّ تقديمَه، وكان أبو عمرٍو يستحب الوقفَ على (أحد) ولا يستحب الوصل، قال عبد الوارث: على هذا أدركنا القراء، وإذا وَصَلَ.. نوَّنَ وكسرَ، أو حذفَ التنوينَ[1]، كقراءة: ﴿عزيرُ بنُ الله﴾[2]، ﴿كُفْؤاً﴾: بسكون الفاء والهمزةِ: حمزةُ وخلفٌ، ﴿كُفُوًا﴾: مثقلةٌ غيرُ مهموزة: حفصٌ، الباقون: مثقلةٌ مهموزةٌ[3].

وفي الحديث: «من قرأ سورة الإخلاص.. فقد قرأ ثلث القرآن»[4] لأن القرآن يشتمل على توحيد الله وذكر صفاته، وعلى الأوامر والنواهي، وعلى القصص والمواعظ، وهذه السورة قد

---

(١) انظر «معاني القراءات» للأزهري (٣/ ١٧٢) وهي شاذة.

(٢) قرأ عاصمٌ والكسائيُّ ويعقوبُ: ﴿عُزَيْرٌ﴾ [التوبة: ٣٠] بالتنوين والكسرِ حال الوصل، والباقون: بضم الراء وحذف التنوين. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٥).

(٣) ويعقوب أيضاً قرأ: ﴿كُفْؤاً﴾. انظر المرجع السابق (ص٣٤٩).

(٤) رواه بنحوه البخاري (٦٦٤٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلمٌ (٨١١) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه.

....

تجردت للتوحيد والصفات، فقد تضمنت ثلث القرآن، وفيه دليلُ شرفِ علمِ التوحيدِ، وكيف لا يكون كذلك والعلمُ يَشرُفُ بشرف المعلوم، ويتضعُ بِضَعَتِهِ، ومعلومُ هذا العلم هو الله وصفاتُه، وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه، فما ظنك بشرفِ منزلتِه، وجلالةِ محلِّه؟ اللهم احشرنا في زمرة العالِمين بك، العاملين لك، الرّاجين لثوابك، الخائفين من عقابك، المكرَمين بلقائك، وسمع رسولُ الله ﷺ رجلاً يقرأُ: (قل هو الله أحد) فقال: «وجبت»، فقيل: يا رسول الله ما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنة»[1].



(١) رواه الترمذي (٢٨٩٧) والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٧١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

سورة الفلق

سورة الفلق خمسُ آيات، مختلفٌ فيها.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١» ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ أي: الصبح، أو: الخلق، أو: هو وادٍ في جهنم، أو جُبٌّ فيها.

«٢» ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي: النار، أو: الشيطان، و(ما): موصولةٌ، والعائدُ محذوف، أو: مصدريةٌ، ويكون الخلقُ بمعنى: المخلوق، وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه: ﴿من شرٍّ﴾: بالتنوين[١]، و(ما) على هذا مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجرِّ بدلٌ من (شرٍّ) أي: شرِّ خلقِه؛ أي: مِن خلقٍ شرٍّ، أو: زائدةٌ.

«٣» ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ الغاسقُ: الليلُ إذا كَثُفَ ظلامُه، وَوُقُوبُه: دخولُ ظلامه في كل شيء، وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تَعوَّذي بالله من شرِّ هذا؛ فإنه الغاسق إذا وقب»[٢]، ووقوبُه: دخولُه في الكسوف واسْوِدادُه.

«٤» ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤﴾ النفاثاتُ: النساءُ، أو: النفوسُ، أو: الجماعاتُ السواحرُ اللاتي يَعقِدن عُقَداً في خُيوط ويَنْفُثْنَ عليها ويَرْقِين، والنَّفْثُ: النفخُ مع ريق، وهو دليلٌ على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحرِ وظهورِ أثرِه.

«٥» ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ أي: إذا ظهر حسدُه وعمل بمقتضاه؛ لأنه إذا لم يظهر.. فلا ضرر يعودُ منه على مَن حسده، بل هو الضارُّ لنفسه؛ لاغتمامه بسرور غيره، وهو الأسفُ على الخير عند الغير، والاستعاذةُ من شرِّ هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شرِّ ما خلق.. إشعارٌ بأن شرَّ هؤلاء أشدُّ، وخَتَمَ بالحسد ليعلمَ أنه شرُّها، وهو أول ذنب عُصِيَ الله به في السماء

---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٦٦٣).
(٢) رواه الترمذي (٣٣٦٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٠٦٥).

....

من إبليس، وفي الأرض من قابيل، وإنما عَرَّفَ بعض المستعاذ منه ونَكَّرَ بعضَه؛ لأن كل نفاثة شريرةٌ، فلذا عُرِّفت النفاثاتُ ونُكِّرَ غاسقٌ؛ لأن كل غاسق لا يكون فيه الشرُّ، إنما يكون في بعضٍ دون بعضٍ، وكذلك كلُّ حاسد لا يضرُّ، ورُبَّ حسدٍ يكون محموداً، كالحسد في الخيرات.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ....

سورة الناس

مختلفٌ فيها، وهي ستُّ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

«١» ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ أي: مُربيهم ومصلحِهم.

«٢» ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾: مالكِهم ومدبرِ أمورِهم.

«٣» ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾: معبودِهم، ولم يكتف بإظهار المضاف إليه مرة واحدة؛ لأن قوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾: عطفُ بيان لـ: رب الناس؛ لأنه يقال لغيره: ربُّ الناس وملكُ الناس، وأما إلهُ الناس.. فخاصٌّ لا شركةَ فيه، وعطفُ البيان للبيان، فكان مَظِنةً للإظهار دون الإضمار، وإنما أضيف الربُّ إلى الناس خاصةً وإن كان ربَّ كل مخلوق تشريفاً لهم، ولأن الاستعاذة وقعت من شرِّ الموسوِسِ في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوِسِ إلى الناس بربِّهم الذي يملك عليهم أمورَهم، وهو إلههم ومعبودُهم، وقيل: المراد بالناس الأول: الأطفالُ، ومعنى الربوبية يدلُّ عليه، وبالثاني: الشبانُ، ولفظُ المَلِكِ المنبئِ عن السياسة يدلُّ عليه، وبالثالث: الشيوخُ، ولفظُ الإله المنبئِ عن العبادة يدلُّ عليه، وبالرابع: الصالحين؛ إذ الشيطان مُولَعٌ بإغوائهم، وبالخامس: المفسدين؛ لعطفِه على المَعُوْذِ منه.

«٤» ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو: اسمٌ بمعنى الوسوسة، كالزِّلزال بمعنى: الزلزلة، وأما المصدر.. فوِسواس بالكسر، كالزِّلزال، والمرادُ به: الشيطان؛ سُمِّيَ بالمصدر، كأنه وَسوسةٌ في نفسه؛ لأنها شُغله الذي هو عاكف عليه، أو: أريد: ذو الوَسواس، والوسوسةُ: الصوتُ الخفيُّ، ﴿ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾: الذي عادتُه أن يَخْنُسَ، منسوبٌ إلى الخُنوس، وهو: التأخرُ، كالعوّاج والبتّات[1]؛ لما روي عن سعيدِ بنِ جبير: إذا ذكر الإنسان ربَّه.. خنس الشيطانُ وولَّى، وإذا غَفَلَ.. رجع ووسوس إليه[2].

---

(١) العوّاج: نسبةٌ للعاج، وهو عظمُ الفيل، والبتّاتُ: نسبةٌ للبتِّ، وهو من أنواع الثياب.

(٢) روى الحاكم نحوَه في «المستدرك» (٢/ ٥٤١) من قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره البخاري (٦/ ١٨١) تعليقاً.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

《٥》 ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾: في محلِّ الجرِّ على الصفة، أو: الرفع، أو النصبِ على الشتم، وعلى هذين الوجهين يحسنُ الوقفُ على ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾.

《٦》 ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾: بيانٌ لـ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ على أن الشيطان ضربان: جِنِّيٌّ وإنسيٌّ، كما قال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وعن أبي ذر رضي الله عنه: أنه قال لرجل: هل تعوذتَ بالله من شياطين الإنس؟[(١)].

روي: أنه عليه السلام سُحر فمرض فجاءه ملكان وهو نائم فقال أحدُهما لصاحبه: ما بالُه؟ فقال: طُبَّ، قال: ومَن طَبَّهُ؟ قال: لبيدُ بنُ أعصمَ اليهوديُّ، قال: وبِمَ طبَّه؟ قال: بِمُشط ومُشاطة في جُفِّ طلعةٍ تحت راعُوفةٍ في بئرِ ذي أَرْوان[(٢)]، فانتبه ﷺ، فبعث زُبيراً وعليّاً وعماراً رضي الله عنهم فنزحُوا ماء البئر، وأخرجُوا الجُفَّ، فإذا فيه مُشاطةُ رأسِه، وأسنانٌ من مُشطِه، وإذا فيه وَتَرٌ مُعَقَّدٌ فيه إحدى عشرةَ عُقدةً مغروزةً بالإِبَرِ، فنزلت هاتان السورتان، فكلما قرأ جبريلُ آيةً.. انحلت عقدةٌ حتى قام ﷺ عند انحلال العقدة الأخيرة كأنما نَشِط من عِقال، وجعل جبريلُ يقول: بسم الله أرقيك، والله يشفيك من كل داء يؤذيك[(٣)].

ولهذا جُوِّزَ الاسترقاءُ بما كان من كتاب الله وكلام رسول عليه السلام، لا بما كان بالسريانية والعبرانية والهندية، فإنه لا يحلُّ اعتقادُه والاعتمادُ عليه.

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا، ومن شرِّ ما عملنا وما لم نعمل، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسولُه ونبيه وصفيه، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله مصابيحِ الأنام، وأصحابِه مفاتيح دار السلام، صلاةً دائمةً ما دامت الليالي والأيام.

---

(١) روى عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٨٤) عن قتادة قال: قام أبو ذر يصلي فقال له النبي ﷺ: «يا أبا ذرٍّ تعوذْ بالله من شيطان الإنس والجن».

(٢) الجُفُّ: وعاءُ الطلع، وهو الغِشاء الذي عليه، والطلعُ: ما يطلع من النخلة ثم يصير ثمراً إن كانت أنثى، والراعوفةُ: صخرةٌ تترك في أسفل البئر ليجلس عليها المُنَقِّيْ لها.

(٣) روى نحوه البخاري (٣٢٦٨) ومسلم (٢١٨٩) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها، وروى مسلم (٢١٨٦) حديثَ رُقيةِ سيدنا جبريل عن سيدنا أبي سعيد رضي الله عنه، وروى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٩٩) نزولَ السورتين وانحلالَ العُقد بقراءتهما عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

فهرس الموضوعات